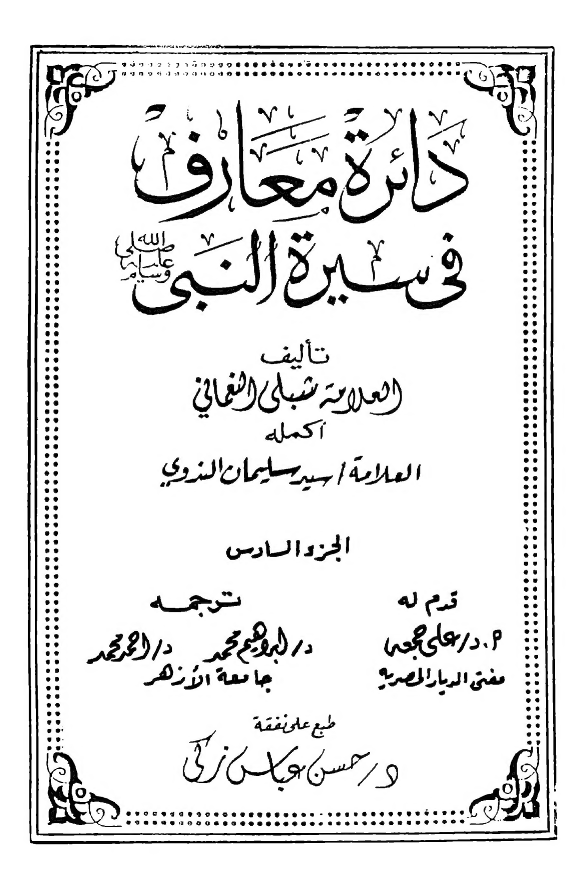


دائرة معارف

فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلى النعماني

أكمله

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء السادس

قدم له

أ.د/ علي جمعة

مفتي الديار المصرية

ترجمه

د/ إبراهيم محمد

د/ أحمد محمد

جامعة الأزهر

طبع على نفقة

د/ حسن عباس زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد

فهذه ترجمة الجزء السادس من كتاب"سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني،والعلامة سيد سليمان الندوي رحمة الله عليهما،وكنا قد قدمنا ترجمة الجزء الثالث قبل عدة أشهر،ويتحدث هذا الجزء عن الأخلاق في الإسلام،وتصور الإسلام لها،هذا التصور المتكامل الذي نفتقده في كل الأديان السماوية والديانات الوضعية المعروفة،وقد استطاع العلامة شبلي النعماني أن يبرز الصورة الصحيحة للأخلاق الإسلامية أمام القارئ مما يزرع بداخله حباً للدين الحنيف الذي جاء إلى الناس كافة،وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا وقد حرصنا في الترجمة على أن تكون بأسلوب ميسر واضح يمكّن القارئ العربي على اختلاف المستويات الثقافية والعلمية من استيعابه،إذ أن الكتاب في الأصل الأردي وخاصة في الجزء السادس منه والذي نقدمه إلى القارئ يتسم بأسلوب قد يميل في بعض الأحيان إلى الفلسفة بما يتناسب مع موضوع بحثه؛ أي الأخلاق.أما الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة فقد قمنا بتخريجها من أصولها العربية وإدراجها في هوامش الكتاب والإبقاء على نص الترجمة في المتن،وذلك حتى تتضح الصورة أمام القارئ.

كما حرصنا كل الحرص على أن تخرج الترجمة بالشكل الذي يتناسب مع مكانة الكتاب الدينية والعلمية،وبذلنا قصارى جهدنا لكي تكون فائدة ترجمة الكتاب أعم وأشمل واضعين نصب أعيننا أننا نتقرب بعملنا هذا إلى الله تعالى،ونجعل منه نبراساً يضيء طريق حبنا لله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم،فندعو الله أن يتغمد العالمين الجليلين بواسع رحمته،وأن يجعل هذه الترجمة في ميزان حسناتنا.

والله ولي التوفيق

المترجمان

د. إبراهيم محمد إبراهيم   د. أحمد محمد أحمد عبد الرحمن

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب والحكمة،والصلاة والسلام على رسوله نبي الرحمة،وعلى آله وأصحابه أولي العزم و الهمة .

يا متصف بكل الصفات ويحل اسمك عقدة كل أمر

نقدم اليوم أمام القراء الجزء السادس من سلسلة السيرة النبوية،وهو تفصيل وشرح لتلك التعاليم الأخلاقية التي بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وعلمهم إياها،ومن العجيب أن عامة الناس يعطون المكانة النظرية للتعاليم الأخلاقية درجة أقل من مكانتها العملية من حيث الأهمية وذلك في مجال التدليل على ضرورة الدين وإفادته،ولهذا حاولنا في هذه الصفحات أن نلقي الضوء بشكل مركز على كل زاوية من زوايا هذا الباب من أجل تفنيد هذا الوهم لدى عامة الناس،وإبراز الأهمية الصحيحة للأخلاق ودورها في حضارة ورقي الأمم،وأكدنا على أن التربية الأخلاقية الصحيحة جزء هام في بناء الملة.

وقد أشرنا في هذا الكتاب مرارا إلى قضية أن الأخلاق الحسنة بمثابة انعكاس لأسماء الله الحسنى،لكن علينا أن نتذكر دائما أنه لا يمكن لأي مخلوق أن يكون شريكا مساويا للخالق في أي صفة من الصفات،إذ أن الاعتقاد بهذا يعد شركا كاملا،وإنما الأمر هو أن اتصاف العبد بوصف يتناسب مع صفة من صفات الله تعالى يجعلنا نطلق عليه اسم هذه الصفة مجازا ليس إلا،وعلى سبيل المثال فإن مكانة وصف العلم لدى العبد أمام صفة العلم لدى الله تعالى لا تعادل قطرة ماء أمام بحر زخار،ومع ذلك فإننا نطلق على هذا الوصف لدى العبد اسم العلم جنبا إلى جنب مع صفة علم الله،في حين أن صفة العلم الحقيقية لدى الله تعالى وليست لدى العبد،لكن لأن الله تعالى بصفة العلم لديه يخلق في العبد شأنا كاشفا،ولهذا نطلق على هذا الشأن الكاشف البسيط هذا لدى العبد اسم(علم) أيضا([1])،وإلا فإن الحقيقة هي أنه لا نسبة بين الاثنين،وهذا الكلام ينطبق على التشارك الموجود بين باقي صفات الله تعالى وأوصاف العبد،ولهذا فإن هذا التشارك بين تلك

---

[1] -لمزيد من التفصيل انظر المعارف اللدنية لسيدنا"مجدد الألف الثاني" رحمة الله عليه،صـ٢٤، طبعة مدينة بجنور .

الأوصاف في نظر كثيرين من أهل الحق والمحققين ليس إلا اشتراكا في أدنى صوره،" ليس كمثله شيء و هو السميع العليم " (الشورى :٢) .

وقد عقدنا في ثنايا الكتاب موازنات بين الإسلام والأديان المختلفة،وذكرنا في هذا الخصوص أيضا تعاليم سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام،والمقصود منها هو تلك التعاليم والإرشادات الموجودة في الصحائف المنسوبة إليهما في أيامنا هذه،أو التي ينسبها إليهما متبعوهما،وإلا فمن الواضح أن كل تعاليم الأنبياء الصادقين لا تقبل الشك ومبرأة من كل ما يثير الاعتراض،وأن التعاليم الربانية التي نزلت في فترة ما من فترات النبوة كانت تناسب تلك الفترة تماما،إلى أن تم تكميل كل هذا تماما بخاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم.

كما وردت في أماكن متفرقة من هذا الجزء قضايا فقهية،ولأن الجانب الأخلاقي للأحكام هو الموضوع الأصلي للكتاب،لهذا لم نتعمق في التفاصيل والجزئيات الفقهية،فإذا كان هناك شك في أمر ما من هذه الأمور فإنه ينبغي الرجوع بشأن هذه التفاصيل والجزئيات إلى كتب الفقه .

هذا وقد جاء ترتيب الكتاب على النحو التالي،مقدمة في البداية،وفيها أبرزنا الأهمية الدينية للأخلاق،ثم حاولنا وضع فلسفة للأخلاق الإسلامية،وعددنا بعدها بعضا من خصائص طرق الدعوة لدى رسول الله صلى الله عليه و سلم ،ثم فصلنا الحديث عن التعاليم الأخلاقية للإسلام تحت عناوين مختلفة مثل الحقوق والفضائل والرذائل والآداب.

وقد وضع رفيقي في العمل مولانا"عبد السلام الندوي"بعض عناوين الفضائل والرذائل والآداب،وقد شملتها كلها في الكتاب مع بعض التعديل،وأنا أشكر فضيلته على عونه العلمي هذا.ولم يكن هناك مفر أمامي في الاستعانة بذوقي وفكري الخاص والاسترشاد بهما في مجال شرح المصالح والحكم واستنباط الأحكام من الآيات والأحاديث،والسهو والنسيان من فطرة الإنسان،فكيف أدعي أن فكري وذوقي كانا حرين في هذا المجال .إنني لم أر مؤسس سلسلة السيرة النبوية السيد الأستاذ العلامة"شبلي النعماني"رحمة الله عليه في المنام منذ فترة،لكني رأيته بعد ذلك حين أوشكت الأبواب الأخيرة في هذا الكتاب على الانتهاء،رأيت بعض الأجزاء ملقاة أمامه،وهو يطالع إحدى صفحاته ضاحكا(رحمة الله تعالى عليه).

أدعو الله تعالى أن يتقبل مني هذه الصفحات،وأن ينظر أبناء الملة الإسلامية في هذه المرآة المحمدية فيولدوا بداخلهم الرغبة في تزيين وتجميل صورتهم الأخلاقية وأن يعلموا أن إصلاح الأخلاق والعادات في ضوء الإسلام بمثابة علامة كبرى على صلاح الإيمان والعبادة .

طالب الرحمة

سيد سليمان ندوى

٤ من ذي الحجة ١٣٥٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و على آله و أصحابه أجمعين .

الباب الثالث من التعاليم النبوية .

الأخلاق

الباب الثالث من كتاب التعاليم النبوية بعد العقائد والعبادات هو الأخلاق،والمقصود بالأخلاق تلك التعاليم التي تتعلق بالحقوق والفرائض بين العباد بعضهم البعض،والتي يكون من المناسب لكل إنسان،بل ومن الضروري له أن يقوم بأدائها،فالإنسان حين يأتي إلى هذه الدنيا يتولد بينه وبين كل شيء نوع ما من العلاقة،والقيام بواجبات هذه العلاقة على أحسن وجه هو الأخلاق،فهناك علاقة مع الوالدين ومع الأهل والأولاد،ومع الأقارب والأصدقاء،ومع الأحباب والأعزاء،ليس هذا فقط،بل إن هناك علاقة له مع كل إنسان يمت له بعلاقة الحي أو الوطن أو القومية أو الجنسية أو أي نوع آخر من العلاقات،وأكثر من هذا أن له علاقات مع الحيوانات أيضا،وهذه العلاقات كلها تنشئ فروضا وواجبات عليه .

إن السعادة والرفاهية والأمن والأمان في الدنيا يتحقق بفضل ثروة هذه الأخلاق،ونقص هذه الثروة يجعل الحكومة والجماعة تستكملها بقانون قوتها وطاقتها،فإذا ما أدت الجماعة الإنسانية واجباتها الأخلاقية كاملة بدافع من نفسها لم تكن الحكومات في حاجة من الأصل إلى القوانين الجبرية.ولهذا فإن أفضل الأديان هو الذي يملك ضغطا أخلاقيا على متبعيه بحيث لا تضل خطاهم بعيدا عن الطريق القويم .

وقد حاولت الأديان كلها تقريبا القيام بهذا الأمر،وفعل الإسلام آخر أديان الدنيا كذلك أيضا،وسوف نقوم في الأبواب التالية بتحليل محاولات الإسلام هذه ونتناول تفصيلا ما قاله رسول الله صلى الله عليه و سلم في هذا الخصوص .

الإسلام و الأخلاق الحسنة

لا شك أن أديان العالم كلها مؤسسة على الأخلاق،ولهذا كانت تعاليم جميع الأنبياء الذين بعثوا في هذه الدنيا تؤكد على أن قول الصدق أمر حسن،والكذب أمر سيء،والعدل خير والظلم شر،والتصدق حسنة،والسرقة سيئة،وكانت بعثة "محمد" رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة التكميل في هذا الباب أيضا مثلما هي مكانتها أيضا فيما

يتعلق بباقي أبواب الدين.يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق" (موطأ الإمام مالك-باب حسن الأخلاق).وهذه هي رواية موطأ الإمام مالك،بينما نجدها في مسند أحمد والبيهقي وابن سعد وغيرهم([1])بألفاظ أكثر وضوحا وتعبيرا.يقول صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أداء هذا الفرض مع بداية بعثته النبوية.كان رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يزال في مكة حين أرسل أبو ذر رضي الله عنه أخاه إليها ليتحرى عن أحوال وتعاليم هذا النبي الجديد،ولما عاد أخو أبي ذر كان ما قاله لأخيه فيما يتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم كما يلي:"رأيته يأمر بمكارم الأخلاق"([2]).وحين استدعى النجاشي المسلمين إليه أيام هجرتهم إلى الحبشة،وسألهم عن الإسلام فكان مما قاله سيدنا جعفر الطيار في رده عليه هذه الفقرات: "أيها الملك،كنا قوما جهلاء،نعبد الأصنام،ونأكل الميتة،ونفعل الفاحشة،ونظلم الجار،ويظلم الأخ أخاه،ويأكل القوي الضعيف،ثم ولد فينا رجل علمنا أن نترك عبادة الأحجار،وأن نقول الصدق،وأن نرجع عن سفك الدماء،وأن لا نأكل مال اليتامى،وأن نهتم بالجار،ولا نقذف النساء العفيفات ظلما وعدوانا"([3]).

وهكذا في بلاط قيصر الروم حين قدم أبو سفيان(وكان لا يزال كافرا)صورة مختصرة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإصلاحية،فاعترف فيها أنه صلى الله عليه وسلم يعلم الناس بالإضافة إلى توحيد الله وعبادته"أن يتصفوا بالعفة،ويقولوا

---

[1] - كنز العمال-الجزء الثاني-ص ٥ طبعة حيدر آباد،والزرقاني بشرح الموطأ-الجزء الرابع - ص ٩٢ - مصر ١٢٨٠ هـ .حدثني عن مالك ، أنه قد بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت لأتمم حسن الأخلاق.

[2] - صحيح مسلم - مناقب أبي ذر - الجزء الثاني - ص ٣٤٩ - مصر.حدثني إبراهيم بن محمد بن عرعرة السامي ومحمد بن حاتم وتقاربا في سياق الحديث،واللفظ لابن حاتم قالا:حدثنا عبد الرحمن بن مهدي،حدثنا المثنى بن سعيد،عن أبي جمرة،عن ابن عباس،قال:لما بلغ أبا ذر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قال لأخيه:اركب إلى هذا الوادي.فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء،فاسمع من قوله ثم ائتني،فانطلق الآخر حتى قدم مكة،وسمع من قوله،ثم رجع إلى أبي ذر فقال:رأيته يأمر بمكارم الأخلاق،وكلاما ما هو بالشعر.

[3] - ابن حنبل - الجزء الأول - ص ٢٠٢ ، و مستدرك الحاكم - طبعة حيدر آباد - الجزء الثاني - ص ٣١٠ ، و ابن هشام - ذكر واقعة الهجرة .

الصدق،ويقرروا حق القرابة"[1].وقد جاء في أماكن متفرقة من القرآن الكريم مدحاً للنبي صلى الله عليه وسلم:

"ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة"(الجمعة:١) .

وقد جاء في هذه الآية لفظان يستحقان وقفة الأول هو الوصف بالطهر،وهو الذي أطلق عليه القرآن الكريم (تزكية)،والثاني (الحكمة).

١- التزكية:ومعناها اللغوي التطهير،التجميل وإزالة الأوساخ والأدران.وقد استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ بمعني تطهير النفس الإنسانية من كل أنواع النجاسات،وإزالة التلوثات عنها،بمعني إزالة الصدأ من علي مرآة النفس وخلق الصفاء والشفافية فيها،فجاء في سورة (الشمس):

"ونفس وما سواها،فألهمها فجورها وتقواها،قد أفلح من زكاها،وقد خاب من دساها" (الشمس) .

" قد أفلح من تزكى،وذكر اسم ربه فصلى" (الأعلى) .

"عبس وتولى،أن جاءه الأعمى،وما يدريك لعله يزكى،أو يذكر فتنفعه الذكرى" (عبس).

ويتضح لنا من الآيات السابقة ما هو مفهوم التزكية في القرآن الكريم وهو الوصف الذي جعله من خصوصيات نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم،ونعلم منها كذلك أن أعظم فرض في نبوة ورسالة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تصفية

[1] -صحيح البخاري-كتاب الوحي وكتاب الجهاد-١٢.حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال:أخبرنا شعيب عن الزهري قال:أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره،أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش،وكانوا تجارا بالشام،في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش،فأتوه وهم بإيلياء،فدعاهم في مجلسه،وحوله عظماء الروم،ثم دعاهم ودعى بترجمانه،فقال:أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟فقال أبو سفيان:فقلت أنا أقربهم نسبا،فقال:أدنوه مني،وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره،ثم قال لترجمانه:قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل،فإن كذبني فكذبوه.فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه.ثم كان أول ما سألني عنه أن قال:كيف نسبه فيكم؟قلت:هو فينا ذو نسب.قال:فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟قلت:لا.قال:فهل كان من آبائه من ملك؟قلت:لا.قال:فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟فقلت:بل ضعفاؤهم.قال:أيزيدون أم ينقصون؟قلت:بل يزيدون.قال:فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟قلت:لا.قال:فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟قلت:لا.قال:فهل يغدر؟قلت:لا،ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.قال:ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة.قال:فهل قاتلتموه؟قلت:نعم.قال:فكيف كان قتالكم إياه؟قلت:الحرب بيننا وبينه سجال،ينال منا وننال منه.قال:ماذا يأمركم؟قلت:يقول:إعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا،واتركوا ما يقول آباؤكم،ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ..

النفس الإنسانية وتطهيرها من العيوب والأدران والتلوثات ويجعل أخلاق الإنسان وأعماله أكثر صحة وصفاء وشفافية،وبالتالي يثبت من الأحداث التي ورد ذكرها سابقاً أن أصدقاءه وأعداءه صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون بخصوصيته هذه .

٢- الحكمة:واللفظ الثاني هو لفظ الحكمة,ورغم أن شرحا كاملا لهذا اللفظ قد مر بنا في الجزء الرابع,ولكننا نقول هنا بمناسبة السياق الذي معنا أنه إذا كان لفظ الحكمة في القرآن الكريم قد استخدم للدلالة على ذلك العلم والعرفان الذي أودع صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في شكل النور الإلهي,والذي تظهر آثاره وآياته على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في شكل مصالح وأسرار أحياناً,وفي شكل سنن وأحكام أحياناً أخرى,فإن هذا اللفظ قد استخدم في القرآن أيضا للدلالة على آثار ونتائج ذلك العلم والعرفان التي تمثل التعاليم الأخلاقية جزءا كبيرا منه,فقد جاء في القرآن الكريم مرتان الأمور التي تدخل في هذا المعني الثاني للحكمة,فجاء التأكيد في سورة (الإسراء)على التوحيد وطاعة وبر الوالدين,والنصح بمساعدة ذوي القربى والمحتاجين وترك الإسراف والتبذير والبخل وقتل الأولاد وفعل الفاحشة وقتل الأبرياء وظلم اليتامى,وبعدها جاء التأكيد على الوفاء بالعهد وعدم التطفيف في الوزن والكيل,وعدم التكبر والغرور,ثم قال الله بعد ذلك:

" ذلك مما أوحي إليك ربك من الحكمة " .

وقد قال في سورة (لقمان):" ولقد أتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله" .

ثم جاء بعد ذلك شرح لتلك الأمور من الحكمة والتي تقول"أن لا تشرك بالله,وأن تبر الوالدين,وتقيم الصلاة,وتأمر الناس بالمعروف,وتنهاهم عن المنكر,وأن تصبر على ما أصابك,وأن لا تغتر,وأن لا تتكبر,ولا تتحدث بصوت مرتفع"ويتبين من هذه الآيات أن القران الكريم قد أطلق لفظ(حكمة)على أمور الخير الفطرية تلك,والتي تسلم بها الأديان والشعوب جميعا على أنها من الفطرة,والتي يمكن أن نسميها بشكل آخر (الأخلاق).

ويعلم من هذا التفصيل أن مكانة الأخلاق في شريعة "محمد" صلى الله عليه وسلم هو أنها يعبر عنها بلفظ(الحكمة).كما يتضح من تصريح القرآن الكريم بأن الوحي المحمدي يشتمل على الكتاب والحكمة معا أن أهمية الأخلاق في نظر الإسلام لا تقل أبدا عن أهمية العبادات وباقي الأحكام,وقد صرح القرآن الكريم بهذا فقال :

"يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون"(الحج:).

وكأن الروح في جسد الدعوة المحمدية هي الإيمان وذراعيه هما العبادات والأخلاق،أي الخالق والمخلوق،والإسلام هو مجموع الاثنين معا .

أهمية حقوق العباد:

فإذا ألقينا نظرة أخرى علمنا أن التعاليم المحمدية قد زادت من أهمية الأخلاق أكثر من العبادات،فالأخلاق هي حقوق العباد،أي العلاقات والمعاملات التي تكون بين بني الإنسان،والعبادات هي حقوق الله،أي فروض الله،والله تعالى،الذي هو أرحم الراحمين،والذي لا يغلق أبواب رحمته أمام عبيده الخيرين والأشرار على السواء،يغفر بفضله ومشيئته كل ذنب ما عدا الشرك والكفر،بينما لم يجعل حق العفو عن التقصير في حقوق العباد-أي الفرائض الأخلاقية التي تكون بين بني الإنسان-في يده هو،وإنما جعله في أولئك العباد الذين حدث في حقهم التقصير والتعدي،وبديهي أن لا نتوقع من هؤلاء من الرحمة والكرم ما نتوقعه من ذات الله أرحم الراحمين،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"من كانت له عند أخيه مظلمة فليقتصها منه قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وإنما الأعمال فقط،فيؤخذ من حسنات الظالم ويعطي للمظلوم،فإن نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وكتب في صحيفة الظالم"[1]،وجاء في حديث آخر أنه"سيكون في صحيفة الأعمال ثلاثة أنواع من الذنوب،نوع لن يلتفت الله إليه،ونوع لن يترك الله منه حرفا،ونوع لن يغفر الله منه شيئا،فأما الذي لن يغفر الله منه شيئا فهو الشرك،وأما الذي لن يلتفت الله إليه فهو الظلم الذي أوقعه الإنسان على نفسه،ويكون أمره بينه و بين الله كأن لم يصم أو لم يصل،فالله تعالى يغفر له ويعفو عنه إن شاء،أما الذي لن يترك الله منه حرفا فهو الظلم الذي يوقعه العبد بالعبد"(مسند أحمد والحاكم عن عائشة رضي الله عنها)،ويعلم من هذا إلى أي مدى تكون خطورة الظلم والتعدي الذي يحدث في المعاملات الإنسانية[2]،ولهذا فإن الله تعالى لم يلزم الشخص بالحج طالما لم يكن لديه ما يكفي أهله وعياله،وفرض الزكاة في ذلك المال الذي يزيد عن حاجة الشخص،بمعنى

---

[1] -صحيح البخاري-كتاب الرقاق-باب القصاص يوم القيامة-ص-٩٦٧.حدثنا إسماعيل قال:حدثني مالك،عن سعيد المقبري،عن أبي هريرة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها،فإنه ليس ثم دينار ولا درهم،من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته،فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيآت أخيه فطرحت عليه) .

[2] -هذه مسألة من مسائل أصول الفقه-انظر الهداية-كتاب الحج-ص-٢١٣،إعداد مولانا المرحوم عبد الحي .

أن الله تعالى لم يفرض حقوقه على العبد طالما لم تكن لديه الاستطاعة على أداء حقوق العباد و الوفاء بها .

الأركان الخمسة للإسلام و الأخلاق:

بناءا على بعض الأحاديث التي تبين أن عمارة الإسلام قد أقيمت على أعمدة أربعة بعد الإيمان وهي الصلاة والحج والصيام والزكاة فإنه قد حدث بعض سوء الفهم فحواه أن الأخلاق الحسنة لم تجد لها مكانا في عمارة الإسلام،وزاد سوء الفهم هذا بما يقوله الوعاظ ناقصو الفهم،في حين أنه كما ذكرنا في بداية العبادات أنه من بين أهم أهداف العبادات هدف تكميل وتربية الأخلاق الحسنة لدى الإنسان،وقد ورد هذا اللفظ بشكل واضح في أماكن كثيرة في القرآن الكريم،فأخبر أن إحدى فوائد الصلاة أنها تنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي،وقال عن الصوم أنه يعلم التقوى،وأن الزكاة درس كامل للشفقة والمواساة والتعاطف،والحج كذلك يعد من طرق مختلفة وسيلة لإصلاح وتحسين أخلاقنا،كما أنه وسيلة لمساعدة أنفسنا والآخرين كذلك .

ويتضح من هذا التفصيل أنه مهما كانت أسماء الأركان الأربعة في الإسلام مختلفة عن بعضها البعض إلا أن سر التعليم الأخلاقي مضمر في مقاصدها الأساسية،فإن لم تظهر من تلك العبادات هذه الثمرة الروحانية والأخلاقية فاعلم أنها مجرد تنفيذ حرفي للأحكام الإلهية،وأنها تخلو من أي جوهر أو معنى للعبادات،إنها شجرة لا ثمار لها،وورود لا رائحة فيها،وقالب لا روح فيه،وقد شرح السادة المتصوفة في تأليفهم كل الإشارات القرآنية و النبوية الواردة في هذا الباب ، فيكتب الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين) :

"يقول الله تعالى أن أقيموا الصلاة لذكري،وقال لا تكونوا من الساهين،وقال لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون،وكم من المصلين الذين لا يعلمون ما يقولون حال صلاتهم وإن لم يكونوا سكارى،ولقد قال صلى الله عليه وسلم إن من يصلي ركعتين لا ينشغل باله فيهما بأمور الدنيا فإن الله يغفر ذنوبه،ثم قال أن الصلاة تواضع وخشوع ورقة وحياء،وأن اعقدوا أيديكم وقولوا "يا الله"،ومن لم يولد ذلك بداخله فكأن صلاته ناقصة،وجاء في الكتب السابقة أن الله تعالي يقول:"أنا لا أقبل كل صلاة،إنما أقبل صلاة من تواضع بها لعظمتي،ولم يتكبر بها على خلقي ويطعم المحتاج لأجلي"وقال صلى الله عليه و سلم : فرضت الصلاة،وجعلت أركان الحج لكي يذكر الله"،فإن لم تتولد

هذه الكيفية في القلب فلا قيمة للذكر الإلهي،وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإن مثل هذه الصلاة تبعده عن الله"([1]).

وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين المحدثين هذا الحديث الأخير بسند،وجمع الحافظ ابن كثير كل هذه الروايات في تفسيره(سورة العنكبوت)،وفي رواية أخري لهذا الحديث أن:"من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"([2])،وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصيام بمثل هذه الألفاظ أيضا فقال"إن من لم يترك الكذب والخداع وهو صائم فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه"([3]).ويتضح من هذه التعاليم أن أهم أهداف العبادات هو تزكية الأخلاق

الأخلاق الحسنة و الإيمان:

والأمر المقدم على هذا أيضا أن الإيمان وإن كان أصل أصول الدين،لكن بناء على أنه يكون في القلب ولا يعرفه أحد،وأن كل شخص يستطيع أن يقر بالدين بلسانه ظاهريا،لهذا كانت علامات الإيمان هي نتائجه وآثاره،أي الأخلاق الحسنة،وهكذا جاء في سورة(المؤمنون)ذكر الأخلاق الحسنة كصفة ضرورية من صفات أهل الإيمان والتي يتوقف عليها فلاحهم جنبا إلى جنب مع العبادات،فقال تعالى:

"قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون،والذين هم عن اللغو معرضون،والذين هم للزكاة فاعلون،والذين هم لفروجهم حافظون،إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين،فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون،والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون،والذين هم على صلواتهم يحافظون"(المؤمنون:١-٩).

فجاء في الآيات أن الصفات التي نتج عنها فلاح أهل الإيمان احتلت صفات الوقار والإعراض عن اللغو والكرم(الزكاة)والعفة والوفاء بالعهد مكانة خاصة بينها .

[1] - الجزء الأول – باب فضيلة الخشوع .

[2] تفسير ابن كثير – سورة العنكبوت – الآية المذكورة – ص ١٢ .

[3] صحيح البخاري وجامع الترمذي وأبو داود وابن ماجه–كتاب الصوم–١٢.حدثنا آدم بن أبي إياس:حدثنا ابن أبي ذئب:حدثنا سعيد المقبري،عن أبيه،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من لم يدع قول الزور والعمل به،فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) .

الأخلاق الحسنة و التقوى:

إن اسم تلك الكيفية القلبية للإنسان والتي تعد محركا لكل أنواع الخير لديه هـــو (التقوى) في اصطلاح القرآن،وقد صرح الوحي المحمدي أن أهل التقوى هـــم الذيــن يتصفون بالصفات التالية :

"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب،ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابــن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصـــلاة وآتـــى الزكـــاة والموفـــون بعـــهدهم إذا عاهدوا،والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هـــم المتقون" (البقرة : ٢٢) .

ويظهر من هذا أنه كما أن الإيمان هو النتيجة الأولى للاستقامة والتقوى فـــإن نتيجتها الحتمية الثانية هي أحسن الصفات الأخلاقية مثل السخاء والوفاء بالعهد والصبر والثبات وغيرها .

الأخلاق الحسنة و شرف العبودية لله:

لقد جاء في التعليم الطاهر لمحمد رسول الله صلى الله عليه و سلم أن عبـــاد الله الصالحين المقبولين هم الذين يتصفون بالأخلاق الحسنة،وهذه الأمور هي نفسها علامـــة قبولهم عند الله تعالى،ولهذا جاء في سورة (الفرقان):

"وعباد الرحمن الذين يمشون علـــى الأرض هونـــا،وإذا خاطبـــهم الجـــاهلون قـــالوا سلاما،والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما،والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما،إنها ساءت مستقرا ومقامـــا،والذيـــن إذا أنفقـــوا لـــم يســـرفوا ولـــم يقتروا،وكان بين ذلك قواما والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفـــس التـــي حرم الله إلا بالحق،ولا يزنون،ومن يفعل ذلك يلق آثاما،والذين لا يشهدون الـــزور وإذا مروا باللغو مروا كراما،والذين إذا ذكروا بآيـــات ربـــهم لـــم يخـــروا عليـــها صمـــا وعميانا،والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنـــا للمتقيـــن إماما"(الفرقان:٦٠).

انظر كم من المظاهر الأخلاقية كـــامن في حقيقة الإيمان مثل العفو والتســـامح والاعتدال وعدم القتل وعدم سفك الدماء وعدم الاشتراك في المكر والخداع وغيرها.

الصفات الأخلاقية لأهل الإيمان:

لقد جاء وصف أولئك العباد المقبولين الذين يحبهم الله تعالى على لسان"محمد"رسول الله صلى الله عليه و سلم كالتالي :

"وعلى ربهم يتوكلون،والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش،وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون،والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون،وجزاء سيئة سيئة مثلها،فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين،ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل،إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم،ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور"(الشورى:٤٠).

"أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين"(آل عمران:١٤).

" أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون،وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين" (القصص : ٦) .

"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" (الإنسان : ٨) .

والشرح الذي قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الآيات وغيرها في نفس الموضوع محفوظ في الأحاديث الشريفة،ونحن هنا ندرج تلك الأحاديث تحت عناوين مختلفة حتى تتبين لنا أهمية ومقام درس الأخلاق في المنهج التعليمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

درجة الأخلاق الحسنة في الإسلام :

وتظهر الأهمية التي أولاها الإسلام للأخلاق من الأدعية التي كان يدعو بها رسول الله صلى الله عليه و سلم في الصلاة،وهذا اقتباس منها :

"واهدني لأحسن الأخلاق،ولا يهدي لأحسنها إلا أنت،واصرف عني سيئاتها،ولا يصرف عني سيئاتها إلا أنت" (مسلم – باب الدعاء في الصلاة) .

وتتضح أهمية هذه الألفاظ من أن الشيء الذي يطلبه النبي صلى الله عليه وسلم في أحسن أوقات القرب والاستجابة في الحضرة الإلهية هو حسن الأخلاق.وليس في

الإسلام أعظم من الإيمان،لكن تكميل هذا الإيمان يكون بالأخلاق،يقول صلى الله عليه وسلم :

"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا" .

وقد جاء هذا الحديث عند الترمذي وابن حنبل وأبي داود والحاكم وابن حبان،ويعلم منه أن الشيء الذي جعل معيارا لكمال الإيمان في الإسلام هو الأخلاق الحسنة،فهذه هي الثمرة التي تعرف بها شجرة الإيمان .

وأهمية الصلاة و الصيام في الإسلام ظاهرة واضحة،ومع ذلك فإن الأخلاق الحسنة تقوم مقامهما في بعض الأحيان،يقول صلى الله عليه وسلم :

"أن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصوام النهار" .

وقد جاء هذا الحديث مع بعض التغيير في ألفاظه بألفاظ مترادفة عند أبي داود وابن حنبل والحاكم وابن حبان والطبراني،ويظهر منه أن الدرجة التي ينالها الشخص من قيامه الليل بطوله في صلاة النوافل،وجوع وعطش النهار بطوله في صيام التطوع يمكن أن يحصل عليها من حسن الخلق،وكثرة العبادات تزيد من مكانة حسن الخلاق بشكل أو بآخر .

إن الأخلاق في الإسلام هي المعيار الذي يتبين من خلاله الفرق بين رتبة الناس ومقامهم فيما بينهم،يقول صلى الله عليه وسلم :

"خياركم أحاسنكم أخلاقا" (البخاري – كتاب الأدب) .

وقال في حديث آخر:"ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق،فإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة" .وقد جاء هذا الحديث بلفظه هذا في الترمذي،بينما جاء مختصرا في كتب الأحاديث الأخرى (الحاكم،وابن حبان،وابن حنبل،وأبي داوود)،فجاءت الفقرة الأولى منه فقط،يعني"ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق"،وقد أوضح هذا الحديث النبوي بشكل تام أنه لا شيء أثقل في ميزان الإسلام من حسن الخلق،وجاء في حديث آخر أن أفضل ما أعطى العبد من الله تعالى هو حسن الخلق:"خير ما أعطى الناس خلق حسن".

وجاء هذا الحديث بألفاظ مختلفة عند الحاكم و النسائي وابن حنبل و الطبراني وابن أبي شيبة،وقد جعلت هذه البشارة الأخلاق الحسنة أعظم النعم على الإنسان،وفي

حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحب عباد الله إلى الله أحسنهم أخلاقــا" (الطبراني) .

ويعلم منه أن حسن الخلق وسيلة حب الله والحقيقة أن هذه هــي وسـيلة حـب الرسول صلى الله عليه و سلم أيضا ويقول صلى الله عليه و سلم :

"إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجلسا أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة أساوئكم أخلاقا" .

كانت هنالك زوجتان صحابيتان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إحداهمـا تصلي الليل بطوله وتصوم النهار بطوله وتتصدق لكنها كانت تؤذي جيرانـــها كثـيرا بسلاطة لسانها، أما الثانية فكانت تصلي الفرض فقط وتتصدق علـــى الفقــراء ببعـض الملابس لكنها لم تكن تؤذي أحدا وسئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عـــن هـاتين الاثنتين فقال صلى الله عليه وسلم عن الأولي إنها" ليست فيها خيــر وأنها تعاقب بسبب سوء خلقها" وقــال عن الثانية أنها "من أهل الجنة"[1] والنتائج التي اتضحت مــن سـيرة هاتين الزوجتين على لسان نبي الإسلام صلى الله عليه وســلم توضــح تمامــا مكانــة الأخلاق في الإسلام .

يقول سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه جاء بدوي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له علمني شيئا يدخلني الجنة فقال صلى الله عليه وسلم خلص الإنســان من العبودية واعتق رقبة الإنسان من قيد الدين وكف أيدي القريب الظالم فإن لم تسـتطع هذا فــأطعم الجائع واسق العطشان وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تستطع هـذا **أيضا فأمسك لسانك إلا عن خير" أنظر إلى مدي الأهمية التي يوليها هذا الحديث للعظمة الأخلاقية .**

<u>أوصاف الإيمان و لوازمه:</u>

وبالإضافة إلى الحديث السابق فإن هناك أحاديث كثيرة قال فيـــها رســول الله صلى الله عليه وسلم أن صفات كذا وأخلاق كذا من لوازم وخصائص الإيمان وبقدر مــا

---

[1] أدب المفرد-الإمام البخاري-باب من لا يؤذي جاره.حدثنا مسدد قال:حدثنا عبد الواحد قــال:حدثنــا الأعمـش قال:حدثنا أبو يحيى مولى جعدة بن هبيرة قال:سمعت أبا هريرة يقول:قيل للنبي:يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصــوم النهار ،وتفعل وتصدق،وتؤذي جيرانها بلسانها؟فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا خــير فيــها،هــي مــن أهــل النار .قالوا:وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار ولا تؤذي أحدا،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:هي من أهل الجنه

يكون في هذه اللوازم والخصائص من زيادة ونقصان بقدر ما يكون في أصل الإيمان من زيادة ونقصان أيضا،بمعني أن أخلاقنا الظاهرية هذه هي معيار ومقياس حالتنا الإيمانية من الداخل،والإيمان بداخل قلوبنا كالمصباح بداخل منازلنا يمكن لنا أن نعرف مدي نوره وضيائه من الداخل عن طريق الأشعة التي تخرج منه ظاهرا،قال صلى الله عليه وسلم :

١- الإيمان بضع وسبعون شعبة،والحياء شعبة من الإيمان .

٢- الإيمان شعب كثيرة أعظمها التوحيد وأدناها إماطة الأذى عن الطريق .

٣- من كانت فيه ثلاثة أمور وجد حلاوة الإيمان،من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه،ومن يحب لا يحب إلا الله،ومن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى به في النار .

٤- من كانت فيه ثلاثة أمور وجد حلاوة الإيمان أن لا يجادل في الحق،وأن لا يكذب أبدا،وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه .

٥- ثلاثة أمور هي جزء من الإيمان،التصدق في فقر،وإشاعة الأمن والسلام في الدنيا،وقول الحق ولو على نفسه .

٦- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

٧- المسلم من سلم الناس من لسانه ويده،والمؤمن من يثق الناس فيه حتى يضمنونه بأموالهم وأنفسهم.

٨- جاء شخص إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه و سلم إطعام الطعام (إطعام الجائع)،وإفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف .

٩- سأل شخص يا رسول الله ما الإسلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم القول الطيب وإطعام الطعام،ثم سأل:وما الإيمان؟فقال صلى الله عليه وسلم :الصبر وإبداء المروءة الأخلاقية.

١٠- المؤمن الذي يألف الناس،ولا خير فيمن يألف الناس ولا يألفونه .

١١- ليس المؤمن باللعان ولا بالسباب ولا الفاحش في القول .

١٢- المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسبه،وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه،ومن فك عن أخيه كربة من كرب الدنيا فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

١٣- المؤمن من يراه الناس أمينا،والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده،والمهاجر من هجر السوء،والذي نفس محمد بيده لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقة .

١٤- من كان مؤمنا فليكرم ضيفه .

١٥- آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف،وإذا ائتمن خان ([1]) .

وعلينا أن نتمعن في كل حديث من الأحاديث السابقة لنرى إلى أي مدى يرتفع ويسمو التصور الأخلاقي للإيمان و الإسلام .

<u>الأخلاق الحسنة ظل الصفات الإلهية:</u>

لكن الإسلام قدم تصورا آخر أرفع للأخلاق الحسنة،وهو أن الأخلاق الحسنة في الحقيقة بمثابة ظل الصفات الإلهية،وأدنى مظهر من مظاهر صفاته المطلقة،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسن الخلق خلق الله الأعظم " (الطبراني) .

ونحن نستحسن تلك الأخلاق التي تعكس الصفات الربانية ونستقبح تلك الأخلاق التي تنافي الصفات الإلهية،وغني عن البيان أن هناك بعض الصفات الخاصة بالله تعالى فقط،ولا يمكن تصورها في الآخرين مثل صفة إنه الواحد الخالق،وغيرهما من الصفات التي لا تليق إلا بالله تعالى مثل الكبرياء والعظمة،وعظمة هذه الصفات في العبد أن تتولد فيه عكس هذه الصفات،فيتولد بداخله التواضع والتذلل في مقابل كبرياء الله تعالى،والخضوع والعجز أمام عظمة الله.المهم أن الإسلام جعل الأخلاق معيارا للتكميل الروحي للإنسان لأنها سبب في فيوض الأنوار الإلهية،وكلما ارتقينا في هذه الفيوض كلما استمرت سلسلة رقينا الروحي،وهذا هو الهدف الأخير لرحلة حياتنا الروحية،وليس هناك تصور للأخلاق أرفع من هذا التصور .

---

[1] - هذه الأحاديث كلها موجودة في باب الإيمان من كتب الأحاديث المعتبرة والموثوق بها،وقد نقلناها من كتاب مجمع الفوائد وكنز العمال–الجزء الأول–كتاب الإيمان،وهناك أحاديث كثيرة في كتاب كنز العمال،لكننا فضلنا اختيار الأحاديث المعتبرة والموثوق بها .

تميز النبي صلى الله عليه وسلم بين معلمي الأخلاق

لقد عاش في هذا العالم معلمون كبار جلست الأمم الكبرى في مدارسهم مجلس التلامذة من الأستاذ،وتعلمت منهم دروس الآداب والأخلاق التي لا تزال تذكرها حتى الآن رغم مرور مئات وآلاف السنين،والحق أنه حينما نلمح نموذجا للأخلاق الحسنة فإنه يكون مجرد ورقة في صحائف هؤلاء التعليمية،ولكن النظرية النقدية تدلنا على العلاقة التي تربط أساتذة الأخلاق هؤلاء،وما هي الأسس التي بنيت عليها مناهجهم التعليمية.ومن بين هؤلاء جميعا يتفوق " محمد " صلى الله عليه وسلم الأستاذ الأخير في مدرسة هذا العالم .

لقد كانت هناك جماعتان من معلمي الخلاق قبل النبي صلى الله عليه وسلم،واحدة هي تلك التي أسست تعاليمها على دين أخروي مثل الأنبياء عليهم السلام وبعض مؤسسي الأديان.أما الثانية فهي التي أقامت عمارتها على أسس من فلسفتها وحكمتها وتفكيرها،ونستطيع أن نطلق على الجماعة الأولى الأنبياء والمصلحين،وعلى الثانية الحكماء،وكان لكل جماعة من هاتين الجماعتين أسلوب وطريق مختلف في تبليغ تعاليمهم،فجعل الأنبياء ومؤسسو الأديان الأحكام الإلهية منبعا لتعاليمهم،وليس لتعاليمهم أساس غير أحكام وأوامر الله تعالى،ولا نجد في تعاليمهم هذه سلسلة العلة والمعلول،ولا حلولا للدقائق الأخلاقية،بل وليس هناك تصريح بالحكمة العقلية أو المصلحة الأخلاقية لأحكامهم وتعاليمهم،أما الفريق الثاني فنجد لديه البحث في العلة والمعلول،وفي الخصائص النفسية وتعيين الغاية والهدف الأخلاقي،وتحديد القوى العملية،كل هذا نجده لديه في تعاليمه،لكن درجة العمل لديهم بعيدا عن البحث والنظر لا تزيد على صفر،وإن وجد فلا طعم له،أما تعاليم المعلم الأخير للدنيا فنجد فيها امتزاجا بين أحكام الله تعالى وبين البحث العقلي،بين الأوامر الإلهية والنكات الأخلاقية،بين الأوامر الربانية وحكم الفطرة،بين الكتاب وبين الحكمة .

والفارق الرئيسي بين الأنبياء والحكماء أننا نجد تأثيرهم الطاهر وأعمالهم العظيمة وحياتهم الطيبة جنبا إلى جنب مع تعاليمهم الأخلاقية،وهذا كله يمنح الخير والبركة لكل من ورد حوضهم،ويطفئ ظمأ العطاشى،بينما نجد حياة أعظم الحكماء ومعلمي الأخلاق الذين أدهشوا العالم بأحاديثهم عن الأخلاق وفهمهم العميق لها،ونقبوا في كل عواطف الإنسان الداخلية،وفي قوته الباطنية،وفي أخلاقه الفطرية،نجد حياته من

الناحية العملية لا تزيد كثيرا عن حياة رجل سوقي،فهو وإن كان يري الآخرين الضياء،لكنه هو نفسه لا يخرج من الظلام،ويدعي أنه يرشد الآخرين لكنه ضال في طريق العمل،ويعرف كل سر من أسرار طلاسم الحب والرحمة،لكنه لا يعرف الرحمة بالفقراء ولا محبة الأعداء،إنه يستطيع أن يلقي خطبة عن الصدق والإستقامة،لكنه هو نفسه غير صادق وغير مستقيم،ويكون نتيجة ذلك ألا يرتسم أي أثر لصوت فمه على صفحة قلب أحد،وإنما يضيع هذا الصوت مع أمواج الهواء،وذلك لأنه مجرد ذهن ولسان فقط،وليس قلبا ويدا،أما الأنبياء عليهم السلام فلأنهم يفعلون ما يقولون،وتعاليمهم هي نفسها أعمالهم،وما في قلوبهم هو الذي على ألسنتهم لهذا فإن فيوض تعاليمهم وصحبتهم تصير عطرا وتنتشر حولها وتعطر جلساءها،وهذا هو الفارق الواضح بين الأنبياء كموسي وعيسي ومحمد عليهم الصلاة والسلام وسقراط وأفلاطون وأرسطو إذ لم يستطع شخص واحد أن يصبح صاحب أخلاق بقراءة مكالمات سقراط وأفلاطون وأخلاقيات أرسطو،بينما على الجانب الأخر نجد أمما كاملة تطوي أرفع مدارج الأخلاق بتعليم وتبليغ موسي وعيسي ومحمد عليهم الصلاة والسلام ،واليوم حيث نلمح شعاعا للأخلاق الحسنة على الكرة الأرضية نعلم تماما أنه يخرج من أحد مطالع أنوار نبوة من النبوات .

لكن الأنبياء جميعا ليسوا متساوون في هذا الوصف،وإنما تكون لهم مقامات مختلفة،إذ من الضروري أن تظهر كل حركة وسكنة منهم في شكل عمل جنبا إلي جنب مع كونهم كاملين من الناحية العملية،وذلك حتى يتأثر بهم الرفاق والصحاب كل حسب مقدرته واستعداده ويبقي هذا كله محفوظا في أوراق الروايات حتى يصير للقادمين من بعده بمثابة المرشد الذي يحذون حذوه في طريقهم إلي الهدف المنشود.المهم أنه لا بد من توفر الأمور التالية فيمن يكون المعلم الأخير الكامل المكمل :

١-أن لا يكون أي جانب من جوانب حياته في طي الخفاء .

٢-أن يقدم المثال العملي الذي يتطابق مع كل تعاليمه الشفوية (القولية).

٣-أن تتسم حياته الأخلاقية بالجامعية بحيث يملك بداخله كل المقومات التي تجعل كل الجماعات الإنسانية تقبل على اتباعه و تقليده .

الحياة الواضحة:

فإذا ما قسنا حياة الأنبياء ومؤسسي المذاهب جميعا علي المعايير السابقة لعرفنا أن حياة أحد منهم لا تملك بداخلها تلك الكمالات الجامعة بما يتساوى مع حياة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ,وليس هناك نبي أو مؤسس دين في العالم نجد كل جانب من جوانب حياته واضحا جليا كأنه يعيش بيننا,فمن من أنبياء التوراة نعلم شيئا عن كمالاته الأخلاقية,ولا فائدة من التعرض لتلك القصص غير الأخلاقية عن أولئك العلماء العظماء الطاهرين والتي أدخلها الرواة إلي حياتهم المذكورة في التوراة,وبرأهم القران الكريم من كل تلك الاتهامات السخيفة في أماكن متعددة منه,ولنلق نظرة على كل الأنبياء المذكورين في التوراة من سيدنا نوح إلى سيدنا موسي عليهما السلام,لنري كم من السطور كتبت عن حياتهم,وهل أعطت صورة كاملة لسيرتهم وصورتهم الأخلاقية .

إننا نعرف عن ثلاثة أعوام فقط من الأعوام الثلاثة والثلاثين هي كل حياة سيدنا عيسي عليه السلام,وحتى هذه السنوات الثلاث لا نعرف عنها سوي ما حدث فيها من خوارق ومعجزات فقط,فهل تستطيع في مثل هذا الواقع أن نقول بأنه لا يوجد جانب من جوانب حياتهم في طي الخفاء ! .

وإذا أردت تحليل الحياة الأخلاقية لمؤسسي الأديان في الهند وإيران والصين علاوة على الأنبياء السابقين فستعرف أنه لا يوجد عنها شيء في هذا العالم,إذ أن كل جوانب حياتهم الأخلاقية في طيات المجهول,إنه معلم الإسلام فقط والذي تعرف الدنيا كلها حياته بتفاصيلها وتحفظها,وقد قال(باسورث اسميث):"وهنا(في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم نجد ضوء النهار كله,تظهر فيه كل جوانب حياة محمد صلى الله عليه وسلم واضحة كوضح النهار"([1]),والنبي صلى الله عليه وسلم نفسه قال:أربطوا بين كل عمل وقول لي,ويستطيع العارفون بالسر أن يعلنوا على الملأ ما رأوني أفعله في خلوتي,ويصعدوا فوق أسطح المنازل ويعلنوا بصوت مرتفع ما سمعوني أقوله في حجرتي,ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

---

[1]- كتاب السيرة المحمدية للسيد باسورث سميث ص١٠٨ .

العمل (الفعل) مع القول:

والآن تمعن في الأمر بشكل آخر فإن عظمة تعاليم تلك الشخصيات المقدسة,ومميزات أحكامهم الأخلاقية,وتميز نصائحهم ومواعظهم لا ينكرها أحد,فهل تعرف الدنيا شيئا من الناحية العملية عن أخلاق أولئك العظماء.إن الأحاديث البرئة الطاهرة لواعظ جبل الزيتون المؤثر(سيدنا عيسى عليه السلام),ونصائحه بالاستقامة والصدق,وخطبه الممتلئة بالمحسنات اللفظية والبديعية,والتشبيهات الجذابة,كل قد سمعتها الدنيا,ولا تزال حلاوة فصاحتها في أذنها وعلى لسانها,ولكن هل رأت عيون الدنيا أمثلة عملية لهذا الواعظ الطاهر؟!,وهل هناك أي جانب أخلاقي ايجابي أمامنا علاوة على هذا الجانب السلبي؟اذلك الذي قال:"لن تدخلوا في ملكوت السماء ما لم تنفقوا كل ما تملكون في سبيل الله"[1],هل ضحى هو بكل ما يملك في سبيل الله؟.ذلك الذي قال:"لا تحاربوا الأشرار"ألم يحارب هو نفسه الأشرار؟!,وذلك الذي قال:"أحبوا الأعداء",هل أحب هو ذات مرة عدوا؟!,وذلك الذي قال:"أحب جارك أكثر من نفسك ومالك",هل كان عمله هو أيضا كذلك؟,وذلك الذي قال:"إن لطمكم أحد على الخد الأيمن فأديروا له الخد الأيسر",هل فعل هو أيضا كذلك؟,وذلك الذي قال:"إن سألكم أحد قميصكم فأعطوه عباءتكم أيضا",هل ظهر منه أيضا مثل هذا الكرم ؟, ونحن لا نقول بأن هذه الصفات لم تكن موجودة في سيدنا المسيح,وإنما نقول بأن الإنجيل لم يحفظ لنا شيئا في هذا الخصوص .

لكن عظمة شأن المعلم الأخلاقي للإسلام صلى الله عليه وسلم أرفع من هذا أيضا,لأنه فعل مثلما قال تماما,كان قوله هو عمله,ولقد عاب علي اليهود"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " (البقرة : ٥) .

ونبه المسلمين:"لم تقولون ما لا تفعلون,كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"(الكهف) .

جاء شخص إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وسألها ماذا كانت أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ؟فقالت:ألم تقرأ القرآن,كان خلقه القران,إن ما جاء في القران في شكل ألفاظ تمثل عمليا في سيرة حامل هذا القران,فإذا أمر بمساعدة الفقراء والمساكين كان أول من أدي هذا الفرض,فظل هو جائعا وأطعم الآخرين,وإذا نصح

---

[1] الإنجيل .

بالعفو عن الأعداء والقتلة عفا هو أولا عن الأعداء والقتلة,وصفح عن الذين وضعوا له السم في الطعام,ولم ينتقم من أحد من أجل نفسه,فلم يرفع سلاحه على أولئك الذين أمطروه صلى الله عليه وسلم بسهامهم ورفعوا عليه سيوفهم,وخلع رداءه وأعطاه لمن سأله إياه رغم حاجته الملحة للملبس عندئذ,وقد مرت هذه الأحداث تفصيلا في المجلد الثاني من كتاب السيرة النبوية.المهم هذا هو السبب في أن متبعي الأديان الأخرى يقدمون على الناس تعاليم قادتهم وزعمائهم ويدعونهم إلى إتباعها,بينما لا يقدم المسلمين أقوال نبيهم صلى الله عليه وسلم ونصائحه فقط,وإنما يقدمون أعماله أيضا,ويدعون إلى إتباعها.ولم تتحدي صحيفة نبي أو مؤسس دين في العالم المعاصرين بأخلاق هذا النبي وهذا المؤسس,بينما قدمت صحيفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الجميع حياة النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاقية أمام معاصريه بغير خوف أو تردد متحدية من يستطيع نقدها أو التعليق عليها.قال تعالي:"فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون"(يونس : ٢) .

ثم خاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:"وإنك لعلي خلق عظيم"(القلم:).

الكامل المكمل :

وهناك شرط أخر يجب توفره في معلم الأخلاق وهو أن يكون في تعليمه تأثير يمكن الآخرين من الاستفادة من فيوضاته,بمعني أن يكون كاملا,ويكمل الآخرين الناقصين أيضا,أن يكون طاهرا,ويطهر المدنسين,ولنلق نظرة على قائمة الأنبياء جميعا لتري فيمن تتوفر عظمة التكميل هذه؟,هل في ذلك الذي دفعته قسوة بني إسرائيل واعوجاجهم الخلقي الدائم إلى الشكوى؟هل في ذلك الذي لم ينجده تلاميذه الأحد عشر عند الشدة،أم في ذلك الذي قالت عنه صحيفة وحيه مرارا:"يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة "

وفي هذا الإعلان والتحدي أمر خاص تنبغي ملاحظته أنه لم يتضمن الادعاء فيما يتعلق بمعلم الإسلام من أنه يعلم الناس الكتاب وأمور الحكمة ويتلوا عليهم أحكام الله فقط،وإنما يجعلهم هم أيضا طاهرين أنقياء بفيضه وأثره،إنه يكمل الناقصين ويحيل المذنبين إلى صالحين،وينير أبصار العميان،كما ينير القلوب المظلمة،وهكذا استفاد من فيضه صلى الله عليه و سلم عمليا حتى وفاته ما لا يقل عن مائه ألف إنسان,ووصل

العرب الذين كانوا على أدنى نقطة من الناحية الأخلاقية إلى أوج الكمال الأخلاقي,ذلك الذي لم تستطع النجوم أن تلامسه حتى اليوم .

تنوع التعليم الأخلاقي :

فإذا كان في المعلم تأثير هذا التكميل كان علينا أن نري أيضا أن تكميل هذا العالم وتنظيمه وإصلاح شأنه لا يحتاج إلى قوة إنسانية واحدة,وإنما يحتاج إلى مئات القوى الإنسانية المختلفة,وبنظرة على مدارس معلمي الأخلاق الآخرين نعرف أنها كانت توفر لطلاب العلم فيها فرعا واحدا من العلم,فلم نجد في مدرسة سيدنا موسي عليه السلام درسا متميزا سوى التعليم العسكري,ولم نجد في مكتب سيدنا عيسي عليه السلام درسا متميزا سوى درس العفو والصفح,ولم نجد في خانقاهات ومعابد بوذا سوى الزهد والتجوال تسولا,لكن انظر إلى المدرسة العظمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فستعرف أنها جامعة عامة,يتواصل فيها الرقي الإنساني دائما,بل إن معلمها في ذاته جامعة كاملة,يتوفر بداخلها كل فروع العلوم والفنون,ويأتي إليها الطلاب من مشارب مختلفة ويحصلون الكمالات كل حسب رغبته واستعداده ومقدرته .

إن مكانة النبي صلى الله عليه و سلم هي مكانة الإنسان,والأب والزوج والصديق وصاحب البيت والتاجر والضابط والحاكم والقاضي والقائد والملك والأستاذ والواعظ والمرشد والزاهد والعابد والنبي الآخر,ولهذا تأتيه الطبقات المختلفة من البشر وتجلس منه مجلس التلميذ من الأستاذ,ويستفيدون من تعاليمه صلى الله عليه وسلم حسب تخصصاتهم وتفريعاتهم. انظر إلى هذه المدرسة العظمى لمدينة النبي صلى الله عليه وسلم بتمعن,والتي صنعت أسقفها من سعف النخيل,وأعمدتها من جذوع النخيل,والتي تسمي(المسجد النبوي)ستجد في كل ركن من أركانه جماعات إنسانية متنوعة,ففي ركن منه حكام مثل أبي بكر وعثمان وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين يطلبون العلم,وفي ركن آخر طلحة والزبير ومعاوية وسعد بن الزبير من أصحاب الفكر والرأي,وفي ركن آخر خالد وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص من القادة,وفي ركن آخر أولئك الذين صاروا فيما بعد حكاما للولايات وقضاة للمحاكم,ومشرعي القوانين,وفي ركن آخر اجتمع أولئك الزهاد والعباد الذين كانوا يمضون نهارهم في الصيام,وليلهم في الصلاة,وفي ركن آخر أبو ذر وسليمان وأبو داود من الزهاد الذين كانوا يسمون بمسيحي الإسلام,وفي مكان آخر طلاب العلم أصحاب الصفة الذين كانوا يجمعون

الحطب ويبيعونه ويعيشون على ما يدره عليهم،ويقضون أيامهم منـــهمكين فـــي طلـــب العلم،وفي ركن آخر سيدنا علي والسيدة عائشة وسيدنا ابن عباس وسيدنا ابـــن مســـعود وسيدنا زيد بن ثابت من الفقهاء والمحدثين الذين كانوا يقومـــون علـــى خدمـــة العلـــم ونشره،وفي مكان آخر جمع من العبيد،وفي مكان آخر جمع من السادة،وفي مكـــان مـــا مجلس للفقراء،وفي مكان آخر مجلس الأثرياء،لكن لا تلمح بينهم أي فرق مـــن حيـــث الاحترام والتوقير،كلهم متساوون كفراشات تحوم حول شمعة واحدة،الجميع تسكره نشوة التوحيد وتثور في أعماقه أمواج حب الحق،والجميع منهمكون فـــي محاولاتـــهم لكـــي يصيروا انعكاسا لمرآة الأخلاق والأعمال القدسية (1) .

فلسفة الأخلاق في الإسلام

يمكننا أن نخوض قليلا بين أشواك فلســـفة الأخـــلاق لنشـــرح تلـــك المبـــادئ ونفصلها،فالأخلاق موجودة تأكيدا منذ أن بدأت حياة الإنسان وظهرت أعمالـــه الذهنيـــة والجسمانية،لكن التعرف على حقيقة هذه الأعمال والبحث عن أسبابها وعللها وتحقيـــق مبادئها وقوانينها وتحديد غرضها وهدفها بدأ في عهد اليونـــانيين،ثم تمت إعادة النظـــر في النظريات الفلسفية القديمة في ظل علم النفـــس فـــي عـــهدنا الحـــاضر،وظـــهرت الاختلافـــات المستمرة بين الفلاسفة منذ بدأوا في البحث عن تلـــك العلـــل والأســـباب والمبادئ والقوانين والغرض والهدف،وظهرت عدة نظريات كنتيجة لإجابة كل سؤال،ثم انتهت تلك النظريات وهكذا،كما ظهرت فرق جديدة،ومدارس فلسفية جديدة أيضا،وأصبح لكل منها مسمى مختلف،ومع ذلك فإن أردنا جمعها معا لوجدنا أن كل هذه المذاهب مـــا هـــي إلا شـــرح لمســـلكين قديميـــن يطلـــق عليـــهما فـــي الاصطـــلاح اليوناني(الرواقية)و(اللذتية)وفي الاصطلاح المعاصر يطلق على الأول(الضميرية)وعلى الثاني(الإفادية)ويمكن أن نطلق عليها بشكل آخر أن الفريـــق الأول يؤســـس الأخـــلاق على(العواطف)،بينما يؤسسها الثاني على(العقل)،وبناء على هذا الاختلاف في الأصـــل من حيث الاصطلاح ظهرت فرق أخرى كثيرة،وقرر أرسطو ومتبعوه أن مبنى الأخلاق تكميل للنفس .

وهناك اختلافات لا تحصى فيما يتعلق بمصـــادر وأصـــل وحقيقـــة القوانيـــن الأخلاقية،فقد أسست الفرق المختلفة لعلماء الأخلاق نظريات خاصة بهم بعضها يؤكـــد

1- يجب الإطلاع في هذا الخصوص على الخطب الستة التي ألقيتها في مدراس .

على قانون السلطة،والبعض الآخر على قانون الفطرة،والبعض الآخر على صوت الحاسة الأخلاقية،والبعض الآخر على قانون الضمير،والبعض الآخر على الوجدانية،والبعض الآخر في النهاية على العقل،ومع ذلك فإن الحقيقة هي أنها قسمان اثنان فقط،وهما إما أن تكون قوانين الأخلاق مأخوذة من وحي وإلهام،وإما أن تكون مأخوذة من مصدر خارجي،وقد أراد الذين لا يؤمنون بالوحي أن يجعلوا لتلك القوانين مصدرا خارجيا ما،ثم بحث أحدهم عن هذا المصدر الخارجي في داخل الإنسان نفسه،وبحث عنه الآخر خارجه،فأما من بحثوا عنه داخل الإنسان فقد قرروا جميعا مع اختلاف الذوق بأن المصدر هو أصل فطرة الإنسان،والحاسة الأخلاقية الخاصة بداخله،ووجدانه والضمير بداخله وفي النهاية عقل الإنسان نفسه،أما الذين بحثوا عنه خارج الإنسان فقد قرروا أن المصدر هو حكم سيد القبيلة والسلطان وأعراف المجتمعات،لكن السؤال هو ماذا تكون المبادئ التي أسست عليها أعراف المجتمعات وأحكام السلطان وسيد القبيلة،ولهذا لا يكون هناك مفر من التخلي عن هذا المصدر الخارجي،والاتجاه إلى مصدر داخلي،وإلا فإننا سنقرر أن هذه المبادئ الأخلاقية مصطنعة ومتكلفة بدلا من أن تكون فطرية طبيعية،وهو ما لا يمكن قبوله ضمن أمهات القضايا الأخلاقية .

على أية حال لا يوجد دين في العالم يجعل مصدر الأخلاق شيئا آخر غير أحكام الله،لكن الإسلام مع ذلك يقول أن الله تعالى أنزل أحكامه تلك في ألفاظ الوحي وأودعها في فطرة عباده،حتى ما إذا صمتت الفطرة لسبب من الأسباب أيقظها صوت الأحكام الإلهية ونبهها،فإذا ما أمعنا النظر على الناحية العملية للفلسفة بعيدا عن دقائقها ونظرياتها لعرفنا أن هذه النظريات ليست متناقضة فيما بينها بقدر ما هي مختلفة فيما بينها بحيث لا يمكن جمعها معا،وإنما من الممكن أن يكون مصدر أخلاقنا أحكام الله تعالى،ومعها المصادر المؤيدة والدافعة مثل الضمير والفطرة والوجدان والعقل،وبالتالي نجد مساحة من الاتفاق في اختلافات مقاييس الأخلاق،ومن الممكن أيضا أن يقوم الإنسان بعمل ما بدافع من صوت ضميره أو إصرار فطرته،ودون أن تكون له مصلحة شخصية معينة،أو أن يعتبر هذا العمل فرضا عليه فيؤديه،أو يراعي أن لهذا العمل فائدة في مصلحة عامة،وهو وسيلة للتكميل الروحاني أيضا،ويمكن أن تجتمع كل هذه الأمور معا في الفلسفة الأخلاقية للإسلام .

لنفترض أن مساعدة المظلوم أمر من الله،ووديعة بداخل فطرتنا أيضا،فالضمير لدينا يطالب بها،والوجدان بداخلنا يستحسنه مثلما أنه مضطر إلى اليقين على جمال الشيء الجميل،وبالإضافة إلى هذا فإن لهذا العمل فوائد ومصالح عامة أيضا،ونحن نشعر بسببه بالرضا الداخلي أيضا،والعقل كذلك يقول نفس الشيء،لكن مما لا شك فيه أن هناك بعض المواقع التي تكون فيها أحكام الله وأوامره،وضمائرنا وفطرتنا وعواطفنا ووجداننا تسير في جانب واحد،بينما تسير مصالحنا الشخصية وأنانيتنا الذاتية في جانب آخر،ولهذا فإن هذا العقل الذي يريد أن يسير عكس أوامر مجموع قوانا كلها يستحق الإصلاح .

وعلى أية حال فإن الإسلام يكون بذلك الصوت الذي هو بداخل الإنسان جنبا إلى جنب مع أحكام الله،سواء أطلقنا على هذا الصوت الفطرة أو الوجدان أو حاسة الأخلاق أو الضمير،فهو لا يبحث في هذه الاختلافات الفلسفية،وبالرغم من ذلك يعتبرها مبنية على العقل والمصلحة والفائدة.وتفصيل ذلك هو أن هناك أمرا ثابت بالبديهة وهو أن أكثر المبادئ الأخلاقية لدى الإنسان تتفق عليها قوى العالم كله وبغير حاجة إلى دليل رغم اختلاف المناخ.والإقليم واللغة والدين والعادات والتقاليد وأسلوب الحكم وغيرها من مئات الاختلافات الأخرى،ولهذا علينا أن نعترف أن هذا الحس الأخلاقي وديعة بداخلنا بالفطرة،تماما مثلما أن قوانا وحواسنا الأخرى وديعة فينا،والمحاولة إذن هي مثلما أنه بداخلنا حواس بأسماء مختلفة هي الحس البصري والحس السمعي والحس اللمسي وغيرها لتناسب المرئيات والمسموعات والملموسات فإن بداخلنا أيضا حاسة أخلاقية خاصة من أجل التمييز الأخلاقي،ومن خلالها نستطيع التمييز بين الحسن الأخلاقي والسوء الأخلاقي،أو أن يكون بداخلنا وجدان أخلاقي نشعر بهذه الأمور من خلاله مثلما نشعر بوجداننا بالحسن والقبيح،أو أن يكون بداخلنا صوت روحاني يذكرنا في الوقت الصحيح بفرائضنا،ويخبرنا بأن هذا الأمر حسن أو سيء،هذه المحاولة كلها ليست ذات قيمة من الناحية العملية .

ورغم أن التعاليم المحمدية قد أشارت إلى هذه المبادئ الأخلاقية بالتفصيل أحيانا وبالإجمال أحيانا أخرى،لكنها لم تنس أن تؤكد أن جمال الأخلاق ليس في علمها وفلسفتها وإنما في العمل بها،ولذا فإنه ليس للعلم بلا عمل قيمة في نظرها،ولا تحبذ

كذلك العمل بلا علم،ولهذا فقد أشارت إلى تلك المبادئ لكنها لم تعط للبحث فيها أي أهمية تذكر .

لقد جعل الإسلام قمة الأخلاق أن تؤدي هذه الأخلاق على اعتبار أنها أوامر الله وأنها وديعة بداخلنا مثلما هو الحال مع أحكام وأوامر الله الفطرية الأخرى فكيف يكون ضميرنا ووجداننا وحاستنا الأخلاقية وعقلنا طبقا لهذه الأوامر الإلهية أصلا ومصدرا،أو حتى واحدا منها،فبقدر ما يكون بينها جميعا من توافق وتطابق بقدر ما تسمو كمالات الإنسانية الروحانية،وبقدر ما يكون من نقص فيها بقدر ما يكون من نقص في هذه الكمالات .

إننا نساعد مسافرا أو نطبب مريضا على اعتبار أنها أمر من الله ويجب أن يكون صوت ضمير من ينفذ هذه الأخلاق على هذا النحو وكذا وجدانه،إنه يشعر بسعادة روحية بداخله عندما يطبق الأخلاق على أنها فرض عليه،ويعتقد أن في إتباعه فائدة كبرى للكثيرين من بني الإنسان.المهم أنه بقدر ما يكون بين قواه هذه كلها من توافق وتطابق في هذه الخصائص بقدر ما تسمو كمالاته الروحية،وبقدر ما يكون في هذا التوافق والتطابق من نقص بقدر ما يحدث من نقص في هذه الكمالات،ومهما أدينا من أعمال على اعتبار أنها من أوامر الله،لكن إحساسنا الداخلي وضميرنا لا يعتبرها كذلك،وعقلنا يعرض علينا طريقا مخالفا له فإن معنى ذلك بوضوح أن يقيننا على أنها من أوامر الله لم ينضج بعد وبمعنى أخر فإن هذا نقص في إيماننا وكمالنا الروحي،وبنفس الطريقة فمهما قام شخص بعمل طيب بدافع من ضميره،أو وجدانه فقط،أو باعتباره فرضا فقط،أو بغرض الشعور بالسعادة فقط،أو باعتبار عمومية فائدته فقط،ولم يقم وزنا لاعتبار أن هذا العمل من أوامر الله،فإن هذا العمل في نظر الإسلام ليس وسيلة للثواب أو لتزكية النفس .

التنزه عن الأغراض و المصالح:

ولأن الأخلاق في الإسلام تعد عبادة كباقي الأشياء الأخرى،لذلك يجب أن تكون أغراضها وأهدافها منزهة عن الأغراض والمصالح الدنيوية والذاتية والشخصية،فإن لم يكن كذلك فليس في مثل هذه الأعمال ثواب أو خير وتفقد مكانتها باعتبارها عبادة،ولننظر إلى الأعمال الدنيوية بعيدا عن الأعمال الدينية وستعرف أنه بقدر ما يكون في أعمالنا من إخلاص بقدر ما تكون هذه الأعمال قيمة،على سبيل المثال مهما قدمنا

من واجب إلى ضيفنا،ومهما وضعنا أمامه من مختلف أنواع النعم،لكن إن عرف هـذا الضيف أن هناك مصلحة شخصية وراء كرم الضيافة هذا،أو إنها بدافع الرياء والتظاهر والنفاق فإن ضيافتنا والواجب الذي نقوم به والاحترام والتكريم الذي نظهره له لن يكون لأي منها قدر في نظره،بينما لو قدمنا له خبزا وملحا ونحن مخلصون له لا نبغي مـن وراء ضيافتنا مصلحة شخصية فإن هذا الذي قدمناه سوف يلقى عظيم التقدير لديه،فـإذا كانت هذه هي آثار الإخلاص وعدم الإخلاص فيما يتعلق بالأعمال الدنيوية فكيف تكون هذه الآثار في عالم الروحانيات إذن .

النية :

ولهذا جعل الرسول صلى الله عليه وسلم في تعاليمه النية،أي الإرادة القلبية لدى الإنسان وأهدافه وغاياته الداخلية هي الأساس في كـل عمـل سـيء و حسـن علـى السواء،بل إن الحقيقة هي أن لا يكون العمل باعتبار القيمة الروحانية ومن حيث نتيجتـه سيئا أو طيبا بقدر ما يكون باعتبار النية الداخلية وحالة القلب عندها،ويمكن أن نوضـح هذه الحقيقة بمثالين؛دعا رجل رجلا آخر عند الليل وبإصرار شديد لأنه على يقين مـن أن قطاع الطرق سيقتلونه أو سيأذونه بشدة،وبالصدفة ضل هذا الرجل طريقه في الظلام وسلك طريقا آخر عثر فيه على كيس من الدنانير،فبالرغم من أن نتيجة هذا السفر لـهذا الرجل طيبة،إلا أنه لا شك في سوء نية ذلك الرجل الذي استدعاه،ولا يمكن أن نقول أنه أحسن إليه عندما استدعاه عند الليل،لكن شخصا يدعو شخصا بنية الإحسان إليـه عنـد الليل لكنه صدفة يسقط أثناء سفره في حفرة أو بئر ويموت فإن الشخص الذي دعاه ليس مذنبا،مع أن نتيجة هذا السفر كانت سيئة بالنسبة للضيف،لكن نية من دعاه لم تكن سـيئة مثلما هو الحال مع الشخص الأول في المثال .

ومثال آخر،لنفترض أن في جيبي حافظة نقود،وبالصدفة سقطت هذه الحافظـة مني في الطريق،وعندما عدت مـن طريقـي عـثرت علـى حافظـة نقـود ملقـاة أمامي،فالتقطتها وخبأتها ظنا مني أنها تخص شخصا آخر،ورغم أنني باعتبار الواقعـة نفسها لم أرتكب جرما،لكني أسأت باعتبار نيتي،لكن افترض أنني عثرت على حافظـة نقود كهذه في واقعة أخرى،والتقطتها على اعتبار أنها لي،فبالرغم من اختـلاف الأمـر تماما،لكني لم ألوث ذيلي بسوء،فلو أن رجلا يسير في طريق،وبدت له امرأة منقبة فمـد يده عليها باعتبار أنها أجنبية وليست من أهله،وإن كانت زوجته في الحقيقة(ولم يعرفـها

بداية)،أو أنه مد يده على امرأة أجنبية معتقدا أنها امرأته بينما لم تكن كذلك،ففي الحالة الأولى أذنب قلبه،وهو في الثانية لا ذنب له،وهل هناك عمل أطيب من الصلاة،لكن إن أداها أحد تفاخرا وتظاهرا ورياء فإنها تكون سببا في عذابه بدلا من أن تكون سببا في رحمته،وبنفس الطريقة إن ساعدت معوقا ليمدحك الناس فعملك هذا ليس طيبا في نظر الإسلام،ولقد جاء في سورة(آل عمران)قوله تعالى :

"ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها،ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها "(آل عمران:١٥) .

وجاء صراحة في آية أخرى أن العمل الذي يهدف إلى التظاهر فقط فإنه ليس سوى سراب يقول تعالى:"يأيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر"(البقرة:٣٦) .

وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى،وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختصرة لكنها جامعة ومانعة يقول صلى الله عليه وسلم :"إنما الأعمال بالنيات"(صحيح البخاري – الباب الأول) .

وزاد الأمر صراحة بقوله:"ولكل امرئ ما نوى،فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

المهم أن مدار العمل من سوء وحسن على النية،ولهذا تحتل مكانة خاصة في بحث الأخلاق ، فإن لم تتوفر النية الحسنة فإن العمل الأخلاقي مهما كان كبيرا يخرج عن دائرة حسن الخلق والمدح والثناء الدنيوي،ويصير محروما من الثواب والخير والبركة الروحية .

<u>تأييد فلسفة الأخلاق:</u>

هذا هو أساس التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم والذي تؤيده الفلسفة الحديثة للأخلاق،ولهذا يقول(جون إس ميكنزي)في الباب السادس من كتابه الأول(مجلة الأخلاق):"إن الشيء الذي يحكم عليه يكون واضحا،أي فعلا إراديا مثلما عرفنا من قبل،وهذا هو الشيء الذي تتناوله الأخلاقيات بالبحث من أوله إلى آخره،ويكون عمله كله هو الإخبار بالجهة الصحيحة للإرادة والأحكام الأخلاقية التي نضعها نحن تتعلق هي الأخرى بالإرادة،وليس للفعل الذي لا تدخله الإرادة أية مكانة أخلاقية".

ثم ضرب(ميكنزي)لذلك بعض الأمثلة ونقل بعدها رأي(كينت):ولهذا فإننا نضطر إلى تصديق الادعاء المعروف والمشهور والذي بدأ به(كينت)كتابه في الأخلاقيات،فهو يقول:"فليس في العالم كله،بل ولا في خارج العالم أيضا شيء يمكن أن نطلق عليه وصف الحسن بلا قيد ولا شرط سوى الإرادة الحسنة " ([1]) .

الإيمان شرط للأخلاق:

أما وقد ظهر أن أساس الأخلاق كلها على الإرادة والنية،أي على عمل القلب،فإنه يكون من الضروري إذا لإصلاح أحوال القلب الداخلية أن نعتقد أن هناك ذات تتطلع على كل ركن في قلوبنا،وسواء كنا في ملأ أو بمفردنا،في الظلام أم في النور،لكن هناك ذات ترى بعينها أعماق للقلب وخباياه،إن قوى العالم كله تحكم الجسم فقط،لكن هناك صاحب قوة معين هو الذي يحكم القلب،ثم إنه من الضروري الاعتقاد أيضا بأننا سنسأل أمام هذه الذات عن كل أعمالنا،وإنه سيأتي يوم سنجازى ونعاقب،وطالما لم تترسخ هاتان الفكرتان في الذهن فإنه يكون من المحال وجود أعمال حسنة بإرادة حسنة،ولهذا جعل الوحي المحمدي الإيمان بالله والإيمان بيوم القيامة أساس كل عمل طيب،وبدونه يصبح كل عمل مجرد رياء وتظاهر،قال تعالى :

"يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الأخر " (البقرة : ٣٦) .

وهذا هو الإيمان الصحيح الذي يخلق حسن النية،وهو منبع ماء الحياة الذي لا تمثل أعمالنا في غيابه سوى سراب لا حقيقة له:"والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا " (النور : ٥) .

وهذا هو المشعل الذي يضيء سواد وظلام حياتنا،وفي غيابه لا نري حولنا سوى الظلام،ولا نعرف هدفا لأي عمل من أعمالنا:"أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب،ظلمات بعضها فوق بعض،إذا أخرج يده لم يكد يراها،ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور " (النور : ٥) .

وطالما لم نكن على يقين من وجود ذات تعلم أسرار الغيب وتعرف الأسرار،وتقف على كل حركة وسكنة في القلب،وأننا سنسأل وسنؤاخذ على

---

[1] -علم الأخلاق-الكتاب الأول-الباب السادس-ترجمة البروفيسور عبد الباري الندوي-طبعة الجامعة العثمانية عام ١٢٤١هـ .

أعمالنا،فـإنه لا يمكن أن يتولد الإخلاص في قلوبنا،أو تتنزه نفوسنا عــن الأغـراض الدنيوية،ولا يمكن أن توجد أخلاق رفيعة منزهة عن الأغراض .

الغرض و الغايــة:

ولهذا لم يكن العمل في ذاته هو المطلوب في شريعة محمد صــلى الله عليـه وسلم الكاملة وإنما المطلوب هو العمل ذو الغاية والغرض الصحيح،فإذا كان العمل قالبا وجسدا فإن الغرض والغاية الصحيحة هي الروح فيهما،فإذا لم يكن في الجسد روح فما فائدته،لقد صدق علماء الأخلاق حين قالوا إن فعلا من أفعال الإنسان لا يخلو من غرض أو غاية،ولكن ما هي هذه الغاية وما هو هذا الغرض؟لم يستطيعوا الاتفاق عليـه حتـى اليوم،فظهرت عشرات النظريات منذ عهد سقراط وأفلاطون وأرسـطو وحتـى يومنـا هذا،ومع ذلك فلم يتضح هذا السر حتى الآن .

والإسلام لا يبحث في ماهية غرض وغاية الأخلاق،وإنما يبحث فيما ينبغـي أن يكون غرض وغاية الأخلاق،والحقيقة أنه قد تكون لأعمالنا أغراض متعددة عليا ودنيـا وشريفة ودنيئة،فنحن عندما نرفع عن كهل أحماله في الطريق،ونوصله إلى بيتـه فـي راحة فإن هدفنا من وراء هذا العمل قد يكون هو أن هذا الشيخ عندما يصل إلى البيـت سيسعد،ويعطينا أجرنا وينعم علينا،وهدف آخر وهو أن يمدحنا الناس عندما يروننا نفعل هذا،وربما أعطونا أصواتهم في الانتخابات إذا تقدمنا إلى منصب عام،وهدف آخر وهـو أن يعتقد الناس الذين يروننا نفعل هذا أننا طيبون ومتقون،وغرض آخر أيضا هو أننـا عندما نساعد هذا الكهل في شبابنا فإنـه سـيأتي مـن الشـباب مـن يسـاعدنا في شيخوختنا،وبعض الناس تسعد بفطرتها عندما تقوم بهذا العمل،ولـهذا يقومـون بمثلـه ليشعروا بالسعادة،وهناك بعض الناس الذين يشفقون علـى الكـهل وهـو فـي هـذه الحال،فيتـأثرون بذلك ويساعدونه،المهم أن العمل واحد،ولكن اختلاف أغراضه وغاياته يمكن أن يرجع إلى اختلاف الأشخاص واختلاف دوافعهم،لكن عندما تمعن النظر ثانيـة في القائمة السابقة ستعرف أن هذه الأغراض والغايات كلها تتدرج مـن الأدنـى إلـى الأعلى،وبالقدر الذي يتنزه فيه الغرض والغاية عن الأغراض و الغايات الذاتية للفـاعل بالقدر الذي يصير هذا الغرض ساميا رفيعا،فالقيام بعمل طيب في مقابل عوض مالي أو جسماني وإن كان غرضا دنيئا إلا أنه أرفع من ذي قبل،ثم إن إشباع الرغبة الفطريـة بتحقيق السعادة الروحية أرفع مما سبق،وبرغم هذا فلا يـزال في الأمر منفعة شخصية

وحب للدنيا،ومن الأمور الفطرية أنه عندما يتعامل إنسان مع إنسان آخر بأحسن ما يكون التعامل،ولكن يتبين له أن وراء هذا التعامل الحسن غرضا شخصيا معينا فإن قيمة هذا التعامل الحسن ستتراجع في نظره،ويفقد كل أثر له .

والأكثر من هذا أن المتدينين يجعلون من طلب الجنة غرضا وغاية لأعمالهم،والحقيقة أنه بالرغم من عدم وجود الدنيا في الموضوع،لكن هناك غرضا شخصيا فيما يتعلق بالدنيا الأخرى،ولهذا فإن هذا الغرض بالرغم من سموه ورفعته إلا أنه لا يزال متدنيا،وبالتالي فمن الضروري أن نتذكر أنه على الرغم من أنه قد جاء في التعاليم المحمدية أن الجنة نتيجة حتمية للعمل الصالح الذي يقوم به المؤمن لكنها لم تجعل منها هدفا وغاية للعمل الصالح،حتى عبر عن هذا الأمر شاعر مسلم يشرب الخمر فقال:طالما لم يبق في الطاعة خمر ولا عسل فليلق أحد بالجنة في النار إذا .

صوت الضمير:

بمعنى ذلك الإحساس الحي لحالة الإنسان النفسية والذي يميز الإنسان من خلاله بين الخير والشر،وبسببه ينهض بداخل قلبه صوت يدعوه إلى العمل الصالح.إن كل إنسان يتأثر بالفطرة عندما يرى شخصا فقيرا مسكينا ويعطف عليه،وينفر بالفطرة كذلك من القتلة والظالمين وهذه الإمكانية الفطرية للقلب موجودة في ضمير كل إنسان،ويأتيه من أعماق قلبه صوت يمدحه عندما يقوم بعمل صالح،ويذمه عندما يقوم بعمل سيء،لكن هذا الصوت يتوارى ويختفي أثره بضغط من الصحبة السيئة أو التربية السيئة أو بسبب عاطفة أخرى أقوى وأشد،وهذا هو السبب في خوف الإنسان عندما يشرع في عمل شيء،فترتعد فرائصه،ويشعر بأذى ذهني شديد من مجرد تخيله لنفسه وهو يفعل الذنب،وأحيانا يغرق في بحر الندم،ويندى جبينه خجلا من مجرد ذكره،لكنه عندما يكتم صوت ضميره مرارا فإنه يصمت فعلا،ويتحطم كأس خجله وندمه من هذه الصدمة.

فمن أين نتجت هذه الآثار إذا،والإجابة على هذا في ضوء مبادئ الأخلاق في الإسلام أنها نتائج الإلهيات الفطرية التي أودعها الله تعالي في كل إنسان ليميز بين الخير والشر.يقول القرآن الكريم:"فألهمها فجورها وتقواها"(الشمس).

تلك العاطفة التي تسمي الضمير والتي تنبهنا كلما أقبلنا على عمل سيء تسمي في الاصطلاح المحمدي(النفس اللوامة)،وهي موجودة بداخل قلوبنا،جاء في سورة(القيامة):

"ولا أقسم بالنفس اللوامة" (القيامة : ١) .
ثم قال تعالي:"بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقي معاذيره" .

لقد ظل نواس بن سمعان الأنصاري عاما كاملا ينتظر في المدينة أن يفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الذنب والعمل الصالح,وفي النهاية سنحت له الفرصة ذات يوم فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم,فأجابه صلى الله عليه وسلم:الخير هو حسن الأخلاق,والذنب ما حاك في القلب ولم تحب أن يطلع عليه أحد,وبنفس الطريقة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يدعى"وابصه بن معبد"رضي الله عنه بغرض سؤاله عن الذنب والعمل الصالح,وكان فدائيوه صلى الله عليه و سلم يحيطون به من كل جانب,فكان وابصه يبعدهم ليصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يمنعونه,لكنه ظل يتقدم ولما رآه صلى الله عليه وسلم قال:اقترب يا وابصه,وحين جلس وابصه بالقرب منه صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم:يا وابصه هل أخبرك لماذا جئت هنا؟أو تخبرني أنت,فقال وابصه:أخبرني أنت يا رسول الله,فقال صلى الله عليه و سلم:لقد جئت تسألني عن حقيقة الذنب والعمل الصالح,فقال وابصه:صدقت يا رسول الله,فقال صلى الله عليه وسلم:يا وابصه استفت قلبك واستفت نفسك,البر ما أطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس,الإثم ما حاك في القلب وتردد في النفس وإن أفتاك الناس ([1]) .

هذه هي تلك الحاسة الأخلاقية التي سماها الناس صوت الضمير,وفي البداية عندما يقول الشخص شيئا يخالف صوت ضميره فإن نقطة سوداء تنقط على قلبه النقي الصافي,ورغم أن هذه النقطة السوداء تمحى عندما يعود الشخص إلى رشده ويستغفر الله ويتوب إليه ويندم على ما فعل,لكنه لو ظل يكرر نفس الذنب فإن هذه النقطة تزداد وتتسع حتى تسود القلب كله وتحرمه من كل إحساس وهذا هو ما عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله:"إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء,فإذا هو نزع و استغفر وتاب صقل قلبه,وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه" .

---

[1] سنن الترمذي جزء(١١)كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلي الله عليه وسلم حدثنا قتيبة.حدثنا الليث عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء،فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه،وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله"كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" .

ثم قال بعدها وهذا هو صدأ القلب الذي ورد في قوله تعالي:"كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " (المطففين : ١) .

وفي مثال منه صلى الله عليه وسلم قال:أن هناك طريقا مستقيما يقود إلى الهدف المنشود,وعلى جانبي الطريق جداران يقفان,وفيهما بابان,لكن عليهما ستائر,وعلى أحد طرفي الطريق صوت ينادي أن أمش على الطريق المستقيم,ولا تلتفت هنا وهناك,وحين يريد عبد من العابرين أن يرفع الستائر عن باب من البابين يناديه من فوقه من يقول:احذر,لا ترفع الستار,لأنك إن رفعتها دخلت الباب,ثم قال صلى الله عليه وسلم هذا الطريق هو الإسلام,وهذه الأبواب هي حرمات الله,والستائر حدوده والذي ينادي على أول الطريق هو القرآن,والذي ينادي من فوق هو واعظ الله في قلب كل مؤمن ".وهل هناك من استطاع أن يشرح الضمير الأخلاقي أفضل من هذا .

المسرة و الانبساط :

إن السعادة التي يشعر بها من يفعل البر,والألم الذي يشعر به من يفعل السوء هو ما يرغبه لعمل الخير ويحثه على البعد عن السوء.ورغم أن هذا ليس صحيحا بتمامه لكنه صحيح إلى حد أن الذي يفعل الخير يشعر فعلا بالسعادة وانشراح الصدر,ويشعر بانقباضه وبالحزن من فعل السوء,لكن هذا ليس هو المحرك للخير والشر,ولا يجب أن تكون هي غاية وغرض أعمالنا إذ أن هذا أنانية مادية أيضا,وإنما هذه هي النتائج الطبيعية والفطرية للخير والشر,إننا نسعد بلا شك حين نساعد الفقير المسكين,لكن هذه السعادة نتيجة طبيعية وحتمية لجهودنا المخلصة وليست دافعها وعلتها وغايتها وغرضها,أما الغاية والغرض في عمل المسلم في نظر الإسلام فهي واحد فقط وهي الحصول على رضا الله .

من هذا الشرح نعلم أن تعاليم المصطفي صلى الله عليه وسلم قد أجرت بعض الترميم في نظرية جماعة حكماء الأخلاق الذين يقيمون أساس الأخلاق على مبادئ السعادة والألم الروحانيين وهذا الترميم يتركز في أن الحصول على السعادة وتجنب الحزن القلبي ليسا غرض وغاية العمل الصالح,وإنما هما نتيجة طبيعية وحتمية له,وهذا هو اتجاه جماعة كبيرة من علماء الأخلاق في أيامنا هذه,أي أن السعادة ليست هدف العمل الصالح,وقد بينت الصحيفة الإلهية هذه النكتة كما يلي:"ولكن الله حبب إليكم

الإيمان وزينه في قلوبكم،وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان،أولئك هم الراشدون"(الحجرات:١) .

وقد فصل محمد صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة بقوله"إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن " ([1])."من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن"."من عمل سيئة فكرهها حين يعمل،وعمل حسنة فسر فهو مؤمن " ([2]) .

المهم أن الإسلام جعل من السعادة والانبساط والانشراح للقيام بعمل صالح علامة على الإيمان،ومن هنا لا يكون من الخطأ أن نقول أنه بهذا الترميم سابق الذكر في مبادئ الأخلاق في الإسلام بقي هناك بالرغم من هذا مجال لفرقة اللذتية لتجد لها مكانا،ولم تكن هذه النكتة خافية عن النظرة النبوية لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم،وإنما صحح ما في هذه النظرية من أخطاء .

الرضا الإلهي:

لقد جعل الإسلام الهدف والغاية من كل أنواع العمل الصالح واحدا وهو رضا الله تعالى وطاعته،ويجب على المسلم الصادق أن يقوم بما يقوم به من أجل هذا الغرض فقط،ولا يتخذ من أي غرض آخر أساسا لأعماله وفي هذه النقطة بالذات يتضح الفارق بين مبادئ فلسفة الأخلاق ومبادئ الأخلاق الإسلامية،فعلماء الأخلاق يبحثون عن غرض وغاية الأخلاق،بينما معلم الحكمة صلى الله عليه وسلم يعلم الإنسان الغرض

---

[1] سنن الترمذي كتاب الفتن عن رسول الله صلي الله عليه وسلم حدثنا أحمد بن منيع.حدثنا النضر بن إسمعيل أبو المغيرة عن محمد بن سوقة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال:خطبنا عمر بالجابية فقال:يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال:أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشوا الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف،ويشهد الشاهد ولا يستشهد،ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان،عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن .

[2] مسند أحمد بن حنبل عن أبي أمامه الباهلي-الجزء الخامس-صـ٢٥١و٢٥٢ ,ومستدرك الحاكم-كتاب الإيمان-الجزء الأول صـ١٤-حيدر آباد,ومختصر شعب الإيمان للبيهقي صـ٥٢-مطبعة السعادة_مصر,وابن حبات وأبو داود وعن عمر ابن الخطاب .حدثنا أبو محمد دعلج بن أحمد السجزي ببغداد،ثنا محمد بن علي بن يزيد الصايغ،ثنا سعيد بن منصور،ثنا يعقوب بن عبد الرحمن،وعبد العزيز بن محمد،عن عمرو مولى المطلب،عن المطلب،عن أبي موسى الأشعري:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من عمل سيئة فكرهها حين يعمل وعمل حسنة فسر بها فهو مؤمن . وقد احتجا برواة هذا الحديث عن آخرهم،وهو صحيح على شرطهما ولم يخرجا،إنما خرجا في خطبة عمر بن الخطاب:من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن.وله شاهد بهذا اللفظ .

الذي ينبغي أن يكون لأخلاقه،فلدى الإنسان ثروتان،وعليه أن ينفقهما في سبيل الله،وهما الإيثار وحسن العمل،يقول القرآن الكريم فيما يتعلق بنفس المؤمن أولا:"ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله،والله رءوف بالعباد " (البقرة : ٢٠٥)،ثم يقول فيما يتعلق بماله:"ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضيات الله " (البقرة : ٢٦٣) .

" وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله " (البقرة : ٢٧٢) .

" ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما " (النساء : ١١٧) .

" والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار " (الرعد : ٢٣) .

وجاء الحديث عن هذه الحقيقة بأوضح ما يمكن في سورة الليل:"الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى " (الليل) .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث في تفسير وشرح هذه الآية،أحد الصحابة يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا رسول الله هناك من يحارب من أجل مال الغنيمة،وآخر يحارب لكي يقال عنه شجاع،وآخر يحارب لكي يحصل على الشهرة،فمن من هؤلاء يحارب في سبيل الله؟،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الذي يحارب ليرفع كلمة الله ([1]) .

وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"رباط الخيل يوجب الأجر لأحد،والستر لآخر والذنب لآخر،فيوجب الأجر لمن يربطها في سبيل الله،فيحصل على أجر إطعامه وسقيه،وستر لمن يربطها للحاجة إذ أعطاه الله ثروة،فلا يضطر لأن يسأل الآخرين شيئا،فهو يستخدمها برفق ورحمة،ويؤدي حقها،وتوجب الذنب لمن يربطها تفاخرا وتظاهرا " .

وأكثر أمر مؤثر في هذه التعاليم هو ما نقله الترمذي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه حيث أغشي على سيدنا أبي هريرة ثلاث مرات وهو يرويه،وأنتحب سيدنا معاوية رضي الله عنه وهو يسمعه،فلقد أقسم أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"عندما يحاسب الله الناس يوم القيامة،وتقف كل أمة في مكانها،يأتي أمر الله بأن يتقدم عالم القرآن أولا،والذي مات في الجهاد،ثم أصحاب الثروات،فيسأل الله تعالي العالم:ألم أعلمك كل ما أنزلت على رسولي،فهل عملت

[1] صحيح البخاري – كتاب الجهاد – الجزء الأول – صـ ٣٩٤ .

به؟،فيقول:نعم يا رب،لقد كنت أقرأ القرآن ليل نهار،فيقول الله:لقد كذبت،وتقول الملائكة:لقد كذبت،ثم يقول الله:لقد كنت تفعل هذا حتى يقول الناس إنك عالم وقارئ للقرآن،وقد قالوا،ثم يسأل صاحب المال ألم أفتح عليك الدنيا،حتى لم تحتج إلى أحد؟فيقول:بلي يا رب،فيقول الله،فماذا فعلت فيما أعطيتك؟فيجيبه:كنت أؤدي حق المستحقين وأتصدق،فيقول الله:لقد كذبت،وتقول الملائكة أيضا:لقد كذبت،ثم يقول الله:إنك فعلت هذا لكي يقول الناس إنك سخي،وقد قالوا،ثم بعد ذلك يأتون بمن قتل في الجهاد فيسأله الله:لأي أمر قتلت؟فيقول:يا رب أنت أمرتنا بالجهاد في سبيلك فجاهدت حتى قتلت،فيقول الله:لقد كذبت،وتقول الملائكة أيضا:لقد كذبت،ويقول الله:إنما حاربت لكي يقول الناس أنك شجاع،وقد قالوا،ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:هؤلاء هم أول من يلقى بهم في نار جهنم ([1]) .

[1] جامع الترمذي – باب الزهد – باب ما جاء في الرياء و السمعة .حدثنا سويد بن نصر.أخبرنا عبد الله بن المبارك.أخبرنا حيوة بن شريح.أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفيا الأصبحي حدثه أنه دخل المدينة،فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس،فقال:من هذا؟فقالوا:أبو هريرة،فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس،فلما سكت وخلا قلت له:أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته،فقال أبو هريرة:أفعل،لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته،ثم نشغ أبو هريرة نشغة،فمكث قليلا ثم أفاق،فقال:لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره،ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى،ثم أفاق فمسح وجهه فقال:لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره،ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح وجهه فقال:أفعل،لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره،ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة،ثم مال خارا على وجهه فأسندته علي طويلا،ثم أفاق فقال:حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية،فأول من يدعو به رجل جمع القرآن،ورجل يقتتل في سبيل الله،ورجل كثير المال،فيقول الله للقارئ:ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟قال:بلى يا رب.قال:فماذا عملت فيما علمت؟قال:كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار.فيقول الله له:كذبت.وتقول له الملائكة:كذبت.ويقول الله:بل أردت أن يقال إن فلانا قارئ فقد قيل ذاك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له:ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟قال:بلى يا رب.قال:فماذا عملت فيما آتيتك؟قال:كنت أصل الرحم وأتصدق،فيقول الله له:كذبت،وتقول له الملائكة:كذبت.ويقول الله تعالى:بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك.ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله،فيقول الله له:فيماذا قتلت؟فيقول:أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت.فيقول الله تعالى له:كذبت،وتقول له الملائكة:كذبت.ويقول الله:بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك،ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال:يا أبا هريرة،أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة .

وقد بكى سيدنا معاوية كثيرا حين سمع هذا الحديث وقال صدق الله ورسوله،ثم قرأ هذه الآية الكريمة:"من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون.أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون " (هود : ٢) .

المهم إن كان الغرض والغاية من أخلاقنا وأعمالنا هو الحصول على منفعة ذاتية أو غرض شخصي فإنها تكون خالية من روح للثواب،والتعاليم الأخلاقية في الإسلام أرفع من هذا كثيرا،وإنما مقامها أحيانا لا يكون في رضا الله تعالى فقط،وإنما الذات الإلهية نفسها:"وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله"(البقرة:٣)."والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم"(الرعد:٣)."وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى"(الليل).

وقال تعالي في خصوص تنفيذ الأوامر الأخلاقية والتأكيد على أداء الحقوق :

" فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون " (الروم : ٤) .

المبادئ الأساسية للأخلاق في الأديان:

إن تكميل الأخلاق و الذي تم عن طريقه صلى الله عليه وسلم نستطيع أن نستشفه من المبادئ الأساسية للأخلاق.فلقد أعلنت التوراة في مجال التعاليم الأخلاقية من شأن الأحكام السلطانية،ولم تشرح أي مبدأ لها أو غرض و غاية أو علة أو مصلحة.أما في الإنجيل فلا نجد فيه أساسا للأحكام الأخلاقية سوى الصنعة اللفظية.إلا أن هناك تأكيدا على بعض المبادئ في الدين المسيحي لكن أساسها ضعيف للغاية،وأول هذه المبادئ هو قضية أصل الخلق الإنساني.والسؤال هو هل صحيفة وجود الإنسان في أصل خلقته خالية نظيفة،أم ملطخة بالذنوب.إن المسيحية تقول أن الإنسان ولد في الأصل مذنبا،والذنب في فطرته لأن أبويه سيدنا آدم والسيدة حواء مذنبان،وهذا الذنب الوراثي ينتقل إلى فطرة كل إنسان،ولا يمكن تجنبه،وقد زاد الغلو المسيحي في هذه القضية إلى القول بأن كل طفل يولد مذنبا إلى أن يتم تعميده،فإذا مات طفل مسيحي قبل تعميده مات مذنبا،ولن يدخل ضمن المملكة السماوية،وإنما سيدفع به إلى نار جهنم،لأنه لم يحصل على النجاة باسم المسيح .

أما مبدأ الإسلام في هذا الخصوص فهو مختلف تماما،فهو يـــرى أن التوحيـد أصل الفطرة،"فطرة الله التي فطر الناس عليها".ثم إن كل إنسان قد أجاب منذ الأزل على السؤال الأزلي"ألست بربكم"بقوله"بلى".أي الاعتراف بالله،ولهذا فإن الشخص الذي يـأتي على الدنيا بعد هذا الاعتراف الفطري والأزلي ولا ينكره فإن اعترافه وإقـراره هـذان يكفيان لبراءته،ولهذا فإن الحروف الذهبية التي كتبها الله تعالى على لوح فطرته إمـا أن يبرزها ويوضحها بعد بلوغه وتمييزه،وإما أن يمحوها .

يقول تعالى:"ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"(التين).بمعنى أننا جعلنا خلقتـه في أحسن تقويم واستقامة،وفي موضع آخر يقول:"الذي خلقك فسواك فعدلـك فـي أي صورة ما شاء ركبك" (الانفطار) .

وهذه الآية من سورة الانفطار،وبها بيان لليوم المحدد لإثابة الإنسان وعقابه يوم الحشر والنشر،أي يوم القيامة،ثم تأتي بعدها آية تؤكد أنه أحسنه،وجعله معتدلا،أي أنعـم عليه بالاعتدال في كل أنواع القوى،وقال عن ذلك عن المفسر بن النيسابوري وغيره أنه أنعم عليه بالاستعداد الكامل لكسب الكمالات،ويثبت من هـذا أن الاعتـدال الروحـاني والجسماني داخلان في عموم الاعتدال،وقد جاء هذا المفهوم بشكل أكثر وضوحـا فـي الآيات الأخرى،فجاء في سورة الأعلى :

"سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى " (الأعلى : ١) .

ورؤية الطريق بمعنى الهداية أودعها الله تعالى في فطرة الإنسان كما أودع فيـه عشرات القوى الأخرى،وجاء هذا المعنى أكثر وضوحا في سورة (الإنسان) :

" إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا , إنا هديناه شاكرا و إما كفورا " (الإنسان : ١) .

المهم أن هذه الهداية وهذا الرشد منح له منذ اليوم الأول،وبعـد بلـوغ العقـل والتمييز فإما أن يشكر الله أو يجحده،وإما أن يعمل صالحا أو سوءا،هـذا كلـه راجـع إليه،وقد جاء الأمر أكثر وضوحا في سورة الشمس :

" ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " .

المهم أن الإنسان من وجهة نظر تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ليس مذنبـا وعاصيا بأصل الفطرة،وإنما على العكس من ذلك أودعت الهداية والرشد الصحيح فـي أصل فطرته،ولهذا قال تعالى :

" فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (الروم : ٤) .

هذا هو دين الفطرة الإسلام وهذه تعاليمه التي يتبوأ التوحيد فيها مكانا أساسيا,وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية أن كل مولود يولد على الفطرة,وإنما أبواه يهودانه أو ينصرنه أو يمسحانه,مثلما يولد كل حيوان صحيحا سالما ليس مقطوع الأذن ([1]) ، وهكذا فإن كل طفل يولد على فطرته الصحيحة وخلقته الصالحة,وقد بين الوحي المحمدي هذه المسألة في صورة حوار أزلي,إذ سأل الله تعالى الأرواح الإنسانية قبل أن تدخل الجسد الإنساني قائلا:ألست بربكم,فأجابوا بلسان حالهم أو بقولهم جميعا:بلي,وهذا الاعتراف الأزلي والفطري هو عهد الإنسان الذي ذكره به القرآن الكريم مرارا وقال له أنظر,لقد أغوى الشيطان أباك آدم,فلا يغوينك .

والنتيجة الحتمية لهذه التعاليم هي عقيدة أن الإنسان بأصل فطرته معصوم طاهر,لم يأت حاملا على أكتافه عند ولادته عبء ذنب أبيه,وقد قرر القرآن أنه :

" ولا تزر وازرة وزر أخرى " (فاطر : ٣) .

" كل امرئ بما كسب رهين " (الطور : ١) .

" ألا لا يجني جان على ولده ولا مولود على والده " .

وبنفس الطريقة قررت الأديان التي ورطت الإنسان في دوامة التناسخ أن الإنسانية بالمولد مذنبة ملطخة بالذنوب,ووضعوا على ظهر الإنسانية عبئا كبيرا,وجعلت من الميلاد الثاني نتيجة للميلاد الأول والحياة الثانية نتيجة للحياة الأولي,وهكذا قيدت الإنسان بأعمال غيره في حيوات أخري,وبمعني آخر فإنها سودت صحيفة أعماله قبل أن يولد .

والآن تأمل في تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الإنسان في أصل فطرته غير مذنب وبرئ,كم هي بمثابة البشرى العظيمة للإنسان في هذا العالم الحزين,ونتيجة ذلك أن تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم منزهة تماما عن عقيدة الظلم

---

[1] صحيح البخاري ومسلم– كتاب القدر .حدثنا إسحق بن ابراهيم:أخبرنا عبد الرزاق:أخبرنا معمر،عن همام،عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ما من مولود إلا يولد على الفطرة،فأبواه يهودانه،وينصرانه،كما تنتجون البهيمة،هل تجدون فيها من جدعاء،حتى تكونوا أنتم تجدعونها).قالوا:يا رسول الله:أفرأيت من يموت وهو صغير؟قال:(الله أعلم بما كانوا عاملين)

وعدم الإنصاف هذه حيث يصير الطفل البريء المعصوم حطبا لجهنم،إذ أن تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم تقول أن كل طفل معصوم ولا ذنب له حتى يبلغ العقل والتمييز فقال صلى الله عليه وسلم:"رفع القلم عن الطفل حتى يعقل " ([1]) .

فهذه البراعم التي تذبل قبل أن تتفتح في حديقة الحياة هي في نظر الإسلام زهور الجنة،فقال صلى الله عليه وسلم:"أن من مات له ثلاث أطفال صغار فإنهم يكونون شفعاء لوالديهم في حضرة الله تعالى،ويدخلونهم الجنة".وحين مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم طفلا قال صلى الله عليه وسلم:"سيذهب إلى الجنة ويشرب من لبن مرضعاتها".والأكثر من هذا أنه صلى الله عليه وسلم حين سأل عن أطفال المشركين يموتون صغارا،أين يذهبون بعد وفاتهم؟،فقال صلى الله عليه وسلم:الله أعلم كيف يكون هؤلاء،لكنه بعد ذلك صرح بأمرهم،فقد رأى صلى الله عليه وسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام ذات مرة في المنام أنه في الجنة،وحوله جمع من الأطفال الصغار،فقال صلى الله عليه وسلم:كان هؤلاء هم الأطفال الذين ماتوا على دين الفطرة،فسأله الصحابة:وماذا عن أطفال المشركين؟،فقال:وأطفال المشركين أيضا".وكانت نتيجة هذا التصريح أن بعض الصحابة كان يطلق على الطفل الذي مات صغيرا أنه من أهل الجنة،ولكن لأن الحكم على ما في الغيب من اختصاص الله تعالى فقط لذا لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التصريح فيما يخص طفل بعينه غير مناسب،ذات مرة مات طفل لأحد الصحابة،فأخبرت السيدة عائشة أم المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر قائلة:باركه يا رسول الله،فقد كان عصفورا من عصافير الجنة،لم يذنب،ولم يبلغ وقت الذنب،فقال صلى الله عليه وسلم:يا عائشة لقد خلق الله بعض الناس للجنة،وبعض الناس للنار " ([2]) .

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الطلاق , و الترمذي في من لا يجب عليه الحد .حدثنا محمد بن يحيى القطعي البصري حدثنا بشر بن عمر حدثنا همام عن قتادة عن الحسن البصري عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يشب وعن المعتوه حتى يعقل.

[2] ابن ماجه–كتاب الجنائز.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا:حدثنا وكيع،حدثنا طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله ،عن عمته عائشة بنت طلحة،عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار،فقلت:يا رسول الله،طوبى لهذا،عصفور من عصافير الجنة،لم يعمل السوء ولم يدركه.قال:أو غير ذلك يا عائشة،إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم،وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم.

فالمسيحية من جانب تقذف بالأطفال الذين يموتون قبل تعميدهم إلى جهنم،والإسلام على النقيض يفتح لهم أبواب الجنة،ويعلمنا أن ندعو في صلاة الجنازة عليهم قائلين:"اللهم اجعله لي زخرا،وشافعا تقبل شفاعته".وحيثما جاء في الأحاديث ذكر لمن يعمل عملا صالحا فتغفر له جميع ذنوبه استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الفقرة"فيعود كما ولدته أمه"([1]) .

الخوف والرجاء:

وهناك مسألة أخرى تشبه هذه المسألة كثيرا،فقد كان هناك من فلاسفة اليونان فرقتان،الأولى فلاسفة البكائين،والثانية فلاسفة الضحاكين،يقولون أن الفرقة الأولى هي التي تخلق يأسا وإحباطا من وراء كل واقعة،فالعالم كله يبدو لهم مظلما مليئا بالأشواك،أما الفرقة الثانية فهي التي لا تفكر في الحياة في غير اللهو والعبث والسرور،وتعاليم الفرقة الأولى هي أن تصمت،وتتخذ حال الحياة شكل الموت الذي هو المنزل الأخير لهذه الدنيا،ونظرية الفرقة الثانية أن كل واشرب واسعد،ولا تهتم بالغد.الفريقان من الناحية الأخلاقية يستحقان التعديل والترميم،فإذا اعتقد الإنسان بنظرية الفرقة الأولى خمدت كل قواه،ولم يعد يستطيع أن يقوم بعمل في الدنيا،وإذا اعتقد بنظرية الفرقة الثانية سيبقى منتشيا بخمر الغفلة،ولن يكون قادرا على التمييز بين الخير والشر،وطريق تعاليم الإنسان يخرج من بين هاتين الحارتين،فهو يقص علينا أمر فناء الدنيا وزوالها مرارا حتى لا تسكرنا خمر الغفلة،وفي نفس الوقت لا يجعلنا نيأس من رحمة الله تعالى،إنه يعلم الحياة بأمل في الله تعالى حتى الرمق الأخير،واليأس من الله في شريعته هو والكفر واحد،إنه لا يجعل قلب المسلم يعيش بغير أمل حتى في أصعب الأوقات،فقد جاء في القرآن الكريم قول الملاك لسيدنا إبراهيم عليه السلام:"فلا تكن من القانطين" (الحجر : ٤١) .

ثم علمنا على لسان سيدنا يعقوب:"ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " (يوسف : ٨٧) .

وانظر كيف خاطب عصاة هذه الأمة بكل حب:"يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " (الزمر : ٦) .

---

[1] صحيح مسلم – كتاب القدر .

ولهذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه على أن يعيش الإنسان بأمل دائما،فقال إن الله تعالى يقول"أنا عند حسن ظن عبدي بي"([1])،بمعنى أنه سيجدني مثلما يظن بي،والآية التالية تعكس بشكل صحيح عقيدة الإسلام في هذا الخصوص:"أمن هو قانت أناء الليل ساجدا أو قائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه " (الزمر : ٩) .

بمعنى أن الحالتين موجودتان في قلبه،خوف المؤاخذة على التقصير والسؤال على الذنب،والأمل في رحمة الله أيضا،وتعاليم الإسلام هي الخوف من غضب الله والأمل في رحمته،فهذا الخوف لا يسمح له بالغفلة والتبجح والتجرأ،وهذا الأمل لا يسمح له بالحزن واليأس والإحباط،ولهذا فإن قلب المؤمن خائف من سوء المآل دائما،لكنه ملئ بالأمل،ويقول القرآن الكريم لأهل الإيمان مشيرا إلى هذا الأمر:"وترجون من الله ما لا يرجون"(النساء:١٠٥)

وهذا هو الفارق الذهني الذي يتولد في قلب المؤمن وقلب الكافر في دنيا المشاكل،فالكافر يقوم بأعماله طمعا في الجزاء الدنيوي،فإذا لم يجد أصابه إحباط،لأنه يعتبر النجاح ماديا فقط،وإذا لم يلق هذا النجاح اغتم،لكن المؤمن إن يلق هذا النجاح الدنيوي فإن قلبه يظل سعيدا فرحا لأنه عمل الخير،وأجر الخير لابد أن يحصل عليه إن لم يكن في هذه الدنيا فسيكون في الآخرة،وإن لم ينجح في الدنيا فلا بأس فإنه سيحظى برضا الله وثوابه،ونتيجة هذا اليقين أنه جعل المسلمين شجعانا في عمل الخير وعلمهم القيام به بغير غرض مادي أخلاقي،وهذا هو السبب في شيوع الانتحار في غير العالم الإسلامي فنحن نقرأ عن انتحار السيدات الهندوس في الهند كل يوم،والانتحار لفشل بسيط في أوروبا وأمريكا أصبح أمرا عاديا،وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور ينشر في الجرائد خبر عن قيام رابطة في وارسو(بولندا)وعملها هو حث الفتيات الصغيرات الفاشلات على الانتحار،بينما لا نجد هذه الميول عند أي مسلم حتى في قمة لحظات يأسه،ولا يفقد الأمل أبدا بفضل الله وكرمه،فهو دائما يمتلئ أملا سواء كان فقيرا أم غنيا،صحيحا أم مريضا،لديه أولاد أم لا،ناجح أم فاشل،مقتدر أم مفلس،لديه الأمل دائما في رحمة الله تعالى في أوقات المشاكل والمرض والعوز والفشل،دائما أبدا على يقين

---

[1] جامع الترمذي – كتاب الزهد – باب في حسن الظن بالله تعالى .حدثنا أبو كريب.حدثنا وكيع عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يقول:أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني.

من أن اليأس والكفر شيء واحد في دينه،وأنه وإن لم يجد أجر عمله في الدنيا فسيحصل عليه في الآخرة يقينا،فربه قد وعده:"إني لا أضيع عمل عامل منكم"(آل عمران : ٣) .

الأخلاق والرهبانية :

إن الأخلاق في الحقيقة ما هي إلا حسن النية في العلاقات بين الناس والتعامل معهم بأسلوب طيب،أو قل أنها قيام كل شخص بأداء ما عليه من فرائض إنسانية،ويتضح من حقيقة الأخلاق هذه أن الأخلاق ضرورية من أجل قيام علاقات وروابط بين الناس بعضهم البعض،وهو ما لا نجده في الرهبانية والتجرد والاعتزال،ولهذا فإن البعد عن الناس واعتزالهم والتحرر من علاقات الأهل والأولاد والأعزاء والأقارب والأصدقاء والأحباب يضيع فرص استخدام وتطبيق الأخلاق أو يقللها.ومن الضروري مناقشة هذه القضية لأنه غالبا ما أخذ قطع العلاقة مع الخلق واعتزالهم مكانة التدين والعمل الصالح في الدين،ولقد كان الرهبان والنساك قبل الإسلام يعيشون حياتهم هكذا،ويعتبرون ذلك هم و أتباعهم منتهى التقوى والصلاح،بينما الحقيقة هي أن هؤلاء المتدينين من الأفراد والجماعات اختاروا هذا الاحتجاب لإبراز وتعظيم نفوذهم وتأثيرهم ببعدهم عن أنظار عامة الناس مثل السلاطين،وبذلك يتصورون أنفسهم أعلى من الآخرين،ومن ناحية أخرى يجعلون حياتهم في الخفاء فيدعون التقوى والتقدس الكاذب ويتخذون منها حرفة،وثالثا يستطيعون بذلك التهرب من أداء حقوق وفرائض الأهل والأقارب والأصدقاء والشعب والملة دون لوم من أحد باعتبار عذرهم الواهي بالاعتزال،ولهذا لم يشجع الإسلام في مبادئه الأخلاقية على الرهبانية والتجرد والاعتزال،فلقد أمضى الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاما هي فترة حياته صلى الله عليه وسلم بعد النبوة بين الناس مشاركا إياهم في كفاحهم الإنساني،وظل هذا هو منهج الخلفاء الراشدين والصحابة جميعا باستثناء القليلين منهم،والقرآن الكريم ملئ بالتعاليم التي تؤكد على القيام بالعمل الصالح مع الناس في إطار هذا الكفاح الإنساني،وفي نفس الوقت يخلو القرآن من أية إشارة تحض على الاعتزال والتجرد وقطع العلاقات مع الجماعة الإنسانية .

وواضح تماما أن أداء الحقوق والفرائض الإنسانية لا تتم إلا بالتواجد مع الجماعة الإنسانية ذاتها،وليس حال البعد عنها،وهل يستطيع أولئك الذين يعتزلون المجتمع بعيدا عنهم في غابة أو خلوة حل مشاكل هذا المجتمع،وهل يستطيعون القيام

بفرائض الإشراف الأخلاقي على الأمة،وهل يستطيعون أن يكونوا عونا للفقراء،ورعاة لليتامى،هل يستطيعون تقديم خدمة ما لخلق الله،وهل يستطيعون إنقاذ الناس من الغواية والضلال،وهل يستطيعون كسب قوتهم بقوة أيديهم،وهل يستطيعون القيام بفرائض التبليغ والدعوة والتعليم والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله؟في حين أن هذه هي أفضل مصارف العبادات الأخلاقية،ولهذا فإن هذه الطريقة في طلب النجاة ليست مستحسنة في نظر الإسلام عموما،وقد جاء في القرآن الكريم:"قوا أنفسكم وأهليكم نارا"(التحريم:١).

بمعنى أنه يجب على الإنسان أن ينقذ نفسه والآخرين أيضا من النار،وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين صراحة بقوله:"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير راع لرعيته والرجل راع لأهله وعياله والزوجة راعية لبيت زوجها " ([1]) .

وعندما تحل المصائب الجماعية فإنها لا تترك المعتزلين،إذ أن النار تحرق من بالداخل ومن بالخارج،ولهذا أوضح الوحي المحمدي هذا الأمر قائلا:"واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة"(الأنفال:٣) .

إذ أن هذه الفتنة ستطال المذنب والبريء وذلك إذا تغافل المعتزلون عن مهمة الدعوة والتبليغ في الجماعة التي تضل الطريق،ولهذا فقد جعل القرآن الكريم في قصة أصحاب السبت أولئك المعتزلين الذين لا يبالون بفرض التبليغ من الآثمين.فالدنيا في الحقيقة دار الكفاح والعمل،حيث يقطع أهلها طريق الحياة بالتعاون بين الجميع،ومن المؤكد أن هناك متاعب كثيرة تواجه الذين يسيرون معا في الطريق ، و يكون على فرض منهم إذا أن يعمل على إراحة الآخر،ولذا فإن الشخص الذي يخشى مواجهة مشكلات الجماعة،ويحمل عبء نفسه فقط على ظهره ويرحل هو جندي فاشل في معركة الحياة،وقد نقل البيهقي في شعب الإيمان والترمذي في الجامع قول النبي صلى الله عليه وسلم"أن المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم " .

---

[1]-صحيح البخاري–الجزء الثاني–كتاب النكاح–باب المرأة راعية في بيت زوجها–ص ٧٨٣.

حدثنا عبدان:أخبرنا عبد الله:أخبرنا موسى بن عقبة،عن نافع،عن ابن عمر رضي الله عنهما،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع،والرجل راع على أهل بيته،والمرأة راعية على بيت زوجها وولده،فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

لقد سمح الإسلام بالاعتزال والانفصال عن الجماعة في حالة واحدة فقط وهي أن يفسد حال الجماعة حتى لا يبقى لها نظام مركزي,وأن تشتعل نار الفتنة والفساد بحيث تخرج عن السيطرة,في مثل هذا الوقت إذا لم يجد هؤلاء الأشخاص في أنفسهم المقدرة على وقف الفساد وإطفاء النار فإنهم في هذه الحالة ينفصلون عن المجتمع,والأحاديث الواردة في موضوع الاعتزال عند الفتنة تتعلق بهذه الحالة,وإلا فإنه من الفرض على كل مسلم ذي همة قوية أن يبذل قصارى جهده في مثل هذا الوقت مبلغا وآمرا بالمعروف حتى ينقذ الجماعة,وهذا هو النموذج الذي قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا,واتبعه الصحابة الكبار جميعا كل في دائرته.لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"من رأي منكم منكرا فليغيره بيده,فإن لم يستطع فبلسانه,فإن لم يستطع فبقلبه,وذلك أضعف الإيمان " ([1]) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فإذا ما أخذنا في الاعتبار هذا المبدأ الأخلاقي للإسلام برز أمامنا مبدأ أخلاقي آخر بشكل تلقائي أنه هناك فرضا في التعاليم المحمدية يقضي برعاية الجماعة بقدر الاستطاعة,وهذا الفرض الأخلاقي يسمىٰ من الناحية الشرعية(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر),وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من الصفات المميزة للمسلمين فقال :

" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالبر وتنهون عن المنكر"(آل عمران:١٢).

" يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " (التوبة : ٩) .

ثم أمر قائلا : " وأمر بالمعروف وانه عن المنكر " (لقمان : ٢) .

وقدم صورة المسلمين وهي : " وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " (العصر) .

"وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة"(البلد:١).

هذه هي التعاليم التي تميز مبدأ الرعاية الأخلاقية في الإسلام عن أديان الدنيا جميعا,وتجعل من الفرض على كل قوي القلب قوي الهمة أن يهتم بطبيعة الجماعة ويرعى الأمة.

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الإيمان .حدثنا أبو بكر بن أبي شية,قال:حدثنا,وكيع عن سفيان وحدثنا محمد بن المثنى,قال:حدثنا محمد بن جعفر,قال:حدثنا شعبة كلاهما عن قيس بن مسلم,عن طارق بن شهاب.وهذا حديث أبي بكر,قال:أول من بدأ بالخطبة,يوم العيد قبل الصلاة، مروان,فقام إليه رجل.فقال:الصلاة قبل الخطبة.فقال:قد ترك ما هنالك.فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه,سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:من رأى منكم منكرا فليغيره بيده,فإن لم يستطع فبلسانه,فإن لم يستطع فبقلبه,وذلك أضعف الإيمان.

لقد جاء في التوراة هذه الفقرة على لسان قابيل"هل أنا حارس على أخي"([1])،وصارت هذه الفقرة مبدأ أخلاقيا هاما في الدين المسيحي،وقد اتخذ هذا المبدأ في أوروبا شكل قضية قانونية تسمى(استرجاع الحرية الشخصية)،بينما الأمر في الإسلام عكس ذلك،وهو أن كل شخص حارس على أخيه بشكل حقيقي،مثلما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم:"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"،وقد أوجب القرآن الكريم على المسلمين صراحة دعوة الناس إلى الخير وإنقاذهم وإبعادهم عن الشر،حتى يصبح حياء المجتمع وخوف الجماعة ضمانا لاستقامة الناس على الخير،وأوجب على كل فرد من الجماعة الإسلامية إخراج أخيه من ظلام الضلال إلى نور الهداية .

حكى القرآن الكريم قصة من قصص بني إسرائيل جاء فيها أنه قد حرم على بني إسرائيل القيام بأي عمل دنيوي يوم السبت،وكانت هناك قرية من قرى بني إسرائيل تقع على شاطئ البحر فكان أهلها يحتالون للصيد يوم السبت،وهكذا انقسم الناس في هذه القرية إلى ثلاث فرق،واحدة كانت ترتكب ذنب الصيد يوم السبت علانية،وواحدة تعمل على منعها من هذا الذنب،والثالثة لم تكن تمنعها منه وإن لم تشاركها فيه،وإنما كانت تقول للفرقة التي تعمل على منع الذنب ما فائدة دعوة هؤلاء الذين لا يسمعون،والذين سوف يهلكهم الله بذنبهم هذا،وعندما جاء عذاب الله لم تنج سوى الفرقة الثانية فقط،وهي التي أدت فرض التبليغ والدعوة،أما الأولي والثالثة فقد قضي عليهما،الأولى بسبب ارتكاب الذنب،والثالثة بسبب تخليها عن فرض الدعوة،وقد ذكرت هذه القصة في الركوع العشرين من سورة(الأعراف)،وفي النهاية قال تعالى:"وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون،فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون"(الأعراف:٢١).

وهذه القصة تدلنا على أهمية إنقاذ الآخرين من السقوط ومساعدة الذين سقطوا على النهوض في نظر الإسلام،وأن هذا جزء مهم من الفرائض الأخلاقية،والذي يعتبر من يتخلى عن أدائه مذنبا مثل من"ارتكب الذنب نفسه،وتنتهي مهمته بعد تعريفه بالحق وإبلاغه به،وليس عليه إجباره على الطاعة،وهكذا الأمر بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما على الرسول إلا البلاغ"(المائدة:١٣،النور:٧)،فإذا أدى هذا الفرض فقد

[1] سفر التكوين – (٤-٩) .

سقط الفرض من عليه،ولهذا جاء في سورة المائدة:"يا أيها الذين أمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"(المائدة:١٠٤).

وقد قرأ سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية وقال للناس:"أيها الناس لا يخدعنكم ظاهر هذه الآية،فلقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إذا رأى الناس ظالما ولم يمنعوه فربما يصيبهم العذاب جميعا"،وقد سأل صحابي آخر هو أبو ثعلبة عن معنى هذه الآية فقال:لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معناها فقال:كلا،وإنما أمروا معا بالخير وامنعوا بعضكم بعضا من الشر،ولكن إذا رأيتم أتباعا للطمع والبخل وطاعة للشهوات،وأن الدنيا يتم ترجيحها على الدين،وكل مغتر برأيه فعليكم في مثل هذا الوقت اعتزال العوام والاهتمام بأنفسكم إذ سيأتي بعدكم زمن المتمسك فيه كالذي يقبض على النار بيديه " ([1]) .

هذه التعاليم ألغت المبدأ الأخلاقي الخاطئ الذي يقول(هل أنا حارس لأخي)،والحقيقة أنه لا يمكن الحفاظ على التعاليم الأخلاقية طالما احتفظت بها الجماعة تحت سيطرتها،وعادات وتقاليد وآداب الأمم تقوم على هذه الأصول،والأمر الثاني أنه يبدو من هذه الأمور الأخلاقية أمور شخصية لكل شخص في الظاهر،وهي التي يقتصر نفعها وضررها على الشخص نفسه،ولكن إذا تمعنا في الأمر عرفنا أن نتائجها وآثارها تؤثر في المجتمع كله،حيث يصل تأثيرها من شخص إلى آخر،ومن آخر إلى آخر،وهكذا تنتشر في المجتمع كله تدريجيا،وثانيا إن لم يتم التحكم فيها فسوف يتضاءل

---

[1] هذان الحديثان جاءا في كتاب التفسير للترمذي(سورة المائدة)ص ٤٩٨ , ٤٩٩ .حدثنا أحمد بن منيع.حدثنا يزيد بن هارون.حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"،وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب .

وحدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني.حدثنا عبد الله بن المبارك.أخبرنا عتبة بن أبي حكيم.حدثنا عمرو بن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال:أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له:كيف تصنع بهذه الآية؟قال:أية آية؟قلت:قوله:"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"قال:أما والله لقد سألت عنها خبيرا،سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا،وهوى متبعا،ودنيا مؤثرة،وإعجاب كل ذي رأي برأيه،فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر،للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم .

سوءها في نظر الناس ويعتبرونها أمورا عادية،وتدريجيا ينتشر السم حتى يشك الناس في كونها أمورا سيئة،وتكون نتيجتها أن تفسد الطباع الأخلاقية للأمة كلها في أيام قلائل،وتسقط من مستواها الرفيع إلى المستوى الدنيء.ولقد جاء في الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات مرة:أن الانحطاط الأخلاقي عند بني إسرائيل بدأ حين انتشر بينهم المنكر وقد منعه علماؤهم في البداية،وعندما لم يتوقف بدأ هؤلاء العلماء يأكلون ويشربون ويجالسون أهل المنكر،فصاروا بصحبتهم مثلهم،ولعنهم الله على لسان داود وعيسى،ثم اعتدل رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال:إلا أن تكفوا يد الظالم وتجبروه على الحق"([1]).وهذه هي تعاليم محمد صلى الله عليه و سلم في هذا الخصوص .

بعض شروطه:

لكن هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مفروضا على الجهلاء والعامة،لأنه إن كان كذلك فسوف يثيرون الفتن بشكل أو بآخر،لكن هذا الأمر يحق على الشخص الذي يتجنب السوء بنفسه،ولقد قال القرآن الكريم :

" أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " (البقرة : ٥) .

وهكذا يجب أن تتم النصيحة والدعوة بأسلوب جيد ولين ومراعاة للمصلحة،وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه:

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة"(النحل).

ولما أرسل الله سيدنا موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال لهما :

" فقولا له قولا لينا " (طه : ٢) .

وقال في موضع آخر:"وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا " (النساء : ٩) .

وكل هذه الاحتياطات والتأكيدات حتى لا يعاند الناس،ولا تنتشر السيئة بدلا من الحسنة وإقامة الأمن والأمان في يد الإمام،ولهذا فإن تنفيذ نظام قوي للأمر بالمعروف

---

[1] جامع الترمذي – تفسير سورة المائدة . حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن.أخبرنا يزيد بن هارون.أخبرنا شريك عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا،فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون قال:فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم،وكان متكئا فقال:لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا،قال عبد الله بن عبد الرحمن،قال يزيد:وكان سفيان الثوري لا يقول فيه عن عبد الله.

والنهي عن المنكر فرض على الحكومة فقط حتى لا يتولد عن منع نوع من السوء عشرات الأنواع الأخرى من العيوب .

المنع من التجسس و الغيبة:

ولأن الهدف الأصلي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إصلاح المجتمع والحفاظ على أخلاق الجماعة،فإن ذلك يوضح أن الإسلام منع التفتيش عن عيوب الآخرين وهو ما يسمى بالتجسس،فليس من حق أي مسلم أن يتسلل إلى بيت مسلم آخر ليتجسس على أحواله وأموره،حتى أصبح من التعبيرات السائدة في أدبيات الإسلام أن:"ماذا يفعل المحتسب داخل البيت ؟ ".

والسبب في ذلك أن باب الفتنة والفساد يفتح بسبب مثل هذه الطريقة للإصلاح،ولا يكون أي شخص في مأمن وهو في بيته،لكن السر الأصلي في المنع من هذه الأمور هو أن الشخص الذي يفعل السوء مختبئا في بيته ينحصر أثر ما فعل على ذاته فقط،ولا يصل إلى الجماعة،ولهذا لا تحتاج الجماعة إلى التداخل فيه،وهناك أمر آخر في هذا الخصوص وهو أن الشخص الذي يرتكب الذنب في الخفاء إنما يعني هذا أنه لا يزال لديه رمق من الحياء والخجل،وهو ما يمكن أن يكون سببا في هدايته فيما بعد،أما إذا راقبه الناس وتجسسوا عليه فإن الخوف يكون من أن ينطفئ في قلبه هذا الضوء الخافت بسبب العناد والعزة بالإثم.إن الإسلام يمنع من الدخول في بيت أو حجرة دون استئذان،والسبب في ذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إنما الإذن لأجل الرؤية".

وهناك مبدأ آخر في هذا الخصوص وهو أن لا يغتاب هذا الشخص،ولا تذكر عيوبه من ورائه لأحد،إذ أن هذا لا يؤدي إلى الإصلاح،بل من الممكن أنه إذا علم بهذا الأمر يستاء ممن يعظه وينصحه،بل ويخالفه ويعانده،وبذا يغلق باب إصلاحه إلى الأبد،ولهذا منع الوحي المحمدي من التجسس والغيبة منعا باتا فقال :

"يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم،ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه،واتقوا الله إن الله تواب رحيم"(الحجرات:١٢).

إن ذكر عيوب أحد من خلفه كمثل من ينهش بأسنانه لحم ميتة،فمثلما أن الميت لا يستطيع حماية جسده فإن ذلك الذي تغتابونه لا يستطيع حماية نفسه،ولا يستطيع أن

يدافع عن نفسه,وليس هناك أبلغ من تشبيه الغيبة بهذا الأمر البشع الذي يأباه بالفطرة كل إنسان وقد صارت بشاعته بهذا الشكل لأنه لا يمكن من الاستفادة بالأمر بالمعروف,ولا يمكن من إصلاح ذلك الشخص الذي يغتاب,وبه كذلك يظهر الضعف الأخلاقي لدى الذي يقوم بالاغتياب وهو بما لا يليق بالمسلم,ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إنكم إن تتبعتم عيوب الناس حطمتموهم " ([1]) .

وتأمل كم في التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم من لطائف ودقائق:

التوسط والاعتدال:

لقد مضى عهد اليهودية والنصرانية قبل البعثة النبوية,وكان العالم ينتظر دينا يجمع هذين الدينين معا,وجاء الإسلام ليلبي هذه الحاجة لدى البشرية,فجمع هاتين الحلقتين من سلسلة النبوة معا .

إن العدل هو الذي حفظ نظام الدنيا,وزينه الإحسان والرفق واللطف,لكن هذه الأشياء في السياسة الدينية كانت أمورا منفصلة قبل الإسلام,وكانت النتيجة الحتمية لهذا هو أن نظام العالم لم يكن قد اكتمل حتى ذلك الوقت.لقد كانت شريعة سيدنا موسى عليه السلام عدلا مجسما,ولم يكن بها اهتمام كبير بالعفو والإحسان([2]),وبنفس الطريقة كان سيدنا عيسى عليه السلام رسول المحبة الخالصة,وكان العدل والإنصاف في شريعته قليل([3]),فوضعت شريعة موسى عليه السلام للدنيا مبادئ العدل والإنصاف,بينما أعلن سيدنا عيسى عليه السلام تعاليمه الأخلاقية قائلا :

"لقد سمعتم أن العين بالعين والسن بالسن,ولكني أقول لكم لا تقابلوا السيئة بالسيئة,وإنما من يلطمكم على خدكم الأيمن قدموا له خدكم الأيسر,ومن يمسك بتلابيبكم متشاجرا معكم فقدموا له رداءكم أيضا,ومن يسير معكم لمسافة ميل يشتمكم فسيروا معه لميلين,وأعطوا من يسألكم,ولا تستعيدوا القرض ممن أعطيتموه,لقد سمعتم أن أحبوا أعزاءكم و أبغضوا أعداءكم,لكني أقول أن أحبوا أعداءكم أيضا (متى – باب ٥) .

---

[1] سنن أبي داود – كتاب الأدب , باب النهي عن التجسس .

حدثنا عيسى بن محمد الرملي وابن عوف،وهذا لفظه قالا:ثنا الفريابي،عن سفيان،عن ثور،عن راشد بن سعد،عن معاوية قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أوكدت تفسدهم فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها.

[2] بسبب قوة اليهود .

[3] من أجل إصلاح تمسك اليهود باللفظ القانوني .

لقد كان ما قيل للدنيا قبل سيدنا عيسى عليه السلام هو قانون سيدنا موسى عليه السلام,والذي كان مبنيا على العدل والإنصاف,بينما كان ما تسمعه الدنيا من عيسى عليه السلام أخلاقا ورحمة وإحسانا,أما الإسلام فقد مزج بين العدل والإحسان,وأكمل بذلك نظام الحكم في العالم,لقد كان ذلك تعليما مبدئيا جمع بين خاصيتين مستقلتين للشريعة الموسوية والشريعة العيسوية .

العدل و الإحسان:

لا بد من قليل من التفصيل حتى نستطيع فهم(العدل والإحسان)بشكل صحيح,فأساس القانون في الحقيقة يكون على العدل,ومعنى العدل(التساوي)بمعني فعل السوء مع من يفعل السوء,وهذا هو العدل,بينما يكون العفو عنه والتسامح معه(إحسانا),ولكل من العدل والإحسان في الإسلام مقام مستقل,وقد أعطى قانون العدل إلى الجماعة والدولة,إذ لا يستطيعه فرد واحد,بينما الإحسان يستطيعه كل إنسان,وهو أمر شخصي,ونظام الجماعة والحكومة يقوم على قانون العدل,فإذا ما قضى على هذا القانون انفرط عقد الجماعة والحكومة,ولم يعد أحد آمنا على نفسه أو ماله,ولهذا فإن القضاء على الحكومة تماما مثلما فعل الذي غير في المسيحية فقضى على قانون العدل في التوراة تماما,هذا الأمر لا يقبل التنفيذ في الدنيا,وتاريخ الممالك المسيحية كله شاهد على أنه بدون قانون العدل لا يمكن إقامة الأمن والسلام على شبر واحد من الأرض معتمدا على الأخلاق فقط,ولا يمكن كذلك القضاء على السلبيات .

وهناك أمرا آخر وهو أنه عندما يسئ شخص في الجماعة إلى شخص آخر,فإن هذه الإساءة لا تكون لمجرد فرد واحد فقط,وإنما تكون لنظام الجماعة كلها,فإذا لم يحاسب مثل هذا الشخص من البداية فمن الممكن أن يتجرأ على ارتكاب نفس الإساءة مع فرد آخر من أفراد الجماعة,ولهذا فإن الحق الكامل في العفو عن الظالم لا يكون للمظلوم وحده,لأن المظلوم بعفوه وإحسانه على الظالم كأنما ارتكب إثما في حق الجماعة كلها,ومن هنا ينبغي التفكير جيدا عند إحلال الأخلاق محل قانون العدل,وهو الأمر الذي التفتت إليه الشريعة المحمدية وعالجته,لأنها هي الشريعة الدائمة للعالم .

ثم إن الناس جميعا في هذا العالم ليسوا على طبيعة وفطرة واحدة,فبعضهم طيب صالح,ذو مزاج لين,صابر ومتحمل,والعفو والتسامح وعدم الانتقام بالنسبة لهم أمر يسير,والبعض الآخر غضوب قاسى المزاج حاده لا يستريح إلا بالانتقام للإساءة أكثر

مما تستحقه,ومنعهم من الانتقام بهذا الشكل هو إصلاح لهم,وأن يروضوا علـى العمـل بمبدأ أن تكون الإساءة بقدر الإساءة,ولهذا كان من الضروري للغاية لشـريعة جـاءت لتحكم العالم كله أن تجمع بين العدل والإحسان .

القانون والأخلاق:

وما قلناه سابقا يعني أن هناك شيئين لا بد منهما في الدنيا لإقامة الأمن والأمـان والعدل والإنصاف والقضـاء علـى الفتنـة و الفسـاد والسـلبيات وهمـا القـانون والأخلاق,ورغم أن أصل هذين الشيئين واحد لكن الوصول إلى غايتهما يأتي من طـرق مختلفة,وفي كل منهما نقص يتم تلافيه بالاستعانة بالآخر,فالقانون يمنـع النـاس عـن ارتكاب السوء,لكنه لا يولد في القلب نفورا روحانيا تجاه هذا السوء,ولا يمكن إجبار كل شخص بالعمل طبقا للأخلاق,ولهذا فإن من غير الممكن استئصال السوء وإقامة العـدل والإنصاف عن طريقها,والتوراة مجرد قانون,والإنجيل أخلاق محضة,ولذا فإن كلا منهما ليس كافيا وحده لإقامة العدل والإنصاف والقضاء على الفتنة والفساد بشكل كامل,وقـد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة تجمع بين العـدل والإحسـان والقـانون والأخلاق .

وهذه الجامعية في الشريعة المحمدية توجد في صورتين,الأولي أنها لـم تعـط الأخلاق شكل القانون مثلما فعلت اليهودية,ولم تفصل القانون عن الدين وجعلته أخلاقـا مثلما فعلت المسيحية,وإنما أقامت بين القانون والأخلاق حدا فاصلا,وجعلت لكل منـهما حدوده,ووضعت القانون في كتاب الشريعة في مكانه,والأخلاق فـي مكانـها فوصلـت بالإنسانية إلى الكمال .

لقد وضع الإسلام تلك المساوئ التي يتعـدى أثرهـا إلـى الآخريـن تحـت القانون,مثل القتل والسرقة وقطع الطريق والقذف,وهكذا حدد القرآن الكريم لهذه الجرائم حدودا يمكن أن تطبقها الحكومة الإسلامية,أما الأمور التي تتعلق بالكمال الذاتي للشخص فقد وضعها الإسلام في دائرة الأخلاق مثل عدم الكـذب,الشفقـة,مسـاعدة الفقـراء وغيرها,وبهذا تكون الشريعة المحمدية مجموعة من القانون و الأخلاق .

والإسلام كذلك عبارة عن مجموعة من القانون والأخلاق باعتبار آخـر,فمـن الناحية القانونية منح المظلوم وصاحب الحق حق الاختيار إن شاء أخذ حقه كما تقـول التوراة,لكنه قدم له وضعا رفيعا آخر وهو أن يعفو عن الظالم كما يقول الإنجيل,ويقـابل

سيئته بالحسنة,وبذلك وضعت هذه التعاليم كلها قانون الدولة وإدارتها وعدلها من جانب وتكميل الأخلاق الروحانية من جانب آخر كلا في مكانه,ولهذا فهي كفيلة تماما بالحفاظ على النسل الإنساني وتطوره,فهي تستطيع القيام بالأمر بقوة العدل والإنصاف,وتصل بالناس عن طريق الأخلاق إلى الكمال الروحي,فهي ليست جسدا ميتا مثل الشريعة اليهودية,وليست روحا غير محسوسة مثلما هو حال التعاليم المسيحية,وإنما هي جسم وروح وكيان حي محسوس .

العفو والانتقام:

إن الفارق بين التعاليم الأخلاقية الموسوية والعيسوية والمحمدية يتجلى في هذا الفصل وهذا الإدماج بين القانون والأخلاق,فقد قال أكثر المعارضين مشيرين إلى القوانين الإسلامية أن تعاليم رسول الإسلام تخلو من الروح,لكنهم لو وضعوا أمامهم الأخلاق المحمدية جنبا إلى جنب مع القانون المحمدي لم يعتريهم أبدا هذا الشك,فلقد عرفنا أن أسس التوراة تقوم على الانتقام العادل,فتقول:

"ومن يقتل إنسانا يقتل ... وإذا جرح أحد جاره فيفعل معه مثل ما فعل,الكسر عوضا عن الكسر,والعين بالعين والسن بالسن"(الأحبار ١٧-٢٤,الخروج١٢-٢١,العدد٣١-٣٥,الاستثناء١٩،١٢،١١),بينما تعتمد تعاليم الإنجيل على العفو,فنجد هذا الوعظ الحكيم:

"لقد سمعت أنه قيل أن العين بالعين والسن بالسن,ولكني أقول لكم لا تعادوا الظالم,ومن يلطمكم على خدكم الأيمن أديروا له الخد الأيسر"(متى ٥-٣٨) .

لكن هل يمكن أن يقوم نظام العالم ولو ليوم واحد على هذه الأخلاقيات الروحانية الخالصة؟وهل استطاعت دولة مسيحية أو شعب مسيحي تطبيقها ذات يوم ؟ .

أما التعاليم التي قدمها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مجموعة من العفو والانتقام العادل,أي من كل من الأخلاق والقانون,فالعدل قانون,والإحسان أخلاق,وهذان الأصلان نجدهما في كل أحكام الإسلام,وهكذا وصلتنا التعاليم المحمدية فيما يتعلق بالقضية التي نقلنا بخصوصها أحكام التوراة و الإنجيل فيما سبق :

"يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى"(البقرة:٢٢).وهذا هو قانون التعويض العادل,ثم يأتي بعده الحكم الأخلاقي:

"فمن عفي له من أخيه شيء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان،ذلك تخفيف من ربكم ورحمة،فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم"(البقرة:٢٢).

وتأمل في بلاغة هذه الآيات حيث أطلقت على القاتل لفظ(أخ)بالنسبة لأقارب المقتول من أجل إثارة عاطفة الرحمة لديهم بعد أن بدأت بين أقارب المقتول والقاتل العداوة العلنية،ولأنه ليس في التوراة مسألة العفو عن القتل هذه فقد عبرت الآيات عن العفو بالرحمة،وذكر بالإحسان للقاتل،وحذر أقارب المقتول من عذاب الله فيما لو حدث انتقام بعد العفو أو القصاص،انظر كيف جمع حكم الإسلام بجمال بين التوراة والإنجيل،والقانون والأخلاق والانتقام والعفو.وقد أوضح القرآن الكريم هذه الجامعية في مكان آخر بقوله:

"وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص،فمن تصدق به فهو كفارة له،ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون،وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة،وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين"(المائدة:٧).

كانت هذه هي الأحكام القانونية والأخلاقية فيما يتعلق بأقسى الذنوب،والإسلام يضع هذه الجامعية في اعتباره أيضا عند الحديث عن المعاملات المالية،يقول الله تعالى:

"وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم"(البقرة:٣٨).

هذا هو القانون،أما الأخلاق فهي:

"وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة،وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون"(البقرة:٣٨).

كما حافظ الإسلام على هذه الجامعية في المبادئ والأسس بغض النظر عن التفاصيل:

"وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به،ولئن صبرتم لهو خير للصابرين"(النحل).

وجاء هذا المعني في آية أخرى:

"والذين إذا أصابهم البغي إذا هم ينتصرون،وجزاء سيئة سيئة مثلها،فمن عفا وأصلح فأجره على الله،إنه لا يحب الظالمين"(الشورى:٤).

فالجزء الأول من الآية يعني أن لا يبدأ المسلم في ظلم أحد،لأن القانون هو الاقتصاص للسوء بقدره مثلما جاء بالتوراة،ولكن إن عفا المسلم عن هذا الظلم أخلاقا،ولم

يغفره فقط,وإنما قدم الحسنة أمام السيئة فسوف يلقى أجره من الله تعالى,والبلاغة هو أنه قال في حق هذا المظلوم الصابر أن أجره و ثوابه على الله .

المهم أن اختيار أي من للعفو والانتقام نقص في النظام الروحي أو الجسماني للدنيا,فإذا لم يكن هناك مبدأ للعقاب فلن يقوم للجماعة نظام,ولن يستقر الأمن والأمان في البلاد,ولن يمكن إجبار جزء كبير من الأفراد على الرجوع عن السلبيات,وإذا لم يكن هناك مبدأ للعفو فلن يبقى هناك ما نسميه طهارة الأخلاق وسمو الروح في حين أن هذا هو المطلوب بالنسبة لأي دين صادق,ولهذا فإن اختيار واحد من المبدأين وترك الأخر يكون بمثابة القضاء على نصف نظام الدنيا والإبقاء على النصف الأخر.ولهذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعاليم تضع في اعتبارها النظام الكامل للوجود الإنساني,وعهدت بمبدأ العقاب والانتقام إلى الجماعة والحكومة,وأمرت بأن لا تكون هناك رحمة في تطبيقه,ولا تفريق فيه بين فقير وغني ولا بين كبير وصغير ولا بين بني الجلدة والأجانب,حتى يقوم للجماعة والبلد نظام,بينما جعلت التعاليم المحمدية من العفو على الجانب الأخر وسيلة لمدارج كمال الشخصية حتى يرتقي وباستمرار السمو الروحي والطهارة الأخلاقية للأشخاص.

لقد وصلت الشدة من أجل قيام نظام الجماعة أن جاء الحكم عند تطبيق حد من الحدود أن:

"ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر"(النور:١).

بمعنى أن عقاب هذا الذنب عند الله والذي سيكون يوم القيامة هو أقسى من هذا بمراحل,ولهذا فإن معاقبة الشخص على الذنب الذي ارتكبه في الدنيا هو في الحقيقة إحسان إليه,ولذا فإنه لا يجب التهاون في عقابه,وقد وصل الحال في موضوع عدم التفرقة في تطبيق العقاب بين عظيم وحقير وغني وفقير أنه ذات مرة قبض على امرأة مسلمة شريفة بتهمة السرقة,وأرادت قريش أن لا يتم عقابها,وتوسطوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:أيها الناس,لقد هلك من كانوا قبلكم لأنهم كانوا إذا سرق الكبير تركوه,وإذا سرق الصغير عاقبوه,والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (١) .

---

[١] صحيح البخاري – الجزء الثاني – كتاب الحدود – ص ٢ .

بينما وصل الحال في موضوع العفو أن السيدة عائشة تقول:أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتقم من أحد أبدا لذاته.إلا أن يخالف حكما من أحكام الله ([1])فإنه(قانونا)يعاقبه"كان هذا هو العمل.أما التعليم فتمثل فيما يقوله سيدنا أنس رضي الله عنه:"إنني لم أر قضية قصاص ترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح"([2])بمعنى العفو عن القصاص تماما أو أخذ الدية والعفو عنه.وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فيما يخص الجرائم العادية البسيطة:

"اعفوا عن أخطاء بعضكم البعض فيما بينكم,ولكن عندما يصل الأمر إلي الحد فلا بد من العقاب"([3])يعني عندما يرفع الأمر إلى الحكومة فإنه يجب الفصل في الأمر عندئذ حتى يظل احترام الحكومة في القلوب,وقد حدث ذات مرة أن أحد الناس كان ينام ملتحفا بردائه,فجاء شخص آخر وسرق هذا الرداء,وقبض عليه وقدم إلى المحكمة النبوية,فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع يده,فقال الرجل صاحب الرداء:هل تقطع يد إنسان

حدثنا سعيد بن سليمان:حدثنا الليث،عن ابن شهاب،عن عروة،عن عائشة رضي الله عنها:أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت،فقالوا:من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم،ومن يجترئ عليه إلا أسامة،حب رسول الله صلى الله عليه وسلم،فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال:(أتشفع في حد من حدود الله).ثم قام فخطب،قال:(يا أيها الناس،إنما ضل من كان قبلكم،أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه،وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد،وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) .

[1] المرجع السابق – كتاب الحدود .

حدثنا يحيى بن بكير:حدثنا الليث،عن عقيل،عن ابن شهاب،عن عروة،عن عائشة رضي الله عنها قالت:ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم،فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه،والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط،حتى تنتهك حرمات الله،فينتقم لله.

[2] أبو داود و النسائي – كتاب الديات .

حدثنا موسى بن إسماعيل،ثنا عبد الله بن بكر بن عبد الله المزني،عن عطاء بن أبي ميمونة،عن أنس بن مالك قال:ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو.

[3] سنن النسائي – كتاب قطع السارق – باب ما يكون إلا حرزا وما لا يكون .

أخبرنا محمد بن هاشم قال:حدثنا الوليد قال:حدثنا ابن جريج عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:تعافوا الحدود قبل أن تأتوني به،فما أتاني من حد فقد وجب .

في رداء بثلاثين درهما،إني أبيع له هذا الرداء بثمن مؤجل،فقال صلى الله عليه وسلم:لماذا لم تفعل هذا قبل أن تأتني به ؟ " ([1]) .

هذا هو العفو الذي اتخذ شكل الجرائم القانونية إلى حد ما،وبهذا الاعتبار فإن القانون المحمّدي أكثر رحمة من قوانين الدول الجاهلية،وأكثر عدلا وتطابقا مع العقل،والتعاليم الأخلاقية التي تحض على العفو دائرتها في الإسلام أوسع من غيرها بكثير.

<u>تعاليم العفو والصفح:</u>

إن أكثر التعاليم الأخلاقية الصعبة والتي تثقل على أكثر النفوس هي التي تتعلق بالعفو والصفح وضبط النفس والتحمل،لكن الإسلام طوى هذه الأرض الصلدة بسهولة كبيرة،فالجميع يعرف أن الإسلام أظهر كراهية شديدة لعبادة الأوثان والشرك،وهو أمر يميز الإسلام،إلا أنه أكد على المسلمين أن لا تسيئوا إلى أصنام المشركين وآلهتهم حتى لا يسبوا هم الله تعالى:"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا وبغير علم"(الأنعام:١٠٣).وهذه قمة التعاليم التي تحض على التحمل والمتمثلة في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على أذى المشركين وظلمهم وأن يعفو عنهم،وهذا الحكم يسري على المسلمين جميعا إتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم:"خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين،وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله أنه سميع عليم"(الأعراف:٢٤).

والعفو والصفح حال هدوء الإنسان وسكونه أمر سهل،ولكن من الضروري أن لا يخرج الإنسان عن طوره أثناء الغضب،ولذا قال تعالى في مدح الصحابة:

"وإذا ما غضبوا هم يغفرون"(الشورى:٤).

وقال في مدح الذين يعملون الصالحات أن كتمان الغيظ والعفو عن الناس هو السبيل لمحبة الله:

"والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين"(آل عمران:١٤).

---

[1] المرجع السابق - كتاب قطع السارق - باب ما يكون إلا حرزا وما لا يكون .

أخبرنا أحمد بن عثمان بن حكيم قال:حدثنا عمرو عن أسباط عن سماك عن حميد بن أخت صفوان عن صفوان بن أمية قال كنت نائما في المسجد على خميصة لي ثمنها ثلاثون درهما،فجاء رجل فاختلسها مني،فأخذ الرجل فأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فأمر به ليقطع،فأتيته فقلت:أتقطعه من أجل ثلاثين درهما،أنا أبيعه وأنسئه ثمنها،قال:فهلا كان هذا قبل أن تأتني به؟ .

والعفو عن العدو حال المقدرة عليه أمر غاية في السمو وعلو الهمة،قال تعالى:
"ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور"(الشورى:٤٣).

وقد عبر الوحي المحمدي عن هذا التحمل والعفو بلفظ(عزم)والذي جاء في وصف الأنبياء والرسل،قال تعالى:
"فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل"(الأحقاف:٣٥).

ويجب على المسلم أن يتحمل كل المشاق في سبيل نشر الخير والقضاء على الشر،وهذا عمل يتطلب همة وعزماً كبيرين،قال تعالى:
"وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور"(لقمان:١٧)
ومن الشجاعة تحمل أذى المشركين وسلاطة لسانهم،قال تعالى:
"وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور"(آل عمران:١٨٦).

هذه الآيات السابقة كلها تدلنا على أن التحمل والصبر والعفو والصفح من عزم الأمور،ليس هذا فقط،بل إنها كذلك سبب في محبة الله،ودعت الآيات المسلمين إلى العمل بذلك،والأكثر من هذا أن القرآن أمر طبقا للآية التالية يأمر بالعفو عن الأعداء أيضا:
"قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله"(الجاثية:١٤).
والذين لا يرجون أيام الله هم الكفار،فرغم أن الإسلام لا يحب الكفار ولا المشركين،لكنه أكد على المسلمين أن يعفوا عن هؤلاء،ويصفحون عن أخطائهم،فهل يمكن أن نطلب من الإسلام رأفة أكثر من هذا،ولكي يحض الله تعالى المسلمين على العفو والصفح جعلهما من صفاته الخاصة وأمر المسلمين بإتباعهما:
"إن تبدو خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا"(النساء:١٤٩).
يعني إذا كان العفو عن المذنبين والآثمين من صفات الله فإنه يجب أن تنعكس صفة الله هذه في عباده،وقد وصلت بلاغة هذه التعاليم في القرآن الكريم أن الله تعالى يقول أن ربكم قادر على كل شيء ومع ذلك فهو يعفو عن العباد،فيجب على الإنسان وهو صاحب القدرة المحدودة واختياره مشروط،وعجزه وقلة حيلته أمر واضح،يجب عليه أن يعفو،والآية التالية توضح هذا المعنى وتقترب منه:
"وليعفوا وليصفحوا،ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم"(النور:٢٢).

بمعنى أنكم إن عفوتم عن الآخرين فإن الله يعفو عنكم،فكم في هذه الآية من ترغيب في العفو والصفح والمغفرة.

الحسنة بالسيئة:

وهناك تعاليم أكثر أهمية من تعاليم العفو والصفح وهي أن الذي يفعل السوء تعفون عنه وتحسنون إليه وأن تحسنوا إلى عدوكم،وقد سمى الله تعالى الذين يطبقون هذه التعاليم الربانية بأنهم(ذو حظ عظيم)،وقال أن هذا هو أفضل طريق لتحويل العدو إلى صديق :

"لا تستوي الحسنة ولا السيئة،ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم،وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم"(السجدة:٥).

وقد عبر الله تعالى عن هذه التعاليم العظيمة بأنها حظ عظيم،وهو ما نستطيع من خلاله التعرف على أهميتها،وقال في موضع آخر لا تغضبوا من إساءة المشركين والكفار،لأن القيام بشيء في غير موضعه بسبب الغضب لأمر من أمور الدين هو من عمل الشيطان،فإن حدث مثل هذا فادعوا الله أن ينجيكم من همزات الشيطان،وأن يحفظكم من الغضب:

"ادفع بالتي هي أحسن السيئة،نحن أعلم بما يصفون،وقل رب أعوذ بك من همزات الشيطان،وأعوذ بك رب أن يحضرون"(المؤمنون:٦).

وفي آية أخرى ذكر الله تعالى الصلاة والصدقة والصبر والعفو،ووعد بالجنة في مقابلها،لكنه بعد ذلك أعاد ذكر الصبر فقط من بين هذه الحسنات وجعله سببا في دخول الجنة:

"والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب،والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار،جنات عدن"(الرعد:٣).

وسوف يقال لهم:"سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار"(الرعد:٣).

أرأيت،ففي هذه البشارة بالجنة لم يرد ذكر للصلاة ولا للصدقات ولا لخوف الله،وإنما بشرى بجزاء الصبر فقط،وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الآية تخبرنا أن مقابلة السيئة بالحسنة أمر غاية في الأهمية بحيث أنه يذكر جانبا إلى جانب مع فرائض مثل

الصلاة والزكاة.وفي آية أخري تتحدث عن بعض اليهود الذين أسلموا حديثا وصبروا على إيذاء قومهم لهم واعتراضهم عليهم:

"أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا,ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون,وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين"(القصص:٦٠).

وتأمل في جزء من هذه الآيات,فهي لا تؤكد على مقابلة السيئة بالحسنة فقط,والعفو عنها,وإنما تذكر الدعاء بالخير في حق هؤلاء الذين أساءوا.

وجاء في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:ليس الذي يقابل الإحسان بالإحسان هو الذي يؤدي حق القرابة,وإنما هو الذي يقابل السيئة بالحسنة"([1]).

وذات مرة جاء أحد الصحابة وقال:يا رسول الله لي بعض الأقارب أعاملهم معاملة حسنة,لكنهم يسيئون معاملتي,أنا أحسن إليهم وهم يسيئون لي,أنا أعاملهم بحلم وتحمل,وهم يجهلون علي,فقال صلى الله عليه وسلم:لو كان الأمر كما تقول فإنك تملأ أفواههم بالتراب,بمعنى أنك تغلق أفواههم بلقمة الخير,وطالما أنت على هذا النهج سيكون الله في عونك ([2]) .

يقول حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لا تكونوا إمعة إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساء الناس أن تسيئوا,ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا,وإن أساءوا أن لا تسيئوا"([3]) .

---

[1] صحيح البخاري – نقلا عن المشكاة – باب البر و الصلة .

حدثنا محمد بن كثير:أخبرنا سفيان،عن الأعمش والحسن بن عمرو وفطر،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(ليس الواصل بالمكافيء،ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها) .

[2] صحيح مسلم – نقلا عن المشكاة – باب البر و الصلة .

حدثني محمد بن المثنى ومحمد بن بشار،واللفظ لابن المثنى،قالا:حدثنا محمد ابن جعفر،حدثنا شعبة قال:سمعت العلاء بن عبد الرحمن يحدث،عن أبيه،عن أبي هريرة:أن رجلا قال: يا رسول الله!إن لي قرابة،أصلهم ويقطعوني،وأحسن إليهم ويسيئون إلي،وأحلم عنهم ويجهلون علي،فقال:(لئن كنت كما قلت،فكأنما تسفهم المل،ولا يزال معك من الله ظهير عليهم،ما دمت على ذلك).

[3] جامع الترمذي – كتاب البر و الصلة – صـ ٣٣٤.

حدثنا أبو هاشم الرفاعي محمد بن يزيد.حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن

وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بأولئك الذين كانوا يخدعون الإسلام والمسلمين,ويعدونهم كذبا,ويورطونهم في معاهدات خائنة ومهادنات صلح ماكرة:

"ولا تزال تَطّلِعُ عَلَىٰ خائنةٍ مِنهمْ إلا قَليلاً منهمْ فاعفُ عنهم واصفح إنّ الله يحب المحسنين"(المائدة:٣).

وينبغي أن نتأمل كيف أن العفو عن هؤلاء الخائنين والصفح عن تقصيرهم يعد حسنة في الإسلام,والله يبشر من يفعل هذه الحسنة بحبه ورضاه,ويتضح من هذه التفاصيل كلها مدى أهمية تعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم وكمالها في هذه الخصوص .

معجزة اكتمال التعاليم الأخلاقية في الإسلام

إن التطور الذي يحدث في نظام الحكم في عهد المدنية والرقي ليس سببه أن التمدن يضيف جديدا إلى أصول القانون,وإنما سببه أنه يراعى عند تنفيذ القانون في نظام الحكومات المتمدينة تلك البنود المتسعة الشاملة التي تنتشر آثاره بحيث لا يخرج عنها شيء في الدنيا,بينما في عهد البربرية ينفذ القانون بشكل ساذج،ولا يراعي الأحوال والظروف التي تحيط به من كل الجهات،فقد عدت كل الحكومات السرقة جرما،وبهذا الاعتبار فإن الحكومات غير المتمدينة تتساوى تماما مع أكثر الحكومات تمدينا،ولكن هذا لا يكفي لاستئصال هذا الجرم تماما،وإنما يمكن استئصاله عندما يتم تجريم كل أولئك الذين يعينون الآخرين على السرقة،ويبحثون عن مواقع حدوث الجريمة،ويتاجرون في الأموال المسروقة،وما إلى ذلك. على أية حال في هذا الخصوص تتميز الحكومة المتمدينة على الحكومة غير المتمدينة وتتفوق عليها,والسبب في ذلك أن التمدن يوسع القانون كثيرا بينما لا توجد هذه الوسعة ولا تلك الشمولية في نظام الحكومات غير المتمدين،وتلك الإضافة غير المحدودة والتي تحدث في الضروريات الإنسانية في عصر التمدن يكمن سرها في هذه الخصوصية .

الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا.

التفصيل والشمولية :

الدين أيضا مملكة روحانية عظيمة،ويمكن الاستناد إلى المعايير التي نرجح من خلالها حكومة على أخرى في المقارنة والموازنة بين الأديان بعضها البعض،على سبيل المثال تشترك أغلبية أديان العالم في أصول الشريعة،وعلى نفس المنوال نجد الأديان كلها بشكل عام منعت كل الأشياء غير الجائزة والتي تخالف المصلحة العامة سواء في العقائد أو الأعمال أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق،وحثت بشكل عام على الأشياء الجائزة والتي تتفق مع المصلحة العامة ولكن كل هذا مع اختلاف في أسلوب الأمر والنهي وما تحيط به من جزئيات،وهذا هو ما جعل هناك فروقا في الأحكام والشرائع بين الأديان،وبناءا على هذا فإنه كما يقال بأن قانون الحكومة الفلانية هو الأفضل،ومن خلاله نستطيع القضاء على كل السلبيات،وهو يحيط بكل التفاصيل والجزئيات،يمكن بنفس الطريقة أن نقول أن التعاليم الأخلاقية الفلانية هي الأفضل،ومن خلالها نستطيع أن نستقصي المفاسد جميعا،ويمكن أن نشرحها بسهولة ويسر للناس جميعا،وكل جزء فيها واضح بحيث لا مجال لأي سوء في الفهم،وأحد الأسباب التي ترجح الإسلام علي باقي الأديان هي تفاصيل أحكامه وانضباطها وعموميتها،بمعنى أن الإسلام فصل مبادئه وأحكامه باتساع وشمولية بحيث أمكن الاستئصال الكلي للمفاسد،وعمت مظاهر الخير على عكس الأديان الأخرى والتي شرحت تلك الكليات شرحا إجماليا غير كامل.

فمثلا التوحيد هو أصل الأصول لكل الأديان،ولكن لم يحدد دين من الأديان حقيقته ومظاهره،وعلى هذا دخل الشرك بصورة أو بأخرى في كل دين إلا الإسلام،فهو الدين الوحيد الذي حدد أسباب وعلل وعواقب ونتائج الشرك كلها،واستئصالها كلية،فقد كان هناك طريقة رائجة للشرك هي عبادة الأوثان،وكانت الطريقة السهلة للقضاء عليه أن تدعي الأمم للتوحيد وأن تحطم كل أصنام العرب،لكن الإسلام لم يقتصر على هذه الطريقة السهلة البسيطة،وإنما حرم كل الأشياء التي تحيي هذه الأصنام من جديد،فالتصوير بشكل عام ليس شيئا سيئا،لكنه كان مظهرا عاما من مظاهر الوثنية ولهذا حرمه الإسلام،وهكذا الغلو والمبالغة في مدح أحد والثناء عليه،فإنه وإن كان من الأخلاق السيئة،إلا أنه مع ذلك يضيف إلى نفوذ وطاقة الأشخاص إضافة غير عادية،فإن أمكن الاستفادة منه في عمل طيب فهو أمر مفيد للغاية،وكان من الممكن للإسلام أن يوظفه لنشر الدعوة وترويجها،ولكن لأنه يرسي مبدأ تقديس الأشخاص والذي اتخذ شكل

الشرك عند الأمم القديمة لهذا حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشدة من على المنبر فقال:"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم،فإنما أنا عبده،فقولوا عبد الله ورسوله"(البخاري-كتاب الأنبياء).

فهذا حكم كلي،وقد ألزم به رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين دائما،وهكذا حدد الإسلام كل شوائب الشرك وقضى عليها،وهذا هو الحال مع العبادات أيضا،فقد شرح الإسلام كل ركن فيها ووضحه بالتفصيل،وهو الحال كذلك مع التعليم الأخلاقي،وقد أحاط بكل جزئيات الأخلاق وعرفها لكل متبعيه،ولم يبق هناك أمر يحتاج إلى سؤال وجواب،وهذا هو معنى الإكمال و التتميم الذي كانت من أجله البعثة النبوية،وقد أكمل النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاق من ثلاثة اعتبارات :

١- الإحاطة بالتعاليم الأخلاقية كلها.

٢- الإحاطة بتفاصيل كل سيئة وحسنة.

٣- تفصيل قسمي الأخلاق من القوة واللين والمسكنة وعلو الهمة وتحديد مواقعها.

<u>الإحاطة بالتعاليم الأخلاقية:</u>

إن نظرة على فهرس التعاليم الأخلاقية لمعلمي الأخلاق اليهود والمسيحيين وغيرهم توضح السر في كيف أنه لم يستطع واحد منها الإحاطة بكل الأحوال والكيفيات الأخلاقية،وإنما كل ما فعله هو أنه أعد قائمة بالإصلاحات الأخلاقية في ضوء أحوال وظروف عصره ومتبعيه،ثم اهتم بعدة مبادئ فقط وأبرزها في كل مكان من تعاليمه،فكانت الأهمية الكبرى في صحيفة سيدنا موسى عليه السلام للأحكام العشرة،يعني تلك الأحكام العشرة التي نزلت على بني إسرائيل في حضن جبل سيناء،وأول حكم من هذه الأحكام العشرة هو التوحيد،والثاني هو منع التصوير وصناعة التماثيل،والثالث كراهية الحلف كذبا باسم الله،والرابع الاستراحة يوم السبت،أما الأحكام الستة الباقية فهي على التوالي كما يلي(انظر الخروج – باب٢٠) :

١-أن تكرم والديك .

٢-أن لا تقتل .

٣-أن لا تزني .

٤-أن لا تسرق .

٥-أن لا تشهد زورا على جارك .

٦-أن لا تطمع في زوجة جارك ولا في غلامه أو أمته ولا في ثوره أو حماره،ولا في أي شيء يمتلكه .

وهذه في الحقيقة هي أبجد الدرس الأخلاقي،ثم جاءت بعد ذلك في سفر الخروج باب ٢٢ وباب ٢٣ عدة أمور جنبا إلى جنب مع الأحكام القانونية،يعني حسن معاملة المسافر والأرملة واليتيم،والمنع من شهادة الزور،ثم جاء تفصيل هذه الأحكام في سفر الأحبار– باب ١٩ كالتالي:

١- أن يظل كل منكم يخشى أمه وأباه .

٢- أن لا تسرقوا،ولا تكذبوا في أموركم،وألا يكذب أحد على أحد .

٣- أن لا تحلفوا كذبا بي .

٤- أن لا تخدعوا جاركم،ولا تسلبوه شيئا،وأن تعطوا الأجير أجره،وأن لا تبقى أجرته حتى الصباح.

٥- أن لا تنهروا الأصم،وأن لا تضعوا في طريق العميان ما يتعثروا فيه .

٦- أن تعدلوا في حكمكم،و أن تعدلوا بين إخوانكم دون تفرقة بين فقير وغني.

٧- أن لا تعيش بين بني جلدتك باحثا عن عيوبهم،وأن لا تصر على قتل أخيك .

٨- أن لا تكن لأخيك بغضا وكراهية .

٩- أن لا تنتقم من أبناء بني جلدتك ولا تحقد عليهم .

١٠- أن تقف احتراما أمام من شاب شعره،وأن تحترم الشيوخ والكهول .

١١- إذا سكن مسافر معك في أرضك فلا تظلمه،وإنما عليك أن تعتبره وكأنه ولد معك وأحبه كما تحب نفسك .

١٢- عليك بالعدل في الحكم والكيل والوزن .

الأحكام الأخلاقية في الإنجيل:

ولم يحط الإنجيل التعاليم الأخلاقية فقط ، بل ولم يفصلها أيضا،فلقد كان الهدف من بعثة سيدنا عيسى عليه السلام في الحقيقة هو دعوة بني إسرائيل إلى التخلي عن الحرفيات والالتزام بالظاهر والتمسك بالروح والمعنى،وهذه الحقيقة تبدو في الأخلاق مثلما تبدو كذلك في الأحكام،وقد كان التجديد والإصلاح الأخلاقي لسيدنا عيسى عليه السلام هو أن يجمع التعاليم الأخلاقية السامية الخالصة المنتشرة والمتفرقة في توراة سيدنا موسى وزبور سيدنا داود،وأمثال سيدنا سليمان والصحف الإسرائيلية الأخرى في

وعظه الشهير ويقدمها له،وقد جاءت الأمور التالية في الوعظ الأخلاقي المشهور بالترتيب كالتالي :فقر القلب،الحزن،التحمل والتسامح،الصدق،الشفقة،العفة،المسالمة،الصبر،العفو،الطهارة،منع الحلف،عدم مواجهة الظالم،العفو عن الدين،محبة الأعداء،منع الرياء،التوكل،عدم اتهام الآخرين،وأن تعامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به .

وأغلب هذه التعاليم الأخلاقية التي جاءت في الإنجيل بهذه الألفاظ مذكورة في مختلف صحف بني إسرائيل،وكان المقصود من جمع هذه التعاليم الأخلاقية بصفة خاصة وتقديمها إلى بني إسرائيل أن يقيم التوازن الأخلاقي بينهم،وأن يبرز لهم الروح الأصلي والمعنى الحقيقي لمسمى الأخلاق و لفظ الشريعة .

استقصاء الأحكام الأخلاقية في الإسلام:

إن بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست محدودة بزمن أو مقتصرة على قوم بعينه،ولهذا فإن صحيفة التعليم الأخلاقية التي نزلت عليه صلى الله عليه وسلم لم تكن محصورة في إصلاح شعب أو زمن بعينه،وإنما شملت الأمم كلها والعصور جميعا،ولهذا فقد استقصت هذه التعاليم كل السلبيات الموجودة في الأمم كلها والعصور جميعا،وكذلك السلبيات التي يمكن أن تظهر فيما بعد،ثم حرمها ومنعها،وبنفس الطريقة وضحت بشكل كامل كل المحاسن الأخلاقية وأكدت على اكتسابها،ولقد استقصى الوحي المبارك لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جزئيات وتفاصيل كل السلبيات التي منعتها الصحف السابقة،وكذلك كل المكارم التي أمرت بها،وألقى عليها الضوء الذي يجعلها في غاية الوضوح،وفيما يلي نورد قائمة مجملة لتلك التعاليم الأخلاقية والتي أمر بها القرآن الكريم أو منع منها:

قائمة الأخلاق القرآنية:

قول الصدق،وذم الكذب،وذم العلم بغير عمل،والعفو والتسامح عموما،والتوكل،والصبر والشكر والاستقامة على الحق وا لتضحية بالروح في سبيل الحق والأمر بالجود والتصدق،وذم البخل،والمنع من الإسراف والتبذير،والتأكيد على الاعتدال،والإحسان إلى الأعزاء والأقرباء واليتامى والمساكين والجيران،ومساعدة الفقراء والسائلين وعابري السبيل،والإحسان إلى الأسرى والعبيد،وذم التفاخر والغرور،والحث على الأمانة والوفاء بالوعد والالتزام بالعهد وتنفيذ المعاهدات،والحث

على الصدقة والتصدق والخير والعمل الصالح،وبث المحبة بين الناس،وعدم ذم الناس ومضايقتهم،وعدم ذكر الآخرين بما لا يحبون من أسماء،وخدمة الوالدين وطاعتهم،والدعاء للزائرين بالخير والسلامة،وقول الحق والعدل والشهادة الحقة وعدم كتمان الشهادة،وتأثير الشهادة على إحساس القلب بالذنب،واللين في الحديث،وعدم الفخر والتكبر،والمسالمة والتصالح والاتحاد والاتفاق والأخوة الإيمانية،والأخوة الإنسانية،والأكل الحلال وكسب القوت،والمنع من قتل الأولاد و قتل الآخرين بغير حق،وكفالة اليتيم والمحافظة على ممتلكاته بحسن نية،وعدم التطفيف في الكيل و الميزان،وعدم إثارة الفتنة والفساد،والمنع من الحديث المجاهر بالذنب،وتحريم الزنا وغض البصر،وعدم دخول بيوت الآخرين بغير إذن منهم،والحث على الستر والحجاب،وذم الخيانة ومحاسبة العين والأذن والقلب،والعمل الصالح والإعراض عن اللغو،ومراعاة الأمانة والعهد،والحث على الإيثار والتحمل والعفو عن الآخرين والعفو عن الأعداء،ومقابلة السيئة بالحسنة،وذم الغضب،ومراعاة التأدب في مخاطبة المعارضين وأثناء حوارنا مع الآخرين،وعدم الإساءة إلى آلهة المشركين،والعدل والإنصاف في الحكم،والإنصاف مع الأعداء،وعدم المن على الناس بالصدقات،والتنفير من الفسق والفجور،والمنع من السرقة والنهب وقطع الطريق واغتصاب مال الآخرين،والحث على تقوى القلب والعفة،وذم التفاخر بهذه العفة،والوقار أثناء السير وحسن الأخلاق في المجالس،والإحسان إلى الضعفاء والسيدات،وطاعة الزوج،وأداء حق الزوجة،وعدم الحلف بغير حاجة،ومنع الغيبة والنميمة والقذف،والحث على طهارة الجسم والروح والملابس وستر العورات،وعدم نهر السائل،وعدم قهر اليتيم،والتحدث بنعمة الله وعدم الاغتياب،وعدم سوء الظن،والرحمة بالجميع،والنفور من الرياء والتظاهر،والحث على الإقراض الحسن،والعفو عن الدين والمنع من الربا و الرشوة،والحث على الثبات والاستقلال والشجاعة،وعدم الإدبار أثناء المعارك والمنع من شرب الخمر ولعب القمار،والحث على إطعام الجائع،وتجنب عدم الحياء في الظاهر والباطن والعمل الصالح بغير غرض شخصي،وعدم حب المال والثروة والمنع من الظلم،وعدم الإعراض عن الناس وتجنب الذنب،ومراعاة حق كل فرد على الآخر،والصدق والأمانة في المعاملات.

قائمة أخلاقيات الأحاديث النبوية:

كانت هذه هي التعاليم القرآنية،وهناك كم هائل من الأخلاقيات التي وردت في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم،وقد جاء تفسيرها وشرحها في الأحاديث،وقد بلغت من الكثرة بحيث أنها جاءت في مائة و سبعة و ثمانين صفحة من القطع الكبير المكتوب بخط صغير في كتاب(كنز العمال)الذي يعتبر أكثر كتاب جمع أحاديث متنوعة،وفي كل صفحة من هذه الصفحات سبعة وثلاثون سطرا،وبلغت ثلاثة آلاف وتسع مائة وستة حديث مقسمة تحت مائتين وخمسين عنوانا مختلفا تقريبا،وبعضها وإن كان مكررا إلا أننا من خلالها نعرف أنه لا يوجد جزء من أحوال وكيفيات الإنسان الأخلاقية والنفسية لم تشمله تعاليم داعي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،أو لم يكن في اعتبار أعظم معلمي الأخلاق وآخرهم في العالم صلى الله عليه وسلم،وفيما يلي نسدرج تلك العناوين من التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم والتي وردت في صحيح البخاري وسنن أبي داود وجامع الترمذي:

صلة الرحم،والبر بالوالدين،وحب الأطفال،والرحمة بالصغار واحترام الكبار،واعتبار أخيك مثلك،والإحسان إلى الجار،والإحسان إلى الخدم والعبيد،والعفو عن أخطائهم،وتربية الأهل والأولاد،والسؤال عن اليتامى والأرامل،ومساعدة المحتاجين،ومساعدة العميان،والتعاطف مع الإنسان بعامة،والإحسان إلى المدينين،والاستماع إلى استغاثة من يستغيث،ونفع البشر،وحب الخير للمسلمين والرحمة بالحيوان،وشكر المحسنين،وحق المسلم على أخيه المسلم،وعيادة المرضى وخدمتهم،والمنع من الحسد،والمنع من الشماتة في مصائب الآخرين،والحث على الشجاعة وعدم الهروب من ميدان الحرب،وطاعة الإمام والأمير،والمواظبة على العمل،والحث على الكسب من عمل اليد،والكلمة الطيبة،والأخلاق الحسنة،وتجنب سلاطة اللسان،والحث على كرم الضيافة،والحياء والحلم والوقار،وضبط النفس في الغضب،والعفو والتسامح والصبر والتحمل،وذم التفاخر والحسب والنسب،وذم سوء الظن،وعدم دخول بيوت الآخرين بغير إذن منهم،وعدم تدقيق النظر في حالة دخول بيوت الآخرين،والدعاء للأخ بظهر الغيب،والرفق واللين والقناعة والاستغناء،ومنع التسول،وعدم المجاهرة بالذنب،وستر عيوب الآخرين،ومنع الاغتياب،وذم القذف واتهام الآخرين،ومنع الغيبة والبغض والحقد،وعدم النميمة،والحفاظ على السر

والتواضع،والأمانة ومنع السب والشتم،ومنع المدح والثناء في وجه من نمدحه،ومنع لعن الآخرين،ومنع البخل،ومنع اللغو من الحديث،ومنع التبذير،وذم الغرور والتكبر والحث على المواساة والتعاطف والتوكل،وذم الطمع،والحث على الرضا بالقضاء،ومنع لعب القمار والحث على الصدق ومنع الكذب،ومنع شهادة الزور،ومنع إثارة الفساد والفتن،والحث على الصلح،وألا يهجر المسلم أخاه أكثر من ثلاثة أيام،ومنع النفاق والازدواجية وذم التحايل،والمنع من خلف الوعد،ومنع الخيانة والخداع،والمنع من شرب الخمر والزنا والسرقة،والحث على الطهارة والنظافة،والحث على السلام على الأصدقاء والأحباب أثناء لقاءهم وتحيتهم ومصافحتهم ومعانقتهم وغيرها من آداب اللقاء،ومراعاة آداب المجالس وآداب الطعام وآداب اللباس وآداب الجلوس والقيام وآداب البيت وآداب النوم واليقظة،والأحكام الخاصة بالآداب والأخلاقيات المتعلقة بالسيدات.

ويمكننا قياسا على هذه التفصيلات كلها أن نعرف مدى الثروة العظيمة من الأخلاقيات والتي أعطيت للإنسان بوسيلة النبي صلى الله عليه وسلم .

استقصاء الجزئيات الأخلاقية:

إن الإنسان يميل إلى اختلاق الأعذار والتحايل،ولا تكفيه المبادئ الكلية للأخلاقيات،إذ سيلجأ إلى التحايل على الألفاظ والاكتفاء ببعض الأمور التقليدية الحرفية في الأخلاق،وإنما بدا له من استقصاء كل تفاصيل الأخلاق الطيبة والأخلاقيات السيئة،وتوضيحها أمامه تماما،وشرح مكامنها وأعماقها،وأن يتم إرشاده إلى وسائل وطرق الوصول إليها،وتصدر له أحكام صريحة بهذا الخصوص،وقد راعت التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمور بشكل كامل،ويكفينا شرحا لذلك ذكر مثالين لكل من الأمر والنهي.

فالتصدق والإحسان يعد في كل الأديان أكبر أعمال الثواب،لكن التوراة حصرتها في العشر والزكاة،وما عدا ذلك لا نجد ذكرا فيها لأي صدقات أخرى،وقد استحسن الإنجيل التصدق بكل ما يملك الشخص على الآخرين حتى يصير هو نفسه محتاجا،بينما جمعت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم بين الاثنين،وفصلت كل جزء فيها،فلم يكن واضحا في التوراة ما هي كمية المحاصيل والغلال أو الذهب والفضة والتي تفرض على مالكها الزكاة أو العشر،بينما حددت الشريعة المحمدية مقدارها وعددها ووقتها بشكل كامل،فعين الأجناس التي يجب فيها العشر أو الزكاة،وحددت الطريقة التي يتم

تحصيلها بها،كما شرحت مصارفها وأوجه إنفاقها،ولم تأمر بأن ينفق الشخص كل ما يملك في سبيل الله حتى يفلس،وإنما قالت :

" يسألونك ماذا ينفقون قل العفو " (البقرة : ٢٧) .

لكنها مع ذلك أكدت من الناحية الأخلاقية على أن نتحكم في احتياجاتنا ونضغط على أنفسنا حتى نلبي حاجات الآخرين،فإذا فعلنا فإن ذلك من كمال خلقنا،وقد مدح الله تعالى الأنصار الذين تحملوا عبء إخوانهم المهاجرين قائلا:

"يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" (الحشر : ١) .

ومدح الصحابة قائلا:

"يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" (الإنسان : ١) .

والقرآن الكريم مليء بالحث على الإنفاق في سبيل الله،وأكثر الناس يقدمون إلى الآخرين في سبيل الله الأشياء الناقصة غير الجيدة والتي لا قيمة لها،وقد منع القرآن الكريم من هذا،فإن هذا يظهر دناءة النفس وخبثها بدلا من تزكيتها وتطهيرها والذي هو الهدف من هذه الصدقات،قال تعالى:"لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون،وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم"(آل عمران:١) .

ثم قال:"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم،ومما أخرجنا لكم من الأرض،ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه،واعلموا أن الله غني حميد"(البقرة:٣٧).

وتأمل في بلاغة نهاية هذه الآية الكريمة إذ قال الله عن نفسه أنه (غني حميد)،أي أنه أرشد عباده إلى التصدق بأفضل مالهم،وليس هذا لأن الله تعالى والعياذ بالله يحتاج إلى أفضل مال عباده،إذ أنه غني عن كل ما يملكون،وإنما السبب في هذا هو أنه صاحب الصفات الحسنة،ولهذا فإنه يقبل الشيء الحسن،ثم يقول بأن أول من يحتاج إلى مساعدتك هم أولئك الذين عليك فرض كفالتهم،من الأهل و العيال والأعزاء والأقارب والتابعين ثم المحتاجين والمساكين واليتامى وأبناء السبيل:

"يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين،وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم " (البقرة : ٢٦) .

فإذا لم يكن لدى أحد شيئ فهل يتصدق ؟! ذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:تجب الصدقة على كل مسلم،فقال الناس فإن لم يستطع،قال:يعمل ويأكل بعض

أجره،ويطعم المحتاجين البعض الآخر.فقال الصحابة:فإن لم يكن يستطع العمل.قال:يعين المنكوبين والمحتاجين جسمانيا،وإن لم يستطع هذا أيضا فليبتعد عن السوء فإن هذا له صدقة ([1]) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكان آخر:"الكلمة الطيبة صدقة والمنع من السيئة صدقة،وإرشاد المسافر وضال الطريق صدقة،وإعانة الأعمى صدقة،وإماطة الأحجار والأشواك والعظام عن الطريق صدقة،وأن تصب من دلوك في دلو أخيك صدقة"([2])،ولنتأمل كم يتسع معنى الصدقة والإحسان.

وعليك أن لا تمن على أحد بإحسانك إليه،ولا تذكره به،ولا تطلب منه شكرا عليه،ولا تقصد بإحسانك الرياء والتظاهر،وإلا فإن ذلك يبطل الصدقة،وقد أخبر الوحي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر الثاني فقال تعالى:"ولا تمنن تستكثر"(المدثر:١).
وأكد على عامة المسلمين قائلا:
"يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر"(البقرة:٣٦).
ثم قال بأن الحسنة البسيطة أفضل من مثل هذه الصدقات.:
" قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حميد " (البقرة : ٣٦) .
ولكن تجنب نفسك الرياء والتظاهر على بالتصدق سرا،فإن قصدت إلى حث الناس وترغيبهم على بذل الصدقات فيمكنك عندئذ أن تتصدق جهرا:

---

[1] أدب المفرد للإمام البخاري–باب إن كل معروف صدقة–ص–٤٦–مصر:حدثنا آدم بن أبي إياس قال:حدثنا شعبة قال:حدثني سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه،عن جده،قال النبي صلى الله عليه وسلم:على كل مسلم صدقة قالوا:فإن لم يجد؟قال:فيعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق قالوا:فإن لم يستطع أو لم يفعل؟قال:فيعين ذا الحاجة الملهوف قالوا:فإن لم يفعل؟قال:فيأمر بالخير،أو يأمر بالمعروف قالوا:فإن لم يفعل؟قال:فيمسك عن الشر،فإنه له صدقة.

[2] جامع الترمذي – أبواب البر و الصلة , باب صنائع المعروف .

حدثنا عباس بن عبد العظيم العنبري.حدثنا النضر بن محمد الجرشي اليمامي.حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:تبسمك في وجه أخيك لك صدقة،وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة،وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة،وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة،وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة،وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

"إن تبدو الصدقات فنعما هي,وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم,ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير" (البقرة : ٣٧) .

" الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون "

ويجب أن تبذل الصدقات عن رضى وطيب خاطر,وألا تكون بالجبر والإكراه,فإن ذلك علامة النفاق:" و لا ينفقون ألا و هم كارهون " (التوبة : ٧) .

ويجب أن تكون الصدقات عن قلب مطمئن ولوجه الله فقط :

"ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله و تثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة ... " الآية (البقرة : ٣٦) .

بل أكثر من ذلك أن يجب أن يقصد بالصدقات ذات الله تعالى :

" و ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"(البقرة : ٣٧) .

ومن التفصيلات السابقة نتبين إلى أي مدى أحاط الإسلام بهذه التعاليم .

الإحاطة بالجزئيات في تحريم المسكرات:

وهذه الوسعة والشمولية تتضح بشكل أكبر في الأحكام,على سبيل المثال لم تحرم الأديان كلها المسكرات بشكل واضح,لكن دينا منها لم يستحسنها,والإسلام هو أول دين نفذ في أمرها حكما قطعيا ونهائيا,وقضى بذلك على كل جوانب الشك والتذبذب,ومع أن بعض المستقيمين قبل الإسلام تخلوا عن شرب الخمر,لكن هذه الحرمة كانت مقصورة على الأشخاص فقط,ولا يمكن بهذه الطريقة حفظ المجتمع من مخاطرها,بل إن الأشخاص أنفسهم لا يكونون في مأمن كامل من هذه المخاطر,على سبيل المثال شخص ما لا يشرب الخمر,لكنه يتاجر فيها,وشخص آخر يتجنب هذين الشيئين,لكنه يستخدم الأواني التي يصب فيها الخمر أو يصنع فيها,بينما حرم الإسلام الخمر بشكل جامع بحيث لو تم تنفيذ الحكم كاملا لم يتصور أحدا أن يشرب الخمر :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه " .

وأكبر فرض عن القانون المهذب أن يعرف منطقيا بالشيء الذي يمنع الناس من فعله,فلقد كان الخمر عند العرب يصنع من أشياء مختلفة,وكانت له أسماء عديدة,وكانت

آثاره أيضا مختلفة,وقد استعملت الآية القرآنية التي نزلت في تحريم شرب الخمر لفظ(الخمر),ولهذا كان من الضروري تحديد معنى وحقيقة الخمر,وهكذا حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يلي :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن من العنب خمرا,وإن من التمر خمرا,وإن من العسل خمرا وإن من البر خمرا وإن من الشعير خمرا " .

" قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إن الخمر من العصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة,وإني أنهاكم عن كل مسكر " .

وقد كان الخمر يصنع في بلاد العرب المختلفة من هذه الأشياء,ولهذا فإن هذا التعريف يحيط بكل أنواع الخمر عند العرب,ولكن لأن الإسلام دين عالمي,ومن الممكن أن تكون هناك أنواع أخرى من الخمر تستخدم في أماكن أخرى من العالم ولم يشملها التحديد,لهذا عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمر تعريفا كليا يشمل كل أقسام الشراب فقال:" كل مسكر خمر,وكل مسكر حرام " .

" كل شراب أسكر فهو حرام " .

ومع ذلك فقد بقيت هناك ثغرة للذين يحتالون على الأمور,فإن السكر هو السبب الأساسي الذي حرم من أجله الخمر,ولكن من الممكن أن يستعمل الخمر بقدر قليل بحيث لا يسكر,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:"ما أسكر كثيره فقليله حرام" .

وهناك بعض الأشياء لا تسكر,لكنها تؤدي إلى حالة من تخدير الأعصاب,وهي بمثابة مقدمات السكر مثل الأفيون وغيره,وكثيرون من الذين يحتالون على الأمور في عصر التمدن يستعملون هذه الأنواع,ولهذا منعها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر "

ومع ذلك فإنه بعد هذا التفصيل هناك إمكان بأن يستعمل الناس الأشياء المسكرة والتي لا يطلق عليها عرفا مسمى الخمر,وكان عند العرب شيء كهذا يطلقون عليه(داوي),ولهذا أدخله رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر فقال :

" يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها " .

وبالإضافة إلى ذلك جاء المنع في البداية على تلك الأواني التي كان العرب يستعملونها في صب الخمر وصناعته:"نهى عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير".

ولكن لأن هذا كان نوعا من الشدة فقد نسخ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحكم في النهاية,ولم يبق سوى صورتان فقط لاستعمال الخمر,أولها أن تغير حقيقته,والثانية أن يستعمل في حالة الضرورة القصوى,ومع ذلك فقد منع الرسول صلى الله عليه وسلم الخمر في هاتين الصورتين أيضا,وقد ورث بعض الأطفال اليتامى خمرا,وبعد تحريمه لم يعد لهذا الميراث قيمة,فسأل سيدنا أبو طلحة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمح بأن يصنع منه خل,ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسمح بذلك ([1]) .

وذات مرة قال ديلم الحميري لرسول الله صلى الله عليه وسلم إننا نعيش في بلاد باردة ونقوم بأعمال صعبة وقاسية,ولهذا نشرب شراب الشعير حتى نتحمل قسوة البرد والعمل,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:أهو مسكر؟ فقال:نعم,فقال صلى الله عليه وسلم: فاتركه,فقال:لكن الناس لا يتركونه,فقال صلى الله عليه وسلم فإن لم يتركوه فجاهدهم ([2]) .

وقد منعت التوراة قبل الإسلام بني إسرائيل من أخذ الربا من بني جلدتهم,كما منعها الإنجيل كذلك,ولكن هذا المنع مجمل,بينما عندما حرم الإسلام الربا بين حقيقة الربا وأقسامه وأيها يجوز,وفصل كل ذلك,ثم منع الأمور المتشابهة والمعاملات الناقصة كذلك,وعد الذي يشارك في هذا الجرم بأي شكل من الأشكال مجرما :

"لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه" .

<u>الاستقصاء في تحريم الرشوة:</u>

"لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي".وهناك تفصيل مثل هذا واستقصاء واحاطة بكل الجزئيات في التعاليم الأخلاقية الأخرى في الإسلام,لأن

---

[1] -أبو داود-الجزء الثاني-صـ٨٠-كتاب الأشربة,وهناك اختلاف بين الفقهاء في جواز صناعة هذا الخل من عدمه .
حدثنا زهير بن حرب،قال:ثنا وكيع،عن سفيان،عن السدي،عن أبي هبيرة،عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أيتام ورثوا خمرا قال:أهرقها قال:أفلا أجعلها خلا؟قال:لا.

[2] أبو داود – الجزء الثاني – صـ ٨٠- كتاب الأشربة .
حدثنا هناد بن السري،ثنا عبدة،عن محمد يعني ابن إسحاق،عن يزيد بن أبي حبيب،عن مرثد بن عبد الله اليزني،عن ديلم الحميري قال:سألت النبي صلى الله عليه وسلم،فقلت:يا رسول الله،إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديدا،وإنا نتخذ شرابا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا قال:هل يسكر؟قلت:نعم،قال:فاجتنبوه قال:قلت فإن الناس غير تاركيه،قال:فإن لم يتركوه فقاتلوهم.

الشيء الذي يروج بشكل كبير إذا لم يتم القضاء على صوره المختلفة فإنـــــه لا يمكــن التخلص منه مطلقا .

ضعف الأخلاق المسيحية:

لقد خلقت فلسفة الأخلاق المسيحية سوء فهم كبير في العالم وهي أنها حصــرت الأخلاق في الانفعالات،بمعنى أنها أعطت التواضع والمسكنة والعجز والمهانة والتحمـل وغيرها درجة الأخلاق،ثم حطت من شأن القوى المقابلة لكل هذا في حين أن الحفـــاظ على أمن وسلامة العالم ورفاهيته يحتاج إلى المزج المناسب بين النوعين معـــا،ففــي الوقت الذي يكون فيه التواضع ضرورة تكون عزة النفس في موقع ضرورة أيضا،وكما أن العفو والصفح من سمات الهمة العالية فإن الحاجة ملحة أيضا للعـــدل والقصـــاص القانوني،وإذا كانت مثل هذه الأخلاقيات المحكومة ضرورة للنوعين فإنه لا بد أن تظـل الأخلاقيات الحاكمة داخل الأمة أيضا حتى يظل ميزان العدل قائما.

اعتراض نيتشه على الأخلاق المسيحية:

وقد اعترض الفيلسوف الألماني نيتشه على الأخلاق المسيحية بـــداع وبــدون داع،وقد وصف بعض التعاليم الأخلاقية المسيحية بأنها وصمة عار على جبين الإنسانية لأنهــا تعلم الضعف والعجز والمهانة والمسكنة،وبالتالي لا تخلق في الناس جوهر العزم والهمة العالية والاستقلال وثبات القدم وعزة النفس . يقول نيتشه :

"لقد وقفت المسيحية دائما في صف الأشياء الضعيفة المنحطة المهترئة،واتخــذت مــن استئصال قوى الاعتزاز في الطبائع الإنسانية مسلكا لها،لقد قضت المسيحية على العقول الجبارة"([1]).

اعتدال الأخلاق الإسلامية:

لكن لم يعرف أنه بعد مرور ٥٧٥ عاما على المسيح جاء نبي آخـــر الزمـــان وصحح أخطاء النظام الأخلاقي في المسيحية،وجاء بنظام معتدل للأخـــلاق الإنســانية يناسب كل فرد وكل شعب وكل زمان،وكان أثر هذا أنه لم تكد تمضي عشـــر ســنوات على هذا النظام حتى أخذ المحكومون مكان الحكام والمتراجع مكان المتقـــدم والأدنـــى مكان الأعلى والتخلف مكان التطور،وهو ما لم تحقق منه المسيحية شيئا إلى أن قبلـــت المبادئ الإسلامية باسم التطوير والإصلاح .

---

[1] إم . اى . مكى – نيتشه – ترجمة مولوي سيد مظفر الدين ندوي – الباب الثالث .

اختلاف الاستعداد بين النفوس:

إن التعاليم الأخلاقية ليست طبا تعالج وصفة منه الأمراض الداخلية لدى كل مريض،إذ إن الأحوال الداخلية والإستعداد الأخلاقي والقوى النفسية لدى البشر جميعا ليست متساوية،ففيهم الهزيل ضعيف الهمة المتراجع،وفيهم القوي عالي الهمة والعزم أيضا،فيهم المتواضع وفيهم المغرور المعتز بنفسه،فيهم الجبان وفيهم الشجاع،فيهم المتحمل الصبور وفيهم الغضوب،فيهم البخيل وفيهم المبذر،وفيهم المتسول وفيهم الكريم،وفيهم اليائس والذي يملؤه الأمل،وفيهم ضعيف الإرادة وفيهم قوي القلب،وفيهم الظالم القاسي والذليل المحتقر،المهم أن هناك تفاوتا كبيرا بين الأمراض ودرجاتها بحيث لا يفيد معها دواء واحد للجميع،وأفضل المعالجين الأخلاقيين هو الذي يعد وصفاته طبقا لكل شخص،ولكل شعب،ولكل زمان،ويملك القدرة على شفاء الأمراض المختلفة .

إصلاح كل شخص حسب الحاجة:

إن مبادئ التعاليم الأخلاقية الصحيحة والتربية هي خلق الاعتدال في القوى لدى الشخص أو الأمة،فيقلل ما كان منها كثيرا ويزيد ما كان منها قليلا،فيجعل من الضعيف شجاعا ومن الشجاع عادلا ومن ضعيف الهمة قوي الهمة،ومن قوي الهمة من لا يغصب حقوق الآخرين،ويجعل من اليائس مؤملا،ويفهم هذا بدوره أن كل ما يحصل عليه هو من الله تعالى،ويمنح القانع الإرادة العالية،ويفهم الحريص أن لا يطلب من الناس وإنما يطلب من الله تعالى،وأن يجعل من الذليل المحتقر معتزا بنفسه،ويجعل من المعتز شخصا غير مغرور،إنه يطور القوى الجيدة،ويوجه القوى السيئة إلى المقاصد الحسنة فيقلل من سوءها .

إن المطلع على الفلسفة القديمة للأخلاق يعرف أن أساس كل الأخلاق لدى الإنسان على قوتين اثنين هما قوة الغضب وقوة الشهوة،فالغضب اسم لقوة الدفاع عن الأمور المناسبة التي تعرض للنفس،بينما الشهوة اسم لقوة الطلب والحصول على الأمور المناسبة للنفس،وينتج عن الإفراط والتفريط والاعتدال ومراتبه المختلفة في هاتين القوتين تفاصيل أخلاقية عديدة حسنة وسيئة،ولكل واحدة منهما اسم مستقل،فإذا برئت قوة الغضب من الإفراط والتفريط وظلت تحت سيطرة العقل فإن اسمها يكون الشجاعة،وتظهر في أشكال عديدة مختلفة باعتبار الحالات والكيفيات،مثلا عزة النفس،والشجاعة وقول الحق والهمة العالية،والتحمل والاستقلال وثبات القدم والوقار

والصبر والسكون والمطالبة بالحق والجد والاجتهاد والسعي والعمل والجهاد،فــإذا مــا ابتعدت هذه القوة عن الاعتدال وجنحت إلى الإفراط تصير تهوراً،وتولد عنــها ترتيبــا الغرور،والنرجسية والتكبر وتحقير الآخرين ولظلم وقتل النفس وغيرها من الأمــراض والسلبيات،وإذا جنحت هذه القوة إلى التفريط نتج عنها الذل وتثبيط الهمــة والضعــف والخوف والدناءة،وهكذا فيما يتعلق بالشهوة،فإذا ما اتسمت بالاعتدال سميت عفوا،وهــذه الصفة تأخذ أشكالا مختلفة ويطلق عليها أسماء مختلفة يعني العفة والطــهارة والتقــوى والجود والكرم والخجل والحياء والصبر والشكر والقناعة وعدم الطمع وجمال الطبــع والرغبة في التقدم،وأمنية الأولاد والذرية،والبحث المناسب عن الســعادة فــي البيــت وغيرها،فإذا ما جنحت هذه الصفة نحو الإفراط أو التفريط نتج عنها الحرص والطمــع وعدم الحياء والتبذير والبخل والرياء والغلظة والتملق والحسد وغيرها مــن الصفــات الذميمة .

الفرق بين الأخلاقيات الإسلامية والأخلاقيات المسيحية:

إن هدف التعاليم المسيحية هو استئصال كل من قوة الغضب وقوة الشهوة لــدى الإنسان،بينما تهدف التعاليم الإسلامية إلى إبعاد الإفراط والتفريط عن هــاتين القوتيــن وخلق التوسط والاعتدال فيهما،فالمسيحية ترى أن هاتين القوتين في النفــس الإنســانية سيئتان بذاتهما،بينما لا يرى الإسلام ذلك،وإنما يكون اســتخدامهما ســيئا فــي بعــض الأحيان،والإسلام لا يأمر بالقضاء على قــوة الغضب وحب الأعداء،كما أنــه لا يــأمر بإفناء قوة الرغبة لدى الإنسان وتجريدها والعيش في حزن وإفلاس،وإنما يرشد إلــى أن الأفضل هو العفو عن الأعداء الشخصيين والدعاء بــالخير لأعــداء الله،وأن نســتمتع بالطيبات التي حللها الله تعالى دون تعد للحــدود التــي قررتــها الشــريعة فــي هــذا المجال،وكما يقول الإمام الغزالي فإن الله قد مدح من يكتم الغضب وليس مــن يقضــي عليه،فقال"والكاظمين الغيظ "ولم يقل"والفاقدين الغيظ" .

نقاط الضعف في الأخلاق المسيحية :

إن كل ما في الدنيا من علم وفن وسعادة وسرور وحماس وانبســاط وتطــور ونشاط وجد واجتهاد كلها ناتجة عن هاتين القوتين،فإذا ما محونا هاتين القوتين بجــرة قلم،أو خلقنا فيهما الإفراط والتفريط فإن نصف الخير والسعادة وحسن الطالع يموت،ولا يبقى مفهوم للعفة ولا معنى للعصمة،ولا وجود للعدل ولا أثر للأمن والأمان،ولا تبقــى

روح أحد أو ممتلكاته في مأمن،ولا يبرز في الإنسان جوهر علو الهمـــة والاســتقلال وثبات القدم والسعي والاجتهاد،ويتأثر سلبا نظام الدول وتطور الأمم،وتتحول دنيـــا الله هذه إلى مكان خرب لا أثر فيه للحركة والنشاط.

ولم تراع التعاليم الأخلاقية في المسيحية مسألة أن الغضب والرغبة ليسا شـيئين سيئين بذاتهما،وإنما السيئ هو الغضب الذي لا محل له والرغبة غير المشروعة،وكمـــا أن الغضب والرغبة بهذا الشكل شيئان سيئان فإن من المعايب والنقائص التي تنتج عــن الإفراط و التفريط فيهما أيضا سيئة مثل عدم الكرم،وعــــدم الحميــة،وحــب الـــذل و الدناءة،والتملق والضعف وتراجع الهمة والتواكل،والتقشف الشديد,ولقد جمع الإسلام فــي متبعيه هاتين القوتين باعتدال،فإن كان قال "رحماء بينهم"،"أذلة على المؤمنين"فقد قــــال أيضا"أشداء على الكفار"و"أعزة على الكافرين"،وأخبرنا أن العزة لله وللرسول والمؤمنين فقط"ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين".ولم يتيسر التقدم والرقي للأمم المسيحية إلا عندمـــا استفادوا من تعاليم الفلسفة الأخلاقية الإسلامية.

<u>اعتراض (ليكي) على الأخلاق المسيحية:</u>

يقول(ليكي)في الجزء الثاني من كتاب تاريخ أخلاق أوروبا:"لكن العجز والمذلة هي من نتائج المسيحية،ورغم أن هذا الوصف ظل مقبولا ومناسبا لفترة ما،لكنــــه لــم يستطع مسايرة مسيرة التطور في عصر التمدن،إذ أنه من الضروري للتطور والتمـــدن أن تكون لدى الأمة عزة نفس وحب للحرية،والتواضع والانكسار أعداء لكل هذا،وعلــى سبيل المثال حياة التقشف الشديد والعزلة،فإن أسلوب الحياة العسكرية يتطلـــب حكومـــة استبدادية،ولكن بالرغم من كل هذا فإن الجنود يمتلكون بداخلهم عزة نفس وكرامة بشكل عام،والقضاء على هذه الصفات لديهم مثلما تهدف إليه حياة الخانقاهات أمـــر لا يفيــد بحال من الأحوال في التطور والتمدن،وإذا كان مثل هذا الأسلوب فـــي الحيـــاة يخلــق فضائل كثيرة في كبار الزهاد،إلا أن التجربة أثبتت أن التذلل عند عامة الناس مـــرادف لحياة العبودية،وفي ضوء هذا الوضع ركز المتأخرون من حكماء الأخلاق على الذاتيـــة بدلا من التذلل،ولهذا صورتان الأولى الرجولة والثانية الاعتزاز بالنفس،والتركيز عليـــها أدى إلى أن حرية الفكر وصدق القول وحسن التعامل وعلو الهمة والحمية وجمال الطبع الذي نراه في الدول المسيحية البروتستانتية لا نرى مثله في المناطق الكاثوليكية،بل على العكس من ذلك نرى فيها الدناءة وتراجع الهمـــة وضيـــق الأفـــق والجبـــن ومشــاهد

التسون،والأكثر من ذلك أن في القسم الأول من الدول سوف نجد مظاهر وإنجازات الحرية السياسية،وهو ما يخلو منه القسم الثاني من الدول " (الفصل الحادي عشر) .

الإسلام والسمو الأخلاقي:

وعلى العكس من ذلك كله فإننا نستطيع التعرف على تعاليم معلم الإسلام صلى الله عليه وسلم من درس واحد فقط منها :

" إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها " .

والمقصود من(معالي الأمور)هو الأفضال العظيمة لعلو الهمة،والمراد من(المحقرات)الأمور التافهة،وكان الحديث يقول بأن من أراد أن يكون محبا لله من المسلمين فإنه يجب عليه أن يكون رفيع النظرة رفيع المقصد،وأن يتجنب الأمور التافهة الدنيئة . ويكفينا في هذا الخصوص لتوضيح وجهة نظر الإسلام أن نشير إلى بعض تعاليمه صلى الله عليه وسلم،فقد قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف،وفي كل خير،احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز،وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا،ولكن قل قدر الله وما شاء فعل،فإن لو تفتح عمل الشيطان " .

القدر والتوكل والصبر والشكر:

وهذا الحديث يشرح كل القضايا التي يعبر عنها الإسلام بمصطلحات القدر والتوكل والصبر والشكر،والتي ورد تفصيلها بشكل كامل في ثنايا الحديث عن القضاء والقدر في الجزء الرابع،وكذلك في الجزء الخامس تحت عنوان العبادات القلبية،وقلنا فيها أن هذه التعاليم الأربعة تخلق في المسلمين علو الهمة والأمل والاستقلال وثبات القدم،ويجب أن يتولد داخل المسلم قبل كل شيء العزم على القيام بالأعمال الكبرى،ومع وجود هذا العزم يجب الاعتماد على الله والتوكل عليه،فإذا حالفه التوفيق في هذه الأعمال فإنه يؤدي شكر الله تعالى بدلا من التفاخر والغرور،وعليه أن يعتقد أن هذا التوفيق من فضله تعالى وكرمه،وإذا ما فشل في أعماله فعليه عندئذ بالصبر والثبات بدلا من اليأس والقنوط،وعليه أن يعتقد أن هذه إرادة الله تعالى .

والحقيقة أن ما ورد في الحديث السابق ما هو إلا شرح لما ورد في الآيات القرآنية التالية :

"فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده،وعلى الله فليتوكل المؤمنون"(آل عمران:١٧) .
" ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأهـا،إن في ذلك على الله يسير،لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كـل مختال فخور" (الحديد:٣) .

ويظهر من هذه الآيات أن تعاليم القدر والتوكل والصبر والشكر ليست للـتراجع أو الدناءة في الإسلام،وإنما هي لكي تخلق في المسلمين الجرأة والشجاعة والهمة وثبات القدم،وكان من أثر هذه التعاليم أن الصحابة الكرام استطاعوا مواجهة جيوشا وسـلطنات كبيرة بغير خوف أو تردد،وحالفهم النجاح،وتناهت إلى أسماعهم في أوقات المصـاعب أدعية أولياء الله الصالحين :

" ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين " (البقرة : ٣٣) .
وأرشدتنا الآيات إلى أن رفاق الأنبياء الآخرين كانوا معهم أيضا أثناء المصاعب :
" وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفـوا وما استكانوا والله يحب الصابرين،وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفـر لنـا ذنوبنـا وإسرافنا في أمرنا و ثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين " (آل عمران : ١٥) .
ثم جاء الحكم الخاص :
" يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصـابروا ورابطـوا واتقـوا الله لعلكـم تفلحـون "(آل عمران:٣٠) .

ونعلم من هذه الآيات إلى أي مدى أمر الإسـلام بتعـاليم رائعـة فـي سـمو الأخلاق،وعلو الهمة والصبر وثبات القدم في الصعاب،بمعنى أنه بقدر ما ينظر باحترام إلى التواضع والانكسار فإنه كذلك يحترم الشجاعة وقوة الحكومة .

أحبوا أعدائكم:

إن أكبر المبادئ الذهبية للتعاليم المسيحية هي أن أحبوا أعدائكم،ولا شك أن لهذا المبدأ بريقا ولمعانا ظاهريا بحيث يخلب أنظار الناظرين،لكن أولي الألباب يفهمون جيدا مدى التناقض المنطقي الذي يحتويه،وهذا هو السبب في أن مفسري الإنجيل ([1]) أنفسـهم أكدوا على أن هذا الحكم لا يقبل التنفيذ،فأنت تستطيع أن تعفو عن العدو،وتعامله معاملة

[1] تفسير متى للسيد اسكوت .

طيبة،وتدعو له بالخير،لكنك لا تستطيع أن تحبه،إذ أن الحب من عمل القلب،ولا سيطرة لك على القلب.بينما نجد أن الأخلاق المحمدية أكدت بدلا من هذا على التعاليم التي يستطيع تنفيذها كل ذي حظ عظيم،وقد طبق هذه التعاليم دائما عباد الله وأوليائه،بمعنى معاملة العدو معاملة حسنة،وعدم مقابلة سوئهم بسوء،وأن تدعو بالخير لمن يدعو عليك،وأن تعفو عمن يسيء إليك،وتعدل مع من يظلمك :

" يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط،ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا،اعدلوا هو أقرب للتقوى،واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون " (المائدة : ٢) .

" ولا تستوي الحسنة ولا السيئة،ادفع بالتي هي أحسن،فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم،وما يلقاها إلا الذين صبروا،وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم،وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " (السجدة : ٥) .

١- فلقد جاء في مقدمة هذه الآية الكريمة أنه لا تستوي الحسنة ولا السيئة،والفرق بينهما ظاهر .

٢- إن الحسنة وحسن السلوك الذي تم التأكيد عليه في هذه الآية الكريمة هي التي تقوم بها مع أعدائك،لأنه جاء بعدها مباشرة بأن نتيجة هذا العمل هي أن الذي بينك وبينه عداوة سيكون صديقك .

٣- أطلق على الإحسان إلى الأعداء أنه درجة من منتهى الصبر،وعبر عنه بالحظ العظيم ويعلم من هذا ما هي مكانته في صحيفة الأخلاق المحمدية .

٤- أخبرت الآية أن الإساءة إلى الأعداء من نزغ الشيطان،وأمرت المسلمين ذوي الحظ العظيم أن يستعيذوا منه بالله،ويقول سيدنا ابن عباس الذي هو من كبار المفسرين بين الصحابة،يقول في تفسير هذه الآية[1]:"لقد أمر الله تعالى المسلمين بالصبر في حالة الغيظ والغضب،وأمرهم بالعفو والصفح والحلم على إساءة الآخرين،فإذا فعلوا هذا نجاهم الله من قبضة الشيطان،وخضع لهم الأعداء كالأصدقاء تماما " .

ذات مرة شتم رجل سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه وكان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليه سيدنا أبو بكر،فشتمه الرجل ثانية فلم يرد عليه،ثم شتمه ثالثة فلم يستطع سيدنا أبو بكر الصمت ورد عليه،فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا قام من مجلسه،فقال أبو بكر:يا رسول الله،هل غضبت مني؟ فقال صلى

[1] صحيح البخاري – الجزء الثاني – ص ٧١٢ ، و ابن جرير – الجزء الرابع و العشرون – ص ٦٨ – مصر .

الله عليه وسلم لقد كان ملاك من الله يرد عنك طالما بقيت صامتا،فلما رددت عليه ذهب الملاك ([1]) .

وقال صلى الله عليه وسلم "إن صلة الرحم ليست هي أن تصل من يصلك،وإنما أن تصل من قطعك " ([2]).بمعنى أن التصادق مع الأصدقاء ليس بشيء،وإنما الأمر العظيم هو التصادق مع الأعداء.ذات مرة جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله،دلني على أمر إن فعلته دخلت الجنة،فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدة أمور من بينها:"أن تحسن إلى قريب ظلمك" ([3]) .

وليس هناك في نظر الإسلام من هو أكثر عداوة من الكافر والمشرك،ولكن انظر إلى القرآن الكريم كيف يأمر صراحة المسلمين بأن يعفوا عن الأعداء:"قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون " (الجاثية : ٢) .

---

[1] سند أبي داود – كتاب الأدب – باب الانتصار .

حدثنا عيسى بن حماد،أخبرنا الليث،عن سعيد المقبري،عن بشير بن المحرر،عن سعيد بن المسيب،أنه قال:بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فآذاه،فصمت عنه أبو بكر،ثم آذاه الثانية،فصمت عنه أبو بكر،ثم آذاه الثالثة،فانتصر منه أبو بكر،فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتصر أبو بكر،فقال أبو بكر:أوجدت علي يا رسول الله؟فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك،فلما انتصرت وقع الشيطان،فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان.

[2] صحيح البخاري – كتاب الأدب – الجزء الثاني – صـ ٨٨٦ .

حدثنا محمد بن كثير:أخبرنا سفيان،عن الأعمش والحسن بن عمرو وفطر،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(ليس الواصل بالمكافىء،ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها).

[3] مستدرك الحاكم – كتاب المكاتب – الجزء الثاني – صـ ٢١٧ – حيدر آباد الدكن .

حدثني محمد بن صالح بن هانئ،ومحمد بن عبد الله بن دينار العدل قالا:ثنا أحمد بن محمد بن نصر،ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين،ثنا عيسى بن عبد الرحمن السلمي،ثنا طلحة اليامي،عن عبد الرحمن بن عوسجة،عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله علمني شيئا يدخلني الجنة.فقال:لئن أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسم وفك الرقبة قال:أو ليسا واحدا؟قال:فإن عتق النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمحنة الموكوفة والفيء على ذي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فاطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير.

وإن كنت تريد أمثلة عملية فلن تجدها في وعظ مسيحية الفريسيين المرائين,ولا في مسيحية الثعابين وأطفال الثعابين ([1]),وإنما تجدها في وعظ أول داع إلى الإسلام وهو ما قام به حين عفا عن آلاف الأعداء من مكة حين فتحها,وكان منتصرا وليس مهزوما,وحاكما وليس محكوما,وكل واحد من هذه الآلاف كان متعطشا إلى دمه صلى الله عليه وسلم ([2]),عفا عن ذلك الذي تعقبه ليقتله عندما سمع عن إعلان أهل مكة عن جائزة لمن يقتله صلى الله عليه وسلم أو يقبض عليه ([3]),ذلك الذي عفا عن تلك اليهودية التي دست له السم في خيبر([4]),ذلك الذي عفا عن قاتل عمه([5]),الذي عفا عن تلك التي مثلت بجثة عمه ومضغت كبده([6]),ذلك الذي عفا عمن قتل قرة عينه بشكل أو بآخر([7]),ذلك الذي عفا عن مجموعة من أهل قريش في وادي تنعيم ([8]),وكانوا قد جاءوا بنية قتله صلى الله عليه وسلم,ذلك الذي عفا عمن جاء ليقتله بسيفه وهو نائم في واحة نجد,بعد أن قدر عليه ([9]),ذلك الذي دعا بالخير في حق أهل الطائف([10])الذين قذفوه

---

[1] إنجيل متى – ٢٣ , ٢٥ , ٣٣ .

[2] صحيح البخاري – باب فتح مكة .

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن هاشم, عن حميد, عن أنس رضي الله عنه, قال: استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسارى يوم بدر, فقال "إن الله قد أمكنكم منهم" فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم, ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس" فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم, فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم, ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: للناس مثل ذلك, فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه, فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم, وأن تقبل منهم الفداء, قال فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم, فعفا عنهم وقبل منهم الفداء, قال وأنزل الله عز وجل "لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم"

[3] صحيح البخاري – كتاب الهجرة .

[4] صحيح البخاري – باب فتح خيبر , و ذكر وفاة النبي – صلى الله عليه و سلم – .

حدثنا عبد الله بن يوسف:حدثنا الليث:حدثني سعيد،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم.

[5] صحيح البخاري– فتح الطائف .

[6] صحيح البخاري – باب فتح مكة .

[7] كتب سير و طبقات الصحابة – ذكر إعلان فتح مكة , و سيار بن الأسود .

[8] جامع الترمذي – كتاب التفسير – سورة الفتح – صــ ٥٤٠ .

[9] صحيح البخاري – كتاب الجهاد – صــ ٢٠٨ .

[10] ابن سعد – غزو الطائف .

بالحجارة ذات مرة حتى سال دمه الشريف من قدمه،ذلك الذي دعا بالخير لمن جرح وجهه المبارك في أحد([1])،ذلك الذي قال لمن كانوا يدعون على الأعداء بأنني لم أبعث في الدنيا للعن،ولكن للرحمة([2]) صلى الله عليه وسلم.والأكثر من هذا أنه يؤكد على أن الوفاء بالمعاهدات مع الكفار و المشركين من آيات التقوى :

"إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين " (التوبة : ١) .

<u>**عدم موالاة الكفار والمشركين:**</u>

وأكثر المخالفين للإسلام يقدمون هذا الحكم في اعتراضاتهم،وهو الذي منع فيه المسلمون من مصاحبة الكفار والمشركين أو موالاتهم،في حين أن هذا شيء مختلف تماما،فمن المؤكد أن مؤسس أية حركة طيبة لا بد له من أجل الحفاظ على استمرار حركته وبقائها أن يمنع متبعيه من مخالطة أعداء حركته ومصاحبتهم والركون إليهم وهم الذين يسعون حثيثا للقضاء على هذه الحركة سواء بالقوة أو بالتآمر،وخاصة في الوقت الذي تجري فيه المحاولات لتصفية هذه الحركة بالسيف والخنجر وقوة الجيش والسلاح،والمعركة شبه قائمة على أشدها بين الطرفين،أو في حالة انتشار الشائعات والشكوك حول متبعي الحركة للإساءة إليهم،حينئذ تكون هذه الآيات :

" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين،ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة " (آل عمران : ٣) .

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون " (التوبة : ٣) .

وهناك أمر آخر في هذا الخصوص وهو أنه حين يكون الحق في صراع مع الباطل فإنه يتولد بداخل أهل الحق بطريقة فطرية نفور من أهل الباطل الذين يريدون القضاء عليهم بنفس القدر الذي تتولد بداخلهم محبة لبعضهم البعض،ولهذا منع الإسلام من أجل الحفاظ على الحق من مثل هذه المحبة والموالات لأهل الباطل،وهذا النوع من الأحكام في الإسلام لا تعني إلا ما يعنيه إعلان (أمير السلام) هذا :

---

[1] فتح الباري – الجزء السابع – صـ ٢٨٦ , مع باب أحد .

[2] –صحيح البخاري–مبعث النبي صلى الله عليه وسلم،ومشكاة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم،نقلا عن مسلم .

" لا تعتقدوا أنني جئت إلى الأرض لإقامة السلام والصلح,لم آت للصلح وإنما لكي أعمل السيف,وذلك لأنني جئت لكي أفرق بين الرجل وأبيه وبين الولد وأمه وبين زوجة الابن وحماتها,فإن أعداء الرجل من أهل بيته,ومن يحب أباه أو أمه أكثر مني فإنه لا يستحقني"(إنجيل متى – باب ١٠ – ٣٤).

وهذا هو السبب في أنه لم تكن في تعاليم سيدنا عيسى الأخلاقية رحمة ولا شفقة ولا لين مع اليهود مثل تلك التي وجدت مع الآخرين من المذنبين وعبدة الأوثان الحمقى,فلقد كان يخاطب اليهود بألفاظ غاية في القسوة,وحين قامت الحرب بين المسلمين وبين يهود الحجاز ومسيحي حدود الشام,وكان يبدو في الظاهر أن هؤلاء متفوقون على المسلمين باعتبار العدة والعتاد والأسلحة والقلاع,فقد أجبر كل هذا منافقي المدينة وضعاف القلوب من أهلها على التواطؤ مع أعداء الإسلام هؤلاء كنوع من بعد النظر والاحتياط للعاقبة,فإذا ما هزم المسلمون في مواجهتهم وجدوا لهم ملجئا,وبالإضافة إلى هذا فقد كانوا يحاولون الانضمام إلى المسلمين والانحراف بهم عن دينهم,في مثل هذا الموقف منع الله المسلمين من مصادقة أهل الكتاب وإقامة علاقات المحبة معهم,فقال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء,بعضهم أولياء بعض,ومن يتولهم منكم فإنه منهم,إن الله لا يهدي القوم الظالمين,فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة,فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين,ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم,حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين,يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " (المائدة : ٨) .

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا و لعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء,واتقوا الله إن كنتم مؤمنين " (المائدة : ٣) .

ففي هذه الآيات تصريح واضح بأولئك الذين لا ينبغي أن تتخذ منهم أولياء أو أصدقاء,وفي أي الحالات يكون ذلك,وكذلك القصد من وراء هذا المنع,وقد جاء هذا التصريح واضحا كذلك في هذه الآية من سورة (آل عمران) :

" يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بـدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر،قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلـون " (آل عمران:١٢).

ويتضح من هذا أنهم كانوا يستميلون ضعاف المسلمين ويتجسسون على خططهم وما يريدون القيام به ويعرفون أسرارهم،وهؤلاء هـم الذيـن جـاء التصريـح بمنـع مصاحبتهم واتخاذهم أولياء،وقد جاء هذا التصريح بشكل أوضح في سورة الممتحنة،فقال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بمـا جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم،ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل.إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء و يبسـطوا إليكـم أيديـهم و ألسنتهم بالسوء ودوا لو تكفرون لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة"(الممتحنة).

ثم استمع إلى التصريح التالي بعد ذلك :

" في الدين ولم يخرجوكم مـن ديـاركم أن تـبروهم وتقسـطوا إليـهم إن الله يحـب المقسطين،إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظـاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون " (الممتحنة : ٢) .

ثم جاءت البشرى أنكم ستنتصرون عليهم قريبا،وسوف تتبدل هذه العداوة إلـى محبة:يقول تعالى :

"عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير " (الممتحنة : ٢) .

ويتضح بعد معرفة سبب نزول هذه الآيات معناها،ومن هذه الأسـباب واقعـة فحواها أن المسلمين كانوا يريدون الاستيلاء على مكة في غفلة من قريش،وبينما كـانت الاستعدادات لذلك جارية إذ بأحد المسلمين ويدعى(حاطب بن بلتعة)يقوم بكتابة خطـاب خفية من أجل مصلحته الشخصية ويرسله مع امرأة إلى مكة لتعرف قريش بالأمر،وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك،فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسـلم فارسـين ليستعيدوا الخطاب من المرأة في الطريق،واستعادوا الخطاب،فسأل رسول الله صلـى الله عليه وسلم حاطب عن الأمر فقال:يا رسول الله،لا تتعجل،الحكاية هي أنني أعيش بيـن قريش،ولكن لا تربطني بهم أية علاقة،والمهاجرون الذين هنا لهم أقرباء هناك،وعائلتـهم

آمنة بسببهم،وليست لي قرابة هناك حتى يراعيها أهل مكة،فأردت أن أحسن إليهم حتى يراعوني،ولم أفعل ذلك ارتدادا عن دين الحق،فقال صلى الله عليه وسلم:أنتم أهل بدر،وقد غفر الله لكم،تنزلت هذه الآية:"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا" ([1]) .

وهذه الأحكام هي من نوع تلك الأحكام التي ذكرت في العهد القديم،فقد جاء في الزبور :

" يا الله،إنك تأكيدا ستقتل الأشرار،أيها السفاكون،ابتعدوا عني لأنهم بسببكم يتحدثون بالسوء،وأعداؤك يذكرون اسمك عبثا،يا إلهي،ألا أكن لهم بغضا أولئك الذين يبغضونك،إنني أعدهم أعدائي " (١٣٩ – ١٩ – ٢٢).و جاء في صحيفة يسوع :

" إن كنتم قد أسأتم بحال من الأحوال،وركنتم إلى من بقى من أولئك الناس الموجودين بينكم،وأقمتم العلاقات معهم والتقيتم بهم والتقوا بكم فاعلموا علم اليقين أن الله إلهكم لن يزيح هؤلاء الفرق من أمامكم،وإنما سيكون لكم بمثابة القيد حول رقابكم والشباك حولكم،والسياط على آباطم،والأشواك في عيونكم حتى تختفون من على هذه الأرض التي تفضل الله بها عليكم" (يسوع – باب ٢٣ – ١٢) .

---

[1] صحيح البخاري – الجزء الثاني – ص ٢٧٦ – تفسير سورة الممتحنة .

حدثنا علي بن عبد الله:حدثنا سفيان:حدثنا عمرو بن دينار سمعته منه مرتين قال:أخبرني حسن بن محمد قال:أخبرني عبيد الله بن أبي رافع قال:سمعت عليا رضي الله عنه يقول:بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال:(انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ،فإن بها ظعينة،ومعها كتاب فخذوه منها).فانطلقنا تعادى بنا خيلنا،حتى انتهينا إلى الروضة،فإذا نحن بالظعينة،فقلنا:أخرجي الكتاب،فقال:ما معي من كتاب،فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب،فأخرجته من عقاصها،فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه:من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة،يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(يا حاطب ما هذا).قال:يا رسول الله لا تعجل علي،إني كنت امرأ ملصقا في قريش،ولم أكن من أنفسها،وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة،يحمون بها أهليهم وأموالهم،فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم،أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي،وما فعلت كفرا ولا ارتدادا،ولا رضا بالكفر بعد الإسلام،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لقد صدقكم).قال عمر:يا رسول الله،دعني أضرب عنق هذا المنافق،قال:(إنه قد شهد بدرا،وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).قال سفيان:وأي إسناد هذا.

وهناك بعض الأحكام في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية بمثابة النصيحة بالبعد عن منكري الحق والظالمين والمنحرفين و المذنبين :

" ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء،فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله " (النساء : ١٢) .

" وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره،وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين " (الأنعام : ٨) .

" وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره،إنكم إذا مثلهم " (النساء : ١٤) .

وقد نزلت هذه الأحكام حتى لا يتأثر المسلمون سلبا بالصحبة السيئة،ومعانيها تقترب كثيرا من معاني الفقرات التالية للقديس (بال) :

" لقد كتبت لكم في خطابي ألا تصاحبوا مرتكبي الحرام،ولكن لا يعني هذا ألا تصاحبوا كل مرتكبي الحرام والطماعين واللصوص أو عبدة الأوثان في الدنيا فقط،وألا تفعلوا فسوف يكون عليكم خروج من الدنيا،لكني كتبت لكم أن لا تصاحبوا حتى الأخ إن كان من مرتكبي الحرام أو عابدا للأوثان أو سبابا أو سكيرا أو لصا،بل ولا تأكلوا معه الطعام كذلك ... المهم أن عليكم أن تخرجوا مثل هذا الرجل السيئ من بينكم " (القرنيتون الأول : ٥) .

" ولا تختلطوا بعديمي الإيمان بغير حق ولا تشاركوهم في لهوهم فلا تفرقوا بين الحق من عدمه،وتخلطوا بين النور والظلام،فما هي الصلة بين المؤمن وغير المؤمن،وما علاقة هيكل الله بالأوثان ... ولهذا يقول الله تعالى أن عليكم أن تخرجوا من بين هؤلاء،وتنفصلوا عنهم،ولا تلمسوا النجس " (قرنيتون : ٦) .

في نفس الوقت الذي نجد الإسلام في المعاملات الدنيوية والأخلاقيات يؤكد على العدل والإنصاف والتسامح مع الكفار والمشركين بالرغم من عدم التوافق القلبي والتجانس الروحي معهم،بل جاء الحكم في حالة الحرب معهم بأن :

" وإن أحدا من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه،ذلك بأنهم قوم لا يعلمون " (التوبة : ١) .

وهل هناك سلوك أفضل من هذا يمكن أن يقوم به محارب مع من يخالفه في الدين،ولقد جاء الحكم صريحا في القرآن فيما يتعلق بالمشركين بالرغم من انقطاع

العلاقة القلبية معهم أنه إذا كان والدا أحد المسلمين مشركين وكافرين فإنه تجب خدمتهما وتنبغي معاملتهما معاملة حسنة في أمور الدنيا،وهذا فرض على أولادهما المسلمين يقول تعالى :

" وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون"(لقمان : ٢) .

وهل هناك تسامح أكثر من هذا مع أعداء الدين،بحيث يخدمهم المسلم في الدنيا ويتعامل معهم تعاملا حسنا بالرغم من اختلاف الدين،وألا يقصروا معهم في هذه الأمور

مواقع جواز الشدة معهم:

ولا شك في أنه قد جاء في الإسلام الحكم بالشدة مع الكفار،ومع من سماهم القرآن في اصطلاحه بالمنافقين وذلك في بعض المواقع،كأن تكون المعركة دائرة بين المسلمين مع آخرين غيرهم،عندئذ يكون الخطر في أن ينضم الكفار أو المنافقون الذين يعيشون مع المسلمين بالخداع إلى العداء،ويتآمرون معهم،أو حتى في حالة غير حالة المعركة يمكن لهؤلاء أن يزرعوا بذور الفرقة بين المسلمين وهم يعيشون معهم،ويخلقوا التشتت في جماعة المسلمين بنشر الإشاعات والشكوك والشبهات المختلفة،في مثل هذه الحالات لا بد من مراقبة الكفار والمنافقين بنوع من الشدة،وأن يتم منع اختلاط المسلمين بهم،فإذا ما حاربوهم حاربوهم بشجاعة حتى يعودوا عن تصرفاتهم وسلوكهم الذميم،والقرار في كل هذه الأمور يكون لإمام الوقت،وقد جاءت آيتان في سورة(التوبة) في هذا الخصوص :

" يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير،يحلفون بالله ما قالوا،ولقد قالوا كلمة الكفر،وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا،وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله،فإن يتوبوا يك خير لهم،وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير " (التوبة : ١٠) .

وهذه الآيات تبين بنفسها وبألفاظها المواقع التي تكون فيها الشدة وزادت الآيات السابقة عليها والتالية لها هذا الأمر وضوحا،فقد أرشدت الآيات بعد ثلاثة ركوع في نهايتها المسلمين إلى أن يتسموا بالشدة في حربهم ضد الروميين (١) :

---

[١] تفسير ابن جرير الطبري – الجزء الأول – ص ٤٦ – مصر .

" يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين " (التوبة : ١٢٣) .

وجاء هذا الحكم بالشدة حتى لا يظنوا أن المسلمين ضعاف فيهاجموهم.وعندما أراد بعض المنافقين في موقع التحريم والإيلاء أن يضعوا بذور الفرقة بين آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبين المسلمين جاء الحكم بإتباع الشدة مع الكفار والمنافقين :

"يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير"(التحريم:٩).

وهذه المواقع كلها تتعلق بإقرار النظام السياسي والحفاظ على وحدة الجماعة،وهذا هو السبب في اعتبار أولئك المسلمين الضعاف ضمن زمرة الكفار والمشركين وهم الذين اشتركوا علنيا مع المشركين والكفار في تخريب وإفساد هذا النظام .

وقد جاءت آية أخرى في القرآن الكريم يستدل بها المعارضون الذين يتهمون الإسلام بالقسوة وعدم الرحمة على ما يقولون استدلالا خاطئا،وهي الآية التي جاءت في سورة(الفتح) والتي تثني على شجاعة الصحابة من جانب وعلى محبة المسلمين ورحمتهم فيما بينهم :

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " (الفتح : ٢٩) .

وجملة(أشداء على الكفار)لا تعني أنهم يتعاملون مع الكفار في قسوة وعنف وعدم رحمة،وإنما تعني أن المسلمين بسبب همتهم و استقلالهم واتحادهم وقوة إيمانهم أقوياء بحيث يخافهم الكفار،وهم في مواجهة الكفار شجعان بحيث لا يتجرأ الكفار على مهاجمتهم،ولهذا فإن (أشداء على الكفار)طبقا لسياق الكلام لا ينبغي أن تكون(قساة على الكفار)،وإنما ينبغي أن تكون أنهم أقوياء في مقابلة الكفار،بمعنى أنهم غالبون عليهم وأقوياء بالدرجة الكافية لمواجهتهم،ولا يخافونهم بأي حال من الأحوال،ولهذا روى العلامة الزمخشري في الكشاف وابن حيان الأندلسي في البحر المحيط والقاضي البيضاوي في أنوار التنزيل هذا المعنى في تفسير هذه الآية وهو نفس المعنى الذي جاء في آية سورة(المائدة).وقد جاء هذا السياق في القرآن الكريم في أماكن متعددة،فجاء في سورة (هود) على سبيل المثال :

" يا قوم أرهطي اعز عليكم من الله " (هود : ٩٢) .

وجاء في آية أخرى : " عزيز عليه ما عنتم " (التوبة : ١٦) .
وجاء في لسان العرب:"ورجل شديد قوي والجمع أشداء"(الجـزء الرابـع- ص ٢١٨- مصر).

وجاء في القرآن الكريـم تعبـيرات مثـل(أشـد قـوة)و(أشـد خلقـا)و(أشـد منـهم بطشا)وغيرها،وكلها بمعنى قوي مستحكم،وفي مشتقات هذه الألفاظ أيضا كان المعنـى مثل هذا :

" أشدد به أزري " (طه : ٢) .
" وبنينا فوقكم سبعا شدادا " (عم : ١) .
" وشددنا ملكه " (ص : ٢) .
" فشدوا الوثاق " (

والمعنى المشترك في(شديد)هو ذلك الذي لا يخضع أمام القوى المخالفة،وإنمـا يبقى قويا في مواجهتهم،وكانت هذه هي صفة الصحابة الكرام رضـي الله عنـهم،فلـم ترعبهم شدة مخالفة كفار مكة لهم،وواجهوا عداءهم وأذيتهم بشجاعة،فوضعوا رقابـهم تحت سيوف الأعداء،وصدورهم أمام رماحهم،ونزفوا الدماء من سـهامهم لكنـهم لـم يتراجعوا أبدا عن موقفهم،ولم ينكروا أبدا ما امنوا به،وفي النهاية خافهم الكفار برغـم كثرة عددهم،وأصابهم الرعب من قوتهم الإيمانية،وتحققت النبوءة التي قدمـها القـرآن الكريم بأن"سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب"،وقال تعالى"وقذف في قلوبهم الرعب" (الأحزاب و الحشر : ١) .

ولقد أمر الله المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائما من حيث العـدة والعتـاد لأجل إلقاء هذا الرعب في قلوب المخالفين:"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن ربـاط الخيل ترهبون به عدو الله" (الأنفال : ٨) .

وهذه الآية لا تعني أن أخيفوا الكفار،وإنما عليكم أن تستعدوا بـالعدة والعتـاد الحربي حتى يلاقوا الكفار من مواجهتكم،ولهذا فإن تجهيز كل أدوات الحرب بشكل دائم فرض على المسلمين،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تربية الخيـل اسـتعدادا للجهاد لأنها من أعمال الثواب،فقال:"إن الشخص الذي يربط فرسا في سبيل الله يكـون سترا له،والذي يربطه بغرض التظاهر يكون عذابا له"([1])،ويعلم من هذا الحديث أيضـا

[1] سنن ابي داود-الجزء السابع

أن النية في الإسلام لها أهمية كبيرة،ومن هنا فإنه من الضروري أن يفهم المسلم الذي أمر بعدم موالاة الكفار أن الهدف من ذلك ليس الكراهية الشخصية أو القومية،وإنما هو من أجل الحق فقط،ومع ذلك فإن الإسلام لم يمنع المسلمين من العدل والإنصاف والتعامل الحسن مع حماة الباطل هؤلاء .

الحب لله والكراهية أيضا لله:

وهنا يمكن أن يقول معترض أن الإسلام لم يقض على عاطفة الكراهية والنفور بشكل كامل،لكن القول بهذا الشكل مخالف لقوانين الفطرة وبمثابة غض الطرف عنها،فإن الحب والعداء والاتفاق والاختلاف والرضا والغضب من عواطف الإنسان الفطرية،وكل الأعمال والحركات والجد والاجتهاد في هذه الدنيا ما هو إلا نتاج لهاتين العاطفتين الكبيرتين،فإذا ما قضي على هاتين العاطفتين لدى الإنسان فإنه لن يفرق بين الخير والشر وما يدور في فلكهما،وسوف تتحول شعلة النار هذه التي هي عبارة عن قلب الإنسان إلى قطعة من الثلج،ولهذا فإنه من غير الممكن ولا من المناسب إفناء عاطفتي الحب والكراهية لديه بشكل كامل،وإنما الممكن هو أن يتم عزل الاتجاهات الشخصية والميول الذاتية بداخله بعيدا،وليس من تعاليم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتم التخلص من الغيظ و الغضب بذاتهما كعاطفة إنسانية،وهو أمر ليس ممكنا في الحقيقة،وإنما تحديد المقام المناسب لاستعمالها،ومن هنا فقد حدد الإسلام هذه المقامات وقال بأن لا تكون كراهية شخص والنفور منه مبنية على النفع والخسارة الشخصية،وإنما تكون لحماية الحق ومساعدة الخير ورضا الله تعالى،وأن تكون الصداقة والعداوة والرضا والسخط والمحبة والكراهية وما شابهها لوجه الله تعالى فقط (الحب في الله والبغض في الله) .

حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع،عن ابن المبارك،عن ابن أبي ذئب،عن القاسم،عن بكير بن عبد الله بن الأشج،عن ابن مكرز،رجل من أهل الشام،عن أبي هريرة أن رجلا قال:يا رسول الله،رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:لا أجر له فأعظم ذلك الناس،وقالوا للرجل:عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك لم تفهمه فقال:يا رسول الله،رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا قال:لا أجر له فقالوا للرجل:عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الثالثة،فقال له:لا أجر له

والقول بهذا يبدو رائعا في الظاهر،من أن تخليص الإنسان من عواطف البغض والسخط فرض ديني حسن،ولكن هذا الافتراض مخالف للفطرة،إذ لا يمكن القضاء مطلقا على البغض والسخط،وإنما من الممكن إصلاح سياق هذا البغض وهذا السخط وتوجيههما،وليس من الممكن أيضا أن يحب الإنسان الشيء ونقيضه،فإنه من الطبيعي إذا أحب الخير أن يكره الشر،وإذا أحب الإيمان أن يبغض الكفر،وإذا صادق الصالحين أن يبتعد عن الأشرار،وإذا فرح بالمؤمنين أن يغضب من المنافقين،فليس في صدر الإنسان سوى قلب واحد،ولا يمكن أن تجتمع في هذا القلب محبة شيء ونقيضه،مثلما قال القرآن الكريم :

" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " (الأحزاب : ١) .

شعر : ليس في قلب شخص قلبان .

وقد عبر السيد المسيح عليه السلام عن هذا المعنى بقوله :

" لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين،ولهذا فإنه إما أن يصادق أحدا أو يعادي الآخر،أو يؤمن بأحد ويحتقر الآخر،وأنتم لا تستطيعون خدمة الله والمال معا "(متى : ٦-٢٤) .

وقد شرح قديسو المسيحية هذه الفقرة كل حسب ما يراه،فقابل(بولوس)([1])بين الله والإنسان،و(يعقوب)([2])بين الله والدنيا،و(يوحنا)([3])بين الله والأعمال السيئة في الدنيا،قائلين:إن من يحب أحدا لا يستطيع أن يحب الآخر .

وهذا المفهوم في ألفاظ هذه الأحاديث،وهو أن المحبة والعداوة ينبغي أن يكونا لله فقط،وليس لذات الإنسان،وقد جاء في شعب الإيمان للبيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبا ذر رضي الله عنه:"أي سلسلة من سلاسل الإيمان قوية"،فقال أبو ذر رضي الله عنه:"الله ورسوله أعلم"،فقال صلى الله عليه وسلم:"أن يكون الاختلاط لله،والحب في الله والبغض في الله"،وجاء في مسند أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الصحابة الكرام ذات مرة:"أي العمل الصالح أحب إلى الله"،فقال أحدهم:"الصلاة"،وقال

[1] باسم الكليتيون (١ -١٠) .

[2] يعقوب (٤- ٤) .

[3] يوحنا (٢- ٥) .

الآخر:"الزكاة" وقال الثالث:"الجهاد" فقال صلى الله عليه وسلم إن أحب العمل الصالح إلى الله أن يكون الحب في الله والبغض في الله ([1]) .

ليس في الإسلام كراهية دائمة أو وراثية:

إن معنى البغض والغضب والمخالفة في الله هو أن لا يكون للأغراض والغايات النفسية للشخص دخل في هذا الأمر وكذلك أن لا يكون البغض لذات الشخص وإنما بسبب أفعاله وأخلاقه وأعماله وهذه الأشياء هي التي تؤدي إلى النفور من صاحبها وبغضه وهناك آية في القرآن الكريم تقول:"حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان"(الحجرات:٧).

في هذه الآية قرر القرآن الكريم أن الذي يستحق الكراهية والنفور ليس هو ذات الشخص الفاسق العاصي وأن الذي يستحق المحبة ليس هو مجرد المؤمن وإنما الذي يستحق الكراهية و النفور هو الفسق والفجور وأن الذي يستحق المحبة هو الإيمان ويعلم من هذا أن السبب الأساسي في بغض المسلم وكراهيته للكافر والمنافق هو كفرهما ونفاقهما فإذا انتهى هذا السبب أصبح أخا للمسلم مساويا له قال تعالى :

" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين " (التوبة : ٣) .

وهذا هو السبب في أن الكراهية تنقلب إلى محبة والعداوة إلى صداقة والبغض إلى رضا فور زوال هذه الصفات عن الكافر والمنافق(أي الكفر والنفاق) لأنه لا وجود في الإسلام للبغض و الكراهية الشخصية أو المبنية على الجنس أو الوطن أو الميلاد كما أنه ليس في الإسلام بغض دائم وليس في الإسلام أيضا من ينظر إليه أنه منبوذ نجس مثلما هو الحال في الهندوسية ولا نجس غير مختتن أو من شعب آخر كما في اليهودية ولا من هو طاهر بالأصل أو سيء الأصل كما عند المجوس ولا تقسيم وتفريق بين الأبيض والأسود والأوروبي وغير الأوروبي كما في المسيحية وإنما يعتمد الأمر على الكفر والإيمان والشرك والتوحيد فمن الممكن أن يكون هناك عربي قريشي خالص وهو كافر مثل أبي جهل وأبي لهب وحبشي وعجمي عادي وهو مؤمن وموحد مثل بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ولقد كان عمر رضي الله عنه وسفيان رضي الله عنه وعكرمة رضي الله عنه وخالد رضي الله عنه من ألد أعداء الإسلام وكبار

---

[1] المشكاة – كتاب الأدب – باب الحب في الله .

قادة الكفار,ثم انقلبت الموازين تماما فأصبحوا قادة المسلمين وفدائيهم وإخوة فيما بينهم,وقد أشار الله تعالى إلى إحسانه هذا بقوله :

" إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا " (آل عمران : ١١) .

وعاطفة الكراهية والبغض الثانية وهي التي تتأسس على ذنب الإنسان وعصيانه,وهذه العاطفة تتبدل تماما بعد التوبة والندم إلى عاطفة من الرحمة والشفقة,وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هؤلاء المذنبين على لسان الله تعالى,فقال :

" يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله,إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم " (الزمر : ٦) . وقال صلى الله عليه وسلم:"التائب من الذنب كمن لا ذنب له",وهذا هو السبب في عطف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المذنبين والنظر إليهم بعين الرحمة وتبشيرهم برضا الله تعالى,كان هناك رجل مدمنا للخمر,وكان الحد يقام عليه مرات ومرات,وذات مرة عندما قبض عليه متلبسا بشرب الخمر قالوا:لعنة الله عليه,فكم مرة جيء به ليقام عليه الحد,ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم هذا قال:لا تلعنوه,والله إني أعرف عنه أنه يحب الله ورسوله([1]),وقد استنبط علماؤنا الكرام من هذه الواقعة أنه لا يدعى على مذنب ([2]) .

كان هناك رجل يدعى ماعز بن مالك,وقد ارتكب الزنا بسبب الضعف البشري,وبعد ما فعل هذا تيقظ بداخله إحساسه الروحي,لقد كان يعلم أن جزاءه هو الموت,ومع ذلك فقد ذهب إلى النبي صلى الله عليه و سلم واعترف له بما فعل وطالب بإقامة الحد عليه,وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم طلبه هذا مرات عديدة,واستفسر صلى الله عليه وسلم من الناس إن كان مجنونا,وأكد الجميع أنه ليس مجنونا,فأمر بإقامة الحد عليه,فأوقف في ميدان وأخذ الناس يرجمونه بالحجارة من كل جانب حتى مات,وكان هناك بعض الصحابة الذين يظنون السوء بماعز بالرغم من إقباله بشجاعة

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الحدود .

حدثنا يحيى بن بكير:حدثني الليث قال:حدثني خالد بن يزيد،عن سعيد بن أبي هلال،عن زيد بن أسلم،عن أبيه،عن عمر بن الخطاب: أن رجلا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله،وكان يلقب حمارا،وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم،وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب،فأتي به يوما فأمر به فجلد،فقال رجل من القوم:اللهم العنه،ما أكثر ما يؤتى به؟!فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(لا تلعنوه،فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله).

[2] فتح الباري – شرح الحديث المذكور .

على الحد,فلما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:استغفروا لماعز فلقد تـاب توبة لو وزعت على شعب بأكمله لوسعته " ([1]) .

وهكذا أيضا اعترفت امرأة حامل من قبيلة(غامد)بارتكابها الزنا,وطلبت أن يقام عليها الحد,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها أن تأتيه بعد أن تضع حملـها,فلما جاءته قال صلى الله عليه وسلم عليك بتربية الطفل أولا,وتعالي بعد فطامه ففعلت ذلـك كله,ولم يقل إحساسها بالذنب,وأمر رسول الله صلـى الله عليـه وسـلم بإقامـة الحـد عليها,وبينما كان يتم رجمها تطايرت بعض قطرات دمائها وأصابت وجه سيدنا خالد بن الوليد,فشتمها,فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذا قـال:صـه(اصمـت)يـا خالد,والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها آخذ المحصول الملكي لعفي عنه ([2]) .

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الحدود . وحدثنا محمد بن العلاء الهمداني،حدثنا يحيى بن يعلي وهو ابن الحارث المحاربي،عـن غيلان وهو ابن جامع المحاربي،عن علقمة بن مرثد،عن سليمان بن بريدة،عن أبيه،قال:جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلـى الله عليه وسلم،فقال:يا رسول الله،طهرني،فقال:ويحك!ارجع فاستغفر الله وتب إليه.قال:فرجع غير بعيد،ثم جاء فقال:يـا رسول الله،طهرني،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك!ارجع فاستغفرالله وتب إليه.قال:فرجع غيربعيد،ثم جـاء فقال:يارسول الله،طهرني،فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك،حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله صلـى الله عليه وسلم:فيم أطهرك؟.فقال:من الزنى،فسأل رسول الله صلى الله عليـه وسـلم:أبـه جنـون؟.فأخـبر أنـه ليـس بمجنون،فقال:أشرب خمرا؟.فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريـح خمـر،قـال:فقـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم:أزنيت؟فقال:نعم،فأمر به فرجم،فكان الناس فيه فرقتين:قائل يقول:لقد هلك،لقد أحاطت بـه خطيئتـه،وقـائل يقول:ماتوبة أفضل من توبة ماعز:أنه جاء إلى النبي صلى الله عليـه وسـلم فوضـع يـده في يـده،ثم قـال اقتلـني بالحجارة،قال:فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة،ثم جـاء رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم وهـم جلـوس فسـلم ثم جلس،فقال:استغفروا لماعز بن مالك، قال:فقالوا:غفر الله لماعز بن مالك قال:فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لقـد تاب توبة لو قسـمت بين أمة لو سعتهم.

[2] كتاب الحدود-صـ٩٤.قال:فجاءت الغامدية فقالت:يا رسول الله،إني قد زنيت فطهرني،وإنه ردها،فلما كـان الغـد قالت:يا رسول الله،لم تردني؟لعلك أن تردني كما رددت ماعزا،فوالله!إني لحبلى،قال:إما لا،فاذهبي حتى تلدي.فلما ولـدت أتته بالصبي في خرقة،قالت:هذا قد ولدته.قال:اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه،فلما فطمته أتتـه بـالصبي في يـده كسـرة خبز،فقالت:هذا،يا نبي الله،قد فطمته،وقد أكل الطعام،فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين،ثم أمـر بهـا فحفـر لهـا إلى صدرها،وأمر الناس فرجموها،فيقبل خالد بن الوليد بحجر،فرمى رأسها،فتنضح الدم على وجه خالد،فسبها،فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها،فقال:مهلا!يا خالد!فوالذي نفسي بيده!لقد تابت توبة،لو تابها صاحب مكس لغفر له . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

ترك الهوى:

كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قيمة الأفعال الحسنة التي يقوم بها الإنسان موقوفة على غرضها وغايتها،بمعنى أنه إن فعلها لأجل رضا الله تعالى كانت طيبة وحسنة،وإن كانت لغرض سيء فإنها عندئذ ليست حسنة،وإنما هي كما جاء اسم هذا الغرض الفاسد والرغبة الباطلة في القرآن(الهوى)،ولا بد أن يطهر الإنسان أعماله وأخلاقه من الهوى،إذ أن الإله الحقيقي للإنسان هو ذلك الذي يعمل لأجله،ولهذا قال الله تعالى عن أولئك الذين لا يتعبون دين الحق،ولا يؤسسون أعمالهم على الإخلاص أن دينهم ومذهبهم هو هواهم النفسي،وأن أصنام أغراضهم ورغباتهم النفسية كامنة في صدورهم،وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك في سورتي (الفرقان) و (الجاثية) .

" أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " (الجاثية : ٣) .

ولهذا قدمت الشريعة المحمدية طريقة التخلي عن الهوى وعدم إتباعه من أجل تزكية النفس وتطهيرها ورفعة الروح وتنزيهها.ولقد كان المبدأ الأساسي لتعاليم بوذا هو أن يتطهر الإنسان من كل الرغبات،لكن تعاليم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أن يتطهر الإنسان من كل رغبة سيئة،لأنه إن تطهر من كل رغبة حسنة أو سيئة فإنه لن يكون هناك غرض أو هدف لأفعاله،بل ولن يكون هناك دافع لها،ولهذا لم يطالب الإسلام بالتخلص من كل الرغبات،وإنما من كل رغبة سيئة،ومن كل هوى نفساني وغرض وهدف باطل،لأن الإنسان إن لم يفعل واتبع هذا الهوى الباطل لظهر الضلال والغواية،وقد قال الوحي المحمدي :

" ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله " (القصص : ٥) .

وقال : " ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " (ص : ٢) .

بل إن العدل والإنصاف والصدق والتي هي روح كل عمل طيب تموت كلها باسم القاتل لهذا الهوى،قال تعالى : " فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا " (النساء : ٢) .

فالهوى النفسي هو أساس كل سيئة،ومن أنقذ نفسه منه فكأنما أنقذ نفسه من كل سيئة،وتكون الجنة هي مكان أمنه و أمانه،قال تعالى :

"وأما من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"(النازعات:٢) .

الاخلاق والحب الإلهي:

إن أعظم نعم الدنيا هي الحب,وخاصة ذلك الحب الذي يكنه العبد لربه,ومن أهم الوسائل الناجحة للحصول على هذه النعمة الخالدة والثروة الباقية بالإضافة إلى أن أحكام الدين هي حسن الأخلاق,وقد سبقت الإشارة إلى ذلك مجملا في باب العقائد تحت عنوان الحب الإلهي,ومع ذلك فالمقام الآن يناسب الكلام فيه مفصلا,فلقد جاء التأكيد على حب الله تعالى في التوراة والإنجيل أيضا,لكن السؤال الأساسي هو ما هو السبيل إلى حب الله,وكيف يحصل الإنسان على هذه الثروة,ولم يجب على هذا السؤال سوى القرآن فقط,وهو باختصار أن إتباع داعي الخير في كل أمر وفعل هو الوسيلة إلى حب الله,وقد قال الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم:

" قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله " (آل عمران : ٤) .

ولهذا فإن إتباع تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأحكامه وإرشاداته هو أكبر وسيلة لحب الله,لكن القرآن الكريم لم يكتف بهذه الإجابة المختصرة,وإنما ذكر بالاسم كل أولئك الذين يستحقون حب الله,وكذلك كل المحرومين منه,وبهذا يستطيع الإنسان أن يستوعب قضية من قضايا مبادئ الأخلاق الإسلامية وهي هل حسن الخلق أيضا من بين الأعمال التي تعد وسيلة لحب الله؟,وهل سوء الخلق وسوء السلوك من بين صفات أولئك الذين يحرمون من هذه النعمة ؟.ويدخل في الصنف الأول من أصحاب الحظ العظيم الجماعات الإنسانية التالية :

" والله ولي المؤمنين " (آل عمران : ٧) .

" إن الله يحب المحسنين " (البقرة : ٢٤ , المائدة : ٣) .

" إن الله يحب المتوكلين " (آل عمران : ١٧) .

" إن الله يحب التوابين " (البقرة : ٢٨) .

" إن الله يحب المقسطين " (المائدة : ٦ , الحجرات : ٧) .

" إن الله يحب المتقين " (التوبة : ١) .

" والله يحب الصابرين " (آل عمران : ١٥) .

" والله يحب المطهرين " (التوبة : ١٣) .

" إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله " (الصف : ١) .

وقد وضحت الآيات السابقة تسعة أمور تؤدي إلى حب الله وهي الإيمان,والإحسان والتوبة والتوكل والإنصاف والتقوى والصبر والجهاد والتطهير,وفيما يلي صفات أولئك المحرومين من حب الله : " فإن الله لا يحب الكافرين " (آل عمران : ٣٢) .

" إن الله لا يحب المعتدين " (البقرة : ٢٤ , المائدة : ٢٠) .

" إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا " (النساء : ٦) .

" إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما " (١٦) .

" إن الله لا يحب كل خوان كفور " (الحج : ٥) .

" إن الله لا يحب المفسدين " (القصص) .

" إن الله لا يحب المسرفين " (الأنعام : ٧) .

" إن الله لا يحب المستكبرين " (النحل : ٣) .

" إنه لا يحب الظالمين " (الشورى : ٤) .

" والله لا يحب كل كفار أثيم " (البقرة : ٣٨) .

فالصفات السيئة التي تبعد بالإنسان عن حب الله تعالى هي الكفر وسوء القول وتعدي الحد في الانتقام و الفخر والغرور والتفاخر والخيانة ونكران الجميل والجحود,والفساد والإسراف والظلم والذنب.ويتضح من التفصيل السابق إلى أي مدى يدخل عنصر حب الله تعالى في تركيب الأخلاق الإسلامية ومدى أهمية هذا العنصر .

أسلوب وطرق تعليم الأخلاق

لقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم لتعليم الناس مكارم الأخلاق وحثهم على ترك المعاصي،ولهذا أخبرنا القرآن بمهمته يقول:"يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم"(البقرة آية ١٢٩)،وأكد على هذا الحديث النبوي بقوله:"وإنما بعثت معلما "(ابن ماجه باب فضل العلماء).

ولنرى الآن كيف أن المعلم الرباني قد أدى هذه المهمة وأي طريقة اتبعها :

هناك شرط أساسي للمعلم الناجح وهو أن يكون حازما ورفيقا في آن واحد فهو بمثابة الجراح الذي بإحدى يديه مشرط وفي اليد الأخرى مرهم،فعن طريق المشرط يخرج المواد الفاسدة ويندمل الجرح،وعن طريق المرهم يطيب المجروح،فلو فرضنا أن

الجراح يمتلك واحدة فقط من هاتين الأداتين فلن يطيب الجرح ولن تخرج المواد الفاسدة.

فلو أمعنا النظر في الطرق التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس مكارم الأخلاق لوجدنا أنه يعرف جيدا متى يستخدم الشدة ومتى يستخدم الرفق،وهنا توضح لنا السيدة عائشة رضي الله عنها كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعاقب كل من خالف شرع الله([1])،وذات مرة قبض على سيدة من قريش وهي تسرق فأراد بعض المسلمين أن يتوسطوا لها عند الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لهم الرسول:"إنما هلك من كان قبلكم،كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"([2]).

كانت هذه أمثلة على صرامته صلى الله عليه وسلم،أما فيما يتعلق برفقه على الناس فقد جاء بدوي إلى المسجد النبوي ذات مرة،وكان بحاجة إلى الاستنجاء،فجلس البدوي في صحن المسجد واستنجى فرآه الصحابة وأرادوا ضربه فمنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم رفقا به،ثم استدعى البدوي بعدها وقال له:إن هذا المسجد مكان للعبادة وليس للنجاسة،فهو مكان لذكر الله وقراءة القرآن الكريم،وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس أن يطهروها بالماء ([3]) .

---

[1] - صحيح البخاري قول النبي– صلى الله عليه وسلم–"يسروا ولا تعسروا".حدثنا محمد بن بشار قال:حدثنا يحيى بن سعيد قال:حدثنا شعبة قال:حدثني أبو التياح،عن أنس،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا).

[2] - صحيح البخاري كتاب الحدود .حدثنا قتيبة بن سعيد،حدثنا ليث.حدثنا محمد بن رمح،أخبرنا الليث،عن ابن شهاب،عن عروة،عن عائشة:أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت،فقالوا:من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟فقالوا:ومن يجترئ عليه إلا أسامة،حب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟فكلمه أسامة،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:أتشفع في حد من حدود الله؟،ثم قام فاختطب فقال:أيها الناس!إنما أهلك الذين قبلكم،أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف،تركوه،وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد،وايم الله!لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

[3] -صحيح البخاري كتاب الأدب باب يسروا ولا تعسروا وكتاب الطهارة،وصحيح مسلم باب وجوب غسل البول .حدثنا أبو اليمان:أخبرنا شعبة،عن الزهري.وقال الليث:حدثني يونس،عن ابن شهاب،أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:أنا أبا هريرة أخبره:أن أعرابيا بال في المسجد،فثار إليه الناس ليقعوا به،فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:(دعوه،وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء،أو سجلا من ماء،فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين).

ويحكى أن رجلا أخطأ ذات مرة في رمضان،فطلب من الناس أن يأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له:لا نستطيع فذهب بمفرده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحكى له ما حدث فقال له الرسول:عليك بعتق رقبة،فقال الرجل:لا أملك غلاما،فطلب منه الرسول صيام شهرين متتابعين فقال للرسول صلى الله عليه وسلم لقد أذنبت وأنا صائم فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم إطعام ستين مسكينا،فقال نحن أنفسنا من المساكين فقال الرسول صلى الله عليه وسلم اذهب إلى مدير الصدقات في بني زريق واحصل منه على الصدقة وأطعم بها ستين مسكينا وما تبقى أطعم به نفسك وأسرتك،فسعد الرجل وذهب إلى قبيلته،وقال لهم كم كنتم أشداء،وكم كان الرسول صلى الله عليه وسلم رؤوفا [1] .

وهناك أحداث أخرى يتضح منها الشدة في حالة الخوف من عدم تنفيذ حدود الله،ولكن الأمور التي بها متسع من المستحبات أو الفضائل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلجأ فيها إلى الرأفة والحب بين الناس .

ا-اختيرت العديد من الطرق في تعليم الأخلاق والفضائل،فأحيانا كان عن طريق إبلاغ الأوامر الإلهية،وأحيانا عن طريق إعطاء الأمثلة والتشبيهات المؤثرة،وأحيانا عن طريق عرض النتائج الإيجابية والسلبية لأي عمل،كل هذا يؤثر على السامع ويجعله مستعدا للعمل بالأخلاق الحميدة،وهكذا فالقرآن الكريم يأمرنا في تعاليمه بقوله :

---

[1] - أبو داوود باب في الظهار .حدثنا عبد بن حميد والحسن بن علي.حدثنا يزيد بن هرون.حدثنا محمد بن إسحق عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر الأنصاري قال:كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء مالم يؤت غيري،فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها في ليلتي فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع،فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها،فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري فقلت:انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بأمري،فقالوا:لا والله لا نفعل،نتخوف أن ينزل فينا قرآن أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة يبقى علينا عارها،ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك.قال:فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبري،فقال:أنت بذاك؟قلت:أنا بذاك.قال:أنت بذاك؟قلت:أنا بذاك.قال:أنت بذاك؟قلت:أنا بذاك؟وهاءنذا فامض في حكم الله فإني صابر لذلك.قال:أعتق رقبة.قال:فضربت صفحة عنقي بيدي،فقلت:لا والذي بعثك بالحق لا أملك غيرها.قال:صم شهرين.قلت:يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام.قال:فأطعم ستين مسكينا.قلت:والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشا مالنا عشاء.قال:اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق،فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا،ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك.قال:فرجعت إلى قومي،فقلت:وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي،ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة،أمر لي بصدقتكم فادفعوها إلي فدفعوها إلي

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغـــي يعظكم لعلكم تذكرون " (النحل آية ٩٠) .

وبهذا نجد أن الله قد أصدر تعاليمه بقوله افعلوا هذا وتجنبوا هذا،فيجــب علــى عباده أن يمتثلوا لتعاليمه،وليس لهم الحق في أن يتهربوا من العمل على إتمامها .

أما الطريقة الثانية من تعليم الفضائل فهي إتبـــاع أسـلوب تشـبيه الفضـــائل والمحاسن بالأشياء الجميلة،وتشبيه الرذائل بالأشياء القبيحة حتى يميل السامع أو المتلقي إلى الفضائل وتجنب الرذائل،فمثلا فضيلة الأخلاق في الدنيا شبهها القرآن الكريم كمثـل حبة (البقرة آية ٢٦١) فهي كحبة الخير التي تنبت في كل حبة مائة حبة مـــن الخـير الرباني،أما فعل الرياء والاستعراض فهو لا فائدة فيه للمخلوق ولا يجازي عليه الخـالق فهو كما عبر عنه القرآن الكريم " كصفوان " (البقرة آية ٢٦٤) جـــاء عليـــه الـتراب فأصابه وابل وتركه صلدا فلا يخرج منه شيء .

ومن يأكل أموال اليتامى ظلما،فهو كما عبر عنه القرآن الكريم بقوله:" إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا " (النساء آيـة ١٠) ، كما أظهر القرآن كراهية إساءة المسلم لأخيه المسلم فقال:"ولا يغتــب بعضكـم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا " (الحجرات آية ١٢) .

إن من يهب شخصا شيئا ما ثم يأخذه مرة أخرى فهذا خلاف الشرف والكرم،وقد أظهر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مساوئ هذا الشيء بقوله:" إن مـــن يعطـي شخصا شيئا ما ثم يأخذه كمن يتقيأ شيئا ثم يلعقه مرة أخرى " هل يوجد أسوأ من هـــذا التشبيه !! .

لقد ارتكب شخص من قبيلة (أسلم) ذنبا أخلاقيا،وجاء بعد فترة واعترف للرسول صلى الله عليه وسلم بارتكاب خطأه وطلب من الرسول صلى الله عليه وســلم تطبيـق حدود الله عليه،وبعد أن قام الرسول بالاستقصاء والتحقيق في قضيته أمر برجمه،وعندما تم رجمه وسمع الرسول أحد الناس يقول للأخر لقد ستره الله في ذنبه ففضح نفسه،ورجم كالكلب،سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وسكت،وبينما هو يمشي فإذا به يجد جثة حمار فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الرجل فقال أنا هنا يا رسول الله فقـال له الرسول صلى الله عليه وسلم تعال وكل شيئا من جثة هذا الحمار،فقال الرجـــل:يـا

رسول الله من يأكل هذا؟فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم إن ما قلته في حق أخيك أسوأ من أكل هذه الجثة ([1]) .

فهل هناك أسلوب أكثر تأثيرا لذم الغيبة أكثر من هذا؟،أما الطريقة الثالثة فهي اقتران نتائج الأعمال الصالحة بالخير والأعمال السيئة بالسوء مما يجعل الإنسان يقبل على عمل الخير ويترك عمل الشر.فقد اختار الإسلام هذه الطريقة فمثلا شرب الخمر ولعب الميسر عبر القرآن عن نتائجه بقوله:"يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون،إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون"(المائدة آية ٩٠ ،٩١) ودائما ما نجد نهاية شرب الخمر والميسر هي العداوة والبغضاء وتصل إلى القتل والانتحار،وعندما يدمنها الإنسان ينسى دينه ودنياه،وتكون النتيجة خسارة المال والروح .

ولقد اختار الإسلام طريقة أخرى لتعليم الأخلاق،فشبه التحلي بالأخلاق والفضائل بأنها من محاسن النبوة ونسب الرذائل بأنها من خصائص الشيطان مما يجعل الإنسان يقبل على الفضائل ويجتنب الرذائل فقد أمر بالعفو بقوله:"إن تبدو خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا"(النساء آية ١٤٩).فبالرغم من أن العفو من خصائص الألوهية فقد أمر الله عباده بأن"يتخلقوا بأخلاق الله"مع أنها مقولة مشهورة إلا أننا نستنبطها من الآية،وقد أوضح بعض المفسرين هذا .

وفي الحديث أن صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله،لو أراد أحد أن يكون ملبسه وسلوكه جميل،أيكون هذا غرور فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله جميل يحب الجمال (صحيح مسلم والترمذي) .

لهذا يجب على الناس أن يراعوا جمال لباسهم وسلوكهم،وهكذا وضح القرآن للمسلمين إتباع منهج الرسول بقوله:"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"(الأحزاب آية ٢١)،وكذلك أعطى مثالا بأن لا يلام الإنسان في قول الحق من أهله وأقاربه بقوله:"قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه"(الممتحنة آية ٤)،وقد وضح القرآن في كلتا الآيتين التحلي ببعض صفات النبوة،ورغب الناس في إتباعها والعمل

[1] تفسير عبر المحيط لأبي حيان الأندلسي تفسير الآية المذكورة ج٣ صـــ ٣٨٥ .

بها، كما ذم القرآن الإسراف بقوله"إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين"(الإسراء آية ٢٧) فمن منا يريد أن يكون أخا للشيطان !!.

والخلاصة أن الإسلام ثبت في أذهان العرب مساوئ الرذائل ومحاسن الفضائل بالعديد من الأساليب البلاغية المختلفة،وقد بين لنا الصحابي الجليل جابر بن سليم عندما قدم إلى رسول الله لأول مرة فقال:"رأيت أن شخصا ما يجلس يتحدث إلى الناس فيسمعون له فسألت من هذا الشخص فقال الناس:إن هذا هو رسول الله فقلت:سلام عليك يا رسول الله فصمت الرسول لبرهة،ثم قال له لا تقل عليك السلام لأن هذا سلام الأموات فقل السلام عليك فقلت هل أنت رسول الله فقال نعم:أنا رسول الله،الله الذي تناديه عندما يصيبك ألم،وهو الذي تطلب منه عندما يصيب أرضك الجفاف أن ينبتها،وهو الذي تطلب منه المساعدة عندما تضل دابتك أن يعيدها إليك فقلت:يا رسول الله انصحني فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا تسيء لأحد،فيقول جابر رضي الله عنه إن أثر هذا علي ظل طيلة حياتي فلم أسيء إلى سيد أو عبد أو حتى حيوان،وهناك نصيحة أخرى فقال:لا تحتقر أي عمل خيري حتى ولو كان بسيطا فحتى ابتسامتك في وجه أخيك صدقة،وأن ترفع إزارك إلى أعلى لأن ترك الإزار إلى أسفل علامة على الغرور[1] والله لا يحب الغرور،ولو أن أحدا سبك فلا تسبه ومن كان منكم به سيئة فلا يعايره أحد بها لأن وبالها سيقع عليه [2] .

وهكذا رأينا أثر هذه الطريقة البلاغية المؤثرة على هذا البدوي أمام الله،ولا نعلم كم مرة وقعت هذه الأمور في حياته التي نكره بها الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك

---

[1] كان العرب يفعلون هذا قبل ذلك حيث كان دليلا على المراء والفخر والغرور مثلما يترك العباءة بعض الأقوام الأخرى وراءه على الأرض وهو يمشي .

[2] سنن أبو داوود باب في إسبال الإزار .حدثنا مسدد،لنا يحيى،عن أبي غفار،لنا أبو تميمة الهجيمي،وأبو تميمة اسمه طريف بن مجالد،عن أبي جري جابر بن سليم قال:رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدروا عنه،قلت:من هذا؟قالوا:هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم،قلت:عليك السلام يا رسول الله مرتين،قال:لا تقل:عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت،قل:السلام عليك قال:قلت:أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟قال:أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك،وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك،وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك قال قلت:اعهد إلي،قال:لا تسبن أحدا قال:فما سببت بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة،قال:ولا تحقرن شيئا من المعروف،وإن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك،إن ذلك من المعروف،وارفع إزارك إلى نصف الساق،فإن أبيت فإلى الكعبين،وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة،وإن الله لا يحب المخيلة،وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه،فإنما وبال ذلك عليه.

اتبع قلبه الصدق وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم النصيحة،وهكذا فإن واجب الطبيب أن يعالج مريضه طبقا لحالته لهذا وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يجيب على سؤال السائل طبقا لظروفه،ومن هنا وجدنا علاجه أو نصيحته لسيدنا جابر رضي الله عنه والتي خلاصتها أن لا يغتر ولا يتكبر ووصف له التدابير لعلاج هذا المرض .

جاء شخص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال انصحني يا رسول الله فقال له الرسول:لا تغضب فكرر سؤاله أكثر من مرة للرسول فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة نفس الإجابة ([1])،ويتضح من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشخص لكل إنسان علاجه طبقا لحالته حيث كان الغضب هو الذي يسيطر على هذا الرجل فكان الغضب سببا في كثرة مساوئه لهذا اقترح عليه الرسول هذا العلاج الذي يبدو بسيطا في بادئ الأمر وكان الرجل يرغب في علاج آخر إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كرر له في كل مرة أن لا يغضب .

سأل الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله عن أفضل الأعمال فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله،ثم سأل هل عتق الرقبة أفضل الأعمال فقال له الرسول عندما يكون ثمن عتقه كبير وأن يكون محبوبا لسيده،ثم سأل مرة أخرى لو أنني لم أستطع أن أفعل أي شيء من هذه الأعمال؟فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ساعد المحتاج فقال له إن لم أستطع،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ادفع عن الناس الشر فهذه صدقة يمكنك القيام بها (أدب المفرد والبخاري ص ٤٥ مصر).

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانا يسأل الناس وينظر إلى إجاباتهم،وذات مرة سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة رضوان الله عليهم أتعرف من هو المفلس فأجاب الناس المفلس هو الذي لا مال ولا ثروة عنده فقال الرسول صلى الله عليه وسلم المفلس في أمتي هو الذي صلى وصام وزكى ويأتي يوم القيامة وقد سب هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وقتل هذا فيأخذ من حسناته ويعطي

---

[1] – صحيح البخاري كتاب الأدب باب الحذ من الغضب،والترمذي باب ما جاء في كثرة الغضب.

حدثنا يحيى بن يوسف:أخبرنا أبو بكر،هو ابن عياش،عن أبي حصين،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم:أوصني،قال:(لا تغضب).فردد مرارا،قال:(لا تغضب).

للآخرين فلو انتهت حسناته فيأخذ من سيئات الآخرين وتكتب عليه ويقذف في النار [1]).
كم هي مؤثرة حقيقة المفلس .

وهكذا سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة من هو البطل أو القوي فقال الناس:الذي لا يهزم في الميدان،فقال صلى الله عليه وسلم القوي من يملك نفسه عند الغضب ([2]) .

كان هناك شخص لا تعيش له أولاد فأراد الرسول أن يعلمه الصبر فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم من تطلقون عليه بأنه بلا أولاد فقال الصحابة من لا ولد له فقال الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا ولد له هو الذي لم يمت له أولاد قبله([3])."وفي الأحاديث أن من يموت له أطفال صغار فعلى والديه أن يتحلوا بالصبر لأن الطفل سيكون شفيعا لأهله يوم القيامة " .

وهذه الطريقة الجميلة رسخت في أذهان الناس أن من لم يكن لديه ولد فعليه بالصبر لأنهم سيكونون سببا في رفعته يوم القيامة.ذات مرة كان الناس يجلسون فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم وسألهم من منكم يخبرني من هو أفضلكم؟فصمت الحاضرون(فربما يكونون قد فهموا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل عن أسماء الأحسن والأسوأ في كل جماعة) فكرر الرسول السؤال مرة أخرى ثم سأل مرة ثالثة

[1] – صحيح مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .حدثنا قتيبة بن سعيد وعلي بن حجر،قالا:حدثنا إسماعيل،وهو:ابن جعفر،عن العلاء،عن أبيه،عن أبي هريرة،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(أتدرون ما المفلس؟).قالوا:المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع،فقال:(إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة،ويأتي قد شتم هذا،وقذف هذا،وأكل مال هذا،وسفك دم هذا،وضرب هذا،فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته،فإن فنيت حسناته،قبل أن يقضى ما عليه،أخذ من خطاياهم فطرحت عليه،ثم طرح في النار.

[2] صحيح مسلم باب فضل من يملك نفسه عند الغضب .حدثنا قتيبة بن سعيد،وعثمان بن أبي شيبة،واللفظ لقتيبة،قالا:حدثنا جرير،عن الأعمش،عن إبراهيم التيمي،عن الحارث بن سويد،عن عبد الله بن مسعود،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ما تعدون الرقوب فيكم؟).قال:قلنا:الذي لا يولد له.قال:(ليس ذاك بالرقوب،ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا).قال:(فما تعدون الصرعة فيكم؟).قال:قلنا:الذي لا يصرعه الرجال،قال:(ليس بذلك،ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب).

[3] المرجع السابق .

فقال أحد الأشخاص يا رسول الله أخبرنا من هو أفضل الناس فينا؟فقال الرسول صلى الله عليه وسلم إن أفضلكم هو الذي يأمل منه الناس الخير ويأمنون شره([1]) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة من يسمع كلامي ويعمل به ويعلمه الآخرون حتى يعملوا به؟فقال أبو هريرة رضي الله عنه أنا يا رسول الله.فقال أبو هريرة:أمسك الرسول صلى الله عليه وسلم بيدي فعلمني خمس :

١- اجتناب الذنوب يجعلك من عباد الله المتقين .

٢- القناعة بما أعطاه الله لك تكن أغنى الناس .

٣- الإحسان بالمال يجعلك مؤمنا .

٤- أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلما .

٥- أن لا تضحك كثيرا لأن الضحك يذهب القلوب ([2]) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة من منكم يحفظ ما بين فكيه ورجليه اضمن له الجنة([3]) ومن يعرف كم من المسلمين نهضوا لضمان هذا .

انظر إلى بلاغة هذه الفقرة فالمقصود ما بين الفكين هو اللسان الذي هو أساس كل المعاصي وما بين فخذي الإنسان فهو أعضاءه الجنسية وهو أساس كل المصائب ومن يعمل على حفظهما يصلح جزءا كبيرا من سيئاته .

ذات مرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم من منكم يعدني بهذا اضمن له الجنة فقال ثوبان رضي الله عنه أنا يا رسول الله فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لا تطلب من أحد شيئا وبالفعل لم يسال أحدا مطلقا([1]).

---

[1] الترمذي كتاب الفتن .حدثنا قتيبة.حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على أناس جلوس فقال:ألا أخبركم بخيركم من شركم؟قال:فسكتوا،فقال ذلك ثلاث مرات،فقال رجل:بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا،قال:خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره،وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره .

[2] جامع الترمذي أبواب الزهد .حدثنا بشر بن هلال الصواف البصري.حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي طارق عن الحسن عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن او يعلم من يعمل بهن؟فقال أبو هريرة:فقلت:أنا يا رسول الله،فأخذ بيدي فعد خمسا وقال:اتق المحارم تكن أعبد الناس،وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس،وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا،وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما،ولا تكثر الضحك،فإن كثرة الضحك تميت القلب .

[3] صحيح البخاري باب حفظ اللسان .حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي:حدثنا عمر بن علي:سمع أبا حازم،عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)

الجميع يعلم أن سفك دماء أي مسلم في أرض الحرم وخاصة أيام الحج ذنب عظيم،وعندما وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في منى أثناء خطبة الوداع فسأل صلى الله عليه وسلم وقال أيها الناس ما اليوم؟ فاعتقد الناس أن الرسول يريد أن يختار اسما آخر لهذا اليوم فقال له الناس ما المسئول أعلم من السائل فقال صلى الله عليه وسلم إن اليوم ليس يوم أضحية فقال الجميع نعم يا رسول الله،ثم سأل ما هذا الشهر؟ فسكت الجميع واعتقد الجميع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يختار اسما آخر لهذا الشهر فأجابوه الإجابة السابقة فقال صلى الله عليه وسلم إن هذا الشهر ليس ذي الحجة فقال الجميع نعم يا رسول الله،ثم سأل الرسول ما هذا المكان؟فسكت الجميع وظنوا مثلما ظنوا سابقا فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم إن هذا المكان ليس البلد الحرام فقالوا له نعم يا رسول الله،وعندما تيقن الرسول من حرمة هذا اليوم وهذا الشهر وهذا المكان في قلوب المسلمين نهض الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:أيها المسلمون إن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام عليكم كحرمة يومكم ومقامكم وشهركم هذا ([2]) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينصح أصحابه كلا على حسب حالته وطباعه فمثلا كان سيدنا أبو ذر رضي الله عنه من الزاهدين فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر اخشي الله حيثما تكون واتبع السيئة الحسنة تمحها وعامل الناس بالخلق الحسن([3]) .

عادة ما يفهم الناس أن المال أو النقود هي الصدقة الوحيدة التي يمكن أن تؤدى في سبيل الله،فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعد عن أذهان المسلمين هذا الفكر

---

[1] مسند أحمد ج٥ص ٢٧٥ .حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أسود بن عامر ثنا شريك عن عاصم عن أبي العالية عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:من يتكفل لي بواحدة وأتكفل له بالجنة؟قال ثوبان:أنا،قال:لا تسأل الناس – يعني شيئا – قال:نعم،قال:فكان لا يسأل.

[2] صحيح البخاري الخطبة في أيام منى .حدثنا محمد بن المثنى:حدثنا يزيد بن هارون:أخبرنا عاصم بن محمد بن زيد،عن أبيه،عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم بمنى:(أتدرون أي يوم هذا).قالوا:الله ورسوله أعلم،فقال:(فإن هذا يوم حرام،أفتدرون أي بلد هذا).قالوا:الله ورسوله أعلم،قال:(بلد حرام،أفتدرون أي شهر هذا).قالوا:الله ورسوله أعلم،قال(شهر حرام).قال:(فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا).

[3] الترمذي باب ما جاء في معاشرة الناس .حدثنا محمد بن بشار.حدثنا عبد الرحمن بن مهدي.حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر قال:قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيثما كنت،وأتبع السيئة الحسنة تمحها،وخالق الناس بخلق حسن .

الخاطئ فقال لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه أن الابتسامة في وجه أخيك صدقة،وإهداء الأعمى في الطريق صدقة،وإماطة الأذى عن الطريق صدقة،ومساعدة الآخرين صدقة.

ولهذا كانت للصدقة في قلوب المسلمين أهمية كبيرة ولهذا رسخ الرسول صلى الله عليه وسلم الصدقة في قلوب المسلمين عن طريق فعل الخيرات ([1]).

كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانا يأخذ البيعة من المسلمين على بعض الخصال الحميدة ولهذا جاء القرآن مؤيدا له بقوله"يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم" (الممتحنة آية ١٢) .

يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه لقد بايعنا يا رسول الله على هذه الأمور ونحن نتبعك في كل الأمور والأحوال وسنلتزم العدل والإنصاف في كل موقع وأن لا تأخذنا في الله لومة لائم ([2]) .

ويقول عبادة رضي الله عنه عندما أسلم الأنصار قبل الهجرة في مكة فاختار الرسول منهم بعض الرجال فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنتم النقباء،فيقول عبادة رضي الله عنه كنت واحدا من هؤلاء فبايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمور التالية:**أن لا نشرك بالله شيئا وأن لا نسرق وأن لا نأتي ببهتان وأن لا نقتل أحدا**

---

[1] الترمذي في صنائع المعروف .حدثنا عباس بن عبد العظيم العنبري.حدثنا النضر بن محمد الجرشي اليمامي.حدثنا عكرمة بن عمار.حدثنا أبو زميل عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:تبسمك في وجه أخيك لك صدقة،وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة،وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة،وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة،وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة،وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

[2] مسند أحمد بن حنبل ج٥صـ ٣١٨.حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا وكيع ثنا أسامة بن زيد عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن جده عبادة بن الصامت قال:بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع الطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره،وأن لا ننازع الأمر أهله،وأن نقول بالحق حيثما كنا ولا نخاف في الله لومة لائم.

بغير حق،فلو عملنا بكل هذه الأمور فستكون الجنة نصيبنا ولو قصر أحـــد فـــي هـــذه الأمور فمصيره إلى الله([1])،فالله وحده يعلم كم حافظ هؤلاء السعداء على عهودهم .

كان الرسول في بعض الأوقات يسأل ويلتفت الناس إليه ولكن قبـــل أن يجيبـــه الناس كان يجيبهم،فسأل ذات مرة من هو المفتري؟فأجاب هو نفسه قبل أن يجيبه النـــاس بقوله صلى الله عليه وسلم هو الذي يغتاب الناس وينقل الكلام من هذا إلى ذاك ([2]) .

وذات مرة قال صلى الله عليه وسلم ما هي الغيبة؟فأجاب النـــاس:الله ورســـوله أعلم،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أن تذكر أخاك بما لا يحبه،فقال أحد الناس:لـــو كانت هذه السيئة موجودة حقيقة فيمن نتحدث عنه،فقال الرسول صلى الله عليـــه وســـلم حتى لو كانت فيه حقيقة فهي غيبة وإثم عظيم ([3]) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم من هم أهل الجنة،فقال الصحابـــة رضوان الله عليهم نعم يا رسول الله،فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم كل ضعيـــف قلب يحتقره الناس أو متواضع(والذي قوة إيمانه)لو أقسم على الله لأبره،ثم قال لـــهم ألا أخبركم بأهل النار،فقال له الصحابة رضوان الله عليهم نعم يا رسول الله،فقال الرســـول صلى الله عليه وسلم كل مغرور ([4]) .

أحيانا كان الرسول يسأل بنفسه ويكرر السؤال أكثر من مرة فيعرف الحاضرين أهمية السؤال من تكراره فيسألون ما هذا الأمر يا رسول الله،وبعدها يجيبـــهم الرســـول

---

[1] صحيح البخاري ج٢ صـــ٥ كتاب الديات.حدثنا عبد الله بن يوسف:حدثنا الليث:حدثنا يزيد،عن أبـــي الخير،عن الصنابحي،عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:إني من النقباء الذين بايعوا رســـول الله صلى الله عليه وسلم،بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئا،ولا نسرق،ولا نزني،ولا نقتل النفس التي حرم الله،ولا ننتهب،ولا نعصي،بالجنة إن فعلنا ذلك،فإن غشينا من ذلك شيئا،كان قضاء ذلك إلى الله.

[2] صحيح مسلم باب تحريم النميمة .

[3] صحيح مسلم باب تحريم الغيبة.حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر،قالوا:حدثنا إسماعيل،عـــن العلاء،عن أبيه،عن أبي هريرة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(أتدرون ما الغيبة؟).قالوا:الله ورسوله أعلم.قال:(ذكرك أخاك بما يكره).قيل:أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟.قال:(إن كان فيه مـــا تقول،فقد اغتبته،وإن لم يكن فيه،فقد بهته).

[4] صحيح مسلم باب جهنم.حدثنا محمود بن غيلان.حدثنا أبو نعيم.حدثنا سفيان عن معبد بـــن خـــالد قال:سمعت حارثة بن وهب الخزاعي يقول:سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:ألا أخبركم بـــأهل الجنة:كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره.ألا أخبركم بأهل النار:كل عتل جواظ متكبر.

صلى الله عليه وسلم فذات مرة سأل الرسول نفسه أقسم بالله أن هذا ليس مؤمنا،أقسم بالله أن هذا ليس مؤمنا،أقسم بالله ليس هذا مؤمنا،فسأله الصحابة رضوان الله عليهم من هذا يا رسول الله؟فقال صلى الله عليه وسلم الذي يؤذي جاره ([1]) .

ذات مرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم الأمانة هي الإخلاص،فسأل الصحابة رضوان الله عليهم يا رسول الله الإخلاص مع من؟فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإخلاص مع الله ومع كتابه ومع رسوله ومع أولي الأمر من المسلمين وعامة المسلمين([2]).

أقسام التعاليم الأخلاقية

بعد هذا الشرح والتفصيل للأصول الأخلاقية الإسلامية،أتيح لنا أن نتقصى هذه التعاليم الأخلاقية التي جاءت عن طريق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،وقد قسم الإسلام هذه التعاليم الأخلاقية في ثلاثة أجزاء وهي:الحقوق،الفضائل والرذائل،الآداب .

فالتعليم الأول الذي أكده الإسلام هو أن هناك حقوق على الإنسان تجاه أخيه الإنسان وتجاه الحيوانات والكائنات الأخرى،وهي حقوق يجب على كل إنسان الالتزام بها طبقا لإمكانياته .

الشيء الثاني هو سلوك الإنسان سواء من محاسن وهي ما تطلق عليه الفضائل أو المساوئ وهي ما تطلق عليه الرذائل فمثلا قول الصدق فضيلة وقول الكذب رذيلة .

أما القسم الثالث وهي الأعمال وطريقة أدائها وهي ما تطلق عليها الآداب العامة من مأكل ومشرب وجلوس ونهوض وقد فصل الإسلام هذه الأقسام الثلاثة للتعاليم الأخلاقية فيما يلي :-

الحقوق والواجبات

معنى الحق :

تم شرح إجمالي لمعنى الحق سالفا ولكن يجدر بنا أن نفصل هنا أكثر طبقا لما جاء به المعنى القرآني"خلق لكم ما في الأرض جميعا"(البقرة آية ٢٩)،من هنا نرى أن كل شيء خلق في الدنيا جاء لمصلحة الإنسان ولهذا يجب على الإنسان أن يحافظ عليه ويعمل على النهوض به،وأن يستفيد من كل ما خلق الله له وطبقا للوظيفة التي جعلها الله

---

[1] المشكاة باب الشفقة على الخلق صحيحين .

[2] المشكاة باب الشفقة على الخلق صحيح مسلم والبخاري .

له وأن ينقذه من كل ضرر يلحق به،وهذه المسئولية هي ما نسميها أو نطلق عليها كلمة حق يجب الالتزام بها.

" وفي أموالهم حق للسائل والمحروم " (الذاريات آية ١٩) .

" والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (المعارج آية ٢٤) .

" وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل " (الإسراء آية ٢٦) .

" فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل " (الروم آية ٣٨) .

عندما يهب الله الإنسان المال أو الثروة فرض عليه أن يؤدي حق من لم يملك هذه الثروة أو المال والأقربون هم أولى بالمعروف ثم يأتي بعدهم المسكين وابن السبيل،وفي موضع آخر نسب القرآن هذا الحق إلى المال نفسه"وأتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا" (الأنعام آية ١٤١) .

بمعنى أنه عندما يهب الله الإنسان أي قطعة أرض فيجب عليه أن يؤدي فريضة ما يحصد من زرع هذه الأرض إلى عباد الله المعدمين وأن لا يسرق وينفق هذه النعمة في غير موضعها وإلا يعد هذا من باب إتلاف هذا الحق،وقد جاء في الحديث"إن لزوجك عليك حقا ولزوارك عليك حقا"(البخاري باب الصوم)،وقد جاء في حديث آخر بأن حق الزوجة على زوجها أن يطعمها وأن يكسوها وألا يضربها على وجهها"(أبو داوود باب النكاح)،يتضح من هذا أن هناك حقوق لكل إنسان تجاه الأخر ليس هذا فحسب بل إن للإنسان أيضا حقوق تجاه نفسه وتجاه كل عضو من أعضاء جسده وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر حيث قال:"فإن لنفسك عليك حقا"(البخاري باب الصوم)وقال أيضا:"فإن لجسدك عليك حقا ولعينك عليك حقا " (البخاري باب الصوم) .

يتضح من هذا الإسهاب أن مجال الحقوق في الإسلام أوسع من هذا بكثير :

سعة الحقوق:

عندما ارتبط الإنسان بكل شيء على وجه الأرض فإن هذا قد جعله مسئولا عن كل شيء فيها سواء كان هذا تجاه الجمادات وعدم المساس بها وإهدارها في غير حقها أو النباتات والعمل على نموها أو الحيوانات وتربيتها والمحافظة عليها وعدم المساس بكل ما يؤذيها لأن الإنسان يستفيد منها في كل جوانب حياته تماما،كما أن لأعضاء الإنسان حقوق على الإنسان في أن يستخدمها في موضعها .

والخلاصة أن الإسلام قد قسم هذه الحقوق في جميع الكائنات وجعل دائرتها ومحيطها الأوسع في يد الإنسان،أما فيما يتعلق بالحقوق المشتركة بين البشر فهي كثيرة ولكن يجدر بنا أن نشير إلى الحقوق تجاه الكائنات الأرضية والجمادات والأشياء الحية بشيء من التفصيل حتى يتضح مقصدنا من هذه القضية .

هناك حقان على الإنسان تجاه الجمادات والأشياء الحية أولا:هو أن يستفيد من كل ما خلق لخدمة الإنسان.ثانيا:- العمل على نموها وتطويرها ليس هذا فحسب بل يجب عليه أن يوفر لهذه الأشياء كل الأسباب التي تعمل على نموها من غذاء وراحة،وهو ما أشار إليه القرآن الكريم تجاه هذه الحقوق " خلق لكم ما في الأرض جميعا " (البقرة آية ٢٩) .

وهذا توضيح لحقيقة مفادها هو أن على الإنسان أن يستفيد من كل ما خلق الله له في إطار ما الهدف الذي خلقه الله من أجله حتى يستطيع أن يستفيد منه الإنسان في وقت الحاجة إليه،ولهذا أوجب على الإنسان رعايته والمحافظة عليه .

وقد وضح لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذا من خلال قصة قالها بين أصحابه وهي أن رجلا ذات مرة كان يمتطي ثورا وفجأة أدار الثور وجهه تجاه راكبه وقال له ما خلقت لهذا([1]).كما أن الرسول حثنا على أن زرع فسيلة أو شجرة في الأرض موجب للثواب وقال صلى الله عليه وسلم "ما من مسلم يزرع شجرة فيأكل منها إنسان أو حيوان أو طائر إلا ووجد ثوابها "([2])،ولهذا فإن قطع الأشجار المثمرة بغير سبب غير مستحب ([3]) .

---

[1] صحيح البخاري باب الحرث والمزارعة ج١ ص٣١٢ حدثنا علي بن عبد الله:حدثنا سفيان:حدثنا أبو الزناد،عن الأعرج،عن أبي سلمة،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح،ثم أقبل على الناس فقال:(بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها،فقالت:إنا لم نخلق لهذا،إنما خلقنا للحرث).فقال الناس:سبحان الله بقرة تتكلم،فقال:(فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر .

[2] صحيح البخاري باب الحرث والمزارعة.حدثنا قتيبة بن سعيد:حدثنا أبو عوانة(ح)وحدثني عبد الرحمن بن المبارك:حدثنا أبو عوانة،عن قتادة،عن أنس رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا،فيأكل منه طير،أو إنسان،أو بهيمة،إلا كان له به صدقة).

[3] فتح الباري في شرح صحيح البخاري باب الحرث والمزارعة مجلد خاص ص ٧ مصر .

وفي حكاية أخرى قال الرسول صلى الله عليه وسلم غفر لرجل سقى كلب عطشان وأنقذ حياته،كما أن امرأة عذبت في هرة لا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ولا هي أطعمتها،كما أن شخصا حرق نملة فحوسب عليها ([1]).

لقد ذكرت هذه الأشياء من أجل معرفة أن دائرة التعاليم الأخلاقية للإسلام كم هي واسعة ولم تقتصر فقط على الإنسان بل شملت الحيوان والجماد،والتي سيأتي تفصيلها في مكانها .

ترتيب الحقوق:

لقد راعى الإسلام في أداء هذه الحقوق ترتيب خاص وتفصيله كالآتي :

لو أردنا أن نلخص كل التعاليم والواجبات الأخلاقية في الإسلام في لفظ واحد فيمكننا أن نقول كما ورد في الإنجيل بأنها محبة الآخر،ولكن مصطلح حب الأخر ليس كافيا بل يجب علينا أن نفصل واجبات أو مطالب هذه المحبة وهذا التفصيل هو معجزة التعاليم الأخلاقية في الإسلام.وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"إن كمال الإيمان لا يكون إلا بأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك"،يتضح من هذا أن كل الأمور التي تتعلق بالمال والروح والجسد والتي دائما ما يسعى الإنسان لتحقيقها لذاته يجب أن يرغب ويحب هذه الأشياء للآخرين وهذا هو العنوان الرئيسي للتعاليم الأخلاقية في الإسلام مثل الإنجيل،ولكن هذا العنوان الرئيسي يحتاج إلى تفصيل في الإسلام،وهنا تأتي ضمنيا وبالترتيب العلاقات الإنسانية تلك العلاقات التي أولاها الإسلام اهتماما دائما.

لقد حدد الإسلام هذه العلاقات الإنسانية بالتدريج والترتيب كل على حسب منزلته ومكانته فمثلا مساعدة الإنسان مقدمة على مساعدة الحيوان،كما أن مساعدة الأقرباء مقدمة على مساعدة غير الأقرباء،وكذلك الأصدقاء مقدمة على مساعدة الغرباء حتى أن المساعدة بين الأقرباء يجب أن تبدأ من الأقرب فالأبعد ولكن يجب أن تكون

---

[1] ذكرت هاتين الواقعتين في صحيح البخاري.حدثنا إسماعيل قال:حدثني مالك،عن نافع،عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا، فدخلت فيها النار).وحدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن سمي،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(بينا رجل يمشي،فاشتد عليه العطش،فنزل بئرا فشرب منها،ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث،يأكل الثرى من العطش،فقال:لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي،فملأ خفه ثم أمسكه بفيه،ثم رقى فسقى الكلب،فشكر الله له فغفر له).

هذه المساندة أو المساعدة في الحق وليس في الباطل و إلا سيكون هذا من باب التعصب الذي أنكره الإسلام ([1])،وأكد على المسلمين اجتنابه .

ومن هنا وجدنا أن الإسلام انفرد عن بقية الأديان الأخرى في إعطاء تفصيل ومراتب هذه الحقوق الإنسانية كما أنها–الأديان الأخرى–لم تضع خطا فاصلا بين الإنسان والحيوان فمثلا التعاليم الأخلاقية لبوذا لم يميز بين الإنسان و الحيوان أو بين القوم أو القبيلة والأسرة أو حتى بين القرابة والعلاقة،وبهذه الطريقة جاءت الشريعة الهندوكية،وتقول بأنه لا فرق بين أن تقتل إنسان أو حيوان ويحصل الحيوان على مرتبة أو درجة أما الإنسان فطبقا للمنفعة التي يؤديها،كما أن اليهودية والمسيحية اكتفت بذكر الأب والأم تاركة كل الأقارب،وسلمت بإطاعتهما المطلقة،إلا أن الإسلام فصل كثيرا في هذه الأمور .

تعود فلسفة هذا الترتيب إلى توسيع دائرة العلاقة من الأقرب إلى الأبعد فمثلا شخص لا يمكنه إلا مساعدة فردا ما في وقت واحد،يجب عليه أن يبدأ بوالدته المريضة ثم والده،ثم أخوه وهكذا تتسع الدائرة لتشمل جاره وابن منطقته وابن بلده،وهذا هو الموقف الذي يبرز فيه هذا التساؤل عن ترتيب هذه العلاقات أي بمن نبدأ؟ومن هنا جاءت العلاقة من الدرجة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة،ولهذا احتلت الأم الحق الأول ثم الأب ثم الأخ ثم الجار ثم ابن الوطن،وهذا أمر ضروري في أداء هذه الحقوق ولا يعد من باب الخير أو الحسنة لو ترك الإنسان والدته المريضة وساعد شخصا من جيرانه كما أنه لا يعد من باب التضحية بل إنه ظلم،ولكن ممكن على الإنسان أن يرهق نفسه وأن يراعي حقوق الاثنين معا أي أمه وجاره،وإذا كان هذا خارجا عن استطاعته فهو معذور ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها،وقد راعى القرآن هذا الترتيب بقوله"وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم " (النساء آية ٣٦)"قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم"(البقرة آية ٢١٥).

" و آت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا " (الإسراء آية ٢٦) .

---

[1] سنن أبو داوود ج٢ باب في المعين .

وعلى العموم فإن أكثر المذاهب أولت اهتماما كبيرا بالوالدين وهو ما نراه في الإسلام أيضا ولكنه وضحه و أكمله بهذه الطريقة التي جاءت في الأبواب الأخرى .

حق الوالدين

إن طاعة واحترام الوالدين أمر أقرته شريعة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام بل إن منزلتهم جاءت بعد منزلة الله سبحانه وتعالى حيث طاعة الوالدين بعد طاعة الله تعالى،ففي التوراة جاءت بعد تعاليم التوحيد:"احترم والديك حتى يطيل الله في عمرك"(سفر الخروج ٢٠-١٢) .

ثم يقول في موضع أخر : " فليخاف كل منكم أمه و أباه " (الأحبار ١٩-٣) . لدرجة أن التوراة أصدرت هذا القانون الذي يقول :

" فليقتل كل من يسب أبيه و أمه . ومن لعن أبيه و أمه فدمه عليه " (أحبار ٢٠-٩) .

" ومن يلعن أمه و أبيه فليقتل " (الخروج ٢١-٧) .

لقد جاءت أيضا هذه الأحكام في إنجيل سيدنا عيسى عليه السلام وأكد على العمل بهذه الأحكام روحا ومعنى فقال :

" لأن الرب أمرنا بأن نحترم والدينا ومن يلعن أمه و أبيه فيجب عليه القتل ، ولكنكم تقولون أيها اليهود أنه إذا قال أحد لأبيه و أمه أنه يجب عليكم إعطائي فليعتبر ذلك قربانا لله،فإذا لم يحترم أمه و أباه فلا حرج في ذلك المهم إنكم بتقاليدكم هذه قد أبطلتم حكم الله"(متى ١٠-٤) ([1]) .

ثم جاءت بعثة النبي متممة للأخلاق ولم يؤكد فقط على احترام الوالدين ومخافتهما مثل التوراة والإنجيل بل إنه أسهب في كل جانب من جوانب هذه القضية وأعطى إجابة شافية لكل سؤال :-

أولا: لقد أعطى الإسلام منزلة ومكانة مشتركة لكل من الوالدين بل إنه جعل درجة الأم أعلى من الأب،لماذا لأن المرأة ضعيفة بفطرتها وهي التي تتحمل آلام الحمل والوضع والتربية وهذا اكبر دليل على طاعتها واحترامها ومكانتها في الإسلام .

" ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين " (لقمان آية ١٤) .

---

[1] بالإضافة إلى هذا فهناك إعادة وتكرار لهذا الأمر في صحف التوراة وأبواب الإنجيل الأخرى فمثلا(متى ٩-١٩)،(مرقس ٧-١٠)،(مرقس ١٠-١٩)،(لوط ١٨-٢٠) .

" ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا " (الأحقاف آية ١٥) .

كما أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه،وذلك عندما حضر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك،قال ثم من؟قال أمك،قال ثم من؟قال أمك ذكر هذا ثلاث مرات وفي المرة الرابعة قال ثم من؟قال أبوك ([1]).

ذات يوم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أربعة ذنوب كبيرة وعلى رأسها عدم طاعة الأم وقال الرسول صلى الله عليه وسلم حرمت عليكم معصية الأم ([2]) .

وجاء ذات مرة رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله لقد أذنبت ذنبا كبيرا فهل من توبة لي فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم هل أمك على قيد الحياة؟فقال الرجل:لا،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم هل لك خالة؟قال:نعم،قال الرسول صلى الله عليه وسلم عليك بيدها([3])،وكانت هذه التوبة التي أمره الرسول بعملها .

ذات مرة سأل صحابي رسول الله:يا رسول الله لقد عزمت على الجهاد وأريد أن أستشيرك فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم هل لك أم؟فقال الصحابي:نعم،فقال له عليك بخدمتها فالجنة تحت أقدامها ([4]) .

---

[1] البخاري ج٢ كتاب الأدب.حدثنا قتيبة بن سعيد:حدثنا جرير،عن عمارة بن القعقاع بن شبرمة،عن أبي زرعة،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله،من أحق الناس بحسن صحابتي؟قال:(أمك).قال:ثم من؟قال:(ثم أمك).قال:ثم من؟قال:(ثم أمك).قال:ثم من؟قال:(ثم أبوك).

[2] المرجع السابق.حدثنا عثمان:حدثنا جرير،عن منصور،عن الشعبي،عن وارد،مولى المغيرة بن شعبة،عن المغيرة بن شعبة قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم:(إن الله حرم عليكم:عقوق الأمهات ووأد البنات،ومنع وهات.وكره لكم:قيل وقال،وكثرة السؤال،وإضاعة المال).

[3] جامع الترمذي كتاب البر والصلة.حدثنا عبد الله،حدثني أبي،ثنا أبو معاوية،ثنا محمد بن سوقة،عن أبي بكر بن حفص،عن ابن عمر قال:أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال:يارسول الله أذنبت ذنبا كبيرا فهل لي توبة؟فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:ألك والدان؟قال:لا،قال:فلك خالة؟قال:نعم،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:فبرها إذا .

[4] ترغيب وترتيب منذري ج٢ صـ٢٤ نقلا عن ابن ماجه والنسائي والحاكم.حدثنا أبو يوسف محمد بن أحمد الرقي،حدثنا محمد بن سلمة الحراني،عن محمد بن إسحاق،عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق،عن

ويتضح من هذه التعاليم أن الجنس اللطيف هو صاحب المرتبة والمكانة الأولى في تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم،وهذه الدرجة الرفيعة أمر طبيعي،فالإنسان ممنون بوجوده بعد الله سبحانه وتعالى إلى أمه وأبيه،فدور الأب لا يتعدى عدة لحظات وعدة قطرات،ولكن الأم هي التي تهيء الحياة لمدة تسعة أشهر،تحمله في بطنها وتغذيه وتتحمل من أجله كل الصعاب والمشقات عن طيب خاطر،وحتى بعد ولادته فهي التي ترضعه من صدرها وتضحي بكل غال وثمين من أجل تربيته وراحته،ففي هذه الحالة هل يوجد أعظم من دور الأم،ولهذا منحتها الشريعة المحمدية أعلى المراتب و أرفع الدرجات فهي جديرة بهذا .

ثانيا:لا شك أن الشريك المهم في تكوين وتربية الطفل مع الأم هو الأب ولهذا يجب على الطفل عندما يبلغ قواه أن يقوم بخدمة والديه شكرا لهما على ما قاما به معه،وهكذا لم يكتف الإسلام بذكر ما جاء من احترام وحسن معاملة تجاه الوالدين في الصحف الأولى بل فرض على الأولاد إطاعة الوالدين لدرجة أنه لم يسمح للأبناء بأن يقولوا أف لوالديهما،واعتبر خدمتهما واحترامهما جهاد كبير بل أنه جعل رضاهما من رضا الله سبحانه وتعالى.ولهذا نزلت اثنا عشر آية من آيات القرآن تؤكد على خدمة وبر الوالدين وفي أكثر هذه الآيات جاء بر الوالدين بعد ذكر التوحيد وطاعة الله سبحانه وتعالى،فأول آية جاءت في سورة البقرة لتشير إلى ما جاء في التوراة حول بر الوالدين فقال :

" وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا"(البقرة آية ٨٣).وهذه الآية الكريمة تعيد الحكم الذي جاء في التوراة،واللفظ هنا مثلما جاء في التوراة لا يؤكد على احترام وإطاعة الوالدين فقط بل جاء يشمل مفهوما أوسع وهو الإحسان والذي يحوي بداخله كل أنواع الاحترام والطاعة والبر بالوالدين.وهكذا جاء في موضع أخر يؤكد القرآن على مساعدة الوالدين ماديا بقوله:

" قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين " (البقرة آية ٢١٥) .

وأكد في سورة النساء بعدها الأمر بالتوحيد وعدم الشرك وببر الوالدين بقوله:

" و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا " (النساء آية ٣٦) .

معاوية بن جاهمة السلمي،قال:أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت:يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة،قال:ويحك!أحية أمك؟،قلت:نعم،قال:ارجع فبرها

كان الكفار قد جعلوا الكثير من عاداتهم وتقاليدهم في ميزان الحلال والحرام،فجاء خطاب الله لهم يخبرهم بحقيقة ما هو حلال من الطعام والشراب وحقيقة ما هو حرام من الأشياء الأخرى فقال :

"قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا"(الأنعام آية ١٥١).

وفي أحكام المعراج جاء بر الوالدين بعد توحيد الله فحث الأبناء على مراعاتهما في حالة الكبر وأن لا يقولوا أف لهما والدعاء لهما بالرحمة والمغفرة فقال :

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما،واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا"(الإسراء آية ٢٤).

نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل أي شيء أسوأ في شريعته من الشرك بالله ومع هذا فقد أوصى الله الأبناء ببر الوالدين إلا في حالة أن جاهد الأباء الأبناء على الشرك بالله فقال :

" ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون " (العنكبوت آية ٨) .

فهنا نجد أن القرآن لم يؤكد إلا على عدم إطاعتهما في الشرك بالله وطالبهم بخدمة والديهم ورعايتهم ولهذا جاء في آية أخرى يؤكد :

" ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا" (لقمان آية ١٤) .

فانظر إلى هذا الاهتمام بالوالدين حيث قرن الله سبحانه وتعالى الإحسان بهما بالإحسان إلى الله سبحانه وتعالى،ولم يأمر بمعصيتهما إلا في حالة الشرك بالله،وأن يقوموا على خدمتهما والبر بهما في بقية الأمور الأخرى .

انظر إلي سيدنا إبراهيم عليه السلام رغم أن أباه لم يكن مسلما إلا انه دعا الله له بالمغفرة،فلربما يقبل الله دعائه ويموت أباه علي دين الفطرة .

" اللهم اغفر لي ولوالدي " (إبراهيم آية ٤١) .

وهذا ما فعله سيدنا نوح عندما قال:

" رب اغفر لي ولوالدي " (نوح آية ٢٨) .

ولهذا فان الدعاء بالمغفرة وحسن الخاتمة للوالدين أمر أتبعه الأنبياء،فيجب علينا في نهاية الأمر أن نطيع والدينا وان نعمل علي خدمتهما والدعاء لهما بأن يرضى الله عنهم ويكفر عن سيئاتهم .

" ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنه قال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلي والدي وان اعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وانـي من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون " (الأحقاف أية ١٦) .

توضح هذه الآيات إطاعة الوالدين وخاصة رضا الأم وطاعتها يكـون كالمـاء الذي يغسل كل الذنوب كما عبرت الأحاديث الشريفة عن هذه الأمور في مواضع عـده فأحيانا يقول صلى الله عليه وسلم"الجنة تحت أقدام الأمهات"([1]).وأحيانا يقول الرسـول صلى الله عليه وسلم "أن رضا الأب من رضا الله " .

ذات مرة سأل شخص ما رسول الله من أحق الناس بحسـن معاشـرتي فقـال له:أمك،ثم قال:ثم من؟قال:أمك،قال:ثم من؟قال:أمـك،وفـي المـرة الرابعـة قـال:ثـم من؟قال:أبوك،فقال:ثم من؟قال:الأقرب فالأقرب .

ذات مرة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يجلس مع الصحابة وكان بعـض المجاهدين بين الحضور فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ذل من؟ذل من؟ذل من؟فقـال الصحابة:من يا رسول الله؟فقال:من لم يخدم والديه في حاله الشيخوخة،ومن لـم يدخـل الجنة بخدمتهما.

وفي مجلس آخر سأل أحد الصحابة أي الأعمال أفضل عند الله؟قال:الصلاة فـي وقتها،قال:ثم أي؟قال:بر الوالدين،قال:ثم أي؟قال:الجهاد في سبيل الله.

وذات مرة وضح الرسول صلى الله عليه وسلم ثواب طاعة الوالدين بشكل مؤثر فقال: كان ثلاثة يسافرون في الطريق فجأة هطلت أمطار غزيرة فاختفي ثلاثتهما فـي غار بإحدى الجبال،فنزلت صخرة من أعلي فأغلقت هذا الغار فاحتار واضطرب الثلاثـة واعتبروا أنفسهم في عداد الموتى،وبدأوا يرفعون أيديهم بالدعاء إلى الله لكي يرفع عنـهم

[1] مشكاة المصابيح نقلا عن أحمد والنسائي والبيهقي كتاب الأدب في البر وأصله .

كربهم هذا فأراد أحدهم أن يذكر إحدى أفعاله الخيرة التي فعلها في حياته فقال:يا إلـــهي لقد كان والدي ضعفاء وكان أولادي صغارا وكنت أرعى الأغنام وكانت هـــذه عمـــاد ثروتي,وعندما كنت أعود بالغنم في المساء كنت أحلب اللبن وأقدمه لوالـــدي وبعدهـــا أعطي أطفالي,وذات مرة خرجت لرعي الغنم بعيدا فعدت من الرعي فوجدت والدي قــد ناما فأخذت اللبن ووقفت علي فراشهما ولم اوقظهما خوفا علي راحة همـــا ولـــم أبعـــد عنهما حتى ينهضا ويشربا اللبن,وكان أطفالي في ذلك الوقت يتعذبون من الجوع ولـــم أعر هذا اهتماما وظللت واقفا علي فراشهما طول الليل,فيارب لو كنت فعلت هذا إرضاء لك فأفرج عنا ما نحن فيه فتحركت الصخرة قليلا,وبعدها بدأ كل مـــن المرافقيـــن لـــه بعرض أحد أعماله الخيرة أمام الله حتى انزاحت الصخرة وفتح الغار.

نحن نعلم أهميه الجهاد في الإسلام ولكن خدمه الوالدين وبرهما أفضل درجـــه من الجهاد,كما أن الجهاد لا يجوز إلا برضا الوالدين وأخذ الأذن منهما,ولا يحق لإنسان أن يزهق روحه بدون أذنهما لأنها موقوفة علي خدمتهما لهذا جاء في الحديث السابق أن النبي عندما سئل عن أي الأعمال أفضل عند الله قال بر الوالدين وقدمه علي الجهاد فـي سبيل الله .

ذات مرة جاء صحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه المشاركة في الجهاد في سبيل الله.فسأله الرسول هل لك من أب وأم فقال الصحـــابي نعـــم.فقـــال له:اذهب واخدمهما.

وفي القرآن جاء بر وطاعة الوالدين بعد طاعة الله,وهي نفـــس المكانـــة التـــي احتلتها في الأحاديث النبوية حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة:"حرم ربكم عليكم معصية الأم"وذات مرة سأل الرسول صلى الله عليه وســـلم أحـــد الصحابـــة ألا أخبرك بأكبر الذنوب،فقال:نعم يا رسول الله قال:الشرك بالله وعـــدم طاعـــة الوالديـــن واعتدل الرسول صلى الله عليه وسلم من على مسنده وقال شهادة الزور ([1]).

---

[1] لقد تم ذكر هذه الأحداث والأقوال في عامة كتب الحديث وخاصة صحيح البخاري كتاب الأدب،وصحيـــح مـــسلم كتاب البر والصلة،وجامع الترمذي كتاب البر والصلة.حدثنا إسحق:حدثنا خالد الواسطي،عن الجريري،عن عبد الرحـــن بن أبي بكرة،عن أبيه رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر).قلنا:بلى يا رســـول الله،قال:(الإشراك بالله،وعقوق الوالدين–وكان متكئا فجلس فقال–ألا وقـــول الـــزور،وشـــهادة الـــزور،ألا وقـــول الزور،وشهادة الزور). فما زال يقولها،حتى قلت:لا يسكت.

وكانت هذه هي الأحكام التي جاءت في التوراة وكانت قاسية إلى حد ما،أما الوحي المحمدي فقد جاء ببعضها مخففا وبعضها قاسيا فمثلا في التوراة من يلعن والديه وجب قتله لكن الإسلام جعل هذا العقاب في الآخرة بدلا من الدنيا والذي يعني أنه من الممكن التكفير عنه بالتوبة والاستغفار وأعطى للإنسان فرصه في الرجوع عن هذا في حياته ولكن إذا لم يستفد من هذه الفرصة سيتعذب في الآخرة وعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا .

وهناك مادة في الشريعة الإسلامية تقول أنه إذا ارتكب أب جناية قتل أولاده ففي بعض الحالات لا يقتص من الأب بالقتل بل يستحق عذابا آخر غير القتل لأن محبة الأب لأولاده أمر طبيعي ويعتبر قتله لأولاده ليس قتلا بالعمد حيث لا توجد شهادة أقوى من حب الأب لأبنائه ([1]) .

وفي هذا الصدد نشير إلى نكتة أخرى فالتوراة اهتمت بالوالدين من جانب وأهملتهما من جانب أخر في مقابل الزوجة،ولهذا فإنه على الرجل أن يترك والديه وأن يلتقي بزوجته بحيث يصبحا جسدا واحدا (الولادة ٢-٢٤) .

وهكذا فسيدنا عيسى عليه السلام وطبقا لبيان الإنجيل رغم أنه لا يعرف الأب والأم والزوجة إلا أنه طبقا لإحدى روايات الإنجيل ناصر الزوجة على حساب الوالدين ولهذا جعل الطلاق غير جائز.(مرقس ١٠-٧-٨)،ولكن السؤال هنا إذا تأزمت الأمور بين الزوجة والوالدين وأصبح ترجيح أحدهما على الآخر أمرا ضروريا فماذا نفعل؟ولهذا نجد حكم الإسلام في هذا يوحي بإطاعة الوالدين وجعل علاقة الزوجة أمر حسمه القانون بالطلاق والعودة مرة أخرى أو بالانفصال،أما علاقة الوالدين فهي أمر لا رجعة فيه وكانت هناك زوجة لابن عمر رضي الله عنه كان راضيا عنها إلا أن والده سيدنا عمر رضي الله عنه كان لا يحبها،فكان هذا الاختلاف سببا في وجود مشاكل بين الأسرة،فأشار النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر بأن يطيع والديه.

حق الأولاد

---

[1] لقد اختلف فقهاء الإسلام حول هذا التشريع فاعتبر الأحناف والشافعين أن قتل الأب لأبنائه لا يدخل في باب القصاص،إلا أن المالكية أقروا بأن قتل الأب لأبنائه بالعمد يوجب القصاص بالقتل وإلا فلا،ومن الواضح أن القتل العمد يوجب القصاص وهذا هو الحكم القرآني.ولكن قتل الأب لأبنائه يعد دائما في باب قتل غير العمد بسبب الحب والشفقة الأبوية،ولهذا عده أكثر الفقهاء في باب قتل الخطأ وأوجبت عليه الدية،وإلا فالدلائل والقرائن تظهر قصد الأب من هذا القتل .

تعليم الأصول:

مثلما هناك حق للوالدين على الأبناء هناك حق للأولاد على الوالدين وهو العنوان الذي لا نجد له أثر في الكتب السماوية الأخرى،ويعني هذا أن هناك اختيارات غير محدودة للوالدين على الأولاد قبل الإسلام،ولكن لم يكن هناك أي تسليم بأي حق للأولاد على الوالدين،وكان هذا يعد ضد احترام الوالدين،إلا أن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لم يجعل هناك فرق في التشريع بين الكبير والصغير،وأقام حقوقا للصغار على الكبار،وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الفقرة الصغيرة جدا هذه الأصول التي تجمع كل الحقوق فيقول:

" ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا "(الترمذي)،وبلاغة هذه الفقرة أنها تحيط بكل هذه الحقوق والمبادئ أن رحمة الصغير وتوقير الكبير أمر أساسي ومشترك في الإسلام بين الصغار والكبار،والحقيقة أن هذا الميزان العادل لو ظل فلن يكون هناك في البشرية أي نوع من الاستياء والقلق بين الكبار والصغار أو السيد والمسود أو الرئيس والمرؤوس .

وعندما يحدث أي خروج عن هذه الأصول بين الكبار والصغار فمعنى هذا أن خللا ما وقع في هذا الميزان،وما لم يستطع أن يحققه قانون الحكماء والمشرعون في هذا الشأن استطاعت هذه الفقرة المؤخرة للنبي الأمي صلى الله عليه وسلم أن تحققه.ولو أن هناك خللا ما وقع في هذا الميزان الذي وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم فلن تستطيع أكبر القوانين والتشريعات أن تعدله .

وأول حق للأبناء على الوالدين هو أنه طالما أن الله قد منح الأولاد الحياة فيجب على الآباء أن لا يكونوا سببا في محو هذه الحياة،ليس هذا فحسب بل يجب عليهم أن يهيئوا لهم كل سبل التطور والنمو لتكميل هذه الحياة كل على حسب استطاعته ومقدرته،ولهذا السبب وجدنا أن الإسلام يحرم إسقاط الجنين عمدا عند الحمل،كما انه حرم قتل الأبناء بعد الميلاد واعتبره أمرا من أمور الجاهلية .

قتل الأولاد:

كان من أسوأ عادات العرب في الجاهلية هو قتل الأولاد ووأد البنات حية،وكان هذا العمل الوحشي يتم برضا ورغبة الوالدين،وكان وجود هذه العادة له أسباب أحدها عقائدي بمعنى أن الوالدين كانوا يذبحون أبنائهم قربانا لآلهتهم وكانوا يقولون أنه لو تم

هذا العمل لأنبحن ابني قربانا لهذا الإله ([1])وهذه العادة لم تكن لدى العرب وحدهم بل كانت في الأمم الأخرى فمثلا كان في دولة الروم ذات الحضارة العريقة الحرية الكاملة للأب في قتل أولاده،ولم يكن هناك محاسب أو معاقب لكل ما يجري في عادة قتل الأولاد([2]).وأسوأ هذه العادات كانت موجودة لدى الراجبوتيين في الهند سواء في قتل البنات خوفا من عار عدم الجواز،أو في شكل عادة الساتي وهي عادة حرق الأرامل من النساء بعد وفاة أزواجهن،أو في شكل عادة الجوهر وهي عادة إقبال النساء على قتل أنفسهن عندما يحاصرن من قبل الأعداء في المعارك.والأسوأ من هذا عادة ذبح الأبناء تقربا لرضاء الآلهة.وقد حرم القرآن كل هذه العادات و أبطل كل هذه الأمور([3]) بقوله:

" وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون " (الأنعام آية ١١٢) .

و أشار في موقع آخر بقوله :

" قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم " (الأنعام آية ١٤٠) .

والسبب الثاني في ارتكاب هذه الجريمة هو الفاقة أو الفقر وكانوا يعتقدون أن الأولاد يحتاجون إلى إطعامهم ولهذا كانوا يقدمون على قتلهم حتى يتجنبوا أداء هذه المهمة،فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بأن كل طفل يأتي ومعه رزقه.فالإنسان لا يطعم إنسانا آخر بل إن المطعم هو الله وهو الذي يطعم كل الكائنات .

" وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " (هود آية ٦) .

ولهذا نزل القرآن لتعليم العرب الجاهلون بقوله :

"ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا"(الإسراء آية ٣١) .

لقد جعل الإسلام قتل الأولاد موازيا للشرك بالله وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يبين للعرب أكبر و أعظم المحرمات عند الله بقوله:

---

[1] ذكر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري وغيره من كتب السيرة حادثة التضحية بعبد الله هذا بالإضافة إلى الموطأ لابن مالك باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله .

[2] تاريخ احلاق أوربا المجلد الأول صـــ ٢٣٠ .

[3] كشاف الزمخشري شرح الآية التالية .

" قل قالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم "(الأنعام آية ١٥١) .

وذات مرة سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أكبر الذنوب فقال الرسول صلى الله عليه وسلم الشرك بالله،ثم قال:عدم طاعة الوالدين،ثم قال:قتل الأولاد خشية الإملاق ([1]).والحقيقة أن هذه التعليمات ما هي إلا تفسير للآية السابقة،هذا بالإضافة إلى أن الرسول وضح أن الأرزاق كلها بيد الله سبحانه وتعالى وأن كل طفل يولد ومعه رزقه،وقد أنهى الإيمان والإسلام هذه الجريمة إلى الأبد وطهر العرب وأرض العرب عن هذه الجريمة الشنعاء .

أما الصورة الثالثة لقتل الأبناء فهي وأد البنات حية حتى لا يتحمل الآباء عار البنات ولذا كان عندما يولد في البيت طفلة كان الرجل يخفي وجهه من العار الذي لحق به،وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الملائكة هن بنات الله فقال لهم القرآن:"وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم"(الزخرف آية ١٧) .

ووصل الأمر بالعرب أنهم كانوا يقتلون بناتهم خشية العار فقد صور القرآن الكريم هذه الحالة بقوله:"وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب " (النحل آية ٥٨) .

كانت هذه العادة السيئة رائجة بين العرب ولكن بعض أحبار العرب يقولون أن هذه العادة كانت تروج أكثر عند بني تميم ([2]).وقد أقر رئيس قبيلة بنو تميم (قيس بن عاصم)بنفسه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه وأد بيده ما يقرب من عشرة بنات([3]).

---

[1] صحيح البخاري كتاب التوحيد وتفسير سورة البقرة وسورة الفرقان وكتاب الأدب وكتاب المحابين وصحيح مسلم كتاب الإيمان.حدثني محمد بن الوليد:حدثنا محمد بن جعفر:حدثنا شعبة قال:حدثني عبيد الله بن أبي بكر قال:سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال:ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر،أو سئل عن الكبائر،فقال:(الشرك بالله،وقتل النفس،وعقوق الوالدين.

[2] مجمع الأمثال للكرماني مطبعة إيران صـ٣٤٨،وكتاب مجمع الأمثال للميداني المجلد الأول صـ ٢٨٧ المطبعة الخيرية مصر تحت مثل " أضل من موؤدة " .

[3] ابن جرير و ابن كثير والدرر المنثور للسيوطي نقلا عن سنن البيهقي ومسند البزاز ومؤلف عبد الرازق تفسير سورة التكوير .

إن قسوة هذه العادة وصعبها أحد قصص أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فاضطرب الرسول كثيرا من بشاعة الصورة التي قصها الرجل عليه من العنف وهلاك رواية في الدارمي عن التابعين( ) تقول أن شخصا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله نحن قوم من الجاهلية كنا نعبد الأصنام ونقتل الأولاد وكانت لي بنت تأتي إلي عندما أناديها وذات يوم ناديتها فجاءت مسرعة وهي فرحة سعيدة فتبعتني وأتت خلفي وعندما وصلت إلى بئر لم يكن بعيدا عن منزلي قمت ووقفت بها عند البئر أمسكت يدها ورميت بها في البئر فظلت تناديني والدي والدي وكان هذا هو آخر ما قالته،فلما سمع الرسول هذه القصة المؤلمة لم يستطع أن يمسك دموعه فلام أحد الصحابة هذا الرجل بأنه كان سببا في حزن الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له الرسول:اتركه لقد جاء يسأل عن علاج لمصيبة أحلت به،وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا الرجل أن يحكي له الرجل هذه القصة مرة أخرى فحكى الرجل للرسول صلى الله عليه وسلم قصته مرة أخرى فبكى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ابتلت لحيته فقال الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل:اذهب فقد جب الإسلام ما قبله وابدأ حياة جديدة من الآن .

عندما أسلم(قيس بن عاصم)رئيس قبيلة بني تميم فقال:يا رسول الله لقد وأدت ثمانية بنات بيدي ،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يا قيس كفر عن ذنب بتحرير رقبة فقال:يا رسول الله عندي نوق،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم كفر عن كل بنت بناقة ([2]) .

والشيء العجيب أن النساء كن يشاركن في ارتكاب هذه الجريمة مع الرجال،فكانت الأمهات تلقي ببناتهن في التهلكة وهذا ما يؤكده أحد شعراء الجاهلية ابن الأعرابي :

ما لقي الموؤد من ظلم أمه   كما لقيت ذهل جميعا وعامر

---

[1] سنن الدرامي الصفحة الأولى رغم أنها رواية مرفوعة وغير قوية ولكنه نقلها ليبين بشاعة هذه الجريمة أمامنا .

[2] تفسير ابن جرير الطبري برواية قتادة التابعي وتفسير ابن كثير نقلا عن عبد الرازق والبزاز والدرر المنثور للسيوطي نقلا عن مسند البزاز والحاكم في الكنى والبيهقي في السنن تحت تفسير سورة التكوير.قال عبد الرزاق:أخبرنا إسرائيل عن سماك بن حرب عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى:"وإذا الموؤدة سئلت"قال:جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:"يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال:أعتق عن كل واحدة منهن رقبة قال: يا رسول الله إني صاحب إبل قال: فانحر عن كل واحدة منهن بدنة"

جاءت امرأة مرة إلى سيدنا(عبد الله بن عباس)وقالت:لقد نذرت أن أضحي بأبنائي،فقال لها(ابن عباس):لا تفعلي هذا بل كفري عن هذا.

كان منع هذه العادة قبل الإسلام ينحصر في أن بعض الناس الطيبين يأخذون البنات ويدفعون لأولياء أمورهم قدرا من المال ويقومون بتربيتهم،وقد اشتهر في هذا جد الشاعر المشهور(الفرزدق)وهو (صعصعة)،ولذلك عندما جاء الإسلام جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله لقد اشتريت ٣٦٠ طفلة وأنقذتهم من الموت فهل سيكون لي ثواب هذا،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون لك ثواب هذا،فأحسن الله إليه وهداه إلى الإسلام [1] .

وهكذا(زيد بن عمر بن نفيل)الذي كان من أتباع الدين الإبراهيمي قبل بعثة الرسول كان من الذين يحتضنون البنات ويعطف عليهن،وكان عندما يكبرن البنات يذهب إلى آبائهن ويقول:لو طلب أحدكم عودة بنته لأعدتها إليه وإلا فأتركها عندي[2].

كانت كل هذه محاولات فردية لكنها لم تستطع أن تصلح المجتمع،ولكن عندما جاءت البعثة المحمدية قضت على كل هذه المساوئ .

كان الناس عموما يعتقدون بأن وجود البنات سبب للمصيبة والبلاء فجاءت البعثة النبوية وجعلت منها رحمة في الآخرة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم"لو كان لأحدكم بنتا رباها و أحسن سلوكها كانت سببا في إنقاذه من النار وحائلا بينه وبين النار" [3] .

وأضاف الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا"من ربى بنتين وصارتا شابتين فرفع الرسول أصابعه الشريفة وقال إن مكانته ومكانتي ستكون هكذا يوم القيامة" [4] .

فعليك أن تتمعن منزلة البنت قبل الإسلام حيث كانت سببا في العار أصبحت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم سببا في العزة والسعادة .

---

[1] الموطأ لابن مالك باب النهي عن النذور في معصية الله .

[2] تفسير الدرر المنثور نقلا عن الطبراني تفسير إذا الشمس كورت .

[3] صحيح البخاري باب حديث (زيد بن عمر بن نفيل) المجلد الأول صـ ٥٤٠.قال النبي صلى الله عليه وسلم:(من ابتلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن،كن له سترا من النار).

[4] صحيح البخاري كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر والمشكاة نقلا عن صحيح مسلم كتاب الأدب في شفقة على الخلق.حدثني عمرو الناقد،حدثنا أبو أحمد الزبيري،حدثنا محمد بن عبد العزيز،عن عبيد الله بن أبي بكر بن أنس،عن أنس بن مالك،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من عال جاريتين حتى تبلغا،جاء يوم القيامة أنا وهو).وضم أصابعه.

وبالإضافة إلى هذه النصائح الأخلاقية أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم البيعة من الرجال والنساء للقضاء على هذه العادة بعد صلح الحديبية وصدر الأمر بأن النساء الذين أسلموا عليهن التوبة و اللاتي في طريقهن للبيعة أن يقال لهن :

" و لا يقتلن أولادهن " (الممتحنة آية ١٢) .

وكانت هذه البيعة قد أخذها الرسول من النساء خاصة،وفي أيام فتح مكة بايع الرسول كل من دخل في الإسلام من الرجال والنساء على هذا ([1]) .

وفي مجمع النساء في العيد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ العهد منهن بالإضافة إلى الأمور الأخرى بأن لا يقتلن أولادهن ([2]) .

وفي أوقات أخرى كانت كل من تأتي إلى حضرة الرسول كان يعاهدها على أن لا تفعل هذا.وهناك بعض الروايات تتضح منها أن الإصلاحات الأولى التي كانت أمام الرسول صلى الله عليه وسلم في العرب كان هذا الشيء من بينها.وهكذا فإنه في بيعة العقبة عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار على أن لا يقتلوا أولادهن ([3]) .

يقول سيدنا (عبادة بن الصامت) ذات مرة حضرنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم بايعوني بألا تشركوا بالله،وأن لا تسرقوا،وأن لا تزنوا،وأن لا تقتلوا أولادكم ومن يكمل هذا العهد فجزاؤه عند الله ومن ارتكب أي خطأ من هذا فسيعاقب وتجب عليه الكفارة،ومن لم ينكشف ذنبه في الدنيا فأمره إلى الله سواء

---

[1] صحيح البخاري المجلد الثاني صـ٧٢٦تفسير سورة الممتحنة وصحيح مسلم باب بيعة النساء والحاشية هذه في صحيح البخاري المجلد الأول صـ١٣٣باب موعظة الإمام للنساء يوم العيد والترمذي والنسائي وابن ماجه باب مصالحة النساء مسند الإمام احمد حديث أميمة بنت رقيقة وسلمى بنت قيس.حدثنا محمود:حدثنا عبد الرزاق:أخبرنا معمر،عن الزهري،عن عروة،عن عائشة رضي الله عنها قالت:كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية:"لا يشركن بالله شيئا".قالت:وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها.

[2] تفسير ابن كثير المجلد التاسع صـ ٤٤٣ على حاشية فتح البيان نقلاً عن ابن أبي حاتم والمستدرك المجلد الثاني صـ ٦٢٤ على شرط .

[3] صحيح البخاري كتاب الإيمان باب وفود الأنصار وصحيح مسلم كتاب الحمد ومسند احمد المجلد الخامس صـ ٣١٤ ومسند الحاكم المجلد الثاني صـ ٣١٨.حدثنا قتيبة:حدثنا الليث.عن يزيد بن أبي حبيب،عن أبي الخير،عن الصنابحي،عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال:إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم،وقال:بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئا،ولا نسرق،ولا نزني،ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق،ولا ننتهب،ولا نعصي،بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشينا من ذلك شيئا،كان قضاء ذلك إلى الله.

غفر له أو عذبه([1])،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لـ(عبادة) رضي الله عنه لقد حرم الله عليكم معصية الأمهات ووأد البنات .

بالإضافة إلى كل هذه التدابير فقد جاءت آية بسيطة من القرآن الكريم فمحت كل هذه الجرائم البشعة وأقامت العدل في للدنيا ووضعت المحرم في مكانه الصحيح وجاء السؤال من قبل الملك القهار يقول:"وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت" (التكوير آية ٩) .

فكم هو مؤثر وبليغ هذا الأسلوب،لقد كان له لكبر الأثر حيث كان الناس إما أن يدفنون بناتهم أحياء بأيديهم أو يذهبون إلى مكة لأداء العمرة مع الرسول .

كان لسيدنا حمزة رضي الله عنه طفلة يتيمة تدعى أمامه بقيت في مكة،وعندما رأت سيدنا علي رضي الله عنه هرولت نحوه قائلة:عماه عماه،فأخذها سيدنا(علي)وسلمها للسيدة (فاطمة الزهراء)قائلا لها:ابنة عمك،وكان لسيدنا(علي)أخ هو سيدنا (جعفر الطيار) ادعى أحقيته لهذه الطفلة وقال إن سيدنا (حمزة) هو أخي في العقيدة،أما سيدنا(علي) رضي الله عنه فادعى أن هذه البنت بمقام أخته أيضا وجاءت إلي أولا،كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشاهد هذا المنظر المثير للدهشة ثم نظر في دعوى كل منهما وقال:يجب أن تكون البنت في حضن خالتها فالخالة بمقام الأم ([2]) .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب وكتاب في الإستغراض وصحيح مسلم باب النهي عن كثرة المسائل

حدثني إسحق بن منصور:أخبرنا يعقوب بن إبراهيم:حدثنا ابن أخي ابن شهاب،عن عمه قال:أخبرني أبو إدريس عائذ الله:أن عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،ومن أصحابه ليلة العقبة أخبره:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال،وحوله عصابة من أصحابه:(تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً،ولا تسرقوا،ولا تزنوا،ولا تقتلوا أولادكم،ولا تأتوا ببهتان،تفترونه بين أيديكم وأرجلكم،ولا تعصوني في معروف،فمن وفى منكم فأجره على الله،ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة،ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله،إن شاء عاقبه،وإن شاء عفا عنه).قال فبايعته على ذلك.

[2] صحيح البخاري الجزء الثاني صـ ٦١٠باب عمرة القضاء.حدثني عبيد الله بن موسى،عن إسرائيل،عن أبي إسحق،عن البراء رضي الله عنه قال:لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة،فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة،حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام،فلما كتبوا الكتاب،كتبوا:هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله،قالوا:لا نقر لك بهذا،لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً،ولكن أنت محمد بن عبد الله.فقال:(أنا رسول الله،وأنا محمد بن عبد الله).ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:(امح رسول الله).قال علي:لا والله لا أمحوك أبداً،فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب،وليس يحسن يكتب،فكتب:هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله،لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب،وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه،وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها.فلما دخلها ومضى الأجل أتوا

سبحان الله أليست هذه هي البنت التي كانت سببا في عار الأسرة وكـــان الأب عندما يسمع بمولدها يسود وجهه خجلا من الناس من سوء ما بشر به،فصار حالها الآن أن الناس يتنافسون على تربيتها وحضانتها ويصبح الحكم في أمرها أمر صعـــب،هـــي نفسها التي كانت سببا في البلاء سابقا أصبحت قرة أعين الآن ؟ !! .

"والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين" (الفرقان آية ٧٤) .

وفي النهاية اضطر أحد الشعراء البدو أن يقول ساخرا:غدا الناس مذ قام النبي الحواريا.

الرضاعة والحضانة:

الغرض الأول بعد ميلاد الطفل هو إرضاعه وتربيته وطالما أنه لم يعـد قـابلا لإطعام نفسه يجب كفالته والإنفاق عليه حتى بلوغه،وهكذا رأينا الإسلام يضـــع عــبء هذين الأمرين على الوالدين وإن كان قد جعل عـــبء الإنفـــاق علـــى الوالـــد بصفـــة خاصة،وفي كتب الفقه شرح للرضاعة والحضانة خلاصته أن الطفل حال مولده يجـــب أن ترضعه أمه وإن لم تكن قادرة لأي سبب من الأسباب فعلى الوالد التكفـــل بتوفـــير أدوات الرضاعة للطفل وهذه المدة قد حددها الإسلام بعامين .

"والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود لـه رزقهن وكسوتهن بالمعروف"(البقرة آية ٢٣٣) .

وحتى في أيام الرضاعة إذا كان هناك امرأة أخرى ترضعه إلى جانب الأم،فقـد منحها الإسلام درجة الأم،وإن أولادها يكونون إخوة في الرضاعة لهذا المولود.

"وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة"(النساء آية٢٣).

كل هذا يرينا أن تربية ورعاية الأطفال في الإسلام تصل درجتها إلـــى درجـــة القرابة الدموية،ففي الآية الأولى نجد أن الإسلام وضع مسئولية الإطعام والكسوة ومـــن يرضع الطفل على عاتق الأب وهذا شيء طبيعي أن يتحمل الأب هذا العبء وإذا كـــان الأب غير موجود فعبء ذلك يقع على الجد وهكذا تتدرج المسئولية إلـــى أعلـــى فـــي الوراثة .

علياً،فقالوا:قل لصاحبك:اخرج عنا،فقد مضى الأجل.فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فتبعته ابنة حمزة،تنادي:يا عم يا عم،فتناولها علي فأخذ بيدها،وقال لفاطمة عليها السلام:دونك ابنة عمك احمليها،فاختصم فيها علي وزيد وجعفر،فقال علي:أنا أخذتها،وهي بنت عمي.وقال جعفر:ابنة عمي وخالتها تحتي.وقال زيد:ابنة أخي.فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها،وقال:(الخالة بمنزلة الأم).وقال لعلي:(أنت مني وأنا منك).وقال لجعفر:(أشبهت خلقي و خلقي)وقال لزيد:(أنت أخونا ومولانا).وقال علي:ألا تتزوج بنت حمزة؟قال:(إنها ابنة أخي من الرضاعة) .

التعليم و التربية:

بعد التربية والتنشئة الجسدية هناك درجة أخرى للتربية الروحية والقرآن اختصر هذه الفقرة في أربعة ألفاظ يمكن شرحها في كتب عديدة خاطب الله فيها المؤمنين بقوله:

" يا أيها الذين امنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا " (التحريم آية ٦) .

إن مسئولية إنقاذ الأسرة من النار تقع على رب الأسرة والمقصود بالنار هنا ليست نار جهنم بل المقصود هو أن يحفظهم الوالد من المساوئ والعيوب التي تجعل الإنسان في الآخرة يستحق عذاب النار ولهذا تعود تربية الأولاد الأخلاقية والدينية على رب الأسرة .

وقد مدح الله سبحانه وتعالى مثل هؤلاء الآباء الذين يطلبون من الله أن يرزقهم الزوجات والذرية الصالحة:"والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين" (الفرقان آية ٧٤) .

والمقصود هو أن يدعو الإنسان ربه أن يرزقه الذرية الصالحة وأن تظل هذه الذرية باقية في أسرته،وهذا ما أشار إليه القرآن في سورة أخرى"وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين" (الأحقاف آية ١٥) .

يتضح من هذا أيضا أن الدعاء بالصلاح والفلاح للأبناء فرض على الآباء،وقد أوضح لنا الرسول صلى الله عليه وسلم بطرق مختلفة ما المقصود بهذه الآية .

ذات مرة جاء الأعرابي(الأقرع بن حابس)إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يداعب ويقبل سيدنا(الحسن)رضي الله عنه فاعتبر أن هذا مناف للوقار والأدب فقال للرسول:هل أنت تداعب وتقبل الأطفال،فإن لي عشرة أطفال لم أداعب أو أقبل أحد منهم،فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم إليه وقال من لا يرحم لا يرحم.وفي رواية أخرى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم لو أن الله قد نزع الرحمة من قلبك فماذا أفعل لك ([1]).والهدف من الروايتين هو الشفقة والحب مع

---

[1] هاتين الروايتين في صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الوالدين أيضا انظر أبو داوود كتاب الأدب باب قبلة الرجل ولده.حدثنا عمر بن حفص:حدثنا أبي:حدثنا الأعمش قال:حدثني زيد بن وهب قال:سمعت جرير بن عبد الله،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من لا يرحم لا يرحم)وحدثنا محمد بن يوسف:حدثنا سفيان،عن هشام،عن عروة،عن عائشة رضي الله عنها قالت:جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:تقبلون الصبيان؟فما نقبلهم،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة).

الأطفال،ومن لم يرحم صغيرنا لا يرحمه الله.وذات مرة حضرت امـــرأة فقـيرة إلـــى السيدة(عائشة)رضي الله عنها وكان معها طفلتان ولم يكن في منزل الرسول صلــــى الله عليه وسلم شيء يؤكل إلا تمرة واحدة فأعطتها السيدة (عائشة) هذه الثمرة .

انظر إلى الأمومة فقد أخذت هذه المرأة الثمرة وقسمتها نصفين وأعطت لكـــل طفلة جزءا ولم تأخذ لنفسها شيئا فتعجبت السيدة(عائشة) رضي الله عنــــها مـــن هـــذا التصرف،وعندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قصت السيدة(عائشة)للرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يكون للإنســـان بنتـان ويحسن إليهما ستكونان حاجزا بينه وبين النار وأضاف أيضا أن من يربي بنتين حتـــى سن البلوغ فإن درجته يوم القيامة ستكون كدرجتي وأشار بإصبعيه([1])،فعليك أن تتدبـــر رفعة هذه الدرجة.وقد جاء في موضع آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إن تعليـم الأب لابنه الأدب أفضل من صاع من الصدقة،وفي موقع آخر أن النبي صلى الله عليـه وسلم قال:لا يوجد أفضل من أن يعلم الأب ابنه ([2]) .

وهكذا لا يرجح الابن على الابنة لكونه ولد فقد أرشدنا رســـول الله صلـــى الله عليه وسلم أن من كانت له بنت ورعاها ولم يقلل من شأنها ولم يفضل الابن عليها أدخله الله الجنة([3]). كما أنه ليس في الشريعة المحمدية أي أفضلية بين الصغير والكبـير فـــي الأولاد فالكل ينسب إلى الأب بقدر متساو،وأن من يميز ابناً على ابن ويمنحه شيئا آخـو عن بقية أخوته فقد عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالظلم.

ذات مرة وهب صحابي أحد أبناءه غلاما وأراد أن يكون الرســـول صلـــى الله عليه وسلم شاهدا على هذا فجاء إلى الرسول وابلغه ما فعل فقال له الرسول صلـــى الله

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات.حدثني عمرو الناقد،حدثنا أبو أحمد الزبيري،حدثنـــا محمد بن عبد العزيز،عن عبيد الله بن أبي بكر بن أنس،عن أنس بن مالك،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(مـــن عال جاريتين حتى تبلغا،جاء يوم القيامة أنا وهو).وضم أصابعه.

[2] الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في أدب الولد،وسنن أبي داوود كتاب الأدب فضل من عال يتيمـــا.حدثنـــا قتيبة.حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة.قال:قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم:لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع.

[3] أبو داوود كتاب البيوع باب في الرجل يفضل بعض ولده في.حدثنا عثمان وأبو بكر ابنا أبي شيبة،المعنى قالا:ثنـــا أبـــو معاوية،عن أبي مالك الأشجعي عن ابن جدير،عن ابن عباس قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من كانت له أنثـــى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها قال:يعني الذكور أدخله الله الجنة ولم يذكر عثمان يعني الذكور.

عليه وسلم هل أعطيت كل أولادك مثلما أعطيت هذا الولد،فقال الصحابي:لا،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أنا لا أكون شاهدا على هذه العطية الظالمة([1]).

وقد أصلح بهذا القانون العادات الرائجة بين اليهود والروم والهندوك وبقية الأمم الأخرى حيث كان الابن الأكبر يملك كل الأطيان أو يرجح على أخوته،وكان الابن الأكبر في درجته يعادل بقية الأخوة ولهذا كان للظلم على الصغار له سنده القانوني إلا أن الإسلام قد نهى عن هذا .

حقوق الزوجين

تأتي الزوجة والزوج في المرتبة الثالثة بعد الأولاد والأب والأم في قائمة العلاقات الحميمة،وبنفس الطريقة التي وضحنا فيها حقوق الوالدين،وحقوق الأولاد تكون حقوق الزوجين التي تقوم عليها سعادة الأسرة .

الأمر الأول هو أن العقائد الأخلاقية قبل الإسلام كانت تسلم بأن العلاقة بين الرجل والمرأة تكون إلى حد ما عائقاً في ترقي الأخلاق الروحية،فكان البوذيون والجينيون والويدانيون قائمين على نظرية الرهبنة،وكذلك المسيحية كانت تعتبر أن ترك العلاقة بالمرأة وسيلة للرقي الروحي([2]).فجاء الإسلام وأبطل هذه النظرية وقال إنه إذا كان كمال الروح والأخلاق يمكن أن يكون في للتجرد فإن العلاقة الزوجية يمكنها أن تصل إلى درجة أكبر من الكمال الأخلاقي.وللكمال الأخلاقي هنا هو حسن السلوك وحسن المعاملة.فالذي لا علاقة له بزوجة أو أب أو أم أو أخ أو أخت أو قرابة أخرى كيف يمكن أن تكون عليه واجبات في هذه الدنيا؟وكيف له أن يجد فرصة طبيعية لتكميل هذه الأخلاق،إن موت العصمة و العفة في الدنيا التي هي روح القالب الأخلاقي من المؤكد لن تكون في حياة التجرد وهذا ما يؤيده تاريخ الرهبنة الدينية المحفوظ في مكتبات العالم .

---

[1] المرجع السابق.حدثنا محمد بن رافع،ثنا يحيى بن آدم،ثنا زهير،عن أبي الزبير،عن جابر قال:قالت امرأة بشير:انحل ابني غلامك،وأشهد لي رسول الله صلى الله عليه وسلم،فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلاماً،وقالت لي:أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال:له إخوة؟فقال نعم،قال:فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟قال:لا،قال:فليس يصلح هذا،وإني لا أشهد إلا على حق.

[2] الإنجيل القرانن (٧-٨) .

وقد جعل الإسلام في النكاح الخير والبركة للرجل والمرأة بل إنه حق للحر والعبد ويقول الله سبحانه وتعالى:"وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله و الله واسع عليم " (النور آية ٣٢) .

والفقرة الأخيرة من هذه الآية تشير إلى أنه لو كان الإنسان فقير سيغنيه الله من فضله،وهذا يعني أن العلاقة الزوجية سبب للخير والبركة فمن الناحية الدينية قد يكون أحدهما مقدر له الفقر،ويكون الآخر مقدر له الغنى وهنا بالنكاح يفيد أحدها الأخر.

ومن الناحية الدنيوية يكون الزواج سببا في أن يعمل كل منهما،وعن طريقهما يخرج من يعمل أيضا،إن سر هذه الفلسفة لا يفهمها الأغنياء،بل يفهمها الفقراء فقط،وخاصة العمال والفلاحين .

الأمر الثاني هو أنه عندما يقع العبء على الكاهل من البشر فتجبره الحاجة لأن يتحرك فالفقير الذي لا يعمل تجبره الحاجة لإشباع زوجته في البحث عن العمل،فحبه لزوجته هو الذي سيدفعه لتقبل الأعمال الجسيمة لكي يشبع رغباته،والإسلام يقول بأن الله واسع عليم بيده ملكوت كل شيء ويعلم الغيب،وأن أوامره لا تخلو من حكمة يعلمها هو،ولذلك قال إذا لم يستطع الإنسان الفقير أن يتزوج من المحصنات فعليه أن يتزوج من الإماء فجاءت الآية تقول:"ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض"(النساء آية ٢٥).

والجزء الأخير من الآية يدعونا للتمعن حيث يقول إذا لم يستطع المسلم تحمل نفقة المرأة الشريفة فعليه أن يتزوج بأي أمة مؤمنة،وهنا يتضح لنا أمران الأول هل يمكن للأمة المسلمة أن تتساوى مع المسلمة القديمة العهد بالإسلام؟نعم فقال لا فرق بين مسلمة حديثة العهد وقديمة العهد بالإسلام فالله وحده يعلم أيهما أكثر إيمانا وقبولا عند الله.الأمر الثاني هو كيف تتساوى الشريفة بالأمة حديثة العهد بالإسلام؟والإسلام لا يقر هذا التفريق فالمسلمون جميعا سواسية و كلنا من جنس واحد .

ولهذا اهتم الإسلام حتى لا يقع للفقراء من المسلمين في الوسوسة ويرجعون عن الزواج فقد اهتم الإسلام باختيار رفيقة الحياة لتكميل هذه السعادة الشخصية وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

" أتزوج النساء فمن رغب عن أمتي فليس مني " ([1]) .

والقصد من الزواج ليس هو أداء هذا الواجب فحسب بل الحقيقة أنه سكنى وهي فطرة ربانية وقد جعل الله المودة والرحمة بين الزوجين إحدى معجزاته حيث قال :
"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الروم آية ٢١) .

إن لفظ "سكن" الذي عبر عنه القرآن في العلاقة الزوجية يحوي كل فلسفة هذه العلاقة ولذلك يجب أن تكون العلاقة بين الزوجين علاقة حب ومودة حيث أن هناك أهدافاً أخرى تكمن وراء هذه العلاقة ولهذا عدها الله واحدة من آياته الكبرى ولو خلت هذه العلاقة من المودة و الرحمة و السكن سيكون هناك خلل في أحدهما.

وقد اهتم الإسلام بالتوافق بين الزوجين وذم من يقوم بإفساد هذه العلاقة فيقول القرآن:"فيتعلمون منهما ما يفرقون به المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق"(البقرة آية ١٠٢).

إذن كيف يبقى هذا التوافق؟.ينحصر هذا في أمر واحد فقط وهو أن تطيع الزوجة زوجها وأن يعمل الزوج على إسعاد زوجته وأن يراعي كل منهما حقوق الآخر،ولكن إعطاء الرجل درجة أكثر من المرأة لأنه هو الذي يرعاها و يحفظها :
" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله " (النساء آية ٣٤) .

فالجزء الأخير من الآية يطلب من الزوجات أن تحافظ على عزتها وشرفها في غياب أزواجهن وهذا هو ما أودعه الله في المرأة فلو فعلت لمرأة غير ذلك فسيكون هذا خلافا للفطرة التي فطرها الله عليها.

---

[1] صحيح بخاري ومسلم كتاب النكاح.حدثنا سعيد بن أبي مريم:أخبرنا محمد بن جعفر:أخبرنا حميد بن أبي حميد الطويل:أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول:جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلي الله عليه وسلم،يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم،فلما أخبروا كأنهم تقالوها،فقالوا:وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،قال أحدهم:أما أنا فإني أصلي الليل أبداً،وقال آخر:أنا أصوم الدهر ولا أفطر،وقال آخر:أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً،فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له،لكني أصوم وأفطر،وأصلي وأرقد،وأتزوج النساء،فمن رغب عن سنتي فليس مني)

فالله تعالى جعل لقاء الزوج بالزوجة وسيلة لتكميل حياة اجتماعية واقتصادية ولهذا أصبح أحدهما لازماً للآخر فهما ستر وغطاء لبعضهما وانظر إلى بلاغة القرآن في هذا الشأن:

" هن لباس لكم و أنتم لباس لهن " (البقرة آية ١٨٧) .

وهناك معان كثيرة في كلمة "لباس" فهو ستر وزينة أي أن أحدهما مكمل للأخر وهذه أهداف الزواج وإتمام هذه الأهداف هو ما يعرف بحقوق الزوجين .

وفي آية أخرى شرح الله سبحانه وتعالى الواجبات المشتركة والهدف من خلق الرجل والمرأة فقال:

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا " (النساء آية ١) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية في خطب الزواج عامة،فمن هذه الآيات يستطيع الإنسان أن يعرف الهدف من إنسانيته فهي كالمرآة التي يستطيع الإنسان أن يرى حقيقته فيها وإذا لم يستطع الإنسان أن ينصف نفسه فكيف يستطيع أن ينصف الآخرين فالإحسان لا بد وأن يبدأ من البيت .

كان هناك صحابي من الزهاد والعابدين إلا أنه لم يهتم بزوجته فسمع الرسول صلى الله عليه وسلم عن حاله فدعاه وقال له:"ولزوجك عليك حقا " (البخاري كتاب النكاح) .

لم تكن هناك منزلة للمرأة في الجاهلية قبل الإسلام فكانت تضرب على أتفه الأسباب ويقول سيدنا(عمر) رضي الله عنه لقد نهرت زوجتي ذات مرة فأجابتني بمثل ما قلت لها،ويقول:إننا قبل الإسلام لم نكن نعمل حساب للمرأة في أي شيء ولكن جاء الإسلام فأقر لها حقوقاً وواجبات (*) .

لقد رفع الإسلام من قيمة المرأة وجعلها مساوية للرجل في كافة الحقوق والواجبات إلا أن الإسلام أعطى درجة أكبر للرجل أخلاقيا وقال القرآن :

" و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف و للرجال عليهن درجة " (البقرة آية ٢٢٨) .

---

* لا توجد حاشية في النص الأصلي .

ولكن هذه الدرجة لم تكن بلا سبب بل إنها أعطيت للرجل لكي يراعي المرأة ويحافظ عليها بمعنى أن الإسلام جعل الرجل رئيسا في بيته،والآية السابقة تفصل في المنازعات والمناوشات التي تكون بين الرجل والمرأة وإنما أعطى الرجل الدرجة الأعلى لكي يقود بيته ويحافظ عليه.وانتخاب الرجل لهذا المنصب له سببه فقد وضح القرآن هذا بقوله :

" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"(النساء آية ٣٤).

والسبب في أفضلية الرجل هو أن الله سبحانه وتعالى وهب الرجل القوة الجسدية والعقل والفراسة في مقابل المرأة،والأبحاث الطبية وتاريخ الإنسانية والمشاهدات اليومية كلها تؤيد هذا،ومن هنا وجب أن يكون له حق الصدارة بشكل طبيعي .

السبب الثاني هو أن الإسلام جعل حق الإنفاق وتربية الأولاد وغيرها من أمور الأسرة المالية على عاتق الرجل،وهي مسئولية يحملها الرجل منذ تحمله هذا العبء فمن الإنصاف أن يكون بعد هذا حاكما ورئيسا لبيته حتى يظل نظام البيت والعلاقة بينهما في جو يسوده التفاهم .

وهناك تعنت من هذا لدى أكثر السيدات وربما يعود هذا إلى طبيعتهن الضعيفة أو سوء تربية،فيضطر بعض الرجال إلى استخدام القسوة والعنف ضدهم،رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم نصحنا بقوله:"أوصيكم بالنساء خيرا فقد خلقن من ضلع أعوج،ولو استطعت التعامل مع هذا الاعوجاج فخير وبركة ولو فكرت في إصلاحه فستكون النتيجة هي كسره"([1]).

[1] صحيح بخاري ومسلم كتاب النكاح.حدثنا إسحق بن نصر:حدثنا حسين الجعفي،عن زائدة،عن ميسرة،عن أبي حازم،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره،واستوصوا بالنساء خيراً،فإنهن خلقن من ضلع،وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه،فإن ذهبت تقيمه كسرته،وإن تركته لم يزل أعوج،فاستوصوا بالنساء خيرا) .

فقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم درسا مهما للرجال في التعامل مع النساء بحيث إذا وجد الرجل في زوجته سوءا فعليه أن لا ينفر منها،ومن المؤكد أن هناك جانبا إيجابيا فيها([1])وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم حيث يقول :

"وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا"(النساء آية ١٩) .

لقد وزع الإسلام مشاغل الحياة الإنسانية إلى جزئين هما الأمور المنزلية ووضع مسئوليتها على المرأة،والأمور الخارجية يتحمل عبئها الرجل،وهكذا بتعاون الطرفين وتوحدهما أقام الإسلام عماد الحياة الإنسانية،فمثلا كسب العيش ليس من عمل المرأة بل هو فرض على الرجل ولهذا جعل الإسلام الرجل كفيلا بالإنفاق على زوجته وإذا قصر الرجل في هذا فعلى الحكومة أن تمكن المرأة من حصول هذا الحق،ولو أنكر الرجل هذا فيحق للمرأة الانفصال عن زوجها ([2]).

ليس هذا فحسب بل يحق للمرأة أحيانا أن تأخذ من الرجل مقابل رضاعة الطفل والذي يوجد تفصيله في القرآن الكريم .

ولو أن رجلا استعمل البخل مع أولاده وزوجته ولم يوف بحاجاتهم الضرورية فيحق للمرأة هنا أن تأخذ مبلغا من ثروة زوجها ولكن بقدر حاجاتها دون علمه.فقد جاءت(هند)زوجة(أبي سفيان)أيام فتح مكة للرسول صلى الله عليه وسلم وقالت:يا رسول الله إن أبا سفيان رجل بخيل يبخل علي وعلى أولادي فهل آخذ شيئا من ماله دون علمه،فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن بقدر حاجتك وحاجة أولادك ([3]) .

وفي حديث مشهور ذكر فيه المسئوليات المشتركة للرجل والمرأة بشكل مختصر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الرجل

---

[1] صحيح بخاري ومسلم كتاب النكاح،باب الوصية بالنساء.حدثني إبراهيم بن موسى الرازي،حدثنا عيسى بن يونس،حدثنا عبد الحميد يعني:ابن جعفر،عن عمران بن[أبي]أنس،عن عمرو بن الحكم،عن أبي هريرة،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا يفرك مؤمن مؤمنة،إن كره منها خلقا رضي منها آخر)أو قال:(غيره)

[2] في شرح هذا يمكنك الرجوع إلى كتب الفقه المختلفة تحت باب النفقة،وانظر أيضا نيل الأوطار للشوكاني المجلد السادس صـ ٢٦٣ مصر .

[3] صحيح البخاري باب إذا لم ينفق الرجل صـ٨٠٨.حدثنا محمد بن كثير:أخبرنا سفيان،عن هشام،عن أبيه،عن عائشة رضي الله عنها:أن هند قالت للنبي صلى الله عليه وسلم:إن أبا سفيان رجل شحيح،فأحتاج أن آخذ من ماله؟قال:(خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف).

راع لزوجته وأولاده وسيسأل عنهم،والمرأة راعية لزوجها وبيتها ومسئول عن هذا"(البخاري الجزء الأول صـ٧٧٩ باب قوا أنفسكم و أهليكم) .لقد جمعت هذه الفقرات الإعجازية كل شيء في داخلها .

من هي المرأة التي يحق للرجل ضربها :

هناك آية في القرآن الكريم توضح أن للرجل في بعض الحالات الحق في ضرب المرأة والآية هي:"واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا " (النساء آية ٣٤) .

والنشوز في اللغة هو الإعراض أو الخروج،أما المعنى الاصطلاحي فقد وضحه المفسر(ابن جرير)في الألفاظ التالية :

"ومعنى ذلك إذا رأيتم منهن ما تخافون أن ينشزن عليكم من نظر إلى ما لا ينبغي أن ينظرن إليه ويدخلن ويخرجن وارتبتم بأمرهن([1]).(تفسير الطبري ٣٨٠٥ مصر) .

عن(محمد بن كعب القرظي):إذا رأى الرجل تقصيرها في حقه في مدخلها ومخرجها قال يقول لها بلسانه قد رأيت منك كذا وكذا فانتهي.(تفسير الطبري ٣٨٠٥ مصر) .

أما في كتب الفقه:"الناشز هي الخارجة عن منزل زوجها المانعة نفسها منه"(عالمكيري،نفقات) .

والمرأة الناشزة هي التي بها بعض المساوئ الأخلاقية،فقد وسع بعض المفسرين معنى هذا النشوز وقالوا أن المرأة الناشزة هي التي تتعالى على زوجها ولا تمتثل لأوامره وتبغضه وتعرض عنه .

واعتقد أن كلا التفسيرين لهذا المعنى صحيح،وتتضح الحقيقة كاملة لمعنى النشوز من خلال قراءتنا للآية الكريمة:"الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ

---

[1] صحيح البخاري باب إذا لم ينفق الرجل صـ٨٠٨.حدثنا أبو اليمان:أخبرنا شعيب،عن الزهري قال:أخبرني سالم بن عبد الله ،عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(كلكم راع ومسؤول عن رعيته،فالإمام راع ومسؤول عن رعيته،الرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته،والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها،والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته).قال:فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم،وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال:(والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته،فكلكم راع،وكلكم مسؤول عن رعيته)

الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضـــاجع واضربوهــن فـــإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا"([1])(النساء آية ٣٤).

لقد فضل الرجل على المرأة في هذه الآية والتي من نتائجها أن المرأة الصالحـة هي التي تطيع زوجها وتحفظه في ماله وفي عرضه في غيابه وقال إن المـــرأة التـــي تخافون نشوزها فعليكم في البداية أن تفهموها وإن لم تؤمن فعليكم بهجرها وإن لم تؤمن فاضربوها ولو اتعظت فلا تبحثوا عن حيلة لطلاقها أو أذيتها.

لقد وضحنا سابقا أن للرجال واجباً هو أن يراعوا النساء ويقال أيضا إن المـــرأة الصالحة هي التي تطيع زوجها وتحفظ في غيابه ماله وعرضه ومن لم تستطع أن تؤدي إحدى هذه الواجبات فهي ناشزة وأمرنا بأن ننبه ونعظ هذه المرأة .

واحترام الزوج والمحافظة على عرضه توجد الإشارة إليهما في الأحاديث فقـال الرسول صلى الله عليه وسلم"إن أفضل النساء هي التي إذا نظر إليها زوجها سـوته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها زوجها حفظته في نفسها وماله".

وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عن حقوق المـــرأة فيـــه معنى كامل وتوضيح شامل لكلمة النشوز،(ففي صحيح مسلم)"واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلـــن فـــاضربوهن ضربا غير مبرح " (مسلم) .

وهي نفس الألفاظ في ابن ماجه:"استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن واضربوهن ضربا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا " (كتاب النكاح) .

المقصود بوطء الفراش هو مجيء هؤلاء الناس الذين لا يرغب الزوج قدومـــهم إلى منزله،والإشارة التي عن عدم الحياء واضحة إلا أن البعض توسع في معناها وقـال إن عصيان المرأة ووقاحتها وسوء سلوكها كل هذا يندرج تحت كلمة"فاحشـــة"(تفســير سورة النساء الجزء الثاني) .

والخلاصة أن هناك حالات خاصة يسمح فيها بتنبيــه المـــرأة كمـــا أن هنـــاك تصريحاً بضرب المرأة ضربا غير مبرح كالضرب بالمسواك وغيره(تفسير الطـــبري

---

[1] تفسير هذه الآية توضحه الأحاديث والتعاليم القرآنية .

المجلد الخامس صـ ٤١ مصر)بحيث لا يلحقها أذى،وإلا فإن ضرب المرأة عامة مناف للثقافة والحضارة الإسلامية .

كانت هذه هي عادة الجاهليين التي قام الإسلام بإصلاحها ويقول(إياس بن عبد الله)أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قال:يا عباد الله لا تضربوا زوجاتكم،فجاء إليه سيدنا(عمر)رضي الله عنه وقال:يا رسول الله لقد تمردت الزوجات على أزواجهن وقد منحتنا رخصة الضرب،وكانت النتيجة أن تجمعت الكثير من السيدات أمام بيت النبوة يشتكين أزواجهن،فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وقال:العديد من النساء يطوفون حول آل محمد وهن يحملن شكاوى من أزواجهن وهذا يعني أن الكثيرين منكم يسيئون لأزواجهم.(أبو داوود وابن ماجه).

جاءت صحابية تستشير الرسول صلى الله عليه وسلم في نكاحها وذكرت أن أحد الأشخاص تقدم لخطبتها فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم"ألا ينزل عصاه من على كتفه "([1])بمعنى هل يضربك ويغضب على أتفه الأسباب،ويظهر من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يحب مثل هذه الأفعال .

جاء صحابي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكي بذاءة زوجته فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم طلقها،فقال له الصحابي:إن لي منها أولاداً وهي معي منذ فترة،فقال له الرسول:هل وعيتها ولو وعت هذا فستقبل وينصلح شأنها ولكن لا يجب أن تضرب زوجتك كالجارية([2])،وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في موضع آخر"لا يضرب أحد منكم زوجته كالجارية وهذا أمر غير مستحسن يضربها بالسوط نهارا ويعاشرها ليلا" ([3]) .

ويجب أن نعلم أن العقاب هو لإصلاح المرأة في حالة الشك والشبهة وإلا فإن الرجم والجلد من اختصاص القاضي في حالة ثبوت الخطأ .

---

[1] صحيح مسلم المطلقة ثلاثا الجزء ١٢ .

[2] المشكاة كتاب النكاح باب عشرة النساء نقلا عن أبو داوود .

[3] المشكاة كتاب النكاح باب عشرة النساء نقلا عن صحيح البخاري ومسلم.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،حدثنا عبد الله بن نمير،حدثنا هشام بن عروة،عن أبيه،عن عبد الله بن زمعة،قال:خطب النبي صلى الله عليه وسلم،ثم ذكر النساء فوعظهم فيهن،ثم قال:إلام يجلد أحدكم امرأته جلد الأمة؟ولعله أن يضاجعها من آخر يومه.

حقوق القرابة

يأتي حق القرابة درجة تلو الأخرى بعد للوالدين والأولاد والزوج والزوجة وهو ما يطلق عليه في العربية لسم صلة الرحم،ولقد اهتمت التعاليم المحمدية بحقوق القرابة وصلة الرحم أكثر من أي مذهب أخر وهذا هو السبب في الاهتمام به أكثر من مرة،وهذا ما صرح به القرآن على الأقل في أكثر من اثنتي عشرة آية،ولم تعتبر هذه الآيات أن هذا إحسان أو فضل من قبل الإنسان بل اعتبرته فرضاً وواجباً يجب على الإنسان القيام به :

" فآت ذا القربى حقه " (الروم آية ٣٨) ، " و آت ذا القربى حقه " (الإسراء آية ٢٦) .

وفي موضع أخر يقول القرآن الكريم بالرغم من الرغبة الشديدة لحب المال إلا أن إنفاقه يكون أفضل في مساعدة ذوي القربى .

" وآت المال على حبه ذوي القربى " (البقرة آية ١٧٧) .

كما جاء أيضا أن من يستحق المساعدة بعد الوالدين هم القربى :

" قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين " (البقرة آية ٢١٥) .

كما أن البر بالأقرباء يأتي طبقا لدرجة القرابة الأقرب فالأقرب بعد الوالدين وهذه هي الأوامر التي تعهد الإنسان بها أمام الله " وبالوالدين إحسانا و ذي القربى " (البقرة ٨٣) .

وجاء في سورة النحل أن مساعدة أهل القرابة تأتي بعد العدل والإحسان في أوامر الله لعبيده :

" إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى " (النحل آية ٩٠) .

إن المستحق الأول من ثروة أي مسلم بعد الوالدين هم القربى :

" قل ما أنفقتم من خير فللوالدين و الأقربين و اليتامى و المساكين " (البقرة آية ٢١٥) .

ولو حدث أي تقصير من قبل أي قريب فلا يجب على أهل الثروة أن يمنعوا مساعدتهم له :

" ولا يأتل أولوا الفضل منكم و السعة أن يؤتوا أولي القربى و المساكين " (النور آية ٢٢) .

وقد جاء ذكر الإحسان بالقربى بعد العبادة والتوحيد لله وإطاعة الوالدين فقال الله تعالى :

" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى " (النساء آية ٣٦) .

لقد أولى الإسلام اهتماما كبيرا بذوي القربى فجاء الرسول بدعوته مبلغا أمته بأن يؤدي كل منهم حق القرابة وأن يتعاملوا معهم بكل ود وحب .
" قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى " (الشورى آية ٢٣) .

حق القرابة في اللغة العربية يعني صلة الرحم وللفظ المضاد لهذا المعنى في العربية هو قطع الرحم،وإن أي شيء مشترك بين الإنسان الأصل فيه المساعدة والعون،ويمكن أن يكون هذا الاشتراك في العمر أو في المدرسة،في التذوق،في الوطن،أو في القوم أو في أشكال أخرى مختلفة،ويجب على الطرفين أداء حقوق هذه الشراكة ورعايتها،إلا أن اشتراك الإنسان مع أخيه الإنسان عن طريق رحم الأم تعني أنها علاقة إلهية وقطعها أمر يخرج عن نطاق قوة الإنسان،لهذا فإن حقوق هذه العلاقة واجبة على الإنسان،ومن يحاول قطع هذه العلاقة فقد وصفه الوحي المحمدي بالفاسق والمضل:"وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل " . (البقرة آية ٢٧) .

وفي أحد الأحاديث الشريفة شرح الرسول صلى الله عليه وسلم هذه العلاقة الفطرية بأن كلمة رحم مشتقة من الرحمان لهذا خاطب الله هؤلاء بأن"من وصلها فقد وصلني ومن قطعها فقد قطعته " ([1]).

وبهذه الألفاظ القوية وضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن صلة الرحم مرتبطة بالعرش الإلهي ولهذا يقول"من وصلني فقد وصلته ومن قطعني فقد قطعته " ([2]) .

وفي موضع آخر وضح الرسول بتعبير آخر جميل هذه العلاقة بقوله:"عندما خلق الله الخلق فإن الرحم الإنساني أمسك بتلابيب الرحمن فقال له الله انتظر فإن هذا سيكون مسكن من يحاول وصلك،ألا يسعدك هذا فإن من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته "([3])،وكلمة رحم تشترك مع الرحمن في حروفها،كل هذا يظهر مدى الاشتراك

---

[1] صحيح البخاري كتاب البر والصلة.حدثنا خالد بن مخلد:حدثنا سليمان:حدثنا عبد الله بن دينار،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله : من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)

[2] صحيح البخاري ومسلم البر والصلة.حدثنا ابن أبي عمر.حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:الراحمون يرحمهم الرحمن،ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء،الرحم شجنة من الرحمن،فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله .

[3] صحيح البخاري و مسلم البر و الصلة .

المعنوي بلفظ الرحمن والتي تعني في الإسلام أهل القرابة.و هناك إشارة في القرآن الكريم تجاه الرحم و الرحمن في سورة النساء :

" واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام " (النساء آية ١) .

ويمكن أن يفهم معنى هذه الآية من الحديث التالي" ذات مرة جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:أخبرني بأحب الأعمال التي تدخلني الجنة،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم اعبد الله ولا تشرك به شيئا،وأقم الصلاة والزكاة،وصل رحمك" ([1]) .

ويقول الصحابي(جبير بن مطعم)إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال من لم يصل رحمه فلن يدخل الجنة طالما أن الله لم يغفر له هذا الذنب ([2]) .

وقد ذكر أبو هريرة حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه"من أراد أن يوسع الله له في رزقه ويطيل عمره فليصل رحمه"([3]) .

ومعنى هذا الحديث أن أثر هذا العمل الجليل أن الله يبسط للإنسان في رزقه وفي عمره لأن صلة الرحم تكون في شكلين أحدهما مساعدة الأقارب المادية والثانية أن العمر الذي وهبه الله للإنسان جزء منه لابد أن ينفق في خدمة هؤلاء .

والنتيجة الأولى هي أن يبسط الله للإنسان في رزقه والنتيجة الثانية هي أن يطيل الله عمر الإنسان،ويمكن أن يفهم هذا الحديث بتوجيه مادي آخر وهو أن المشاكل الأسرية تكون دائما سببا في سوء العلاقات،كما أن صلة الرحم تكون سببا في المودة والسعادة في الحياة الأسرية كل هذا موجب للبركة في المال والعمر،وهناك حديث في الترمذي:"إن صلة الرحم تبعث على البركة في المال والعمر بين الأقرباء".

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب فضل صلة الرحم.حدثني عبد الرحمن حدثنا بهز:حدثنا شعبة:حدثنا ابن عثمان بن عبد الله بن موهب وأبوه عثمان بن عبد الله:أنهما سمعا موسى بن طلحة،عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه:أن رجلاً قال:يا رسول الله،أخبرني بعمل يدخلني الجنة،فقال القوم:ما له ما له؟فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أرب ما له).فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(تعبد الله لا تشرك به شيئاً،وتقيم الصلاة،وتؤتي الزكاة،وتصل الرحم،ذرها).قال كأنه كان على راحلته.

[2] المرجع السابق باب إثم القاطع.حدثنا يحيى بن بكير:حدثنا الليث،عن عقيل،عن ابن شهاب:أن محمد ابن جبير بن مطعم قال:إن جبير بن مطعم أخبره:أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(لا يدخل الجنة قاطع)

[3] صحيح البخاري كتاب الأدب باب من يبسط له في الرزق لصلة رحمه.حدثنا أحمد بن صالح ويعقوب بن كعب وهذا حديثه قالا:ثنا ابن وهب قال:أخبرني يونس،عن الزهري عن أنس قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من سره أن يبسط في رزقه،وينسأ في أثره،فليصل رحمه .

وهناك تصريح في الأحاديث يقول إن كمال صلة الرحم ليست هي صلــة مــن يصلك فقط،بل صلة من يقاطعك أيضا([1])بمعنى أن من لم يؤد حق القرابة فلا يجب علينا مقاطعته.

حقوق الجار

الجار هو الشخص الذي نسكن بالقرب منه،إن أساس الحضارة الإنسانية يقــوم على التعاون المشترك،وفي هذه الدنيا فإن كل إنسان يحتاج إلى الآخر،فلــو أن هنــاك شخصاً جائعاً فمن واجب الآخر عليه أن يطعمه،ولو أن هناك مريضا فيجب على الآخر أن يقوم على رعايته،ولو أن إنسانا حدث له سوء فيجب على الآخر مواساته ومسـاعدته ومن هنا نجد أن مسئوليات الإنسان في هذا النظام الأخلاقي مسئوليات مشتركة،ورغــم أن الإنسان بظاهره الجسماني والمادي يبدو مستقلا،إلا أن الواجب الروحي والأخلاقــي يفرض على الإنسان أن يرتبط بالآخر ولهذا فإن كل المذاهب ركزت علــى مســئولية الحب المتبادل بين الجيران لكي يساعد أحدهما الآخر وقت الشدة .

وهناك نكتة أخرى هي أن الإنسان يعتقد بأن الألــم والمصــائب تكــون مــن الأشخاص الذين يكونوا بالقرب منه،ولهذا فرض الدين على علاقاتهما المشتركة أن تبنى على حسن الجوار حتى يسد باب هذه المساوئ وبدلا من أن يكون الجار جحيما لجــاره يكون سببا في سعادته و مساعدته .

هذه هي المبادئ التي ركز عليها الإسلام في أحقية الجار بالمعروف بل وجعلها موجبة للعزة والفخر،ولو أن جارا ظلم جاره فإن هذا يكون عارا على الجار الآخر لأنه لم يقم بواجبه تجاه جاره،والإسلام عندما جاء قوى هذا الشعور تجاه الجار وأن الوحــي المحمدي جعل هناك جارا آخر غير الجار المعروف لدينا أي الذي يسكن بجوارنا بــل زاد على هذا رفيق السفر ورفيق الدراسة ورفيق العمل والشريك في أي عمل آخر كـل هذا يعد بمثابة جار له حق تجاه رفيقه وأن المستحق الأول في كل هذه الأنــواع هــو الجار القريب في الصلة والدين وقد صرح القرآن الكريم بهذا :

"والجار ذي القربى و الجار الجنب و الصاحب بالجنب " (النساء آية ٣٦) .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب باب ليس الواصل بالمكافي.حدثنا محمد بن كثير:أخبرنا سفيان،عن الأعمش والحسن بن عمرو وفطر،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(ليس الواصل بالمكافيء،ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها).

وقد اختلف المفسرون في معنى القريب والغريب ويقولون أن معنى القريب هو ما لنا به علاقة قربى،والغريب يعني الأجنبي الذي لا تربطنا به علاقة أسرية،والرأي الآخر هو أن معنى القريب هو الارتباط بالدين والمقصود بالبعيد هو من لا علاقة لنا به في الدين مثل اليهودي والمسيحي والمشرك وغيره ([1]) .

إلا أن هذا الاختلاف في الحقيقة لا معنى له،فالهدف من التعليم المحمدي هو أفضلية الجار الذي تربطنا به روابط مودة ومحبة أخرى بالإضافة إلى كونه جارا سواء كان هذا عن طريق القرابة أو الصداقة أو الدين أو أي نوع من الروابط الأخرى،والخلاصة أن هناك علاقات أخرى ترجح هذه العلاقة إلى جانب أحقيته في كونه جارا .

وتفسير هذا الحكم الإلهي وضحه الرسول صلى الله عليه وسلم بطرق مختلفة وأول هذه الطرق هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعله نتيجة للإيمان الصحيح وذات يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً مع جمع من الصحابة فقال بأسلوب مؤثر"والله لا يؤمن أحدكم،والله لا يؤمن أحدكم،فقال المجاهدون:من هو يا رسول الله؟فقال الرسول صلى الله عليه وسلم من لا يأمن جاره بوائقه " ([2]) .

وقد جاء في موضع آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره"([3])،وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره"([4]).

وفي موضع آخر جعله الرسول صلى الله عليه وسلم وسيلة للتقرب إلى الله،فقال صلى الله عليه وسلم"خيركم عند الله خيركم لأهله ولجاره"([5]).

---

[1] ابن جرير الطبري تفسير الآية المذكورة .

[2] صحيح البخاري كتاب الأدب الإثم من لا يأمن جاره بوائقه.حدثنا عاصم بن علي:حدثنا ابن أبي ذئب،عن سعيد،عن أبي شريح:أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(والله لا يؤمن،والله لا يؤمن،والله لا يؤمن).قيل:ومن يا رسول الله؟قال:(الذي لا يأمن جاره بوائقه).

[3] صحيح البخاري كتاب الأدب .

[4] المرجع السابق.حدثنا قتيبة بن سعيد:حدثنا أبو الأحوص،عن أبي حصين،عن أبي صالح،عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت)

[5] الترمذي باب البر و الصلة ، باب ما جاء في حق الجار .

ومن أجل أن يعلم السيدة (عائشة)أم المؤمنين رضي الله عنها قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم"ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"([1])،والحقيقة أن هذا يعد إشارة إلى أن الصلة بين الجار وجاره تصل إلى درجة القرابة .

إن أفضل وسيلة إلى الحب وتقوية العلاقة بين الجيران هي تبادل الهدايا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد على زوجاته في هذا الأمر،وبناءا على هذا سألت السيدة(عائشة)رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة"يا رسول الله لي جاران أرسل بالهدايا إلى من منهما،فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم أرسليها إلى من بابه أقرب إلى باب بيتك"([2]).

وليس من الضروري أن تكون الهدايا مغال فيها بل إن بعض أشياء من الطعام والشراب تكفي وإن لم يكن فعلى الأقل حساء من اللحم حتى وإن أضفنا إلى الحساء ماء،وقد نصح أحد الصحابة سيدنا(أبا ذر الغفاري)رضي الله عنه"يا أبا ذر عندما تصنع حساءاً فأضف إليه الماء وتذكر جارك"([3]).

إن عادة تبادل الهدايا تهتم بها النساء كثيرا ولهذا خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم النساء في هذا الشأن فقال صلى الله عليه وسلم"يا زوجات المسلمين لا تحتقر جارة هدية جارتها حتى ولو كانت الهدية ظلف ماعز"([4]).

والنصيحة هنا لكلا الزوجتين بمعنى أن لا تقلل أي زوجة من هديتها كما أنه لا يجب على الزوجة الأخرى أن تحتقر هدية جارتها.وليس من المروءة أن يستريح جار ولا يفكر في أن يساعد جاره وهو في محنة فقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:"لا يكون الإنسان مؤمنا عندما يكون هو شبعان وجاره جوعان"([5]).

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب.حدثنا محمد بن منهال:حدثنا يزيد بن زريع:حدثنا عمر بن محمد،عن أبيه،عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ما زال جبريل يوصيني بالجار،حتى ظننت أنه سيورثه)

[2] صحيح البخاري كتاب الأدب باب حق الجوار في قرب الأبواب.حدثنا حجاج بن منهال:حدثنا شعبة قال:أخبرني أبو عمران قال:سمعت طلحة،عن عائشة قالت:قلت:يا رسول الله،إن لي جارين،فإلى أيهما أهدي؟قال:(إلى أقربهما منك باباً) .

[3] صحيح مسلم كتاب البر و الصلة باب ما جاء في الجوار .

[4] صحيح البخاري كتاب الأدب باب لا تحقرن جارة لجارتها.عن أبي هريرة قال:كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(يا نساء المسلمات،لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة)

[5] المشكاة للبيهقي و أدب الفرد للإمام البخاري باب لا يشبع دون ..... •

السيئة سيئة والذنب ذنب أينما يقع ولكن عندما يستوجب عمل الخير ولا يفعله الإنسان فهنا يكون الذنب أعظم،فالإنسان السيئ قد يسرق ولكن عندما يسرق جاره يكون ذنبه أعظم،عمل السوء يمكن أن يكون في أي مكان ولكن عندما يحدث في منزل الجار الذي هو على اتصال به ليل نهار خاصة وأن الإنسان الشريف يخرج من بيته معتمدا على جاره،فالخيانة الأخلاقية شيء يبعث على الخجل ولهذا جاء الحكم في التوراة :

"لا تشهد على جارك بالزور ولا تطمع في جارك ولا تطمع في زوجة وخدم وجواري وثور وحمار جارك ولا في أي شيء من أشياء جارك "(الخروج ٢٠-١٧) .

" لا تخدع جارك و أن لا تغتصب شيء منه"(الأحبار ١٩-١٣) .

والإسلام على لسان نبيه الكريم لم يكتف بما جاء في التوراة بل أنه ضاعف ذنب هذه الأعمال ففي إجابة عن أحد الأسئلة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"الزنا حرام وحرمه الله ورسوله ولكن أسوأ السيئات في أن تعمل الفاحشة مع زوجة جارك،والسرقة حرام وحرمها الله ورسوله ولكن أسوأ الحرام أن تسرق جارك " ([1]) .

وكان هناك صحابيتان إحداهما كانت تقوم الليل للعبادة وتصوم ثلاثة أيام وتتصدق كثيرا إلا أن لسانها كان سيئا تؤذي به جيرانها فعرض الناس حالها على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم ليس فيها خير وسيكون جزاؤها النار،ثم حكى الصحابة رضوان الله عليهم حال زوجة أخرى تؤدي الفروض فقط وتتصدق قليلا إلا أنها لا تؤذي أحدا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عنها أنها ستدخل الجنة " ([2]) .

وكما قال السيد المسيح عليه السلام"أحب جارك مثلما تحب نفسك"(مرقس ١٢-٣٠) .

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف في تعاليمه بأن يحب الإنسان جاره مثلما يحب نفسه بل إن من لم يفعل هذا فقد نزع إيمانه حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه"([3]).

---

[1] أدب المفرد للإمام البخاري باب حق الجار .

[2] أدب المفرد للإمام البخاري باب لا يؤذي جاره .

[3] صحيح مسلم.وحدثني زهير بن حرب،حدثنا يحى بن سعيد عن حسين المعلم،عن قتادة،عن أنس[بن مالك]،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:والذي نفسي بيده،لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره-أو قال لأخيه-ما يحب لنفسه .

والأكثر والأجدر من هذا ليس حب النفس بل إن محبة الجار هي بمستوى حب الله ورسوله،حيث يقول الرسول:"من يحب الله ورسوله فيجب عليه أن يؤدي حق جاره"([1]).

ولهذا قال الرسول إن أول مدعي ومدعى عليه يوم القيامة هو الجار،وأن المعيار الخلقي للإنسان يكون بمدى قربه من جاره،وذات يوم سأل صحابي الرسول صلى الله عليه وسلم"يا رسول الله كيف نعرف بأن ما نفعله جيدا أو سيئا،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تكون علاقتك بجارك طيبة فهذا يعني أنك تفعل الخير،وعندما يقال عن علاقتك بجارك سيئة فاعلم أنك تفعل السوء " ([2]) .

فلو أساء جار فيمكن أن نترك هذا المنزل ونبحث عن جار آخر ولكن لا يجب أن نقابل السيئة بالسيئة معه وهذا العمل سيجعله خجولا من فعلته،وهكذا جاء أحد الصحابة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو له جاره بأنه أزعجه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم اصبر،وبعد فترة جاء الصحابي واشتكى مضايقة جاره له مرة أخرى فنصحه الرسول صلى الله عليه وسلم بنفس النصيحة السابقة بان يلتزم الصبر،وجاء مرة ثالثة واشتكى فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم اذهب وانتقل إلى مكان آخر،وفعل الصحابي بما نصحه الرسول صلى الله عليه وسلم به فسأل المارة عن السبب فوضح لهم الصحابي الحقيقة فذم الناس هذا الجار فخجل الرجل من فعلته وحاول أن يثني الصحابي عن قراراه ويبقى جاراً كما كان ووعد بأن لا يضايقه مرة أخرى ([3])

كان أثر هذه التعليمات بأن كل صحابي حاول أن يحسن معاملة جاره،وذات مرة رأى سيدنا(عمر)رضي الله عنه سيدنا(جابر)يعلق قطعة لحم فسأله سيدنا(عمر)رضي الله عنه ما هذا؟فقال:يا أمير المؤمنين أردت أن آكل لحما فاشتريت لحما بدرهم،فقال له أمير المؤمنين:يا جابر هل نسيت جارك وأحباءك وأصبحت تفكر في معدتك فقط ألم تقرأ هذه الآية([4])"يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم

---

[1] المشكاة للبيهقي .

[2] احمد بن حنبل مسند حقبة بن عامر .

[3] ادب المفرد للبخاري باب شكاية الجار ، و أبو داوود كتاب الأدب باب حق الجار .

[4] الموطأ للإمام مالك باب ما جاء في أكل اللحم.حدثني عن مالك،عن يحيى بن سعيد،أن عمر بن الخطاب أدرك جابر بن عبد الله ومعه حمال اللحم.فقال:ما هذا؟فقال:يا أمير المؤمنين.قرمنا إلى اللحم.فاشتريت بدرهم لحماً. فقال عمر:أما يريد

بها"(الأحقاف آية ٢٠).فلتتمتعن إن قطعة اللحم التي ليس فيها جزء للجار والأعزاء تعتبر لذة مكروهة يمكن أن يؤاخذ عليها الإنسان .

لا يوجد تمييز في علاقة الجار بين الصديق والعدو والمسلم وغير المسلم،وذات مرة ذبح سيدنا(عبد الله بن عمر)رضي الله عنهما وكان أحد جيرانه من اليهود فسأل سيدنا(عبد الله) رضي الله عنه أهل بيته:هل أرسلتم شيئا لجارنا اليهودي لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول"مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " ([1]) .

حق اليتامى

اليتيم هو الطفل الذي حرم من أبيه،ومن هنا يجب على كل فرد في المجتمع أن يحتضنه ويرعاه ويساعده ويحافظ على أمواله وأن يقوم على تعليمه وتربيته،وإذا كان اليتيم طفلة فيجب علينا المحافظة عليها ورعاية حقوقها إلى أن يتم زواجها.هذه هي التعليمات التي جاء بها يتيم مكة(محمد)صلى الله عليه وسلم لقد كان القتل والسلب في الجزيرة العربية يخلف كثيرا من الأيتام ولكن لم يكن يعمل أحد على رعايتهم وحفظ حقوقهم لأن الأطفال لم يكونوا يورثوا([2])،هذا إلى جانب أن وحشية العرب لم تكن ترحمه وهو ما ركز عليه القرآن أكثر من مرة :

" أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم " (الماعون آية ١ ,٢) .

وفي آية أخرى صور القرآن من يأكلون أموال اليتامى ظلما :

" كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما " (الفجر الآيات ١٧ ,١٨ ,١٩ ,٢٠) .

ويوجد ذكر محدود لرعاية هذه الفئة في الأديان الأخرى قبل الإسلام فقد عدتهم التوراة ضمن من يستحقون الزكاة والصدقات،وهناك موضعان في التوراة حول اليتيم،أحدهما "أن اليتامى الذين يكونون داخل المدينة فليأتوا ويأكلوا ويشبعوا"(الاستثناء١٤،٢٩ ,٢٦ ,١٢) .

أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه؟أين تذهب عنكم هذه الآية"أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها".

[1] أبو داوود كتاب الأدب باب حق الجوار.حدثنا مسدد،ثنا حماد،عن يحي بن سعيد،عن أبي بكر بن محمد،عن عمرة،عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى قلت ليورثه .

[2] تفسير ابن جرير الطبري سورة النساء الجزء الرابع ص ١٧٠ .

ولا يوجد ذكر في الإنجيل حول مراعاتهم أو تعليمهم فالعناية بهؤلاء عندما جاء يتيم مكة بهذا الدين الكامل حيث جاء الوحي الإلهي مخاطبا الرسول نفسه ومذكرا إيـــاه بقوله :

" ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فـــأغنى فأمـــا اليتيـــم فـــلا تقهر"(الضحى الآيات ٦ ,٧ ,٨ ,٩) .

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم موجودا في مكة وبدون مناصر له،ظل يرشد الناس إلى حسن التعامل مع اليتامى ويدعو رؤساء قريش ذوي القلوب القاسـية أن يرحموا ويعطفوا على هذه الفئة،وهكذا فإن الآيات المكية طالبت الأثرياء بمساندة الفقراء وأن هذه الأعمال هي أصل النجاح في الحياة الدنيا،ويمكن للإنسان أن يعبر هذه الحيـــاة إذا تخلى عن الظلم وقام بإطعام الفقراء ومساعدة اليتامى."أو إطعام في يوم ذي مســـغبة يتيما ذا مقربة"(البلد آية ١٥) .

وقد مدح القرآن الصدقات والمتصدقين بقوله :

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما " (الإنسان آية ٨) .

وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلـــى المدينـــة اتخـــذت التعليمـــات الأخلاقية شكل القانون فجاء فيما يتعلق بهؤلاء في سورة النساء وذلـــك عـــن طريـــق إعطائهم حق الميراث كما خاطب من يهضم حق اليتيم بقوله :

"وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا " (النساء آية ٢) .

كان الناس يحاولون الاستيلاء على أموال اليتامى بطريق الزواج وبعـــد ذلـــك يؤذونهم فجاء الحكم القرآني:"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم مـن النساء"(النساء آية ٣) .

لا يجب تبديد مال اليتيم والإسراف فيه وطالما أنه لم يبلغ سن الرشد لا يعـــود إليه ماله ليس هذا فحسب بل إنه يجب على الولي أن يرعاه بعد أن يصل إلى سن الرشد وهو ما أكده القرآن الكريم:

"ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لـــهم قولا معروفا،وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فـــادفعوا إليـــهم أموالهم" (النساء الآيتان ٥ ,٦) .

وهناك نكتة بلاغية في الآيات الكريمة حيث أسند القرآن المال إلى من يتولى أمر اليتيم بقوله "أموالكم" وفي آخر الآية قال القرآن"إذا بلغ اليتامى سن الرشد فادفعوا إليهم أموالهم"وهنا أسند لفظ المال إلى اليتامى،وهذا يعني أنه طالما أن المال لدى من يتولى أمر اليتيم فهو في حكم ماله يجب عليه أن يرعاه ويحفظه وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد يعود إليه كل ماله.وقد كان بعض من يتولى أمر اليتيم ينفقون ويبددون أمواله حتى يصل إلى سن الرشد ولا يجد شيئا من ماله وهنا حذر القرآن هؤلاء بقوله:"ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا " (النساء آية ٦) .

وإن كان من يتولى أمر اليتامى ليس من الأثرياء فعليه أن يأكل وينفق منها بالمعروف،وإن كان غنيا فلا يأخذ منه شيئا لأن هذا مناف للأخلاق،وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم :

" من كان غنيا فليستعفف و من كان فقيرا فليأكل بالمعروف " (النساء آية ٦) .

وفي النهاية يرشدنا القرآن بقوله :

" وأن تقوموا لليتامى بالقسط " (النساء آية ١٢٧) .

وفي سورة الأنعام نرى أن الدين اليهودي قد تجاهل بعض الذنوب الروحية في تحليل وتحريم الحيوانات إلا أنه اهتم بالتعليمات الأخلاقية والروحية الأساسية والتي منها :

" ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده " (الأنعام ١٥٢) .

وهناك ثمانية مبادئ أخلاقية في سورة الإسراء في قوله:

" ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا" (الإسراء آية ٣٤) .

كل هذه التعاليم تتعلق باليتامى الأثرياء،أما في حالة اليتيم الفقير،فقد جعل الله تربيته ورعايته فرضاً على كل مسلم .

وهكذا في العديد من الآيات كسورة البقرة والأنفال والحشر جاءت لتؤكد على رعاية اليتامى والمساكين وجعلهم أحد مصارف الخيرات والصدقات المهمة.كما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة من يهتم باليتيم ويرعاه مساوية لمكانته صلى الله

عليه وسلم في الجنة،كما جاء في الحديث"أنا و راعي اليتيم كهاتين في الجنـــة وأشـــار بإصبعيه الشريفين" ([1]) .

وجـــاء في حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إن مـــن يـــأخذ يتيما إلى بيته ويرعاه فإن الله سيهبه الجنة شريطة أن لا يكون قد فعل ذنبا لا يغتفر" ([2]) .

وفي مرة أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"إن أفضل بيوت المســلمين هو البيت الذي يعول يتيما وأسوأ بيوت المسلمين هو البيت الذي يساء فيه لليتيم" ([3]) .

لقد غيرت تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم عادات العرب السيئة وأصبـــح العرب ذوو القلوب القاسية رحماء بينهم لدرجة أن بيوت الصحابة كلها صارت مـــأوى لليتامى،وتسابق الناس في العطف والشفقة على اليتيم ([4]).فقد احتضنت فلذة كبد الرسول السيدة(فاطمة الزهراء)يتامى غزوة بدر([5])،وهكذا السيدة(عائشة)رضي الله عنها أخـــذت بنات يتامى أسرتها([6])ويتامى الأنصار([7])وغيرهم في بيتها لترعاهم، كما أن سيدنا(عبـــد الله بن عمر)رضي الله عنهما كان لا يأكل الطعام إلا إذا أكل معه أحد اليتامى([8]).

لم يكتف الصحابة بفعل هذا بل إنهم أنفقوا على اليتامى وحفظوا أموالهم بكـــل أمانة.وذات مرة اشتكى أحد اليتامى شخصا ما أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فيمـــا يتعلق ببستان نخيل إلا أن دعواه لم تثبت وأعطى الرسول صلى الله عليه وسلم بســـتان النخيل للمدعى عليه فبكى اليتيم فرق قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال للمدعـــى عليه أعطه بستان النخيل فسيعوضك الله عنه بالجنة فلم يوافق الرجل،وكان الصحـــابي أبو الدحداح يحضر هذه المحاكمة فقال لهذا الرجل هل تأخذ بدلا من هذا البستان بســتانا

---

[1] صحيح البخاري باب فضل من يعول يتيما،وصحيح مسلم باب فضل الإحسان إلى اليتيم.حدثنا عبد الله بـــن عبـــد الوهاب قال:حدثني عبد العزيز بن أبي حازم قال:حدثني أبي قال:سمعت سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليـــه وســـلم قال:(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا).وقال بإصبعيه السبابة والوسطى.

[2] الترغيب والترهيب للمنذري المجلد الثاني صـــ١٣٣،١٣٢نقلا عن الترمذي حديث حسن صحيح.

[3] الترغيب والترهيب للمنذري المجلد الثاني صـــ١٣٢،١٣٣نقلا عن ابن ماجه وأدب المفرد باب من يعول يتيما .

[4] صحيح البخاري باب عمرة القضاء .

[5] أبو داورد باب مواضع القسم الخمس .

[6] الموطأ للإمام مالك كتاب زكاة أموال اليتامى و زكاة الحلي و كتاب .

[7] مسند أحمد المجلد السادس صــــ ٢٦٩ .

[8] تذكرة الحفاظ ذهبي ذكره مسروق بن أجدع التابعي و المسند المجلد السادس صــــ ٣٢ .

آخر من بساتيني فقبل الرجل عرض الصحابي وذهب هذا البستان المتنازع عليه لليتيم ".(1)

في أيامنا هذه نجد دور الأيتام في كل مدن العالم وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال هل كان العرب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفون هذا النوع من المعروف فالتاريخ يجيبنا بنعم،فالإسلام هو الدين الأول الذي اهتم باليتامى وأسس أول دور للأيتام في أرض العرب كما أن الحكومة الإسلامية هي أول حكومة تشعر بمسئوليتها تجاه هؤلاء فحيثما كانت حكومة إسلامية سواء في مصر أو الشام أو العراق أو الهند وغيرها من البلاد التي تأسست فيها حكومة إسلامية أقامت لهذه الفئة بيوتا ترعاهم وتقوم على راحتهم،هذا على جانب المنح وأراضي الوقف التي كانت توقف لخدمتهم والإنفاق عليهم .(2)

وأقيمت مؤسسة جديدة في العالم،وأقيمت القوانين لرعاية وحفظ أموال هؤلاء حتى يكبروا ويتزوجوا(3)،وهذا هو الدستور الذي تتبعه أوربا اليوم وقد نقلت محاكم لندن أحكام القضاة المسلمين في هذا الشأن (4) .

حسن معاملة الأرملة

إن أضعف مخلوقات المجتمع الإنساني بعد اليتيم هم الأرامل اللائي حرمن من أزواجهن فأصبحوا لا مؤنس ولا ونيس لهم.فلا أحد يرعاهم ولا أحد يفكر فيهن،فالمرأة ليس لها خبرة بمشاكل الدنيا ولهذا جعل مسئوليتها في يد الرجل(زوجها)،وعندما تفقد المرأة زوجها تتعرض لكثير من المشاكل ليس على المستوى الروحي بل على المستوى الجسدي ويتحلق الناس حولها كالنسور يتربصون بها وأكبر دليل على هذا الحوادث التي تملأ صفحات الجرائد كل يوم في العالم .

وفي الديانة اليهودية تعود مسئولية الأرملة إلى أخيها يعاملها كيفما يشاء،ولا دخل لرغبات الأرملة في إقامة علاقة أسرية أخرى،أما في الديانة المسيحية فهذا قانون إجباري ولكن لا تجد فيه أي جانب إيجابي آخر،والعقيدة الهندوكية لا ترى ضرورة في

---

1 أدب المفرد للإمام البخاري باب فضل من يعول يتيما .

2 الاستيعاب لابن عبد البر تذكرة أبو الدحداح .

3 هناك واقعات كثيرة تدل على هذا في التاريخ الإسلامي .

4 جاء في الحديث أن الرسول– صلى الله عليه وسلم– قال:"السلطان ولي من لا ولي له"كتاب النكاح كما جاء في كتب الفقه أن من واجب القضاة عند تعيينهم أنهم ولي من لا ولي له .

بقائها على قيد الحياة ولهذا يجب على المرأة أن تحرق نفسها مع زوجها،ولو فرضنـــا أنها بقيت على قيد الحياة فهنا يجب عليها أن تحرم نفسها من جميع ملذات الحياة وتعزل نفسها عن الدنيا،أما في القبائل العربية فكانت العادة أن تعود ملكية الزوجة الأرملة إلــى الورثة يفعلون فيها ما يشاءون يعذبونها ويأخذون حقوقها ولا يسمحون لها بأن تــتزوج برضائها،ولكن عندما جاء الإسلام أنصف هذه الفئة المظلومة فأول ما قام به الإسلام هو أنه حدد فترة الحداد لكي تستطيع المرأة فيها أن تنسى أحزانها وفي هذه الفترة يمكـن أن تعرف إذا كان هناك حمل من زوجها أم لا،وهي ما نطلق عليها فترة العدة ومدتها أربعة أشهر،وبعدها يسمح للمرأة بممارسة حياتها الطبيعية بعد قضاء العدة.وإذا كانت لم تــأخذ مهرها فيجب على الورثة إعطائها هذا الحق من تركة الزوج،هذا إلى جانب أنه إذا كان لزوجها ولد فلها الثمن وإذا لم يكن له ولد فلها الربع مما ترك زوجها.ويكون لها الحرية في الزواج مرة أخرى ممن ترغب ولا يحق لأي شخص أن يكون وصيا عليـــها مــن أقارب أو إخوة الزوج .

أما المساعدة الأخرى التي قدمها الإسلام لهذه الفئة المظلومة فهي أنه أعادهـــا إلى المجتمع الأسري مرة أخرى وأعطاها الحق في الزواج وطلب القرآن صراحة مــن المسلمين أن يتزوجوا من الأرامل في قوله:"وانكحوا الأيامى منكم" (النور آية ٣٢) .

وقبل أن ينزل هذا الحكم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عمل بهذا الأمـر في مساعدة هذه الفئة في حين أنه كان في ريعان شبابه يتوق إلى شابة مثله إلا أنه وهو في عمر الخامسة والعشرين تزوج بأرملة وهي في الأربعين من عمرها،وظل معها لمدة خمس وعشرين عاما ولم يتزوج بأي امرأة أخرى إلا أنه تزوج بعد وفاتها بعشرة نسـاء أخريات هن السيدة(ســودة)رضــي الله عنــها والســيدة(حفصــة)رضــي الله عنــها والســيدة(زينــب)رضــي الله عنــها والســيدة(أم المســاكين)رضــــي الله عنــــها والســيدة(حويــرة)رضــي الله عنــها والســيدة(أم حبيبــة) رضــــي الله عنــــها والسيدة(ميمونة)رضي الله عنها والسيدة(صفية)رضي الله عنها وكلهن كن أرامل وقــد تكفل صلى الله عليه وسلم برعايتهن واستن طريقا حسنا طبقه بنفسه،وقــد جــاء فــي

الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم"الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله،واحسبه قال كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر"([1]).

وهذه رواية صحيح البخاري:"الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل"(كتاب الأدب).

أما الأرامل اللاتي يحتضن أطفالا من أزواجهن فيفضلن البقاء بدون زواج آخر بغرض تربية أبنائهم،وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مرتبة هذه المرأة المجاهدة مع مرتبته يوم القيامة وأشار بإصبعيه هكذا([2])،والمرأة التي توفى عنها زوجها وهي تملك الجمال والمال وتتفرغ لخدمة أطفالها ولا تنفصل عنهم حتى يكبروا أو يموتوا .

وقد جاء في مسند أبي يعلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "سأكون أول من يفتح أبواب الجنة يوم القيامة فتكون هناك امرأة تريد الدخول قبلي فسألت من هي هذه المرأة فيقال إنها المرأة التي عالت يتيما بعد وفاة زوجها ([3]) .

حقوق المحتاجين

كل إنسان أياً كان صاحب ثروة وغنياً يأتي عليه وقت يضطر فيه إلى مساعدة أحد ويحتاج فيه إلى مساعدة الآخرين،ولهذا فمن الفرض على كل فرد في الجماعة الإنسانية أن يساعد إخوته في أزماتهم بكل طريقة ممكنة،وأن لا يغتر بحالته المادية الميسرة في وقتها وأن لا يتجاهل حاجات المحتاجين،وأن لا يعتقد أنه لن يحتاج إلى أحد أبداً،وقد جاءت آيتان في القرآن الكريم بفارق طفيف بين كل منهما تقول الأولى :

" في أموالهم حق للسائل و المحروم " (الذاريات : ١٩) .

وتقول الثانية : " في أموالهم حق معلوم للسائل و المحروم " (المعارج : ٤٥) .

---

[1] صحيح البخاري و صحيح مسلم والموطأ للإمام مالك نقلا عن المشكاة باب الشفقة والرحمة على الخلق.حدثنا عبد الله بن مسلمة:حدثنا مالك،عن ثور بن زيد،عن أبي الغيث،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله:(الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله).وأحسبه قال-يشك القعنبي-:(كالقائم لا يفتر،وكالصائم لا يفطر).

[2] سنن أبو داوود كتاب الأدب باب فضل من عال يتيما.حدثنا مسدد،ثنا يزيد بن زريع،ثنا النهاس بن قهم قال:حدثني شداد أبو عمار،عن عوف بن مالك الأشجعي قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأومأ يزيد بالوسطى والسبابة امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا.

[3] سنن أبو داوود حاشية أبي الحسنات محمد بن عبد الله بن نور الدين البنجابي طبعة أصح المطابع لكهنو .

والسائل تطلق على من يطلب شيئاً,ولكنها اشتهرت بإطلاقها على من يطلب الصدقات والمتسول,وهو أمر غير صحيح,إذ أنها تعني كل من يحتاج شيئاً,كما تعني ذلك الذي يطلب منك العون المادي,وقد اختلف المفسرون في معنى(محروم)فيقول بعضهم:المحروم هو الذي لا نصيب له في أموال الغنائم,والبعض الآخر ركز على المعنى الظاهر,أي الذي لا مال لديه,والبعض يقول:إنه المتعفف,لكن الصحيح هو أنه ذلك المصاب الذي حلت بمحصوله أو بحقله كارثة طبيعية,وصار محتاجاً لمساعدة الآخرين,والقرآن الكريم يؤيد هذا المعنى,كما يؤيده بعض المفسرين وأهل اللغة ([1]) .

أما الجانب الآخر فهو أن المراد من الحق هو الزكاة,أو الصدقة بصفة عامة,وقد ذكر المفسرون المعنيين في الآيتين,إلا أن الصحيح هو أن(الحق)الذي ورد بيانه في سورة الذاريات مقصود به مطلق الصدقة والمساعدة المالية,أما سورة المعارج والتي لم يرد فيها مطلق(الحق)فقط,وإنما ورد(الحق المعلوم)فإن المراد منه هو الزكاة,لأن مفهوم(الحق المعلوم)لا ينطبق على الصدقة بشكل عام,وإنما ينطبق على الزكاة,وتكون النتيجة هي أن مساعدة المحتاجين الذين حلت بهم أزمات ومصائب مالية حق من حقوق المساعدة الواجبة على المسلمين,وقد جاء في القرآن الكريم في موقع آخر:"وأما السائل فلا تنهر"(الضحى:١٠).

ومعنى السائل هنا يفهم من قرينة(أغنى)بأنه طالب الصدقة بشكل عام,لكن عموم اللفظ يتطلب الوسعة,بمعني أن كل محتاج يطلب منكن عوناً,سواء كان عوناً جسمانياً أو مالياً أو علمياً([2]),حتى أنه إذا طلب الأعرج أن يستند على كتفك فهو إذا ممن ينطبق عليهم لفظ(سائل),وعليك أن لا ترفض طلب هؤلاء بشكل قاطع,وإنما عليك أن تلبي سؤالهم بقدر الإمكان,وإن لم تستطع فاعتذر لهم برفق,وهناك شكل آخر للمساعدة وهو أن تتوسط عند آخر لمساعدة أحد,والله تعالى يقول:

" من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها,ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها,وكان الله على كل شيء مقيتاً"(النساء:٨٥).

---

[1] انظر لسان العرب,لفظ محروم,وانظر تفسير الآيات المذكورة من سورة الذاريات والمعارج,والمحرومين في قصة أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم,وكذلك معنى المحرومين الذي ورد في سورة الواقعة .

[2] جاء في الطبري أن معنى الآية(وأما من سألك من ذي حاجة فلا تنهر),وكتب الزمخشري في الكشاف قائلاً : أن البعض فهم من السائل أنه طالب العلم .

ورغم أن نظم الآية ونسقها يقول أنها نزلت في المعارك,بمعنى أنه إذا طلبت قبيلة ضعيفة أن يساعدها الآخرون في مواجهة قبيلة قوية فإنه يقبل طلبها في هذا العمل الصالح,وتحقق وساطتها فيه,لكن اتساع اللفظ القرآني يجعله يتسع لكل توسط في عمل صالح,وجعل الأصل فيه أن الشخص الذي يشارك في العمل على تحقيق هدف صالح فهو شريك في ثواب هذا العمل بقدر اشتراكه في العمل نفسه,وبنفس الطريقة من يشارك في عمل سيء فهو شريك في ذنبه وإثمه بقدر مشاركته في العمل نفسه,وقد جاء في آية أخرى:

" وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب"(المائدة : ٢).

المهم أن تلبية حاجات المحتاجين ومساعدتهم بقدر ما يطلبون المساعدة بمثابة الحق لهم على كل مسلم إذا كان في استطاعته,وعلى كل مسلم أن يؤدي هذا الحق,وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرح الآيات السابقة:

" من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته,ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة " (الصحيحين) .

وقال صلى الله عليه وسلم في رواية أخري :

" والله في عون عبده ما كان العبد في عون أخيه " (للترمذي , باب ما جاء في الستر على المسلمين) .

وجاء في صحيح البخاري أنه عندما كان سائل يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه صلى الله عليه وسلم كان يقول للصحابة اشفعوا وتوسطوا له فإن لكم في ذلك ثواب([1]).وذات مرة قال صلى الله عليه وسلم إن لم تستطيعوا فعل شيء فساعدوا المحتاج ([2]).وقال صلى الله عليه وسلم أن إرشاد التابعين والعميان إلى الطريق

---

[1] صحيح البخاري–كتاب الأدب–باب تعاون المؤمنين,وباب قول الله من يشفع شفاعة حسنة.حدثنا محمد بن العلاء:حدثنا أبو أسامة،عن بريد،عن أبي بردة،عن أبي موسى،عن النبي صلى الله عليه وسلم:أنه كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال:(اشفعوا فلتؤجروا,وليقض الله على لسان رسوله ما شاء).

[2].المرجع السابق–باب كل معروف صدقة.حدثنا آدم:حدثنا شعبة:حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري،عن أبيه،عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(على كل مسلم صدقة).قالوا:فإن لم يجد؟قال:(فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق).قالوا:فإن لم يستطع أو لم يفعل؟قال:(فيعين ذا الحاجة الملهوف).قالوا:فإن لم يفعل؟قال:(فليأمر بالخير،أو قال:بالمعروف).قال:فإن لم يفعل؟قال:(فليمسك عن الشر فإنه له صدقة).

صدقة[1]،وقال أيضا أن الذي يبعد شوكة عن الطريق فإن الله تعالى يحب عمله هذا ويغفر ذنبه [2] .

حقوق المريض

وهناك فئة أخرى في هذا العالم تستحق منا العطف،وهي فئة المرضى،وهؤلاء بصفة عامة لا يستطيعون خدمة أنفسهم وهم في حالة المرض،ومن الفرض على الإنسانية معالجة هذه الفئة التي تستحق العطف والمواساة وخدمتهم والتخفيف عنهم،ويطلق عليه في العربية(عيادة المريض)،وأول أمر من أمور العطف والشفقة التي علمها لنا الإسلام في التعامل مع هذه الفئة هو أن الله تعالى أعفاهم تماماً من الفرائض التي لا يستطيعون القيام بها في حالتهم هذه،أو ترهقهم أشد الإرهاق،وقد جعل القرآن الكريم لهذا الأمر مبدأً أساسياً في قوله تعالى :

" ولا على المريض حرج " (النور : ٦١) .

" ليس على الأعمى حرج،ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج"(الفتح : ٦).

" ليس على الضعفاء ولا على المرضى " .

يعتقد الناس عادة أن عيادة المريض تعني السؤال عنه فقط،بمعنى أن تذهب لترى المريض،في حين أن الأمر ليس كذلك،فعيادة المريض تعني السؤال عنه،كما تعني أيضا علاجه ومواساته وخدمته،إذ أن الذهاب لرؤية مريض هو أدنى أشكال عيادته،والأحسن من هذا أن تواسيه،والأفضل من ذلك أن تقوم على تمريضه وخدمته،يقول أحد شعراء العرب عاش أيام الحجاج :

ذهب الرقاد فما يحس رقاد   مما شجاك و نامت العواد .

والأصل في عيادة المريض أن يظل هناك من يبقى ساهراً على تمريضه وخدمته ليل نهار لأيام وليال عديدة،ولا يغمض لهؤلاء جفن حتى في حالة اليأس من شفائه إلا أن يموت،فإذا فهمنا معنى عيادة المريض على السؤال عنه،وإذا سلمنا أن معنى عيادة المريض هي الذهاب لرؤيته فعلينا إذا أن نفكر أنه إذا كان ثواب رؤية المريض كبير هكذا فما بالك بثواب تمريضه و خدمته .

---

[1] الترمذي – كتاب البر و الصلة .

[2] الترمذي–كتاب البر والصلة.حدثنا قتيبة عن مالك بن أنس عن سمي عن ابي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:بينما رجل يمشي في طريق إذ وجد غصن شوك فأخره فشكر الله له فغفر له.

فالمرضى معفون من الوضوء:"وإن كنتم مرضى"،كما أنهم معفون أيضا من صلوات التهجد الطويلة:"علم أن سيكون منكم مرضى"(المزمل:٢٠)،وهكذا هناك تخفيف في مناسك الحج بالنسبة للمرضى:"فمن كان منكم مريضاً"(البقرة:٢٤)،وسمح لهم بالإفطار في رمضان،وإن لم يقدروا على الصلاة وقوفاً صلوها جلوساً،وإن لم يقدروا على الجلوس صلوها مستلقين،ويعلم من هذا أنه إذا كان الله تعالى قد أعفاهم من أداء فرائضه فكم يكون على الناس من واجب في تخفيف مطالبهم الأخلاقية تجاههم.وقد بشر الإسلام مرضى المسلمين في تحملهم لآلام المرض والصبر عليه وشكر الله بالبشرى،إذ أن نظرية الإسلام في هذا الأمر هي أن الألم الذي يلحق المؤمن في الدنيا يكون كفارة لذنوبه،فإذا مرض وتحمل آلام المرض بصبر فإنه يكون سبباً في العفو عن ذنوبه ونجاته من العذاب الشديد في الآخرة،وبذلك يطهر المؤمن([1]).

هذا وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عيادة المرضى،وعلمنا آدابها والدعاء الخاص بها،وأخبرنا عن ثوابها فقال:"من خفف عن عبد كربة خفف الله عنه كربة"([2])،وقال أيضا:"للمسلم على أخيه خمس حقوق منها أن يعوده إذا مرض ([3]) .

يقول الصحابة رضي الله عنهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بسبعة أمور منها عيادة المريض([4])،فقال صلى الله عليه وسلم إذا عاد رجل مريضاً في الصباح

---

[1] صحيح مسلم – باب ثواب المؤمن فيما يصيبه , و سنن أبي داود , أوائل كتاب الجنائز .

[2] أبو داود–كتاب الأدب في المعونة للمسلم.حدثنا أبو بكر وعثمان ابنا أبي شيبة،المعنى قالا:ثنا أبو معاوية،قال عثمان:وجرير الرازي،وثنا واصل بن عبد الأعلى،ثنا أسباط،عن الأعمش،عن أبي صالح،وقال واصل:قال:حدثت عن أبي صالح،ثم اتفقوا:عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة،ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة،ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة،والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

[3] صحيح البخارى_كتاب الجنائز،حدثنا محمد:حدثنا عمرو بن أبي سلمة،عن الأوزاعي قال:أخبرني ابن شهاب قال:أخبرني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(حق المسلم على المسلم خمس:رد السلام،وعيادة المريض،واتباع الجنائز،وإجابة الدعوة،وتشميت العاطس).تابعه عبد الرزاق أخبرنا معمر.ورواه سلامة عن عقيل.

[4] المرجع السابق.حدثنا أبو الوليد:حدثنا شعبة،عن الأشعث قال:سمعت معاوية بن سويد ابن مقرن،عن البراء رضي الله عنه قال:أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع:أمرنا باتباع الجنائز،وعيادة المريض،وإجابة الداعي،ونصر المظلوم،وإبرار القسم،ورد السلام،وتشميت العاطس.ونهانا عن آنية الفضة،وخاتم الذهب،والحرير،والديباج،والقسي،والاستبرق.

فإن الملائكة تدعو له بالمغفرة في المساء،وإذا عاده في المساء فإن الملائكة يدعون له بالمغفرة حتى الصباح([1])،كما ورد أيضا أنه حين يذهب أحد لعياده مريض فإنه يظل يقطف من ثمار الجنة حتى عودته من عنده([2])،وقال إنه إذا ذهب أحد لعيادة مريض فليضع يده على يده وجبهته ويواسيه ويدعو الله له بالشفاء([3])،وبفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليمه كان الصحابة الكرام يهتمون أشد الاهتمام بالعياده لدرجة أنه صلى الله عليه وسلم عاد يهوديا([4])،وذهب لعيادة المنافقين([5])،وهو ما اتخذه العلماء دليلاً على جواز عيادة غير المسلمين ([6]) .

وحين جرح سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه نصب له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد حتى يستطيع عيادته مراراً([7])،وكانت هناك صحابية تدعى رفيدة رضي الله عنها تقوم بمعالجة الجرحى وخدمتهم لوجه الله تعالى،وكانت خيمتها في نفس المسجد أيضا حتى تستطيع تضميد جراح جرحى المسلمين في المعارك([8])،وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه بصفة عامة أن(يطعموا الجائع)،ويخلصوا

---

[1] سنن أبي داود– كتاب الجنائز.حدثنا محمد بن كثير،أخبرنا شعبة،عن الحكم،عن عبد الله بن نافع،عن علي قال:ما من رجل يعود مريضاً ممسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح،وكان له خريف في الجنة،ومن أتاه مصبحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي،وكان له خريف في الجنة.

[2] صحيح مسلم–باب عيادة المريض،بطرق مختلفة.حدثنا يحيى بن يحيى،التميمي،أخبرنا هشيم،عن خالد،عن أبي قلابة،عن أبي أسماء،عن ثوبان،مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من عاد مريضاً،لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع).

[3] سنن أبي داود–كتاب الجنائز.حدثنا يزيد بن خالد الرملي،ثنا ابن وهب،عن حيي بن عبد الله،عن أبي عبد الرحمن الحبلي،عن ابن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:إذا جاء الرجل يعود مريضاً يعود فليقل:اللهم اشف عبدك،ينكأ لك عدواً،أو يمشي لك إلى جنازة:قال أبو داود:وقال ابن السرح:إلى صلاة.

[4] صحيح البخاري– كتاب الجنائز.حدثنا سليم أن بن حرب ثنا حماد يعني ابن زيد،عن ثابت،عن انس،أن غلاماً من اليهود كان مرض،فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده،فقعد عند رأسه،فقال له:أسلم فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له أبوه:أطع أبا القاسم فأسلم،فقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول:الحمد لله الذي أنقذه بي من النار.

[5] المرجع السابق .

[6] مجمع الجار – العلامة طاهر فتني – لفظ عيادت .

[7] سنن أبي داود – كتاب الجنائز .

[8] جاء في سيرة ابن هشام،غزوة بني قريظة،وأدب المفرد للبخاري – كيف أصبحت،والإصابة لابن حجر و غيرهم أمر رفيدة هذه فاقرأه .

الأسير,ويعودوا المرضى([1]),وذات مرة أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل عيادة المريض بأسلوب مؤثراً أن الله تعالى يسأل يوم القيامة"يا ابن آدم مرضت فلم تعدني"فيقول:"يا رب،أنت خالق العالم كله,كيف أعودك؟"فيقول الله:"ألم تعلم بأن عبدي مرض,ولكنك لم تعده,ولو عدته لوجدتني عنده"([2]).فإلى أي مدى يثبت هذا التعليم ويتمكن من القلوب بعيادة المرضى وخدمتهم ومواساتهم,وفي نفس الوقت يرفع من معنويات المريض بأن الله عند وسادته ينعم عليه بفضله وكرمه,ويرفع درجاته ومقامه,وما أسعد أولئك الذين يخدمون أولئك المرضى فيجدون القرب من الله .

حقوق العبيد

وفئة العبيد من بين الفئات الإنسانية الضعيفة والعاجزة,وهذه الفئة موجودة منذ بداية تاريخ العالم الذي وصل إلينا,فلقد أحكمت الأمم القوية الغازية دائماً وثاق أبناء الأمم المهزومة بقيود العبودية,بمعنى أن ينصبوا هم من أنفسهم ملوكاً يحكمون و يعيشون في رغد من العيش,ويسخرون الشعوب المنهزمة في أعمال الزراعة والأشغال الشاقة المضنية,وفئة المنبوذين بين الهندوس مثال حي على ذلك,وكانت أحوال بني إسرائيل الأسارى في أيدي المصريين(القدماء)بنفس الطريقة,وكان الروم يستغلون غير الروميين في الأعمال الشاقة ويستعبدونهم,وكان الحال مع العرب أيضا هكذا,وبسبب سيادة النظام القبلي في العرب فإن الذي لم يكن ينتمي إلى قبيلة عربية قوية أو يرتبط بها كان على هذا المسكين أن يواجه الظلم والقسوة التي ينزلها به أفراد القبائل الأخرى,لأنه لا يتمتع بحماية قبيلة من القبائل,وكان هؤلاء الأفراد وأمثالهم هم أكثر الذين أوقع بهم القريشيون ظلماً عند بداية الإسلام,وجاء الإسلام لحماية الضعفاء,والذين

---

[1] مسند أحمد-صفحة٤/٣٩٤ .حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى بن سعيد عن سفيان ثنا منصور عن أبي وائل عن أبي موسى قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:فكوا العاني وأطعموا الجائع وعودوا المريض.

[2] صحيح مسلم-باب فضل عيادة المريض.حدثني محمد بن حاتم بن ميمون،حدثنا بهز،حدثنا حماد بن سلمة،عن ثابت،عن أبي رافع،عن أبي هريرة،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن الله تعالى يقول يوم القيامة:يا ابن آدم!مرضت فلم تعدني،قال:يا رب!كيف أعودك؟وأنت رب العالمين،قال:أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده،أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟يا ابن آدم!استطعمتك فلم تطعمني،قال:يا رب!وكيف أطعمك؟وأنت رب العالمين،قال:أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟يا ابن آدم!استسقيتك فلم تسقني قال:يا رب!كيف أسقيك؟وأنت رب العالمين،قال:استسقاك عبدي فلان فلم تسقه،أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي).

لا حول لهم ولا قوة,وكانت معاهدة حزب الفضول التي شارك فيها النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية,وبعد البعثة النبوية جعل تنفيذها فرضاً عليه,كانت أيضا بغـرض حماية الموالي والعبيد والحفاظ علي حقوقهم,ولهذا كان عبيد قريش ومواليـها وإماؤهـا أسرع في إتباع الإسلام من سادة قريش,وبالتالي كان زيد بـن حارثـة,وخبـاب بـن الأرت,وبلال الحبشي,وياسر اليمني,وعمار وصهيب الرومي وأبو فكيهة,وعـامر بـن فهيرة وسالم رضي الله عنهم من العبيد,ولبينة,وزنيرة,ونهدية,وأم عبيس,وسمية رضـي الله عنهن من الإماء الذين لجأوا إلى حضـن الإسـلام قبـل الجميـع,وقـد تحملـوا جميعاً,باستثناء زيد بن حارثة الذي تربى في كنف الرسول صلى الله عليه وسلم محنـاً وابتلاءات صعبة في حب الإسلام,وبعضهم جاد بروحه .

لقد جعل الإسلام من تحرير العبيد ومعاملتهم معاملة حسنة جزءاً لا يتجزأ مـن حركته(مهامه),وجعل تحرير العبيد عملاً مجزول الثواب,وجاء في سورة البلـد التـي نزلت في مكة المكرمة أن من بين الأعمال ذات الأجر العظيم(فك رقبة),وهكذا وبالرغم من حياة مكة التي تحفها المخاطر فإن السيدة خديجة رضي الله عنها وسيدنا أبـا بكـر رضي الله عنه وغيرهما من الأثرياء أشتروا كثيراً من العبيد وأعتقوهم .

ثم تطورت هذه الحركة وازدهرت فـي المدينـة المنـورة,وأصبـح(تحريـر رقبة)كفارة لكثير من الأخطاء والهفوات,وأعلن الإسلام عن أمور ترغيبية كثـيرة مـن أجل تحرير العبيد,واستجاب الصحابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه,وخـلال أيام قليلة أصبح حال العبيد غير الحال,فحرر سيدنا حكيم بن حزام الذي أسلم بعد فتـح مكة مائة من العبيد[1],وأعتقت السيدة عائشة رضي الله عنها أربعين عبداً فـي كفـارة واحدة,وأعتق سيدنا عبد الله بن عمر ألفاً,وسيدنا عبد الرحمـان بـن عـوف ثلاثيـن ألفاً[2],وبعد نزول الحكم بمنع الشرك كان الحكم الثاني أن يحسن إلى عباده,وكان علـى رأس قائمة أولئك العباد هذه الفئة المظلومة,قال تعالى:

" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمسـاكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم والله لا يحب من كان مختالاً فخوراً " (النساء : ٣٦) .

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الإيمان .

[2] هذان العددان ذكرهما أمير إسماعيل في شرح بلوغ المرام – كتاب العتق .

والفئة الأخيرة في الآية هي التي يطلقون عليها العبيد،لكن الإسلام منع من ذلك،وقال صلى الله عليه وسلم:لا يقل أحدكم لغلامه عبد،وإنما يقول(فتاي)،وبنفس الطريقة منع العبيد من أن يقولوا لأسيادهم(رب)،وإنما يقولوا(مولى)([1])،وهكذا قضى على ألفاظ الذل هذه،وقال صلى الله عليه وسلم إن هؤلاء الذين تدعونهم عبيداً هم أخوة لكم جعلهم الله تحت إمرتكم،ومن جعل الله أحداً تحت إمرته فليطعمه مما يأكل و ليكسه مما يلبس،ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق،وإن كلفه بعمل شاق فليعينه عليه ([2]) .

وقد سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم طبقاً لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا إلى درجة أصبح من الصعب التفرقة بين العبيد وأسيادهم([3])،وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الأشخاص الذين لا حول لهم أفراداً وأعضاءاً من أسر أسيادهم وليس عبيداً في بيوتهم،بأن قال إن الذي سيعتق عبداً يصبح مولى له([4])،وقد أمر سيدنا عمر رضي الله عنه في عهد خلافته قادة الجيش أن يعدوا أولئك العبيد من العجم والروم والذين تم عتقهم من بين أفراد أسر أسيادهم،كل واحد من الأسرة التي كان عندها،وإن أراد هؤلاء المعتوقين جعلوا لأنفسهم قبيلة مستقلة([5])،ولقد جعلت هذه التعاليم من أولئك الناس سادة في الإسلام وملوكاً لدول وليس عبيداً،والتاريخ الإسلامي مليئ بمثل هذه الأحداث،وهو ما سيأتي تفصيله في موضعه في الجزء التالي .

حقوق الضيف

رغم أن عبء الضيافة في نظام الحياة الحالي تتحمله الفنادق والمطاعم،إلا أن مكانته في الماضي كانت هامة للغاية،ولا يزال كرم الضيافة حتى الآن موجوداً كجزء

---

[1] صحيح البخاري – كتاب العتق .

[2] صحيح البخاري – الجزء الثاني – كتاب الآداب – باب ما ينهى عن صحيح البخاري – كتاب العتق .

[3] صحيح السباب .

[3] المرجع السابق .

[4] جاء في الحديث:إنما الولاء لمن أعتق،وفي حديث آخر"وانتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله"ويكتب الإمام النووي في شرح الحديث.إنما لحمته كلحمة النسب(صحيح مسلم– كتاب العتق).

وحدثنا يحيى بن يحيى،قال:قرأت على مالك،عن نافع بن أبي عمر،عن عائشة رضي الله عنها:أنها أرادت أن تشتري جارية تعتقها:فقال أهله:نبيعكها على أن ولاءها لنا،فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(لا يمنعك ذلك،فإنما الولاء لمن أعتق).

[5] كتاب الأموال،أبو عبيد قاسم بن سلام–المتوفى عام٢٢٤هـ– طبعة مصر ص٢٣٥.

من الثقافة الشرقية،بينما أبقت المدنية الغربية على مكانة الضيافة العادية أيضاً،وكل إنسان يكون ضيفاً على إنسان آخر في وقت من الأوقات،ولهذا ينبغي أن نقول أن مكانة الضيافة في نظام المجتمع هي بمثابة التبادل الأخلاقي،فإذا نحن اليوم أكرمنا ضيفنا واحترمناه فإننا سنلقى منه نفس المعاملة عندما نحل عليه ضيوفاً في الغد،هذا ولم ترد تعاليم الضيافة في أخلاقيات الأديان الأخرى بشكل يجعل لها أهمية خاصة،بينما كان للضيف عند العرب حقوق عظيمة،فقد كان المضيف يعتبر خدمة الضيف وحمايته فرضاً عليه،ولما جاء الإسلام زاد من أهمية هذا الغرض،وقد جاء ذكر ضيوف سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن المجيد في الآيات التالية من سورة(الذاريات)يقول تعالى :

" هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين،إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً،قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين،فقربه إليهم قال ألا تأكلون،فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف و بشروه بغلام عليم " (الذاريات : ٢٧).ويمكن أن نستنتج من هذه القصة آداب الضيافة كما يلي :

١- ينبغي أن تكون بداية الحديث بين الضيف والمضيف بالسلام المتبادل .

٢- يجب الإعداد لإطعام الضيف فوراً،لأن معنى(الروغان)هو السرعة .

٣- من بين معاني(الروغان)هو الذهاب خفية أو النظر خفية أيضاً،ولهذا يجب أن يكون إعداد الطعام بعيداً عن أنظار الضيف،لأن الضيف إن علم أن طعاماً يعد من أجله ربما منع من ذلك تكلفاً،ولهذا لم يقل سيدنا إبراهيم عليه السلام لأهله أن أعدوا الطعام،وإنما ذهب بنفسه خفية لإعداده .

٤- لا بد من العمل بشكل من الأشكال على ترك فرصة للضيف يختلي فيها بنفسه لفترة وجيزة حتى يستريح،وألا يشعر بحرج في قضاء حاجاته،ولهذا ترك سيدنا إبراهيم عليه السلام ضيوفه بغرض إعداد الطعام .

٥- يجب أن نقدم للضيف أحسن الطعام،ولهذا ذبح سيدنا إبراهيم عليه السلام لضيفه عجلاً سميناً .

٦- يجب أن يقدم الطعام أمام الضيوف،ولا يؤمروا بتناوله،ولهذا قال سيدنا إبراهيم عليه السلام لضيفه لماذا لا تأكلون،ولم يقل كلوا أيها الناس .

٧- يجب أن نفرح إذا أكل الضيف ونحزن إذا لم يأكل،لأن البخلاء وإن كانوا يقدمون الطعام إلى ضيوفهم أيضاً لكنهم يودون لو أن الضيف لا يأكل حتى يتناول هو وأهله

وأولاده هذا الطعام.ولهذا حين رفض ضيوف إبراهيم تناول الطعام لم يستحسن سيدنا إبراهيم ذلك،وخشى أن يكون هؤلاء أعداءً .

٨- في حالة عدم تناول الضيوف للطعام يجب عليهم الاعتذار بأسلوب جيد،ولهذا قالت الملائكة لإبراهيم لا تخف إن لم نأكل،لأننا لا نأكل ولا نشرب،وإنما جئنا لنبشرك بولادة ابن نجيب .

كما يعلم من القصة التي وردت في سورة الحجر عن ضيوف سيدنا لوط عليه السلام من الملائكة أن المضيف يكون مسئولاً عن احترام الضيف وإكرامه،وتقديم كل وسائل الراحة له،وإذا ما أهان شخص الضيف يكون فرضاً على المضيف أن يدافع عن ضيفه،لأن إهانة الضيف إهانة للمضيف،ولهذا عندما أراد قوم لوط التعامل مع أولئك الملائكة الضيوف بسلوك مشين فإن سيدنا لوطاً قال :

" قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون،واتقوا الله ولا تخزون " (الحجر : ٦٨) .

كانت هذه كلها إشارات ضمنية في القرآن الكريم،لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم صرح بأهمية حسن الضيافة في مكارم الأخلاق بشكل جعلها جزءاً من الإيمان الكامل،وأن الشخص الذي يؤمن بالله واليوم الآخر عليه أن يحترم جاره،والذي يؤمن بالله واليوم الآخر عليه أن يكرم ضيفه،وقيل لرسول الله ما مدى هذا الإكرام يا رسول الله،فقال:يوم وليلة،والضيافة ثلاثة أيام،وسيكون هذا صدقة له على ضيفه([1]).كما قال صلى الله عليه وسلم كذلك:من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل قرابته([2]) .

---

[1] البخاري–كتاب الأدب–باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.حدثنا عبد الله بن يوسف:حدثنا الليث قال:حدثني سعيد المقبري،عن أبي شريح العدوي قال:سمعت أذناي،وأبصرت عيناي،حين تكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته).قال:وما جائزته يا رسول الله؟قال:(يوم وليلة،والضيافة ثلاثة أيام،فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

[2] البخاري–كتاب الأدب–باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه،وقوله تعالى:ضيف إبراهيم المكرمين .حدثنا عبد الله بن محمد:حدثنا هشام:أخبرنا معمر،عن الزهري،عن أبي سلمة،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) .

وجاء في حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب عند عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وقال:"علمت أنك تصلي الليل بطوله،وتصوم النهار بطوله،فقال عبد الله:نعم،فقال صلى الله عليه وسلم:لا تفعل ذلك،ولكن صل ونم،وصم وافطر،لأن لجسدك عليك حقاً ([1]) " .

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم:ضيافة ليلة واجبة،فإذا ما بقي الضيف أكثر من ذلك عند المضيف فإن ذلك قرض عليه،إن شاء استرده المضيف وإلا تركه([2]).

ولأن النزول في ضيافة أحد يسبب له على أية حال بعض التعب،ولأن تناول طعام الآخرين هكذا دون سبب يخالف الحمية الإنسانية والإسلامية،لهذا كان من الضروري أنه مثلما قبل للمضيف بأن يكرم ضيفه ويقدم له واجب الضيافة أن يقال للضيف أيضاً أن لا يستغل ضيافة الآخرين له أكثر من اللازم،ولهذا جاء في الأحاديث صراحة أنه لا يجب أن يبقى الضيف في ضيافة أحد أكثر من ثلاثة أيام،لأن هذا يؤدي إلى إرهاق المضيف ويصير عبئاً عليه([3])،وما عدا ذلك تصبح الضيافة أكثر من ثلاثة أيام صدقة،وهو ما لن يستحسنه الضيف صاحب الكرامة .

الحقوق البينية للمسلمين

(حقوق المسلمين فيما بينهم)

كان العرب قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم يتربصون ببعضهم البعض بداية من الأطفال وحتى القبيلة ككل،كل منهم عدو الآخر،ويمتد الثأر لمقتل واحد إلى أجيال عديدة،وهكذا كانت المعارك لا تتوقف بين العائلات،وكل فرد يرى نفسه محاطاً

---

[1] البخاري–كتاب الأدب–باب حق الضيف.حدثنا إسحق بن منصور:حدثنا روح بن عبادة:حدثنا حسين،عن يحيى بن أبي كثير،عن أبي سلمة بن عبد الرحمن،عن عبد الله بن عمرو قال:دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار).قلت:بلى،قال:(فلا تفعل،قم ونم،وصم وأفطر،فإن لجسدك عليك حقاً،وإن لعينك عليك حقاً،وإن لزورك عليك حقاً،وإن لزوجك عليك حقاً،وإنك عسى أن يطول بك عمر،وإن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام،فإن بكل حسنة عشر أمثالها، فذلك الدهر كله).

[2] ابن ماجه–كتاب الأدب–باب حق الضيف.حدثنا علي بن محمد،حدثنا وكيع،حدثنا سفيان،عن منصور،عن الشعبي،عن المقدام أبي كريمة،قال:قال رسول الله:ليلة الضيف واجبة،فإن أصبح بفنائه فهو دين عليه،فإن شاء اقتضى،وإن شاء تركه

[3] البخاري–كتاب الأدب–باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه.حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن سعيد بن أبي سعيد المقبري،عن أبي شريح الكعبي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،جائزته يوم وليلة،والضيافة ثلاثة أيام،فما بعد ذلك فهو صدقة،ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه).

بالمخاطر دائماً،ولهذا فهو في حالة انتباه دائم قائماً وقاعداً ونائماً خوفاً من أن يهاجمه أحد،ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بصلة أخرى أقوى من صلة الدم وهي صلة الدين التي جمعت بين من تفرقوا أزماناً،وجعلت من الأعداء إخواناً،وخلقت بين القبائل والعائلات توافقاً وتناغماً يعتمد على الأخوة الإسلامية أكثر من أخوة العائلة والقبيلة نفسها وهذا التوافق والتناغم هو الذي قضى على العداوة التي كانت قائمة بينها وأنساهم هذه العداوة حتى أصبحوا إخوة متحابين حقيقة.يقول تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون،واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا،واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً " (آل عمران : ١٠٣) .

وقد أنزل الله تعالى كرمه وفضله على المسلمين في شكل هذا الحب المتبادل بينهم،وقال بأنه لو أنفق أحد كل ثروة الأرض ليجمع بين هؤلاء الأعداء ما استطاع ذلك:

" وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم،ولكن الله ألف بينهم،إنه عزيز حكيم " (الأنفال : ٦٣) .

والآن يجب على المسلمين أن يقدروا هذا الفضل من الله تعالى،وأن يتمسكوا بحبل الله تعالى الذي هو أصل ارتباطهم،وأن لا يدعوا الاختلاف فيما بينهم يفرقهم،لأن قوة هذا الحبل الذي يربطهم قائمة طالما تمسك به الجميع،يقول تعالى :

" وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " (الأنفال : ٤٦) .

وهذا الاتحاد والاتفاق بين المسلمين هو عماد الملة الإسلامية،ورباط جماعة المسلمين،وينبغي أن تكون نتيجة قوة هذا الرباط هي المحبة والألفة بين المسلمين،وإن حدث بينهم خلاف ذات مرة فإن وسيلة القضاء عليه هي أن يرجع الطرفان إلى حكم الله ورسوله:فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول " (النساء : ٥٩) .

فإذا ما تطور هذا الخلاف حتى وصل إلى مرحلة الحرب فإنه من الفرض على المسلمين حينئذٍ أن يجتمعوا ليقاتلوا الفئة التي بغت على الأخرى ويجبروها على الصلح،فإذا ما رضيت به عقدوا بينهما صلحاً مبنياً على العدل والإنصاف :

" وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما،فإن بغت إحداهما علـــى الأخــرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله،فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسـطوا إن الله يحب المقسطين،إن المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم " (الحجرات : ١٠) .

وقد دلنا الجزء الأخير من الآية أن المسلمين تربطهم رابطـــة الأخـــوة،وهـــذه الرابطة لا تنقطع حتى بالحرب وإسالة الدماء،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم في معنى الآيات السابقة :

" انصر أخاك ظالماً ومظلوماً "(البخاري)،فقـــال الصحابـــة:يـــا رســـول الله ننصـــره مظلوماً،فكيف ننصره ظالماً،قال:تكف يده عن الظلم " .

وأياً كان الكافر والعدو،ومهما اشتد كفره وعداوته،فإنه يصبح أخاً لنا في الديـــن بمجرد نطقه الشهادتين وقبوله للإسلام وشريعته،قال تعالى :

" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين " (التوبة : ١١) .

حتى العبد إن نطق بالشهادتين وأسلم فإنه حينئذٍ ينضوي تحت لواء الإسلام،وإن كان مجهول الأب والنسب فلا حرج،إذ أنه بإسلامه أصبح أخاً مسلماً للمســـلمين،يقـــول تعالى :

" فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم " (الأحزاب : ٥) .

حتى عندما يقتل مسلم مسلماً فإن الله تعالى يؤكد لأقارب القتيـــل علـــى أخـــوة المقتول،ويحثهم على الرحمة و الرأفة،يقول تعالى :

" فمن عفي له من أخيه شيء " (البقرة : ١٧٨) .

ويحرم على المسلم اغتياب أخيه لأنه :

" أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً " (الحجرات : ١٢) .

والحفاظ علي مال اليتيم وحسن إدارته فرض على الأوصياء,وإن اعتبر الوصي هذا اليتيم فرداً من أسرته وكان حسن النية في ذلك,وأصبح الإنفاق مشتركاً فـــإن هـــذا أيضا صحيح,لأنه أخوه الذي فرض عليه حب الخير لأخيه.قال تعالى:"وأن تخـــالطوهم فإخوانكم"(البقرة:٢٢٠).

وللمسلم على أخيه المسلم حق الدعاء له بظهر الغيب فيقول كما يقول تعالى :

" ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان " (الحشر : ١٠) .

أما أن يحمل المسلم لأخيه المسلم ضغينة في قلبه فذلك سيئة ينبغي على العبد لكي يتخلص منها أن يتوسل إلى الله تعالى ويستغفره منها داعياً الله تعالى أن :

" ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم " (الحشر : ١٠) .

إذ أن صفة المسلمين هي أنهم يتعاملون فيما بينهم برحمة وشفقة مثلما مدحهم الله تعالى بقوله :

" رحماء بينهم " (الفتح : ٢٩) .

وينبغي أن تكون صفة المسلمين أن يترفقوا في تعاملهم مع المسلمين ويحسنوا لقاءهم في تواضع :

" أذلة على المؤمنين " (المائدة : ٥٤) .

وقد أكد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الأخوة والمحبة والشفقة بين المسلمين وزادها توضيحاً فقال :

" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى([1]),وهناك رواية أخرى وردت في صحيح مسلم يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" المسلمون مع بعضهم مثل الرجل الواحد إن تألمت عينه تألم لها سائر بدنه,وإن تألم رأسه تألم له سائر بدنه " ([2]) .

والقصد هو أن الأمة المسلمة مثل الجسد الواحد,وأفرادها أعضاؤه,وإذا تألم عضو من هذه الأعضاء تألمت له سائر الأعضاء وشاركوه في ألمه,وينبغي أن يكون حال المسلمين هكذا,إذا تألم أحدهم شعر سائر المسلمين بألمه هذا.وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالاً آخر لهذا الأمر فقال :

---

[1] صحيح البخاري-الجزء الثاني-ص-٨٣٢-كتاب الأدب,وصحيح مسلم-الجزء الثاني-ص-٣٨٩-كتاب البر والصلة والآداب.حدثنا أبو نعيم:حدثنا زكرياء،عن عامر قال:سمعته يقول:سمعت النعمان ابن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ترى المؤمنين:في تراحمهم،وتوادهم،وتعاطفهم،كمثل الجسد،إذا اشتكى عضو،تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى).

[2] صحيح مسلم-الجزء الثاني-ص-٣٨٩_طبعة مصر-كتاب البر والصلة والأدب.حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير،حدثنا حميد بن عبد الرحمن،عن الأعمش،عن خيثمة،عن النعمان بن بشير،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(المسلمون كرجل واحد،إن اشتكى عينه،اشتكى كله،وإن اشتكى رأسه،اشتكى كله).

" المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً "[1].وجاء في البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا وشبك بين أصابعه الشريفة ليريهم كيف تقوي الأجزاء بعضها،وفي هذا المثال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مثلما تقوي الأحجار بترابطها فيما بينها الجدار فيصبح قوياً لا يمكن هدمه،كذلك الجماعة الإسلامية،فإنها كالقلعة كل مسلم فيها عبارة عن حجر من أحجارها،وتظل هذه القلعة قائمة طالما كانت أحجارها متصلة ببعضها البعض،وحين تهتز هذه الأحجار من أماكنها وتختل ينهار الجدار كله.وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع آخر:"المسلم أخ المسلم لا يظلمه،ولا يحقره ولا يتركه بغير عون،وما أسوأ أن يحقر المسلم أخاه المسلم،كل المسلم على المسلم حرام،دمه،وماله وعرضه"[2].وهذه رواية صحيح مسلم،بينما جاء في أبي داود أنه صلى الله عليه وسلم قال:

" المسلم أخ المسلم،لا يظلمه،ولا يسلمه،وكان الله في عون العبد طالما كان العبد في عون أخيه،ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كرب يوم القيامة،ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة ".وفي رواية أخرى لأبي داود يقول صلى الله عليه وسلم:

" من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كرب يوم القيامة،ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة،وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ".وقال صلى الله عليه وسلم:"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[3].وهذه رواية في صحيح البخاري.

---

[1] صحيح البخاري–كتاب الآداب–الجزء الثاني–ص–٨٩،وصحيح مسلم–كتاب البر والصلة والآداب–الجزء الثاني–ص–٣٨٩– طبعة مصر.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،وأبو عامر الأشعري،قالا:حدثنا عبد الله بن إدريس وأبو أسامة.وحدثنا محمد بن العلاء،أبو كريب،حدثنا ابن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة،كلهم،عن بريد،عن أبي بردة،عن أبي موسى،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(المؤمن للمؤمن كالبنيان،يشد بعضه بعضاً) .

[2] صحيح مسلم–الكتاب المذكور–الجزء الثاني–ص–٣٨٢– طبعة مصر.حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب،حدثنا داود يعني ابن قيس عن أبي سعيد،مولى عامر بن كريز،عن أبي هريرة،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا تحاسدوا،ولا تناجشوا،ولا تباغضوا،ولا تدابروا،ولا يبع بعضكم على بيع بعض،وكونوا،عباد الله إخواناً،المسلم أخو المسلم،لا يظلمه،ولا يخذله،ولا يحقره،التقوى ههنا)،ويشير إلى صدره ثلاث مرات:(بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم،كل المسلم على المسلم حرام،دمه وماله وعرضه).

[3] صحيح البخاري–كتاب الإيمان–الجزء الأول–ص–١٣.حدثنا أبو نعيم:حدثنا زكرياء،عن عامر قال:سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده،والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه

وفي رواية أخرى سأله الناس:يا رسول الله،من هو أفضل المسلمين،فقال صلى الله عليه وسلم:من سلم المسلمون من لسانه ويده [1] . يعني أن المسلم الذي لا يؤذي المسلمين سواء بيده أو بلسانه هو أفضل المسلمين .

يقول الصحابي المعروف جرير بن عبد الله بجلي:"بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أمور،إقامة الصلاة،وإيتاء الزكاة،وخدمة كل مسلم".وجاء في روايات عديدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"[2].وذلك لأن الله تعالى أمر بالحب والأخوة والسلام بين المسلمين،ومن يخالف ذلك فإنه بذلك لا يطيع أمر الله،وهذا في ذاته نوع من إنكار الله،ولهذا جاء في القرآن الكريم أن جزاء قتل المسلم بغير حق وعن عمد هو نفس الجزاء المقرر للكفار،قال تعالى :

" ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها،وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً " (النساء : ٩٣) .

وفي خطبة حجة الوداع الهامة أسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أولاً،ثم قال :

" انظروا،لا تنقلبوا بعدي كفاراً فيقتل بعضكم بعضاً "[3].وقال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر:"من يرفع السلاح علينا فليس منا"[4].إذ الروح شيء عظيم،وتعقب محارم المسلم ذنب عظيم،فقال صلى الله عليه وسلم"أكبر الرياء هو التعدي على حرمات

---

[1] صحيح البخاري–كتاب الإيمان–الجزء الأول–ص–١٢.حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد القرشي قال:حدثنا أبي قال:حدثنا أبو بردة بن عبد الله بن أبي بردة،عن أبي بردة،عن أبي موسى رضي الله عنه قال:قالوا:يا رسول الله،أي الإسلام أفضل؟قال:(من سلم المسلمون من لسانه ويده).

[2] صحيح البخاري–كتاب الإيمان–الجزء الأول–ص–١٢١–والجزء الثاني–ص–٨٩٢حدثنا محمد بن عرعرة قال:حدثنا شعبة،عن زبيد قال: سألت أبا وائل عن المرجئة فقال:حدثني عبد الله:أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(سباب المسلم فسوق،وقتاله كفر).

[3] صحيح البخاري–كتاب الإيمان–ص–٢٣.حدثنا محمد بن بشار:حدثنا غندر:حدثنا شعبة،عن علي بن مدرك قال:سمعت أبا زرعة بن عمرو بن جرير،عن جرير قال:قال لي النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع:(استنصت الناس،لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).رواه أبو بكرة و ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم.

[4] صحيح البخاري–كتاب الديات–الجزء الثاني–ص–١٠١٥،وكتاب الفتن–الجزء الثاني–ص–١٠٤٠.حدثنا موسى بن إسماعيل:حدثنا جويرية،عن نافع،عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من حمل علينا السلاح فليس منا).رواه أبو موسى،عن النبي صلى الله عليه وسلم.

المسلم"([1])،فلو وقع مسلم في أمر يخشى معه على عرضه فإنه من الفرض على كل مسلم أن يعمل على إنقاذه،فقال صلى الله عليه وسلم:"من تخلى عن مسلم ولم يعنه في موضع يخشى فيه على عرضه ويعتدي عليه فيه فإن الله سوف يتخلى عنه في موضع مثله،ومن ساعد مسلماً في مثل هذا الموضع فإن الله سيساعده في موضع مثله"([2])،ولو هجر مسلم مسلماً لم يكلمه لسبب من الأسباب،فإن الرسول صلى الله عليه وسلم منع أن يمتد هذا الهجر إلى أكثر من ثلاثة أيام،فقال صلى الله عليه وسلم"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم أكثر من ثلاثة أيام،هذا يُعرض،وهذا يعرض،وخيرهم من بدأ بالسلام"([3])،وقال صلى الله عليه وسلم في رواية من طريق آخر"لا تباغضوا،ولا تحاسدوا،ولا يغتب بعضكم بعضا،ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام"([4]).

وليس لدى المسلم أغلى وأهم من عرضه وكرامته وشرفه إلا إيمانه،وقد قال القرآن الكريم :

" ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا " (النساء : ٩٤) .

والمقصود أنه لا يحق لمسلم أن يقول لمن قال عن نفسه أنه مسلم أو ادعى الإسلام إنك غير مسلم،وفي معركة من المعارك هجم صحابي على كافر،فنطق هذا الكافر بالشهادتين،لكن الصحابي قتله،ووصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستدعى الصحابي وسأله،فقال الصحابي:يا رسول الله،لقد نطق بالشهادتين خوفاً،فقال صلى الله عليه وسلم في أسلوب بليغ:وماذا ستفعل مع لا إله إلا الله التي قالها؟"،وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم:هلا شققت عن قلبه"([5]).وذات مرة قال صلى الله

---

[1] سنن أبي داود – كتاب الأدب – الجزء الثاني – صـ ١٨٩ .

[2] المرجع السابق .

[3] صحيح البخاري–كتاب الأدب–الجزء الثاني–صـ٩٢١،وسنن أبي داود–كتاب الأدب–الجزء الثاني–صـ١٩٢.حدثنا عبد الله بن مسلمة،عن مالك،عن ابن شهاب،عن عطاء بن يزيد الليثي،عن أبي أيوب الأنصاري،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا،وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

[4] صحيح البخاري–كتاب الأدب–الجزء الثاني–صـ٨٩٦.حدثنا عبد الله بن مسلمة،عن مالك،عن ابن شهاب،عن أنس بن مالك،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لا تباغضوا،ولا تحاسدوا،ولا تدابروا،وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال.

[5]جاءت الرواية الأولى في صحيح البخاري غزوة حرقات،وكتاب الديات،وانظر الرواية الثانية في فتح الباري كتاب الديات شرح الحديث المذكور.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،حدثنا أبو خالد الأحمر.وحدثنا أبو كريب وإسحاق بن

عليه وسلم"لعن المؤمن أو اتهامه بالكفر بمثابة قتله"[1]،كما قال صلى الله عليه وسلم"من كفر مسلماً باء بها أحدهما"[2]،بمعنى أنه إن لم يكن في الحقيقة كافراً فإنه بذلك قد قال لمسلم إنه كافر،وهذه في ذاتها درجة من الكفر،وتأتي درجة المال بعد النفس والإيمان والعرض،وقد قال صلى الله عليه وسلم:"من أقسم ألا يعطي مسلماً حقه أوجب الله له جهنم وحرم عليه الجنة،فقال رجل:يا رسول الله حتى ولو كان شيئاً بسيطاً،فقال صلى الله عليه وسلم:حتى ولو كان فرع شجرة"[3]،وقال صلى الله عليه وسلم"للمسلم على أخيه المسلم خمسة حقوق،أن يرد عليه السلام،وأن يشمته إذا عطس،وأن يقبل دعوته،وأن يعوده إذا مرض،وأن يمشي في جنازته إذا مات"[4]،بمعنى أن هذا هو الحد الأدنى من الحقوق والتي يمكن من خلالها تصور حسن العلاقة والخلق في التعامل بين اثنين من المسلمين.وقد قال صلى الله عليه وسلم"عندما يعود المسلم أخاه المسلم المريض فإنه يكون على طريق الجنة إلى أن يعود"[1]،ويقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن

إبراهيم،عن أبي معاوية،كلاهما عن الأعمش،عن أبي ظبيان،عن أسامة بن زيد،وهذا حديث ابن أبي شيبة،قال:بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة،فأدركت رجلاً فقال:لا إله إلا الله.فطعنته فوقع في نفسي من ذلك.فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم.فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:أقال:لا إله إلا الله وقتلته؟قال:قلت:يا رسول الله!إنما قالها خوفاً من السلاح.قال:أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟

[1] صحيح البخاري-كتاب الأدب-الجزء الثاني-ص٨٩٣.حدثنا سليمان بن حرب:حدثنا شعبة،عن منصور قال:سمعت أبا وائل يحدث عن عبد الله قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر).

[2] المرجع السابق.حدثنا أبو معمر:حدثنا عبد الوارث،عن الحسين،عن عبد الله بن بريدة،حدثني يحيى بن يعمر:أن أبا الأسود الديلي حدثه،عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق،ولا يرميه بالكفر،إلا ارتدت عليه،إن لم يكن صاحبه كذلك).

[3] صحيح مسلم-كتاب الإيمان-الجزء الأول-ص٦٥-طبعة مصر.حدثنا يحيى بن أيوب،وقتيبة بن سعيد،وعلي بن حجر،جميعاً عن إسماعيل بن جعفر.قال ابن أيوب:حدثنا إسماعيل بن جعفر،أخبرني العلاء وهو ابن عبد الرحمن مولى الحرقة عن معبد بن كعب السلمي،عن أخيه عبد الله بن كعب،عن أبي أمامة،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه،فقد أوجب الله له النار،وحرم عليه الجنة فقال له الرجل:وإن كان شيئاً يسيراً،يا رسول الله؟قال:وإن قضيباً من أراك

[4] سنن أبي داود-كتاب الأدب-الجزء الثاني-ص٣٠١.حدثنا محمد بن داود بن سفيان وخشيش بن أصرم قالا:ثنا عبد الرزاق،أخبرنا معمر،عن الزهري،عن ابن المسيب،عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:خمس تجب للمسلم على أخيه:رد السلام،وتشميت العاطس،وإجابة الدعوة،وعيادة المريض،واتباع الجنازة

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"من سار في جنازة أحد بإيمان وإخلاص حتى صلى عليه وفرغ من دفنه فإن له قيراطين من الثواب،كل واحد منهما كجبل أحد"[2]،بمعنى أن هذا القيراط لن يكون بحساب الدنيا،وإنما يكون بحساب أن كل ذرة منه تساوي جبل أحد في عظمتها وضخامتها .

كل هذه الحقوق،والتي لا يمكن الإحاطة بها وبجزئياتها كاملة،ما هي إلا نتيجة لتلك الألفة والمحبة الأخوية التي لا يكتمل بدونها إيمان المؤمن،ولهذا خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الموحدين بقوله:"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[3].المهم أن يحب كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية للفرد الآخر كما يحب نفسه،ويعتبر نفعه نفعاً له،وضرره ضرراً له .

وعند أبي داود " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:المسلم مرآة المسلم،والمسلم أخ المسلم يدفع عنه الضرر،ويحفظه من خلفه "[4]،فانظر كيف أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم عمارة الجماعة الإسلامية على أسس مستحكمة قوية،فإذا ما طبقنا كل هذا اليوم فلن تبقى جدران هذه العمارة مهترئة كما هي عليه اليوم،وكل جماعة في العالم بنيت على هذا الأصل،وستبنى عليها الجماعات مستقبلاً .

حق الأخوة الإسلامية

---

[1] صحيح مسلم-الجزء الأول-ص-٣٨٤-كتاب البر والصلة.حدثنا يحي بن حبيب الحارثي،حدثنا يزيد بن زريع حدثنا خالد،عن أبي قلابة،عن أبي أسماء الرحبي،عن ثوبان،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم،لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع).

[2] صحيح البخاري-كتاب الإيمان-الجزء الأول-ص-٦٥-طبعة مصر.حدثنا أحمد بن عبد الله بن علي المنجوفي قال:حدثنا روح قال:حدثنا عوف،عن الحسن ومحمد،عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من اتبع جنازة مسلم،إيمانا واحتسابا،وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها،فإنه يرجع من الأجر بقيراطين،كل قيراط مثل أحد،ومن صلى عليه ثم رجع قبل أن تدفن،فإنه يرجع بقيراط).تابعه عثمان المؤذن قال:حدثنا عوف عن محمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

[3] صحيح البخاري- كتاب الإيمان-الجزء الأول-ص-٦.حدثنا مسدد قال:حدثنا يحيى،عن شعبة،عن قتادة،عن أنس رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم.وعن حسين المعلم قال:حدثنا قتادة،عن أنس،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

[4] سنن أبي داود-كتاب الأدب-الجزء الثاني-ص-١٩٢،وهناك اختلاف بين الشراح في معنى الفقرة الثالثة من الحديث.حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن،ثنا ابن وهب،عن سليمان يعني ابن بلال عن كثير بن زيد،عن الوليد بن رباح،عن أبي هريرة،عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:المؤمن مرآة المؤمن،والمؤمن أخو المؤمن:يكف عليه ضيعته،ويحوطه من ورائه.

ولكل إنسان على الآخر بعض الفرائض باعتبار الأخوة الإسلامية،وهذه الفرائض يتوجب على كل مسلم أداؤها كفرض ديني،ومن بين أسباب تبليغ الإسلام ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام بالإضافة إلى أسباب أخرى أن الشيء الذي يعتقد المسلم أنه صدق يصبح فرضاً إنسانيا عليه أن يعلم به الآخرين،وهذا نتيجة حتمية لحب الخير للإنسانية،هذا وقد كرر القرآن الكريم بعض أحكام التوراة،ومن بينها الحكم التالي:
" وقولوا للناس حسنا " (البقرة : ٨٣) .

والقول الحسن للناس والتعامل الحسن معهم هو فرض إنساني لا يتوقف على دين أو مذهب بعينه،ولا يمنع منه اختلاف العرق والجنس والقومية والدين،ولهذا قال تعالى :

" ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا،اعدلوا هو اقرب للتقوى " (المائدة : ٨) .

ولهذا فإن السبب الرئيسي في المعاملة السيئة القاسية من جانب إنسان تجاه إنسان آخر،ومن جانب أمة تجاه أمة أخرى هو أنهم لا يحققون العدل في تعاملهم،وإنما هم على استعداد دائم للظلم وعدم الإنصاف،وهذه الآية الكريمة تغلق منابع المواد الفاسدة لدى الإنسان،وقد روي عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا أنس بن مالك رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا "(البخاري – ٢) .

وجاء الحديث بألفاظ أخرى في رواية ثانية هكذا:"لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " (البخاري) .

لقد رسمت في هذا الحديث خريطة للإخوة الإنسانية لو سرنا بصدق طبقاً لها لتحولت هذه الدنيا التي تمتلئ فساداً و شراً إلى جنة " من لا يرحم لا يرحم "(البخاري)،أي من لا يرحم العباد لا يرحمه الله،أو أن من لا يرحم الآخرين لا يرحمه الآخرون أيضاً،وجاء في مستدرك الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"([1])،وهذا الحديث يظهر وبقوة شأن

[1] مستدرك الحاكم-كتاب البر والصلة-الجزء الرابع-ص١٥٩.فأخبرناه أبو النضر الفقيه،وأبو الحسن العنزي قالا:ثنا عثمان بن سعيد،ثنا علي بن المديني،ثنا سفيان،عن عمرو بن دينار،عن أبي قابوس قال:سمعت عبد الله بن عمرو يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال:الراحمون يرحمهم الله ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله ومن قطعها قطعه

الرحمة في تعاليم رحمة العالمين رسول الله صلى الله عليه وسلم،وقال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر:"إن المسلم الذي يغرس شجرة يناله ثواب كل من يأكل منها سواء كان إنسانا أم طيراً"(البخاري)،وليس على الإنسانية قيد في هذا الخير العام .

ذات مرة حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة رجل سلك سلوكاً طيباً مع حيوان فناله من ذلك ثواب،فسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا رسول الله،هل نأخذ ثواباً على التعامل الحسن مع الحيوان أيضاً؟،فقال صلى الله عليه وسلم:تأخذون الثواب على التعامل الحسن مع كل ذي كبد رطب"([1])(البخاري)،ويشترك في هذا الثواب كل ذي روح .

وقد جاء في جامع الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه:"اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها،وعامل الناس بخلق حسن"(باب ما جاء في معاشرة الناس،صفحة ٣٣١)،يقول أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة ذكر خمسة أمور منها"أحب للناس ما تحب لنفسك"([2])،ولفظ الناس لفظ عام يدخل فيه كل البشر،ويفهم من ذلك أنه طالما تغمر عاطفة حب الخير للإنسانية كلها قلب المسلم فإنه لا يكون مسلماً كاملاً،لأن حب الخير للآخرين مثلما تحبه لنفسك هو تعليم أخلاقي يعد أساس كل حقوق الأخوة الإنسانية،وقد جاءت هذه التعاليم في حديث آخر أن"أحبوا لأخيكم ما تحبوا لأنفسكم"،ويمكن أن يكون المقصود بلفظ(أخ)هنا المسلم وغير المسلم أيضاً،وقد جاءت هذه التعاليم في التوراة والإنجيل أيضاً بأن"أحب لجارك مثلما تحب لنفسك"،وحقوق الجار في الإسلام بيناها في باب سابق،إنما يجب أن نلقي عليها نظرة هنا،إذ أن الصحابة الكرام اتبعوا هذا الأمر

---

[1] جاءت هذه الأحاديث في أبواب مختلفة من كتاب الأدب من الجزء الثاني لصحيح البخاري.حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن سمي،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(بينا رجل يمشي،فاشتد عليه العطش،فنزل بئراً فشرب منها،ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث،يأكل الثرى من العطش،فقال:لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي،فملأ خفه ثم أمسكه بفيه،ثم رقى فسقى الكلب،فشكر الله له فغفر له).قالوا:يا رسول الله،وإن لنا في البهائم أجراً؟قال:(في كل كبد رطبة أجر).

[2] الترمذي–أبواب الزهد–غريب.حدثنا بشر بن هلال الصواف البصري.حدثنا جعفر بن سليمان.عن أبي طارق.عن الحسن عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟فقال أبو هريرة:فقلت:أنا يا رسول الله،فأخذ بيدي فعد خمساً وقال:اتق المحارم تكن أعبد الناس،وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس،وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً،وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً،ولا تكثر الضحك،فإن كثرة الضحك تميت القلب.

وحققوه مع جيرانهم اليهود والنصارى مثلما حققوه مع جيرانهم المسلمين ورغم أن ترجيح المسلمين الفقراء والمساكين على غير المسلمين في باب الصدقات أمر طبيعي،إلا أن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أكد في عهد خلافته على حق فقراء ومساكين أهل الذمة غير المسلمين،وكتب القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج أنه ذات مرة رأى سيدنا عمر رضي الله عنه كهلاً ضريراً يقف على باب بيت المال يطلب منه الصدقة،فجاء سيدنا عمر رضي الله عنه من خلفه وضرب بيده الشريفة على ذراعه وسأله:ما حاجتك إلى طلب الصدقة،فقال:لأؤدي الجزية وأقضي حاجاتي،وبسبب تقدم سني،فأمسك سيدنا عمر رضي الله عنه بيده واصطحبه إلى بيته وأعطاه من بيته،ثم أرسله إلى خازن بيت المال وأمره قائلاً انظر إلى مثل هؤلاء،والله ما أنصفناهم لو أكلنا شبابهم وتخلينا عنهم في شيخوختهم،وقد سمح القرآن الكريم بالصدقة للفقراء والمساكين،والفقراء هم المسلمون والمساكين هم أهل الكتاب فلا تأخذ منه الجزية"[1].

وحكم الإسلام بأنه ما عدا الزكاة يمكن أن نعطي الصدقات لغير المسلمين هو حكم عام،وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة لأسرة يهودية،كما تصدقت أم المؤمنين السيدة صفية رضي الله عنها بثلاثين ألفاً من المال لاثنين من أقاربها اليهود،وقرر الإمام مجاهد أن إسقاط دين الأقارب من المشركين عمل خير يثاب عليه صاحبه،ويقول ابن جريج المحدث أن القرآن الكريم[2]عد إطعام الأسير من أعمال الخير،ومن الواضح أن الأسرى في أيدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا من المشركين،وكان أبو ميسرة،وعمر بن شرحبيل رضي الله عنهما يساعدان رهبان النصارى بصدقة الفطر،كما أهدى سيدنا عمر رضي الله عنه لأخيه المشرك هدية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]،وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه لبعض المشركين بعقد صلة الرحم مع والديهم[4]،وجاء في روايات التفسير أنه عندما

---

[1] كتاب الخراج لأبي يوسف – ص ٧٢ .

[2] سورة الإنسان .

[3] كتاب الأموال – الإمام أبو عبيدة – ص ٦١٢ – طبعة مصر ، و كتاب الجمعة .

[4] مسلم– باب فضل الصدقة على الأقربين.حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري،حدثنا أبي،حدثنا شعبة،عن عدي وهو:وهو:ابن ثابت عن عبد الله بن يزيد،عن أبي مسعود البدري،عن النبي صلى الله عليه وسلم،قال:إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة،وهو يحتسبها،كانت له صدقة.

حدث اختلاف ديني بين الصحابة في أمر مساعدة فقراء المشركين وبدأوا يتخلون عن هذه المساعدة نزلت هذه الآية ([1]):

" ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء،وما تنفقوا من خير فلأنفسكم "(البقرة:٢٧٢) بمعنى أنكم سوف تثابون لعمل الخير علي كل حال،وجاء في مسند أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مخاطباً المسلمين:"لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس ما يحب لنفسه،وحتى يحب المرء لا يحبه إلا لله عز وجل"(الجزء الثالث – صـ ٢٧٢).وقد امتدت المحبة الإنسانية في هذا الحديث لتشمل الإنسانية كلها .

حقوق الحيوان

إن رسالة المحبة و اللطف التي جاء بها الإسلام إلى الدنيا تتسع لتشمل الحيوانات كذلك،وقد أرشد الإسلام من طرق متعددة إلى حسن السلوك مع الحيوانات،وقد كان العرب لفظاظتهم وقسوتهم ينزلون أنواع الظلم بالحيوانات،فكانوا يقتلونها بوحشية،ويقولون للناس كلوها ويعتبرون ذلك كرماً وسخاءً،كان الرجلان يعقدان رهاناً،ويقف كل واحد منهما على الترتيب ليذبح ناقة من نوقه،ومن يتوقف يخسر الرهان،وكانت هذه النوق تقدم طعاماً للأصدقاء والأحباب،وكان هذا يعد من الكرم والسخاء أيضاً،وكل هذه الواقعات وردت في شعر العرب،وكما كان هناك مبدأ آخر وهو أنه عندما يموت أحد فإنهم كانوا يربطون مطيته على قبره،ولا يطعمونها أويسقونها،حتى تموت جائعة على حالتها هذه،وكانوا يطلقون على هذه الحيوانات اسم(بلية)،ولما جاء الإسلام قضى على هذه القسوة،وكان هناك أمر آخر منتشراً بين العرب وهو أن يجعلوا من الحيوانات بعد أن يربطوها أهدافاً يتدربون عليها في رمي السهام،وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول لحوم هذه الحيوانات،إذ لا يتخذ ذو روح هدفاً للرمي([2]).

ذات مرة ربط فتى دجاجة لتكون هدفاً يتدرب عليه في الرمي،وجاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه وأطلق الدجاجة،وأخذها واصطحب الفتى معه إلى أسرته،وقال لهم:امنعوا ولدكم من هذا فقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخاذ الحيوان أو ذي الروح هدفاً للرمي،وهكذا كان هناك بعض الناس يربطون دجاجة كهدف

---

[1] الطبري .

[2] الترمذي–أبواب الصيد،باب ما جاء في كراهة أكل المصبورة–صـ٢٥٥.حدثنا محمد بن عبد الأعلى.حدثنا عبد الرزاق عن الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال:نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ شيء فيه الروح غرضاً.

للرمي،ومر عليهم سيدنا عبد الله بن عمر فتفرقوا،فقال ابن عمر:من فعل هذا؟إن من يفعلون هذا لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم([1])،وكانت هناك طريقة أخرى في نفس السياق أكثر قسوة من الطرق السابقة أنهم كانوا يقطعون سنام الجمل ولية الخروف وهما أحياء ويتناولها،ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ورأى هذا الوضع قال إن من يأكل لحم الحيوان حياً هكذا فهو آكل ميتة([2])،وكانت هذه حالة خاصة،لكنه صلى الله عليه وسلم منع من تناول اللحوم من حيوان حي بقطع أعضائه أو جزء منها وذلك بشكل عام،ولعن من يفعل هذا([3]).كما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قتل حيوان بغير ضرورة يعد ذنباً عظيماً([4])،وجاء في أحد الأحاديث أن من ذبح حيواناً ولو صغيراً بغير حق فإن الله سوف يسأله عنه،فسأل الصحابة قائلين يا رسول الله،وما هو حقه؟قال:أن تذبحه وتأكله،لا أن تقطع رأسه وتلقي به"([5])،ويعلم من هذا الحديث أنه لا يجوز قتل الحيوان الذي لا يؤكل لحمه طالما كان غير متوحش،وجاء في سنن النسائي أن من قتل عصفوراً بغير ضرورة فإنه يأتي يوم القيامة يشكوه قائلاً لقد قتلني فلان بغير ضرورة،ولم تكن هناك فائدة لذلك([6]).فلا يجوز إذا قتل الحيوان الذي لا يؤذي الإنسان أو يفيده،ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل النمل والنحل والهدهد بصفة خاصة ([7]) .

وأما الحيوان الذي يذبح أو يقتل للضرورة فإننا قد أمرنا بأن نسلك معه سلوكاً لينا عند ذبحه أو قتله،جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:"لقد فرض الله الإحسان في كل شيء،فإن قتلتم فأحسنوا القتلة،وإن ذبحتم فأحسنوا الذبحة

[1] البخاري – كتاب الذبائح و الصيد – باب ما يكره من المثلة و المصبورة .

[2] الترمذي – أبواب الصيد – باب ما جاء فيما قطع من الحي فهو ميت .

[3] البخاري–كتاب الذبائح والصيد–باب ما يكره من المثلة والمصبورة.حدثنا أبو النعمان:حدثنا أبو عوانة،عن أبي بشر،عن سعيد بن جبير قال: كنت عند ابن عمر،فمروا بفتية،أو بنفر،نصبوا دجاجة يرمونها،فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها،وقال ابن عمر:من فعل هذا؟إن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا

[4] مستدرك الحاكم – الجزء الثاني – ص ١٤٤ .

[5] المشكاة – كتاب الصيد و الذبائح – ص ٢٥٠ .

[6] النسائي–كتاب الضحايا–ص ٦٧٩.أخبرنا قتيبة بن سعيد قال:حدثنا سفيان عن عمرو عن صهيب عن عبد الله بن عمرو يرفعه قال:من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة،قيل يا رسول الله،فما حقها؟قال:حقها أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فيرمى لها

[7] المشكاة – كتاب الصيد و الذبائح – ص ٣٦٦ .

وليسن أحدكم شفرته،وليريح ذبيحته"[1].وجاء في حديث آخر أن أحد الصحابة قال:يا رسول الله إني لأذبح الشاة فأرحمها،أو قال لأشفق عليها من أن أذبحها،فقال صلى الله عليه وسلم إن رحمت الشاة رحمك الله"[2]،وهذا هو السبب في منع الذبح عن طريق القطع بالأسنان أو الجرح بالأظافر[3]إذ أن هذا يؤذي الحيوان،كما أن القتل بالأحجار والحصى أو النبال كذلك ممنوع،حيث قال صلى الله عليه وسلم أنه لا يمكن الصيد بهذه الطريقة،كما لا يمكن هزيمة العدو بها،لكن قد تتكسر الأسنان بذلك،أو تنفجر العين[4].

المقصود أن إيذاء الحيوان جسدياً بغير ضرورة أمر لا يجيزه الدين،والسبب الأساسي في القسوة التي يتم التعامل بها مع الحيوان هو أن العرب لم يكونوا يعلمون أن إيذاء الحيوان وإيلامه ذنب،ولهذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب أنه مثلما أن إيذاء الإنسان حرام شرعاً كذلك فإن إيذاء الحيوان ذنب ديني .

ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة أنها تتعذب لأنها احتفظت بهرة لديها وربطتها حتى ماتت على ما هي عليه[5]،بل إن الناس يرتكبون هذا الذنب أكثر من ارتكابهم مثله مع الإنسان،ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لو عفا الله عن إساءتكم للحيوان فقد عفا عن كثرة من ذنوبكم،وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر مع أصحابه وذهب صلى الله عليه وسلم لقضاء حاجة،وعندما عاد إليهم

---

[1] مسلم–كتاب الصيد والذبائح–باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،حدثنا إسماعيل بن علية،عن خالد الحذاء،عن أبي قلابة،عن أبي الأشعث،عن شداد بن أوس،قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال:إن الله كتب الإحسان على كل شيء،فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة،وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح،وليحد أحدكم شفرته،وليرح ذبيحته.

[2] مسند ابن حنبل – صـ ٤٣٦ .

[3] النسائي–صـ٦٧٤ ,والبخاري كتاب الذبائح والصيد–باب الخذف والبندقة.حدثنا قبيصة:حدثنا سفيان،عن أبيه،عن عباية بن رفاعة،عن رافع ابن خديج قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم:(كل–يعني–ما أنهر الدم،إلا السن والظفر).

[4] البخاري–كتاب الأنبياء–صـ٤٩٥ .حدثنا آدم:حدثنا شعبة،عن قتادة قال:سمعت عقبة بن صهبان الأزدري يحدث،عن عبد الله بن مغفل المزني قال:نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخذف،وقال:(إنه لا يقتل الصيد،ولا ينكأ العدو،وإنه يفقأ العين، ويكسر السن).

[5] صحيح البخارى– الجزء الثاني–صـ٤٤١ .حدثني عبد الله بن محمد بن أسماء:حدثنا جويرية بن أسماء،عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت،فدخلت فيها النار،لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها،ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض).

رأى واحداً منهم قد أشعل موقدة في مكان فيه نمل،أو يوجد ثقب للنمل في شجرة فيه،فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك سأل:من فعل هذا؟،فقال:من فعل أنا يا رسول الله،فقال صلى الله عليه وسلم:أطفئها أطفئها([1])(أي حتى لا تؤذي النمل أو يحترق)،وجاء في حديث أن أحد الأنبياء نزل تحت شجرة فلدغته نملة،فقام بإبعاد أمتعته بعيداً عن المكان أولاً،ثم أحرق النمل كله بالنار،وهنا أنزل الله عليه وحياً ينبهه لماذا لم تحرق نملة واحدة فقط([2]).(أي أن المستحق للقصاص هو نملة واحدة،وهي التي لدغتك،ولا ذنب لباقي النمل)،وجاء في حديث أن الصحابة أمسكوا بعصفورين صغيرين أثناء سفرهم ذات مرة للجهاد،وأخذت أمهما تدور حولهما من فرط المحبة،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذهب لقضاء حاجة،فلما عاد ورأى الوضع قال:من الذي أمسك بصغارها فأحزنها،دعوا صغارها.وقد أحرق الصحابة رضي الله عنهم ذات مرة جحراً للنمل،ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الصحابة فعلوا هذا قال:"لا يعذب بالنار إلا الله".

وهكذا لم يكن العرب يعلمون أنه مثلما أن السلوك الطيب مع الإنسان يستوجب الثواب كذلك يستوجب السلوك الطيب مع الحيوان الثواب،وبناءاً على عدم علمهم هذا سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:إن الحوض الذي بنيته خاصة لجمالي ونوقي ترد إليه الجمال والنوق الضالة،أرأيت إن سقيتها يكون لي ثواب،فقال صلى الله عليه وسلم إنك ستثاب على سقيتك للظمآن،وعلى كل عمل طيب مع كل ذي روح([3]).

وجاء في حديث آخر"أن شخصاً كان ذاهباً في طريق فأصابه العطش،وعثر مصادفة على بئر فنزل فيه وشرب،وعندما خرج من البئر نظر فإذا بكلب يلهث من شدة العطش ويلعق الطين،فتذكر الرجل عطشه وأشفق على الكلب فنزل إلى البئر ثانية وسقى الكلب،فقبل الله عمله وغفر له".ولما سمع الصحابة هذه الواقعة قالوا:يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نأخذ ثواباً لحسن معاملتنا للحيوان أيضا،فقال صلى الله عليه

---

[1] مسند ابن حنبل – الجزء الأول – ص ٢٩٦ عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – .

[2] البخاري–الجزء الأول–كتاب الخلق–ص٤٦٧. أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال:أخبرنا النضر وهو ابن شميل قال:أخبرنا اشعث عن الحسن نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر ببيتهن فحرق على ما فيها، فأوحى الله إليه فهلا نملة واحدة.

[3] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في كراهة حرق العدو بالنار .

وسلم:إن أي إحسان إلى كل ذي روح يستوجب الثواب,ولا يتوقف الأمر على الحيوان فقط,وإنما يمتد إلى النباتات كذلك,إذ أن خدمتها ورعايتها يستوجب الأجر أيضا,وهذا هو ما قاله صلى الله عليه وسلم من"أن المسلم الذي يغرس شجرة أو يزرع حقلاً ويأكل منه إنسان أو حيوان أو طير فإن هذا صدقة له"[1]أي أنه عمل يستوجب الثواب,وبعد إقرار هذا المبدأ الأساسي جاءت بعض المبادئ العملية التي تحدد السلوك مع الحيوان,بمعنى أن:

١- أن يستخدم الحيوان في العمل الذي خلق له,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم كان شخص يركب على ثور,فالتفت الثور إليه وقال لم أخلق لهذا,وإنما خلقت لحرث الحقل فقط[2],كما قال صلى الله عليه وسلم كذلك لا تتخذوا من ظهور حيواناتكم منبراً فإن الله قد سخرها لكم حتى توصلكم إلى أماكن لا تصلونها إلا بشق الأنفس,وقد خلق الله الأرض لكم فاقضوا حاجاتكم عليها"[3],ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطب في بعض المواضع من فوق ظهر جمل,لهذا فإن معنى هذا الحديث يكون بأنه ليس من المناسب أن نركب ظهور الحيوانات بغير ضرورة,إذ أننا بهذا نؤذي الحيوان بغير داع,وإنما يركب ظهر الحيوان في السفر فقط .

٢- ينبغي الاهتمام براحة الحيوان,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إذا سافرتم في وقت الخضرة والنيوعة فأفيدوا جمالكم من خضرة الأرض,وإذا سافرتم في وقت القحط

---

[1] البخاري–كتاب الأدب–باب رحمة الناس والبهائم.حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن سمي،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(بينا رجل يمشي،فاشتد عليه العطش،فنزل بئراً فشرب منها،ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث،يأكل الثرى من العطش،فقال:لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي،فملأ خفه ثم أمسكه بفيه،ثم رقي فسقى الكلب،فشكر الله له فغفر له).قالوا:يا رسول الله،وإن لنا في البهائم أجراً؟قال:(في كل كبد رطبة أجر).

[2] البخاري–أبواب الحرث والمزارعة–باب فضل الزرع والغرس إذ أكل منه.حدثنا محمد بن بشار:حدثنا غندر:حدثنا شعبة،عن سعد:سمعت أبا سلمة،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه،فقالت:لم أخلق لهذا،خلقت للحراثة

[3] البخاري–أبواب الحرث والمزارعة–باب استعمال البقر للحراثة.حدثنا عبد الوهاب بن نجدة،ثنا ابن عياش،عن يحيى بن أبي عمرو السيباني،عن أبي مريم،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إياي أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر،فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس،وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم.

فأسرعوا في سفركم([1])حتى لا يضيبيها أذى من قلة العلف في الطريق.وذات مـــرة رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم جملاً التصقت بطنه بظهره من شدة الجوع.فقال:"اتقـــوا الله في هذه الحيوانات الخرساء.إذا ركبتم عليها فأحسنوا حالها.وإذا أكلتموهـــا فأحســنوا إليها وكلوها"([2]).

وذات مرة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بستان احد الأنصـــار لقضـــاء حاجة.وكان في البستان جمل بكى عندما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم فـــاقترب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم.ووضع يده الشريفة على فكـــه وقـــال:لمـــن هـــذا الجمل؟فأجاب شاب من الأنصار قائلاً:"إنه لي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم.فقـــال صلى الله علية وسلم:ألا تتق الله في هذا الحيوان الذي ملكك الله إياه.لقد شكا لـــي أنـــك تجيعه وتحمله ما لا يطيق"([3]).

٣- حرم الإسلام ضرب الحيوان على وجهه وكذلك إحداث حرق فيه.وقرر أن من يفعل ذلك ملعون ([4]) .

٤- منع الإسلام مسابقات التصارع بين الحيوانات.إذ يؤذى الحيوان فيها ويجرح بغـــير فائدة.

---

[1] مسلم-كتاب الإمارة-باب مراعاة مصلحة الدواب في السير والنهي عن التعريس في الطريق وأبو داود-كتاب الجهاد-باب ما يؤمر به من القيام علي الدواب والبهائم.حدثنا قتيبة بن سعيد،حدثنا عبد العزيز يعني:ابن محمد عن سهيل،عـــن أبيه،عن أبي هريرة :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إذا سافرتم في الخصب،فأعطوا الإبل حظها مـــن الأرض،وإذا سافرتم في السنة،فبادروا بها نقيها،وإذا عرستم،فاجتنبوا الطريق،فإنها طرق الدواب،ومأوى الهوام بالليل.

[2] المرجع السابق.حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي،ثنا مسكين،يعنيابن بكير،ثنا محمد بن مهاجر،عن ربيعة بن يزيد،عـــن أبي كبشة السلولي،عن سهل بن الحنظلية قال:مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه،قال:اتقـــوا الله في هذه البهائم المعجمة،فاركبوها صالحة،وكلوها صالحة.

[3] أبو داود-كتاب الجهاد-باب وسم الدواب.حدثنا موسى بن إسماعيل،ثنا مهدي،ثنا ابن أبي يعقوب،عن الحسن بن سعد مولى الحسن بن علي،عن عبد الله بن جعفر قال:أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم،فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس،وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفاً أو حائش نخل،قال فدخل حائطاً لرجل من الأنصار،فإذا جمل،فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه،فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت،فقال:من رب هذا الجمل؟لمن هذا الجمل؟فجاء فتى من الأنصار فقال:لي يا رسول الله فقال:أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها،فإنه شكى إلي أنك تجيعه و تدئبه.

[4] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في التحريش بين البهائم .

ولك أن تلقي نظرة ثانية على الصفحات السابقة وتعيد قراءتها لتعلم أن القلب الذي في صدر الإسلام قلب رقيق يمتلئ رحمة و شفقة و كرماً .

فضائل الأخلاق

من الصعب أن نحيط بكل جزئيات الأخلاق الحسنة وتفاصيلها وذلك لكثرتها،وقد قسم الحكماء القدامى الأخلاق إلى قسمين،أحدهما أمهات الأخلاق،والثاني فروع الأخلاق،والمقصود بأمهات الأخلاق تلك الأركان الجوهرية للأخلاق،والتي تعد أصلاً ومرجعاً للقسم الثاني من الأخلاق،والتي ينتج عن الزيادة عليها أو النقصان فيها أقسام أخرى للأخلاقيات،بينما يتولد عن الاعتدال فيها فضائل الأخلاق .

وطبقاً لهذا النوع من الأخلاقيات فإن هناك ثلاث قوى فطرية كامنة بداخل الإنسان هي القوة العلمية،والقوة الشهوانية،والقوة الغضبية،والاعتدال في القوة العلمية لدى الإنسان يجعلها حكمة،والاعتدال في القوة الشهوانية يجعلها عفة،والاعتدال في القوة الغضبية يجعلها شجاعة.أما عدم الاعتدال فيها جميعاً فهو ما نسميه بالرذائل،ثم إن الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة ودرجاتهما المختلفة ينتجان عن الدرجات المختلفة أيضا في هذين القسمين من الأخلاقيات .

وهذا التقسيم فلسفي محض،أو قل أنه نظري وعلمي،لكن مكانة الأخلاق في نظر الإسلام ليست علمية أو نظرية،وإنما عملية،لأن الهدف منها ليس أن يحصل الإنسان على علم الأخلاق فقط،وإنما لكي تجعل منه مطبقاً لفضائل الأخلاق ومتجنباً بشكل عملي لرذائل الأخلاق،ولذا لا يبحث الإسلام في حقيقة الخلق الفلاني،وكيف تنتج عنه أخلاقيات أخرى،وإنما يبحث في كيفية جعل الإنسان ملتزماً بالأخلاق الحسنة ومتجنباً للأخلاق السيئة،ولهذا لم يتخذ الإسلام في تعاليمه أسلوب أهل الفلسفة فهو أصلاً ليس أسلوب الأنبياء في التعليم والتربية.

إن محور كل شيء في الإسلام،سواء كان هذا الشيء متعلقاً بالعبادات أو بالعقيدة أو بالمعاملات هو رضا الله تعالى،فالعمل الطيب هو العمل الذي يحبه الله،والعمل السيئ هو العمل الذي يبغضه الله بصرف النظر عن أن العمل الذي يحبه الله تعالى به المزايا العقلية ويفيد البشر،وأن العمل الذي يبغضه به مساوئ عقلية ويؤذي البشر،ولهذا فإن الأخلاق في نظر الإسلام قسمان،أحدهما هو الأخلاق التي يحبها الله تعالى،وتسمى فضائل،والثاني هو الأخلاق التي يبغضها الله تعالى،وتسمى رذائل،وقد

أوردنا فيما سبق تحت عنوان الأخلاق والمحبة الإلهية التي توضح الصفات التي يحبها الله تعالى والتي يبغضها الله تعالى.

وقد أطلقنا الآن مصطلح الفضائل على تلك الصفات التي يحبها الله تعالى،وهي صفات كثيرة،وجاء التصريح بها في مواضع مختلفة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة،لكن مصنفي الأخلاق الشرعية لم يضعوا لها ترتيباً واضحاً،ولذا لم تتضح أهميتها ودرجاتها,وأنا أظن أن أولى الفضائل في أسبقية الترتيب هي تلك التي تكون وصفاً لله تعالى,ووصف بها الرسل والأنبياء غالباً,وجاء التأكيد على أن يتصف بها المسلمون في الكتاب والسنة,والتي هي في ذاتها أساس لكثير من الصفات الأخلاقية الأخرى .

ورغم أن وضع ترتيب للفضائل طبقاً لهذا المعيار أمر صعب,وربما أدى إلى اختلاف بين المفكرين والمحققين,لكنني سأحاول أن أحقق نجاحاً في هذا الخصوص بالجد والاجتهاد.

قائمة مختصرة للفضائل:

لقد جاءت الفضائل التي يحبها الله تعالى,وقال إنها صفات للعباد الصالحين,أو وعد المتصفين بها بالمغفرة والعفو في القرآن الكريم والأحاديث النبوية تفصيلاً مثل :

" قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون,والذين هم عن اللغو معرضون,والذين هم للزكاة فاعلون,والذين هم لفروجهم حافظون,إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين,فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون,والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون,والذين هم على صلواتهم يحافظون,أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون"(المؤمنون:١-١٠).

فالفضائل التي وردت في الآيات السابقة هي اجتناب اللغو والتمسك بالعفة والطهارة،والأمانة والوفاء بالعهد.وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم قوله تعالى:

" ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين,وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى

الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس"(البقرة:١٧٧).

فقد جاءت في الآية السابقة صفات السخاء والوفاء بالعهد والثبات عند الأزمات.وقال تعالى في سورة(آل عمران):

" الصابرين والصادقين والقانتين والمنافقين"(آل عمران:١٧).

فجاء في الآية الثبات والصدق والكرم,ومدحها الله تعالى,كما ذكر تعالى في نفس السورة أولئك المتقين الذين سيغفر الله لهم,وسيدخلون جنة عرضها السماوات و الأرض :

" الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين"(آل عمران:١٣٤).

فجاء في الآية السابقة مدح للكرم والعفو والمغفرة والإحسان,وجاء في سورة(المعارج):

" والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم,والذين يصدقون بيوم الدين,والذين هم من عذاب ربهم مشفقون,إن عذاب ربهم غير مأمون,والذين هم لفروجهم حافظون,إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين,فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون,والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون,والذين هم بشهاداتهم قائمون"(المعارج:٢٤-٣٣).

فجاء في الآيات السابقة صفات سخاء النفس والعفة والعصمة والأمانة,والوفاء بالعهد والصدق في الشهادة,وعدها الله تعالى من فضائل المؤمن والتي تدخله الجنة.وقد جاء في سورة الأحزاب ذكر لأولئك الرجال و النساء الذين وعدهم الله تعالى بعفوه وأجر عظيم:

" والصادقين والصادقات,والصابرين والصابرات,والخاشعين والخاشعات,والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات"(الأحزاب:٣٥) .

فجاء في الآية الصدق,والصبر والتواضع والعفة والطهارة,وقد ذكر الله تعالى صفات الصالحين في سورة (الفرقان) بقوله :

١- " وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هوناً,وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً"(الفرقان:٦٣).

٢- " والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا,وكان بين ذلك قواماً " (الفرقان : ٦٧) .
٣- " ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق " (الفرقان : ٦٨) .
٤- " والذين لا يشهدون الزور,وإذا مروا باللغو مروا كراماً " (الفرقان : ٧٢) .

فقد جاء في الآية الأولي التواضع والتكمل,وفي الآية الثانية الاعتدال والتوازن,وفي الثالثة عدم الظلم والعفة,وفي الرابعة الصدق والوقار والجدية,ومدحها الله تعالى جميعاً.وجاء في سورة الرعد ذكر لتلك الصفات التي ستنفع في الآخرة :

" الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب,والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية,ويدرءون بالحسنة السيئة,أولئك لهم عقبى الدار " (الرعد : ٢٢) .

وقد يكون المقصود بالوفاء بالعهد هذا هو ذلك الذي يعقده العبد مع ربه,كما يفهم منه أيضا ذلك العهد الذي يكون باسم الله بين العبد والعبد,والذي جاء الحكم بالوفاء به,وهو من حقوق القرابة والمستحقين له,وما عدا ذلك فقد جاء في تلك الآيات ثناء على أولئك الذين يقابلون السيئة بالحسنة,أو يقضون على السيئة بالحسنة.قال تعالى :

" تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً,والعاقبة للمتقين" (القصص:٨٣).أي لا يغترون ولا يتكبرون .

" والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش,وإذا ما غضبوا هم يغفرون " (الشورى : ٣٧) . بمعنى أنهم لا يفقدون السيطرة على أنفسهم حين الغضب,وهم كذلك يغفرون .

" إن الله يحب المحسنين " (البقرة : ١٩٥) .

وهل هناك أعظم من فضيلة العدل والإنصاف من أنها وسيلة إلى حب الله,ويدخل في استحقاق هذا الحب كل من يعمل عملاً صالحاً .

هذا وقد جاءت في الصفحات السابقة بشكل متفرق الأحاديث التي تتحدث عن الفضائل,وسيأتي ذكر لها في موضعه فيما بعد .

الصدق

وطبقاً للمعيار السابق فإن الفضيلة التي تستحق التقدم على رأس قائمة الفضائل الأخلاقية هي في رأيي الصدق,ويأتي في ذيل هذه الفضيلة و كنتيجة منطقية و نفسية فضائل أخلاقية هامة أخرى .

والأساس في صلاح كل قول وعمل من أقوال الإنسان وأعماله أن يطابق قلبه لسانه ويتحدا,وهذا هو ما نسميه الصدق,والذي لا يتصف بالصدق يصبح قلبه عرضة لأن يكون مقراً لكل سوء,أما الصادق فإن سبيله إلى تحقيق أي عمل صالح سهل وميسور,يقال أن شخصاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله,في أربع خصائل سيئة,أحدها أنني افعل الفاحشة,والثانية أنني أسرق,والثالثة أنني أشرب الخمر,والرابعة أنني أكذب,ولك على أن لترك واحدة منها لأجلك,فقال صلى الله عليه وسلم:لا تكذب,وهكذا عاهده الرجل على ذلك,وحين جاء الليل أراد الرجل أن يشرب الخمر,واستعد لارتكاب الفاحشة,فقال لنفسه بماذا أجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألني في الصباح إن كنت شربت الخمر أو ارتكبت الفاحشة؟إن صدقته وقلت نعم سيقام على حد الخمر وحد الزنا,وإن كذبت سأكون قد خالفت العهد,وهكذا رجع الرجل عما عزم عليه,وحين تقدم الليل وساد الظلام أراد أن يخرج من البيت بغرض السرقة,لكنه توقف حين تذكر أنه سيسأل غداً فماذا يقول,لو صدق في قوله لقطعت يده حداً للسرقة,وإن كذب خالف العهد,فعاد عما عزم عليه,ولما طلع الصبح ذهب مسرعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله,لقد تخلصت من عاداتي السيئة كلها حين تخليت عن الكذب,ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك([1]).

ومهما كانت هذه الرواية ضعيفة من ناحية السند,إلا أنها صحيحة من حيث نتيجتها,فالصدق ينجي الإنسان من عادات سيئة كثيرة,إذا أن الصادق يحاول دائماً التخلص من أي عادة سيئة فيه,سيكون مستقيماً صادقاً,إذا وعد أوفى,وإذا عاهد أتم عهده,سيكون شجاعاً نقي القلب,لا رياء فيه,ولا نفاق في قلبه,ولن يكون متناقض الظاهر والباطن,لن يكون مداهناً,وسيكون محل ثقة الجميع,وسيعتمد الناس على أقواله وأفعاله,يفعل ما يقول,وهكذا فإن الصدق بكل المعايير صفة عظيمة,وهل هناك أصدق من الله,وقد قال الله تعالى فيما يتعلق بيوم القيامة :

" ومن أصدق من الله حديثاً " (النساء : ٨٧) .

وقال فيما يتعلق بالوعد بالجنة:"وعد الله حقاً,ومن أصدق من الله قيلاً"(النساء:١٢٢).

---

[1] نقل الشيخ عبده عبد العزيز الدهلوي هذه القصة في التفسير العزيزي في تفسير سورة (ن) عن كتب السير , لكني لم أعلم لها مصدر .

والله تعالى صادق,ولهذا فإن شريعته صادقة,يقول:"وإنا لصادقون"(الأنعام:١٤٦).

" قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً " (آل عمران : ٩٥) .

" والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون " (الزمر : ٣٣) .

والمراد بالصدق في الآية الأخيرة شريعة الله وكتابه,لكن اللفظ يتسع لكل صدق,ويعلم من هذا أن شأن المتقين هو الصدق,يقبلون كل أمر صادق,ويقدمون الصدق في كل أقوالهم وأعمالهم.

وأهل الإيمان عندما يرون بأعينهم صدق وعد الله ورسوله فإنهم يقولون :

" وصدق الله ورسوله " (الأحزاب : ٣) .

ولأن الرسل يتلقون العلم من الله,لهذا هم أيضا صادقون:"وصدق المرسلون"(يس:٥٢).

ويعلم من هذا أن الصدق هو أول صفات الأنبياء,لأنه إن خلا كلامهم ودعواهم ودلائلهم وأوامرهم من الصدق والعياذ بالله لانهارت عمارة نبوتهم بشدة,وقد وصف الله تعالى بعض الأنبياء بصفة خاصة بهذه الصفة,وأول هؤلاء هو داعي الملة الحنيفية سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بهذه الصفة فقال :

" واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً " (مريم : ٤١) .

وكذلك سيدنا إدريس عليه السلام:

" واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً " (مريم : ٥٦) .

والسيدة مريم التي لم تتردد لحظة في تصديق كلام الله تعالى, فنالت هذا الوصف :

" وأمه صديقة " (المائدة : ٧٥) .

وقد صدق سيدنا يوسف في تفسير الحلم حتى سماه رفاقه بالصديق :

" يوسف أيها الصديق " (يوسف : ٤٦) .

وسيدنا إسماعيل الذي وفى بما وعد به أباه من الصبر والشكر فلقبه الله بصادق الوعد :

" واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً " (مريم : ٥٤) .

وسيدخل جنة الرضوان أولئك الذين اتصفوا في الدنيا بالصدق وقول الحق جنباً إلى جنب مع اتصافهم بالصفات الحسنة الأخرى :

" الصابرين والصادقين " (آل عمران : ١٧) .

وأولئك الذين وعدهم الله تعالى بمغفرته وأجره العظيم يأتي من بينهم بعد الإسلام والإيمان وطاعة الله الصادقون :

" إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات"(الأحزاب:٣٥).

وسوف ينال الصادقون أجر الصدق في الحياة الآخرة,وسيكون وسيلتنا للفلاح يومئذ,قال تعالى فيما يتعلق بيوم القيامة :

" هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم " (المائدة : ١١٩) .

وسوف ينعم الله تعالى على كل من يكون صادقاً يوم القيامة ويجزيه بصدقه :

" ليجزي الله الصادقين بصدقهم " (الأحزاب : ٢٤) .

وأهمية الصدق في الإسلام كبيرة جداً حتى أن الأمر لم يتوقف على الاتصاف به مرات عديدة,وإنما جاء التأكيد على أن نقف دائماً مع الصادقين,وأن تكون علاقاتنا دائماً مع جماعة الصدق,وأن نعمل على صحبتهم حتى نتأثر بهم في صدقهم فنصدق,وقد تحمل سيدنا كعب بن مالك ورفيقاه اللذان لم يستطيعا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك كثيراً من المتاعب,وأثبتوا صدقهم حتى قال الله عنهم :

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (التوبة : ١١٩) .

والصادقون هنا في نظر أهل التفسير هم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة,والذين اختبروا في صدقهم مرات عديدة,ومع ذلك فإن هذه الآية تتسع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لتشمل كل المسلمين في كل زمان,وتدعوا إلى صحبتهم .

وعادة ما يفهم من الصدق معنى قول الصدق فقط,لكن معناه في الإسلام واسع جداً,بحيث يشمل العمل جنباً إلى جنب مع القول,وقد قسم الإمام الغزالي الصدق في كتابه إحياء علوم الدين إلى ستة أقسام دقيقة,وشرح معنى كل واحد منها في ضوء القرآن والسنة,وهذه الأقسام هي :

١- الصدق في القول .

٢- الصدق في الإرادة و النية .

٣- الصدق في العزم .

٤- الصدق في تنفيذ العزم .

٥- الصدق في العمل .

٦- الصدق في مراتب ومقامات التقوى .

لكن إذا توسعنا في المعني قليلاً وجدنا أن كل أمور الصدق تستوعبها ثلاثة أقسام فقط,أي صدق اللسان وصدق القلب و صدق العمل .

صدق اللسان:

وهو أن لا يخرج من اللسان الصادق إلا الصدق,ولا يخرج من الفم ما يخالف هذا الصدق,وهذا هو القسم العام والمعروف من الصدق,والذي يجب الالتزام به على كل مسلم,ويدخل في هذا القسم تحقيق الوعد,وتنفيذ العهد,والالتزام بالقول وما اتفق عليه,وهذه هي أكبر علامة على الإيمان والإسلام,والعكس من ذلك يكون بمثابة نفاق القلب,وقد جاء في سورة (الأحزاب) :

" ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء " (الأحزاب : ٢٤) .

وقد جاء المنافق في هذه الآية مقابلاً للصادق,وهو ما يعلم منه أن الصدق هو رأس مال الإيمان,وأن الكذب هو أصل النفاق,وقد عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى بأساليب مختلفة,فقد روى مرسلاً عن صفوان بن سليم التابعي أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكون المسلم عديم المروءة؟,قال:نعم,قال:أيكون بخيلاً؟,قال:نعم,ثم سأله:أيكون كذاباً؟,فقال صلى الله عليه وسلم:لا([1]).

ويقول بعض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:قد يتصف المؤمن بكل خصلة,ولكن ليس من بينها الخيانة والكذب([2]),بمعني أن المؤمن قد توجد فيه كل الصفات السيئة ولكنه ليس من بينها صفة الخيانة أو الكذب,إذ أن جوهر الإيمان يخالفهما تماماً,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:"لا يكتمل إيمان أحدكم حتى يترك كل أشكال الكذب,حتى يكون مزاحه وشجاره صادقاً"([3]),ويؤيد هذه الروايات ذلك الحديث المعروف

---

[1] موطأ الإمام مالك-باب ما جاء في الصدق والكذب.حدثني مالك عن صفوان بن سليم،أنه قال:قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم:أيكون المؤمن جباناً؟فقال نعم فقيل له:أيكون المؤمن بخيلاً؟فقال نعم فقيل له:أيكون المؤمن كذاباً؟فقال لا.

[2] عن أبي إمامة عند أحمد,وعن سعد بن أبي وقاص عند البزار وأبي يعلي والطبراني في الكبير والبيهقي من حديث ابن عمر , و قد روي مرفوعاً و موقوفاً .

[3] مسند أحمد عن أبي هريرة,والطبراني وأيضا مسند أبي يعلي عن عمر بن الخطاب,وقد أخذت هذه الأحاديث من باب الترغيب في الصدق من الجزء الثاني من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري.حدثنا عبد الله،حدثني أبي،حدثنا

الذي جاء في أكثر كتب الصحاح,إذ يقول الصحابي سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من كانت فيه أربع كان منافقاً خالصاً,ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق,إلى أن يتركها,إذا ائتمن خان,وإذا حدث كذب,وإذا وعد أخلف,وإذا تخاصم فجر"([1]),وجاءت هذه الرواية في موضع آخر هكذا"آية المنافق ثلاث,إذا حدث كذب,وإذا وعد أخلف,وإذا اؤتمن خان"([2]),وزاد في صحيح مسلم"حتى وإن صلى وإن صام وادعى بأنه مسلم" .

ويعلم من هذه الروايات أن الصدق يربي الإيمان وأن الكذب يربي النفاق,بمعنى أن عاطفة الخير والإيمان تبرز من تحري الصدق,بينما يتولد النفاق والسوء بتحري الكذب,وقد قال صلى الله عليه وسلم:"الصدق يهدي إلى الجنة والكذب يهدي إلى النار,ولا يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً,ولا يزال الرجل يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"([3]).

<u>صدق القلب:</u>

أما القسم الثاني من الصدق فهو ما يتعلق بالقلب,وبهذا الاعتبار يصبح الصدق والإخلاص أمراً واحداً,ومن هنا فإن بعض الصدق الذي يخرج من اللسان يكون كذباً,ذلك لأنه لم يخرج من القلب,وقد جاء أحد المنافقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقر بالرسالة المحمدية شفوياً أمامه صلى الله عليه وسلم,ولكن لأن هذا الإقرار كان يخالف ضميره لهذا قال تعالى:"والله يشهد أن المنافقين لكاذبون"(المنافقون:١).

حجين أبو عمرو،حدثنا عبد العزيز،عن منصور بن زازان،عن مكحول،عن أبي هريرة،قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة،ويترك المراء وإن كان صادقاً.

[1] صحيح البخاري–كتاب الإيمان,وصحيح مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.حدثنا قبيصة بن عقبة قال:حدثنا سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن مرة،عن مسروق،عن عبد الله بن عمرو:أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(أربع من كن فيه كان منافقا خالصا،ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها:إذا اؤتمن خان،وإذا حدث كذب،وإذا عاهد غدر،وإذا خاصم فجر) .

[2] صحيح البخاري–كتاب الإيمان وكتاب الأدب,وصحيح مسلم.حدثنا سليمان أبو الربيع قال:حدثنا إسماعيل بن جعفر قال:حدثنا نافع بن مالك بن أبي عامر أبو سهيل،عن أبيه،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(آية المنافق ثلاث:إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف،وإذا اؤتمن خان).

[3] صحيح البخاري–كتاب الأدب.حدثنا عثمان بن أبي شيبة:حدثنا جرير،عن منصور،عن أبي وائل،عن عبد الله رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن الصدق يهدي إلى البر،وإن البر يهدي إلى الجنة،وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً،وإن الكذب يهدي إلى الفجور،وإن الفجور يهدي إلى النار،وإن الرجل ليكذب،حتى يكتب عند الله كذاباً).

بمعني أنهم كاذبون في شهادتهم,فهم وأن شهدوا باللسان أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن هذه الشهادة وهذا الإقرار ليس خارجاً من القلب,ففي قلوبهم شيء وعلى ألسنتهم شيء آخر,ويعلم من هذا أن الصدق هو الترجمة الصادقة لما في القلب باللسان,وإذا لم يكن هكذا فهو نفاق إذاً,وهو الذي ذمه القرآن كثيراً,وقد جاء في حديث شريف أن هناك ثلاثة أشخاص سيمثلون أمام الله تعالى يوم القيامة وهم عالم وشهيد وثري,وكل واحد منهم يقوم ببيان علمه وشجاعته وسخاءه,لكن الله تعالى مع ذلك يقول لهم إنكم تكذبون,وسيقول لهم الملائكة مثل ذلك,ورغم أن ما يقوله هؤلاء الثلاثة لن يكون على سبيل الكذب أو الخطأ,لكن لأن أعمالهم التي بينوها كانت خالية من الإخلاص,إذا كانت على سبيل الشهرة الدنيوية,وليس لها عند الله أجر .

صدق العمل:

وصدق العمل هو أن يكون العمل الصالح مطابقاً للضمير,أو قل أن تتطابق الأعمال الظاهرة مع صفات الباطن,على سبيل المثال إذا أبدى شخص خشوعاً وخضوعاً في الصلاة,وكان هدفه الرياء فإن مثل هذا الشخص يكون مراء كذاباً,وهناك كذب عملي أكثر دقة من هذا وهو أن يبدي الشخص خشوعاً وخضوعاً في الصلاة,وليس ذلك على سبيل الرياء,لكن هذا الخشوع والخضوع الذي يبدو عليه لا يتطابق مع خشوعه وخضوعه الداخلي,وبالتالي فإن أعماله الظاهرية لا تعتبر تعبيراً صادقاً عن باطنه,ولذا فهم أيضا غير صادقين في أعمالهم هذه,ومن الضروري أن يصدق اللسان أيضا,ولهذا فإن المسلمين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بعد أن آمنوا إيماناً لا يتزلزل هم عند الله صادقون,قال تعالى:

" إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون " (الحجرات : ١٥) .

وهم صادقون لأن عملهم هذا يعكس حالتهم القلبية بصدق,فصدقوا بأعمالهم الإيمان الذي أقروا به بألسنتهم وقلوبهم.ولصدق العمل هذا عدة مراتب,منها أن الإرادة التي عقدتها لا يجب أن يحدث فيها ضعف أو تردد,على سبيل المثال يظهر شخص ما إرادة لتنفيذ الأحكام الإلهية,ولكن عندما يأتي وقت الاختبار والابتلاء تضعف إرادته,ولهذا فإننا لا نستطيع أن نسمي هذا الشخص صادق العزم,إذ أن صادق العزم هو

ذلك الشخص الذي يكون مؤمناً كاملاً,ولا ينجح المنافقون في مثل هذا الاختبار والابتلاء,لأن قلوبهم تكون مريضة نظراً لعدم يقينهم ولهذا يقول الله تعالى :

" ويقول الذين آمنوا لو لا أنزلت سورة,فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت,فأولى لهم طاعة وقول معروف,فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم " (محمد : ٢١) .

واعلى من هذه المرتبة لصدق العمل أن ينفذ الإنسان ما أقر به وتعاهد عليه وعزم على تنفيذه على أن يكون ذلك في الوقت الذي يتطلب ذلك دون تردد أو تأخير,إذ أنه من الممكن أن يعقد الإنسان عزماً صادقاً في وقت ما,ولا يكون في هذا العزم أي ضعف,ولكن عندما يحين وقت تنفيذ هذا العزم يبدو فيه الضعف ولهذا فإن الله تعالى قد أطلق على أولئك الصحابة الكرام الذين عزموا عزماً صادقاً ونفذوا هذا الوعد أنهم صادقون .

وهكذا فإنه عندما لم تتح الفرصة لسيدنا أنس بن نضر رضي الله عنه للمشاركة في غزوة بدر فإنه تداركاً لهذا عزم على أن يحارب بشجاعة فائقة إذا ما اتيح له الاشتراك في أية غزوة قادمة,وشارك في غزوة أحد بعد غزوة بدر,واستشهد فيها بعد أن أصيب بحوالي ثمانين ضربة ما بين رمح وسيف,وكان هذا للوفاء بالعزم,ولهذا أنزل الله تعالى في شأنه هذا مثالاً رائعاً :

" من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً " (الأحزاب : ٢٤) [1] .

وأرقى قسم من أقسام صدق العمل هو أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه,أي كل حرف يخرج من لسانه,وكل عزم يعقده في قلبه,وكل حركة من عمله مظهراً كاملاً للحق والصدق.وقد سمي القرآن الكريم أمثال هؤلاء الناس بالصديقين,وهؤلاء لأن أعمالهم تصدق ما أقرت به قلوبهم,وتعلنه على الملأ ألسنتهم,ويشاهدونهم بعين اليقين,ومثل هذه الكيفيات نجدها في سير بعض الصحابة الكرام.ذات مرة قال أحد الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:"آمنت بالله صادقاً,فقال صلى الله عليه وسلم:فكر وتدبر قبل أن تقول ذلك,لأنه لكل شيء حقيقة,فما هي حقيقة إيمانك,قال:أعرض قلبي عن الدنيا,ولهذا

---

[1] يعني أن تاب أولئك المنافقين و حسن إسلامهم فإن الله يعفو عنهم .

أقوم الليل وأصوم النهار,وكأني أنظر إلى العرش الإلهي,وكأني أرى أهل الجنة مع بعضهم البعض,وكأني أرى أهل النار وهم يستغيثون,فقال صلى الله عليه وسلم:لقد علمت فعلاً,فأبق على ما أنت عليه " ([1]) .

وكان الصحابة الكرام يفهمون حقيقة الإيمان هذه,وينالون هذه الدرجة من الإيمان بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.ذات مرة مر سيدنا حنظلة الأسيدي باكياً بسيدنا أبي بكر,فسأله سيدنا أبو بكر:ما الأمر يا حنظلة,قال حنظلة:لقد أصبحت منافقاً,إننا نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر الجنة والنار وكأننا نراهما,ولكن عندما نعود إلى أولادنا وبيوتنا وننشغل في أمور الدنيا ننسى كل شيء,فقال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:هذا هو حالنا أيضا,وذهب الاثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصوا عليه الأمر,فقال صلى الله عليه وسلم لو استمرت هذه الحالة(حالة ذكر الله والجنة والنار)لصافحتكم الملائكة في مجالسكم,وإنما يكون هذا أحياناً"([2]),وكان القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الحقيقة في الآية التالية :

" كلا لو تعلمون علم اليقين " (التكاثر) .

ويعلم من هذا أن نتائج اليقين الناضج لا يمكن أن تنفصل عنه,وقد جاء ذكر هذا القسم الراقي من الصدق في الآيات التالية من القرآن الكريم :

" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا

---

[1] أسد الغابة – تذكرة الحارث بن مالك .

[2] الترمذي–أبواب الزهد.حدثنا بشر بن هلال البصري.حدثنا جعفر بن سليمان عن سعيد الجريري.قال:حدثنا هرون بن عبد الله البزاز.حدثنا سيار.حدثنا جعفر بن سليمان عن سعيد الجريري المعنى واحد عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم،أنه مر بأبي بكر وهو يبكي،فقال:مالك يا حنظلة؟قال:نافق حنظلة يا أبا بكر،نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين،فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيراً،قال:فوالله إنا لكذلك،انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا،فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:مالك يا حنظلة؟قال:نافق حنظلة يا رسول الله،نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين،فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً،قال:فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لو تدومون على الحال الذي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم،وفي طرقكم،وعلى فرشكم،ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.

عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هـــم المتقون " (البقرة : ١٧٧) .

وقد وصف الله تعالى الصادقين الذين ورد ذكرهم فـي هـذه الآيـات بثـلاث صفات،أولها كمال الإيمان،وثانيها العمل الصالح،وثالثها تنفيذ ما عاهدوا عليه،والذيـــن يصلون إلى درجة الكامل في هذه الفضائل يطلق عليهم في لغة الشريعة كما ســبق أن أشرنا(الصديقون)،وهي أعلى مرتبة في الإنسانية بعد النبوة،ولهذا جاء اسم الصديق فـي الآية التالية بعد اسم النبي مباشرة،وقال أن صحبة هذه الجماعة ورفقتهم طاعة كاملـة لله ورسوله :

" ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليـــهم مـــن النبييـــن والصديقيـــن والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً " (النساء : ٦٩) .

وجاء في سورة(الحديد)بعد الدعوة المتكررة إلى الجهاد بالمال والنفس والإيمان الكامل:

" والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون " (الحديد : ١٩) .

ويعلم من هذا أن درجة الصديقين ينالها الإنسان بالإيمان الكامل الذي لا ينفصل أبداً عن العمل،وقد مر بنا فيما سبق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الرجل لا يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً،كما يعلم من ذلك أيضاً أن هذه الدرجة لا تنـــال بالصدق مرة أو مرتين،وإنما ينبغي لها الثبات على الصدق واستمراريته .

ونعلم من هذا التفصيل أن تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم أكـــدت علـــى الصدق وعمقه واتساعه،صدق اللسان،وصدق القلب وصدق العمل،وإذا كمل المسلم فـــي هذه الثلاثة فإنه يكون عندئذٍ مستقيماً وصادقاً .

السخاء

ثم يأتي الأساس الأخلاقي الثاني في الإسلام بعد الصدق وهو السخاء،والســـخاء بمعناه الحقيقي هو أن تتنازل عن حق من حقوقك لآخر عن طيب خاطر،ولـــه صـــور متعددة منها العفو عن حق لك،وإعطاء ما توفر من مالك لآخر،دون اعتبـــار لحاجـــاتك أنت،أن لا تلبي حاجاتك أنت وتعطي الآخرين،أن تبذل طاقتك الجسدية للآخرين،أن تبذل طاقتك الذهنية للآخرين،أن تعرض كرامتك ونفسك للخطر في سبيل إنقاذ الآخرين أو في سبيل حماية حق من حقوقك،وهذه كلها أقسام عليا ودنيا للسخاء،وقد وضع لكل منها اسم مختلف للتمييز بينها .

ويعلم من هذا إلى أي مدى يتسع السخاء ليشمل معاني كثيرة,ويحيط بأخلاقيات ثانوية أخرى,وهدفها كلها أن يستفيد الآخرون منك,ومن الواضح أن هذا هو أساس معظم الأعمال الأخلاقية.وقد وصف الله تعالى في سورة(البقرة)بعض عباده المتقين بأوصاف منها أنهم : "ومما رزقناهم ينفقون"(البقرة:٣),وقد فهم بعض المفسرون من الإنفاق هنا الزكاة,إلا أن الصحيح هو أن هذه الآية ليست خاصة بالزكاة,وإنما مثلما لم يتم التخصيص هنا لمقدار الرزق نفسه,أهو ثمار أم أنعام أم ذهب وفضة,أم أي جنس آخر فإنه لم يتم تخصيص ما ينفق في سبيل الله أيضا,بمعني أن العبد الذي أعطاه الله من فضله عليه أن يعطي منه ذلك الشخص الذي لم يعط مثله,أو أعطى أقل من حاجته.ويعلم من هذا أن على من أعطاه الله أن يعطي الآخرين الذين حرموا العطاء,أو الذين يحتاجون هذا العطاء,وهذه من علامات المتقين و يطلق عليها في الاصطلاح الأخلاقي السخاء .

إن أهم ركنين من أركان الإسلام هما الصلاة والزكاة,والأصل الروحي للزكاة هو هذا السخاء والكرم,ويعلم من هذا أن مكانة هذه الصفة الأخلاقية في الإسلام مكانة أساسية,بمعني أن مثلما أن عبادة الصلاة هي أساس الحقوق الإلهية,فإن السخاء والكرم هما أساس كل حقوق العباد,وطالما لم تكن هذه الصفة في الشخص فإنه لا يمكن أن تتولد لديه عاطفة محبة الآخرين ومواساتهم والشفقة عليهم,ولهذا فرض الإسلام الزكاة ليبرز هذه الصفة,والقرآن الكريم ملئ بمدح الإنفاق والإيتاء,وقد جاء تأكيد واضح ومتكرر في سورة(البقرة)على الإنفاق في سبيل الله,وفي بعض الأحيان جاءت كحلقة من حلقات الجهاد,قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة,والكافرون هم الظالمون " (البقرة : ٢٥٤) .

والجزء الأخير من الآية الكريمة هذه يستحق التمعن والتفكير,إذ يمكن القياس عليها أن الشخص الذي لا يلقي بالاً للآخرة ولا ينفق شيئاً في سبيل الله يكون قد اقترب من الكفر,أو أنه يكفر بالنعمة حيث أنه لا ينفق في سبيل الله بعضاً مما رزقه الله شكراً على هذا الرزق .

هذا وقد حث الله تعالى عباده في هذه الآية على الإنفاق من الرزق في سبيل الله بأسلوب مؤثر للغاية قائلاً:أيها الناس,أنفقوا بعضاً مما رزقناكم نحن لتشتروا به رحمة

الله وحبه حتى ينفعكم في ذلك اليوم الذي لن تستطيعون فيه شراء رحمة الله أو النجـــاة من عذابه بأموالكم،ولا بالوساطة أو الصداقة أو غيرها .

وعلى من ينفق في سبيل الله أن يكون مخلصاً،فلا يقصد من إنفاقه أن يمن علـى أحد،أو أن يمدحه أحد،وقد قال الله تعالى لرسوله:"ولا تمنن تستكثر"والله تعالى ســـيثيب من ينفق مخلصاً،وسوف ينجيه من أهوال القيامة ومخاوفها،يقول تعالى:

" الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عنـد ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (البقرة : ٢٦٢) .

ثم قال بعد ذلك أنه لا يحب أن يكون ما تنفق هو أقل الأشياء بحيث يظهر دناءة النفـس بدلاً من عظمتها،قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض،ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه " (البقرة : ٢٦٧) .

بمعني أن الشيء الذي تحبون أخذه راضين فرحين عليكـــم أن تنفقـــوه أيضـــا راضين فرحين،وطالما لم تفعلوا ذلك فإنكم لن تستطيعوا الفوز بهذا الجوهر الأخلاقـــي الذي يسمى الخير والكرم.قال تعالى :

"لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون،وما تنفقوا مـــن شـــيء فـــإن الله بـــه عليـــم"(آل عمران:٩٢). أي أن الله عليم بحال القلوب،ويعلم نيتكم وأي نوع من المال تبذلونــــه،وإن كانت حقيقة كل هذا خافية علـــى الآخريـــن،إلا أنـــها لا تخفـــى علـــى العليـــم بـــذات الصدور،ولهذا فإنه ينعم بالأجر والثواب كاملين،وهكذا يعود ما تبذلونه فـــي الصدقـــات عليكم بالنفع،وعلى المستوى الدنيوي فإن ما تبذلونه لتقوية أعمال المجتمـــع ومســـاعدة المحتاجين والمساعدة في الجهاد،كل هذا يقوى به المجتمع،بل إن فيه حياته،وأنتم عضـــو في هذا المجتمع،ومعلوم في الدين أن ثواب الخير يكون لمن يقوم به.قال تعـــالى:"ومـــا تنفقوا من خير فلأنفسكم،وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله،وما تنفقوا من خير يوف إليكـــم وأنتم لا تظلمون"(البقرة:٢٧٢).ولهذا فإن ما ينعم الله به من ثواب في الدنيا ينعم به فـــي الآخرة مكتملاً وزيادة،وقد عبر الله تعالى عن هذا الأمر في القرآن الكريم بالقرض،فقال:

" من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة " (البقرة : ٢٤٥) .

" من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له،وله أجر كريم " (الحديد : ١١) .

ثم يقول تعالى بعد ذلك :

" إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم"(الحديد:١٨).

وأحياناً يأتي هذا الأمر في صورة الأمر:"وأقرضوا الله قرضاً حسناً"(المزمل:٢٠).

وقال القرض الحسن لأنه يعطى بإخلاص,ولا يطالب المقرض من اقترض منه بأية مصلحة دنيوية في مقابل هذا الأمر,ولا يمن عليه أن أقرضه,بل ولا نية لديه في ذلك.وقد كرر القرآن الكريم للمسلمين ذلك العهد الذي كان الله قد قطعه على بني إسرائيل,وتأتي فيه الزكاة بعد الصلاة والإيمان,وآخر ما جاء فيه قوله تعالى:"وأقرضتم الله قرضاً حسناً"(المائدة:١٢). وبالتالي تكون نتيجة هذه الأمور كلها :

" لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار " (المائدة : ١٢) .

وذلك البدوي الذي آمن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم,وكان ينفق في أعمال الخير بحسن نية مدحه الله تعالى بقوله :

" ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول"(التوبة:٩٩).

وقد بشر الله تعالى أمثال هؤلاء الحكماء بقوله :

" ألا إنها قربة لهم,سيدخلهم الله في رحمته,إن الله غفور رحيم " (التوبة : ٩٩) .

وقد وعد الله تعالى المتقين الأسخياء بمغفرته وجنته الواسعة,وحثهم على المسارعة إليها :

" وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء"(آل عمران:١٣٣).وضرب الله مثلاً في سورة(البقرة)لما ينفق في سبيل الله أزال فيه التعجب من أن ثواب صدقة بسيطة يكون أضعافاً مضاعفة هكذا فقال :

" مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة,والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " (البقرة : ٢٦١) .

ومثلما أن حبة واحدة تصير مئات الحبات,فإن ثواب بذرة واحدة تنبت مئات الحبات,والله هو الواسع,وليس من الصعب عليه أن تصبح الواحدة عنده مائة,وهو العليم أيضا بمن أنفق بنية حسنة,وفي نهاية هذا الركوع من السورة ضرب الله مثلاً آخر لمن

ينفقون ابتغاء مرضاته بنية حسنة فقال:"ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين.فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير " (البقرة : ٢٦٥) .

والمراد من الربوة المرتفعة في هذا المثال النية الحسنة,ومن المطر الزيادة,ومن الطل القليل الإنفاق ومن الأكل الثواب,وكأن الحديقة إن كانت في أرض صالحة ولم تلق الماء الكافي فإنها بالرغم من ذلك تينع بقليل من الرطوبة والطل,وهكذا فإن القليل الذي ينفق في سبيل الله يكون ثوابه مئات مثله,والله يعلم كل شيء,ويعلم بالتالي نواياناا وخفاياها .

وقد أوضح الله تعالى في سورة الليل المستوى الرفيع من الإنفاق ومدى طهارته ونقائه فقال :

" فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى,فسنيسره لليسرى " (الليل : ٧) .

" وسيتجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى,وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى,ولسوف يرضى " (الليل : ٢١) .

فالآية الأولي توضح أن التعود على الإنفاق في سبيل الله يخلق روح الطاعة والعبادة أو العمل الصالح,وكل هذا ييسر على الإنسان القيام بكل عمل صالح,أما مدى فائدة هذه العادة الطيبة فهو ما أوضحته الآية الثانية والتي قالت بأن المتقين الذين اعتادوا الجود والسخاء تحرم عليهم نار جهنم,ولكن بشرط أن لا يكون وراء هذا الجود والسخاء أي مصلحة دنيوية أو القصد إلى رد الإحسان إلى أحد ما,أو غير ذلك من الأعمال غير الخالصة لوجه الله,وإنما تلك التي يقصد بها الله فقط,والتطهر من دنس المال وسوف يجزيه الله تعالى لقاء هذا بأن يسعده,وهناك إشارة في هذه الآية الثانية إلى أن أثر هذه العادة الطيبة أنها تطهر القلوب .

إن حب المال والثروة يعد بمثابة ذلك الغبار الكثيف الذي يلوث مرآة القلب بعد الكفر والنفاق,ويمنع الإنسان من قبول الحق,وتاريخ الإصلاح في العالم كله يشهد بهذا,ولهذا عندما بدأ الإسلام دعوته وعمله الإصلاحي أراد أولاً أن يغسل القلوب من هذا الدنس,وأثنى صراحة على الجود والكرم والسخاء والإنفاق,وذم الحرص والطمع والبخل,وحاول أن يكون أثر تعاليمه هذه هو أن يزول حب المال والثروة تماماً من قلوب متبعيه :

" ويل لكل همزة لمزة.الذي جمع مالاً وعدده.أيحسب أن ماله أخلده "(الهمزة : ١-٣) .
وفي آية أخرى لتهم الكافرين بحب المال:"وتحبون المال حباً جماً " (الفجر : ٢٠) .

وهذا الحب للمال هو الذي يمنع من السير على طريق الخير,ويظن الإنسان أنه إن اختار هذا الطريق فسوف تنقص ثروته,وينفق ماله,وقد أوضح الله تعالى هذه الوساوس الشيطانية فيما يتعلق بالإنفاق بقوله:"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء,والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً,والله واسع عليم " (البقرة : ٢٦٨) .

وهناك ثروة عظيمة تسمى في الاصطلاح القرآني(الحكمة)وهي مفتاح القلب الذي تتفتح به خزائن العلم والعمل المغلقة,ولا يستطيع أحد الحصول على هذه الثروة طالما لم يتخلص قلبه من حب مال الدنيا وثروتها,ولهذا قال الله تعالى بعد الآية السابقة مباشرة :

" يؤتي الحكمة من يشاء,ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً " (البقرة : ٢٦٩) .

بمعنى أن هذا الوهم الشيطاني من أننا سنفتقر بالإنفاق لا يزيد عن كونه وهم,وأن وعد الله تعالى بأن يفتح أبواب فضله وكرمه صحيح صادق,وهذا كله من أمور الحكمة .

وقال تعالى في آية أخرى أن حب المال والثروة اختبار والنجاح في هذا الاختبار شرط الفلاح,ثم قال وعليكم أن تتخلصوا من شح أنفسكم,لأن الشرط الأول في تحقيق أي أمر عظيم هو التضحية بالمال والنفس,ومن يثبت في هذا الميدان فقد أفلح,ومن اهتزت قدماه فقد خاب :

" إنما أموالكم وأولادكم فتنة,والله عنده أجر عظيم,فاتقوا الله ما استطعتم,واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم,ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون,إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم,والله شكور حليم " (التغابن : ١٧) .

وهكذا جاء في هذه الآيات أن الإنفاق وعمل الخير هو مفتاح الفلاح,وهو ما يتطابق حرفاً حرفاً مع تاريخ الإصلاح لدى الإنسانية,ورقي الأمم في جانب كبير منه يتوقف علي إنفاق المال في أعمال الخير,وتقسيمه بين من هم في حاجة إليه,أي في حاجات المجتمع وأفراده الذين لا يقدرون على الكسب,وفائدة هذا أن لا تتجمع الثروة عند شخص واحد فقط,وينجوا الناس من تضخم ثروات البعض,ولا يتردد الناس في

أعمال الخير بخلاً وطمعاً,وهذا أحد الأهداف الكبرى من تعاليم الإسلام حول الإنفاق.أما ما يمنع الإنسان من الإنفاق فهو أمران لا طائل من ورائهما :

* لماذا أعطي ما أملك للآخرين ؟.* إن أعطيت الآخرين قل مالي,وسأفقده عند الحاجة فيؤذيني ذلك .

وقد قضى الإسلام بتعاليمه على هذه الوساوس,فقال وأكد على متبعيه بأن هذا المال ليس ملكاً لأحد منا,وإنما هو ملك لله فقط,هو مالكه,ولهذا يجب أن ينفق في سبيله:

" وما لكم لا تنفقون في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض " (الحديد : ١٠) .

وذم البخل قائلاً :

" ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم,بل هو شراً لهم سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة,ولله ميراث السماوات والأرض " (آل عمران : ١٨٠) . كما جاءت الآية التالية في مواضع متعددة في القرآن الكريم بتغيير طفيف في الألفاظ :

" ولله ما في السماوات و الأرض " .

ونفس الشيء بالنسبة للآية التالية : " له ملك السماوات والأرض " .

وقد أراد المنافقون أن يوقفوا مساعداتهم المالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللإسلام بالحيلة والتآمر,حتى يتفرق المسلمون الذين تجمعوا إذا لم يجدوا مصادر إنفاق,وقد أطلع الله تعالى رسوله الكريم على مؤامرة المنافقين هذه,وبنفس الوقت رد على المنافقين زعمهم الباطل من أنهم هم مصدر الإنفاق في الإسلام,فقال :

" هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا,ولله خزائن السماوات والأرض,ولكن المنافقين لا يفقهون " (المنافقون : ٧) .

وقد كان المنافقون يعتقدون أن هذه الأموال التي ينفق منها على الدعوة النبوية تعتمد عليهم,فقال الله بأن هذا الاعتقاد خاطئ,وأن ما في السماوات والأرض من ثروات هي لله,وهو يعطي من يشاء,وقد أبطل الله تعالى فكرتهم هذه مرات عديدة قائلاً :

"له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر,إنه بكل شيء عليم"(الشورى:١٢)

ومن المسلم به أن سعة الرزق وضيقه ما هما إلا طريقين متوازيين لابتلاء الإنسان,فإذا كان الأول امتحاناً للسخاء والإيثار وعدم التعلق بالمال والشكر,فإن الثاني اختبار للقناعة وعدم الطمع والصبر قال تعالى :

" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن,وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن,كلا " (الفجر : ١٧) .

المهم أن سعة الرزق و ضيقه كلاهما من الله تعالى,وله في ذلك حكمة,وقد يعتقد الغني أن به ميزة خاصة هي السبب فيما هو فيه من غني,أو أنه يعرف طريقة وفن الحصول على الثروة التي تحيط به,ويكفي لإزالة هذا الفهم الخاطئ أن تلقي نظرة متأنية على أحداث الدنيا بعيداً عن التعاليم الدينية,لكن قصيري النظر من البشر لا يلتفتون إلى هذه الناحية,وقد رسم القرآن الكريم خريطة لهذه الجبلة الإنسانية وأثبت خطأها :

" فإذا مس الإنسان ضر دعانا,ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة,ولكن أكثرهم لا يعلمون,قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا,والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين.أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر,إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون"(الزمر:٤٩).

ورزق كل حي على الله,فإذا ما تيقن الإنسان من ذلك صار من السهل عليه أن يكون سخياً كريماً,وقد أكد الإسلام هذه الحقيقة للبشرية قائلاً :

" وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها,كل في كتاب مبين"(هود:٦).

والأمر الثاني أن تيقن الإنسان أن ما يناله الآخرون من أرزاقنا إنما هو مكتوب لهم وهو لهذا لهم وليس لنا,وقد أراد الإسلام أن يتشرب متبعوه هذه المسلمات لكي يخلق بداخلهم جوهر الكرم والسخاء,إذ أن الله تعالى هو الذي يرزق الجميع,والله تعالى يتساءل قائلاً :

" ومن يرزقكم من السماء والأرض,أءله مع الله " (النمل : ٦٤) .

وهو الذي يمنح الرزق : " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " (الذاريات : ٣) .

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه التعاليم بطرق مختلفة ومؤثرة،وأكد عليها،فقال:"لا تقتروا وإلا قتر الله عليكم"(1)بمعني أنه عليكم أن لا تتوقفوا عن الإنفاق وإعطاء الآخرين،وإلا منعكم الله ولم يعطكم،وذات مرة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة قائلاً"من منكم يحب مال ورثته أكثر من ماله؟فقال الناس:لا أحد منا يا رسول الله يحب مال ورثته أكثر من ماله،فقال صلى الله عليه وسلم:إذا فمالك هو ما ترسله أمامك،وما تركت خلفك هو مال الورثة " .

وذات مرة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية"ألهاكم التكاثر"،ثم قال:إن ابن آدم يقول مالي مالي،ومالك هو الذي تصدقت به أو أكلته فأفنيته،أو لبست فأبليته".وقال صلى الله عليه و سلم لأبي ذر رضي الله عنه:"يا أبا ذر،ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهباً،وأن يبقى منه لدي دينار واحد بعد يومين،ولكني أتركه لسوء دين،وأنا سأقول قسموه بين عباد الله يمنة ويسرة"،ثم قال صلى الله عليه وسلم:نعم من كان لديه هنا سيكون لديه هو يوم القيامة أقل،لكنه يقول:قسموه هكذا يمنة ويسرة".

وقال صلى الله عليه وسلم لا حسد إلا في اثنتين،رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق،ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه " .

ويعلم من الجزء الأول من هذا الحديث أن السخاء اسم للإعطاء في الحق،وأن ما لا يكون في مصرفه الصحيح أو يزيد عن حده فهو إسراف وتبذير ذمه الله تعالى في القرآن وقال إن خطى المسلم معتدلة لا تخرج عن الاعتدال،وسوف يأتي بيان هذا تفصيلاً عند الحديث عن الإسراف و البخل .

وليس من السخاء أن تبقي ملتصقاً بما جمعته طيلة العمر،فإذا ما جاء الموت وتيقنت أن العمر قد انتهى فتضرب عندئذ كفاً بكف وتتمني لو أعطيت فرصة فتنفق هذا المال في عمل الخير،وقد صور القرآن الكريم هذا العجز لدى الإنسان بأسلوب مؤثر،ونصح المسلمين بأن ينفقوا حال حياتهم :

" وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين " (المنافقون : ١٠) .

وأجاب الله تعالى عليه بقوله :

---

1 صحيح البخاري-كتاب الرقاق-باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:(ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً)

" ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون " (المنافقون : ١١) .

ولهذا فإنه ينبغي إنفاق ما تريد إنفاقه في وقته الصحيح،وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:أي الصدقات أعظم؟فقال صلى الله عليه وسلم أن تتصدق وأنت بصحة جيدة،ولديك رغبة في المال وأمل في الحياة،ولا تتأخر في الإنفاق إلى أن تبلغ الروح الحلقوم فتقول أعطوا فلاناً كذا،بينما سوف يصير هذا لفلان هذا بعد موتك .[1]

وقال صلى الله عليه وسلم-يا بن آدم الإنفاق خير لك وجمع المال وتركه شر لك " .

العفة والطهارة

العفة والطهارة هما روح كل تلك المميزات الأخلاقية التي تتعلق بالشرف والكرامة،ولهذا عدهما الإسلام من المحاسن الأخلاقية التي هي بمثابة النور لوجه المسلم،ولهذا جاء ذكر هذه الصفة الأخلاقية مع الصفات المميزة للمسلمين في سورة (المؤمنين) :

" والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون " (المؤمنون : ٥-٧) .

كما جاءت صفة العفة والطهارة أيضاً ضمن التعريف الذي ورد في سورة(المعارج) للمسلمين :

" والذين هم لفروجهم حافظون " (المعارج : ٢٩) .

والذين يتسمون بالعفة وطهارة الذيل تضمهم قائمة الذين وعدهم الله بعفوه وأجره العظيم:

" والحافظون فروجهم والحافظات " (الأحزاب : ٣٥) .

ويعلم من الآيتين السابقتين أن القرآن الكريم قد استخدم مصطلح(حفظ الفروج)للتعبير عن العفة والشرف،والحفظ بمعنى الرعاية والحراسة،والفروج تحمل في معناها استعمالاً مجازياً،وكم من الألفاظ التي تستخدم في بداية أمرها بشكل مجازي

---

[1] صحيح مسلم-ص١٠٣-باب بيان أفضل الصدقة-مصر.حدثنا زهير بن حرب،حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع،عن أبي زرعة،عن أبي هريرة،قال:أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله أي الصدقة أعظم؟فقال:أن تصدق وأنت صحيح شحيح،تخشى الفقر وتأمل الغنى،ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا،ولفلان كذا،ألا وقد كان لفلان.

لتجنب ما فيها مما قد يستحي منه الإنسان،ثم بعد ذلك لم يعد لــها هــذا الأثــر لكــثرة استعمالها،والمعنى الأصلي للفروج هو الفراغ والخلاء بين شيئين،ولهذا يطلق أيضاً على تلك المناطق الحدودية التي يخشى من غارات الأعداء من خلالها،ويطلق هذا اللفظ فــي الأعضاء الإنسانية على ذلك الخلاء الموجود بين الرجلين،والذي يخشى عليه من هجوم الأعداء،ويحتاج إلى حراسة وحفظ دائم،ويتضح من هذا الأسلوب في التعبير أن تصــور العفة والشرف المرتبط بهذه الألفاظ يحمل معنى عميقاً ورفيعاً .

وقد استخدم القرآن الكريم لفظاً آخر للعفة والشرف وهو(الإحصان)وهو مشــتق من(حصن)والذي يعني القلعة ومنه ألفاظ(حصان،إحصان،محصن)،ولم يرد اللفــظ الأول في القرآن الكريم لكنه جاء في أشعار العرب،ويعني المرأة العفيفة،ومعنى اللفظ الثــاني هو الحفاظ على والحماية،وقد جاء هذا اللفظ في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم،مرتــان فيما يتعلق بالسيدة مريم رضي الله عنها،وجاء في صيغة الماضي المعروف :

" ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها " (التحريم : ١٢) .

" والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا " (الأنبياء : ٩١) .

أما المرة الثالثة التي ورد فيها هذا اللفظ فجاءت بصيغة المبني المجهول،وتعنــي أن الزوج بزواجه منها حافظ عليها وحماها،وفيما يتعلق بالإماء أن من ارتكبت الفاحشة منهن بعد زواجها فماذا يكون عقابها.قال تعالى:"فإذا أحصن" (النساء : ٢٥) .

ومن هذا اللفظ يأتي اسم الفاعل(محصن)أي الذي ينشر ويوفر حمايته لأحد واسم المفعول(محصنة)وهي التي تظللها حماية آخر،وجاء فيما يتعلق بالنكاح قوله تعالى :

" محصنين غير مسافحين " (النساء : ٢٤) .

" محصنات غير مسافحات " (النساء : ٢٥) .

بمعنى أن الهدف من النكاح هو أن تظل المرأة بالحماية والعصمة،وليس الهدف من النكاح قضاء الشهوة الحيوانية،ولهذا جاء لفظ(محصنات)في القــرآن الكريــم فــي معنيين،الأول النساء المتزوجات مثل"والمحصنات من النساء " (النساء : ٢٤) .

والثاني الفتيات الشريفات العفيفات مثل :

" ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات " (النساء : ٢٥) .

وقد استعمل القرآن الكريم محاورة أخرى في بيان عصمة النساء بقوله :

" حافظات للغيب " (النساء : ٣٤) .

يعني اللاتي يحافظن على شرف وعرض أزواجهن في غيابهم .

والحقيقة أن مكانة العفة والشرف في الإسلام كبيرة بحيث أنها تمثل جزء لا يتجزأ من النبوة والرسالة،والأنبياء ونسبهم وآل بيتهم طاهرون دائما من مثل هذه الأمور،وقد اتهم اليهود أم سيدنا عيسى عليه السلام زورا،ورد القرآن الكريم عليهم هذا الاتهام وشهد بعفتها وطهارتها،وصرح بهذه الشهادة في موضعين :

" ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها " (التحريم : ١٢) .

" والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا " (الأنبياء : ٩١) .

وقد شهدت زوجة عزيز مصر بعفة يوسف عليه السلام:

" ولقد راودته عن نفسه فاستعصم " (يوسف : ٣٢) .

وقال تعالى"لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين" (يوسف : ٢٤) .

ويعلم أن العباد الذين يختارهم الله تعالى ويصطفيهم يكونون أطهارا دائما من مثل هذه الأمور,وقد جاء في شأن سيدنا يحيي :

" وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " (آل عمران : ٣٩) .

أما في الإسلام فقد كانت حياة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم مثالا للعصمة والعفة والطهارة,وقد شهد عالم الغيب بذلك فقال :

" أولئك مبرأون مما يقولون,لهم مغفرة ورزق كريم " (النور : ٢٦) .

وقد جاء في القرآن الكريم عكس العفة والشرف وهو الفاحشة,وتعني أمرا سيئا عظيما مثل قوله تعالى:"إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"(الطلاق:١).

" واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكم " (النساء : ١٥) .

والاسم العربي المعروف لهذا السوء هو(الزنا)،وقد منع القرآن الكريم المسلمين من ارتكاب هذا الإثم في الآيات التالية :

" ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا " (الإسراء : ٣٢) .

والطريقة التي قدمت بها هذه النصيحة تعد روحا للبلاغة،فلم يقل الله تعالى(ولا تزنوا)،وإنما قال"ولا تقربوا الزنا"،وهذا الأسلوب لم يؤكد على منع فعل الزنا فقط،وإنما منع الاقتراب منه أيضا،ويعلم من هذا أنه مثلما أن الابتعاد عن الزنا شرف،فإن الابتعاد عن مقدماته وما يقرب منه شرف أيضا،مثل النظر إلى غير محرم بعيون طامعة،أو برغبة محرمة،أو الخلوة به أو لمس بدنه بغير سبب أو الاستمتاع بمحادثته ومجيئه

وذهابه،أو ما شابه ذلك من الحركات غير الشريفة،كل هذا ينـــافي الكرامـــة الإيمانيـــة والشرف الأخلاقي .

ولهذا حرم الإسلام كل تلك الأمور التي تقرب إلى الفاحشة وتمهد لها،والنظــــر هو أول رسول للعلاقة والحب غير الشرعي بين الرجل والمرأة،وقد أمـــــر الله تعـــالى المسلمين رجالا ونساء أن يغضوا من أبصارهم :

" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بمـــا تعملون" (النور : ٣٠) .

والتهاون من المرأة ولو قليل يجرئ الرجل على التمادي،ولهذا جعلت عليـــــهن بعض قيود من الشرف مثل أن يغضضن أبصارهن،وأن لا يرى زينتـــهن مـــن ليـس بمحرم لهن،وأن لا يسمع أحد صوت ما تتزين به من الحلي،ولهذا أمرن بـــأن يمشـــين بهدوء،أو لا يلبسن من الحلي ما يصدر عنه صوت،وأن يغطين صدورهـــن فـــإذا مـــا خرجت من البيت أرخت الرداء على جسدها كله،وعليها أن لا تتعطر عند خروجـــها،ولا تمشي في وسط الطريق وإنما في جانب منه،وأن لا يتحادث الرجـــال والنســـاء أثنـــاء سيرهن في الطريق،وأن لا يحدث اختلاط في جلساتهن،وأن لا يختلـــي غـــير محـــرم بامرأة،وأن لا يسمحن لأحد بدخول البيت بغير إذن،وهذه الأمور كلها في الحقيقة بمثابـــة شرح لقوله تعالى"ولا تقربوا الزنا". قال تعالى :

" وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتـــهن إلا مـــا ظهر منها([1])وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائـــهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانـــهن أو بنـــي إخوانـــهن أو بنـــي أخواتهن أو نسائهن([2])أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجـــال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء.ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين مـــن زينتهن،وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " (النور : ٣١) .

وفي الآيات التالية تعاليم لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم،ومع ذلك يمكن أن يحتذي بها :

[1] مثل كحل العينين والحنة في اليد أو الخاتم في الإصبع،وهذا لا يدخل الوجه ولا اليدين في الستر

[2] يعني صديقاتهن و الخادمات لديهن وأولئك اللاتي يكثر معهن جلوسهن(روح المعاني)١٢.

" يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض([1])وقلن قولا معروفا,وقرن في بيوتكم ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى"(الأحزاب:٣٢).ولا يدخل أحد في بيت آخر إلا بإذنه :

" يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم " (الأحزاب : ٥٣) .

ورغم أن الحكم هنا خاص بحادثة بعينها,إلا أن هدف الحكم ليس بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فقط.وهكذا جاء هذا الحكم لبيوت المسلمين عموما فيما يتعلق بالعفة والطهارة في سورة(النور):

" يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون " (النور : ٢٧) .

فإذا ما طلب رجل غير محرم أمرا من المكان الذي يجلس فيه النساء فعليه أن يطلبه من وراء حجاب،لا أن يدخل هكذا عليهن،ولهذا جاء فيما يتعلق ببيوت النبي صلى الله عليه وسلم:

" وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب،ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن"(الأحزاب:٥٣).

ورغم أن هذا الحكم نزل في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المطهرات،لكنه نموذج من حسن الأدب يمكن أن تحتذيه بيوت المسلمين جميعا .

وحين تخرج المرأة المسلمة من بيتها يجب أن تغطي نفسها بردائها حتى تخفي زينتها وجمالها عن المارة في الطريق،ويعرف الجميع أنها امرأة حرة شريفة،وأن النظر إليها وليس معاكستها فقط جريمة في الشريعة الإسلامية،قال تعالى:

" يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن،ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين،وكان الله غفورا رحيما،لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم،ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا " (الأحزاب : ٦٠) .

والإشارة في هذه الآيات الكريمة إلى بعض أشرار المدينة ومنافقيها الذين كانوا يضايقون نساء المسلمين اللاتي كن يخرجن لبعض ضروراتهن،وحين كانوا يعاتبون على ذلك كانوا يقولون حسبناهن إماء،وللقضاء على هذا السوء الاجتماعي أمر الله

---

[1] أي لا يتجرأ عليكن ويطمع فيكن .

للطرفين بنفس الحكم،فقال فيما يخص الأشرار إن لم يرجعوا عن هذه الحركة فسوف يعاقبون،بل سوف ينفون من المدينة،وقال فيما يخص نساء المسلمين أنهن حين يخرجن من بيوتهن لضرورة لا بد أن يبدو من مظهرهن أنهن حرائر شريفات،ولا بد أن يتميزن في ملابسهن عن النساء الأقل درجة في المجتمع،وقد وضح ذلك قائلا بأنهن حين يخرجن من البيت عليهن أن يلتحفن برداء كبير يخفي ما تحته من ملابس ملونة وحلي وما شابه ذلك مما تتجمل به المرأة،وهكذا يظهر للناظرين أنهن حرائر شريفات،واحترامهن فرض على كل شريف .

وكان العرب قبل الإسلام يتاجرون ببيع الإماء([1])،وكانوا يأكلون من كسبهن،ولا يعدون ذلك عيبا،وكان هناك أحد منافقي المدينة المعروفين وهو عبد الله بن أبي سلول،وكان يجبر إماءه على هذا العمل البغيض،ومع ذلك فقد كان ينظر إليه باحترام في مجتمع المدينة قبل الإسلام،حتى كانوا يرونه مستحقا لتاج المدينة وأنه شرف لها،وكانت النساء تتزين وتخرج من البيوت،ولا تهتم بتغطية صدورهن،وكانت العاهرات تقدمن الشراب في مجالس الخمر وصدورهن ظاهرة فيتطاول من يريد([2])،وكن يضعن رايات على بيوتهن كعلامة عليهن،فلما جاء الإسلام أصلح هذه العادات وكان لا بد للقضاء على هذا العهر ونشر العفة والشرف أن يتم القضاء على هذه المهنة الوضيعة،ولذا نزلت هذه الآية :

" ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم " (النور : ٣٣) .

ولهذا قرر الإسلام أن المردود المادي من هذا العمل حرام([3])،كما أشار إلى أنه ليس من المستحسن للرجل المسلم أن يتزوج من مثل هؤلاء النساء المنحرفات قبل أن يتبن مما هن فيه([4])،إذ أنه إن فعل فإنه يلوث بيئة المجتمع الإسلامي ويسممه،وقد جاء

---

[1] تفسير الطبري– تفسير سورة النور– صـ ٩٣ – مصر ، و صحيح مسلم و سنن أبي داود .

[2] اقرأ هذا البيت في قصيدة طرفة من السبع المعلقات :

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد .

[3] صحيح مسلم – باب تحريم مطل الغني وغيره .

[4] يرى جمهور العلماء أن زواج الزاني من غير الزانية أو الزانية من غير الزاني صحيح قانونا،لكن ينبغي تجنبه أخلاقا،وحرمته التي تظهر من هذه الآية تحمل على ذمه،أو على أنه لا يليق بشأن المؤمنين أن يقدموا على مثل هذا الزواج،أو أن قوله تعالى"انكحوا الأيامى منكم"أو قوله تعالى " فانكحوا ما طاب لكم من النساء"قد نسخه،أو أنه كان

في سنن أبي داود(كتاب النكاح)أن صحابيا أراد أن يتزوج من امرأة من هذا النوع،وطلب الإذن بذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم،ورد الوحي الإلهي على طلبه هذا بقوله تعالى :

" الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة،والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك،وحرم ذلك على المؤمنين " (النور : ٣) .

ونجد في هذه الآية صورة للفطرة الإنسانية،إذ لا يفكر في الزواج من عاهرة إلا عاهر مثلها،ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك :

" الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات،والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات "(النور:٢٦).

ولهذا لا تحبب الشريعة الإسلامية زواج عفيف من فاجرة ولا زواج عفيفة من فاجر،ويرى بعض العلماء أنه لا يجوز أصلا،ودليله بالإضافة إلى آية سورة(النور)السابقة حديث رواه أبو داود وأحمد عن الثقاة،يقول أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إن من يثبت عليه الزنا ويقام عليه الحد يكون نكاحه من مثله"([1]).

وباختصار فإن شأن أهل الإيمان هو الطهارة والعفة،ولا يدور بخلدهم مثل تلك الأفكار السيئة،ولهذا وصف الله تعالى عباده للمقربين الذين ذكرهم في سورة(الفرقان)بثلاث صفات،وهي أنهم لا يشركون مع الله إلها آخر،ولا يقتلون النفس بغير حق،ولا يزنون،قال تعالى :

"والذين لا يدعون مع الله إلها آخر،ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق،ولا يزنون"(الفرقان:٦٨).

حكما خاصا،لكن هناك بعض الصحابة والعلماء الذين يرون حرمة مثل هذا الزواج،بل ويرون أنه إذا ما ارتكب أحد الزوجين هذا الفعل يفرق القاضي بينهما،ولهذا روي أن عليا رضي الله عنه قد حكم بذلك في زمان خلافته،ويؤيده حديث أبي داود،وقال بعض الفقهاء أن الكفاءة شرط في الزواج،والزانية ليست كفؤا للشريف،ولهذا لا يتم هذا الزواج ولا يستمر،وهناك مسلك آخر بأن هذه الحرمة تظل قائمة طالما لم يتب الزاني أو الزانية عن إثمهما،فإذا ما تمت التوبة جاز الزواج،وانظر أحكام القرآن،والجصاص والرازي وتفسيرات أحمدية لملا جيون والتفسير الكبير للرازي،وروح المعاني–تفسير الآية المذكورة .

[1] أبو داود–كتاب النكاح.حدثنا مسدد،وأبو معمر قالا:ثنا عبد الوارث،عن حبيب،حدثني عمرو بن شعيب،عن سعيد المقبري،عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله.

ومما يدعو إلى التمعن في هذه الآية أن أول أمر ورد ذكره في الآية من الأمور الممنوعة يختص بتلك الحقيقة الكبرى التي يعد إنكارها كفر بواح،ثم جاء بعده أمر يتعلق بالروح،والآخر بالعرض والشرف .

إن الخطوات الاحتياطية التي ذكرها القرآن الكريم للقضاء على الفاحشة وسد الذرائع أمامها هي في الحقيقة شرح لقوله تعالى"ولا تقربوا الزنا"،وشرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل أوضح في خطبه ومواعظه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه إن وقع نظرك بغير قصد منك على غير ذات محرم فإن النظرة الأولى يعفو الله عنها بسبب عدم القصد فيها،ولكن ليس بعد ذلك"(1)،وقد جاءت السيدة أسماء رضي الله عنها،الأخت الكبرى للسيدة عائشة رضي الله عنها ذات مرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثياب رقيقة،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها:يا أسماء إذا بلغت المرأة المحيض لا يجوز أن يظهر منها شيء ما عدا الوجه والكفين"(2)،ولا يدخل المخنث على النساء(3)،وقال صلى الله عليه وسلم،وإذا ذهبت إلى بيت أحد فلا تنظر بداخله قبل أن يؤذن لك،فإن ذلك يعد كشفا لعورات أصحاب البيت(4)،وقال صلى الله عليه وسلم لا تخرج المرأة من بيتها متعطرة(5)،والسبب واضح

---

1 الترمذي–كتاب الاستئذان–باب ما جاء في نظر المفاجأة.حدثنا علي بن حجر.أخبرنا شريك عن أبي ربيعة عن ابن بريدة عن أبيه قال:يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة.

2 أبو داود–كتاب اللباس–باب فيما تبدي المرأة من زينتها.حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي ومؤمل بن الفضل الحراني قالا:ثنا الوليد،عن سعيد بن بشير،عن قتادة،عن خالد،قال يعقوب:ابن دريك،عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق،فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا،وأشار إلى وجهه و كفيه.

3 أبو داود–كتاب الأدب–باب في الحكم في المخنثين.حدثنا مسلم بن إبراهيم،ثنا هشام،عن يحيى،عن عكرمة،عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال:أخرجوهم من بيوتكم،واخرجوا فلانا وفلانا يعني المخنثين.

4 الترمذي– كتاب الاستئذان قبالة البيت.حدثنا قتيبة.حدثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن أبي ذر قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من كشف سترا فأدخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له فرأى عورة أهله فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه،لو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقأ عينيه ما غيرت عليه،وإن مر الرجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه،إنما الخطيئة على أهل البيت.

5 أبو داود–كتاب الرجل–باب في المرأة تتطيب عند الخروج.حدثنا مسدد،ثنا يحيى،أخبرنا ثابت بن عمارة،حدثني غنيم بن قيس،عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي كذا وكذا قال قولا شديدا .

وهو أن رائحتها تثير المارة،وورد عنه صلى الله عليه وسلم أن المرأة لا تسير في وسط الطريق إنما على جانبه بعيدا عن المارة[1]حتى تتجنب زحام الطريق وتزاحم الناس،كما أكد صلى الله عليه وسلم على أن لا يأتي أحد بيت امرأة وحده في غير وجود زوجها،إذ أن ذلك يهيئ فرصة للشيطان[2]،كما وردت النصيحة بالإبقاء على ستارة على باب البيت،فإذا لم يكن باب البيت مغلقا،أو ليس عليه ستارة وحجابا،فإن مسئولية تسلل أحد إلى داخله تقع على أصحاب هذا البيت [3] .

وقد جاءت كل هذه الإرشادات حتى تصبح بيوت المسلمين صورة مجسمة للعفة والطهارة،ولكن لم يتم الاكتفاء بهذه الإرشادات فقط،وإنما قرر عقابا في الدنيا لمن يضع كرامة المجتمع وحرمته في خطر وذلك بعد ثبوت الدليل الشرعي عليه،حتى يكون الخوف من العقاب سببا في أن يعيش الناس حياة شريفة . -

" الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة " (النور : ٢) .

وجاء في الأحاديث أن من يرتكب الزنا من المحصنين رجالا ونساءا[4]فإنه يرجم،وموقف النساء في هذه الجريمة أكثر حساسية،لهذا جاء في القرآن الكريم أنه من الأمور التي تبايع النساء على الالتزام بها أن تحافظ على عرضها وشرفها،قال تعالى:

---

[1] أبو داود- كتاب الأدب- باب في مشي النساء في الطريق.حدثنا عبد الله بن مسلمة،ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن أبي اليمان،عن شداد بن أبي عمرو بن حماس،عن أبيه،عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري،عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد،فاختلط الرجال مع النساء في الطريق،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء:استأخرن،فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق،عليكن بحافات الطريق فكانت المرأة تلتصق بالجدار تى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به.

[2] مسلم-كتاب السلام-باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها.حدثنا هرون بن معروف،حدثنا عبد الله بن وهب،أخبرني عمرو حدثني أبو الطاهر،أخبرنا عبد الله بن وهب،عن عمرو بن الحارث:أن بكر بن سوادة حدثه:أن عبد الرحمن بن جبير حدثه:أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه:أن نفرا من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس،فدخل أبو بكر الصديق،وهي تحته يومئذ،فرآهم،فكره ذلك،فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:لم أر إلا خيرا،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن الله قد برأها من ذلك،ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال:لا يدخلن رجل بعد يومي هذا،على مغيبة،إلا ومعه رجل أو اثنان.

[3] الترمذي-كتاب الاستئذان-باب الاستئذان قبالة البيت.حدثنا قتيبة.حدثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن أبي ذر قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من كشف سترا فأدخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له فرأى عورة أهله فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه،لو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقأ عينيه ما غيرت عليه،وإن مر الرجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه،إنما الخطيئة على أهل البيت.

[4] يعني الرجل الذي له زوجة و المرأة التي لها زوج .

"ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن,ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن"(الممتحنة:١٢).

أما عدم الزنا فهو واضح,فما المقصود بعدم قتل الأولاد التي أخذت بشأنها البيعة من النساء,في حين أن هذا أمر يتعلق بالرجال أكثر,وربما يكون هذا إشارة إلى منع إسقاط الحمل([1]),أو أن يكون الكلام في عموم القتل،أما الإتيان ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن خفية إشارة إلى تقليد من تقاليد الجاهلية حيث المرأة تعاشر من عدة رجال،وحين يولد لديها الولد فإنها هي التي تخبر هؤلاء الرجال بمن يكون هذا ابنه،وبعض النساء كن يحملن من غير أزواجهن وينسبن المولود إلى الزوج،وهذه كلها أمور تنافي العفة والشرف،ولهذا منعت،وأخذ العهد على الثبات بقوة على هذه المبادئ،وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم نساء قريش ونساء الأنصار عند فتح مكة على نفس الأمر([2])،كما بويع الرجال أيضا عليه،وبايع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك([3]).

وعلى الجانب الآخر وضعت بعض الأصول لحماية النساء من افتراء الرجال واتهامهن بالباطل،وهي أنه إذا اتهم رجل امرأة بارتكاب الزنا يصبح لزاما عليه أن يأتي بأربعة شهود،وإلا فإنه يجلد حدا لقذفه النساء الشريفات،ثم لا تعتد بشهادته بعد ذلك أبدا،فإذا ما كان القاذف هنا هو الزوج ولا شهود لديه فإن الرجل يقسم على صدق ما

---

[1] و يعتقد صاحب تفسير روح المعاني بأن هذا هو المقصود .

[2] صحيح البخاري–فتح مكة.حدثنا علي بن عبد الله:حدثنا سفيان:قال:الزهري:حدثناه قال:حدثني أبو إدريس:سمع عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال:(أتبايعونني على أن لا تشركوا بالله شيئا،ولا تزنوا،ولا تسرقوا،وقرأ آية النساء،وأكثر لفظ سفيان:قرأ الآية–فمن وفى منكم فأجره على الله،ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له،ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله،إن شاء عذبه وإن شاء غفر له).تابعه عبد الرزاق عن معمر في الآية.

[3] البخاري–كتاب الإيمان–باب حلاوة الإيمان.حدثنا أبو اليمان قال:أخبرنا شعيب،عن الزهري قال:أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله: أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه،وكان شهد بدرا،وهو أحد النقباء ليلة العقبة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال،وحوله عصابة من أصحابه:(بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا،ولا تسرقوا،ولا تزنوا،ولا تقتلوا أولادكم،ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم،ولا تعصوا في معروف،فمن وفى منكم فأجره على الله،ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له،ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله،إن شاء عفا،وإن شاء عاقبه).فبايعناه على ذلك.

يقول،وإلا تقسم المرأة على كذب اتهام زوجها لها،وإن تمسك كل منهما بموقفه فإن حكمها في الإسلام هو أن ينفصم هذا الزواج بناء على تمسك كل منهما بموقفه [1] .

إن أكبر ذنب في التقصير في حق الله هو الشرك،وأكبر ذنب في حقوق العباد هو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق،أما الذنب الذي يلي ذلك فهو الاعتداء على عفة وشرف أحد.وقد جاء في الحديث أن صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:"يا رسول الله،ما هو أعظم الذنب؟،فقال صلى الله عليه وسلم:أن تشرك بالله وهو الذي خلقك،فقال الرجل:ثم ماذا؟،فقال صلى الله عليه وسلم:أن تقتل ولدك خوفا من أن يشاركك طعامك،فقال:ثم ماذا؟،فقال صلى الله عليه وسلم:أن تزني بحليلة جارك".وهكذا نزلت الآية تصديقا لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]:

"والذين لا يدعون مع الله إلها آخر،ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون"(الفرقان:٦٨).

وقد خص الحديث الشريف قتل الولد والزنا بزوجة الجار بالذكر باعتبار أن هاتين الجريمتين من أكثر الجرائم التي تبعث على العار،إذ أنه لا يتوقع من هذين الاثنين صدور هذا الأمر الذي يصيب الثقة الإنسانية المتبادلة في مقتل.وجاء في حديث آخر"لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الشارب خمرا حين يشرب وهو مؤمن،ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينهب الناهب حين ينهب أمام الناس وهو مؤمن"[3].وذلك لأن الإيمان اسم لليقين،ولا يمكن لأحد لديه يقين على الله وأحكامه أن يتمرد على هذه الأحكام،إذ في مثل هذه الحالة أي حالة ارتكاب الجرم

---

[1] تفصيل هذا في سورة النور،ولم يرد الحكم بنسخ النكاح،ولكن العمل على هذا منذ البداية-البخاري- باب اللعان .

[2] البخاري- كتاب الأدب- باب قتل الولد خشية أن يأكل.حدثني عثمان بن أبي شيبة:حدثنا جرير،عن منصور،عن أبي وائل،عن عمرو بن شرحبيل،عن عبد الله قال:سألت النبي صلى الله عليه وسلم:أي الذنب أعظم عند الله؟قال:(أن تجعل لله ندا وهو خلقك).قلت:إن ذلك لعظيم،قلت ثم أي؟قال:(وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك).قلت:ثم أي؟قال:(أن تزاني حليلة جارك).

[3] البخاري-كتاب الحدود-باب الزنا وشرب الخمر.حدثني يحيى بن بكير:حدثنا الليث،عن عقيل،عن ابن شهاب،عن أبي بكر بن عبد الرحمن،عن أبي هريرة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن،ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن،ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن،ولا ينتهب نهبة،يرفع الناس إليه فيها أبصارهم،وهو مؤمن).

ينطفئ مصباح إيمان المجرم بفعل عاصفة الانفعالات وينسى كل شيء للحظات،ثم يعود إلى رشده و صوابه بعد أن تزول نشوة الذنب .

وعقاب الزناة في الإسلام يكون بالجلد مائة جلدة أحيانا وأحيانا أخرى بالرجم،لكن العذاب الذي سيلقونه في الآخرة سيكون أشد تنكيلا من هذا،ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد أحلامه الروحانية صورا من العذاب الأخروي المؤلم الذي يلقاه كثير من الناس،وكان من بين هذه الصور العذاب الذي يلقاه الزناة بما يليق بفعلهم الشنيع هذا هو فتحة مثل التنور ضيقة من فوق ومتسعة من أسفل،وتشتعل تحتها نار،وبها كثير من الرجال والنساء العرايا،وعندما كانت شعلات اللهب ترتفع كان يعلم بأن هؤلاء سيخرجون من داخل هذا التنور،ولكن عندما كانت النار تنطفئ كان هؤلاء الناس يدخلونه ثانية([1])،وكان هذا هو عذاب البرزخ الذي سيستمر حتى يوم القيامة .

على العكس من ذلك فإن فضائل من يتسمون بالعفة والشرف قد ذكرت بأسلوب مؤثر للغاية،فقد جاء في الحديث أن هناك سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله،من بين هؤلاء رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها،لكنه يرفض قائلا أنه يخاف الله([2]).وهذا هو الشرف الذي سيلقاه الشرفاء يوم القيامة،ولكن بركات هذه العفة والطهارة في الدنيا ليست أقل من ذلك أيضا،فقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قص حكاية ثلاثة من الزمن القديم كانوا في سفر معا إذ نزل المطر فجأة،فلجأ الثلاثة إلى غار في جبل نجاة من الماء،وسقطت صخرة من فوق الجبل قدرا فأغلقت مدخل الغار،ولم يعد لديهم طريقة للنجاة غير أن يعد كل منهم أعماله الصالحة،ويتوسل إلى الله بها،وهكذا فعل الثلاثة ودعوا الله فرفع الصخرة من على مدخل الغار،وكان ما قاله الرجل العفيف من بينهم هو أنه:كانت لي ابنة عم،أحبها كثيرا ولقد أبديت لها رغبتي فيها لكنها رفضت إلا أن أعطيها مائة دينار،وبالفعل جمعت مائة دينار وأعطيتها إياها،وأردت أن أقضي حاجتي منها،لكنها قالت لي:اتق الله،فتراجعت على الفور،يا إلهي،إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من أجل مرضاتك فقط فارفع عنا هذه

---

[1] البخاري – كتاب الجنائز .

[2] البخاري – كتاب الحدود – باب فضل من ترك الفواحش .

الصخرة،فرفعها الله[1])وهذه الرواية تشمل العفة والشرف من بين تلك الأعمال التي تقرب إلى الله،وتؤدي إلى قبول الدعاء .

الأمانة

تحتل الأمانة كجوهر أخلاقي مكانة مركزية في تعاملنا مع بعضنا البعض،والمقصود من الأمانة أن يكون الإنسان أمينا في عمله،وأن يؤدي ما عليه للناس بأمانة كاملة،ولقد أطلق الله تعالى لفظ الأمانة على التكليف الشرعي الذي كلف به البشر: " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها،وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " (الأحزاب : ٧٢) .

ويعلم من هذا أن الشريعة كلها أمانة إلهية عهد الله بها إلينا،ولهذا يكون من الفرض علينا أن نؤدي حق مالك هذه الأمانة كاملا،وإن لم نفعل نكون من الخائنين،وقد اتصف الملاك الذي كان ينزل بأحكام الله على خاصة عباده بالأمانة،حتى يصل إليهم حكم الله كما هو دون زيادة أو نقصان،ولهذا أطلق الله تعالى في القرآن اسم(الأمين)على هذا الملاك :

" نزل به الروح الأمين " (الشعراء : ١٩٣) .

---

[1] البخاري–كتاب الأدب–باب إجابة دعاء من بر والديه.حدثنا سعيد بن أبي مريم:حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة قال:أخبرني نافع،عن ابن عمر رضي الله عنهما،عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر،فمالوا إلى غار في الجبل،فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم،فقال بعضهم لبعض،انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة،فادعوا الله بها لعله يفرجها.فقال أحدهم:اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران،ولي صبية صغار،كنت أرعى عليهم،فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي،وإنه نأى بي الشجر يوما،فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما،فحلبت كما كنت أحلب،فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما،أكره أن أوقظهما من نومهما،وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما،والصبية يتضاغون عند قدمي،فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر،فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء.ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء.وقال الثاني:اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء،فطلبت إليها نفسها،فأبت حتى آتيها بمائة دينار،فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها،فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله،ولا تفتح الخاتم إلا بحقه،فقمت عنها،اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة.وقال الآخر:اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز،فلما قضى عمله قال:أعطني حقي،فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه،فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها،فجاءني فقال:اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي،فقلت:اذهب إلى تلك البقر وراعيها،فقال:اتق الله ولا تهزأ بي،فقلت:إني لا أهزأ بك، فخذ تلك البقر وراعيها،فأخذه فانطلق بها،فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج ما بقي. ففرج الله عنهم).

" مطاع ثم أمين " (التكوير : ٢١) .

وكانت صفة الأمانة أكثر الصفات التي وردت في القرآن الكريم للأنبياء،وكان كل واحد منهم يقول لأمته:"إني لكم رسول أمين"(الشعراء:١٦٢).يعني أن الرسالة التي جاءتني من الله تعالى أبلغها لكم بغير زيادة أو نقصان،ولم أضف إليها شيئا،وقد لقب الناس نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية بـ(الأمين)،لأنه كان أمينا في تعاملاته،وكان يرد الأمانة إلى من ائتمنه كاملة دون نقصان،ومن صفات المؤمنين الذين يعملون الصالحات :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المؤمنون : ٨) .

وجاء في بعض الروايات أن مفتاح الكعبة كان عند عثمان بن طلحة بن عبد الدار الشيبي،وقد أخذ منه هذا المفتاح عنوة عند فتح مكة فنزلت هذه الآية :

" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " (النساء : ٥٨) .

وهكذا ردت إليه الأمانة طبقا لهذه الآية،وحين سأل عن السبب في ذلك قال له علي رضي الله عنه:"لقد أمر الله بهذا"،ولم يكن هذا الرجل قد أسلم حتى وقت فتح مكة،وقد أثر فيه هذا الأمر بالعدل والأمانة في الإسلام فأسلم [1] .

على أي حال تعتبر هذه الواقعة من أسباب النزول،ويمكن إطلاقها من حيث المعنى على كل جزئيات و تفاصيل الأمانة،ولهذا فإنه طبقا لأقوال أهل التفسير تدخل في وسعتها الأمانة الإلهية التي تسمى على سبيل العموم(بالتكليف الشرعي)[2]،كما تدخل فيها الأمانة المسماة بالعدل والإنصاف والتي تجبر الحكام على أداء حقوق رعاياهم،كما تدخل فيها أيضا كل الأمانات التي يجب ردها لأصحابها .

ويعلم من هذا التفصيل أن دائرة الأمانة ليست مقصورة على التعاملات المادية في الأموال والممتلكات فقط مثلما يفهم عامة الناس،وإنما تتسع لتشمل كل المعاملات المالية والقانونية والأخلاقية،فإذا كان لأحد عندك شيء فإن رده إليه عند طلبها أمانة،وأن تؤدي ما بقى عليك لأحد من حق أمانة،وإن جلست في مجلس وسمعت شيئا يقال عن شخص ما فلم تنم إليه بما قيل عنه خوف الفتنة،وأبقيت الأمر محدودا على الجلسة التي كنت فيها فذلك من الأمانة،وأن استشارك أحد في أمر يخصه فأشرت بالمشورة

---

[1] تفسير الكشاف للزمخشري .

[2] المرجع السابق .

الصحيحة،ولم تفش سره لأحد كذلك من الأمانة وإذا أدى أحد ما تتطلبه الوظيفة التي يشغلها بإحساس بالمسئولية فذلك من الأمانة،وإذا كان أحد يعمل لدى أحد ثماني ساعات في اليوم فينقص منها بغير إذن صاحب العمل أو يتكاسل عن عمله،أو يأتي إليه متأخرا،أو ينصرف قبل الموعد المحدد فإن هذا ينافي الأمانة،وقد جاء تفصيل كل هذا في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة،وقد بشر القرآن الكريم أولئك المسلمين بالفلاح لأنهم :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المؤمنون : ٨) .

وكذلك أولئك الذين سيدخلون الجنة مكرمين معززين قال عنهم :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المعارج : ٣٢) .

ولو وضع أحد عند أحد أمانة،أو أخذ منه رهنا لسداد قرض لم يتيسر له من يكتبه أو يشهد عليه لسفر:

" فليؤدي الذي اؤتمن أمانته،وليتق الله ربه " (البقرة : ٢٨٣) .

أي لا ينكر الأمانة التي لديه أو يحتال في أدائها أو يتصرف فيها بغير إذن صاحبها أو يأتمننا أحد على كلام قاله فنستغل نحن ثقته هذه ونتآمر عليه،فإن هذه الأمور كلها خيانة منعها الإسلام صراحة :

" وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون " (الأنفال : ٢٧) .

ولقد سقى سيدنا موسى عليه السلام في سفره إلى مدين شياه فتاتين ولم يأخذ منهما أجرا،وعادت الفتاتان فأثنت إحداهما لأبيها على سيدنا موسى،وطلبت منه أن يستأجره،وجاء هذا الأمر في الآية الكريمة التالية :

" يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين " (القصص : ٢٦) .

وقد وصفت هذه الآية أفضل من نستخدمهم في عمل بأن تكون لديه القدرة والكفاءة على القيام بالعمل،وأن يؤديه بأمانة كاملة،ونعرف من هذا أن من يعهد إليه بعمل باعتبار أنه أهل له عليه أن يقدم الدليل على هذه الثقة،وأن يؤدي عمله هذا بكل أمانة،فإذا ما جاء شخص يعمل في وظيفة لست ساعات،وجلس لسلعتين هكذا كسلا دون أن يؤدي عملا،فإنه في نظر الإسلام ليس أمينا وإن لم يعتبره عامة الناس خائنا،أو يأتي شخص ويدعي أنه أهل لعمل ما حتى يحصل عليه،ولكنه في الحقيقة ليس أهلا لهذا العمل فإن هذا ينافي الأمانة .

وقد عددت الأحاديث الشريفة جزئيات الأمانة وتفاصيلها،وذكرت كثيرا من الأمور التي لا يعدها الناس خيانة،بينما هي خيانة،وإذا تمعن فيها أحد لعلم أنها خلاف للأمانة من الناحية الأخلاقية .

ومثلما ذكرت آية في القرآن الكريم بأن الإنسان حمل عبء أمانة الله تعالى،فقد أشار حديث شريف إلى نفس الأمر أيضا،يقول أمين سر النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا حذيفة رضي الله عنه لقد سمعنا شيئين من رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت أحدهما بعيني،والثاني هو أنه صلى الله عليه وسلم قال:إن الأمانة في فطرة البشر وفي أعماق قلوبهم،ثم عرفوا شيئا من القرآن وتعلموا بعضا من السنة(بمعنى أن جوهر الأمانة لدى الإنسان يرتقي ويصقل بالتعليم الجيد)يقول سيدنا حذيفة:ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حال تلاشي الأمانة فقال:ثم يكون الحال أن يمسي الرجل وقد ا‑ عت من قلبه الأمانة،ولا يبقى إلا أثر يدل عليها كأثر الجرح فرغ مما فيه،وسيصبح الناس هكذا،يتعاملون فيما بينهم ولكن بغير أمانة،وستقل الأمانة حتى يضرب بها الناس المثل فيقولون كان هناك رجل أمين في القوم الفلاني،وسيمدح الإنسان بعقله وطبيعته الحسنة وشجاعته،في أنه ليس في قلبه مثقال ذرة من الإيمان " ([1]) .

وقد جاء في الجزء الأول من الحديث أن الأمانة موجودة في فطرة الإنسان،وإنها تزيد بالتعليم،ثم ذكر تراجع هذه الفطرة بالصحبة السيئة،وقال بأنه في أخر الزمن سيكون أمر الأمانة كمثل جرح فرغ مما فيه و لم يبقى إلا أثره .

وجاء في الطبراني الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا دين لمن لا عهد له،والذي نفس محمد بيده لا يصح قلب امرؤ حتى يصح لسانه،ولا يصح لسانه حتى يصح قلبه،ومن كسب مالا حراما وانفق منه لا يبورك له

---

[1] صحيح البخاري-باب رفع الأمانة وكتاب الفتن والرقاق،وصحيح مسلم ومسند أحمد والترمذي وابن ماجة.حدثنا محمد بن كثير:أخبرنا سفيان:حدثنا الأعمش،عن زيد بن وهب:حدثنا حذيفة قال:حدثنا رسول الله حديثين،رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر:(أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال،ثم علموا من القرآن،ثم علموا من السنة).وحدثنا عن رفعها قال:(ينام الرجل النومة،فتقبض الأمانة من قلبه،فيظل أثرها مثل أثر الوكت،ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط،فتراه منتبرا وليس فيه شيء،فيصبح الناس يتبايعون،فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة،فيقال: إن في بني فلان رجلا أمينا،ويقال الرجل:ما أعقله وما أظرفه وما أجلده،وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان) .

فيه،وإن تصدق منه لا يقبل منه،وما تبقى منه يكون زاده إلى جهنم،ولا يمكن أن يكـون الشيء السيئ كفارة للشيء السيئ،ولكن الشيء الطيب يكون كذلك " ([1]) .

وجاء في عدة كتب من كتب الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال:"لا إيمان لمن لا أمانة له"([2]).وهذا واضح،لأن القلب إن خدع في موضع ما فإنه يستطيع أن يخدع في كل المواضع .

وإذا ما استشار أحد أحدا فإن على من استشـير أن يعطـي رأيـه ومشـورته بأمانة،وقد استشار أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة فقال صلى الله عليه وسلم:"من استشرته فقد استأمنته"([3])،ولهذا قال صلى الله عليـه وسـلم إن كـلام المجلس أمانة،بمعنى أنه لا يجب نقل كلام من مكان إلى آخر فيكون سببا في الفتنـة،إلا أن يستفاد منه في القضاء على فتنة،وقد قال صلى الله عليه وسلم"المجالس بالأمانـة"إلا في ثلاثة مواضع أن يكون هناك تآمر على قتل نفس بغير حق([4])،أو انتهاك عـرض أو أخذ مال الغير بغير حق،عندئذ يجب إخبار أصحاب الشأن بالأمر .

وإفشاء السر ينافي الأمانة،بل إن ما يدور بين الرجل وزوجته في الخفاء يعـد سرا يبعث إفشاؤه على العار،ويكون انتفاء للأمانة([5])،والسر ليس هو الذي يقـول لنـا صاحبه أنه سر فقط،وإنما من السر أيضا كل ما لا يريد أن يخبر به غيرنا،وقـد قـال صلى الله عليه وسلم:عندما يتحدث شخص مع آخر وينظر حوله وقت الحديث لئلا يـراه

---

[1] كنز العمال – الجزء الثاني – صـــ ٥ – حيدر آباد – من الطبراني الكبير عن ابن مسعود .

[2] كنز العمال – الجزء الثاني – صـــ ١٥ – من الطبراني الأوسط و الطبراني الكبير و ابن عدي في الكامل و البيهقي في شعب الإيمان .

[3] ادب المفرد–البخاري–باب المستشار مؤتمن.حدثنا ابو بكر بن أبي شيبة,حدثنا يحيى بن بكير عن شيبان,عن عبد الملك بن عمير,عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "المستشار مؤتمن"

[4] أبو داود– باب في نقل الحديث.حدثنا أحمد بن صالح قال:قرأت على عبد الله بن نافع قال:أخبرني ابن أبي ذئب،عـن ابن أخي جابر بن عبد الله،عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس:سفك دم حرام،أو فرج حرام،أو اقتطاع مال بغير حق.

[5] أبو داود– كتاب الأدب.حدثنا محمد بن العلاء وإبراهيم بن موسى الرازي قالا:أخبرنا أبو أسامة،عن عمر،قال إبراهيـم هو عمر بن حمزة بن عبد الله العمري،عن عبد الرحمن بن سعد قال:سمعت أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله صلـى الله عليه وسلم:إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها.

أو يسمعه أحد فإن هذا الكلام يعد أمانة([1])وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخيانة في الأمانة من علامات النفاق ([2]) .

وعندما يتزوج رجل امرأة فإنه يتزوجها طبقا لشروط الله تعالى في هذا الأمر،لكن إذا تزوج رجل امرأة وقصر في أداء حقوقها أو لم يؤد إليها حقوقها أصلا فكأنه خان أمانة الله تعالى،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع المشهورة أن"اتقوا الله في النساء"وقال:"لأنكم استحللتم فروجهن بكلمة الله وعهده وأمانته"([3]).

وجاء في علامات الساعة أن أول شيء ينتهي من هذه الأمة هو الأمانة،وآخر شيء يبقى منها هو الصلاة،وكم من مصل ليس لله شيء من صلاته ([4]).وقال صلى الله عليه وسلم " ستبقى أمتي على الفطرة طالما لم تعتبر الأمانة غنيمة،والزكاة عبئا"بمعنى أنه طالما لم ينظر المسلمون إلى الأمانة على أنها كسب لهم،وإلى أعمال الخير على أنها عبء عليهم فإن صلاحيتهم و قابليتهم الفطرة ستظل باقية قائمة .

الحياء

الحياء فطرة إنسانية يحاول من خلالها الإنسان أن يتجنب كل ما يسئ إليه،ليس هذا فحسب بل إن المروءة بين الإنسان والآخر هي بدافع الحياء كما أن اجتناب الكثير من المعاصي لا يكون وراءه إلا الحياء .

وأول من اتصف بهذه الصفة هو الخالق سبحانه وتعالى ولكن معناه هنا يناسب ذاته العلية فمثلا يرى عباده المذنبين ولكن يسترهم كما أن من يمد يده لله فلا يخيبه الله

---

[1] المرجع السابق.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،ثنا يحيى بن آدم،ثنا ابن أبي ذئب،عن عبد الرحمن بن عطاء،عن عبد الملك بن جابر بن عتيك،عن جابر بن عبد الله قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة.

[2] صحيح البخاري-باب علامات المنافق.حدثنا سليمان أبو الربيع قال:حدثنا إسماعيل بن جعفر قال:حدثنا نافع بن مالك بن أبي عامر أبو سهيل،عن أبيه،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(آية المنافق ثلاث:إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف،وإذا اؤتمن خان).

[3] صحيح مسلم-حجة الوداع.فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله...

[4] كنز العمال – الجزء الثاني – ص ١٥ من سنن سعيد بن منصور .

في أمله وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"عندما يمد العبد يداه أمام ذي الجلال والإكرام فيستحي الله أن يخيب أمله " ([1]) .

وفي موضع آخر جاء ثلاثة نفر إلى المسجد النبوي وكان الصحابة يحيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد أحدهم مكانا بين الصحابة وجلس بينهما خجل الآخر وجلس في الخلف وذهب الرجل الثالث،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم عن هؤلاء الثلاثة،إن من جاء وجلس في حلقتنا فقد جاء في ملاذ الله فأعطاه الله ملاذا ومن خجل وجلس في الخلف فقد عفا الله عنه ومن تركنا وأدار وجهه عن الله فقد أدار الله وجهه عنه " ([2]) .

" إن الله لا يستحي من الحق " (البقرة آية ٢٦).وجاء في موضع آخر يقول"والله لا يستحي من الحق" (الأحزاب آية ٥٣).وفي الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم"إن الله لا يستحي من الحق"([3]).

ويظهر من الآيات الكريمة والحديث الشريف أن الإنسان لا يجب عليه أن يستحي من قول الحق كما أن الحديث الشريف يؤكد على أن الله غيور ولهذا حرم السيئات ([4]) .

لقد التقى سيدنا موسى عليه السلام في مدين بفتاتين وبالرغم من أنهن كن بدويتين إلا أنهما كانتا لهما صفات ذكرها الله ومنها أنهما لا يسقيان ماشيتهما حتى يسقي الناس مواشيهم ولا يزاحموا الرجال على الماء،وعندما جاءت إحداهما تستدعي سيدنا

---

[1] البيهقي كتاب الأسماء و الصفات ص ١٢ .

[2] البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم باب السلام.حدثنا إسماعيل قال:حدثني مالك،عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة:أن أبا مرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره:عن أبي واقد الليثي:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه،إذ أقبل ثلاثة نفر،فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد،قال:فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم،فأما أحدهما:فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها،وأما الآخر:فجلس خلفهم،وأما الثالث:فأدبر ذاهبا،فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله،وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه،وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه).

[3] البخاري كتاب الأدب باب ما لا يستحي من الحق.حدثنا إسماعيل قال:حدثني مالك،عن هشام بن عروة،عن أبيه،عن زينب أبي سلمة،عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت:يا رسول الله،إن الله لا يستحي من الحق،فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ فقال: (نعم، إذا رأت الماء).

[4] صحيح مسلم كتاب التوبة ومعنى الغيرة في العربية هي الحياء ولكن المعنى في الحديث يقترب من الحياء و المعنى الأصلي للغيرة هي الرقابة التي لا تريد أن تشارك أحدا في الحب .

موسى لوالدها فجاءته على استحياء،وهو ما ورد في القرآن الكريم:"فجاءته إحداهما تمشي على استحياء"(القصص آية ٢٥) .

والمقصود من هذه الآية هو مدح حياء هذه الفتاة،وهذا الوصف في الحقيقة يلحق الإنسان في طفولته لأنه أمر طبيعي ولو وجد الإنسان التربية الصالحة فلن تفارقه هذه الصفة،وإذا ابتلى بصحبة السوء فلا شك أن هذه الصفة ستذهب عنه ولهذا حرص الإسلام على رعاية الحياء وطلب بستر العورة وغض الطرف وعدم الخوض في أحاديث مخجلة،ومنع العري لدرجة أنه لا يجوز لأي إنسان أن يقتحم خلوة أحد ولهذا فالعين نفسها تخجل،ولو رفع الإنسان برقع الحياء فتوقع من كل شيء .

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم طفلا،وكان الناس في ذلك الوقت يبنون الكعبة فبينما الرسول صلى الله عليه وسلم يرفع الحجارة طلب منه عمه العباس أن يرفع لباسه ويضعه على كتفه حتى لا ينجرح كتفه ففعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وأغمي عليه فلما أفاق سأل عن إزاره فربط له سيدنا العباس رضي الله عنه لباسه([1])،وكان حاله صلى الله عليه وسلم بعد البعثة كما يقول الصحابة رضوان الله عليهم"كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها " .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض لكثير من الإيذاء ولكنه كان يستحي أن يقول شيئا وهذا ما أكده القرآن الكريم في سورة الأحزاب"إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم" (الأحزاب آية ٥٣).والحياء شيء فطري نمدحه ولكن أحيانا يكون الحياء ضررا علي الإنسان وذلك عندما يشمل الحياء عنصر الجبن والخوف،ولا يستطيع الإنسان معه أن يفعل شيء في المجتمع بسبب الحياء والخجل ليس هذا فحسب بل أنه أحيانا يكون نقطة ضعف الإنسان ولهذا عالجت الشريعة الإسلامية عنصر الجبن والخوف في الحياء بمعنى أنه لا يجب علي الإنسان أن يخشى في الحق لومة لائم،ولكن إذا كان الحياء لا يقع ضرره علي الآخر فهو شيء ممدوح .

---

[1] البخاري كتاب الحج باب فضل مكة وبنيانها.حدثنا عبد الله بن محمد:حدثنا أبوعاصم قال:أخبرني ابن جريج قال:أخبرني عمرو بن دينار قال:سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:لما بنيت الكعبة،ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة،فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم:اجعل إزارك على رقبتك،فخر إلى الأرض،وطمحت عيناه إلى السماء،فقال:(أرني إزاري).فشده عليه.

وهكذا كان هناك رجل ذو حياء أمام الرسول صلى الله عليه وسلم يتحمل كثيرا من المتاعب بسبب هذا الحياء وكان أخوه يغضب منه كثيرا بسبب هذا الحياء فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأخيه لا تغضب عليه فالحياء من الإيمان ([1]) .

والمقصود بالحياء جزء من الإيمان هو الحياء الشرعي بمعنى أن الحياء هو اجتناب المنكرات والفواحش فالحياء يمنع الإنسان من هذه الأشياء ولكن من يكون الحياء جزءا من فطرته وطبيعته لاشك أن الحياء الإيماني يساعده في الامتناع عن هذه الأشياء ومن هنا لا نجد أن هذا الحياء لا يستحق الملامة ولكن يمكن إصلاحه,والإصلاح يكون بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وهذا يعالج هذا النقص,والقرآن الكريم قد عالج هذه الأمور في أماكن عدة وذلك عندما كان الكفار يعترضون علي أشياء كثيرة فالله يقول لا تحتقروا أي شيء حتى ولو كان تافها :

" إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها " (البقرة آية ٢٦) .

كان الصحابة يجلسون لفترة طويلة يتحدثون في دعوة أعدتها السيدة زينب رضي الله عنها فتأذي الرسول صلى الله عليه وسلم لكن الحياء منعه من أن يظهر شيئا,وكان هذا معابا أخلاقيا في حضرة النبي صلي الله عليه وسلم فأنزل الله تعالي قوله: "إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق " (الأحزاب آية ٥٣) .

إن إخراج الناس يعارض المروءة والأخلاق,في حين أن البقاء لفترة طويلة في المجلس يخالف آداب المجلس ولهذا نبه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه لا يخجل من القيام بتعاليم الأخلاق .

هذا هو الحياء الذي حرر الصحابة الكرام من التردد والخوف فجاءت صحابية إلي الرسول صلى الله عليه وسلم تستفسر عن شيء وكانت تعتقد أن سؤالها ضد حياء المرأة لكنها قالت:"يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق" قبل سؤالها.هل يجب الاغتسال علي المرأة الجنب ؟ .

ذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"مثل المؤمن كالشجرة المورقة التي لا يأتيها الخريف,وقد عجز الصحابة رضوان الله عليهم عن الإخبار باسم هذه الشجرة

---

[1] البخاري كتاب الأدب باب الحياء.حدثنا عبد الله بن يوسف قال:أخبرنا مالك بن أنس،عن ابن شهاب،عن سالم بن عبد الله،عن أبيه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(دعه فإن الحياء من الإيمان).

إلا أن سيدنا عبد الله بن عمر عرف هذه الشجرة وقال إنها شجرة النخل بالرغم من أنه كان أقل الصحابة سنا ولهذا كان يخجل من أن يقول وبما أن هذا كان مجلسا علميا فلهذا قال استأذن في الحديث من سيدنا عمر رضي الله عنه فقال له سيدنا عمر رضي الله عنه لو كنت تعرف اسم هذه الشجرة فأن هذا يسعدني([1]) .

كانت نساء الأنصار تأتي للاستفسار عن أمور المرأة،وكانت هذه هي أخلاقهن فامتدحت السيدة عائشة رضي الله عنها موقفهن هذا وقالت"نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين " ([2]) .

إن جوهر الإنسان هو الحياء هذا إلي جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه هي الفائدة من الحياء ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم"الحياء لا يأتي إلا بخير".

إن الشخص الذي لا يخجل من فعل السيئات لا تستطيع أن تقول عليه بأنه شجاع بل إنه نوع من الوقاحة والبذاءة،فالحياء هو أن يتجنب السيئات فإذا ذهب الحياء من الإنسان توقع منه أي شيء فقال الرسول صلى الله عليه وسلم"إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت".فقد وضح الإمام النووي([3])معنى آخر لهذا الحديث يقول إذا فعل الإنسان عملا يدعو للخجل فله مطلق الحرية في أن يفعل كل شيء .

وكل ما جاء من ألفاظ الفحش والمنكر وأمثالها في القرآن والحديث الشريف تعني أنها تأتي من عدم الحياء ولهذا جاء الحياء جزء من الإيمان في الإسلام وجاء في

---

[1] البخاري كتاب الأدب باب مالا يستحي من الحق في التفقة في الدين.حدثنا آدم:حدثنا شعبة:حدثنا محارب بن دثار قال:سمعت ابن عمر يقول:قال النبي صلى الله عليه وسلم:(مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء،لا يسقط ورقها ولا يتحات).فقال القوم:هي شجرة كذا،هي شجرة كذا،فأردت أن أقول:هي النخلة،وأن غلام شاب فاستحييت،فقال:(هي النخلة).

[2] صحيح مسلم كتاب الطهارة باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصه من مسك في موضع,والبخاري كتاب الأدب باب الحياء.حدثنا محمد بن المثنى،وابن بشار.قال ابن المثنى:حدثنا محمد بن جعفر،حدثنا شعبة عن إبراهيم بن المهاجر،قال:سمعت صفية تحدث عن عائشة قالت:نعم النساء نساء الأنصارلم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين .

[3] البخاري كتاب الأدب.حدثنا أحمد بن يونس:حدثنا زهير:حدثنا منصور،عن ربعي بن حراش:حدثنا أبو مسعود قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى:إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

الحديث أن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء ([1]).وجاء أيضا " أن الإيمان سبعين شعبة,والحياء شعبة من الإيمان " ([2]) .

إذن لا يجب علي المسلمين ترك رداء الحياء حتى ولو كان في وحدة ولهذا السبب دعا الرسول إلي ترك العري لان الملائكة تظل مع الإنسان فلا تنفصل عنه إلا في حاله دخول الغائط والجماع فاستحيوا منهم([3]),والمقصود هنا أن لا يخلع الإنسان برقع الحياء .

الرحمة

الرحمة جزء أساسي من أخلاق الإنسان,كما أن ما يقوم به الإنسان تجاه الأخرين في الدنيا يكون واقعه الرحمة,وإذا لم يكن بالإنسان عاطفة الرحمة سيكون ظالما ووحشيا ينفر منه الجميع لهذا اهتم الإسلام بالرحمة في تعاليمه الأخلاقية,فهي اسم من أسماء الله وأول صفات الله ويتردد ذكرها كثيرا في القرآن الكريم فهو الرحمن الرحيم حتى أن الإسلام حث المسلمين على أن يبدأوا أعمالهم ببسم الله الرحمن الرحيم هذا إلي جانب أن سور القرآن الكريم تبدأ بها,وما نراه في الدنيا ما هو إلا رحمة من الله على عباده والملائكة يقولون في دعائهم:"ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما" (غافر آية ٧).وقد ملئ القرآن الكريم بهذه الرحمة:"هو الرحمن الرحيم " (الحشر آية ٢٢).وقيل للمسلمين أن يقولوا في دعائهم:"وأنت خير الراحمين"(المؤمنون آية ١٠٩) .

كل ما في الدنيا من مظاهر ما هي إلا انعكاس لرحمة الله على عباده,وجاء في الحديث الشريف:"قسم الله الرحمة إلي مائة جزء فاحتفظ الله بتسع وتسعين منها ولم ينزل

---

[1] الموطأ للإمام مالك الكتاب الجامع باب ما جاء في الحياء.حدثني عن مالك،عن سلمة بن صفوان بن سلمة الزرقي،عن زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل دين خلق. وخلق الإسلام الحياء

[2] صحيح البخاري كتاب الإيمان.حدثنا عبد الله بن محمد قال:حدثنا أبو عامر العقدي قال:حدثنا سليمان بن بلال،عن عبد الله بن دينار،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان) .

[3] الترمذي كتاب الاستئذان والآداب باب ما جاء في الاستتار عند الجماع.حدثنا أحمد بن محمد بن نيزك البغدادي،حدثنا الأسود بن عامر.حدثنا أبو محياة عن ليث عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والتعري فإن معكم من لايفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم .

على الأرض إلا واحدة وهي التي يرحم بها احدنا الأخر لدرجة أن الخير لا يضع قدمه على صغيره حتى لا تؤذيه ([1]) .

إن أكبر مظهر من مظاهر الأخلاق للبشر هي ذات الرسل وأفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم حيث وصفه الله تعالي بقوله"لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " (التوبة آية ١٢٨) .

ويأتي بعد الرسل الأمم السابقة وقد وصف الله أمة سيدنا عيسي بالرأفة والرحمة"وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة"(الحديد آية ٢٧).وهذا هو ما اتصفت به أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم"(الفتح آية ٢)،وحتى أن العلاقات التي تقوم بين الأقارب وبعضهم البعض قد عبر عنها بصلة الرحم,لأن القرابة تأتي من رحم الأم والرحم من الرحمن وهذا يعني أن الرحمة ما هي إلا صورة من صور الرحمن وقد جاء في الحديث الشريف : " الرحم شجنة من الرحمن " ([2]) .

بمعنى أن عاطفة الشفقة لدى الأقارب ما هي إلا إحدى فروع الرحمة ويقول سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجلسني على إحدى ركبتيه ويضع على الأخرى الإمام الحسن رضي الله عنه وكان يقول اللهم ارحم هؤلاء فاني رحيم بهم ([3]) .

---

[1] البخاري كتاب الأدب.حدثنا الحكم بن نافع البهراني:أخبرنا شعيب،عن الزهري:أخبرنا سعيد بن المسيب:أن أبا هريرة قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(جعل الله الرحمة في مائة جزء،فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا،وأنزل في الأرض جزءا واحدا،فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق،حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها،خشية أن تصيبه) .

[2] البخاري كتاب الأدب باب من وصل الله وصله.حدثنا خالد بن مخلد:حدثنا سليمان:حدثنا عبد الله بن دينار،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله : من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته).

[3] البخاري كتاب الأدب باب وضع الصبي على الفخذ.حدثنا عبد الله بن محمد:حدثنا عارم:حدثنا المعتمر بن سليمان:يحدث عن أبيه قال:سمعت أبا تميمة يحدث،عن أبي عثمان النهدي:يحدثه أبو عثمان،عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه،ويقعد الحسن على فخذه الآخر،ثم يضمهما،ثم يقول:(اللهم ارحمهما فإني أرحمهما).

جاء رجل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ولده فاحتضنه أمام الرسول فقال له الرسول:هل تعطف عليه,فقال الرجل:نعم,قال له الرسول:إن الله أكثر رحمة عليك فيقدر عطفك على طفلك فالله ارحم الراحمين [1] .

ذات مرة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا الحسن رضي الله عنه وكان الأقرع بن حابس المعروف ببداوته يجلس معه فقال:إن لي عشرة أطفال لم أقبل أحدا منهم فنظر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:إن الله لا يرحم من لا يرحم .

وهناك بدوي آخر قال للرسول صلى الله عليه وسلم إنكم تقبلون الأطفال ونحن لا نقبلهم فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لقد نزع الله من قلوبكم الرحمة فماذا نفعل[2].

إن العطف على الصغير هو صفة من صفات الأمة المحمدية لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم"من لم يرحم صغيرنا فليس منا" ومن يتمعن في الحديث يتضح له أن المقصود ليس صغارنا ولكن كل ما يكون تحت أيدينا .

إن عاطفة الأمانة والمحبة لدى القوم ما هي إلا عنصر من عناصر الأخلاق المهمة بين الأمم ولهذا نعت القرآن الكريم الصحابة رضوان الله عليهم بقوله"رحماء بينهم"وقد جاء الحديث الشريف بأمثلة عديدة منها"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا إذا اشتكي منه عضو تداعت له سائر الأعضاء"[3]بمعنى أن عاطفة الرحمة تتحد في المجتمع بحيث تكون منهم كالجسد الواحد إذا اشتكي أي عضو من هذا الجسد تشعر به كل أعضاء هذا الجسد,وهكذا فإن أي شخص من المسلمين إذا أصابه ألم يجب على المسلمين جميعا مؤازرته.

---

[1] أدب المفرد باب رحمة العيال .

[2] البخاري كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته,الترمذي أبواب السير والصلة باب ما جاء في رحمة الصبيان.حدثنا محمد بن يوسف:حدثنا سفيان،عن هشام،عن عروة،عن عائشة رضي الله عنها قالت:جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:تقبلون الصبيان؟فما نقبلهم،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة).

[3] البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم.حدثنا خلاد بن يحيى قال:حدثنا سفيان،عن أبي بردة بن عبد الله بن أبي بردة،عن جده،عن أبي موسى،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن المؤمن للمؤمن كالبنيان،يشد بعضه بعضا).وشبك أصابعه.وحدثنا أبو نعيم:حدثنا زكرياء،عن عامر قال:سمعته يقول:سمعت النعمان ابن بشير يقول:(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ترى المؤمنين:في تراحمهم،وتوادهم،وتعاطفهم،كمثل الجسد،إذا اشتكى عضو،تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) .

ولم يقتصر الإسلام في تعاليمه للمسلمين بأن تكون هذه العاطفة خاصة ببني البشر بل إن دائرتها تشمل غير البشر,فقد جاء في الأحاديث"ارحموا من في الأرض يرحمكم الله"([1]).

وهكذا فالرحمة تشمل الحيوانات وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:"إن من يرحم الذبيحة فسيرحمه الله يوم القيامة"وجاء شخص إلي الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله إني أشعر بالشفقة عندما أذبح شاة,فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:إذا رحمت الشاة يرحمك الله .

إن سباق مصارعة الطيور التي تجري تتعارض مع عاطفة الرحمة لهذا حرم الإسلام هذه المسابقة وقد منعها الرسول صلى الله عليه وسلم,وقد قال الرسول فيما يتعلق بالرحمة"من لا يرحم لا يرحم"وشرح هذه الجملة يحتاج إلي وقت طويل ولكن جامعيتها تكفي كل من أراد أن يتصف بالرحمة,فالرحمة تكون لمن يرحم ومن لا يرحم لا يرحم .

وقد كتب المحدث ابن أبطال في شرح هذا الحديث ما معناه أن المقصود بهذا هو رحمة جميع المخلوقات فهي تشمل المسلم والكافر وما نملك من حيوانات سواء من إطعامها أو التخفيف عنها وعدم ضربها كل هذا يدخل في باب الرحمة ([2]) .

والخلاصة فإن العطف على اليتيم ومساعدة الفقير وزيارة المريض وحماية المظلوم ورعاية الضعيف كل هذا يدخل في نطاق الحديث فليرحم الله من يرحم .

العدل و الإنصاف

العدل في العربية يعني تساوي أي وزن من الأوزان([3])نفهم من هذا أن معناه في لغتنا التي نتحدث بها هو أن أي عمل لابد وأن يوزن بميزان الصدق ولا يجب علينا الانحراف عنه,وهذا يوضح أن كفة العدل والإنصاف في ميزان الأخلاق يجب أن تكون متساوية .

---

[1] سنن ابي داود أبواب البر والصلة باب ما جاء في رحمة الناس.حدثنا مسدد وأبو بكر بن أبي شيبة,المعنى قالا:ثنا سفيان,عن عمرو,عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو,عن عبد الله بن عمرو,يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم:الراحمون يرحمهم الرحمن,ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء .

[2] صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم.حدثنا عمر بن حفص:حدثنا أبي:حدثنا الأعمش قال:حدثني زيد بن وهب قال:سمعت جرير بن عبد الله,عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من لا يرحم لا يرحم) .

[3] فتح الباري المجلد العاشر صـ ٣٦٨ مصر .

والعدل أولا هو صفة من صفات الله،والروايات التي جاءت حول أسماء الله الحسنى التسع والتسعون تقول أن معنى العدل هو الحكم بالحق،وقد ورد ذكر الحق في القرآن الكريم بأشكال مختلفة([1]):"والله يقضي بالحق"(غافر آية ٢٠)،وهذه إشارة إلى العدل العملي وفي آية أخرى:"والله يقول الحق"(الأحزاب آية ٤)،وهذه الآية تشير إلى العدل القولي،وكلاهما قد جمع في الآية التالية حيث يقول القرآن:"وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا"(الأنعام آية ١١٥).

والدنيا وما فيها كلها تقوم على العدل الإلهي الذي يشمل جميع المخلوقات،وهذا أكبر دليل على وحدانية الله:"شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط"(آل عمران آية ١٨) .

يظهر من هذه الآية أن العدل لا يخص تنظيم الدولة فقط بل إنه يشمل جميع جوانب الحياة المختلفة،والنظام العالمي لا يقوم إلا على العدل،وأول ما أمر الله به في محكم كتابه العزيز :

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان "(النحل آية ٩٠).والعدل من مقتضيات القانون بينما الإحسان والعفو مطلب أخلاقي والله تعالى أمر بالعدل في الدنيا وأكد بعد ذلك على الإحسان حتى يكتمل به الجانب الروحي للإنسان .

وهذا يوضح أن فرض مراقبة العالم أكثر أهمية من تكميل الجانب الروحي للفرد ولهذا جاء الحكم بالعدل أولا حتى تستقيم جميع جوانب الحياة فمثلا طلب القرآن الالتزام بالعدل لمن يتزوجون أكثر من امرأة بقوله: " فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم " (النساء آية ٣).وطلب المجتمع أيضا مراعاة حقوق اليتامى وقال:"وأن تقوموا لليتامى بالقسط"(النساء آية ١٢٧)وفي المعاملات العامة ركز القرآن على العدل في الكيل والميزان:

" وأوفوا الكيل والميزان بالقسط " (الأنعام آية ١٥٢) .

وقد جاء ذكر الكيل والميزان والعدل فيه في مواضع عدة من القرآن الكريم لأنها تغطي جوانب عديدة من حياة الإنسان،حتى أن العدل في المكاتبات أمر أقره الإسلام وأكد عليه:

" وليكتب بينكم كاتب بالعدل " (البقرة آية ٢٨٢) .

---

[1] كتاب الأسماء و الصفات للبيهقي صـــ ٦١ إله آباد .

" فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل " (البقرة آية ٢٨٢) .

وكثيرا ما يتذبذب الإنسان في قول العدل أو الشهادة عندما يكون أحد أقربائه طرفا فيها إلا أن الإسلام أمر بعدم التخلي عن قول الحق حتى ولو كان هذا ضد قريب أو صديق .

" وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى " (الأنعام آية ١٥٢) .

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " (المائدة آية ٨) .

ففي الآية الأولى نبه القرآن بأن لا نحابي صديقا أو قريبا في قول الحق وفي الآية الثانية أن لا نظلم عدوا،فالعدل هو أقرب للتقوى.ومعروف أن اليهود والنصارى هم أشد عداوة لنا،ورغم هذا فقد أمر الله رسوله بالعدل معهم:

" وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ولا حجة بيننا وبينكم والله يجمع بيننا وإليه المصير " (الشورى آية ١٥) .

فالعدل والمساواة في هذه الآية الكريمة له جوانب عديدة أولها أن الصدق والحق الذي نزل علي من عند الله أمرت أن أبلغه بالعدل،والثاني أن العدل هو الأساس حتى وإن اختلفتم في العقيدة،الأمر الثالث أنه لا تمييز في الحكم بين الأغنياء والفقراء فالجميع سواسية أمام القانون فالله هو رب العالمين ونحن عباده،ولهذا يجب أن يكون القانون واحدا على الجميع لنا أعمالنا ولكم أعمالكم والجميع سيلتقي يوم القيامة ويأخذ جزاؤه طبقا لما قدم من أعمال في الدنيا .

وهناك أمر أصعب على الإنسان مما سبق عندما يتعلق الأمر بشخص الإنسان وأقربائه ولهذا أرشد الله رسوله الكريم بقوله:"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا " (النساء آية ١٣٥) .

فالآيات هنا لم تترك شيئا يتعلق بالعدل إلا وأكدت عليه خاصة فيما يتعلق بالنفس والأعزاء والأقارب والأغنياء والفقراء،فالعدل يتطلب من الإنسان أن لا يخفي شيئا لإظهار الحق حتى ولو كان على نفسه ولا يجب أن تأخذ الإنسان لومة لائم أو

رأفة على فقير أو مسكين فالعواطف يجب أن لا تكون حائلا في طريق إقــرار الحــق والعدل .

كما أن الآيات أيضا تؤكد على الإنسان أن لا ينظر في إقرار الحق إلى منفعــة أو خسارة فالله ينظر ويراقب الجميع فهو أولى من الجميع بعباده.وربما يعتقد الإنســان في أن الشهادة الباطلة ربما تفيد الإنسان ويتصلح حاله في المستقبل،وهو لا يعلم أنه بهذا ربما يكون قد أذاه فلا يعلم الخير والشر إلا الله،لهذا يجب علينا تحري الصدق والالـتزام به لأنه هو الذي سيأخذنا على طريق العــدل والإنصــاف فالنــافع والضــار هــو الله وحده،والعدل هو سر فلاح هذا العالم وتقدمه .

إن رشوة الحكام للتأثير على آرائهم عدته الشريعة المحمدية ذنبا عظيما،وبعض المفسرين يعتبرون أن هذه الآية ما هي إلا إشارة لتحريم الرشوة :

" وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وانتم تعلمون "(البقرة آيــة ١٨٨) .

إن إصلاح ذات البين هو نوع من العدل لهذا أمر الله عباده بأن لا يناصروا فئة على فئة أخرى وأن يحكموا بينهما بالعدل :

" وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما علــى الأخـرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسـطوا إن الله يحب المقسطين " (الحجرات آية ٩) .

إن العدل و الإنصاف هو أساس الملك ولهذا أكد عليه الإسلام في جوانب الحياة وإلا عم الفساد الدولة ولهذا كان العدل هو أول فروض الحاكم فالله يقول :

" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتـم بيـن النـاس أن تحكمـوا بالعدل"(النساء آية ٥٨) .

وقد أشار أهل التفسير بأن المقصود بالأمانة في الآية هو قول العدل فواجب كل منا على الآخر أن نرد الحق لأهله ولا نفــرق فيــها بيــن صديــق وعــدو فــالجميع سواسية،وهذا ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في التعامل مع اليهود :

" وإن حكمت فاحكم بين الناس بالقسط إن الله يحب المقسطين " (المائدة آية ٤٢) .

وأفضلية العدل والإنصاف تتضح من الله تعالى فقد بشر من يقوم بأدائها بأنه من أحباب الله .

والعدل لا يقتصر على الأمور الأخلاقية فقط بل يشمل السياسة أيضا حتى وإن كان القرآن الكريم لم يذكر هذا صراحة إلا أنه يتضح من الآيات القرآنية أن من يقوم بأداء هذا الواجب لابد وأن يتصف ببعض الصفات كأن يكون حرا ولديه القدرة على تنفيذ الحكم وأن يكون عالما يتمتع بنعمة الكلام.وهكذا أشار القرآن :

" وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم " (النحل آية ٧٦) .

ولقد كتب الإمام الرازي في تفسير هذه الآية بأن من يتولى القضاء يجب أن يكون قادرا على النطق وإلا فلن يستطيع الحكم لأن مرتبته ومكانته تعلو بالقضاء وطالما أنه لا يستطيع التحدث فلن يصل إلى كرسي القضاء،كما يجب أن يكون عالما حتى يستطيع أن يميز بين الظلم والعدل،وبناءا على هذا فإن العلم والقدرة على الحديث صفتان ضروريتان للقاضي. فإذا كان المدعي أبكم فلا يصح أن يكون القاضي مثله،وإذا كان المدعي أيضا جاهلا فلابد وأن يكون القاضي عادلا حتى يستطيع أن يقوم بواجبه كما ينبغي .

يتضح من هذا أن الإسلام عندما أمر بالعدل فإنه يغطي به جميع جوانب الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية،وفي ضوء الآيات السابقة يجب على كل مسلم أن يكون عادلا وعلى الحاكم أو أولي الأمر أن يكون أكثر عدلا ولهذا جاء في الحديث النبوي أن للإمام العادل فضيلة كبرى وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:"سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم الإمام العادل " ([1]) .

الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد شعار كل سوي،والله تعالى نفسه نسب الوفاء بالعهد إلى نفسه أكثر من مرة فقال :

" إن الله لا يخلف الميعاد " (آل عمران آية ٩) ، (الرعد آية ٣١) .

---

[1] البخاري كتاب المحاربين باب فضل من ترك الفواحش.حدثنا محمد بن بشار قال:حدثنا يحي،عن عبيد الله قال:حدثني خبيب ابن عبد الرحمن،عن حفص بن عاصم،عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(سبعة يظلهم الله في ظله،يوم لا ظل إلا ظله:الإمام العادل،وشاب نشأ في عبادة ربه،ورجل قلبه معلق في المساجد،ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه،ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال،فقال إني أخاف الله،ورجل تصدق،أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه،ورجل ذكر الله خاليا،ففاضت عيناه) :

" لا يخلف الله الميعاد " (الزمر آية٢٠) .

" إنك لا تخلف الميعاد " (آل عمران آية ١٩٤) .

" وعد الله لا يخلف الله وعده " (الروم آية ٦) .

" ولن يخلف الله عهده " (الحج آية ٤٧) .

" فلن يخلف الله عهده " (البقرة آية ٨٠) .

" و من أوفى بعهده من الله " (التوبة آية ١١١) .

وبما أن الله صادق في عهده لهذا جعلها إحدى الصفات الجيدة في عباده،فكل من التزم بأمر يجب عليه الوفاء به مهما كانت الظروف فالبحار قد تغير مسارها والجبال قد تتحرك من مكانها إلا أن المسلم الحق يجب أن يكون متمسكا بقوله وعهده.وعامة الناس يعتبرون بأن العهد ما هو إلا الالتزام بالقول فقط إلا أن معناه في الإسلام يشمل جوانب عدة في الحياة سواء كانت عهود أخلاقية اجتماعية دينية اقتصادية تجارية أو غير ذلك من الأمور التي يجب على الإنسان احترامها ومن هنا وجدنا هذا اللفظ البسيط يشمل جميع الفضائل العقلية والشرعية والقانونية والأخلاقية والاجتماعية.وقد جاء ذكر كل هذه الأشياء في القرآن الكريم :

" والموفون بعهدهم إذا عاهدوا " (البقرة آية ١٧٧) .

وقد عد القرآن من يوفي بعهده كأنه كامل الإيمان .

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المؤمنون آية ٨) .

وفي موضع آخر وبعد وصفه للمؤمن يقول :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المعارج آية ٣٢) .

إن من يأخذ شيئا على سبيل الأمانة عليه أن يوفيه دون زيادة أو نقصان،وهو التزام يدخل في باب التعامل ولهذا جعل هذا الوفاء من صفات المسلم،وأمره بالالتزام به و ذلك في قوله :

" وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا،وأوفوا بالكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا " (الإسراء الآيات ٣٤, ٣٥) .

إن كل مكيال ومقياس تعارف عليه الناس هو في الحقيقة بمثابة عهد أو اتفاق بين البائع والمشتري ولهذا جاء الإيفاء بالعهد العام أولا في الآية ثم أكد القرآن بعده

على العهد الخاص،كما أنه ليس من الضروري أن يكون الإيفاء بالعهد هو مجرد الإقرار به بل إنه عرف عام في المجتمع يجب إتباعه و العمل به .

يجب على الإنسان الالتزام بالعهد الأول الذي أبرم بين الله وعباده منذ أن قال الله ألست بربكم،قالوا بلى،والعهد الثاني الذي يتم في شكل البيع والشراء بين الناس،والعهد الثالث يكون في شكل قول وإقرار بين البشر،والعهد الرابع هو الإيفاء بالمواثيق كما أشار بذلك القرآن الكريم :

" الذين يوفون بعهد الله وما ينقضون من ميثاق،والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل " (الرعد الآيات ٢٠ ,٢١) .

ففي الآيات السابقة ذكر الله العهد الفطري بين العبد وربه والعهد الثاني هو الوفاء بما يلتزم به الإنسان تجاه أخيه الإنسان من مواثيق ومعاهدات،وبعدها ذكرت الآيات العهد الطبيعي بين الإنسان وأقربائه،وقد جاء في سورة النحل التأكيد على هذه المعاهدات التي تتم بين الناس بعد الحلف بالله أو ما شابه ذلك من مواثيق فقال :

" وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها قد جعلتم الله عليكم كفيلا " (النحل آية ٩١) .

وتشمل المعاهدات هذه المعاهدة التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما شرفوا بالإسلام هذا إلى جانب المعاهدات الطيبة التي كانت في الجاهلية بين المسلمين وغيرهم سواء عن طريق الحلف بالله أو بكتابة المواثيق والعهود وهذا ما وصى به الله عباده بقوله :

" وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون " (الأنعام آية ١٥٢) .

ويدخل في باب العهود كل ما أمر الله به عباده سواء كان هذا كتابة أو قولا .

لقد تعاهد المسلمون مع الكفار في صلح الحديبية وأراد الله للمسلمين أن يكونوا أقوياء وبالفعل ازدادت قوتهم في مقابل أعدائهم،وكان بإمكان المسلمين أن ينقضوا الميثاق إلا أن هذه المعاهدة كانت بمثابة اختبار لهم،ولهذا كان الله دائما يذكرهم بالالتزام بها رغم قوتهم لأن هذا ليس من صفات المسلم،وظل المسلمون ملتزمين بها إلى أن خرقها الكفار ورغم هذا أمر الله المسلمين بأن يمهلوهم أربعة أشهر :

" براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله " (التوبة آية ١) .

ليس هذا فحسب بل إن الله أمر المسلمين بأن يلتزموا بالمعاهدة مع المشركين الذين التزموا بها وقال :

" إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين " (التوبة آية ٤) .

وقد عبر الله عن الوفاء بالعهد بالتقوى ووصف من يقوم به بالمتقي،وتبرأ من المشركين الذين نقضوا عهدهم مع الله ورسوله،ونبه الله المسلمين أن لا يأخذهم الحماس وينقضوا عهدهم مع الذين أوفوا العهد من المشركين،وقال:

" كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين " (التوبة آية ٧) .

المقصود بالاستقامة هو الوفاء بالعهد ولهذا عد الله من يقوم به من المتقين،ووفاء العهد يوجب الحب والسعادة وما ينعم الله به على عباده المتقين الذين يوفون بعهدهم،وقد وصف القرآن الكريم العهد بالعقد في موضع آخر بقوله:

" يا أيها الذين أمنوا أوفوا بالعقود " (المائدة آية ١) .

ومعنى عقد هو العقدة لكن المقصود هنا هو عقود التعامل بين الناس.وهذا هو المعنى الاصطلاحي وقد كتب الإمام الرازي في تفسيره الكبير أن تعبير"أوفوا بالعهود"يشبه تعبير"أوفوا بالعقود"ويدخل تحت كلمة عقد كل عقود البيع واليمين والنذر والصلح والنكاح وغير ذلك من العقود بين الناس والخلاصة أن ما يتم بين إنسان وآخر من عهد أو عقد يجب الوفاء به ([1]) .

ولكن لفظ العقد يتعلق أكثر بالمعاملات بينما لفظ العهد أشمل وأوسع من لفظ العقد،لدرجة أن حسن المعاملة بين الشخص والآخر تدخل في إطار العهد،فروي في صحيح البخاري عن السيدة(عائشة)رضي الله عنها أنها لم تكن تغير إلا من السيدة(خديجة)رضي الله عنها رغم أن زواجها من الرسول قد تم بعد وفاتها بثلاث أعوام ورغم هذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الحديث عنها،فكان عندما يذبح شاة يرسل لصديقاتها هدية منها بمعنى أنه ظل يحافظ على علاقته بصديقاتها بعد

---

[1] تفسير الكبير المجلد الخامس صـ ٥٠٥ .

وفاتها([1]).وقد عقد الإمام البخاري بابا في كتاب الأدب تحت عنوان"حسن العهد من الإيمان"وجاء ذكر الحديث السابق في هذا الباب.وقد روى (الحافظ بن حجر)في فتح الباري نقلا عن(البيهقي)"أن عجوزا جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم فقال لها الرسول:كيف حالك بعد أن تركتينا،فقالت السيدة:الحمد لله كل خير،وعندما ذهبت هذه السيدة فسألت السيدة(عائشة)النبي صلى الله عليه وسلم من هذه السيدة التي أوليتها اهتمامك،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم إنها سيدة كانت تأتي لهم في عهد السيدة(خديجة)رضي الله عنها وقال:إن حسن العهد من الإيمان".

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى أحاديثه المعروفة عن سيدنا(أنس)رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكرر هذا في كل خطبة يقولها"لا دين لمن لا عهد له"(أحمد الطبراني وابن حيان).

الإحسان

صفة الإحسان تعني عمل كل شيء طيب ولهذا تعددت صوره.ولا يمكن إجمالها إلا أن هناك صورة يمكن أن نطلقها وهي حسن التعامل مع الآخرين وإسعادهم.ومن يكون أكثر إحسانا من الله،فلا حدود لإحسانه فكل ما نراه هو مظهر من مظاهر إحسان الله :

" وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار " (إبراهيم آية ٣٤) .

سيدنا(يوسف)عليه السلام شكر الله على إحسانه عليه إذ أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو إلى مصر وهو ما ذكره القرآن الكريم([2]):

" وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو " (يوسف آية ١٠٠) .

وهذا ما ورد في قصة(قارون)عندما قال له الله تعالى :

" أحسن كما أحسن الله إليك " (القصص آية ٧٧) .

---

[1] البخاري كتاب الأدب باب حسن العهد من الإيمان.حدثنا عبيد بن إسماعيل:حدثنا أبو أسامة،عن هشام،عن أبيه،عن عائشة رضي الله عنها قالت:ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة،ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين،لما كنت أسمعه يذكرها،ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب،وإن كان ليذبح الشاة ثم يهدي في خلتها منها.

[2] يجب أن نتذكر شيئا هنا هو أن معنى الإحسان في العربية هو حسن أداء الواجب،أما في اللغة الأردية فمعناه فضل الذي هو أحد مشتقات اللفظ العربي وهذا هو المعنى الذي تدل عليه الآيات التالية في القرآن الكريم:"إن الله لا يضيع أجر المحسنين"(التوبة آية ١٢٠)."لو أن لي كرة فأكون من المحسنين"(الزمر آية ٥٨)."والله يحب المحسنين"(آل عمران آية ١٣٤).

وهكذا نجد أن الإحسان ضروري في الدنيا وجاءت التعاليم المحمدية لتكمل هذا الأساس والقرآن الكريم أكد عليه في أكثر من موضع كما جاء في سورة النحل :

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى " (النحل آية ٩٠) .

والإحسان لا يبنى على راحة ومشقة أحد بل هو واجب على كل فرد إلا أن الله جاء به في الآية السابقة بعد العدل والإحسان يعني الفضل ومساعدة الآخرين كما أن الإحسان لا يقتصر على المساعدة المالية للأقارب فقط بل أن معناه أوسع من هذا فكل مساعدة ليتيم أو قريب أو محتاج أو جار أو عابر سبيل وغير ذلك ممن يستحقون الإحسان والآيات القرآنية في سورة البقرة والزخرف والأنعام والإسراء تؤكد على هذا .

والخلاصة أن الإحسان واجب على كل فرد وكلما اتسعت قدرة الإنسان المالية كلما كانت دائرة إحسانه أوسع وهذا ما طالب به أهل قارون :

" وأحسن كما أحسن الله إليك " (القصص آية ٧٧) .

وأفضل صور الإحسان هي أن تنقذ أي شخص من مصيبة حلت به فقد أنقذ الله سيدنا(يوسف)عليه السلام من السجن واعتبره سيدنا(يوسف)عليه السلام فضلاً كبيراً :

" وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن " (يوسف آية ١٠٠) .

والمساعدة المالية تعد من أهم صور الإحسان أيضا هذا إلى جانب مئات الأفعال الحسنة التي عبر الله عنها بالإحسان فمثلا تعذيب النساء بحيل القانون يعد أمرا سيئا ولهذا طالب الله الزوج أن يمسك على زوجته بالمعروف وإلا فتسريح بإحسان :

" الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان " (البقرة آية ٢٢٩) .

والعادة جرت على أن الزواج أمر بالمعروف فيجب على كل إنسان أن يلتزم بهذا ولا يماطل فيه :

" فمن عفي له من أخيه شيء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان " (البقرة آية ١٧٨) .

فالعفو أيضا درب من دروب الإحسان والله يحب من يتحلى به :

" والله يحب المحسنين " (آل عمران آية ١٣٤) .

والإحسان جاء في القرآن الكريم بلفظ آخر وهو الفضل فمثلا للمرأة المتزوجة ولم يدخل بها نصف المهر[1]فإذا تركته المرأة فيعد هذا فضلاً منها ولو أعطى الرجل المهر كله فهذا أيضا فضل وحسن خلق منه والله يقول :

---

[1] يعني ان يكون المهر قد حدد بين الطرفين و إلا فبعض الملابس تكفي .

" ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير " ([1]) (البقرة ٢٣٧) .

ولو حدث من أي فقير أو مسكين ما يوجب الغضب فيجب على المحسنين أن يعفوا ويصفحوا ([2]) .

" ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا " (النور آية ٢٢) .

وهناك ضمن المعاني الواسعة للإحسان معنى المعروف،فكل شيء معلوم من الدين بالضرورة يدخل في باب المعروف:"وأمر بالمعروف" (لقمان آية ٢٧).وهو ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:"كل معروف صدقة".

والصدقة هنا لا تقتصر على الفقير والغني بل هي واجب على كل مسلم لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم:الصدقة واجبة على كل مسلم،فقال له الناس يا رسول الله لو كان الإنسان ليس له مال،فقال صلى الله عليه وسلم:على الإنسان أن يعمل ويكسب ويتصدق،فقال له الصحابة رضوان الله عليهم:إذا كان هذا ليس في مقدوره،فقال صلى الله عليه وسلم:على الفقير أن يعين المحتاج،فقال الصحابة:إذا لم يستطع،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:عليه فعل الخير،فقال الصحابة:إذا لم يستطع،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:الكف عن الأذى صدقة"

ويفهم من هذا الحديث أن الإنفاق على الأسرة بمثابة الصدقة والابتسامة في وجه أخيك صدقة([3]).وجاء معنى آخر للإحسان في القرآن الكريم وهو معنى البر،فكلمة البر تشمل الكافر والمسلم :

" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " (الممتحنة آية ٨) .

---

[1] روى عن سعيد أن الرسول-صلى الله عليه وسلم-قال"لا تنسوا الفضل بينكم"ابن جرير الطبري الجزء الثاني ص-٣٢١ مصر .

[2] جاء في تفسير الآية المذكورة في كشاف الزمخشري أن المقصود بالفضل هنا هو المساعدة المالية .

[3] صحيح البخاري كتاب الأدب باب كل معروف صدقة مع فتح الباري.حدثنا آدم:حدثنا شعبة:حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري،عن أبيه،عن جده قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم:(على كل مسلم صدقة).قالوا:فإن لم يجد؟قال:(فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق).قالوا:فإن لم يستطع أو لم يفعل؟قال:(فيعين ذا الحاجة الملهوف).قالوا:فإن لم يفعل؟قال:(فليأمر بالخير،أو قال:بالمعروف).قال:فإن لم يفعل؟قال:(فليمسك عن الشر فإنه له صدقة) .

كان هناك بعض من الصحابة لا يعتبرون البر على غير المسلمين صدقة.فجاء الحكم الإلهي بأن هذا الأمر يخص الله سبحانه وتعالى فالخير يجب أن يفعله الإنسان دون تمييز بين مسلم وغير مسلم والله كفيل بثواب هذا العمل ([1]) :

" ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون " (البقرة آية ٢٧٢) .

فالإحسان يشمل كل شيء في الدنيا وفعل الخير من المبادئ الأساسية في الإسلام وثوابه لابد وأن يكون بمثله :

" هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " (الرحمن آية ٦٠) .

ورغم أن الآية تشير إلى أن ثواب الإحسان بالإحسان سيكون في الآخرة إلا أن المعنى العام للفظ الإحسان يعني أن من يفعل خيرا سواء في الدنيا أو الآخرة فسيكون جزاءه فيهما .

الدين هو من أكثر الأعباء في الدنيا والإسلام يحث الناس على تخفيف هذا العبء وألا يجبر المقرض المقترض على سداد الدين إذا لم يكن في استطاعته الوفاء به وبالتالي فمن يعفو يأخذ ثوابه من الله .

لقد كبل الربا العرب لدرجة أن من لم يوف بدينه كان يباع ويشترى كالعبيد وفي أيامنا هذه نجد أن الدين أصبح عبئاً كبيراً على الناس والنظام الرأسمالي يقوم على هذا،ومن هنا وجدنا القرآن الكريم ينكر هذا النظام بقوله :

" وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم " (البقرة آية ٢٨٠) .

والرسول يبين في حديث على لسان ربه يقول:"سيكون يوم القيامة ثلاثة أصناف من الناس من بينهم رجل باع حرا وانفق قيمته"ولهذا وجدنا الرسول يؤكد على الإحسان بأشكاله المختلفة سواء بإمهال المقترض فرصة من الوقت أو إعفاءه من القرض وهذه هي الإنسانية،لدرجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل أن الإنسان إذا لم يفعل في دنياه إلا مثل هذا الأمر فإنه سيغفر له يوم القيامة " .

وجاء في الحديث الشريف أن رجلا لم يكن قد عمل طيباً في الدنيا إلا العفو عن من لم يكن بمقدوره سداد دينه وكان يقول:اتركوه عسى الله أن يغفر لنا بسببه وهكذا عفا الله عنه .

---

[1] ابن جرير و ابن كثير نقلا عن النسائي .

وفي حديث آخر كان هناك شخص قبلكم سأله الملائكة عن خير فعله في الدنيا فقال لهم ليس عندي فقال له الملائكة تذكر،فقال الرجل لقد كنت أقرض الناس فإن كان المقترض كريما سهلت له القرض،وإن كان فقيرا أمهلته حتى يسدد دينه ([1]) .

وهناك أحاديث كثيرة في هذا الشأن ففي حديث شريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:من أراد الله أن ينجيه من عذاب القيامة فعليه بأن يمهل الفقير أو يعفو عنه ([2]) .

وهذه رواية أخرى جاءت في مسند ابن حنبل"من أمهل مدينه أو عفا عنه فإنه سيكون يوم القيامة في ظل الله" ([3]) .

الخلاصة أن الإسلام لم يحصر فعل الخير مع الآخرين في دائرة واحدة بل أطلقه ولم يجعل له حدوداً معينة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:إن الله فرض الإحسان على كل شيء حتى مع الحيوان فلو ذبح أحدكم ذبيحة فليحسن ذبحها بأن تكون أدوات الذبح حادة حتى لا تؤلم الذبائح ([4]) .

ومن الواجب علينا أن نحسن إلى من أحسن إلينا لأن عكس هذا يخالف أخلاق التعاليم النبوية الشريفة،ذات مرة جاء شخص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسأله:يا

---

[1] صحيح مسلم كتاب البيوع باب فضل إنظار المعسر.حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس،حدثنا زهير،حدثنا منصور،عن ربعي بن جراش:أن حذيفة حدثهم قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم،فقالوا:أعملت من الخير شيئا؟قال:لا،قالوا:تذكر.قال:كنت أداين الناس،فآمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر،قال:قال الله عز وجل:تجوزوا عنه) .

[2] المرجع السابق.حدثنا أبو الهيثم خالد بن خداش بن عجلان،حدثنا حماد بن زيد،عن أيوب،عن يحيى بن أبي كثير،عن عبد الله بن أبي قتادة:أن أبا قتادة طلب غريما له فتوارى عنه،ثم وجده،فقال:إني معسر.قال:الله؟قال:الله،قال:فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر،أو يضع عنه).

[3] مسند ابن حنبل المجلد الخامس صـ٣٠٨.حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي،حدثنا إسماعيل بن إبراهيم،عن عبد الرحمن بن إسحاق،عن عبد الرحمن بن معاوية،عن حنظلة بن قيس،عن أبي اليسر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من أحب أن يظله الله في ظله،فلينظر معسراً أو ليضع له.

[4] صحيح مسلم كتاب الصيد والذبائح.حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،حدثنا إسماعيل بن علية،عن خالد الحذاء،عن أبي قلابة،عن أبي الأشعث،عن شداد بن أوس،قال:ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال:إن الله كتب الإحسان على كل شيء،فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة،وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح،وليحد أحدكم شفرته،فليرح ذبيحته .

رسول الله لقد مررت على شخص فلم يستضفني فهل عندما يمر علي افعل مثلما فعل معي؟،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:لا بل يجب أن تستضيفه [1] .

وجاء في موضع آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:لا تكن كمن فقد عقله وأن تفعل ما يفعله الآخرون وتقول نحسن لمن يحسن إلينا ونظلم من ظلمنا،بل أن تهدأ وتطمئن وتحسن لمن أحسن إليك ولا تسيء إلى من ظلمك [2] .

ومن الخطأ أن يحصر الناس الإحسان في الثروة والأمور الكبيرة ويقول هل يستطيع الفقير أن يحسن ولكن الأمر غير ذلك إذ ليس من الضروري أن تكون الثروة والمال هي الأساس في فعل الخير والتعامل مع الآخرين فالأمر أعمق من هذا،وسيدنا(البراء بن عازب)رضي الله عنه يقول:جاء بدوي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله أي الأعمال تؤدي إلى الجنة؟،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:قولك مختصر ولكن سؤالك أكبر فعليك بتحرير الإنسان وعتق الرقاب،فقال البدوي:أليس الاثنين بمعنى واحد؟فإن عتق الرقبة هو تحرير الإنسان!والاشتراك مع الآخرين في دفع القيمة لتحرير رقبة،وأحسن إلى من أساء إليك من الأقارب فإن لم تستطع فإطعام مسكين وإرواء عطشان وقل الخير وتجنب السوء فإن لم تستطع فامنع نفسك عن فعل السوء [3] .

---

[1] جامع الترمذي باب ما جاء في الإحسان والعفو.حدثنا بندار وأحمد بن منيع ومحمود بن غيلان قالوا:حدثنا أحمد الزبيري عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال:قلت يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقربني ولا يضيفني فيمر بي أفأقريه ؟ قال : لا ، أقره .

[2] جامع الترمذي أيضا انظار المعسر.حدثنا أبو هاشم الرفاعي محمد بن يزيد.حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسناً وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا انفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا.

[3] مستدرك الحاكم الجزء الثاني كتاب المكاتب.حدثني محمد بن صالح بن هانئ،و محمد بن عبد الله بن دينار العدل قالا:ثنا أحمد بن محمد بن نصر،ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين،ثنا عيسى بن عبد الرحمن السلمي،ثنا طلحة اليامي،عن عبد الرحمن بن عوسجة،عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله علمني شيئاً يدخلني الجنة. فقال:لئن أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسم وفك الرقبة قال:أو ليسا واحداً؟قال:فإن عتق النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمنحة الموكولة والفيء على ذي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فاطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير."هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه".

وسأل سيدنا(أبو ذر)رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا رسول الله أي الأعمال أفضل بعد الإيمان؟فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:أعطي مما أعطـــاك الله،فقال:يا رسول الله لو كان الإنسان مفلسا،فقال الرسول:فعليه ألا يقول إلا خيرا،فقال:يا رسول الله لو كان معذورا ولا يستطيع أن يتحدث،فقـــال الرســول صلـــى الله عليــه وسلم:فعليه بمساعدة المظلوم،فقال:يا رسول الله لو كان ضعيفا،فقال الرسول صلـــى الله عليه وسلم:أن يساعد من لا يعرف شيئا،فقال:يا رسول الله لو لم يكـــن فـــي مقـــدوره هذا،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:عليه ألا يؤذي أحدا ([1]) .

العفو و التسامح

العفو من صفات الله تعالى،ولو لم يكن عفو الله في الدنيا لما بقى شيء للحظـــة واحدة،وغافر وغفور وغفار كل هذا من صفاته عز وجل .

" وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات " (الشورى آية ٢٥) .

ولو أراد الله أن يهلك الناس بذنوبهم لهلكهم أو يعفو عنهم :

" أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير " (الشورى آية ٣٤) .

والله يغفر لمن يطلب التوبة من عباده فيقول :

" وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى " (طه آية ٨٢) .

وقد جاء لفظ"غافر"في القرآن مرتين ولفظ"غفار"خمس مرات ومرة واحدة جـــاء لفظ"عفو"وأكثر من سبعين مرة جاء لفظ"غفور"نستنتج من هذا أن بحر عفوه كبير يتجلى هذا في دعوته لعباده التائبين فيقول :

" أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا " (النساء آية ١٤٩) .

ليس في مقدور الإنسان أن يعفو عن كل من يسئ إليه،إلا أن بحر مغفـــرة الله أوسع وأشمل وبما أن الله يعفو عن كثير لذا يليق بنا أن نعفو عمن ظلمنا ([2]) .

ونستخرج أيضا من الآية السابقة أن الإنسان لو عفا عمن ظلمه فإن الله يغفر له ذنوبه وهو ما صرحت به الآية التالية :

" وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم " (النور آية ٢٢) .

---

[1] مستدرك الحاكم الجزء الثاني كتاب الإيمان الجزء الأول صـــ ٦٣ .

[2] تفسير ابن جرير الطبري والبحر المحيط لابن حيان .

والآية تحثنا على العفو والمغفرة فالعفو والمغفرة من صفات الله التي يجب أن نتحلى بها وهكذا وصف الله عباده المؤمنين بالغافرين :

" وإذا ما غضبوا هم يغفرون " (الشورى آية ٣٧) .

فالعفو في حالة الهدوء أمر طبيعي أما العفو في حالة الغضب فهذا أمر شاق على الإنسان لهذا وجدنا الآية تقول بأن جوهر الإنسان المؤمن لا يظهر إلا في السيطرة على الغضب والعفو لمن أساء إليه،ليس هذا فحسب بل إنه في حالة الاختلاف العقائدي فما تملك إلا أن تخاطب هؤلاء الجهال بالمعروف فإن لم يؤمنوا فاعرض عنهم :

" وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون،خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " (الأعراف الآيات ١٩٨ ,١٩٩) .

وفي هذه الحالة لا يبقى إلا أمرين إما أن نتوقف عن الدعوة أو نتحمل مضايقات هؤلاء المعاندين ونأمر بالمعروف ليس هذا فحسب بل يجب علينا أن نتبع قوله تعالى :

" ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون " (المؤمنون آية ٩٦) .

حتى لو أن جماعة دينية ارتدت فالله يطالبنا بالتعامل مع هذه الجماعة بالمعروف فيقول:

" ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعدى إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره " (البقرة آية ١٠٩) .

وهكذا لو أن المشركين الذين لا يؤمنون بيوم القيامة قالوا شيئا يدعو إلى الغضب فيجب الصفح عن هؤلاء الجاهلين،وبما أنكم تؤمنون بيوم القيامة فيجب أن تعلموا أن عقابهم عند الله في الآخرة :

" قل للذين أمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون،من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون"(الجاثية الآيات ١٤ ,١٥) .

وقد كتب في نزول هذه الآية أنها نزلت بعد أن أساء كافر لأحد المسلمين فغضب وثار عليه بعض المسلمين فنزلت هذه الآية مطالبة المسلمين بالصفح والعفو(١).(تفسير الكبير للإمام الرازي الآية السابقة) .

---

[1] فيما يتعلق بالصفح والعفو عن الكفار هناك نظرية لعامة المفسرين تقول بأن الجهاد قد نسخ العفو والتسامح مع الكفار إلا أن هناك بعض المفسرين يقول:أنه لا يوجد نسخ للعفو والتسامح مع الكفار كما صرح بذلك الإمام الرازي في تفسيره أن الله أمر رسوله في هذه الآية بقوله"واعرض عن الجاهلين"وهذا يعني أنه أمر بالصبر تجاه تجاوزات الجاهلين ولا يوجد في الآية ما يشير إلى الجهاد أو القتال.ولا يوجد تناقض بين الإعراض عن الجاهلين وقتال الكفار،ولا توجد ضرورة لذكر الناسخ والمنسوخ وإنما هذا نوع من الجدال لدى بعض المفسرين(المجلد الرابع صـ٤٩٦).ويكتب الرازي في تفسير"ادفع

متى يغضب الإنسان؟يغضب الإنسان عندما يهينه إنسان آخر ولهذا فالإسلام أمرنا بالتحلي بالتسامح في هذه الحالة،وهكذا فإن سيدنا(مسطح)رضي الله عنه كان أحد أقرباء سيدنا(أبي بكر)رضي الله عنه،وكان سيدنا(أبو بكر)يتكفل به،ولكن عندما شارك في اتهام السيدة(عائشة)رضي الله عنها أوقف سيدنا(أبو بكر)رضي الله عنه مساعدته وكفالته وهنا نزلت هذه الآية.ومن هنا وجدنا أن الإسلام يحث على أن التسامح لابد وأن يكون نابعاً من قوة وليس من ضعف وإلا اعتبر التسامح مرادفا للخنوع،ولم يقل الإسلام ما قال به الإنجيل :

" إذا لطمك شخص على خدك فأعطه الخد الآخر" لأن في هذا إذلال ومهانة نهى عنها الإسلام فيقول الله تعالى في القرآن الكريم :

" والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون،وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين " (الشورى الآيات ٣٩ ,٤٠) .

فالرد على السيئة بسيئة قانون الجماعة إلا أن العفو والتسامح كمال أخلاق الأفراد.ويجب أن يكون العفو مثالا يحتذى بين الأفراد خاصة وأن الله قد تكفل بأجر هذا التسامح في الآخرة،والله لا يحب الظالمين،والعفو لا يتنافى مع الكرامة وهي صفة يتحلى بها أولو العزم الذين يملكون السيطرة على أنفسهم:"ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور"(الشورى آية ٤٣).وفي آية أخرى نرى تأثير التسامح كم يكون إيجابيا ويجعل العدو صديقا حميما :

بالتي هي أحسن"أن هذه الآية منسوخة,وإنما غير منسوخة فالله يطالب المسلمين باللين طالما أنه لم يفهم الدين(الجزء السادس ص٣٠٠).أما تفسيره في آية"وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" فيقول إن الكلبي وأبا العالية يقولون إن حكم القتال قد نسخ تلك الآية،وليس من الضروري أن نعمل بهذا النسخ لأن الإعراض عن الجاهلين أمر مستحسن في الشرع والعقل،ويبعث على السلام والعزة(الجزء السادس ص٤٩٧طبع دار الطباعة العامرة,مصر).ويكتب في تفسير "يغفروا للذين آمنوا"(الجاثية)أن أكثر المفسرين قالوا أنه طالما أن الله قد أمر بقتال المشركين فإن هذا يدخل في إطار العفو والكرم ويجب قتالهم،ولكن الأقرب إلى الصحة أن معنى هذه الآية بأن لا نقاتل الكفار على أبسط الأمور وأن نتسامح عن مساوئهم(المجلد السابع ص٨٤الطبعة المذكورة).ولكني أرى أن المعنى الظاهر لهذه الآية يقول بأن الله أمرنا نحن المسلمين بالصفح والعفو عن المذنبين والمشركين والكفار بمعنى أنهم قصروا في حق المسلمين أنفسهم فيجب على المسلمين أن يعفوا عنهم ولكن لا يعني هذا أن نعفو عن حق من حقوق الله فالجهاد والقتال أمر مشروع ولا يجب التفريط فيه،وقد نقل ابن عساكر عن سيدنا أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه قد عفا عن جاريته الكافرة،وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه (الجزء السادس ص٣٩مصر).

" ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنـــه ولي حميم،وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم،وإما يـــنزغنك مـــن الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " (فصلت الآيات ٣٤, ٣٥, ٣٦) .

يتضح من نهاية هذه الآيات أن ما يقوم به الإنسان من غضب وثورة إنما هـــو نزغ من الشيطان،فيجب على الإنسان أن يستعيذ بالله من هذا،ويقول سيدنا(ابن عباس)في تفسيره لهذه الآية:(إن الله أمر عباده المؤمنين بالتحلي بالصبر عند الغضب وبالحلم عند الجهالة،وبالعفو عند الإساءة فإذا فعل الإنسان هذا سيكون محفوظا من أثر الشيطان)[1].

ويقول(ابن مسعود)الصحابي الجليل:ذات مرة كنت أضرب خادمي فجاء صـوت من خلفي يقول:فلتعرف،فنظرت ورائي فرأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:يا ابن مسعود،فيقدر مالك من سيطرة وقوة على غلامك،فالله أقوى منك بكثير.ومن يومها وأنـــا أتذكر نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم أضرب خادما أبدا .

ذات مرة جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله:يا رسول الله كـم مرة أعفو عن خادمي،فصمت الرسول صلى الله عليه وسلم لفترة،ثم سأله الرجل مـــرة أخرى،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:سبعون مرة في اليوم [2].وليس المقصود فـــي الحديث النبوي هو العدد بذاته ولكن يفيد الإكثار من التسامح .

يظن بعض الناس أن العفو والتسامح قد يكونا سببا في ذهاب الهيبـــة والوقـــار ولكن هذا ليس صحيحا فالانتقام ربما يكون علاجا مسكنا لحظة وقوعه ولكن العفو مـــن شيم الكرام ويزيد الهيبة والوقار في النهاية ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم"ومـــا زاد الله رجلا يعفو إلا عزا " [3] .

---

[1] ابن كثير تفسير الآية المذكورة .

[2] الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في أدب الخادم.حدثنا قتيبة.حدثنا رشدين بن سعد عن أبي هانئ الخولاني عـن عباس الحجري عن عبد الله بن عمر قال:جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم.فقال:يا رسول الله كـم أعفـو عـن الخادم؟فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم،ثم قال:يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟فقال:كل يوم سبعين مرة

[3] الترمذي أبواب البر والصلة وباب ما جاء في التواضع.حدثنا قتيبة.حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بـن عبـد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:ما نقصت صدقة من مال.وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً أو ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله .

الحلم

إن معنى الحلم هو العفو عند المقدرة،وهذه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى فبالرغم من قدرته إلا أنه يعفو عن عباده المذنبين ولهذا لازمت المغفرة صفة الحلم حتى يعرف العباد أن كل ما يحدث هو نتيجة لعفو الله ومغفرته :

" والله غفور حليم " (البقرة آية ٢٢٥ , المائدة آية ١٠١) .

" إن الله غفور حليم " (آل عمران آية ١٥٥) .

" إنه كان حليما غفورا " (الإسراء آية ٤٤ , فاطر آية ٤١) .

نجد أن الله سبحانه وتعالى في كل هذه الآيات السابقة قد وصف نفسه بالغفور إلى جانب صفة الحليم لكي لا يعتقد أحد أن الحلم نعوذ بالله ناتج عن ضعف بل إن هذا نتيجة لغفرانه لعباده،ونجده في موضع أخر يأتي بصفة العليم إلى جانب صفة الحلم فيقول :

" والله عليم حليم " (النساء آية ١٢) .

" وإن الله لعليم حليم " (الحج آية ٥٩) .

" وكان الله عليما حليما " (الأحزاب آية ٥١) .

يظهر من هذه الآيات السابقة أن علمه يسبق حلمه وأنه يعلم بكل ما يصدر عن العباد،وفي موضع آخر من القرآن نجده يذكر صفة الاستغناء إلى جانب صفة الحلم :

" والله غني حليم " (البقرة آية ٢٦٣) .

وقد جاءت هذه الآية في ذكر الصدقة لهذا فهو غني وحليم،أما الحلم في الإنسان فغالبا ما يكون نتيجة ضعف،وعدم القدرة على الانتقام وأن المصلحة تقتضي ذلك،إلا أن هذا يعد ضعفا وليس حلما،أما حلم الله ففيه استغناء ومبرأ من كل مصلحة .

الحلم بشكل عام جدير بالاحترام ولكن عند قصيري النظر يعد الحلم أحيانا نوعا من الضعف ولهذا نجد عدم العمل به،والله يعلم نقاط ضعف عباده ومن هنا جاء بالعفو والمغفرة إلى جانب الحلم حتى لا ييأس الناس من رحمة الله:"واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه،واعلموا أن الله غفور حليم "(البقرة آية ٢٣)

وهذه الآية نزلت في الزواج الثاني للمرأة بمعنى أنه لا يجوز نكاحها إلا بعد انتهاء العدة،ولكن لا حرج من أن تكون نية الزواج قبل انقضاء العدة،ولهذا جاءت الآية توضح للنساء بأن الله يعلم ما في قلوبكم ولكن نجد الله يحذرهن من ناحية ويذكرهن

بمغفرته وحلمه من ناحية أخرى.إن الإنفاق في عمل الخير أمر يقدره الله ويكفر السيئات عن من يقوم به،فيقول الله في هذا الشأن:"إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم " (التغابن آية ١٧)

فنجد التقدير في الآية السابقة هو مضاعفة الحسنات،والحلم هو العفو عن السيئات،وهنا نكتة فلسفية مهمة،وهي أننا عندما نغضب ممن أساء إلينا لا ننظر في هذه اللحظة إلا إلى سيئاته وأخطائه ولهذا نصب عليه جام غضبنا،ولكن إذا وضعنا أمامنا حسنات ومزايا من يسيء إلينا ففي هذه اللحظة نجد أن التسامح والعفو يسبق غضبنا،ففي هذه الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأن الله يقدر إخلاص من ينفق أمواله في أعمال الخير،فتكون النتيجة أن يعفو الله عن سيئاته .

لقد وصف الله الأنبياء الكرام بالحلم خاصة سيدنا(إبراهيم)وسيدنا(إسماعيل)عليهم السلام،لقد حاول سيدنا(إبراهيم)أن ينحي والده عن عبادة الأصنام وأن ينقذه من عذاب الله،وتحمل في سبيل هذا الكثير من الصعاب والمظالم إلى أن تبرأ منه في النهاية،ورغم هذا ظل يدعو له بالخير والاستغفار عسى الله أن يهديه سواء السبيل :

" وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم " (التوبة آية ١١٤) .

وفي موضع أخر عندما علم بحلم آل لوط فقال له عنه :

" إن إبراهيم لحليم أواه منيب " (هود آية ٧٥) .

ولو أمعنا النظر في الآيات القرآنية لوجدنا أن الحلم هو اسم لمجموعة من الصفات كالصبر والرفق والاستقلال،ولهذا وجدنا الله يأتي غالبا بصفة الغفار مع صفة الحلم،وجاء بوصف أواه مع سيدنا(إبراهيم)إلى جانب الحلم ليوضح لنا أن العفو والمغفرة أمر ضروري للحلم،ونجده في آية أخرى ينسب إلى سيدنا(إسماعيل)قوله :

" فبشرناه بغلام حليم " (الصافات آية ١٠١) .

وبعدها نجده يقول بعد أن سمع أمر الله فيما يتعلق بذبحه :

" قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين " (الصافات آية ١٠٢) .

يتضح من هذا أن الصبر أمر ضروري للحلم،والحلم صفة محببة لله سبحانه وتعالى،وهكذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في شخص ما:"إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والتأني " ([1]) .

طلب رجل من رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة أن ينصحه فقال له "الرسول صلى الله عليه وسلم:لا تغضب وتحلى بالصبر عند الغضب.ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم" ليس القوي هو من يهزم الآخرين إنما القوي من يملك نفسه عند الغضب"([2]).

وفي حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم"إن من يملك نفسه عند الغضب رغم قدرته فإن الله سيكافئه يوم القيامة " ([3]) .

يقول سيدنا(أبو هريرة)رضي الله عنه إن رجلا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:يا رسول الله إن لي أقرباء كلما أتقرب إليهم يبتعدون عني،وكلما أحسن إليهم يسيئون إلي،وأتحمل كل هذا،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سمع منه:لو كان هذا مثلما قلت فاذر الرماد في وجوههم،وطالما بقيت على هذا فإن الله سيساعدك دائما([4]).

---

[1] الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في التأني والعجلة.حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع.حدثنا بشر بن المفضل عن قرة بن خالد عن أبي جمرة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الأشج عبد القيس:إن فيك خصلتين يحبهما الله:الحلم والأناة .

[2] البخاري كتاب الأدب والحذر من الغضب.حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن ابن شهاب،عن سعيد بن المسيب،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) .

[3] الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في كثرة الغضب.حدثنا عباس الدوري وغير واحد قالوا.حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ.حدثنا سعيد بن أبي أيوب.حدثني أبو مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء .

[4] صحيح مسلم باب الرحم وأدب المفرد والإمام البخاري باب فضل صلة الرحم.حدثني محمد بن المثنى ومحمد بن بشار،واللفظ لابن المثنى،قالا:حدثنا محمد ابن جعفر،حدثنا شعبة قال:سمعت العلاء بن عبد الرحمن يحدث،عن أبيه،عن أبي هريرة:أن رجلاً قال:يا رسول الله!إن لي قرابة،أصلهم ويقطعوني،وأحسن إليهم ويسيئون إلي،وأحلم عنهم ويجهلون علي،فقال:(لئن كنت كما قلت،فكأنما تسفهم المل،ولا يزال معك من الله ظهير عليهم،ما دمت على ذلك) .

الرفق واللطف

إن معنى الرفق هو عدم استعمال الشدة في معاملاتنا،ونستطيع من خلال الرفق واللين أن ننجز كل مطالبنا مهما كانت صعوبتها والله وصف نفسه في أكثر من آية وحديث قدسي باللطيف الرفيق ([1]).فالله تعالى ترفق بسيدنا(يوسف)عليه السلام وأوصله لأعلى المناصب رغم أنه كان لا يملك شيئا،ومن الله على أسرته وجاء بهم إلى مصر وجاء أخوته أمامه وأعلنوا ندمهم وتوبتهم مما فعلوا،فجاء على لسانه قول تعالى:

" إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم " (يوسف آية ١٠٠) .

ومن هنا نجد أن الصعوبات التي واجهها سيدنا(يوسف)كانت سببا في نجاحه ووصوله إلى ما أراد الله له أن يكون،فهو العليم الخبير،ونجد الله تعالى في آية أخرى يصف طريقة تعامله مع عباده بقوله:"الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز"(الشورى آية ١٩)

،وقد ذكر الله في الآية السابقة لهذه الآية المؤمنين والكافرين يوم القيامة،ثم جاء بالآية السابقة واتبعها بآية تتعلق بالمؤمنين والكافرين أيضا،ويتضح منها أن لطف الله يشمل المؤمن والكافر،فهو يرزقهم جميعا([2])،ولهذا فإن جعل يوم القيامة سرا هو لطف من الله على عباده،وسيدنا(إبراهيم)عليه السلام عندما دعا لوالده بالمغفرة لم يستجب لدعائه([3])إلا أن الله مدح طيبة ورقة قلب سيدنا(إبراهيم)عليه السلام بقوله :

" إن إبراهيم لأواه حليم " (التوبة آية ١١٤) .

وهكذا عندما طلب المغفرة لقوم لوط المذنبين ولم تقبل وساطته فمدحه الله أيضا بقوله :

" إن إبراهيم لحليم أواه منيب " (هود آية ٧٥) .

---

[1] الراغب الأصفهاني،وقد ذكر معنى أخر من معاني اللطيف وهو الرفق فالله رفيق بعباده.وقد نقل الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات أن اسم الله اللطيف لأنه يريد أن يلطف بعباده،ولكي يهيئ لهم أسباب الفلاح والصلاح بما لا يحسبون،ويقول ابن الأعرابي أن معنى اللطيف هو كل من يهيئ لك أسباب الراحة دون مشقة صـ٤٧إله آباد.ويقول الإمام الغزالي أن من يوصف بهذه الصفة هو الذي يعرف دقائق الأمور والفلاح ويهيئها للآخرين بما يخدم مصالحهم وهنا يتجلى معنى اللطيف.روح المعاني تفسير سورة الشورى(لفظ لطف).

[2] صحيح مسلم كتاب البر و الصلة باب فضل الرفق .

[3] هذا هو قول مقاتل في تفسير روح المعاني ، و كذلك الإمام الفخر الرازي .

ويختلف المفسرون في معنى كلمة "أواه" فبعضهم يقول أنها تعني كثرة الدعاء،والبعض الآخر يقول إن معناها هو رقة القلب،ورأي ثالث يقول بأنها تعني الذاكر،ولو تمعنا في الآية سنجد إمكانية تطابق هذه الصفات الثلاثة على سيدنا(إبراهيم)فهو يدعو لكل شخص ومواس،وكل من يملك قلبا عطوفا لابد وأن يتعاطف مع الآخرين بسرعة ولهذا وجدنا سيدنا(إبراهيم)يريد أن يضم كل شخص إلى الدين الحنيف ومن هنا وجدنا سيدنا(موسى)و(هارون)عليهم السلام عندما ذهبا لتبليغ الفرعون الظالم والجابر،اتبعوا نفس الطريقة وهذه هي آداب الدعوة :

" فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " (طه آية ٤٤) .

يتضح من هذه الآية أن اللين شرط أساسي من شروط نجاح الدعوة ولهذا كان الخطاب لسيدنا(محمد)صلى الله عليه وسلم هكذا :

" فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " (آل عمران آية ١٥٩) .

وكان هذا من أهم عناصر الدعوة المحمدية لكي يرغب الناس الدعوة ويقبلوا عليها،ولهذا كانت هذه الصفة من أهم مقومات سيدنا(محمد)صلى الله عليه وسلم التي أودعها الله،فهو رحمة الله المهداة .

والحقيقة أن الحلم والرفق واللين وكل هذه الأخلاق الحميدة ما جاءت في شيء إلا زانته،كما أنها من حسن أخلاق المرء،وهذا ما نراه في قول الرسول صلى الله عليه وسلم للسيدة(عائشة)رضي الله عنها عندما كان يوضح لها حقيقة هذه الخصال:"إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينتزع من شيء إلا شانه " ([1]) .

فلو تمعنا في كلمة "في شيء" فسنجد أن كل شيء يمكن أن يقوم باللين ويفسد بالشدة إلا في الشريعة أو القانون فقد تقتضي المصلحة العامة الشدة .

---

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب في فضل الرفق.حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري،حدثنا أبي،حدثنا شعبة،عن المقدام،وهو:ابن شريح بن هانئ،عن أبيه،عن عائشة،زوج النبي صلى الله عليه وسلم،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه،ولا ينزع من شيء إلا شانه) .

ورُوي عن السيدة(عائشة)رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:الله رفيق ويحب الرفق،وما يعطيه في الرفق لا يعطيه في شيء أخر [1] .

ويقول سيدنا(جرير)رضي الله عنه"إن من حرم من الرفق حرم من الخير " [2].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا:"ما من شخص فيه هذه الخصال الثلاثة إلا وأظله الله بظله وأدخله الجنة:الرفق بالضعيف،وبر الوالدين،والرفق بالعبيد " [3] .

وقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ أخرى بقوله:"ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار،على كل قريب هين سهل " [4] .

جاء جماعة من اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة وقالوا:السام عليكم.ففهمت السيدة(عائشة)ماذا يقصد اليهود بقولهم هذا للرسول فأجابتهم:وعليكم السلم واللعنة.فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم:انتظري يا عائشة فالله أمرنا بالرفق،فقالت:يا رسول الله إنك لم تسمع ما قالوا،فقال لها:لقد قلت وعليكم[5].

والشيء الجميل في إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يستعمل الشدة معهم،وهكذا فإن هؤلاء عندما يتذكرون ويتدبرون إجابته فإنهم سيخجلون من أنفسهم .

والشدة في الشريعة أو القانون تكون عندما يتجاوز أي شخص حدا من حدود الله وإيذاء الآخرين،وهكذا عندما أصر الكفار والمنافقون على عنادهم وأرادوا أن يؤذوا

---

[1] المرجع السابق.حدثنا حرملة بن يحي التجيبي،أخبرنا عبد الله بن وهب،أخبرني حيوة،حدثني ابن الهاد،عن أبي بكر بن حزم،عن عمرة،يعني:بنت عبد الرحمن،عن عائشة،زوج النبي صلى الله عليه وسلم:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(يا عائشة!إن الله رفيق يحب الرفق،ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف،وما لا يعطي على ما سواه) .

[2] المرجع السابق.حدثنا محمد بن المثنى،حدثني يحي بن سعيد،عن سفيان،حدثنا منصور،عن تميم بن سلمة،عن عبد الرحمن بن هلال،عن جرير،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من يحرم الرفق،يحرم الخير) .

[3] الترمذي أبواب الزهد .

[4] المرجع السابق.حدثنا هناد.حدثنا عبدة بن هشام بن عروة عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو الأودي عن عبد الله بن مسعود قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار:على كل قريب هين سهل .

[5] البخاري كتاب الأدب باب الرفق في الأمر كله.حدثنا عبد العزيز بن عبد الله:حدثنا إبراهيم بن سعد،عن صالح،عن ابن شهاب،عن عروة بن الزبير،أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت:دخل رهط من اليهود على رسول الله، فقالوا:السام عليكم،قالت عائشة:ففهمتها فقلت:وعليكم السام واللعنة،قالت:فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(مهلاً يا عائشة،إن الله يحب الرفق في الأمر كله).فقلت:يا رسول الله،أو لم تسمع ما قالوا؟قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(قد قلت:وعليكم).

"المسلمين أمر الله رسوله بقمعهم ومحاربتهم بقوله:"يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم " (التحريم آية ٩) .

وفي موضع آخر يقول:"يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة " (التوبة آية ١٢٣) .

وهكذا عندما يعاقب الكفار والمنافقين وأصحاب السوء يجب أن لا يأخذ المسلمين بهم رأفة :

" ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " (النور آية ٢) .

إن مكارم أخلاق الرسول التي رويت عن السيدة(عائشة)رضي الله عنها توضح فيها الفرق بين اللين والشدة،فأم المؤمنين تقول:إن الرسول لم ينتقم لنفسه من أحد إلا أنه في حالة تنفيذ أوامر الله لا يجامل أحدا ([1]) .

وقد نقل الإمام البخاري في باب خاص العديد من الأحاديث في هذا الشأن والتي من بينها أنه التزم الشدة فيها مع المسلمين بل مع أزواجه الطاهرات([2])،وقد شرح الحافظ بن حجر ما قاله البخاري في هذا الصدد بقوله :

" يشير الإمام البخاري في هذا الباب أن الأحاديث التي استعمل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم اللين تتعلق بذاته وشخصه،ولكن ما يتعلق بأوامر الله فقد استعمل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم الشدة كما أمره الله بها " (فتح الباري المجلد العاشر ص ٤٢٩ مصر) .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه:"يسروا ولا تعسروا"([3])،وقد وضح شارحو الحديث أن الشريعة لم تضيق في النوافل والمباحات،وذات مرة أخطأ أحد الصحابة وهو صائم فقال لأهله:خذوني عند رسول الله صلى الله عليه وسلم،فرفض أهله الذهاب معه لصعوبة الأمر،فذهب الصحابي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحيدا وأخبره بما صدر عنه،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:عليك بعتق رقبة،ووضع الرجل يده على رقبته وقال:يا رسول الله لا أملك إلا هذه الرقبة،فأمره الرسول صلى الله

---

[1] البخاري باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله تعالى .

[2] صحيح البخاري كتاب الأدب باب يسر و لا تعسر .

[3] صحيح البخاري كتاب الأدب باب يسر ولا تعسر.حدثنا إسحق:حدثنا النضر:أخبرنا شعبة،عن سعيد بن أبي بردة،عن أبيه،عن جده قال:لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل قال لهما:(يسرا ولا تعسرا،وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا).

عليه وسلم بصيام شهرين متتاليين،فقال له الصحابي:لقد حدث مني ما حدث يا رسول الله في الصيام فكيف أصوم،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:أطعم ستين مسكينا،فقال الصحابي:اقسم يا رسول الله بالذي بعثك بالحق لقد قضيت الليلة جائعا،فقال له الرسول:اذهب إلى بيت المال وخذ من القائم على بيت المال شيئا من التمر ووزعها على ستين مسكينا وأطعم نفسك ما تبقى من التمر،فذهب الصحابي إلى قومه سعيدا وأخبرهم بما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم:لقد وجدت عندكم الضيق والسوء ووجدت عند رسول الله السعة والمشورة الحسنة ([1]) .

التواضع

التكبر أو الكبرياء صفة خاصة بالله تعالى لا يشاركه فيها أحد:"وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم " (الجاثية آية ٣٧) .

ولا يليق بالعباد أن يتكبروا وواجب عليهم أن يتحلوا بالتواضع،والتواضع له مظاهر عدة،وقد ذكر في القرآن في بعض مواضعه حيث أمر الرسول في البداية أن يعفو عن الكفار وأن يخفض جناحه للمؤمنين من أتباعه :

" واخفض جناحك للمؤمنين " (الحجر آية ٨٨) .

وفي موضع آخر : " واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين " (الشعراء آية ٢١٥) .

كما ينبغي على الأولاد أن يعاملوا آباءهم وأمهاتهم بكل رفق وتواضع حيث قال :

"واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " (الإسراء آية ٢٤) .

---

[1] سنن أبو داوود باب في الظهار.حدثنا عثمان بن أبي شية ومحمد بن العلاء،المعنى قالا:ثنا ابن إدريس،عن محمد بن إسحاق،عن محمد بن عمرو بن عطاء،قال ابن العلاء:ابن علقمة بن عياش،عن سليمان بن يسار،عن سلمة بن صخر،قال ابن العلاء البياضي قال:كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري،فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً يتابع بي حتى أصبح،فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان،فبينا هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء،فلم ألبث أن نزوت عليها،فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر،وقلت:امشوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا:لا والله،فانطلقت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال:أنت بذاك يا سلمة؟قلت:أنا بذاك يا رسول الله مرتين،وأنا صابر لأمر الله عز وجل فاحكم في بما أراك الله،قال:حرر رقبة قلت:والذي بعثك بالحق ما أملك رقبة غيرها،وضربت صفحة رقبتي قال:فصم شهرين متابعين قال:وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام؟قال:فأطعم وسقاً من تمر بين ستين مسكيناً قلت:والذي بعثك بالحق،لقد بتنا وحشين ما لنا طعام،قال:فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك،فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر،وكل أنت وعيالك بقيتها،فرجعت إلى قومي فقلت:وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي،ووجدت عند النبي صلى الله عليه وسلم السعة وحسن الرأي،وقد أمر لي أو أمرني بصدقتكم

والمقصود بخفض الجناح هنا هو التواضع على سبيل الاستعارة لأن معنى الجناح في العربية هو جناح الطائر حيث يخفضه عندما يهبط إلى الأرض أو يحل به التعب،فاستعملها القرآن على طريق الاستعارة بأن ينزل الإنسان عن كبرياءه إلى التواضع ([1]) .

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا،وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"(الفرقان آية ٦٣) .

ومن بلاغة القرآن أن يعلم الله عباده التواضع ويرشدهم إلى توخي الرحمة،فإذا كان الله رحيما فلابد وأن تظهر صفاته على عباده :

" ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور،واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"(لقمان الآيات ١٨ ,١٩).

فقد وضحت هذه الآية أشكالا عديدة للتواضع منها أن لا يدير الإنسان وجهه عندما يتحدث إليه الآخرون،وألا يختال في مشيته،وأن لا يرفع صوته تكبرا وفخرا.ولكن يجب علينا أن نفرق بين التواضع والذل،فالتواضع ينشأ عن قوة ليس فيها غرور أو تكبر،والدناءة أو الذل هي أن يفقد الإنسان احترامه وكبرياءه نتيجة لمصالحه الشخصية ومن هنا وجدنا الله يأمر عباده بأن يظهروا تكبرهم وقوتهم عندما يفهم الآخرون أن تواضعهم هذا ضعفا،ولهذا عندما جاء الصحابة للعمرة،وكان وباء الحمى قد أضعف المسلمين جسمانيا فاعتقد الكفار أن أصحاب(محمد)صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون الطواف حول الكعبة لأنهم ضعفاء،وعرف الرسول صلى الله عليه وسلم أن الكفار يسخرون منهم فأمرهم بالطواف حول الكعبة ثلاث مرات حتى يظهروا قوتهم للكفار ([2])

---

[1] المثل السائر باب نوع والتفسير الكبير للرازي تفسير آية"جناح الذل"الجزء الخامس صـ٧٤دار الطباعة العامة .

[2] صحيح مسلم كتاب الحج باب استحباب في الطواف،وصحيح البخاري عمرة النبي صلى الله عليه وسلم.حدثني أبو الربيع الزهراني،حدثنا حماد يعني:ابن زيد،عن أيوب،عن سعيد بن جبير،عن ابن عباس، قال:قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة،وقد وهنتهم حمى يثرب،قال المشركون:إنه يقدم عليكم غدا قوم وهنتهم الحمى،ولقوا منها شدة،فجلسوا مما يلي الحجر،وأمرهم النبي رضي الله عنه أن يرملوا ثلاثة أشواط،ويمشوا ما بين الركنين،ليرى المشركون جلدهم،فقال المشركون:هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم،هؤلاء أجلد من كذا وكذا.قال ابن عباس:ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها،إلا الإبقاء عليهم.

والمكان الأساسي لإظهار القوة هو الجهاد،والإسلام في هذا المكان يفضل الكبر والغرور على التواضع،وهكذا جاء في الحديث أن الله يحب بعض الخيلاء ولا يحب البعض الآخر،فمثلا نجد أن الله يحب الخيلاء والغرور في الحرب والصدقات،ويكره الكبر في الظلم والتفاخر ([1]) .

على أية حال فالإسلام يعد التواضع خلقاً شريفاً،والضعف والهوان مذلة وتؤدي بالإنسان إلى أحط الدرجات،أما التواضع فيذهب بالإنسان إلى الدرجات العلا،والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:"من تواضع لله رفعه"([2])،وفي حديث آخر يقول:"من يستطيع أن يلبس حلة قيمة ولا يتكبر فيها فإن الله سيناديه يوم القيامة أمام الجميع ويخيره في أن يختار ما يشاء من حلل الإيمان لكي يرتديها " ([3]) .

والخلاصة أن الهدف من التواضع هو أن لا يسيء الإنسان استعمال قوته وثروته مع الفقراء والضعفاء،وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:"إن الله أمرنا بالتواضع حتى لا تظلم أحدا وألا يتكبر أحد على أحد " ([4]) .

يتضح من هذه الأحاديث أن التواضع جاء لإصلاح المجتمع وهذه الصفة يجب أن يتحلى بها الإنسان سواء في مشيه أو في صوته .

القول الحسن

المقصود بالقول الحسن هو أن يراعي الإنسان في حديثه مع أخيه الإنسان كل الحب والاحترام حتى تنشأ العلاقات الطيبة بينهما،ليس هذا فحسب بل يجب على الإنسان أن يسأل عن أخيه وأن يدعو له بالخير،كل هذا يأتي تحت صفة القول الحسن،فقد أمر الله بني إسرائيل أن يتحلوا بالقول الحسن مع الناس فقال لهم في

---

[1] ابو داوود كتاب الجهاد باب الخيلاء في الحرب.حدثنا مسلم بن إبراهيم وموسى بن إسماعيل،المعنى واحد قالا:لنا أبان قال:لنا يحيى،عن محمد بن إبراهيم،عن ابن جابر بن عتيك،عن جابر بن عتيك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:من الغيرة ما يحب الله،ومنها ما يبغض الله:فأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريبة،وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة،وإن من الخيلاء ما يبغض الله،ومنها ما يحب الله:فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال،واختياله عند الصدقة،وأما التي يبغض الله عز وجل فاختياله في البغي قال موسى:والفخر.

[2] الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في التواضع.حدثنا قتيبة.حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:ما نقصت صدقة من مال.وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً أو ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله .

[3] الترمذي أبواب الزهد .

[4] ابو داوود كتاب الأدب باب في المواخاة .

القرآن:"وقولوا للناس حسنا"(البقرة آية ٨٣).وفي آية أخرى أمر الله عباده بقوله:"وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا " (الإسراء آية ٥٣) .

والآية توضح أن القول الحسن ينتج عنه علاقات طيبة بين الناس والقول السيئ ينتج عنه الفرقة والخصام وعن طريقه يأخذ الحسد والنفاق طريقه بينهم ولهذا أمر الله عباده بإتباع القول الحسن واجتناب التنابز بالألقاب وقول السوء لأن هذا بلا شك سيخلق الكراهية والبغض .

" ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان " (الحجرات آية ١١).والله لا يحب السوء والجهر به فيقول :

" لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم " (النساء آية ١٤٨) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:"المسلم ليس بطعان ولا لعان ولا يقول إلا الطيب من القول " ([1]) .

نفهم من الحديث أن المسلم يجب أن يترفع عن كل هذه المساوئ ولا يخرج من لسانه إلا الحق والصدق والخير والفلاح،والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقل إلا خيرا ومن كان يؤمن بالله ويوم القيامة حتى لو أساء إليه أي شخص فلا يقول له شيئا فثوابه عند الله "،وذات مرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم جهنم أكثر من مرة،وكان أثر ذكر جهنم يظهر على وجهه الشريف ويقول تجنبوا النار حتى ولو بشق تمرة فإن لم تستطع فبقول الخير ([2]) .

وذات مرة تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة ومحاسنها وكان أحد الصحابة البدو يجلس مع الرسول فقال بلهفة:يا رسول الله الجنة لمن؟،فقال له

[1] سنن الترمذي باب ما جاء في اللعنة.حدثنا محمد بن يحيى الأزدي البصري.حدثنا محمد بن سابق عن إسرائيل عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء .

[2] صحيح البخاري باب:اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة.حدثنا سليمان بن حرب:حدثنا شعبة،عن أبي إسحاق،قال:سمعت عبد الله ابن معقل قال:سمعت عدي بن حاتم رضي الله عنه قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(اتقوا النار ولو بشق تمرة).

الرسول:لمن يقول الخير ويطعم الفقراء ولمن يصوم كثيرا ويؤدي الصلاة والناس نيام([1]) .

وجاء في حديث آخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"قول المعروف صدقة"([2])،وهكذا فكما أن الصدقة تسعد الفقير،كذلك قول المعروف يكون له أثره الطيب على الآخرين و يساعد في إنجاز الكثير من الأعمال .

وقد سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم:كيف النجاة يا رسول الله؟،فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:أن تسيطر على لسانك وليسعك بيتك ولتبك على ذنوبك"([3]).

وفي موضع آخر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا رسول الله أي الأشياء تخاف علينا منها؟،فأمسك الرسول بلسانه الشريف وقال صلى الله عليه وسلم:الخوف من هذا ([4]) .

الإيثار

الإيثار الآخرين من أنبل الصفات وأعلاها لأن تقديم حاجة الآخرين على حاجة النفس أمر فيه مشقة على الإنسان كأن يظل الإنسان جوعانا لكي يطعم الآخرين فيه تكليف للنفس وراحة الآخرين .

كانت هذه الصفة من خلق الأنصار،وقد تجلى هذا عندما جاء المهاجرون من مكة إلى المدينة فاستضافهم الأنصار وأعطوهم منازلهم وحدائقهم ومزارعهم كما أنهم شاركوهم مصائبهم و تحملوا كل الآلام من اجل راحتهم ([5]) .

---

[1] الترمذي باب ما جاء في قول المعروف .

[2] صحيح البخاري كتاب الأدب باب : طيب الكلام.

قال أبو هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الكلمة الطيبة صدقة).

[3] الترمذي باب حفظ اللسان.حدثنا صالح بن عبد الله.حدثنا ابن المبارك.وحدثنا سويد.أخبرنا ابن المبارك عن يحيى بن ايوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن عقبة بن عامر قال:قلت:يا رسول الله ما النجاة؟قال:أمسك عليك لسانك،وليسعك بيتك،وآبك على خطيئتك .

[4] المرجع السابق.حدثنا سويد بن نصر.أخبرنا ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال:قلت:يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي،فأخذ بلسان نفسه،ثم قال:هذا .

[5] صحيح البخاري أول مناقب الأنصار.حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال:حدثني إبراهيم بن سعد،عن أبيه،عن جده قال:لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف و سعد بن الربيع قال لعبد الرحمن:إني أكثر الأنصار مالا،فاقسم مالي نصفين،ولي امرأتان،فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها،فإذا انقضت عدتها

وعندما استولى المسلمون على أراضي بني النضير ولم يعط الرسول صلى الله عليه وسلم الأرض إلا لاثنين من الأنصار وباقي الأرض وزعت على المهاجرين لم يعترض الأنصار وقبلوا حكم الرسول بكل حب وسعة مدحهم الله تعالى قائلا([1]) :

" والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " (الحشر آية ٩) .

عندما تم فتح البحرين نادى الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار وقال:أريد أن اقسمها على الأنصار،فقال الأنصار:يا رسول الله لن نأخذ حتى يأخذ المهاجرون مثلنا،فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم:إذا لم توافقوا فاصبروا فلن يسألكم أحدا بعدي ([2]) .

ذات مرة جاءت امرأة برداء صنعته بيدها وأعطته للرسول صلى الله عليه وسلم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في حاجة إليه فأخذه من المرأة،وفي نفس الوقت كان هناك أحد المسلمين الفقراء يجلس فطلب هذا الرداء من الرسول صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم إياه،فلامه الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا له:أيها الرجل ألا تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حاجة إليه وأنت تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرد سؤال أحد فلماذا طلبته من الرسول؟،فقال الرجل:نعم لقد أخذته على سبيل البركة لأن هذا الرداء سيكون كفني ([3]) .

فتزوجها.قال:بارك الله لك في أهلك ومالك،أين سوقكم؟فدلوه على سوق بني قينقاع،فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن،ثم تابع الغدو،ثم جاء يوما وبه أثر صفرة،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(مهيم).قال:تزوجت،قال:(كم سقت إليها).قال:نواة من ذهب،أو وزن نواة من ذهب..

[1] تفسير ابن جرير الطبري الآية المذكورة.حدثني يونس،قال:أخبرنا ابن وهب،قال:قال ابن زيد،في قوله"ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا"المهاجرون"،قال:وتكلم في ذلك(يعني أموال بني النضير)بعض من تكلم من الأنصار،فعاتبهم الله عز وجل في ذلك فقال:"وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير""قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم:إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا:أموالنا بينهم قطائع،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:أوغير ذلك؟قالوا:وما ذلك يا رسول الله،قال:هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر،فقالوا:نعم يا رسول الله ...."

[2] صحيح البخاري باب مناقب الأنصار .

[3] صحيح البخاري باب حسن الخلق وباب من استعد للكفن.حدثنا عبد الله بن مسلمة:حدثنا ابن أبي حازم،عن أبيه،عن سهل رضي الله عنه:أن امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم ببردة منسوجة،فيها حاشيتها،أتدرون ما

ذات مرة جاء رجل جائع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن في بيت النبوة إلا الماء ولهذا قال الرسول:إن من يستضيف هذا الرجل الليلة فإن الله سينزل رحمته عليه فأخذه أحد الأنصار إلى بيته وقال الأنصاري لزوجته:هل يوجد لدينا في البيت شيء؟،فقالت:لا يوجد إلا طعام الأطفال،فقال الرجل لزوجته:أطفئي المصباح واجعلي الأولاد ينامون،وبالفعل نام الرجل وزوجته وأولاده جائعين وجعلوا الضيف يظن أنهم يأكلون ولما جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في الصباح قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:لقد أحب الله فعلتك هذه ([1]) .

وفي بعض الروايات قيل أن الآية السابقة جاءت في مدح الأنصار وإيثارهم([2])،ولكن السياق القرآني يأتي عامة ولا يخص بها فئة معينة كبقية الأحداث الأخرى .

الاعتدال و الوسطية

الوسطية سمة خاصة في الأخلاق الإسلامية والتي بها يخرج المسلمون من الإفراط والتفريط،وقد وصف القرآن المسلمين بأنهم " أمة وسطا " بمعنى أن عقيدتهم

البردة؟قالوا:الشملة،قال:نعم.قالت:نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها،فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها،فخرج إلينا وإنها إزاره،فحسنها فلان فقال:إكسنيها،ما أحسنها،قال القوم:ما أحسنت،لبسها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها،ثم سألته،وعلمت أنه لا يرد،قال:إني والله،ما سألته لألبسها،إنما سألته لتكون كفني.قال سهل:فكانت كفنه

[1] صحيح مسلم كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره،وصحيح البخاري تفسير سورة الحشر.حدثني زهير بن حرب،حدثنا جرير بن عبد الحميد،عن فضيل بن غزوان،عن أبي جازم الأشجعي،عن أبي هريرة قال:جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:إني مجهود،فأرسل إلى بعض نسائه،فقالت:والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء،ثم أرسل إلى أخرى،فقالت مثل ذلك،حتى قلن كلهن مثل ذلك:لا،والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء،فقال:من يضيف هذا الليلة،رحمه الله.فقام رجل من الأنصار فقال:أنا،يا رسول الله،فانطلق به إلى رحله،فقال لامرأته:هل عندك شيء؟قالت:لا،إلا قوت صبيتي،قال:فعلليهم بشيء،فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل:فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السرج حتى تطفئيه،قال:فقعدوا وأكل الضيف،فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم،فقال:وقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة .

[2] المرجع السابق.حدثنا أبو كريب،محمد بن العلاء،حدثنا وكيع،عن فضيل بن غزوان،عن أبي حازم،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رجلا من الأنصار بات به ضيف،فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه،فقال لامرأته:نومي الصبية وأطفئي السراج وقربي للضيف ما عندك،قال فنزلت هذه الآية:"ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة".

هي عقيدة الاعتدال ([1]).ولهذا جاءت أكثر التعاليم الإسلامية تحمل هذه الصفة حتى في العبادات فنجد أن الدعاء في الصلاة يرشدنا الله بقوله :

" ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا " (الإسراء آية ١١٠) .

وكذلك في مشينا وسيرنا جاء ذكرها في القرآن ضمن نصائح سيدنا(لقمان)عليه السلام:

" واقصد في مشيك " (لقمان آية ١٩) .

بمعنى أن يكون مشي الإنسان فيه متانة ووقار وأن يبعد الإنسان في مشيته عن الخيلاء والتكبر ([2]).والكرم والعطاء صفة حثت عليها كل الأديان السماوية فكلما كان عطاء الإنسان أكثر كلما كان هذا قابلا للمدح والثناء إلا أن الإسلام أخذ طريق الاعتدال في هذا،وأمرنا بأن ننفق ولكن لا ننسى أنفسنا ونصبح بعد ذلك من المحتاجين فقال:

" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " (الإسراء آية ٢٩).

كما قال القرآن في وصفه لأخلاق المسلمين :

" والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (الفرقان آية ٦٧) .

بمعنى أنه ينهي عن الإسراف والبخل في وقت واحد ولكن اتخذ طريق الوسط،وهو ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه:"اكلفوا من الأعمال ما تطيقون " .

والمقصود بالأعمال هنا كل ما يقع تحت هذا المعنى إلا أن الشارحين اقتصروها على الصلاة والصوم وبقية العبادات الأخرى ([3]) .

بمعنى أنه بعد أداء الفرائض يجب على الإنسان أن يقوم بالنوافل بقدر ما يستطيع ولا يكلف نفسه أعباءا لا يستطيع أدائها،ولكن هناك أحاديث أخرى لم تقصر الاعتدال والوسطية على العبادات بل شملت كل جوانب الحياة فمثلا في مسند البزاز عن سيدنا(حذيفة)رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"ما أحسن القصد في الغنى،ما أحسن القصد في الفقر،ما أحسن القصد في العبادة " .

---

[1] التفسير الكبير للرازي تفسير الآية المذكورة في سورة البقرة .

[2] ابن جرير الطبري (روح المعاني) .

[3] فتح الباري المجلد الحادي عشر صـــ ٢٦٨ .

والخلاصة بأن لا يصل غنى الإنسان إلى ما وصل إليه(قارون)ويغفل عن ما يجب عليه من حقوق،كما أنه لا يجب على الإنسان أن يسرف في إنفاق أمواله حتى يصير معدما وبعدها يفقد كل كرامته وعزه وجاهه،فالحاجة تجعل الإنسان يتنازل عن كل ما آمن به وهذا إفراط وتطرف في نظر الإسلام .

أما الاعتدال فهو من تعاليم الإسلام وهو ما نلمسه ونراه في العبادات التي هي أفضل الأعمال فلا يجب على الإنسان أن يفرط فيها بحيث لا يصبح عبئا على الآخرين وألا يهملها بحيث يغفل الحقوق و الواجبات التي أمرنا الله بها .

وحادثة سيدنا(عثمان بن مظعون)رضي الله عنه مرت بنا في السيرة أكثر من مرة وذلك عندما بدأ يصوم النهار ويقوم الليل فمنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك وطلب منه الاعتدال وقال له:إن لك حقوقا ومسئوليات أخرى .

عزة النفس

وهذه صفة أخلاقية يحافظ بها الإنسان على كرامته واحترامه ومقامه ومكانته،ونحتاج إليها في حياتنا كثيرا،يحتاجها الإنسان في كل جوانب الحياة ليحافظ من خلالها على مكانته وكرامته،يحتاجها في قعوده وقيامه،في مشيه وتجواله،في لقاءاته ومقابلاته،في شرابه وطعامه،في ملبسه وهندامه،ومن لم تكن لديه هذه الصفة فإنه يفتقد إلى سمو النظر ورفعة الخيال ورقي الأخلاق،ولن يحترمه الآخرون،ولن يحفلون بما يقول،ولن يهتمون بأمره،ولن يحظى باحترام في مجاله.

هذه العزة وهذا الوقار موجودان قبل كل شيء في ذات الله العلية،التي هي مركز العزة كلها,ولهذا ذكر الله تعالى باسم العزيز في القرآن الكريم في اثنين وسبعين موضعا,ومعنى العزيز صاحب العزة والغالب[1]وأحيانا تأتي بمعنى القوي أو المقتدر.ولهذا فإن العزة في الأساس له هو,والعزة الحقيقية هي التي يحصل عليها الإنسان من الله تعالى,وعندما كان الإسلام ضعيفا كان المنافقون يظهرون صداقة

---

[1] جاء لفظ العزة في القرآن الكريم بمعاني متعددة منها الشدة والغلبة والعز والشرف والنخوة والحمية,ولهذا يكون معناهـا طبقا لسياق الكلام,وأما المعنى المشترك بين هذه المعاني جميعا فهو أن يكون الشخص في منزلة لا يستطيع معها أحد أن يضغط عليه.(انظر لسان العرب ومفردات الراغب الأصفهاني,وابن جرير الطبري,وآيات العزة في سورة البقرة والنساء والمنافقون .

للمسلمين من جانب ومن جانب آخر كانوا يطلبون صداقة الكفار لأجل العزة والجاه والعظمة الظاهرة،وقد كشف الله تعالى عن خداعهم هذا في ضوء هذه الحقيقة قائلا :

" أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا " (النساء : ١٣٩) .

وقال بأن من يريد العزة فإنها عند الله تعالى :

" من كان يريد العزة فلله العزة جميعا " (فاطر : ١٠) .

" تعز من تشاء وتذل من تشاء " (آل عمران : ٢٦) .

وذات مرة في إحدى الغزوات قال رئيس المنافقين نعود إلى المدينة ويخرج أعزاؤها أولئك الأذلاء(يعني المسلمين)أو محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله،فرد الله تعالى عليهم بقوله:"ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " (المنافقون :٨) .

وقد منحت هذه الآية الكريمة المسلمين عزة الإيمان التي لا يمكن لأحد أن يسلبهم إياها،ولهذا يجب أن تبقى رأس كل مسلم مرفوعة أمام الباطل،ويجب أن يشعر بعزته الدينية هذه دائما،ومن هنا يجب أن يكون المسلم نموذجا أخلاقيا رائعا أمام العالم،وقد كانت قلوب الصحابة عامرة بهذا الإحساس بالعزة بفضل تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم،وعندما تجرأ سيدنا عمر رضي الله عنه في صلح الحديبية على الاعتراض على شروط الصلح التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وافق عليها فإن هذا الإحساس بالعزة هو الذي كان يدفعه،فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله،أو لسنا على الحق وهم على الباطل،فقال صلى الله عليه وسلم بلى،فقال عمر رضي الله عنه فلماذا نتحمل الذلة في ديننا إذن([1])،فقال صلى الله عليه وسلم أنا رسول الله،ولا أستطيع أن أخالف حكمه.لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد نظرا من سيدنا عمر رضي الله عنه،وأثبتت الأحداث أن حكم الله كان مبنيا على مصلحة كبرى .

---

[1] صحيح البخاري– باب الشروط في الجهاد.حدثني عبد الله بن محمد:حدثنا عبد الرزاق:أخبرنا معمر قال:أخبرني الزهري قال:أخبرني عروة بن الزبير،عن المسور بن مخرمة ومروان،يصدق كل واحد من حديث صاحبه،فقال عمر بن الخطاب:فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت:ألست نبي الله حقا؟قال:(بلى).قلت:ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟قال:(بلى).قلت:فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟قال:(إني رسول الله،ولست أعصيه،وهو ناصري).

وفي غزوة الخندق أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعد شبح الحــــرب من على رؤوس الأنصار,فعزم على أن يرد قبيلة غطفان على شرط أن يغطيهم ثلـــف إنتاج المدينة من التمور,ولكن عندما استشار رسول الله صلى الله عليـــه وسـلم ســادة الأنصار قالوا له :

" يا رسول الله عندما كنا نعبد الأصنام,غافلين عن الله تعالى لم يكونوا يجرؤون علــى أن يأخذوا منا شيئا,والآن بعد أن أعزنا الله بالإسلام,وأصبحنا أعزاء بالله ورسوله نعطيــهم أموالنا هكذا,والله لا نحتاج إلى هذه المعاهدة ([1]) ".

وحين خرج الصحابة في زمن الخلافة لقتال قيصر وكسرى كانت عزة نفوسـهم مرتفعة إلى درجة تجعل المسلم العادي يدخل إلى بلاط كسرى وقيصر بـــلا خـوف أو تردد,ويسأله بشجاعة,وقد كانت هذه الصفة سببا في إنجازات المسلمين وشجاعتهم حيــن كانوا مسلمين حقا,وبعد مرور ثلاثة عشر قرنا ونصف يشعر كل مسلم بهذه العزة الدينية باعتباره مسلما,ويشعر بعزة نفسه,وهو على يقين أن درجته رفيعة باعتباره مسلما,وهـذا الصوت يدوي في أذنيه دائما :

" كنتم خير أمة أخرجت للناس " (آل عمران : ١١٠) .

قال رجل للإمام حسن بن علي رضي الله عنهما إن النــــاس يقولـــون إن بــك غرورا,فقال ليس بي غرور,ولكن عزة,وهي العزة التي لا ذلة معها,وهي الثروة التي لا فقر معها,ثم تلا الآية السابقة .

قالت مسلمة صالحة:ألست مسلمة؟إن هذه هي العـــزة التـــي ليـس معــها ذل أبدا,وهذه هي الثروة التي لا إفلاس معها أبدا .

ويقول الشيخ أبو حفص السهروردي إن عزة النفس تختلف عــن الغـرور لأن عزة النفس هي أن تعرف نفسك ومكانتك وتعزها بألا تسقط في قعر الأمور الفانية,أمـــا الغرور فهو أن تنسى مكانتك الحقيقية,وتمنحها مكانة أكبر من مكانتها ([2]) .

وعزة النفس هي عين الشرف,ومن لا عزة له لا وقار له في نظر الناس,وإذا لم يكن في اليد حيلة لهذا الوقار وهذه العزة فإنه على الإنسان أن يتجنب أمورا كثيرة,وقد جاء فـــي وصف المسلمين الصادقين في القرآن الكريم :

---

[1] سيرة ابن هشام , و تاريخ الطبري – ذكر واقعة الأحزاب بسند .

[2] هذه الأقوال ذكرها الإمام الرازي و صاحب روح المعاني في تفسيرهما لسورة المنافقين .

" وإذا مروا باللغو مروا كراماً " (الفرقان : ٧٢) .

بمعنى أنهم يمرون فيه باحترام وعزة نفس بحيث لا يلتفتون إليه,ولا يلفتون أنظار اللاغين لهم,وللحفاظ على عزة النفس هذه ينبغي على الإنسان أن يراقب نفسه في كل خطوة,في مشيته وملبسه وكلامه بحيث يبدو شرفه في كل شيء,وفي نفس الوقت عليه أن ينتبه إلى أنه لا يجب أن يبدو كل هذا متصنعاً متكلفاً,أو ضيق أفق وغروراً,بمعني أنه ينبغي أن تكون في هذه العزة تعظيماً لنفسه وتحقيراً للآخرين,وهذا هو الفارق بين عزة النفس والغرور,ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة:من كان في قلبه مثقال ذرة من الغرور لا يدخل الجنة,فقال رجل يا رسول الله إنني امرؤ أحب أن تكون ملابسي جميلة وحذائي جميلاً،أي ألا يدخل ذلك في الغرور,فقال صلى الله عليه وسلم:إن الله جميل يحب الجمال,الغرور أن تنكر الحق وتحقر الناس ([1]) .

والهدف من الحكم بالنظافة في الإسلام هو ألا يسقط المسلم من نظر الآخرين,هذا بالإضافة إلى النظافة والطهارة,لأن الناس ينفرون من الشخص القذر غير النظيف.ذات مرة رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصاً أشعث الشعر فقال:أليس عنده ما يسوى به شعره,ورأي صلى الله عليه وسلم شخصاً ملابسه قذرة فقال له:هل عندك مال؟قال:عندي الجمال والماعز والفرس وكل شيء,فقال له صلى الله عليه وسلم إذا أعطاك الله مالاً فيجب أن يظهر أثر فضل الله على جسمك ([2]) .

---

[1] الترمذي–أبواب البر والصلة–باب ما جاء في الكبر.حدثنا محمد بن المثنى وعبد الله بن عبد الرحمن قالا:حدثنا يحيى بن حماد.حدثنا شعبة عن أبان بن تغلب عن فضيل بن عمرو عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر،ولا يدخل النار يعني من كان في قلبه ذرة من إيمان قال:فقال له رجل:إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً،قال:إن الله يحب الجمال،ولكن الكبر من بطر الحق وغمض الناس.

[2] أبو داود– كتاب اللباس– باب في غسل الثوب الخلقان.حدثنا النفيلي,ثنا زهير,ثنا أبو إسحاق،عن أبي الأحوص،عن أبيه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب دون فقال:ألك مال؟قال:نعم،قال:من أي المال؟قال:قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق،قال:فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته.

وأعظم مظاهر عزة النفس هو الوقار والجدية,ولهذا فإن الإسلام أمر بالتزام الوقار في كل حال,حتى في الصلاة التي هي أهم العبادات,ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة,وعليكم بالسكينة والوقار ولا تسرعوا " ([1]) .

ويتصور الناس أن عليهم أن يسرعوا إذا رأوا الإمام يدخل في الصلاة,أو ينزل إلى الركوع,حتى لا تفوتهم الركعة,لكن هذا ينافي الوقار,ولهذا منعه صلى الله عليه وسلم,والمشية الهادئة,وخفض البصر وخفض الصوت,وعدم الالتفات يمنة ويسرة,كل ذلك يدخل في الوقار .

والوقار لفظ جامع تدخل فيه أشياء كثيرة,وقد نقل أبو داود في كتاب الأدب باب الوقار الحديث التالي :

" الهدى الصالح,والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة " وذلك لأن الإنسان يكتسب الوقار من خلالها,وبفضلها يخلق الشخص بداخله الإحساس الأخلاقي ويصبح عزيز النفس .

وقد ورد لفظ(دل)في صحيح البخاري,وكلها ألفاظ تعني أن يعمل الإنسان على أن يتسم بالوقار في مشيته وحديثه وشكله وهندامه وسلوكه,وأن يتمثل بسلوك المسلمين الصالحين,وقد أمر الإسلام بخصال الفطرة,أي قص الأظافر وحف الشوارب والختان,والسبب في هذا أن الإنسان يبدو بها وقوراً,وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام أول من اتبع هذا الطريق فسأل الله تعالى عنه فقال له إنه الوقار,فقال إبراهيم عليه السلام"ربي زدني وقاراً " ([2]) .

وفي أوقات الفقر والحاجة,أو الحرص والطمع تبدو عزة نفس الإنسان وهو ما يطلق عليه في اصطلاح الشريعة(التعفف)و(الاستعفاف),وهي صفة مدحتها الشريعة,وقد أثنى الله تعالى على أصحاب الصفة لاتصافهم بهذه الصفة :

---

[1] البخاري– كتاب الصلاة– باب إلى الصلاة وليأتها بالسكينة والوقار.حدثنا آدم قال:حدثنا ابن أبي ذئب قال:حدثنا الزهري،عن سعيد بن المسيب،عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.وعن الزهري عن أبي سلمة،عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة،وعليكم بالسكينة والوقار،ولا تسرعوا،فما أدركتم فصلوا،وما فاتكم فأتموا).

[2] البخاري – أدب المفرد – باب الختان للكبير .

" للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم,لا يسألون الناس إلحافاً " (البقرة : ٢٧٣) .

ونستطيع أن نتصور مدى عزة النفس التي ظهرت في حالة الفقر والعوز من خلال هذه الآية في ثنايا تفسير بعض آيات القرآن الكريم,إذ يقول صاحب الكشاف في تفسير آية " لا يسألون الناس إلحافاً " أنهم يسألون الناس ولكن لا يلحون عليهم في السؤال,وإنما يسألونهم في هدوء و لين .

أما الإمام الرازي فقد كتب في تفسيرها أن هذا ليس صحيحاً,لأنه إذا كان الله تعالى قد بين أن الذين لا يعرفون هؤلاء يظنونهم أغنياء من التعفف,فما معنى أنهم يسألون الناس,وقد كان أصحاب الصفة يتحاشون سؤال الناس برغم حاجتهم لأنهم كانوا يستطيعون تحمل الآلام والمصاعب ولا يسألون أحداً,حتى ذلك الشخص الذي يصمت بلسانه ولكنه يظهر فقره وحاجته بشكل آخر,فإن صمته هذا يكون بمثابة الإلحاح والإصرار,لأن ظهور علامات الحاجة يدل على الحاجة,والصمت يظهر أنه ليس لديه وسيلة ما يلبي بها احتياجاته,ولهذا عندما يرى الإنسان شخصاً في هذه الحالة يرق له قلبه ويضطر إلى إعطائه,ولهذا فإن مثل هذه الحالة تعد إلحاحاً وإصراراً,ولهذا عندما يقول الله تعالى عن أصحاب الصفة أنهم لا يسألون الناس إلحافاً فإن هذا يعني أنهم لم يكونوا يسألون الناس أصلاً,وفوق ذلك لم يكونوا يسمحون لأحوالهم السيئة أن تبدي حاجتهم وعوزهم مما يعد بديلاً عن السؤال,وإنما كانوا يظهرون أمام الناس في أحسن حال,ولا يجعلون أحداً غير الله يعرف بفقرهم حاجتهم ([1]) .

وأكثر أشكال السؤال ابتذالاً هو التسول,ولقد منع الإسلام من التسول منعاً باتاً,حيث جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من يظل يتسول من الناس يأتي يوم القيامة وليس على وجهه قطعة من اللحم,وهذا تشبيه لحالته,إذ أنه لم تكن لديه في الدنيا عزة نفس,ففقد كرامته واحترامه.وكان هناك بعض الأنصار من الفقراء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً,فأعطاهم,ثم سألوه فأعطاهم,وعندما انتهى المال كله قال صلى الله عليه وسلم:لو كان عندي شيء لأعطيتكم,ومن يطلب العزة من الله يعزه,ومن يطلب الاستغناء من الله يغنه الله ومن يطلب الصبر يصبره الله,ولم يعط الله أعظم من الصبر .

---

[1] التفسير الكبير – الجزء الثاني – ص ٥٢٦ , ٥٢٧ .

بل إن سؤال عامة الناس وقت الفقر والفاقة ينافي عزة النفس,ولهذا منعه الإسلام,وقال صلى الله عليه وسلم من يحتج شيئاً فيعرض حاجته على الناس لا تتقضي حاجته,ومن يعرض حاجته على الله فإن الله قد يرضيه إما بالموت المفاجئ أو بالمال.هذا والناس لا يعدون سؤال أحدهم للآخر في أمور الحياة العادية أمراً سيئاً,ولكن كمال العزة هو في الاحتياط من مثل هذه الأمور أيضا,على سبيل المثال إذا سأل شخص شخصاً أن يناوله القبعة,أو يضع الكتاب على المنضدة فإن هذا في الظاهر لا ينافي عزة النفس,ولكن إذا أنكر هذا الشخص القيام بما سئل,أو أظهر لمتعاضه,فإن ذلك سيكون بمثابة الصدمة لعزة نفس الذي سأل,ولهذا فإن من كمال عزة النفس أن يتجنب الإنسان مثل هذه الأمور.

ذات مرة بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على بعض الأمور من بينها"لا تسألوا الناس شيئاً"وقد التزم بعض الصحابة بهذا الأمر التزاماً شديداً بحيث أنهم كانوا لا يطلبون من أحد أن يرفع ما يسقط منه من القمامة .

ذات مرة جاء محتاج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله أن يسمح له بسؤال الناس,فلم يسمح له النبي صلى الله عليه وسلم,وقال له:إذا كنت سائلاً فاسأل الصالحين" ([1]) .

وقد خصص الصالحين في الغالب لأن هؤلاء يعطون السائل بعزة وكرامة,وإن لم يستطيعوا ردوه برفق ولين.ويتضح مما سبق أن الإيمان والإسلام هما النعمة العظمى بالنسبة للمسلم,ولا تعادلهما نعمة أخرى,والمسلم هو الذي لا يخشى إلا الله ولا ينحني أمام أحد,ولا يمد يده إلى أحد,وينظر إلى نفسه نظرة تقدير باعتباره مسلماً,ويتيقن من أن العزة لله فقط ولرسوله والمؤمنين,والحفاظ على هذه العزة والكرامة حفاظاً على عزة وكرامة الإسلام , و كان من بركات هذه التعاليم أننا لازلنا حتى اليوم إذا أردنا أن نثير الحمية الإسلامية في شخص مسلم قلنا له:أتفعل هذا وأنت مسلم,وكأن كونك مسلماً هو

[1] ابو داود–كتاب الزكاة–باب كراهة المسألة,وجاءت كل هذه الأحاديث في باب في الاستعفاف حدثنا قتيبة بن سعيد،ثنا الليث بن سعد،عن جعفر بن ربيعة،عن بكر بن سوادة،عن مسلم بن مخشي،عن ابن الفراسي أن الفراسي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:أسأل يا رسول الله؟فقال النبي صلى الله عليه وسلم:لا،وإن كنت سائلاً لا بد فاسأل الصالحين.

في ذاته عز وكرامة ينبغي من أجل الحفاظ عليـــها أن تتجنـب كــل أنــواع الســوء والدنايا,وأن ترتفع بنفسك عنها .

ونريد أن نختم هذه الباب بواقعة تظــهر منــها العــزة والكرامــة الإســلامية وحقيقتها,وليس فيها من التصنع والتكلف أو الفخر والتفاخر شيئاً,وإنما عـــزة الإســلام وفخر الحق هما اللذان يرفعان المسلم مع تواضع نفسه وانكسار قلبه,حتى وإن كان فقيراً محتاجاً وضعيفاً فإنه لا ترعبه أية قوة ظاهرة,ويقابل الباطل مرفوع الرأس,وأما إن كان غنياً وصاحب نفوذ فإنه لا يحتاج إلـــى أن يبــدي نفــوذه وهيبتــه بأشــياء ظاهريــة استعراضية,وإنما تكفيه قوة الحق في هذا .

كان سيدنا عمر رضي الله عنه ذاهباً إلى الشام لتسلم مفاتيح بيت المقدس مـــن الروميين بعد فتحه,فخرج القائد المسلم ســـيدنا أبــو عبيــدة مــع بعــض المســلمين لاستقباله,وحين وصل هذا الموكب إلى مكان به ماء لابد أن يمروا منه نزل سيدنا عمـو رضي الله عنه من على ناقته وخلع خفيه ووضعهما على كتفه,وأمســك بزمــام ناقتــه وخاض في الماء,ثم تقدم هذا الخليفة العظيم وهو في هذه الحالة ليدخل مدينة الروميــن المقدسة,عندئذ قال سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ما هذا,لقــد خلعــت خفيك ووضعتهما على كتفك وأمسكت بزمام الناقة في يدك وتسير بها في المـــاء,والآن سيأتي أهل المدينة كلهم ليرونك,فقال سيدنا عمر رضي الله عنه:لو قال غيرك هذا يا أبا عبيدة لعاقبته وجعلت منه عبرة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم,لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام,وإذا طلبنا العزة في شيء آخر وتركنا العزة التي منحنا الله إياها فسوف يذلنـــا الله ([1]) .

الشجاعة والإقدام

من صفات الله تعالى القدير والقادر والمقتدر ولقوي والجبار ولقاهر والغـــالب والعزيز,فإذا ما أصاب ظل هذه الصفـــات أحــداً تولــدت فيــه الشــجاعة الأخلاقيــة والجسدية,والإسلام هو الدين الوحيد من بين الأديان كلها الذي حـــاول خلــق جوهــر الشجاعة والإقدام في متبعيه,ولقد كان الناس قبل الإسلام ينظرون إلى أحـــوال الدنيـــا فيظنون أن كل ظلم في الدنيا وسفك دماء ما هو إلا نتيجة لهذه القوة,لهذا فإنها تســـتحق القضاء عليها,لكن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أوضح أن القوة بذاتها ليســـت

[1] مستدرك الحاكم – الجزء الثاني – صـــ ٦٢ – كتاب الإيمان على شرط الصحيحين .

شيئاً سيئاً,وإن الحالات التي تستخدم فيها هذه القوة هي السيئة,ولهذا امتدحت التعاليم المحمدية الشجاعة والإقدام,وحددت المواضع التي تستخدم فيها وهي إعانة الحق والقضاء على الباطل,لأن هذه القوة إن لم تكن لدى الخير فلن يستطيع السيطرة على الباطل ومواجهته بشجاعة,ولن يستطيع القضاء على الظلم والجور,وبالتالي لن تنجح فريضة الجهاد المقدسة في الإسلام.وقد مدح الله تعالى أولئك الذين يتحملون المصائب بشجاعة,ويحاربون في المعارك ببسالة فقال:"والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المفلحون" (البقرة : ١٧٧) .

ويعلم من هذا أن الشجاعة وثبات القدم في الحرب صفة تساعد من يتصف بها على التقوى والاستقامة,لأنه من الفرض على من ينتمي إلى جماعة معينة أو ملة بعينها أن يحافظ عليها ويفتديها بروحه,وإذا ما فعل ذلك فإنه يصبح في نظر الله والأمة صادقاً مستقيماً,والعاطفة التي تحثه على ذلك هي أصل التقوى,وقد جاءت التعاليم بالشجاعة في مواضع متعددة في القرآن الكريم منها :

" ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً للقتال أو متحيزاً " .

بمعنى أننا إذا اضطررنا إلى لقاء العدو فعلى أهل الإيمان أن يثبتوا في مواجهتهم,وألا يجبنوا في الميدان,ويظهروا الشجاعة والثبات,وقد خاطب الله تعالى في هذه الآية أهل الإيمان,و يفهم منه أن هذا الإيمان هو روح شجاعتهم وأصل إقدامهم لأن الله تعالى يقول إن المسلم الذي يجبن في مثل هذا اليوم أمام العدو فإنه يستحق غضب الله تعالى :

" ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله,ومأواه جهنم وبئس المصير " (الأنفال : ١٦) .

لقد كان من الأمور السلبية أن لا يثبت المسلم في ميدان الحرب,ولهذا أمرهم الله بالأمر الإيجابي وهو:"يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا" (الأنفال : ٤٥) .أي اثبتوا,وواجهوا,ولا يتزحزح منكم أحد عن موقعه إلا أن يكون في ذلك مصلحة للمعركة,ولهذا مدح الله تعالى المسلمين بأنهم لا ترعبهم قوة الكفار,وقال عنهم :

" أشداء على الكفار " (الفتح : ٢٩) .

ويمكن أن يكون معنى أشداء في هذه الآية(الأقوياء)أيضا,ويعلم منه أنه على المسلم أن يكون قوياً في مواجهة خصوم الحق وخصوم دينه بشكل خاص,قال تعالى :

" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم " (الأنفال : ٦٠) .

وقد فسرت هذه القوة بمعدات الحرب وآلاته في ذلك الزمان،مثلاً بناء القلاع،والتدريب على الرمي،ولكن هذا التخصيص باعتبار الزمن فقط،وإلا فإن المفسرين قد أطلقوا معناها،وأدخلوا فيها كل أنواع الأسلحة([1]).المهم أن الله تعالى في هذه الآية قد أرشد المسلمين إلى إعداد الأسلحة الحربية والتدريب على القتال،ومعرفة كيفية استخدام المعدات والأسلحة،حتى يخافهم أعداء الحق عندما يرون استعدادهم،ولا يجترءوا على خرق المعاهدة التي يوقعونها معهم .

وعلى العكس من ذلك فإن الجبن رذيلة وكذلك الضعف،وقد كان بعض المسلمين الذين يحاربون لأول مرة باسم الإسلام في معركة بدر يشعرون بوحشة من هذا القتال،فذمهم الله تعالى بآيات من عنده فقال:"كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون"(الأنفال : ٦).ورسم القرآن الكريم صورة ضعف قلوب المنافقين في سورة الأحزاب فقال :

" فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت "(الأحزاب : ١٩) .

وعبر عن ضعف القلب هذا في سورة محمد بقوله :

" فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم " (محمد : ٢٠) .

وفي آية أخرى قدم صورتهم كما يلي :

" وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم،وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة،يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو " (المنافقون : ٤) .

وقد وضحت هذه الآية أن الشجاعة والإقدام ليسا بضخامة البدن أو كثرة لحمه،وإنما هي قوة القلب التي حرم منها المنافقون حتى وإن بدوا ضخام الجثة أقوياء الأبدان،لكن ضعف قلوبهم وصل إلى درجة أنهم يرتعدون خوفاً إذا صاح أحد فيهم،فهم كمثل تمثال ضخم توقفه بغير تثبيت،فإنه يبدو من بعيد ضخماً قوياً،ولكن لأنه ليس مثبتاً بقوة فإنه يسقط بقوة أيضا مع أية هزة و لو ضعيفة .

---

[1] تفسير الطبري – الآية المذكورة .

والإسلام يخلق في متبعيه جوهر الشجاعة والإقدام،ورغم أنه لا يتغاضى عن الشجاعة الجسمانية والمادية تماماً،لكنه لم يؤسس في متبعيه الشجاعة على أساسها،ولهذا سخر القرآن في الآية السابقة من ضخامة أبدان المنافقين،لأنه لا شجاعة في هذه الأبدان،ولهذا يريد الإسلام أن يكون أساس جوهر الشجاعة والإقدام الذي يخلقه في المسلمين على العقيدة القوية،والتي تنتج بشكل حتمي عن الإيمان الصحيح واليقين الراسخ بأن :

١- أي شيء يحدث هو بأمر الله،ولا يمكن أن يحدث شيء بغير أمره،ولهذا فإن الأمر لا يكون بالقلة أو الكثرة،وإنما بفضل الله ونصره .

٢- لكل واحد وقت معين يموت فيه،فإذا ما جاء هذا الأجل لا يمكن تأخيره،وطالما لم يحن هذا الوقت لا يستطيع أحد أن يفنيه .

٣- الموت في سبيل الله هو أفضل مصرف للحياة،إذ أن هذه الدماء تغسل كل ذنوب الشخص،ومن لم يمت في المعركة له ثواب عظيم كذلك .

<u>قلة العدد وكثرته:</u>

إن حصر الفشل والنجاح في المعركة على الكثرة أو القلة العددية وهم وخداع،إذ أن النجاح والفشل لا يكون تبعا للعدد،وإنما يكون تبعا للحالة الإيمانية والأخلاقية لمن يجتهدون،ومهما كان العدد صغيرا لكن إن كانت لديه قوة الإيمان واليقين فإن هذا العدد الصغير يغلب بفضل الله أكبر الأعداد.وقد بين القرآن الكريم هذه الفلسفة باختصار فيما يتعلق بجيش طالوت الصغير فقال :

" كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " (البقرة : ٣٣) .

وحين كان سيدنا موسى عليه السلام يحث بني إسرائيل على الجهاد وكان ضعاف القلوب منهم يقولون إننا لن نحارب:"إن فيها قوما جبارين"(المائدة : ٢٢).

وكان شخصان من أمته يفهمانهم قائلين :

" فإذا دخلتموه فإنكم غالبون،وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " (المائدة : ٢٣) .

وقد شرح الله تعالى السر في النجاح في بدر وأحد قائلا :

" ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت،وإن الله مع المؤمنين " (الأنفال : ١٩) .

"فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين،إن ينصركم الله فلا غالب لكم،وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده،وعلى الله فليتوكل المؤمنون"(آل عمران:١٦٠).

والنصر والهزيمة موقوفان على الأمر الإلهي،ومنه يكون المدد :

" وما النصر إلا من عند الله،إن الله عزيز حكيم " (الأنفال : ١٠) .

وتعويض قلة العدد يكون بقوة الإيمان،ولقد أخبر الله تعالى المسلمين بهذا السر ليس باعتباره نظرية تقال،وإنما جعل منه قاعدة،وزف إليهم البشرى فقال إن المسلم الحق يواجه عشرة أضعافه،وأن عشرة جنود من مثله يغلبون مائة،وعشرين يغلبون مائتين .

" يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون " (الأنفال : ٦٥) .

وقد وضح الله تعالى سببا آخر لتغلب المسلمين الشجعان وهزيمة الكفار وهو أن قوة الصبر والتوكل على الله تملأ قلوب المسلمين،أما قلوب الكفار فهي محرومة من هذا الفهم للإيمان و بصيرته .

وبعد ذلك جاء بعض التخفيف في شدة هذا الابتلاء،ومع ذلك فإن هذا التخفيف هو معيار الشجاعة والمروءة اليوم،يعني أن المسلم يواجه ضعف عدده بقدم ثابتة :

" فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين،وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله،والله مع الصابرين " (الأنفال : ٦٦) .

وانظر إلى قوة هذه التعاليم وتأثيرها،إذ تجد اليقين في قلوب المسلمين اليوم على أن المسلم الواحد يغلب كافرين اثنين في المعركة،وبفضل هذا اليقين تجد المسلم لا يبالي بضعف عدده من الكفار،ويعتمد على مدد الله تعالى له،ولهذا تولد الرعب في قلوب الكفار من المسلمين،وهو الوعد الذي وعد الله به قبل ثلاثة عشر قرن ونصف :

" سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب " (آل عمران : ١٥١) .

" سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب " (الأنفال : ١٢) .

وقد وفى الله وعده هذا،فجعل اليهود الذين كانوا يفخرون بقلاعهم وعتادهم الحربي يستسلمون أمام المسلمين خوفا منهم :

" وقذف في قلوبهم الرعب " (الأحزاب : ٢٦) .

" وقذف في قلوبهم الرعب " (الحشر : ٢) .

وسيظل الله تعالى يفي بوعده هذا طالما بقيت قلوب المسلمين هذه القوة الإيمانية .

للموت وقت محدد:

والسبب الأساسي في ضعف الإنسان هو خوف الموت،وترياق هذا السم نجـــده في العقيدة الإسلامية التي تقول بأن لكل أجـــل كتـــاب وموعـــد لا يمكـــن تقديمـــه أو تأخيره،ولهذا ليس هناك سبب للهرب من مكامن الخطر .

وقد لقن الوحي المحمدي هذه العقيدة للمسلمين مراراً حتى سرت فـــي عـــروق المسلمين فقد اهتزت أقدام المسلمين في غزوة أُحد،فنبههم الله تعـــالى وذكرهـــم بـــهذه العقيدة:

" وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً " (آل عمران : ١٤٥) .

أي أن الإنسان يموت حين يأتي أمر الله،فلماذا الخوف من الموت،ولماذا نجبـــن بسببه،وحين اضطرب المسلمون في غزوة الأحزاب قال الله لهم :

" قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل " (الأحزاب : ١٦) .

والتصور بأن الإنسان إذا لم يشارك في المعركة فلن يموت تصور خـــاطئ،إذ سوف يموت الإنسان في المكان المحدد له،وسيأتي بنفسه إلى هذا المكان المحدد :

"قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم"(آل عمران:١٥٤).

وبنفس الطريقة فإن التصور بأن فلاناً قتل لأنه اشترك في المعركـــة تصـــور خاطئ أيضاً إذ أن الموت بيد الله تعالى فمن شاء أماته،ومن شاء ظل حيـــاً،وقـــد قيـــل للمسلمين لا تكونوا مثل الكفار في عقيدتهم الخاطئة هذه من أن :

" لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حســـرة فـــي قلوبـــهم والله يحيـــي ويميت"(آل عمران : ١٥٦) .

ويقول بعض الضعفاء أنه لو لم يذهب هذا المقتول إلى المعركة لما قتل،فقال الله تعالى لو أن كلامهم هذا صدق،ويستطيعون تأجيل وقت الموت فليفعلوا :

" قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين " (آل عمران : ١٦٨) .

وضرب الله تعالى المثال ببعض المسلمين ضعاف القلوب فهدأ من روعهم :

"فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشـــية،وقـــالوا ربنا لم كتبت علينا القتال،لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل،والآخرة خـــير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً أينما تكونوا يدرككـــم المـــوت ولـــو كنتـــم فـــي بـــروج مشيدة"(النساء:٧٧). المهم أنكم لن تستطيعون النجاة من الموت أينما ذهبتـــم،فلمـــاذا إذاً

تخافون من ميدان الحرب،ينبغي أن تكونوا مثل أولئك المجاهدين الذين يتجدد إيمانهم كلما سمعوا عن الجهاد:

" والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " (آل عمران : ١٧٣) .

مقام الشهادة والمشاركة في الجهاد:

والشيء الآخر الذي يمنع من المشاركة في ميدان الجهاد هوالتفكير في رفاهية الحياة وراحتها،وقد قضى الإسلام على هذا التفكير،وأكد أن المجاهدين باعوا أموالهم وأنفسهم لله تعالى مقابل رضائه وجنته،وهناك أعد الله لهم من النعيم ما يجعل نعيم الدنيا لا يساوي شيئاً أمامه :

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة،يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون " (التوبة : ١١١) .

وقبل ذلك جاء في سورة(النساء)إعلان عن أهل الإيمان الذين باعوا دنياهم بآخرتهم :

" فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة،ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً " (النساء : ٧٤) .

وسوف يغفر الله كل ذنوبهم :

" فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات " (آل عمران : ١٩٥) .

وأثمن ما بذله الشهداء في هذا الطريق هو أرواحهم،وهي تعاد إليهم من جديد في الوقت نفسه،وقد قضت هذه العقيدة على ذلك التصور الباطل الذي كان يقول بأن الشهداء يموتون،فقضت بأنهم أحياء عند الله وليسوا أمواتاً :

" ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون،فرحين بما أتاهم الله من فضله " (آل عمران : ١٦٩) .

ولا يستطيع الناس في هذه الدنيا التعرف على حياة هؤلاء،ومع ذلك لا يجب أن يقال عنهم أنهم أموات،ولو باللسان :

"ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات،بل أحياء ولكن لا تشعرون"(البقرة:١٥٤).

لم يمت ذلك الذي بعث قلبه بالعشق ونحن باقون على صفحة الدنيا

لكن صفات الجهاد هذه وجزاءه يكون لأولئك الذين يجاهدون في سبيل الله ومن اجل رضائه،وقد أعلت هذه التعاليم من شأن المجاهدين فطهرتهم من الأنانية والغضب الشخصي وحب التظاهر بالشجاعة،فإن قتل أحد أحداً لأجل المال كان ذلك جهل يشبه جهل الكفار،قال تعالى :

" تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة،كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا " (النساء : ٩٤) .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شخصاً يحارب من أجل مال الغنيمة،والآخر من أجل الشهرة،وشخص يقاتل حمية،وآخر تظاهراً،وثالث يقاتل انتقاما وغضباً،فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إجابة للجميع قائلاً:"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " ([1]) .

وفي حديث "آخر أن رجلاً سيسأل عن أعماله يوم القيامة فيقول يا إلهي لقد جاهدت في سبيلك،واستشهدت،فيقول الله إنك تكذب،لقد قاتلت ليقال شجاع وقد قيل"([2]).

المهم أن الإسلام قد ذم تلك الشجاعة التي يقصد بها الرياء والتفاخر،ولكن إذا كان هناك نوع ما من الفخر عرضاً مع قصد إعلاء كلمة الله في الجهاد فإن الإسلام لم يذمه([3])،لأن هدف هذا الفخر هو إعلاء كلمة الحق .

وهذا هو السبب في أن الإسلام أحب الفخر والخيلاء بالشجاعة في ميدان الجهاد،وقد جاء في الحديث"إن الله يحب بعض الفخر والخيلاء ويبغض بعضه،فأما ما

---

[1] صحيح مسلم وصحيح البخاري–كتاب الجهاد–باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.حدثنا سليمان بن حرب:حدثنا شعبة،عن عمرو،عن أبي وائل عن موسى رضي الله عنه قال:جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:الرجل يقاتل للمغنم،والرجل يقاتل للذكر،والرجل يقاتل ليرى مكانه،فمن في سبيل الله؟قال:(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا،فهو في سبيل الله).

[2] صحيح مسلم–كتاب الجهاد–باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار–وجامع الترمذي.حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي،حدثنا خالد بن الحارث،حدثنا ابن جريج،حدثني يونس بن يوسف،عن سليمان بن يسار،قال: تفرق الناس عن أبي هريرة،فقال له ناتل أحد أهل الشام:أيها الشيخ،حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال:نعم.سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه،رجل استشهد،فأتي به فعرفه نعمه فعرفها،قال:فما عملت فيها؟قال:قاتلت فيك حتى استشهدت،قال:كذبت،ولكنك قاتلت لأن يقال جريء،فقد قيل،ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار

[3] فتح الباري – المجلد السادس – ص ٢٣ – شرح الحديث المذكور .

يحبه الله فهو ما يكون عند المعركة"([1])،إذ أن ذلك يلقي بالرعب في قلوب الأعداء،ويولد الاستعداد والحماس في قلوب الأصدقاء،وذات مرة هجم أحد الصحابة على كافر،وقال متفاخرا:"ها أنا ابن الأكوع"،وقد شرح الحافظ بن حجر هذه الفقرة قائلا:

" هذه الفقرة تختلف عن ذلك الفخر الذي منع الله منه،لأن هذه الحالة كانت تقتضي هذا،وهو أقرب إلى ذلك الفخر والخيلاء الذي يجوز في المعارك ولا يجوز في غيرها"([2]).

وعندما أحاط المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبات وعزم:"أنا النبي لا كذب،أنا ابن عبد المطلب". يعني أنني نبي صادق،ولن أفر من الميدان،ولن أتراجع،ورغم أن كثيرا من المسلمين تراجعوا أمام وطأة سهام الأعداء إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحرك من مكانه([3]).

يقول الصحابة أن أشجع واحد منا كان ذلك الذي يقف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم([4])،وقالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في غاية الشجاعة،وذات مرة خاف أهل المدينة من أن يهجم الأعداء عليهم من ناحية ما.من نواحي المدينة،فكان أول من تقدم إلى تلك الناحية هو رسول الله صلى الله عليه وسلم،إذ امتطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه،وطاف بالمدينة كلها ثم عاد قائلا:"ليس هناك ما

---

[1] أبو داود–كتاب الجهاد–باب الخيلاء في الحرب.حدثنا مسلم بن إبراهيم وموسى بن إسماعيل،المعنى واحد قالا:ثنا أبان قال:ثنا يحيى،عن محمد بن إبراهيم،عن ابن جابر بن عتيك،عن جابر بن عتيك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:من الغيرة ما يحب الله،ومنها ما يبغض الله:فأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريبة،وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة،وإن من الخيلاء ما يبغض الله،ومنها ما يحب الله:فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال.

[2] فتح الباري – الجزء السادس – ص ١٤ .

[3] صحيح البخاري–غزوة حنين–كتاب الجهاد–باب النبي صلى الله عليه وسلم.حدثنا قتيبة:حدثنا سهل بن يوسف،عن أبي إسحق:قال رجل للبراء بن عازب رضي الله عنهما:أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟قال:لكن رسول الله لم يفر،إن هوازن كانوا قوما رماة،وإنا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا،فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام،فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر،فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء،وإن أبا سفيان آخذ بلجامها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:(أنا النبي لا كذب،أنا ابن عبد المطلب).

[4] صحيح مسلم – باب غزوة حنين .

يخيف"(١).وذات مرة عندما أحاط الأعراب برسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل العطايا،فقال صلى الله عليه وسلم" لن تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً " (٢) .

والجبن في نظر الإسلام عيب أخلاقي لا بد من التخلص منه،وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل والجبن والشيخوخة التي تعد نوعاً من العجز،وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من هذه الأشياء بعد كل صلاة(٣)،وفي رواية أخرى أن أكبر عيب أخلاقي في الإنسان هو البخل الشديد والجبن الذي يرعب القلب (٤) .

وقد أرسل سيدنا عبد الله بن أبي أوفي رسالة جاء فيها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:"إذا قابلتم العدو فاثبتوا"(٥)،وورد في هذه الرسالة تلك الفقرة البليغة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألف وثلاثمائة وخمسين عاما،ولا تزال تتردد على لسان أطفال المسلمين :

---

[1] صحيح البخاري–كتاب الجهاد وكتاب الحمائل وتعليق السيف بالعنق.حدثنا سليمان بن حرب:حدثنا حماد بن زيد،عن ثابت،عن أنس رضي الله عنه قال:كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس،وأشجع الناس،ولقد فزع أهل المدينة ليلة،فخرجوا نحو الصوت،فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر،وهو على فرس لأبي طلحة عري،وفي عنقه السيف،وهو يقول:(لم تراعوا،لم تراعوا).ثم قال:(وجدناه بحرا).أوقال:(إنه لبحر).

[2] البخاري– كتاب الجهاد– باب الشجاعة في الحرب والجبن.حدثنا أبو اليمان:أخبرنا شعيب،عن الزهري،قال:أخبرني عمر بن محمد بن جبير بن مطعم:أن محمد بن جبير قال:أخبرني جبير بن مطعم:أنه بينما يسير هو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس،مقفلة من حنين،فعلقه الناس يسألونه،حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه،فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال:(أعطوني ردائي،لو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم،ثم لا تجدوني بخيلا،ولا كذوبا،ولا جبانا).

[3] البخاري– كتاب الجهاد– باب ما يتعوذ من الجبن.حدثنا موسى بن إسماعيل:حدثنا أبو عوانة:حدثنا عبد الملك بن عمير:سمعت عمرو بن ميمون الأودي قال:كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات،كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة،ويقول:إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ منهن دبر الصلاة:(اللهم إني أعوذ بك من الجبن،وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر،وأعوذ بك من فتنة الدنيا،وأعوذ بك من عذاب القبر).فحدثت به مصعب فصدقه.

[4] أبو داود– كتاب الجهاد– باب في الجرأة والجبن.حدثنا عبد الله بن الجراح،عن عبد الله بن يزيد،عن موسى بن علي بن رباح،عن أبيه،عن عبد العزيز بن مروان قال:سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع.

[5] صحيح البخاري– كتاب الجهاد– باب الصبرعند القتال.حدثنا عبد الله بن محمد:حدثنا معاوية بن عمرو:حدثنا أبو إسحق،عن موسى بن عقبة،عن سالم أبي النضر:أن عبد الله بن أبي أوفى كتب،فقرأته:إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(إذا لقيتموهم فاصبروا).

" واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " .

الاستقامة

ومعنى الاستقامة باعتبار اللفظ أن تكون مستقيما منتصبا،وأن تسير منتصبا،وباعتبار المقصود هنا فالاستقامة هي أن تثبت على ما تعتقده حقا،حتى ولو واجهت في سبيل ذلك مشكلات وعداوات،أو ظلمت في سبيله،فإنك تتحمل كل خطر تواجهه،ولكن لا تحيد عن الحق،وتثبت قدمك على طريق الحق،وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعلن هذا :

" إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروا " (فصلت : ٦) .

أي أن عباداتنا كلها له سبحانه وتعالى،وهو محور اهتماماتنا،ولا نزيغ عنه بأي حال من الأحوال،وإنما نتوجه إليه مباشرة،وقد جاء في آية أخرى الأمر من الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بأن يستقيموا على هذا الطريق ولا يحيدون عنه وألا يخالفوا الأمر بذلك :

" فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا،إنه بما تعملون بصير " (هود : ١١٢) .

وكانت الصحراء العربية الملتهبة رمالها قد تحولت إلى تنور يفور غيظا وغضبا في مخالفة دين الحق،وكل ذرة فيها كانت تنطق بعداوتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم،وأخذت هذه الأرض المترامية الأطراف تضيق لحظة بعد لحظة على المسلمين،في مثل هذه الظروف يأتي حكم الله تعالى لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وصحابته أن استقيموا على الحق،وأن ادعوا الناس جميعا إلى هذا الدين الحق واثبتوا عليه،ولا تتبعوا أي هوى يخالف ذلك :

" فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم " (الشورى : ١٥) .

هؤلاء المستقيمون اعترفوا بالله ربا،وأخرجوا من قلوبهم كل المخاوف والمخاطر،والبشرى تأتيهم قائلة أن النجاح لكم،وسيأتي يوم لا تخافون شيئا،ولا يحزنكم شيء:

"إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(الأحقاف:١٣).

ومصير هؤلاء الذين استقاموا في الدنيا الاطمئنان والسكينة في الآخرة يوم ترتعد القلوب خوفا،وسوف تبشر الملائكة هؤلاء المستقيمين بأجر استقامتهم:"إن الذين

قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا،وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون"(فصلت:٣٠).

وهناك حديث يمكن أن نعتبره شرحاً لهذه الآيات حيث سأل صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:يا رسول الله،دلني على أمر استقم عليه،فقال صلى الله عليه وسلم:قل لا إله إلا الله ثم استقم"([1]).

وقد كان التزام الصحابة بالعمل باستقامة طبقاً لهذه النصائح،وما قدموه من أعمال عظيمة بشجاعتهم وأخلاقهم الإيمانية بدرجة لا يزال معها تاريخ حتى يومنا هذا يثني عليهم ويمتدحهم،بالرغم من مرور ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً،وقد قدم الله تعالى صورة لاستقامتهم في ثنايا حديثه عن غزوة الأحزاب فقال:"إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم،وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا،هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً"(الأحزاب:١١).

وفي نفس السورة فصل الله تعالى ضعف المؤمنين في هذا الخصوص فقال:"ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله،وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليماً"(الأحزاب:٢٢).

ثم أثنى الله تعالى على أولئك المسلمين الذين عاهدوا الله بالاستقامة والثبات الكامل في كل المخاطر،ونفذوا ما عاهدوا الله عليه فقال:"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه،فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر،وما بدلوا تبديلاً"(الأحزاب:٢٣).

بمعنى أن بعضهم قد بذل روحه في سبيل الله وأدى ما عليه،ولا يزال البعض الآخر حياً ينتظر ذلك اليوم الذي تمتحن فيه استقامته،وبالرغم من كل هذه المخاطر فإنهم لم يبدلوا دينهم وإيمانهم مثلما فعل المنافقون،ولم يحطموا العهد الذي عاهدوا الله عليه.

---

[1] -الترمذي – باب ما جاء في حفظ اللسان.

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،وأبو كريب،قالا:حدثنا ابن نمير.حدثنا قتيبة بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم،جميعا عن جرير.وحدثنا أبو كريب،حدثنا أبو أسامة،كلهم عن هشام بن عروة،عن أبيه،عن سفيان بن عبد الله الثقفي،قال:قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا،لا أسأل عنه أحدا بعدك– وفي حديث أبي أسامة:غيرك–قال:قل آمنت بالله ثم استقم.

إن مواجهة المشاكل في سبيل الحق،وابتلاء رجال الله واستقامتهم فيها مبدأ إلهي قائم وسيظل قائماً،ولن يحقق فرد أو أمة نجاحاً طالما لم يكن على المستوى المطلوب فيه،قال تعالى:"أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله،ألا إن نصر الله قريب"(البقرة:٢١٤).

وقد بين القرآن الكريم موضعين من المواضع التي ابتلي فيها المؤمنون بخصوص الاستقامة الأول ما يتعلق بجيش طالوت القليل والذي واجه جيشاً ضخماً للأعداء على الرغم من قلة عدده والعطش الذي حل بهم،لكنهم نجحوا في نهاية الأمر،وكان لسان حالهم في ذلك الوقت يدعو الله قائلاً:"ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين"(البقرة:٢٥٠).

أما الموضع الآخر فهو ما يتعلق بأصحاب الأخدود،فقد جاء في الأحاديث وكتب السير([1])أنه كان في اليمن بعض من المؤمنين المخلصين لسيدنا عيسى عليه السلام،وقد أذاهم اليهود بشتى الطرق،وفي النهاية حفروا لهم حفرة عظيمة أشعلوا فيها النار وألقوا بالمؤمنين فيها،ومع ذلك فإنهم لم يحيدوا عن إيمانهم ولم يتحولوا عنه :

" قتل أصحاب الأخدود،النار ذات الوقود،إذ هم عليها قعود،وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود،وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " (البروج : ٨) .

ومن بين صور استقامة السابقين والتي قدمها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كنموذج لأمته ما ذكره البخاري في صحيحه،يقول خباب بن الأرت الصحابي إننا ذات مرة كنا نعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعرض لنا من مصائب،وطلبنا منه أن يدعو لنا الله،إذ أن هذا يعد نوعاً من التعبير عن القلق والاضطراب،ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:لقد كان فيمن قبلكم رجل دفن حياً،ورجل شق بالمنشار،لكنه لم يحد عن الدين الحق،ومنهم من كان لحمه وعظامه يمشطان بمشط من حديد ويقطع لحمه،لكنه لم يحد عن الحق " ([2]) .

---

[1] صحيح مسلم و سيرة ابن هشام – قصة أصحاب الأخدود .

[2] صحيح البخاري – باب علامات النبوة في الإسلام .

حدثنا محمد بن المثنى:حدثنا يحيى،عن إسماعيل:حدثنا قيس،عن خباب بن الأرت قال :شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة،فقلنا له:ألا تستنصر لنا،ألا تدعو

ولا يخفى على أهل التاريخ أثر هذه التعاليم النبوية على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم،وها هو خباب بن الأرت راوي هذه الواقعة،والذي أوذي إيذاءً شديداً بسبب إسلامه،فلقد أضجعوه على فحم مشتعل ذات يوم،ووطأ رجل صدره بقدمه حتى لا يتحرك من فوق الفحم المشتعل حتى انطفأ الفحم المشتعل في جسده،وبعد زمن طويل كشف خباب بن الأرت عن جسده أمام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكانت هذه الحروق التي أحدثها الظالمون على جسده تلمع مضيئة على ظهره ([1]) .

وكان سيدنا بلال رضي الله عنه يلقى فوق الرمال الملتهبة وتوضع الصخرة الثقيلة فوق صدره،ويربط بحبل من عنقه،ويسحب على الأرض،حتى يعود عن الإسلام،ومع ذلك فلم يكن يتفوه بغير(أحد،أحد)،وكان سيدنا خبيب يعلق على المشنقة،لكنه مع ذلك كان يحب هذه التضحية بالروح ويشكر الله عليها شكراً مضاعفاً،بل إن تلك الفقرة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رده على عمه أبي طالب سيبقى أثرها ما بقيت الشمس والقمر مضيئان في السماء،فلقد قال:"والله يا عم،لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين أو أهلك دونه ما تركته " .

وقد خاطب الله تعالى المسلمين قائلاً أنه على فرض أن رسول الله مات في سبيل دعوته أو قتل،أكنتم تواصلون سيركم على طريقه أم تعودون عنه؟،فإن الحق ليس مرتبطاً بوفاة أحد أو حياته،وأنتم معه لأنه على الحق :

" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم،ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً " (آل عمران : ١٤٤) .

وكان الله يقص عليهم حال الأمم السابقة ويطمئنهم،ويحثهم على الصبر والثبات والاستقامة :

الله لنا؟ قال كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه،فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين،وما يصده ذلك عن دينه،ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب،وما يصده ذلك عن دينه،والله ليتمن هذا الأمر،حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أوالذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

[1] ابن سعد – الجزء الثالث – ترجمة خباب بن الأرت .

" وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله،وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين،وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين " (آل عمران : ١٤٧) .

ويجب أن يكون المسلم المخلص من حيث الاستقامة وثبات القدم هكذا،وهناك أمر آخر وهو استقامة العمل التي تتوازى مع الاستقامة سابقة الذكر،وهو ما نطلق عليه المداومة بمعنى المداومة والمواظبة على عمل الخير الذي يتم اختياره،فيستمر عليه في أي حال وفي كل حال،لا أن يقوم به في بعض الأحيان ويتركه في البعض الآخر،إذ أن ذلك يدل على ضعف في الفطرة وعدم الميل إلى هذا العمل،والصلاة هي أفضل الأعمال الحسنة،لكن الله تعالى مدح أولئك الذين يداومون عليها،قال تعالى:"إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون"(المعارج:٢٣).

إن التجانس الأخلاقي والثبات على الخلق الطيب جوهر أخلاقي عظيم،وهو أمر لا يتأتى إلا بدوام القيام عليه،ولهذا أكد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً،وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أي الأعمال الطيبة كان محبباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقالت:ذلك العمل الطيب الذي يدوم عليه"([1])،وقد قال صلى الله عليه وسلم أفضل العمل عند الله ما قل واتصل"([2]).

قول الحق

وهذه الصفة الأخلاقية تتعلق في الحقيقة بالشجاعة،ومثلما أن الجيوش المسلحة للفريقين المتحاربين في ميدان المعركة يظهر أن كل ما يملكان من الشجاعة والرجولة في مواجهة بعضهما البعض،فإن هذا يكون حال الحق والباطل حين يتواجهان في المعركة،والصوت الذي يخرج من القلب واللسان بغرض حماية الحق يسمى قول الحق.وأفضل الأوقات لقول الحق عندما يكون الحق ضعيفاً باعتبار القوة المادية،بينما

---

[1] صحيح البخاري – باب القصد و مداومة العمل .

حدثنا قتيبة،عن مالك،عن هشام بن عروة،عن أبيه،عن عائشة أنها قالت:كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدوم عليه صاحبه.

[2] المرجع السابق .

حدثني محمد بن عرعرة:حدثنا شعبة،عن سعد بن إبراهيم،عن أبي سلمة:عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:سئل النبي صلى الله عليه وسلم:أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال:(أدومها وإن قل).وقال: (اكلفوا من الأعمال ما تطيقون).

يكون الباطل قوياً,وقد حض الإسلام على قول الحق في مثـــل هـــذا الوقـــت وأثنـــى عليه,وأكثر من هذا أن الله تعالى أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم قائلاً :

" فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين.إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر " (الحجر : ٩٤) .

بمعنى أن وقت الدعوة إلى التوحيد في السر قد انتهى,وحـــان وقـــت الدعـــوة جهراً,ولهذا عليك أن تجهر بحكم الله,ولا تبالي بسخرية المشركين واستهزائهم أبداً,بـــل ولا تبالي بقوتهم وطاقتهم,فالله كافيك في مواجهتهم جميعاً .

ويعلم من هذه الآية أن الخوف هو الشيء الـــذي يمنـــع الإنســـان مـــن قـــول الحق,وللخوف أقسام عدة منها خوف اللوم والعتاب,وهو ما قررت هذه الآية بأنه لا أثـــر له,وفي آية أخري عد وصفاً أخلاقياً من أوصاف المسلمين :

" ولا يخافون لومة لائم " (المائدة : ٥٤) .

بمعنى أن أهل الإيمان لا يبالون باللوم والعتاب في سبيل إظهار الحق .

وبالإضافة إلى اللوم والعتاب فهناك الخوف من أشياء أخـــرى تتعلـــق بـــالنفس والروح وغيرهما مما يمنع الإنسان من قول الحق,لكن الإسلام أبطل كل أثر لكل خوف في سبيل قول الحق,فقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقـــف ذات مرة ليخطب في الناس وقال:إذا عرف الإنسان الحق فلا ينبغي أن يمنعه خـــوف مـــن قوله,وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقرن أحد منكـــم نفســـه,فقـــال الصحابة يا رسول الله وهل فينا من يحقر نفسه؟,فقال صلى الله عليه وســـلم:أن تكـــون هناك ضرورة لقول كلمة حق ولا يقولها,وسيقول الله لمثل هذا الشخص يوم القيامة:مـــا الذي منعك من قول الحق عني؟,فيقول:خوف الناس,فيقول الله تعـــالى:كـــان عليـــك أن تخافني أنا .

وأكثر من يخيف الناس السلطان الظالم,ولهذا فإن قول الحق أمامه يعتبر جـــهاداً عظيماً,قال صلى الله عليه وسلم:"أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جابر".وفي راويـــة أخرى جاءت كلمة(حق)بدلاً من كلمة(عدل).

ويحتل قول الحق المرتبة الثانية بين المراتب التي تقررت في الإســـلام للأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر,ولهذا أخرج(مروان)ذات عيد المنبر وخطب في الناس قبل الصلا فقال واحد من الناس:يا مروان,لقد خالفت السنة,لقد أخرجت المنبر,والمنـــبر لا

يخرج في مثل هذا اليوم،وخطبت قبل الصلاة مع أن الخطبة لا تكون قبل صلاة العيد،قال أبو سعيد الخدري:لقد أدى الفرض الذي عليه،فلقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه،فإن لم يستطع فبقلبه،وذلك اضعف الإيمان " ([1]) .

وقد كانت مكانة سيدنا أبي ذر بين الصحابة جميعاً عظيمة في ميدان قول الحق،فهو الذي ذهب بعد إسلامه إلى حيث يجتمع كفار قريش وأعلن التوحيد أمامهم،ولم يصمت إلا بعد أن أنهكوه ضرباً،ومع ذلك لم يتخل عن ميدنه،وفي اليوم التالي ذهب إليهم ثانية وأعلن الحق أمامهم،فضربوه ثانية،وقد قال صلى الله عليه وسلم في مدحه:لا يوجد تحت السماء ولا فوق الأرض من يقول الحق أكثر من أبي ذر([2])،وعندما كان أبو ذر في الشام أيام خلافة عثمان رضي الله عنه هاجم تلك النزعة الرأسمالية التي لاحظ نموها بين الناس هناك،ولم يبال أبداً بأن ذلك قد يغضب الأمير معاوية.

يقول سيدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات مرة خطبة طويلة قال فيها احذروا أن يمنعكم خوف أحد من قول الحق الذي تعرفونه،فلما سمع سيدنا أبو سعيد هذا بكى وقال لقد رأينا أموراً ومنعنا الخوف([3]).

---

[1] سنن ابن ماجه ، باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و فيه ذكرت الأحاديث كلها .

حدثنا أبو كريب،حدثنا أبو معاوية،عن الأعمش،عن إسماعيل بن رجاء،عن أبيه،عن أبي سعيد الخدري،وعن قيس بن مسلم،عن طارق بن شهاب،عن أبي سعيد الخدري قال: أخرج مروان المنبر في يوم عيد فبدأ بالخطبة قبل الصلاة،فقال رجل:يا مروان خالفت السنة،أخرجت المنبر في هذا اليوم،و لم يكن يخرج،وبدأت بالخطبة قبل الصلاة،ولم يكن يبدأ بها،فقال أبو سعيد:أما هذا فقد قضى ما عليه،سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده،فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه،وذلك أضعف الإيمان.

[2] جامع الترمذي – مناقب سيدنا أبي ذر .

حدثنا محمود بن غيلان،حدثنا ابن نمير عن الأعمش عن عثمان بن.عمير هو أبو اليقظان عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر.

[3] الترغيب و الترهيب للمنذري – باب الترهيب من الغضب – نقلاً عن الترمذي .

الاستغناء

الاستغناء يعني عدم الاحتياج,وعدم الاحتياج إلى أي شيء هو من صفات الله تعالى فقط :

" ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " (آل عمران : ٩٧) .

أما عدم الاحتياج بالنسبة للإنسان فهو أن لا يحتاج إلا إلى الذات العلية,وهذا هو الذي يميز الاستغناء الإسلامي عن غيره,وتقوم تعاليم الاستغناء هذه في الدستور الأخلاقي الإسلامي على مبدأين أولهما أن الله تعالى هو المعطي الحقيقي,ولهذا لا يجب أن نمد أيدينا إلى أحد غيره,ومن آيات القرآن الكريم التي نرددها في صلواتنا كثيراً قوله تعالى :

" والله الغني و أنتم الفقراء " (محمد : ١٠) .

وقد قال الله عن نفسه في مواضع متعددة أنه المتصرف الحقيقي وأنه الوكيل الحقيقي فمنح بذلك السكينة لقلوب عباده المضطربة,قال تعالى :

" ونعم الوكيل " (آل عمران : ١٧٣) .

" وكفي بربك وكيلاً " (الإسراء : ٦٥) .

" أليس الله بكاف عبده " (الزمر : ٣٦) .

" وكفي بالله و كيلاً " (النساء : ٨١) .

وفي آية منها يسأل الله تعالى عباده قائلاً :

" أليس الله بكاف عبده " (الزمر : ٣٦) .

ولهذا فلا حاجة لأن تقف على أبواب الملوك والأمراء والأثرياء.أما المبدأ الثاني والذي يقوم عليه الاستغناء الإسلامي فهو القناعة,بمعني أن تطمئن بأقل ما أعطاه الله لك,وأن لا تطمع في زيادته :

" ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض " (النساء : ٣٢) .

" ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم " (طه : ١٣١) .

وهناك بعض الناس يتسمون بغاية الطمع بالرغم من كونهم أغنياء,فهم لا يشبعون من المال والثروة,ويعملون على الحصول عليها بطرق شرعية وغير شرعية,ولهذا فإنهم محتاجون برغم ما يملكون,ولكن من الناس من لا يكون ثرياً,لكنه قانع بما أعطاه الله له,ولا يحرص على الزيادة,ولهذا فإنه مستغن ولا حاجة له برغم قلة

ما يملك،وبناء عليه فإن الاستغناء لا يكون بكثرة المال أو بقلته،وإنما يرتبط بالقلب والروح،وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في قوله :

" ليس الغنى عن كثرة العرض،ولكن الغنى غنى النفس " .

وقد ترجم الشيخ سعدي هذا الحديث بقوله:الغنى بالقلب لا بالمال .

وفي حديث آخر زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر وضوحاً فقد قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي:يا أبا ذر أتظن أن الاستغناء يكون بكثرة المال؟،قلت:نعم يا رسول الله،فقال:أتظن أن الاحتياج يكون بقلة المال؟،قلت:نعم يا رسول الله،فقال:الاستغناء استغناء القلب،والاحتياج احتياج القلب([1]).

وبناءاً على هذا فإن الاستغناء في الحقيقة يأتي من الرضا والتسليم وليس من المال والثروة،بمعنى أنه لو رضي الإنسان بما أعطاه الله له لكان استغناءاً،أو على الأقل يتولد بذلك جوهر الاستغناء في النفس،ولهذا أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه إلى هذا فقال له:لو رضيت بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس([2]).وذات مرة طلب بعض الأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم مالاً،وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالهم،لكنهم لم يقنعوا به وسألوه ثانية،فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالهم ثانية،وظل يعطيهم حتى انتهى ما لديه فقال:لن أمنعكم ما يأتيني من مال،ومن أراد عزة النفس منحه الله إياها،ومن أراد الاستغناء أغناه الله ([3]) .

---

[1] فتح الباري – الجزء الحادي عشر – صـ ٢٣٢ ، نقلاً عن صحيح ابن حبان و موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي – نسخة مخطوطة بدار المصنفين – باب الغنى غنى النفس.وأصله في مسلم،ولابن حبان من حديث أبي ذر" قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى ؟ قلت:نعم.قال:وترى قلة المال هو الفقر ؟ قلت:نعم يا رسول الله قال:إنما الغنى غنى القلب،والفقر فقر القلب

[2] فتح الباري – الجزء الحادي عشر – صـ ٢٣٤ .

[3] أبو داود – كتاب الزكاة – باب الاستعفاف . .

حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن ابن شهاب،عن عطاء بن يزيد الليثي،عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم،ثم سألوه فأعطاهم،حتى نفد ما عنده،فقال:(ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم،ومن يستعفف يعفه الله،ومن يستغن يغنه الله،ومن يتصبر يصبره الله،وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر).

وهكذا سأل سيدنا حكيم بن حزام رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيه في كل مرة،وفي النهاية قال صلى الله عليه وسلم:يا حكيم،هذا المال يحبه الجميع،فمن أخذه بقلب راغب بارك الله له فيه،ومن أخذه حرصاً عليه لا تكون فيه بركة،ويكون مثل ذلك الشخص الذي يأكل ولا يشبع،وقد أثر هذا الكلام فيه رضي الله عنه حتى أنه لم يقبل عطاءً من أحد أبداً بعد ذلك (1).

وقد روي عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:بشرى لمن هدي إلى الإسلام،وكان لديه قوت يومه وأرضاه الله به(2).ويقول سيدنا سهل بن سعد أن جبريل الأمين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن شرف المؤمن صلاة الليل،وعزة المؤمن في الاستغناء عن الناس (3).

الرذائل

معنى الرذائل:

الرذائل تعني العادات والخصال السيئة،وهي الأخلاق الذميمة التي يبغضها الله تعالى،وأمر عباده أن يجتنبوها،ويصير آثماً من يرتكبها،ويعرف سوءها كل عاقل ويسلم به،وهي التي تؤذي الإنسانية أفراداً وجماعات روحانياً ومادياً،وتحطم المجتمعات،بل إنها

---

(1) الترمذي – كتاب الزهد .

حدثنا سويد.أخبرنا عبد الله عن يونس عن الزهري عن عروة وابن المسيب أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني،ثم سألته فأعطاني،ثم سألته فأعطاني،ثم قال:يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة،فمن أخذه بسخاوة نفس بورك فيه،ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه،وكان كالذي يأكل ولا يشبع،واليد العليا خير من اليد السفلى،فقال حكيم:فقلت:يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحد بعدك شيئاً حتى فارق الدنيا.

(2) زوائد صحيح ابن حبان – نسخة مخطوطة بدار المصنفين – باب في القناعة .

(3) مستدرك الحاكم – الجزء الرابع – صـ ٣٥٢ – كتاب الرقاق .

حدثنا محمد بن سعيد المذكر الرازي،ثنا أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم،ثنا عيسى بن صبيح،ثنا زافر بن سليمان،عن محمد بن عيينة،عن أبي حازم قال مرة،عن ابن عمر،وقال مرة عن سهل بن سعد قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:يا محمد عش ما شئت فإنك ميت،وأحبب من أحببت فإنك مفارقه،واعمل ما شئت فإنك مجزي به،ثم قال:يا محمد شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس.

إذا شاعت في أمة فإنها تصبح سبباً في تدمير هذه الأمة،فهي تقف عقبة في طريق تقدمها الدنيوي،وتغلق أمامها أبواب السعادة وحسن الطالع .

الإسم القرآني للرذائل:

وقد جاءت الرذائل بأسماء وصفية متعددة في القرآن الكريم،مثلاً سميت كثيراً(المنكر)و(الفحشاء)،وأحياناً سميت بالفاحشة والسيئة،وكذا السوء،والمكروه والخطأ،والإثم والعدوان وغيرها من الأسماء الوصفية،ويتضح من هذه الألفاظ مدى سوء الشخص الذي يتصف بها وأنه يستحق أن ينفر منه الناس،وأن الرذائل أمور لا يقبلها العقل أو الشرع،قال تعالى :

" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق،نحن نرزقهم وإياكم،إن قتلهم كان خطئا كبيراً،ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً " (الإسراء : ٣١, ٣٢) .

" ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً،كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً " (الإسراء : ٣٧ ، ٣٨) .

وأكثر الألفاظ المستخدمة في القرآن الكريم للدلالة على الرذائل هو لفظ(منكر)،ولهذا أطلق الله تعالى لفظ(منكر)على تلك المساوئ التي ورد ذكرها في سورة المائدة،والتي عوقب بنوا إسرائيل بسبب عدم التخلص منها :

" كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه،لبئس ما كانوا يفعلون " (المائدة : ٧٩) .

وقد عد الله تعالى مساوئ ذلك الشعب العربيد ، فقال :

" وتأتون في ناديكم المنكر " (العنكبوت : ٣) .

بينما ذكر أن صفة الصالحين هي :

" والناهون عن المنكر " (التوبة : ١١٢) .

" وينهون عن المنكر " (آل عمران : ١٠٤ ، التوبة : ٧١) .

وفي مكان آخر جاء لفظ الفحشاء ملازماً للفظ المنكر :

" فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " (العنكبوت : ٩٠) .

ومن فضائل الصلاة أنها :

" تنهى عن الفحشاء والمنكر " (العنكبوت : ٩٠) .

الفحشاء و المنكر والبغي:

وفي آية أخرى اجتمع الألفاظ الثلاثة الفحشاء والمنكر والبغي :

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى،وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون " (النحل : ٩٠) .

وهذه الآية أحاطت بكل أقسام الفضائل والرذائل،يقول سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه:لقد أسلمت في بداية أمري حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن الإسلام قد تمكن من قلبي،ولكن عندما نزلت هذه الآية تمكن منه ([1]) .

ويقول سيدنا ابن مسعود أن أكثر آية في القرآن جمعت الخير والشر هي هذه الآية([2])،ويقول قتادة رضي الله عنه إن الأخلاق الحسنة التي كانت سائدة أيام الجاهلية،وكان يحبها الجميع ليس من بينها خلق لم يأمر به الله في هذه الآية،وليس هناك خلق سيء لم ينه الله عنه في هذه الآية([3])،وقد جاء بخصوص الأمور المنهي عنها في هذه الآية ثلاثة ألفاظ هي الفحشاء والمنكر والبغي،وكل واحد من هذه الألفاظ يحتاج إلى بعض الشرح .

معنى الفحشاء:

وأول لفظ من هذه الألفاظ هو(الفحشاء)،وله صورة أخرى هي(الفاحشة)،وهو مشتق من لفظ(فحش)والذي يعني أصلاً تعدي الحد([4])،ومعناه الآخر الملازم لمعناه هذا هو القبح،إذ أن تعدي حد شيء مما حدده خالق الفطرة قبح وسوء،أو أن معناه هو أن يزيد السوء عن الحد،وهو ما يسمى(الفحشاء)،وقد استعمل القرآن الكريم تعدي الحدود الإلهية وتجاوزها في معنى الذنب.وعلى سبيل المثال فإن الله تعالى قد قرر بعض الحدود لقوة الشهوة لدى الإنسان وإشباعها،فإذا ما تعدى أحد هذه الحدود فإنه يكون عندئذٍ متعد للحدود ومرتكباً للفاحشة،قال تعالى:"والذين هم لفروجهم حافظون،إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين،فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون"(المؤمنون:٦).

ويطلق هذا اللفظ أيضاً ليشمل كل فحش وسوء أكد الله تعالى على عباده أن يتجنبوه .

---

[1] مسند أحمد بن حنبل عن ابن عباس .

[2] مستدرك الحاكم – الجزء الثاني – ص ٢٥٦ - ، و ابن جرير الطبري – تفسير الآية المذكورة .

[3] ابن جرير الطبري – تفسير الآية المذكورة .

[4] الصحاح للجوهري – لفظ فحش ، و لسان العرب لفظ فاحش تحت فحش .

معنى المنكر:

واللفظ الثاني هو(المنكر)ومعناه اللغوي هو غير المعروف،وهذا يعني أن الأمـو الذي يحبه الناس بصفة عامة،ويمدحون مـن يفعلـه يكـون أمـراً معروفـاً،ويطلـق عليه(معروفاً)،وعندما حضر إلى إبراهيم عليه السلام بعض الضيوف غير المعروفين له قال:"قوم منكرون"(الحجر:٦٢،الذاريات:٢٥)،وحين دخل أخوة سيدنا يوسف عليه السلام عرفهم،لكنهم لم يعرفوه،وقد عـبر القـرآن عـن هـذا بقولـه:"فعرفـهم وهـم لـه منكرون"(يوسف:٥٨).

وفي حالة الاستياء يبدو وجه الإنسان لمن يراه متغيراً،ويبـدو الاسـتياء مـن تصرفاته بداهة،وقد أطلق على هذه الحالة أيضاً لفظ(منكر)،قال تعالى :

" وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكـادون يسـطون بالذين يتلون عليهم آياتنا " (الحج : ٧٢) .

وقد أطلقت هذه الآية لفظ(منكر)على ذلك التغير السيئ الذي يلحق الوجه بسـبب الاستياء،وبالتالي يعلم من هذه الآيات أن المنكر هو ذلك العمل الذي لا يحبـه أي أحـد بالفطرة وبغير تردد،وأن سوءه يكون ظاهراً بحيث لا يحتاج إلى دليل،وهذا هو السـبب في أن المنكر يعد سوءً في كل حضارة ومدنية طيبة مستقيمة .

معنى البغي:

واللفظ الثالث هو(البغي)،والذي يعني لغوياً ظلم أحد أو التطاول عليه :

" خصمان بغى بعضنا على بعض " (ص : ٢٢) .

ويقول تعالى أنه لو أعطى للناس مالاً لا حدود له فإنهم سيظلمون بعضهم البعض :

" ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض " (الشورى : ٢٧) .

وجاء في هذه السورة كذلك :

" إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق "(الشورى:٤٢).

ويعلم من هذه الآيات أن البغي يعني ظلم الآخرين والتعدي عليهم .

لماذا تكون الأخلاق الذميمة سيئة:

ويظهر من هذا التفصيل أن الرذائل تنحصر في ثلاثة أشـياء هـي الفحشـاء والمنكر والبغي،وأن الفحشاء هي الصفات الذميمة التي تتجاوز كل حد في القبح وعـدم

الحياء،وأنها أمور لا يحبها الإنسان بفطرته،وتؤدي إباحتها إلى التعدي على حقوق الآخرين بالضرورة،وقد جاء في سورة(الأعراف)قوله تعالى :

" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق"(الأعراف:٣٣)وقد حصرت هذه الآية أيضاً الفواحش في ثلاثة ألفاظ،واحد هو الفواحش،أي كل الأفعال السيئة التي تنافي الحياء سواء كانت في السر أو في العلن،والثاني هو الذنب والثالث البغي بغير حق،فإذا ما حللنا هذه الأخلاق الذميمة التي حرمها كل دين واستاعت منها المجتمعات الإنسانية لعلمنا أنها في الحقيقة أفعال سوء ومنافية للحياء،وأنها في نظر الدين والشرف أمور غير محبوبة،ولو أبيحت فلن يكون هناك أمان بين الأفراد فيما يتعلق بالحقوق،ولن يسلم مال أحد أو روحه أو عرضه([1]).

ترتيب الرذائل:

ويمكن ترتيب هذه الرذائل طبقاً لنظريتين أحدها إلى أي مدى تكون دائرة تأثير السيئة متسعة،والثانية مدى تعلقها بسخط الله تعالى وعدم رضاه.وقد قسمت الآية السابقة الرذائل إلى ثلاثة عناوين كبيرة بالإضافة إلى الترغيب الموجود بها،وأول هذه العناوين هو الفحشاء،ثم المنكر،ثم البغي .

أما السوء الذي أشير إليه في الفحشاء فهو الذي ينحصر في ذات فرد واحد،مثل العري وارتكاب الفاحشة وغير ذلك،وأما المنكر فإنه يؤثر على الحياة الاجتماعية للجماعة كلها،مثل ظلم الزوج وقسوة الأب وعدم كفاءة الأولاد،وأما البغي فإنه يتعدى الجماعة إلى الدولة والأمة كلها مثل السرقة والقتل والسلب والنهب وغيرها .

وهذا ترتيب للرذائل طبقاً لإحدى النظريتين،أما فيما يتعلق بالنظرية الثانية فهي أن الصفات الذميمة تسلب رحمة الله،وهي المساوئ التي تحرم من حب الله،وهي المساوئ التي تخلو من رضا الله .

الكذب

إن أسوأ عادات الإنسان ضمن الأخلاق الذميمة هو الكذب،سواء كان الكذب باللسان أو بالفعل،لأن أفعالنا كلها مبنية على مطابقتها للواقع،والكذب نقيضها تماماً،ولهذا

---

[1] الفحشاء والمنكر في الاصطلاح المنطقي مانعة الخلو،بمعنى أنه من الممكن أن تجتمع هذه الأشياء الثلاثة في خلق سيء،لكن لا يوجد خلق سيء يخلو من أحدها،أي أن كل خلق سيء توجد فيه هذه الأمور الثلاثة أو أحدها .

فإن هذه السيئة هي أصل كل الأعمال السيئة الأخرى،ولا يعلم أحد غير الله ما بداخل الإنسان،وعن كان هناك من يستطيع أن يعرف هذا أو يؤكد عليه،فإن ذلك لا يكون إلا في صورة واحدة وهي أن يظهر هذا الشخص بقوله أو بعمله ما بداخله،فإذا ما تعمد أن لا يظهر(بقوله أو بفعله)الحقيقة التي بداخله،أو يظهر خلافها فإنه بذلك يخدع العالم كله،وليس هناك أسوأ من مثل هذا الشخص،لأنه في الحقيقة حطم المرآة التي تظهر وجه الحقيقة،ولهذا فإن أول صفة من صفات النبي هي أن يكون صادقا.ولهذا استخدم الصدق كصفة للدلالة على بعض الأنبياء.قال تعالى:

" واذكر في الكتاب إدريس أنه كان صديقا نبيا " (مريم : ٥٦) .

ولهذا لا يمكن لكاذب أن يكون نبيا،إذ كيف سيثق الآخرون في دعواه ورسالته،وعندما أرسل الله تعالي سيدنا موسي نبيا إلي فرعون،وكذبه فرعون،فإن أحد رجال بلاطه وكان قد أسلم سرا أكد علي صدق نبوة موسي عليه السلام أمام كل رجال البلاط اعتمادا علي اتسام النبي بالصدق،ولا يمكن أن يكون الكاذب نبيا :

" وإن يك كاذبا فعليه كذبه،وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم،إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " (غافر : ٢٨) .

وهنا أيضا تلميح خفي وهو أن فرعون كاذب ومتطاول في كل ما يقوم به،علي عكس هذا الذي يعلن نبوته،ويعلم من هذا أن الكذابين بعيدون عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،ويسيرون علي طريق وأعراف الكفار،وكان من بين الأسئلة التي وجهها قيصر الروم إلي سيدنا أبي سفيان في بلاطه هو هل كان هذا الذي يدعي النبوة(محمد صلى الله عليه وسلم)يكذب قبل أن يعلن دعوته،وقد أجابه أبو سفيان بالنفي،فقال قيصر:أن من لا يكذب علي الناس لا يكذب علي الله (1) .

وقد جاء الدليل علي صدق النبي في آية أخري من القرآن الكريم :

" تنزل علي كل أفاك أثيم،يلقون السمع وأكثرهم كاذبون " (الشعراء : ٢٣) .

ويعلم من هذا أن الكذب ليس من شيم الأنبياء الكرام ولا من سلوكياتهم،ولهذا فإن نور هداية الله تنطفئ في قلب الكذاب . قال تعالي :

" إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار " (الزمر : ٣) .

---

(1) صحيح البخاري – بدء الوحي .

وقد قال صلي الله عليه وسلم"إن الكذب يهدي إلي الفجور،والفجور يهدي إلــــي النار،ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " ([1]) .

وقد روي عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً جاء علـــى النبـــي صلى الله عليه وسلم وقال:يا رسول الله ما هو العمل الذي يدخلني الجنة؟فقال صلى الله عليه وسلم:قول الصدق،فعندما يقول العبد الصدق فإنه بذلك يعمل عملاً صالحاً،ويكـــون مليئاً بالإيمان،ومن يمتلئ بالإيمان يدخل الجنة،فسأل الرجل ثانية:يا رسول الله ما هـــو العمل الذي يدخل النار؟فقال صلى الله عليه وسلـــم الكذب،فعندمـــا يكذب يرتكب الذنب ويكفر،ومن يكفر يدخل النار "(مسند أحمد – الجزء الأول – صـــــ ١٧٦ – مصر).

ويعلم من هذا الحديث أن دائرة الكذب متسعة حتى يدخل فيها الكفر أيضا،وهو ما ليـس هناك أسوء منه ،وتغلق أمامه كل أبواب النجاة.

ودائرة رحمة الله واسعة للغاية،وتحيط بكل ذرة من ذرات الدنيا،والكائنات كلها تســتظل بظل رحمته ،إلا أن من يحترق فمه برياح الكذب السموم فإنه يخرج من هــــذا الظـــل الكثيف لرحمة الله تعالى.

أن أقسي لفظ في قاموس الإسلام هو لفظ (لعنة)،ومعنـــاه الحرمـــــان مـــن رحمـــة الله والإبعاد عنها،و قد جاء في القرآن الكريم أن الشيطان يستحق هذه اللعنة،ثم يأتي بعــــده اليهود،والكفار والمنافقون الذين أنذرهم الله بهذه اللعنة،لكن الله لم يذكر فعلا لأي مؤمـــن يستحق اللعنة سوى الكذب ،وقد أذن الله تعالى في حالة الكذب أواتهام الآخرين بـــالكذب بأن لعنة الله على الكاذبين ،وقال بخصوص المباهلة أن على الفريقين أن يدعـــوا الله أن يلعن الكاذب منهما:

"ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" (آل عمران : ٦١).

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الأدب – و جامع الترمذي – باب ما جاء في الكذب ، و أبو داود – كتـــاب الأدب – باب التشديد في الكذب .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة،حدثنا جرير،عن منصور،عن أبي وائل،عن عبد الله رضي الله عنه،عـــن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن الصدق يهدي إلى البر،وإن البر يهدي إلـــى الجنـــة،وإن الرجـــل ليصدق حتى يكون صديقا،وإن الكذب يهدي إلى الفجور،وإن الفجور يهدي إلـــى النـــار،وإن الرجـــل ليكذب، حتى يكتب عند الله كذابا).

وفي حالة اللعان بين الرجل و زوجته إذا اتهم الرجل زوجته بالزنا و لم يكن عنده دليل على ما يقول أو شاهد عليه فإن عليه أن يقسم على صدقه أربع مرات،ثم يقول:

"أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين" (النور:٧).

ويعلم من هذا أن الكذب أمر سيء يستحق من يرتكبه سيئ الدعاء مثله مثل الكفار والمنافقين،وهناك نوع آخر من الكذب أن تتجاهل الصدق،وتتغاضى عن قوله عامدا،وأمثال هؤلاء لعنهم الله تعالى:

"إن الذين يكتمون ما أنزل من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب،أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" (البقرة:١٥٩).

وهذه هي الصورة السلبية للكذب،إذ يكون الهدف من هذا الصمت وهذا الكتمان هو أن لا يصدق الناس الحق،ويظنونه كذبا،ولهذا فرغم أنهم لم يقولوا كذبا،لكنهم ارتكبوه عمليا، وهذا يربي النفاق ويزرعه،إذ أن النفاق هو أن يكون ما على اللسان مغايرا لما في القلب،ولهذا فإن المنافق يكون كذابا بالضرورة،وقد أكد القرآن الكريم هذا الأمر بقوله تعالى:

"والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" (المنافقون:١).

ولهذا عد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب من علامات المنافق،فقال:آية المنافق ثلاث،إذا حدث كذب،إذا وعد أخلف،وإذا أؤتمن خان" ([1])،وهذه الأمو رمن حيث اللفظ ثلاثة،لكنها في الحقيقة صور ثلاث مختلفة بشكل واحد،فقول الكذب كذب،لكن خلف الوعد كذب أيضا،وكذلك الخيانة فيما أؤتمن عليه كذب أيضا من الناحية العملية،إذ أن معنى أن يؤتمن رجل على شيء أن هناك يقينا بأنه لن يخون هذه الأمانة،فإذا ما خالف هذا الأمر،فإنه بذلك كذب عمليا.

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الأدب.

حدثنا سليمان أبوالربيع قال:حدثنا إسماعيل بن جعفر قال:حدثنا نافع بن مالك بن أبي عامر أبو سهيل،عن أبيه،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(آية المنافق ثلاث:إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان).

وليس الكذب وحده سيئة،وإنما يتولد عنه في الكذاب بالضرورة عشرات السيئات الأخرى،ولهذا وصف الله تعالى الكاذب بصفات سيئة أخرى جنبا إلى جنب مع الكــذب مثل:

"أفاك أثيم" (الشعراء:٢٢).

"كاذب كفار" (الزمر:٣).

"مسرف كذاب" (غافر:٢٨).

وقد أوضحت هذه الآيات أن الكاذب غارق في الذنوب لأنه لا يتردد في ارتكاب أعمال سيئة أخري بسبب تعوده على الكذب،لأنه يعتقد أنه بكذبه يخفي ما ارتكب،ولــذا فهو على استعداد لارتكاب أي عمل سيء،والكاذب لا يحمل جميلا أو معروفا لأحد،لأن الكاذب يظن في الآخرين أنهم كاذبون في أعمالهم ونواياهم،حتى وإن اقر بلســانه أنــه يعترف بجميل الآخرين،فكيف يصدقه الآخرون،ولهذا فإن من يكــذب لا يتــورع عــن ارتكاب أسوأ الأفعال،فيتجرأ على ارتكاب الذنوب ويتعدى الحدود.

والصورة المعروفة للكذب هي أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه،أو يقول خــلاف ما يعلمه ويعتقد بصحته،لكن هذا هو كذب القول،أي كذب اللسان،أما الكذب العملـــي،أو كذب العمل فهو أن يقول ما لا يفعل:

"بما اخلفوا الله ما وعدوه،وبما كانوا يكذبون" (التوبة:٧٧).

وبسبب هذا الكذب تمكن النفاق من قلوبهم،والقسم على فعل شيء،أوالوعد بفعـل شيء ثم مخالفة هذا ما هو إلا نوع من الخداع،لكنه في الوقت نفسه كذب،وكذب مــهلك وخطير:

" وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفســـهم،والله يعلــم أنــهم لكاذبون "(التوبة:٤٢)،وقد ذكر الله تعالى في سورة(الأحزاب)أولئــك الصـــادقين الذيــن أعطوا الدليل العملي على صدقهم،وأطلق على من يكذب عملا أنه منافق،قال تعالى:

"ليجزي الله الصادقين بصدقهم،ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم"(الأحزاب:٢٤).

ومثلما يرتكب الإنسان الكذب فإن كل عضو مـــن أعضائـــه أيضـــا يرتكــب الكذب،قال تعالى:

" ناصية كاذبة خاطئة " (العلق : ١٦) .

ورغم أن هذا مجرد استعارة فإن وصمة الكذب على الجبين لا تمحى أبدا،وهكذا فإن الرياء أما الآخرين يعد كذبا:

" قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان،يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم " (آل عمران : ١٦٧) .

وقد قال الله تعالى عن مرضى القلوب أولئك الذين كانوا يريدون مداهنة المسلمين واليهود،ويخدعون المسلمين بأنهم أهل صلح وسلام:

" أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم " (النساء : ٦٣) .

ومثل هؤلاء ذلك الذي يريد أن يظهر للناس ما ليس فيه،أو يؤكد لهم ما لا يتمتع به،مثل هذا الشخص يكون كذابا،وقد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة وسألته قائلة:لي جارة يا رسول الله،فهل إذا أظهرت لها أن زوجي أعطاني كذا وكذا وهو لم يعطني شيئا وإنما أريد أن أغيظها لا أكثر،هل أكون بذلك أرتكب ذنبا؟فقال صلى الله عليه وسلم:من يظهر غير ما أعطى له فهو كمن يلبس سروالا من الكذب"([1]).يقول شراح الحديث أن للسروال رجلين،الأولى هي ما اخبر به كذبا أن عنده كذا وليس عنده،والثانية هو ما أخبر به كذبا من أنه أعطى كذا وهو لم يعط شيئا.وهكذا فإن من يظهر أنه عالم وهو ليس كذلك،أو يظهر أنه غني وهو ليس كذلك،بمعنى أن من يظهر أن شيئا ما عنده وهو ليس كذلك فإن ذلك يعد في الحقيقة خداعا للآخرين،وربما كان هو السبب في منع المرأة ذات الشعر القصير بطبيعته من أن تطيله مستخدمة شعرا صناعيا،وقد أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل هذا زورا"([2]).

وللكذب مراتب عديدة،فهناك الكثير من الناس لا يعدون الكذب الذي لا يضر أمرا مشينا،مثلما نرى أكثر الناس يعدون الأطفال بوعود كاذبة لمجرد تهدئتهم،ويظنون

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب .

حدثنا سليمان بن حرب،ثنا حماد بن زيد،عن هشام بن عروة،عن فاطمة بنت المنذر،عن أسماء بنت أبي بكر،أن امرأة قالت:يا رسول الله،إن لي جارة تعني ضرة هل علي جناح أن تشبعت لها بما لم يعط زوجي،قال:المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.

[2] صحيح البخاري – باب :الوصل في الشعر .

أخبرنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار عن محمد بن جعفر قال:حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية المدينة فخطبنا وأخذ كبة من شعر قال:ما كنت أرى أحدا يفعله إلا اليهود،وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه فسماه الزور .

أن الأطفال لا يلبثون ينسون هذه الوعود بعد وقت بسيط،ورغم أن هذا يحدث كثيرا لكن الكذب كذب،وقد منع الإسلام من مثل هذا الكذب أيضا،يقول الصحابي الصغير عبد الله بن عامر رضي الله عنه أن أمي استدعتني ذات مرة،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس في بيتنا وقتها،فنادتني أمي قائلة:تعالى هنا وسأعطيك شيئا،فقال صلى الله عليه وسلم أنت تقولين ذلك،ولا تريدين أن تعطينه شيئا،فقالت أمي:سأعطيه تمرا،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:نعم،لأنك إن لم تعطينه فسوف يكتب عليك كذبا"[1].

والهدف من هذه التعاليم هو أنه لا يلوث المسلم شفتيه بالكذب في أي حال من الأحوال،لكنه أكد على قول الصدق في مثل هذه الحالات أيضا لأن هذا السلوك الخاطئ من الوالدين يؤثر تأثيرا سيئا على تعليم الطفل وتربيته،إذ أنه سوف يتشكل طبقا لما يسمعه في طفولته،ولهذا ينبغي على الناس أن لا يكذبوا على أطفالهم.

وقد اعتاد بعض الناس عندما يدعون إلى طعام أو ما شابه فإنهم يقولون بتكلف وتصنع أنهم لا رغبة لهم فيما دعوا إليه،على الرغم من أنه يرغب في ذلك فعلا،فهذا أيضا كذب.وذات مرة سألت الصحابية السيدة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة أنه يكون من بيننا من يرغب في شيء ثم يقول إني لا أرغب فيه،أيعد ذلك كذبا،فقال صلى الله عليه وسلم إن كل كذب يكتب مهما كان صغيرا"[2].

ويعد أيضا من الكذب ذلك الكلام غير الصادق،أو المبالغ فيه،والذي يقال بقصد إضفاء السرور على الجلسة،ورغم أنه لا ضرر منه،وأنه في بعض الأحيان يكون شيئا ممتعا،لكن الإسلام لم يسمح به،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشخص الذي

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب التشديد في الكذب .

حدثنا قتيبة،ثنا الليث،عن ابن عجلان،أن رجلا من موالي عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوي حدثه،عن عبد الله بن عامر أنه قال: دعتني أمي يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا فقالت:ها تعال أعطيك،فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم:وما أردت أن تعطيه؟قالت:أعطيه تمرا،فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم:أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة.

[2] مسند أحمد و الطبراني في الكبير (مجمع الزوائد للهيثمي – ص ٢٤٠ – باب في ذم الكذب) .

يكذب لإضحاك الآخرين أسف عليه،ثم أسف عليه([1])،لأن قيمة الشخص وقدره ينقصان بسبب ذلك،ويصبح حديثه لا وزن له،وبالتالي يظن كل شخص فيه أن كذبه مثل صدقه.

وقد عين الإسلام درجات الكذب بصوره المختلفة الخطيرة حسب الخطر الناتج عن هذا الكذب،فهناك صورة للكذب أن يظن رجل برجل أنه صادق وموثوق فيه،ولهذا فإنه يصدق كل ما يقول،لكن هذا الرجل يستغل ما يظنه به الآخرون استغلالا سيئا،ويكذب عليه بشكل يؤذيه ويخدعه،مثل هذه الصورة عدها الإسلام خيانة كبيرة،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه الصورة أن"هذه خيانة كبيرة يعني أن تكذب على أخيك وهو يظن أنك صادق"([2]).

وأخطر من هذا ذلك الكذب الذي ينتج عنه أضرار كبيرة لحقوق الناس وكرامتهم وأعراضهم،ويحدث خللا في النظام الاجتماعي للناس.مثل هذا الكذب يختلف عن الكذب العادي لدرجة جعلت الإسلام يطلق عليه اسما آخر وهو(الزور)و(الإفك) وغير ذلك مما يعني الانحراف والتخريب.

وهذه الصورة من الكذب خطيرة لدرجة أن الله تعالى ذكرها مع الشرك بالله،وأمر المسلمين قائلا:

" فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور " (الحج : ٣٠) .

ومع أن لفظ(الزور)لفظ عام يشمل الكذب والبهتان وغيرهما،لكن يعلم من الأحاديث أن المراد به شهادة الزور بصفة خاصة،وقد جاء في جامع الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للصحابة:هل أخبركم بأعظم الذنوب؟،قال الصحابة:نعم يا رسول الله،فقال صلى الله عليه وسلم الشرك بالله وعقوق الوالدين.يقول الراوي،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا،فعتدل وقال:"وشهادة الزور،والكذب"وظل يردد هذا حتى قلنا ليته صمت([3]).

---

[1] سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب التشديد في الكذب .

حدثنا مسدد بن مسرهد،ثنا يحيى،عن بهز بن حكيم،قال:حدثني أبي،عن أبيه،قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم،ويل له،ويل له.

[2] أدب المفرد – باب إذا كذب الرجل و هو بك مصدق .

[3] أبواب البر و الصلة – ما جاء في حقوق الوالدين .

حدثنا مسدد:حدثنا بشر بن الفضل:حدثنا الجريري،عن عبد الرحمن بن أبي بكره،عن أبيه رضي الله عنه قال :قال النبي صلى الله عليه وسلم:(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر).ثلاثا،قالوا:بلى يا رسول

وبالتأمل في الآية السابقة والأحاديث التي تشرحها نعرف أن أعظم سيئة تستحق الذكر عند الله تعالى بعد الشرك به هي الكذب،وبالتالي نعرف مدى سوءه وفحشه.

والإفك لفظ أكثر قسوة و شدة،ومعناه أن تفتري على أحد كذبا،والمشركون يفترون على الله الكذب،وهو ما أطلق عليه القرآن لفظ(إفك)،ويعلم منه أن حدوده تلتقي أحيانا مع الشرك،وقد عبر الله تعالى عن ذلك الافتراء الذي افتراه المنافقون على السيدة عائشة رضي الله عنها في سورة(النور)،ويتضح من القرآن الكريم أن الإفك من عمل الفطر الدنيئة،قال تعالى :

" تنزل على كل أفاك أثيم " (الشعراء : ٢٢) .

وهناك صورة أخرى للكذب أن يبلغ الشخص الناس بكل ما سمع دون أن يتحقق من صدقه أو كذبه،ويفقد الناس ثقتهم في مثل هذا الشخص،ويفقد مكانته في المجتمع،ولهذا قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم:"كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع" (مقدمة صحيح مسلم) .

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يصدقون كل ما يسمعون من شائعات أنهم(سماعون للكذب)،فقال عن فرقة من اليهود:"سماعون للكذب"(المائدة: ٤١).

الحلف كذبا

الحقيقة أن الحلف شهادة،والشخص الذي يقسم على شيء يقوله هو في الحقيقة يشهد الله على صدق قوله،وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن نضع في اعتبارنا مدى أهمية هذا الأمر ومدى خطورته،لكننا كثيرا ما نرى أن الكذابين من الناس،والذين هم أكثر بعد عن الصدق يكثرون من الحلف،فهم يعرفون أن الناس لا يصدقون قولهم،ومن هنا فإنهم يحلفون كذبا ليخدعون الناس.

وبداية فإن الحلف بغير ضرورة تدعوا إليه أمر غير مستحب،أما الحلف كذبا فهو أكثر سوءا،ولهذا وصف القرآن الكريم هؤلاء الذين يحلفون كذبا بصفات سيئة عديدة،فالحلف كذبا هو أسوأ أشكال الكذب حيث يشرك من يحلف كذبا بالله تعالى في كذبه،ولذا فإن من يقسم على شيء لابد أن ينفذه،وإذا لم يستطع تنفيذه لسبب من الأسباب فإنه يأثم وتجب عليه الكفارة،وكفارته هي تحرير رقبة،أو إطعام عشرة مساكين أو

الله،قال:(الإشراك بالله،وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئا،فقال ألا وقول الزور).قال:فما زال يكررها حتى قلنا:ليته سكت.وقال إسماعيل بن إبراهيم:حدثنا الجريري:حدثنا عبد الرحمن.

كسوتهم فإن لم يستطع ذلك يصوم ثلاثة أيام،وقد أجاز الإسلام عدم تنفيذ ما أقسم عليه من البداية وأداء الكفارة إذا ما تبين له أمر أفضل ([1]) .

" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة،فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم " (المائدة : ٨٩) .

ويجب أن يوضع في الاعتبار عند القسم أنه إذا كان الشيء الذي نقسم عليه لا يخالف الشرع،أو غير جائز فإن علينا أن نقدر مسئولية هذا القسم،وأن نعمل قدر استطاعتنا على تنفيذه،فإذا لم نستطع أدينا الكفارة،وقد تقررت الكفارة لكي لا نسيء إلى مسئولية تنفيذ القسم ولا نقلل من أهميته.

أما إذا حلف على شيء يخالف الشرع،أو تبين فيما بعد أنه غير جائز فإنه في هذه الحالة لا ينفذه ويحنث فيه ويؤدي كفارته،قال تعالى:

" قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم " (التحريم : ٢) .

وقد جاءت الإشارة إلى هذا الأمر في الأحاديث الشريفة .

والحلف على أمور مضت أو أمور حادثة هو في الحقيقة شهادة،وكما علمنا فإن الكذب في الشهادة ذنب عظيم،ولهذا فإنه لا يوثق في الشخص الذي يكثر من الحلف،وقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم بعدم الثقة في مثل هذا الشخص،وعد كثرة الحلف من أكبر عيوب الإنسان،فقال تعالى لنبيه الكريم:"ولا تطع كل حلاف مهين"(القلم:١٠).

والذي ينبغي أن نفهمه هو أن الذي يحلف يقصد أن يصدق الناس ما يقول،ويثقون فيه،بينما يؤكد الله تعالى على عدم تصديق ما يقوله مثل هذا الشخص ويعلن أنه لا يوثق فيه،ولأن هؤلاء الذين يحلفون كذبا عامدون في كذبهم،لهذا فإن فعلهم هذا آية كبرى من آيات النفاق،وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم كثيرا بهذا الاعتبار،فجاء في ذكر المنافقين أنهم إذا نزلت بهم مصيبة أقسموا أنهم لم يقصدوا إلى ذلك،وأن نواياهم كانت حسنة،فيقول الله تعالى إن الله يعلم نواياهم تماما :

" فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا،أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم " (النساء : ٦٢) .

---

[1] أبو داود – كتاب الأيمان و النذور .

أي أن الله تعالى يعلم أن ما في قلوبهم يخالف ما هو على ألسنتهم,وهؤلاء الناس يريدون بحلفهم أن يجعلوا من الصدق كذبا ومن الكذب صدقا لإرضاء أناس بعينهم,فيقول الله تعالى إنهم إذا كانوا مؤمنين فعلا فإن عليهم أن يختاروا الصدق لإرضاء الله ورسوله :

"يحلفون بالله لكم ليرضوكم,والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين"(التوبة:٦٢).

ومثل هؤلاء المنافقين إن صرحوا بأمر سيء ثم سئلوا عنه تراهم ينكرون ما قالوه ويتملصون منه :

" يحلفون بالله ما قالوا,ولقد قالوا كلمة الكفر " (التوبة : ٧٤) .

وفي مرة من المرات ارتكب المنافقون أمرا غير صحيح,فقال الله تعالى عندما تسألونهم عما فعلوا فسيحلفون بالله:"سيحلفون بالله"(التوبة:١٢)أن الأمر هكذا,ولهذا قال تعالى :

" يحلفون لكم لترضوا عنهم,فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين"(التوبة:٩٦).

ولهذا فإن من لا يؤمنون من قلوبهم بما يقوله الله تعالى,ويقسمون بألسنتهم أنهم يؤمنون به هم الفاسقون الباغون.وقد أقام بعض المنافقين بهذه المناسبة مسجدا مستقلا بغرض وضع بذور التفرقة بين المسلمين,فقال الله تعالى إنكم إذا سألتموهم عن سبب فعلتهم هذه فسيحلفون لكم أن نيتهم كانت حسنة,قال تعالى:

" وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون " (التوبة : ١٠٧) .

وقال القرآن الكريم عن المنافقين :

" ويحلفون على الكذب وهم يعلمون " (المجادلة : ١٤) .

" اتخذوا أيمانهم جنة " (المجادلة : ٣ – المنافقون : ١) .

يعني أنهم يجعلون من الكذب صدقا ومن الصدق كذبا,ويتخذون من الحلف درعا يحميهم,وقد أكد الله تعالى للمسلمين على لسان نبيه أن عليهم أن يتجنبوا هذا الذنب:

" ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها,وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون,ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة " (النحل : ٩٢) .

إذ أن الحلف بالله ونقض هذا الحلف هو بمثابة تحقير لاسم الله المقدس,ولهذا قال تعالى إننا إذا حلفنا على أمر ما فإننا بذلك نجعل الله ضامنا لما نقول,ولذا ينبغي أن لا نحنث في حلفنا,وأن لا نخدع الناس,ثم إن الحنث في اليمين عمل أحمق يشبه حماقة تلك المرأة العربية التي تقوم بغزل الصوف ثم بعد أن تتمه تنقضه ثانية .

وإذا عاهد فريق فريقا على أمر ما باسم الله فكأنه يؤمن هذا الفريق بضمان الله تعالى,فإذا ما نقض هذا العهد محاولا الانضمام إلى فريق آخر فإن ذلك ينم عن ضعف أخلاقي ظاهر.

وكذلك فإن الحلف كذبا لأخذ مال الغير هو في الحقيقة كذب على اسم الله تعالى,وهذا يعد ذنبين لا ذنبا واحدا,أي الغصب والكذب,وأكثر من هذا أنه يحدث باسم الله,قال الله تعالى :

" إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة,ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم"(آل عمران:٧٧).

وهذه الآية تصوير لسوء عمل اليهود باعتبار سياقها وسبب نزولها,لكنها باعتبار حكمها آية عامة,وذات مرة قال الصحابي سيدنا عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف بالله كذبا ليأخذ مال الآخرين فإنه يبوء بغضب الله تعالى يوم القيامة.وقال الصحابي الأشعث بن قيس رضي الله عنه:والله لقد نزلت هذه الآية في حادثة وقعت لي,فقد كانت بيني وبين يهودي أرض,وقد أنكر هذا اليهودي ملكيتها لي,فذهبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم,فسألني رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لديك دليل على ملكيتك لها؟,قلت:لا,فقال لليهودي:هل تحلف على ملكيتك لها؟,فقلت:يا رسول الله,سيحلف وسيأخذها.وعندئذ نزلت هذه الآية (1) .

---

[1] ابو داود – كتاب الأيمان و النذور ، و ابن جرير .

حدثنا محمد بن عيسى,وهناد بن السري،المعنى قالا:ثنا أبو معاوية,قال:ثنا الأعمش،عن شقيق،عن عبد الله قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان,فقال الأشعث:في والله كان ذلك,كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني,فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم,فقال النبي صلى الله عليه وسلم:ألك بينة؟قلت:لا،قال لليهودي:احلف قلت:يا رسول الله،إذا يحلف ويذهب بمالي,فأنزل الله تعالى:"إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا" إلى آخر الآية.

وجاء في بعض الروايات عن ابن جرير أن هذه الآية نزلت في شـأن بعـض التجار الذين يحلفون كذبا ليبيعوا بضاعتهم.ويؤيد ذلك ما جاء عن رسول الله صلـى الله عليه وسلم أنه قال ذات مرة ثلاث مرات:"ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة.ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم"يقول الصحابي:قلت:من هؤلاء الخاسرون يا رسول الله.فقال صلـى الله عليه وسلم من يرخي لباسه تحت ركبتيه(لأن هذا علامة على الغرور).ومن يمن علـى الناس إحسانه.ومن يحلف كذبا ليبيع بضاعته.(مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابـن ماجه).على أية حال مثلما نعرف أن المراد بهذا طبقا لسبب النزول هو تلك الواقعة التي تصدق عليها الآية تماما.ولهذا فإن حكم هذه الآية ينطبق على كل هذه الحالات .

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إن من يحلف كذبـا ليأخذ حق مسلم أوجب الله عليه نار جهنم.فسأل الصحابة:يا رسول الله حتى ولـو كـان شيئا بسيطا؟.فقال صلى الله عليه وسلم حتى ولو كان عود أراك([1]).وقال الصحابي سيدنا أنس رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:أعظم الذنـوب أن تشـرك بالله.وأن تعق الوالدين.وأن تقتل النفس بغير حق.وأن تحلف كذبا([2]).وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من اسـتحلف وحلـف كذبـا فسـوف يدخـل النـار بوجهه([3]).وربما ذكر الوجه لأنه علامة على كرامـة الإنسـان وعزتـه.وقـد خـالف ذلك.وأظهر لا مبالاة بلا حدود مما يظهر أثره على الوجه .

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الأيمان – باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين .

حدثنا يحيى بن أيوب.و قتيبة بن سعيد.وعلي بن حجر.جميعا عن إسماعيل بـن جعفـر.قـال ابـن أيوب:حدثنا إسماعيل بن جعفر.أخبرني العلاء-وهو ابن عبد الرحمن مولى الحرقة-عن معبـد بـن كعب السلمي،عن أخيه عبد الله بن كعب،عن أبي أمامة،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:مـن اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه.فقد أوجب الله له النار.وحرم عليه الجنة فقال له الرجل:وإن كان شيئا يسيرا.يا رسول الله؟قال:وإن قضيبا من أراك.

[2] سنن النسائي – باب في ذكر الكبائر .

أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال:ثنا خالد قال:ثنا شعبة عن عبيد الله بن أبي بكر عن أنس عن النبـي صلى الله عليه وسلم (ح)وأخبرنا إسحق بن إبراهيم قال:أخبرنا النضر بن شميل قال:أخبرنـا شـعبة عن عبيد الله بن أبي بكر قال:سمعت أنسا يقول:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:الكبائر الشـرك بالله.وعقوق الوالدين.وقتل النفس.وقول الزور.

[3] سنن أبي داود – كتاب الأيمان .

وبصفة عامة فإن التجار يكذبون في الإخبار بـالثمن الحقيقي للسلع التي يبيعونها،ويحلفون كذبا،ولهذا نبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة إلى البعد عن هذا الأمر فقال:"إن الحلف كذبا قد يروج للسلعة ويؤدي إلى بيعها،لكنه ينقص البركة منها"([1])،ونقص البركة ليس بالاعتبار الروحي فقط فهو حادث لا محالة،وإنما يكون من الناحية الظاهرية الملموسة أيضا،إذ يفقد الناس في نهاية الأمر الثقة بمثل هذه السلع فيعرضون عنها،وتتعرض للخسارة،ولهذا جاء توضيح لهذا الأمر في رواية أخرى،يقول سيدنا قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:تجنبوا كثرة الحلف في البيع والشراء،إذ قد تحقق نجاحا في البداية،لكن تنعدم البركة في النهاية.كم هي فقرة بليغة(مسلم والنسائي وابن ماجه).

وبالإضافة إلى الحلف كذبا فإن التجرؤ على الحلف ينافي الشرف،وقد مرت بنا سابقا الرواية التي ذكرت أن الحلف بغير سبب يؤدي إلى المذلة.وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إن الحلف يوجب الذنب إذا لم ينفذ أو يوجب الندم والخجل " ([2]) .

خلف الوعد

من الأمور المعيبة جدا أن تعد وتخلف،وهذا في الحقيقة حلف كاذب،إذ أن كرامة أي أمة أو فرد تنحصر في مدى التزامها بما وعدت به وإيفائها به،إذ أن الشخص حين يعد أحدا فكأنما يلتحف بالمسئولية،قال تعالى:"إن الوعد كان مسئولا"(الإسراء:٣٤).فما مدى خطورة الأمر الذي يسأل الله عنه،جاء في القرآن الكريم فيما يتعلق بالمنافقين أن النفاق قد تولد في قلوبهم بسبب عدم التزامهم بالعهود.قال تعالى:

" فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه،وبما كانوا يكذبون"(التوبة:٧٧).

---

[1] صحيح البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و المنذري – باب ترغيب التجار في الصدق .

حدثنا مسدد،ثنا أبو معاوية،عن الأعمش،عن أبي وائل،عن قيس بن أبي غرزة قال :كنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمى السماسرة،فمر بنا النبي صلى الله عليه وسلم فسمانا باسم هو أحسن منه فقال:يا معشر التجار،إن البيع يحضره اللغو والحلف،فشوبوه بالصدقة.

[2] ابن ماجه و صحيح ابن حبان المنذري – باب ترغيب التجار في الصدق – ١٢ .

حدثنا علي بن محمد،حدثنا أبو معاوية،عن بشار بن كدام،عن محمد بن زيد،عن ابن عمر،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إنما الحلف حنث أو ندم.

وجاء في الصحيحين أن آية المنافق ثلاث,إذا حدث كذب,وإذا وعد أخلف,وإذا اؤتمن خان".وجاء في صحيح مسلم بعد هذا"وإن صلى وصام وقال إنه مسلم".وجاء في حديث آخر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:أربعة أمور من كن فيه فهو منافق,ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه آية من آيات النفاق حتى يدعها,إذا اؤتمن خان,وإذا حدث كذب,وإذا عاهد أخلف,وإذا خاصم فجر"([1]).

وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:اضمنوا لي ثلاثا أضمن لكم الجنة,أن تصدقوا إذا تحدثتم وأن توفوا إذا وعدتم,وألا تخونوا إذا اؤتمنتم " .

الخيانة وعدم الأمانة

إن عدم الأمانة في أداء حق علينا لأحد يعد خيانة,فإذا ما كان لأحد أمانة عند أحد,وتصرف فيها بغير حق,أو لم يعدها إلى صاحبها عند طلبها,فإن ذلك يعد خيانة صريحة,كما أنه إذا علم أحد بسر رجل آخر,أو وثق رجل بآخر وأخبره بسره فأظهره على الآخرين فإن ذلك يعد خيانة أيضا,وإذا كلف أحد بعمل فلم يؤده على ما ينبغي فإن ذلك يعد خيانة أيضا,وعلى هذا فإن اتخاذ خطوة لا تتفق مع المصالح القومية المتفق عليها للأمة أو أئمة الوقت أو عموم المسلمين يعد خيانة,وعدم أداء حق الصداقة لمن صادقته خيانة,وعدم وفاء المرأة لزوجها خيانة,وأن يكون في قلبك شيء وتقول بلسانك شيئا آخر,ويثبت من سلوكك شيء ثالث فهو خيانة,وهذه الخيانات كلها ممنوعة تماما في الشريعة الأخلاقية للإسلام.قال الله تعالى:

" يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون"(الأنفال:٢٧).

وخيانة الله والرسول هي أن لا تعترف بهما,ولا تنفذ أحكامهما,وأن تخون مصالح الدين والأمة,وأن تساعد أعداء الله ورسوله خيفة,أو تفشي أسرار المسلمين لهم,وهكذا فإن الخيانة بين الناس بعضهم البعض أن يتصرف شخص بغير حق في أمانة لأحد لديه,وأن يفشي أحد سرا علمه عن أحد آخر .

وقد ورد أحد الأحاديث مرات كثيرة فيما سبق وهو أن إحدى علامات المنافق الثلاث أنه إذ اؤتمن خان([2]).وروي موقوفا عن ابن مسعود أنه قال إن الموت في سبيل

---

[1] الترغيب و الترهيب للمنذري – باب الترغيب في الصدق .

[2] الصحيحين و غيرهما .

الله كفارة لكل الذنوب,إلا الأمانة,فيأتي بها يوم القيامة ويأتي بمن استشهد في سبيل الله ويقال له أدي الأمانة,فيقول يا رب كيف أؤدها,فلقد انتهت في الدنيا,فيقال خذوه إلى الهاوية من جهنم,وهناك تتجسد الأمانة لديه وتأتي في صورتها الأصلية فيعرفها ويتعقبها حتى يمسك بها ويحملها على أكتافه,فإذا ما أراد الخروج من جهنم يسقط هذا الحمل من على كتفه فيتتبعه ثانية وهكذا,ثم قال صلى الله عليه وسلم:الصلاة أمانة,والوضوء أمانة,والوزن أمانة والمكيال أمانة,وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء كثيرة ثم قال:وأصعب شيء في كل هذا هو الأمانة.يقول الراوي:لقد أسمعت هذا الحديث للصحابي البراء بن عازب فأكد عليه قائلا:ألم تسمع هذه الآية من القرآن الكريم:

" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " (النساء : ٥٨) ([1]) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:خير القرون قرني,ثم الذي يليه,ثم الذي يليه,ثم يأتي زمان يشهد الناس دون أن يدعوا إلى الشهادة,ويخونون ولا يؤتمنون ولا يوفون بالنذر"([2]).

والخيانة من الأمور التي كان يستعيذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم,فكان يقول:اللهم نجني من الخيانة فهي رفيق سوء([3]).

ومن بين معاني الخيانة أيضا أن تنتمي إلى جماعة ما,ثم تفكر في القضاء على هذه الجماعة وهكذا فإن المنافقين الذين يبدون ما ليس في قلوبهم كانوا دائما يتآمرون ضد الإسلام,لكن لم تنجح مؤامراتهم,وانكشفت أسرارهم,قال تعالى:

---

[1] وانظر مسند أحمد والبيهقي والمنذري – باب الترغيب في إنجاز الوعد .

[2] صحيح البخاري و صحيح مسلم و المنذري – الباب المذكور .

حدثنا آدم:حدثنا شعبة:حدثنا أبو جمرة قال:سمعت زهدم بن مضرب قال:سمعت عمران بن حصين رضي الله عنهما قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم:(خيركم قرني,ثم الذين يلونهم,ثم الذين يلونهم). قال عمران:لا أدري,أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنه قرنين أو ثلاثة,قال النبي صلى الله عليه وسلم:(إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون,ويشهدون ولا يستشهدون,وينذرون ولا يوفون,ويظهر فيهم السمن).

[3] أبو داود والنسائي وابن ماجه والمنذري – الباب المذكور .

أخبرنا محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الله بن إدريس قال:حدثنا ابن عجلان وذكر آخر عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع,ومن الخيانة فإنها بئست البطانة.

" ولا تزال تطلع على خائنة منهم " (المائدة : ١٣) .

بمعنى أن أخبار خيانتهم كانت تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا بأول.ومن يعتمد عليه في أمر ما،ولا يقوم بتنفيذ ما اعتمد عليه فيه فإن ذلك خيانة.وقد حاول سيدنا يوسف عليه السلام تبرئة نفسه أمام العزيز قدر استطاعته،ثم قال بعدها إنني إنما فعلت كل هذا:"ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين"(يوسف:٥٢).

وقد خانت زوجة سيدنا نوح وزوجة سيدنا لوط زوجيهما المقدسين،وكانت خيانتهما تتمثل في أنهما على غير المتوقع لم تؤمنا بزوجيهما،وساعدتا الكفار.فقال تعالى :

" ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا " (التحريم : ١٠) .

لقد كانت خيانة القلب،لكن الخيانة لا تكون بالقلب فقط،وإنما يمكن أن تصدر من كل عضو من أعضاء البدن،حتى أنها يمكن أن تصدر عن العين والرمش،ولكن إن كان هناك يقين على تلك الذات الواحدة التي تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فإن الإنسان عندئذ لا يجرؤ على ارتكاب خيانة،والإسلام يخلق مثل هذا اليقين ويقضي على الخيانة.قال تعالى :

" يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " (غافر : ١٩) .

فكيف يستطيع أحد أن يتوارى بعيدا عن هذه الذات ويرتكب خيانة.

الغدر والخداع

ومعنى الغدر والخداع أن تطمئن أحدا باللسان،ثم تخالف ما طمأنته به عندما تسنح لك الفرصة.وقد أطلق القرآن الكريم على هذا العمل لفظ خيانة أيضا،ويطلقون عليه بالعربية بصفة عامة(غدرا).وقد ذمه الإسلام بشدة.ولهذا قال تعالى في ذكر أولئك الكفار الذين كانوا يعدون بالصلح مرات ومرات،وفي كل مرة يغيرون وعودهم،وينقضونها:

" الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون.فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون.وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء.إن الله لا يحب الخائنين " (الأنفال : ٥٨) .

ورغم أن هذه الآية ذكرت الكفار الذين كانوا ينقضون عهدهم كل مرة ويغدرون.إلا أنها بينت بعض الأمور على العموم وهي أن نقض العهد ينافي التقوى

تماما،وأن هذا الغدر ونقض العهد يحرم من محبة الله تعالى،ويوجب سخطه،ولهذا فإنــــه عندما سمح بأخذ الفدية من أسرى بدر وإطلاق سراحهم قيل أيضـــا إنـــهم إن غـــدروا وخانوا فإن الله سوف يمكنكم منهم ثانية :

" وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم،والله عليم حكيم"(الأنفال: ٧١).

وخداع الله تعالى هو أن يكفر به،والله تعالى يعلم جميع الأحوال وكل المصـــالح ويقدر على كل شيء،فإذا كان قد أذن بإطلاق سراحهم فلمصلحة يعلمها.

جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:يكون لكل غادر يـــوم القيامة راية([1])،يمعني أنه سيفضح غدره وخيانته،ومن بين النصائح التي كان رسـول الله صلى الله عليه و سلم ينصح بها قادة جيوشه عدم الغدر([2])،يعني عدم نقض العهد مـــع المشركين إن عاهدوهم،وكان من بين حيل الملوك الظالمين والحكام والقادة العســكريين المعروفة أن يعطوا الأمان لأحد ويأتون به وحين يتمكنون منه يقتلونه أو يعاقبونه،وقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن أحدا على نفسه ثم قتله فليس مني،حتى ولو كان المقتول كافرا([3])،قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " (المائدة : ١) .

ويدخل في العقود كل الشروط والوعود والمعاهدات التي يبرمها أحد مـع الله،أو مع شخص،أو ما تبرمه جماعة مع أخرى،حتى أنه إن عاهد المسلمون أعداءهم فعليـــهم

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الجهاد و الأسير .

حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب،حدثنا أبو عوانة،عن عبد الملك بن عمير،عن رفاعة بـن شداد القتباني،قال:لولا كلمة سمعتها من عمرو بن الحمق الخزاعي لمشيت فيما بين رأس المختـــار وجسده،سمعته يقول:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من أمن رجلا على دمه فقتله،فإنه يحمـــل لواء غدر يوم القيامة.

[2] المرجع السابق .

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود قال أنبأنا شعبة قال أخبرني أبو الفيض قال سمعت سليم بـــن عامر يقول :كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول:الله أكبر وفاء لا غدر وإذا هو عمرو بن عبســة فسأله معاوية عن ذلك،فقال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:من كان بينه وبيـــن قـــوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء قال فرجع بالناس.

[3] سنن ابن ماجه و صحيح ابن حيان و المنذري – باب الترغيب في إنجاز الوعد .

تنفيذ ما عاهدوا عليه بدقة.ذات مرة عاهد الأمير معاوية رضي الله عنه أهل الروم لمدة معينة,ولما اقترب موعد انتهاء المعاهدة خرج الأمير بجنوده إلى منطقة الحدود مع الروم,وما أن انتهى الموعد حتى هاجمهم,فلما رأى الصحابي عمرو هذا ركب فرسه وخرج وهو يصيح:الله أكبر,الله أكبر,أليس هذا نقضا للعهد؟,فاستدعاه الأمير معاوية وسأله ماذا بك؟,فقال:لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا عاهدتم شعبا فلا تحلوا ولا تعقدوا(بمعنى أن لا تنقضوا فيه),أو أن تخبروهم,ثم ترفضوا معاهدتهم,فلما سمع الأمير معاوية هذا عاد بجنوده([1]).

والأمر الذي ينبغي أن نتمعن فيه هو أن الأمير معاوية لم يخالف نص المعاهدة,ولم يرد ذلك,لكن تصرفه هذا مخالف لروح المعاهدة ومعناها,وقد اعتبر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منه نقضا للعهد,ومنعوا أمير الجيوش منه.

البهتان

والبهتان هو أن تتهم بريئا بالإجرام عن عمد,وتنسب إليه من الذنب ما لم يفعله,وهو أيضا صورة من صور الكذب,بل إن القرآن الكريم سماه خيانة,وبعض البهتان لا وجود له أصلا,لكن يلصق بأحد على سبيل الإساءة إلى سمعة أحد,وقد سماه القرآن بهتانا,وهاتان الصورتان بالإضافة إلى كونهما كذبا تتنافيان مع الشرف,ولهذا فإن كل من يشارك في البهتان يعد خائنا وآثما.

في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قام أحد منافقي المدينة ويدعى طعمه بسرقة أحد الصحابة,ولما شك المسلمون فيه وسألوه أخبرهم أن الذي فعلها أحد المسلمين وسماه,ووصل الأمر إلى أن كاد السيف يستخدم,وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر,ودافع أهل المنافق عنه وأكدوا على براءته,وكاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بذلك,إلا أن الوحي الإلهي كشف الستار عن الأمر فجأة,وفي رواية أخرى أن أحد اليهود استأمن طعمه على درعه,فخانه,وأنكر ما فعل,وألقي بالدرع في بيت رجل

---

[1] سنن أبي داود – باب الوفاء بالعهد .

كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول:الله أكبر وفاء لا غدر وإذا هو عمرو بن عبسة فسأله معاوية عن ذلك,فقال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء قال فرجع بالناس.

آخر،وأمسك الناس بهذا الرجل،وفي النهاية وصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما هو ظاهر أمامه،فنزل الوحي([1]).على أية حال أيا كانت الواقعة التي حدثت فإن القاسم المشترك فيها هو أن هذه الآيات نزلت فيما يتعلق بتجريم البريء وتبرئة المجرم:

" إن أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما،واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما،ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم،إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما،يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول،وكان الله بما يعملون محيطا"(النساء:١٠٨).ثم يقول بعد ذلك :

"ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا"(النساء:١١٢).

انظر كيف بين الله في هذه الآيات سر الخيانة وسوء البهتان وبأسلوب جميل،إذ أكد أولا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العدل،ثم أمره أن لا يحمي الخائنين وألا يدافع عنهم،ثم قال إن من يخون هكذا فقد ارتكب إثما عظيما،وحرم من محبة الله،إذ أن هؤلاء يريدون الاستخفاء عن أنظار الدنيا خجلا مما فعلوا،فيلقون بذنوبهم على آخرين،ولا يستحيون من الله الذي هو معهم أينما كانوا،ويرى ما يفعلون،ولا تخفى عليه خافية مهما حاولنا إخفاءها،فإذا تأكد للناس من هذا لم يجرؤ أحد على اتهام أحد بهتانا،ثم بعد ذلك أخبره أن من يفعل هذا فقد ارتكب بهتانا وإثما عظيما.

كان من الرائج بين العرب قديما أن المرأة التي تعاشر عددا من الرجال تتخير أحدهم لتنسب إليه الطفل،أو ينسبون الطفل مجهول النسب للأزواج،وقد سمى الله هذا بهتانا،وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبايع المرأة التي تريد أن تسلم على ألا ترتكب مثل هذا الجرم مستقبلا :

" ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن " (الممتحنة : ١٢) .

إن مجرد إيذاء المسلم إيذاء ولو بسيطا يعد أمرا سيئا،فما بالك بالافتراء عليه ببهتان وإيذائه به.قال تعالى:"والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا " (الأحزاب : ٥٨) .

[1] جامع الترمذي – تفسير سورة النساء .

ونستطيع أن نعرف مدى سوء هذا البهتان من أن الذي يفتريه يعد فاسقا عند الله تعالى،ولا تقبل شهادته أبدا.

روي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من اتهم غلامه بالباطل وهو بريء ولم يرتكب ما يتهمه به فإن الله تعالى سوف يجلد هذا السيد على ظهره يوم القيامة ([1])،وكأن عقابه هو عقاب القذف بالباطل،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر أن من يتهم أحداً بما ليس فيه فقد بهته ([2])،أي أنه يجب تجنب هذا الأمر.

النميمة

النميمة هي أن يتناول اثنان فيما بينهما الحديث عن شخص ثالث بالصدق والكذب بهدف تحريض كل منهما ضده،وتقوية موقفهما،ولأن مثل هؤلاء الناس ينقلون الكلام عن أحد ما إلى الآخرين بما يثيرهم ضده ويخلق بداخلهم كراهية تجاهه،لهذا فإن القرآن الكريم أطلق على هؤلاء الناس الذين لا ينبغي أن يسمع لهم (مشاء بنميم)،ومن هنا فقد وضع الله مبدأ هاما هو أنه عندما يأتينا شخص بخبر عن شخص آخر فإن علينا أولا أن ننظر في أمر من ينقل الخبر،فإن لم يكن مؤمنا صادقا لا نسمع لما يقول،فلربما تسرعنا في تصديق قوله وبناء عليه يصدر عنا ما نندم عليه فيما بعد. قال تعالى:

"يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"(الحجرات:٦٠).

والأمر الذي يتطلب التمعن في هذه الآية هو أن الله تعالى قد أطلق لقب (فاسق) على الذي ينشر الأخبار الكاذبة،ولأن الهدف من هذا السوء الأخلاقي هو زرع الخلاف بين شخصين أو بين الأعزاء والأقارب والأصدقاء والأحباب في الغالب،لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عنه:"هل أخبركم بمن هم أسوأ الناس،إنهم

---

[1] مسند أبي داود – كتاب الأدب .

[2] المرجع السابق،حدثناعبد الله بن مسلمة القعنبي ثناعبد العزيز يعني ابن محمد عن العلاء،عن أبيه،عن أبي هريرة أنه قيل:يا رسول الله،ما الغيبة؟قال:ذكرك أخاك بما يكره قيل:أفرأيت إن كان في أخي ماأقول؟ قال:إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته،وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته.

المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة (مسند أحمد – الجزء السادس – صـــ ٤٥٩ – عن أسماء بنت يزيد).

وقد جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم مر ذات يوم بالقبور فقال أن واحدا منهم يعذب لأنه كان يمشي بين الناس بالنميمة.

"ألا أنبئكم ما الغضة،هي النميمة بين القالة بين الناس".

والغضة في اللغة تعني التفريق والسحر،ولهذا إذا أخذناها في هذا الحديث علـى معنى التفريق فإنه يثبت منها بوضوح أن التفريق بين شـخصين يدخـل فـي حقيقـة النميمة،لكننا إن حملناها على السحر فإن هناك مشابهة أيضا بين السحر والنميمة،إذ أنـه عن طريق السحر يفرق بين شخصين،وخاصة بين الزوجين،ولهذا جـاء فـي القـرآن الكريم:

" فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه " (البقرة : ١٠٢) .

وعادة ما يقول المفسرون أن وسيلة هذا التفريق هو السحر الذي كـان النـاس يتعلمونه من هاروت وماروت،لكن بعض العلماء يرون أن هذا الهدف يتحقق بالنميمـة. على أية حال يتحقق هذا الهدف، بنقل كلام أحد إلى آخر،على سبيل المثال يقول لـه إن فلانا يقول عنك كذا وكذا،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته:"لا يبلغنـي أحد من أصحابي عن أحد شيئا،فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر".

لكن هذا الكلام الذي ينقل عادة ما يكون سيئا وغير مقبول أو محبـوب،وفـي بعض الأحيان يكون الذي ينقل الكلام معتقدا ومؤمنا بأنه كلام سيء،وفي بعض الأحيان يتضايق الشخص الذي ينقل إليه الكلام منه،وفي بعض الأحيان يرى الناس هذا الكـلام سيئا،المهم أن هذا الكلام الذي يتم نقله يكون في نظر الآخرين بطريقة أو بأخرى كلامـا سيئا غير مقبول،والذين ابتلوا بهذا الخلق السيئ يبحثون دائما عن الأمور الممقوتة حتـى ينشروها بين الناس ويثيرون الفتنة،ولهذا يشبه العرب مثـل هـذا الشـخص بحمـال الحطب،أي مثلما يجمع حمال الحطب الأخشاب والحطب ليبيعها للناس ليستخدموها فـي الأغراض المختلفة،كذلك الشخص الذي يمشي بالنميمة بين الناس يبحث عـن الأمـور الممقوتة ويجمعها ليهيئ بذلك وقودا لنار الفتنة والفساد.ولذلك يرى بعض المفسـرين أن الله تعالى قد أطلق على زوجة أبي لهب لقب حمالة الحطب لأنها كانت تمشي بالنميمـة بين الناس.

وبعض الناس يسترقون السمع،أي يتوارون هنا وهنـاك ليسـمعوا مـا يقولـه الآخرون،ثم ينقلونه لآخرين،ومثل هؤلاء يطلق عليهم في اللغة(قتات)،وقال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لا يدخل الجنة قتات"([1]).

وهؤلاء يضيفون على ما يسمعون من عند أنفسهم ما يجعله أكثر جاذبيـة،ثـم يقصونه بأسلوب مؤثر حتى يؤثر في الآخرين،ولهذا يطلق على النميمـة فـي اللغـة العربية(وشاية)وهي أصلا تعني الزخرفة والنقش.هذا ويسعى النمامون مجتـهدين مـن أجل نقل الكلام هنا وهناك،ولهذا يطلق على النميمة أيضـا(سـعاية)،وتعنـي السـعي مجتهدا.ورغم أن هذا العمل يتم باللسان غالبا لكنه ليس مقتصرا عليه،إذ يمكن أن تكـون النميمة بالكتابة والرمز والإشارة،وهو أيضا ليس مقصورا على الأقوال فقط،وإنما يتعداه إلى العمل أيضا،بمعنى أنه لا يقال لشخص ما إن فلان يقول كذا وكذا عنك فقط،وإنمـا يقال له أيضا إن فلانا يقوم بالعمل الفلاني.

ويعلم من هذا التفصيل أن نقل الكلام من شخص إلى آخر باللسان ليس تعريفـا كاملا للنميمة،وإنما التعريف الجامع لها هو نقل كلام شخص أو عمله إلى شخص آخـر بقصد إساءة الظن به.

ولهذا فإن الطريقة الوحيدة لتجنب النميمة أن لا يتحدث شخص عـن حـالات شخص آخر طالما لم تكن هناك ضرورة جائزة لذلك،والعمل بما قاله رسول الله صلـى الله عليه وسلم "تركك ما لا يعنيك" يحقق هذا الغرض.

والنميمة فتنة تكـون نتائجها في بعض الأحيـان خطيرة للغاية،وقد تصل إلـى القتل و سفك الدماء،وهي مجموعة من الذنوب،ففيهـا الغيبـة والبهتـان،والتجسـس والكذب والخـداع والنفـاق،وعناصر أخلاقية سيئة أخرى،ولهذا فإن النميمة تعتبر بناء على العناصر الداخلة فيها ونتائجها من الكبائر،ومع ذلك فقد صـارت جـزءا مـن المجتمع ومدنيته،فإذا كـان بعض النـاس يتملـق الأمـراء والحكـام فـي أبلطتـهم بالنميمة،فإن عامة الناس أيضا يشتغلون بالنميمة بين بعضهم البعض في مجالسهم علـى سبيـل التفريح والترفيه،ولهذا فقد انتشر هذا المرض الأخلاقي بكثرة حتى أصبح أمـرا

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب في القتات .

حدثنا مسدد وأبو بكر بن أبي شيبة قالا:ثنا أبو معاوية،عن الأعمش،عن إبراهيم،عن حذيفة قال:قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا يدخل الجنة قتات .

عادياً،ولا يراه الناس كبيرة من الكبائر،وهذه هي النقطة التي أكد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة حين خرج مرة من حديقة بالمدينة فسمع صوت رجلين يعذبان في قبريهما فقال:"أنهما يعذبان،وما يعذبان في كبير في حين أنهما أذنبا ذنبا كبيراً،أما أحدهما فكان لا يستبرأ من بوله،وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة بين الناس" ([1]).

وقد أفاض المحدثون في شرح هذا الحديث الشريف حتى قال بعضهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنها ليست كبيرة في البداية،ولكن الوحي أخبره فيما بعد أنها من الكبائر،وأنها نسخت وأصبحت من الكبائر. وقد استنتج المحدثون كثيرا من مثل هذه الدقائق اللطيفة،في حين أن الحديث لا يعني أكثر من أن هذين العيبين الأخلاقيين قد انتشرا بشكل جعل الناس يعتقدون أنهما من الأمور العادية،بينما هما ليسا كذلك،وإنما يدخلان في الكبائر والموبقات.

ونجد مثل هذا في القرآن الكريم أيضا،ومنه ما انزل رب العزة فيما يتعلق بحادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

"إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم،وتحسبونه هينا،وهو عند الله عظيم" (النور:١٥).

ويظهر من هذا أن الأحاديث التي تتعلق بإساءة سمعة الآخرين والتشهير بهم يتصورها الناس أمورا عادية بسبب الرغبة العامة فيها،بينما هي في الحقيقة ليست أمورا عادية.

كما يظهر من هذا الحديث ما يتعلق بكشف عورات الناس وإظهار عيوبهم،و مثل هذا السوء الأخلاقي نجده في الأشخاص أصحاب الطباع الدنيئة المبتذلين الذين لا همة لديهم ولا يستحقون الثقة بهم،فإذا لم يجدوا وسيلة للكراهية والانتقام،أو الحصول على مكانة معينة لدى الوجهاء،أوالاندماج مع المجتمع،فإنهم يلجأون إلى النميمة،و

---

[1] البخاري – كتاب الأدب – باب النميمة من الكبائر .

حدثنا عثمان قال:حدثنا جرير،عن منصور،عن مجاهد ،عن ابن عباس قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بحائط من حيطان المدينة،أومكة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(يعذبان،وما يعذبان في كبير). ثم قال:(بلى،كان أحدهما يستتر من بوله،وكان الآخر يمشي بالنميمة).

لهذا فـــإن الطريقة الوحيدة لتجنب شرورهم و فسادهم هو أن لا يوثق فيما يقولون ، ولا يسمع له،وقد أمر القران الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتباع هذه الطريقة فقال: "ولا تطع كل حلاف مهين،هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم"(القلم:١٢).

الغيبة وفحش القول

إن من أكبر مقاصد الشريعة هو الحفاظ على كرامة وأعراض المسلمين،والإبقاء على العلاقة الطيبة بينهم،ولهذا فإن المساوئ الأخلاقية التي تمس أعـــراض المســـلمين وتسئ إلى العلاقة فيما بينهم حرمتها الشريعة الإسلامية،وقد وضحها الله تعالى في مكان واحد في القرآن الكريم بصفة عامة فقال: "يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم مــــن قـــوم عسى أن يكونوا خيرا منهم،ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منـــهن،ولا تلمـــزوا أنفسكم،ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان،ومن لم يتب فـــأولئك هـــم الظالمون،يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن،إن بعض الظـــن إثم،ولا تجسســـوا ،ولا يغتب بعضكم بعضا،أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه،واتقـــوا الله إن الله تواب رحيم" (الحجرات:١٢).

ويثبت من كل هذه الأحكام الأخلاقية أنه يجب على المسلمين أن لا يعملوا علـى كشف عيوب إخوانهم،وأكثر الطرق التي يكشف بها عيوب المسلمين هو الغيبة،وقد كتب الإمام الغزالي يقول أنه من الممكن كشف عيوب الآخرين بالتعريض والتصريح والرمز والإشارة،والكتابة والمحاكاة والتقليد وغيرها من الطرق،ومن الممكن العيب على نســب الشخص وأخلاقه ودينه ودنياه وجسمه وملابسه وغير ذلك،ولهذا فإن الله تعالى منع مـن كل هذا وشدد عليه،وشبهه بأكل لحم الأخ الميت،وهو تشبيه تظهر منه وجوه كثيرة مـن وجوه البلاغة:

١- إن لحم الإنســـان حرام بسبب تكريمـــه وحرمته،ولهذا فـــإن كل ما يســـيء إلـــى عرضه وكرامته وحرمته حرام مثل حرمة لحمه.

٢- في المواجهات أثناء المشاجرات و العراك ينهش بعض الناس في شدة غضبه لحـــم خصمه،ورغم أن هذا أيضا فعل سيء لكنه يحمل نوعا من الشجاعة،ولكن إذا قام أحـــد الخصمين بنهش لحم خصمه بعد موته فإن ذلك يعدّ تصرفاً جباناً،بالإضافة إلى كونه أمر كريه،وبنفس الطريقة إذا قام شخص بتوجيه الإهانات المتواصلة إلى شخص آخر وجـها لوجه فإن هذا أمر غير مقبول,إلا أنه لا جبن فيه,ولكن إذا قام هذا الشـــــخص بتوجيـــه

الإهانة إلى هذا الشخص من وراء ظهره وفي غيابه فإن هذا يعد تصرفا جبانا,ومثله مثل نهش لحم الخصم بعد قتله .

٣- لا ينظر الناس عادة إلى جثة أخيهم الميت من شدة حبهم له,ولا يتحملون ذلك,ولهذا فإن الشخص الذي ينهش لحم أخيه الميت يدل على بغضه وعداوته وقسوة قلبه,وهو ما يناقي العطف والرحمة التي يريد الإسلام أن يخلقها بين أتباعه .

٤- يجوز أكل لحم الميتة حين الضرورة القصوى,في مثل هذه الحالة إذا وجد المضطر شاة ميتة فإنه يأكلها,ولا يجب أكل لحم الإنسان,ولهذا فإن الغيبة لا تكون جائزة أبدا إلا في وجود الضرورة الشرعية والأخلاقية أو السياسية,وفي مثل هذه الحالة أيضا ينبغي تجنب الغيبة علانية بقدر المستطاع,واللجوء إلى الرمز والإشارة فقط,وطبقا لهذا التشبيه القرآني فقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث متعددة سوء الغيبة بأسلوب غاية في البلاغة .

جاء في أحد الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم قال:مررت في ليلة المعراج بأناس أظافرهم من حديد,وينهشون بها وجوهم وصدورهم,فسألت جبريل من هؤلاء؟فقال هؤلاء هم الذين يأكلون لحوم الناس,وينهشون أعراضهم([1]).

وهناك تناسب بين الأعمال وثوابها أو عقابها,ولأن هؤلاء الناس كانوا ينهشون لحوم الناس,أي يغتابونهم,ولهذا كان عقابهم في عالم البرزخ أن ينهشوا لحوم أنفسهم.ذات مرة فاحت رائحة كريهة,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:أتعرفون ما هذه الرائحة,إنها رائحة الذين يغتابون المسلمين([2]).

والتناسب بين الأعمال وعقابها وثوابها واضح في هذا الحديث أيضا,إذ أن الميتة غالبا ما تكون رائحتها كريهة,وهؤلاء الناس كانوا يأكلون لحوم الناس,ولهذا فإن هذه الرائحة نتيجة لأكلهم الميتة.

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب في الغيبة .

حدثنا ابن المصفى,ثنا بقية وأبو المغيرة قالا:ثنا صفوان قال:حدثني راشد بن سعد,وعبد الرحمن بن جبير,عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم,فقلت:من هؤلاء يا جبريل؟قال:هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم.

[2] أدب المفرد – باب الغيبة .

وهناك دقيقة أخرى في هذا الحديث وهي أن الهدف من الغيبة يكون التشنيع والتشهير بالآخرين وتتبع عيوبهم,ولهذا فإنه مثلما ينشر هؤلاء المغتابون عيوب الناس,فإن رائحة نجاسة عملهم وقذارته تفوح وتنفر الناس منهم في الدنيا,وقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدقيقة في حديث آخر بغير تشبيه أو تمثيل فقال:أيها الناس يا من آمنتم بلسانكم,لكن الإيمان لم يدخل إلى قلوبكم,لا تغتابوا المسلمين,ولا تبحثوا عن عيوبهم,لأن من يتتبع عيوب الناس تتبع الله عيوبه,ومن تتبع الله عيبه فضحه في عقر داره"[1].

والغيبة من الناحية اللغوية هي الحديث عن عيوب شخص في غير وجوده,ولكن ليس هناك قيد على اغتياب الشخص في غير وجوده في التعليم الديني,ولهذا يفهم الناس أنهم إذا كشفوا عيوب شخص ما ومساوئه فإن ذلك ليس بغيبة,لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه السابق يبطل هذا الكلام .

وفي حديث آخر أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة,فقال:أن تذكر أخاك بما لا يحب,فقيل:فإن كان فيه ما نقول,فقال:إن كان العيب فيه فقد اغتبته,وإن لم يكن فيه فقد بهته " [2] .

ويعلم من هذا أن بيان عيوب أحد في غير وجوده ليس جزءا ضروريا من تعريف الغيبة،بل إنه إذا ذكرت عيوب الشخص أمامه فإنه من الغيبة أيضا،ولكن من حيث اشتقاق هذا اللفظ فإن الغيبة في نظر أهل اللغة هي فحش القول الذي يكون عن أحد من خلفه،أي في غير وجوده،أما ذكر عيوب أحد أمامه فلا يعدونه غيبة،وإنما يدخل في السب و الشتم .

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب في الغيبة .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة،ثنا الأسود بن عامر،ثنا أبو بكر بن عياش،عن الأعمش،عن سعيد بن عبد الله بن جريج،عن أبي برزة الأسلمي قال:يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه،لا تغتابوا المسلمين،ولا تتبعوا عوراتهم،فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته،ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته.

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب في الغيبة .

حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي،ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن العلاء،عن أبيه،عن أبي هريرة أنه قيل:يا رسول الله،ما الغيبة؟قال:ذكرك أخاك بما يكره قيل:أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟قال:إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته،وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته.

وهكذا فإن الغيبة ليست مقصورة على اللسان فقط،وإنما يمكن الاغتياب باليد والرجل والعين أيضا،فمثلا أن تقوم بتقليد شخص ما كأن يكون أعرجا،فإذا قلدت مشيته لإظهار عيبه فقد اغتبته،وذات مرة قلدت السيدة عائشة رضي الله عنها شخصا ما،فأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم امتعاضا شديدا([1]).

وكذلك فإن إظهار عيب شخص بإشارة العين والحاجب يعد غيبة،وقد بين القرآن الكريم في آيات عديدة هذه الغيبة الخفية فقال :

" هماز مشاء بنميم " (القلم : ١١) .

" ويل لكل همزة لمزة " (الهمزة : ١) .

وقد ذم الله تعالى في هذه الآيات تلك الطرق الخفية والجارحة للغيبة،ولا يمكن توضيح هذا كله بالترجمة وإنما ينبغي الاستعانة في هذا بما قاله أهل اللغة فيما يلي:

١-الهمز:الإساءة إلى أحد أمامه،واللمز:الإساءة إليه من خلفه.

٢-الهمز:الطعن في نسب الناس بصفة خاصة.

٣-الهمز:اغتياب أحد بإشارة اليد،واللمز:اغتيابه باللسان.

٤-الهمز:الاغتياب باللسان،واللمز:الاغتياب بإشارة العين.

٥-الهمز:أن تجرح جليسك بألفاظ سيئة.

٦-اللمز:أن تجرح جلسائك بإشارات من عينك أو يدك أو حواجبك.

ويعلم من هذا الشرح إلى أي مدى تتسع دائرة الغيبة .

إن بيان عيوب أحد يعد من الناحية الأخلاقية أمرا طيبا،لكن الأخلاق تقتضي أن يتم توضيح عيوب الناس حتى ينتبهوا ويندموا،وإذا منعنا الحديث عن مساوئ السيئين منعا تاما فلن تكون هناك طريقة للقضاء على مساوئهم،ولم يغفل الإسلام عن هذه النقطة،وقد بين القرآن الكريم مساوئ الكفار والمشركين والمنافقين علانية،لكن لم يذكر أحدا باسمه،وإنما وضح صفاتهم بشكل عام ودون تصريح وبصيغة المجهول كأن يقول من يكذب أو يكفر سيكون مآله كذا وكذا،وفائدة التعبير بهذه الصورة أنه يتم إظهار مساوئ الأشرار من جانب،ومن جانب آخر لا يسيء إلى أحد بذكر اسمه أما كبار الكفار ورؤوسهم الذين ذكر القرآن الكريم فذلك لأن عيوبهم ومساوئهم كانت واضحة أمام الناس جميعا .

---

[1] المرجع السابق .

ومع ذلك فهناك بعض المواضع في المعاملات أحيانا يقتضي الأمر معها نوعا من التخصيص،ومثل هذه المواضع وضحها القرآن الكريم والحديث الشريف،ولهذا نرى الجزء السادس من القرآن الكريم يبدأ بقوله تعالى :

"لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما"(النساء:٤٨).

والمراد أن الله تعالى لا يحب أن نجهر بعيب أحد وسوء أخلاقه،لكن يحق للمظلوم أن يبين الظلم الذي وقع عليه للناس،وأن يفضح الأفعال الظالمة التي يرتكبها الظالم،والله يسمع ويعلم،وسوف يعاقب الظالم على سوء عمله.

وجاء في الحديث الشريف أن شخصا أراد المثول عند رسول الله صلى الله عليه و سلم،فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:بئس أخو العشيرة هذا،ولكن عندما اقترب هذا الشخص تحدث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل كرم ولطف"[1]،ويعلم من هذا أنه يجوز تعريف الناس بشر وفساد شخص ما وإنقاذهم منه،وذلك بتوضيح أحواله.إذا فإن إظهار العيوب بنية خدمة الناس وتقديم الخير لهم،أو لتحقيق أمر شرعي أو أخلاقي أو حضاري لا يتحقق بدونه لا يمكن أن نسميه غيبة،وإذا سميناه غيبة فإن الشرع يجيزها،وقد حدد الإمام الغزالي هذه الأهداف بستة صور هي:

١- الاستغاثة من ظلم الحاكم،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لصاحب الحق مقالا.

٢- القضاء على المفاسد الدينية والأخلاقية،أي بهدف المحاسبة(ولهذا فإن القرآن الكريم فضح مساوئ الكفار والمنافقين علانية).

٣- طلب الفتوى،ولهذا فإن السيدة هند بنت عتبة اشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بخل أبي سفيان،واستمع إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابها الإجابة المناسبة.

---

[1] البخاري – كتاب الأدب – ما يجوز من اغتياب أهل الفساد و الريب .

حدثنا صدقة بن الفضل:أخبرنا ابن عيينة:سمعت ابن المنكدر:سمع عروة بن الزبير:أن عائشة رضي الله عنها أخبرته قالت:استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(ائذنوا له،بئس أخو العشيرة،أو ابن العشيرة).فلما دخل ألان له الكلام،قلت:يا رسول الله،قلت الذي قلت،ثم ألنت له الكلام؟ قال:(أي عائشة،عن شر الناس من تركه الناس،أو ودعه الناس،اتقاء فحشه).

٤- إنقاذ الناس من شرور ومفاسد أحد،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شخص ما(بئس ابن العشيرة).

٥- أن يشتهر أحد بلقب ما يظهر عيبه،ولكن نظرا لاشتهاره به لم يعد يغضبه،مثل الأعمش،الأعرج،ولأن الوصفين يميزانهما فلا يستاءان منهما،وقد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد الصحابة بقوله:(ذو اليدين).

٦- إظهار مفاسد وعيوب أولئك الذين يجهرون بالفسق والفجور،حتى ينتبهوا ويصبحوا عبرة لغيرهم،مثل أن تقول للمخنث أنه مخنث.

ذو الوجهين

عندما يحدث خلاف بين شخصين فإن شخصا آخر يستطيع أن يحتفظ بعلاقات معهما بصدق وإخلاص،ولا يوجد في مثل هذه العلاقة ما نطلق عليه تعدد الوجوه(ذو الوجهين)بمعنى أن يصبح صديقا للاثنين دون أن يعمل على تخريب العلاقة بينهما بنقل كلام كل منهما إلى الآخر،إذ أن مثل هذا العيب أسوأ من النميمة،لأن النمام ينقل كلام أحد إلى آخر وفقط،أما ذو الوجهين فإنه ينقل كلام الاثنين.

وتعدد الوجوه هذا ليس مقصورا على نقل كلام الأطراف المختلفة إلى بعضها،وإنما على سبيل المثال إذا مدح رجل آخر في وجهه،فإذا ما افترقا هجاه فإن هذا يدخل في باب تعدد الوجوه أيضا وهي واحدة من خصائص النفاق،ولهذا كان الصحابة الكرام يطلقون عليه نفاقا .

ذات مرة قيل لسيدناعبد الله بن عمر رضي الله عنه إننا نذهب عند الحكام والأمراء،فنقول شيئا،ونخرج من عندهم فنقول شيئا آخر،فقال:كناعلى عهد الرسالة نعد هذا نفاقا([1])،ويبين القرآن الكريم أن هذه من علامات النفاق فقال:

"وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا،وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معاكم إنما نحن مستهزءون"(البقرة:١٤).

ويقال لهؤلاء المنافقين أخلاقيا ذوي الوجهين باعتبار الناحية الاجتماعية والدنيوية.

---

[1] صحيح البخاري – باب ما قيل في ذي الوجهين.

وقد جاء وعيد شديد في الأحاديث الشريفة لهؤلاء،على سبيل المثال يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أسوأكم عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذي يكون عند بعض الناس بوجه،وعند البعض الأخر بوجه آخر"([1]).

وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم:"من كان ذا وجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وفي فمه لسانان"([2])،وهو تمثيل لعادلته الذميمة،إذ يعيش مع الناس بوجهين ولونين.

سوء الظن

سوء الظن نوع من الوهم الكاذب الذي تكون نتيجته أن يشعر الشخص بشك وسوء نية فيما يقوم به الآخرون،ولا تبدو له حسن النية في تصرف أي شخص آخر،وينسب إلى الآخرين ما لم يقولوا،ويشعر به الآخرون أيضا فيخافونه،وتنشأ الكراهية والعداوة بين الطرفين،ولهذا أكد الله تعالى على عباده أن يرجعوا عن هذا السوء:"يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن إثم"(الحجرات:١٢).

وحين أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تجنب سوء الظن أكد معه على منع البغض والحسد ،وعلى التجسس على حياة الآخرين،لن كل هذا يكون إما بمثابة أسباب في سوء الظن أو نتيجة له،فقال صلى الله عليه وسلم:"تجنبوا سوء الظن،لأن سوء الظن أكبر الكذب،ولا يتجسس أحدكم على الآخر،ولا يتعدى أحدكم على الآخر أو يطمع فيه،ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا"([3]).

---

[1] البخاري – كتاب الأدب – باب ما قيل في ذي الوجهين،وصحيح مسلم ومالك

حدثناعمر بن حفص:حدثناأبي:حدثنا الأعمش،حدثنا أبو صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم قال:(تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين،الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه).

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب ذي الوجهين.

حدثناأبو بكر بن أبي شيبة، ثناشريك،عن الركين بن الربيع،عن نعيم بن حنظلة،عن عمار قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار.

[3] صحيح البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك – باب تحريم الظن.

حدثنابشر بن محمد:أخبرناعبد الله:أخبرنا معمر،عن همام بن منبه،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إياكم والظن،فإن الظن أكذب الحديث،ولا تحسسوا،ولا تجسسوا،ولا تحاسدوا،ولا تدابروا،ولا تباغضوا،وكونوا عباد الله إخوانا).

ومن المناسب أيضا أنه إذا كان هناك شخص يقوم بعمل ما،أو هو في وضع مما يجعل الآخرين يسيئون به الظن،فإن عليه أن يعمل على إزالة سوء الظن هذا،حتى لا يقع الآخرون في فتنة،وقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المثال على هذا،ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفا،وفي الليل حضرت إحدى أمهات المؤمنين للقائه صلى الله عليه وسلم،وخرج رسول الله لتوصيلها،وفي الطريق مر به قدرا اثنان من الأنصار،فلما رأوا صلى الله عليه وسلم مع سيدة اعتقدا بأنهما جاءا في وقت غير مناسب،وأرادا العودة،لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداهما من فوره، وقال:هذه زوجتي فلانة،فقالا:يا رسول الله،وهل نظن بك إلا خيرا،فقال صلى الله عليه وسلم إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق " ([1])

النفاق و المداهنة

النفاق والمداهنة علامتان على انحطاط الأخلاق والدناءة والذلة،وهما في نفس الوقت صورة من صور الكذب،كما أنهما يضران من تتم منافقته ومداهنته،والمنافق المداهن يرتكب ثلاثة ذنوب معا،أولها أنه يمدح أحدا بما لا يطابق حقيقته،وهو كذب،وثانيها هو أنه في قرارة نفسه لا يعترف بصحة ما يقوله في مدح الآخر،وهذا نفاق،وثالثهما هو أن يذل نفسه ويسقط من نظر الآخرين بمداهنة ومنافقة أصحاب النفوذ من أجل مصلحة دنيوية،وهو ما ينم عن دناءته وحقارته .

أما من يتم مدحه مدحا كاذبا فإنه يصاب بأمرين سيئين،أولهما الغرور،وثانيهما سوء الفهم فيما يتعلق بنفسه،فهو يفرح بسماع مدحه،ثم يغتر بما قيل فيه،ويتكبر على الآخرين،ولكثرة ما يسمع من مدح لنفسه فإنه يصبح على يقين أنه بالفعل مثل ما يقال فيه،ويتوقع أن يعامله الآخرون على هذا الأساس،وهكذا فإن المساوئ المضحكة التي تتولد في الملوك والأمراء والأثرياء والوجهاء بسبب المنافقة والمداهنة نجد لها نظيرا في كل الأدوار التاريخية .

---

[1] صحيح مسلم – باب انه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة يقول هذه فلانة – صحيح البخاري تفسير سورة آل عمران . حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب،حدثنا حماد بن سلمة،عن ثابت البناني،عن أنس:أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه،فمر به رجل فدعاه،فجاء،فقال:يا فلان!هذه زوجتي فلانة.فقال:يا رسول الله!من كنت أظن به،فلم أكن أظن بك،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم.

وقد رسم القرآن الكريم صورة لفرقة من المنافقين واليهود وأخبر بمصيرهم:

" لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم " (آل عمران : ١٨٨) .

وسبب نزول هذه الآيات خاص لكنه عام باعتبار آثره([1]) ويعلم منه أن الغرور بما تفعل وحب المدح بما لم تفعل أمر مشين بحيث يصعب النجاة من عذابه بغير توبة وطبقا لمبادئ القرآن فإن من يساعد أحدا أو يعاونه في ارتكاب ذنب يكون مذنبا هو الآخر وهؤلاء الذين يقبلون هذا المدح الكاذب شركاء في الذنب بدرجة أو بأخرى وهو ما نعرف تفصيله من أحاديث نبوية كثيرة ذات مرة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يمدح آخر مبالغا في مدحه فقال لقد حطمته "([2]).

وذات مرة امتدح رجل صاحبه فبالغ في مدحه فقال صلى الله عليه وسلم لقد ضربت عنق صاحبك فإن كنت ولا بد ممتدحا أحدا فقل له إني أظن كذا بشرط أن يكون معلوما له أنه هكذا فعلا وأن لا تحكم على الغيب حكما قطعيا "([3]).

والغرض من هذا أن لا يغتر أحد إذا ما مدح بشكل مبالغ فيه إذ سيفسد كلية بعدها وبنفس الطريقة لا يجب إصدار حكم قطعي فيما يتعلق بآخر إذ أنه لا يعرف ما بداخل القلوب ولا الغيب إلا الله .

وهناك أمر آخر هو أن مدح أحد في وجهه قد يؤدي إلى أن يداخله شيء من الغرور وتتراجع لديه العين التي ترقب العيوب والمحاسن ذات مرة مدح رجل سيدنا عثمان بن عفان في وجهه فنثر سيدنا المقداد الصحابي التراب في وجهه وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لاقيتم المادحين فانثروا التراب في وجوههم"([4]) وجاء

---

[1] فتح القدير للشوكاني .

[2] سنن أبي داود – كتاب كراهية التمادح .

حدثنا أحمد بن يونس ثنا أبو شهاب عن خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلا أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له قطعت عنق صاحبك ثلاث مرات ثم قال إذا مدح أحدكم صاحبه لا محالة فليقل إني أحسبه كما يريد أن يقول ولا أزكيه على الله.

[3] صحيح البخاري ومسلم و أبو داود – الباب المذكور .

[4] باب يحثى في وجوه المداحين .

حدثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار واللفظ لابن المثنى قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور عن إبراهيم عن همام بن الحارث أن رجلا جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا

في أدب المفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى المسجد ذات مرة فرأى رجـــلا يصلي،فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هو؟،فأخذ المسئول يمدح في الرجل،فقال صلى الله عليه وسلم لا تقل هذا أمامه فتفسده .

البخل

والبخل كذلك أحد العيوب الأخلاقية الأساسية،أي أنه عيب أخلاقي تترتب عليـه عيوب أخلاقية كثيرة،فالخيانة وعدم الأمانة وفقـدان الشـهامة،والقسـوة فـي بعـض الأحيان،وسوء السلوك والدناءة تنتج عن البخل،والحرص والطمع وضيق الأفـق وقلـة الهمة ودناءة الطبع وغيرها من العيوب الكثيرة ما هـي إلا أغصـان مختلفـة لجـذع واحد،ولما جاء الإسلام كان أول شيء فعله بعد القضاء على الكذب هـو قطـع دابـر البخل،وفرض إطعام الجائع وكسوة العاري ومساعدة المحتاج ورعاية اليتيم ومسـاعدة المدينين من جميع المسلمين،وأطلق على مجموعة الفروض هذه الزكاة ومصارفها،وهـي الركن الثاني للإسلام بعد الصلاة،حين قص رسول الله صلى الله عليه وسلم على السيدة خديجة رضي الله عنها حال نزول جبريل عليه كان من بين الأدلة التي أكدت بها السيدة خديجة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم على يقينها بنبوته ما قالت:"يـا رسول الله،إنك تعطي القرابة حقها وتـؤدي ديـن المديـن،وتعيـن الفقـراء وتكـرم الضيف،وتعين على مصائب الحق"(صحيح البخاري-باب بدء الوحي).

وعند التمعن تجد أن الشيء الخاص في كل هذه الصفات المبدئية للنبوة أن النبي لا يكون بخيلا،وإلا لما كانت كل صفات الجود هذه من صفات النبوة .

والبخل واحد من العيوب الناتجة عن عدم الاعتقاد القلبي في الثواب والعقـاب على الأعمال،لأن الذي لا يعتقد في الثواب والعقاب على الأعمال لا يمكـن أن يعطـي ماله الذي كسبه من جهده لأحد آخر بسهولة،وسورة المدثر من أوائل السور التي نزلـت في بدايات النبوة،وبها حوار مع أهل النار حين يسألون:لماذا أدخلتم النار؟فيقولون:كنـا لا نصلي ولا نطعم المسكين،وكنا نساعد المعارضين لدين الحق في الاعتراض عليه،وكـان هذا كله لأننا لم نكن على يقين من الثواب والعقاب على الأعمال :

على ركبتيه،وكان رجلا ضخما،فجعل يحثو في وجهه الحصباء،فقال له عثمان:مـا شـأنك؟فقـال:إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إذا رأيتم المداحين،فاحثوا في وجوههم التراب .

" ما سلككم في سقر.قالوا لم نك من المصلين.ولم نك نطعم المسكين.وكنا نخوض مع الخائضين.وكنا نكذب بيوم الدين"(المدثر:٤٦).

ويعلم من هذا أن صفة البخل تؤدي بصاحبها إلى جهنم.وأنها صفة تنتج بالضرورة عن عدم الاعتقاد بالثواب والعقاب على العمل.لأنه كما قيل من لا يعترف بالثواب والعقاب الديني لا يمكن أن يتعامل بكرم وسخاء مع الآخرين.وهذا هو المعني الذي جاء في سورة(الماعون)وهي من السور المكية الأولي.قال تعالى:

" أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم.ولا يحض على طعام المسكين"(الماعون:٤).

وهذا هو السبب في أنه لو تعامل أحد بكرم وسخاء دون أن يكون لديه يقين على الثواب والعقاب لا يقبل منه هذا.لأن هذا السخاء غير مبني على الإخلاص وحسن النية واللذان يمثلان الشرط الأول للقبول.فلو أعطى الرجل البخيل لأحد شيئا فإنه يتوقع أن يحصل منه على شيء بالمقابل في هذه الدنيا.وحيثما يعلم أن توقعه هذا في غير محله لن يكون مستعدا لإنفاق مليم واحد.ومعنى هذا بوضوح أنه لا يقين في قلبه أن عند الله جزاء كل عمل طيب.وأنه لا يضيع أبدا.

وفي سورة مكية أخرى ذكر الله تعالى رجلا رزقه قليل.وهو دائم الشكوى من الله بأنه يذله.فيقول الله:"كلا بل لا تكرمون اليتيم.ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما.وتحبون المال حبا جما"(الفجر:٢٠).

ونجد في الآيات السابقة عدة أمور.لكنها شرح لصور مختلفة من البخل.وقد رسمت سورة(الهمزة)صورة للبخيل الذي يعد المال كأنه الإكسير للحياة الخالدة.ويتصور أنه بالثروة سينال الحياة الأبدية.وهذا الشيء لا يمكن أن يفارقه.في حين أن هذا التصور غير ناضج.يقول تعالى :

"الذي جمع مالا وعدده.يحسب أن ماله أخلده.كلا لينبذن في الحطمة"(الهمزة:٢-٤).

وهكذا فإن جمع المال وكنزه وعدم إنفاقه في طريق الخير يجعل صاحبه يقع تحت طائلة التهديد الذي جاء في القرآن بان جلده سينزع من على جسده :

"كلا إنها لظى.نزاعة للشوى.تدعومن أدبر وتولى.وجمع فأوعى"(المعارج:١٨).

وينسي البخيل أن المال والثروة ليسا مقصودين لذاتهما،وإنما هما وسيلة للحصول على الأشياء.فقوالب الذهب والفضة لا يمكن أن تتحول من نفسها إلى خبز وملابس

وبيوت،ولهذا فإن لا فائدة من كنزها وعدم إنفاقها في تحقيق الأهداف السامية،إنه لا يجمع لنفسه درهما ودينارا،وإنما يهيئ بذلك وصمة العار على صدره وجبينه.قال تعالى:
" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم،يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون "(التوبة : ٣٤).

وهذا البخيل لا يدرى أن الذهب والفضة ليسا ثروة الفرد،وإنما ثروة الجماعة،ويجب أن يستمرا في الحركة والدوران،وأن إيقافهما وكنزهما يناقي ما يريده الله تعالى،كما يضر بالجماعة التي هو أحد أعضائها :

" ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم،بل هو شرا لهم،سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة "(آل عمران:١٨٠).

أي أن الثروة التي جعل منها ببخله عقدا حول عنقه ستبدو في عالم المثال يوم القيامة كأنها عقد في عنقه حقيقة،وقد جاء في الحديث الشريف أن هذا المال سيكون بمثابة ثعبان سام حول عنقه "([1]).

والبخيل لا يحب الله ولا أعمال الخير أبدا،إذ أن محور حبه هو المال،ويعده هدف الحياة.يقول الله تعالى إن أمثال هؤلاء الناس سيحرمون ثروة محبتي :

" والله لا يحب كل مختال فخور،الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل "(الحديد:٢٤).

والذي لا يحبه الله لا يحبه أحد أبدا،ولهذا فإن مثل هذا الشخص لا يحبه حتى أولاده وأهله وأقاربه وأصدقاؤه،وهؤلاء الناس كما قال الله تعالى كثيرا ما يكذبون معتزين بمالهم وثروتهم متفاخرين بها،ويعدون من سواهم أذلاء،وتكون النتيجة أن يصبحوا أذلاء حقيرين في نظر الله ونظر عباده.وأكبر مثال على البخل جاء في القرآن الكريم كان لقارون،والتي وردت قصته في سورة(القصص)،كان قارون في عصر سيدنا موسى عليه السلام،وفردا من قومه،وكان غنيا حتى أنه في ذلك العصر الأول للمدنية كان

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الزكاة .

حدثني عبد الله بن منير،سمع أبا النضر،حدثنا عبد الرحمن،هو ابن عبد الله بن دينار،عن أبيه،عن أبي صالح،عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من آتاه الله مالا يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع،له زبيبتان،يطوقه يوم القيامة،يأخذ بلهزمتيه–يعني بشدقيه–يقول:أنا مالك أنا كنزك).ثم تلا هذه الآية:"ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله".إلى آخر الآية.

يصنع للقفل الواحد مفتاح واحد،ويعلم الله كم يكون هذا المفتاح ثقيلا وقبيحا.أما مفاتيح خزائنه فكان يحملها عدة رجال مجتمعين وبصعوبة شديدة،وبدلا من أن يشكر الله تعالى أن انعم عليه من فضله وكرمه وجعله ثريا،نراه يقول إن هذا المال وهذه الثروة نتيجة لجهده وعمله هو،ولم يكن يدري أن كثيرين من الذين هم أغني منه في هذه الدنيا قد فارقوها،وكانت عاقبتهم سيئة،وهكذا كانت عاقبة قارون وثروته بأن غاصت في الأرض.قال تعالى:

" ألم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة وأكثر جمعا"(القصص:٧٨).

وكان قارون العصر النبوي هو أبو لهب،وقد بشره الله تعالى بنفس ما سبق،وقال له في وضوح :

" ما أغني عنه ماله وما كسب " (سورة المسد) .

وكون بعض أفراد الأمة أغنياء لا يمكن أن يكون سببا في الخير لهؤلاء أو لقومهم طالما لم ينفق هذا المال على الجماعة وفي تلبية احتياجاتها،والبخيل يريد أن يستفيد هو فقط من هذا المال كله،وتكون النتيجة أن يصبح هذا الجزء الذي يملكه من المال لا فائدة منه،ويضر بالجماعة التي هو أحد أفرادها :

" ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله،فمنكم من يبخل،ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه،والله الغنى وأنتم الفقراء " (محمد : ٣٨).أي أنه سيعاني نتيجة بخله وشحه .

والرجل البخيل في هذه الحياة يظل في مشاكل ومصائب مستمرة،فلا يتيسر له طعام جيد رغم أن لديه كل شيء،كما لا يتيسر له شراب جيد ولا ملابس جيدة ولا بيتا جيدا،ولا عزة أو كرامة،ويعتبره الجميع ذليلا،الجميع ينفر حتى من اسمه،والفقراء يدعون عليه،بل إن زوجته وأولاده الذين يفعل ما يفعل من أجلهم لا يكونون سعداء معه،كل واحد يتمني ثروته،ويود لو تخلص من هذا الثعبان الذي يحرس الخزائن حتى يستولى هو عليها،واللصوص يتتبعونه،وكذا قطاع الطرق،هناك من يريد أن يسممه،ومن يريد قتله،لكنه يتحمل كل هذه المصائب،ولا يسمح بالإنفاق من المال طالما كان حيا،ولهذا فبمجرد أن يموت يضيع ورثته كل ما جمع،بل إن الأكثر من ذلك أن أولاده الذين جمع كل هذا المال من أجلهم متحملا كل المصائب في سبيل ذلك هم أول من يضيع هذا المال

في لحظات،بالإضافة إلى ما ينشأ فيهم من عادات وطبائع سيئة جنبا إلى جنب مع إفلاسهم.يقول تعالى لرسوله :

" وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى،فسنيسره للعسرى،وما يغني عنه ماله إذا تردى " (الليل : ٨) .

هذا العمل الصعب الذي يسره الله له كعقاب هو تلك العادات والخصال السيئة التي يظل أسيرا لها طيلة حياته،ولا تسمح له بأن ينفق شيئا من ماله،يقوم هو بهذا العمل،وبسهولة ويسر،يظل جائعا،عاريا،قذرا،يتحمل المصائب،لا يستريح ليلا،ولا يستمتع بشيء من الدنيا،ولا يسعد بأقاربه وأعزائه،ولا بأصدقائه وأحبائه،يشكو منه الجميع،ثم عندما يقع في مشكلة،أو يموت،أو يدخل جهنم لا يفيده أعزاؤه ولا أحبابه ولا ثروته شيئا،وعندئذ يندم مع أن الله حذره قبلا :

" وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين " (المنافقون : ١٥) .

ويجيبه الله تعالى أن هذا غير ممكن،فهذا ليس وقت التأجيل والتأخير،وكان يجب عليه أن يستعد لهذا من قبل.وهناك بعض الناس عندما يصيبهم الفقر تراهم يدعون الله تعالى أن يغنيهم،ويعدون إن أكرمهم الله من فضله فسيفعلون كذا وكذا،ولكن إذا أعطاهم الله تعالى المال والثروة نسوا كل ما قطعوا على أنفسهم من عهود،وغضوا الطرف عن كل طرق الخير،أمثال هؤلاء رسم الله تعالى لهم صورة في القرآن هكذا :

" ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين،فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون " (التوبة : ٧٥) .

ويقول تعالى أن بخلهم هذا أعقبهم نفاقا في قلوبهم :

" فأعقبهم نفاقا في قلوبهم " (التوبة : ٧٧) .

ويعلم من هذا أن شدة البخل تفسد الإيمان أيضا،وربما من أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم إن هناك خصلتين لا يجتمعان في مؤمن أبدا وهما البخل وسوء الخلق[1]،ومن الصفات السيئة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى

---

[1] جامع الترمذي .

أن يتجيه منها أي صفة البخل،فكان صلى الله عليه وسلم يقول:اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وعذاب القبر وابتلاءات الموت والحياة ([1]) .

وللزكاة أهمية كبيرة في الإسلام،وفرض الزكاة والترغيب في الصدقات من الشريعة المحمدية،وكان ذلك حتى تظل القلوب طاهرة نقية من قذارة ودنس كل الصفات والخصال السيئة،ولتعلم كذلك أن البخل ليس مجرد عدم أداء الحق الظاهري للمال والثروة فقط،بل يمتد ذلك إلى كل ما من الله به على الإنسان من فضله،على سبيل المثال إذا من الله بالعلم على أحد،أو بالقوة الجسمانية،ولم يؤد حق هذه النعم عليه فهو بخيل،ويستحق العقاب على قدر بخله،فمن من الله عليه بالعلم عليه أن ينشر هذا العلم،وأن يقول للناس أن من لم يفعل فهو بخيل في العلم،إذ أن كتمان العلم ذنب :

" ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله " (البقرة : ١٤٠) .

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إن الأكثر سخاءا وجودا بعد الله تعالى هو الذي يتعلم العلم ويعلمه([2])،ولهذا فإن من تعلم العلم ولم يؤد حقه فهو لا محالة من البخلاء .

وقد قيل كثيرا إن الإسلام قسم الأعمال بعد الإيمان إلى قسمين هما:حقوق الله وحقوق العباد،والصلاة تجمل حقوق الله،بينما تجمل الزكاة حقوق العباد،يعني رعاية المستحقين للرعاية والإحسان،ولننظر إلى الآيات التالية،وستجد أن عدم الوفاء بهذين القسمين من الحقوق سبب في دخول جهنم :

" ما سلكم في سقر،قالوا لم نك من المصلين،ولم نك نطعم المسكين "(المدثر:٤٤).

فالذنب الأول هو الانحراف عن أداء حقوق الله،بينما الذنب الثاني هو الإهمال في حقوق العباد،وهذا هو ما جاء في آخر سورة (الماعون) :

"فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون،والذين هم يراءون ويمنعون الماعون".

الأمر الأول هو الغفلة عن الصلاة،فلا يؤدون الصلاة لوقتها،وإنما يؤدونها لمجرد المراءاة،وهذا التغافل عن حقوق الله،والأمر الثاني هو البخل في تلبية مقتضيات الحياة

---

[1] صحيح مسلم .

حدثنا خالد بن مخلد:حدثنا سليمان قال:حدثني عمرو بن أبي عمرو قال:سمعت أنسا قال:كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن،والعجز والكسل،والجبن والبخل،وضلع الدين،ولبة الرجال).

[2] المشكاة – كتاب العلم .

العادية فيما بين الناس حين يطلبونها مثل الملح والنار والماء وغيرهـــا مـــن الأشـــياء العادية،وهذا هو التغافل عن حقوق العباد.ويعلم من هذا الشرح أن البخل سبب في عـــدم تطبيق جزء كبير من الشريعة الإسلامية،ولهذا فإنه مهما قيل عن البخل فهو قليل .

الحرص والطمع

الحرص والطمع عيب تظهر من خلاله وبوضوح دناءة النفس،وخاصـــة ذلـــك الطمع الذي يداخله بخل أيضا،وهو ما يطلقون عليه في العربية(شح)،وقد تحدث القـــرآن الكريم عن مساوئه في مواضع عديدة منه،وأكثر المشاكل العائلية تكـــون نتيجـــة لـــهذا العيب،فرب البيت لا يريد أن يعطى أكثر،وأهل البيت يطلبون أكـــثر،الأزواج يحبـــون مالهم ولهذا لا ينفقون منه كثيرا،والزوجات يطلبن بطمع كبير،أو يكون لشخص أكثر من زوجة فتحرص كل منهن على أن يكون لها أكثر الحقوق على زوجها،بينمـــا يحـــرص الزوج على حقوق من يحبها،وهنا يحدث الشقاق في الأمور الزوجية،ويواجه البيت كلـــه مشاكل نفسية وروحانية،وعلاج كل هذا أن يتبنى الجميع سلوك الإيثار والإحسان فيمـــا بينهم،وأن يعتبر كل واحد من المجموع راحة الآخر وتعبه راحته هو وتعبه هو،عندئـــذ يتحول البيت الذي كان مقرا للأحزان إلى بيت سعيد،وقد قال القرآن الكريم فيما يتعلـــق بالاختلافات الزوجية:

"وأحضرت الأنفس الشح،وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا " (النســـاء: ١٢٨).

أي أن يتخلى الزوج والزوجة عن الحرص والطمع،و يسلكون طريق الإحســـان والتقوى،وسوف يجازي الله تعالى الجميع حسب أعمالهم،وهوعالم بكل شيء.

و لكل شيء في هذه الحياة المادية جانب اقتصادي،ولن يحقق أي إنسان نجاحا دينيـــا أو دنيويا طالما لم يتخل عن حرصه وطمعه وينفق ماله في الأعمال الصالحة،يقول تعالى:

"وأنفقوا خيرا لأنفسكم،ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" (التغابن:١١).

وفي موضع آخر يصف الله سبحانه وتعالى أولئك المسلمين الذين يقدمـــون احتياجـــات الآخرين على احتياجاتهم فيقول:

"ويؤثرون على أنفسهم ولـــو كـــان بهم خصاصة،ومن يوق شح نفسه فـــأولئك هـــــم المفلحـــون" (الحشر:٩).

وهذا هو الإيثار الذي هو أساس النجاح الديني والدنيوي لكل أمة،وهو ما لن يتوفر لأحد طالما لم يتخلص من حرصه وطمعه،ولهذا قال تعالى أن الذين سيتخلصون من طمعهم سينجحون،والطماع لا ينفق ماله فقط،وإنما يضع عينيه على مال الآخرين متمنيا لو امتلكه كله،وقد حرم الله مثل هذا التمني،إذ أن به عيبين أخلاقيين آخرين وهما البخل و الحسد،قال تعالى:

"ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن،واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما" (النساء:٣٢).

أي إذا كان الله قد منح أحدا تميزا في أمر ما فلا يتمنى آخر هذا التميز طمعا فيه قائلا لنفسه كيف حصل هذا على التميز،وإنما يجب على الإنسان أن يمد يديه إلى الله تعالى طالبا من فضله وكرمه،فإن كان له فيه خير فسوف يمن الله عليه،واتباع هذا الأمر يخلق في النفس القناعة،ويخلصها من الحسد،ولهذا قال تعالى:

"ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم،ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم" (الحجر:٨٨).

أي أن من كتبت له ثروة مثل القرآن فلا قيمة لأي شيء دنيوي آخر في نظره.والحرص والطمع هما اللذان يحرضان شخصا على قتل آخر أو سلبه ماله،وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه "تجنبوا الحرص و الطمع فهو الذي حطم من كانوا قبلكم،هو الذي حرضهم على القتل،وتحريم الحلال"([1])،هذه رواية صحيح مسلم،وقد جاءت هذه الرواية أكثر تفصيلا في صحيح ابن حبان،والحاكم،فقال صلى الله عليه وسلم :تجنبوا الطمع فهو الذي دعا من كان قبلكم إلى قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق،وهو الذي دعا من كان قبلكم إلى تحليل الحرام" ([2]) ، و قال – صلى الله عليه و سلم – في

---

[1] – صحيح مسلم – باب تحريم الظلم .

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب،حدثنا داود يعني:ابن قيس،عن عبيد الله بن مقسم ،عن جابر بن عبد الله :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"اتقوا الظلم،فإن الظلم ظلمات يوم القيامة،واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم،حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"

[2] – صحيح ابن حبان و مستدرك الحاكم .

أخبرناه أبو الحسن محمد بن أحمد القنطري،ثنا أبو قلابة،ثنا أبو عاصم،عن ابن عجلان.وحدثنا أبو بكر بن إسحاق – واللفظ له – أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن ملحان،ثنا ابن بكير حدثني الليث،عن محمد بن عجلان،عن سعيد بن أبي سعيد المقبري،عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه

إحدى خطبه"تجنبوا الطمع،فقد هلك من كان قبلكم به،فهو الذي جعلهم يقطعون ما أمـــر الله به أن يوصـــل،وهـــو الذي جعلهم يبخلون،وهو الذي جعلهم يفسقون ويفجـــرون"([1]) وقال صلى الله عليه وسلم:"أن أسوأ ما في الإنسان هو الطمع وعدم الشهامة والمروءة " ([2]).

والإنسان الطماع يئن دائمـــا ويتألم لما لم يحصل عليه من الأشياء الموجـــودة عند غيره وليست عنده،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص والطمـــع أنهما يسببان الهموم والآلام الدائمة للإنسان.

جاء في صحيح النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"لا يجتمع الإيمـــان والبخل في قلب مؤمن أبدا "([3])،والسبب واضح وهو أن نتيجة الإيمان الكامل هي الصبر والتوكل والقناعة،أما الطمع نتيجتـــه القلق والاضطـــراب والهوس،وذات مـــرة قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يشيخ الإنسان ولا يشيخ لديه شيئان أبدا الرغبـــة فـــي الحياة،والطمع في المال"([4])،وقال كثير من الصحـــابة أن النبي صـــلى الله عليه وســـلم قـــال:"إن المال والطمع فيه يهلكان دين الإنسان وإيمانه مثلما يهلك ذئبان قطيعـــا مـــن الغنم"([5]).

وسلم:إياكم والفحش والتفحش،فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش،وإياكم والظلم،فإنه هو الظلمات يوم القيامة،وإياكم والشح فإنه دعا من قبلكم فسفكوا دماءهم،ودعا من قبلكم فقطعوا أرحامهم،ودعا مـــن قبلكم فاستحلوا حرماتهم.

[1] صحيح ابن حبان و أبو داود – كتاب الجهاد – باب الجرأة و الجبن .

[2] أبو داود و الحاكم .

[3] النسائي .

أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال:حدثنا جرير عن سهيل،عن صفوان بن أبي يزيـــد،عـــن القعقـــاع بـــن اللجلاج،عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخـــان جهنم في جوف عبد أبدا،ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا.

[4] – الترمذي .

حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة،عن قتادة،عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـــال: يهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان الحرص على العمر والحرص على المال.

[5] – الترمذي وصحيح ابن حبان والطبراني وأبو يعلي وبزار المنذري.

عدم الضمير

تتفق شرائع الدنيا وقوانينها على أن كل شخص يملك ماله،وله الحق في التصرف فيه ولا يحق لأحد آخر أن يستغل ممتلكات الآخر دون إذن منه،وطبقا لهذا المبدأ فإن ممتلكات الأشخاص محفوظة وآمنة،ونظام الأمن في الدنيا قائم،فإذا ما أراد شخص الاستيلاء على حق الآخرين بالسرقة أو الخداع أو عنوة فإنه بذلك يريد أن يربك نظام الفطرة في العدل،وقد وضح الإسلام نظام العدل هذا باعتباره مبدأ في آية مختصرة فقال:

"يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل"(النساء:٢٩).

فقد قضت هذه الآية في ألفاظها القلائل على كل الوسائل التي تخالف الأمانة والضمير،والتي لا حد لجزئياتها وتفاصيلها،بمعنى أن هذه الآية تنطبق على كل من أراد الاستيلاء على مال الغير بطريقة غير جائزة،سواء بالخداع والكذب،أو بالظلم والقوة أو بالغصب أو بالسرقة أو بالخيانة أو بالرشوة أو بالربا،أو بأي وسيلة أخرى غير جائزة.

وقد قال صلى الله عليه وسلم:"من رفع السلاح علينا (على المسلمين)أو غشنا (نحن المسلمين)فليس منا(نحن المسلمين)"[1].والنفس والمال شيئان مهمان في المعاملات،وقد بين هذا الحديث المختصر لرسول الله صلى الله عليه و سلم أهمية الحفاظ عليها،ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر من السوق إذ رأى كومة من الحبوب ملقاة،فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فيها فعرف أنها مبللة بالماء من الداخل،وجافة من الخارج، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبها ما هذا؟!فقال:يا رسول الله،بلله المطر،فقال صلى الله عليه وسلم:فلم لا تكشفه أمام الناس،حتى يزونه،من غش فليس مني([2])،وتنقطع علاقته برسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] – صحيح مسلم –كتاب الإيمان –باب من حمل علينا السلاح فليس منا.

حدثنا قتيبة بن سعيد،حدثنا يعقوب وهو:ابن عبد الرحمن القار وحدثنا أبو الأحوص محمد بن حيان،حدثنا ابن أبي حازم،كلاهما عن سهيل بن أبي صالح،عن أبيه،عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من حمل علينا السلاح فليس منا،ومن غشنا فليس منا.

[2] –صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب من غش فليس منا .

وحدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر،جميعا عن إسماعيل بن جعفر،قال ابن أيوب :حدثنا إسماعيل،أخبرني العلاء عن أبيه،عن أبي هريرة :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة

وقال صلى الله عليه وسلم:"من حلف كذبا ليستولي على مال مسلم بغير حق فسيلقى الله وهو عليه غاضب"([1]).وذات مرة أراد رجل أن يحلف في أمر مشابه لما ذكرنا فقال صلى الله عليه وسلم إن كان أقسم ليستولي على المال ظلما فسيعرض الله عنه حين يلقاه"([2]).

والاستيلاء على مال وممتلكات الغير بالقوة يسمى غصبا،والغصب فعل ظالم،وقد ذكر أحد الملوك في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر كان يستولي بالقوة على مراكب وسفن الصيادين،قال الله على لسان الخضر:

"أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها،وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا"(الكهف:٧٩).

هذا عيب واضح يكفينا بيانه،وليست هناك حاجة لكي نقول أنه عيب،يروي الصحابي سيدنا سعيد بن زيد أن النبي صلى الله عليه و سلم قال:"من استولى على قدر شبر من أرض آخر طوقه الله في سبع أراضي،وسيقال له احمل من كل طبقة من طبقات الأرض السبع قدر ما حملت مما استوليت عليه من الأرض،ومقصد هذا الحديث هو أن طبقات الأرض السبع ستحيط بعنقه مثل العقد"([3]).

طعام ، فأدخل يده فيها،فنالت أصابعه بللا،فقال:ما هذا يا صاحب الطعام؟قال:أصابته السماء يا رسول الله،قال:أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟من غش فليس مني.

[1] – مسلم –كتاب الإيمان – باب من قطع حق مسلم .

وحدثنا ابن أبي عمر المكي،حدثنا سفيان عن جامع بن أبي راشد،وعبد الملك بن أعين،سمعا شقيق بن سلمة يقول:سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه،لقي الله وهو عليه غضبان".

[2]- صحيح مسلم –كتاب الإيمان –باب من قطع حق مسلم .

حدثنا قتيبة بن سعيد،وأبو بكر بن أبي شيبة،وهناد بن السري،وأبو عاصم الحنفي واللفظ لقتيبة قالوا:حدثنا أبو الأحوص،عن سماك،عن علقمة بن وائل،عن أبيه،قال: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم،فقال الحضرمي:يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي،فقال الكندي:هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:ألك بينة؟قال:لا،قال:فلك يمينه،قال:يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه،وليس يتورع من شيء،فقال:ليس لك منه إلا ذلك فانطلق ليحلف،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم،لما أدبر:أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما،ليلقين الله وهو عنه معرض.

[3] –صحيح مسلم –باب تحريم الظلم و غصب الأرض،وقد وردت هذه العبارة بأكثر من طريقة .

وأكثر أنواع عدم الضمير شيوعا هو ما يتعلق بالقضايا في المحاكم،فكم من الناس يستولون على ممتلكات الآخرين ظلما بقوة مرافعة المحامي،في حين أنهم يعرفون جيدا أن هذه ليست ممتلكاتهم.وقد قال صلى الله عليه و سلم:"قد يكون أحد الفريقين ألسن من الآخر و يعرض دعوته جيدا فأحكم له،فإذا كان ما حكمت به ليس من حقه فلا يأخذه لأنني أعطيته قطعة من جهنم"([1]).

وبعض الذين لا ضمير لهم يرون أن الفريق الآخر على حق،ولكن ليس لديه دليل أو شهادة أو وثيقة مكتوبة،فيرفعون القضية أمام الحاكم،ويثبتون بطلان ادعاء الفريق الآخر:

"ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون"(البقرة:١٨٨).

يعني أنتم تعرفون أن قرار الحاكم خاطئ طبقا لدعواكم،وهكذا فإنه لا يجب الاستيلاء على أموال الضعفاء لكونهم ضعفاء،أو لأنهم تحت إمرتنا،ومن يفعل ذلك فكأنما يملأ بطنه بجمرات النار:

"الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا "(النساء:١٠).

السرقة

السرقة هي اسم لتلك الحركة اللئيمة التي يتم بها إخفاء أشياء الآخرين والاستيلاء عليها دون إذنهم،وهي أسوأ الأمور في هذا المجال،ولهذا كان جزاؤها عظيما وهو قطع اليد:

"والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءا بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم"(المائدة:٣٨)

والسبب في قبح السرقة ليس هو الاستيلاء على مال الغير خفية دون إذن من صاحبه فقط،وإنما أيضا هو أن يأتي شخص دون تعب فيستولي على ما جمعه آخر بجهد

وحدثني زهير بن حرب،حدثنا جرير،عن سهيل،عن أبيه،عن أبي هريرة،قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه،إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة.

[1] – شرح نودي على مسلم – الحديث المذكور.

وتعب،وإذا لم يتم التحكم في هذه الأمور وضبطها فلن يتمتع أحد بكسب يده،وبالإضافة إلى هذا فإن هذا العيب الخلقي يضم بداخله عيوبا عديدة.

والدخول إلى بيوت الآخرين بغير داع،والتفحص فيما تضمه بداخلها يظهر مدى خبث باطن من يقوم بهذا،ومن الممكن أن تسفك الدماء في السرقة،وتضيع الأرواح البريئة،ولأن اللص يستولي على أموال كثيرة وبغير جهد جائز حلال لهذا فإنه يضيعه وبنفس السهولة أيضا،ولا يستفيد منه إلا قليلا،بل إن الجزء الأكبر من هذه الثروة الحرام تضيع في إخفاء معالمها.

وكان هذا العيب الأخلاقي منتشرا بين العرب،وربما كان ذلك بسبب الفقر المنتشر حينئذ،وكان منتشرا لدرجة أن الإسلام اعتبر أخذ البيعة على من يسلم أن لا يسرق،وقد جاءت عدة أمور في سورة (الممتحنة) كان يؤخذ العهد على السيدات اللائي يردن الدخول في الإسلام على ألا يأتينها،ومنها (ألا يسرقن)وحين أرادت نساء مكة الدخول في الإسلام يوم فتح مكة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن هذا العهد،وعندئذ سألت السيدة هند زوجة أبي سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة:يا رسول الله إن أبا سفيان رجل بخيل،ولا ينفق علي وعلى أولاده إنفاقا معقولا،أفآخذ من ماله خفية،فقال صلى الله عليه وسلم:خذي من ماله بقدر ما يكفيك أنت وأولادك"[1]،ويعلم من هذه الرواية أمران،أولهما أن الحماس للإسلام يخلق ثورة أخلاقية لدى المسلمين،وإلا فكيف للسيدة هند أن تكشف أسرار بيتها بسهولة هكذا،والثاني هو أننا إذا لم ننفق على من تجب علينا نفقته فأخذه من مالنا بقدر حاجة لا يعد هذا سرقة.

ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم هذا العهد على النساء فقط،وإنما أخذه على الرجال أيضا،يقول الصحابي سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ذات مرة كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:عاهدوني على ألا تشركوا ولا

---

[1] صحيح البخاري – كتاب النفقات .

حدثنا أبو نعيم:حدثنا سفيان،عن هشام،عن عروة،عن عائشة رضي الله عنها:قالت هند أم معاوية لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجل شحيح،فهل علي جناح أن آخذ من ماله سرا؟.قال:(خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف).

تسرقوا ولا تزنوا،ثم قرأ الآية،ثم قال:"فمن وفى بهذا العهد فأجره على الله،ومن خالف شيئا فيه وعوقب عليه فإن أمره في يد الله إن شاء عفا عنه وعن شاء عاقبه"([1]).

ذات مرة لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم السارق فقال:"لعن الله السارق،يسرق حبلا فتقطع يده".

والعبد يرتكب السرقة لأنه لا يقين له على أن الله يراه،أو أن يقينه هذا يتوارى عند ارتكابه هذا الفعل،فيعتقد أنه طالما لا يراه الناس فإن الله لا يراه أيضا،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن"([2]).

وقال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع الشهيرة:"إن أموالكم عليكم حرام إلا بالحق"([3])،فإذا أخذنا من مال الآخرين لا بد أن يكون برضاهم،أو أن يكون مقابل عمل تؤديه،وهذا هو ما جاء في الآية القرآنية الكريمة:

---

[1] -صحيح البخاري -كتاب الحدود.

حدثنا أبو اليمان قال:أخبرنا شعيب،عن الزهري قال:أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله:أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه،وكان شهد بدرا،وهو أحد النقباء ليلة العقبة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال،وحوله عصابة من أصحابه:(بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا،ولا تسرقوا،ولا تزنوا،ولا تقتلوا أولادكم،ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم،ولا تعصوا في معروف،فمن وفى منكم فأجره على الله،ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له،ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله،إن شاء عفا،وإن شاء عاقبه).فبايعناه على ذلك.

[2] -المرجع السابق.

حدثني عمرو بن علي:حدثنا عبد الله بن داود:حدثنا فضيل بن غزوان،عن عكرمة،عن ابن عباس رضي الله عنهما،عن النبي صلى الله عليهوسلم قال:(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن،ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).

[3] -المرجع السابق.

حدثني عبد الله بن محمد:حدثنا أبو عامر:حدثنا قرة،عن محمد بن سيرين قال:أخبرني عبد الرحمن بن أبي بكرة،عن أبي بكرة،ورجل أفضل في نفسي من عبد الرحمن،حميد بن عبد الرحمن،عن أبي بكرة رضي الله عنه قال (فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام،كحرمة يومكم هذا،في شهركم هذا،في بلدكم هذا،إلى يوم تلقون ربكم،ألا هل بلغت).

"يـــا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عـــن تـــراض منكم"(النساء:٢٩).

وهذه الآية تعد أساسا ومبدءا،حيث حرمت كل مال يحصل عليه من طريق غير جائز.

كانت هنـــاك لمرأة من قبيلة مخزوم العربية،وكانت تأخذ الأشيـــاء من النـــاس وتنكر أنها أخذتها،وعرض الأمر على رسول الله صلى الله عليه وســـلم فـــأمر بقطـــع يدها،وكانت امرأة من عائلة كبيرة،فتوسط لها كبـــار القوم عند رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم،لكنه صـــلى الله عليه وسلم قال:"إنما هلك من كان قبلكم إذا ســـرق فيـــهم الضعيف عاقبوه،وإذا سرق فيهم الأقوياء تركوه،والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها".

كان أحد الصحابة يضع رداءا تحت رأسه وهو نائم فجاء لص وسحب الـــرداء بخفة من تحت رأسه،فقبض على اللص وجئ به إلى رســـول الله صلـــى الله عليـــه و سلم،فتوسط الصحابي للص عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:يا رســـول الله،إن قيمة هذا الرداء ثلاثون درهما،هل ستقطع يده لقـــاء ثلاثين درهمـــا،لقد بعتـــــه هـــذا الرداء،وثمنه في ذمته،فقـــال صـــلى الله عليه وسلم:لم لم تفعل هذا قبـــل أن يعـــرض الأمر علي".

وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة،فعرضت عليه الجنة والنار،فلما فرغ من الصلاة قال:"لقد رأيت في جهنم ذلك الذي يسرق أشياء الحجيـــج إذا غفلوا،فإذا تنبهوا إليه قـــال إنما كـــان ذلك صدفة ودون قصد الســـرقة،فإذا ما غفلـــوا ذهب بما أخذ،قال صلى الله عليه وسلم:رأيته يجر أمعاءه في جهنم".

التطفيف في الميزان

والقسم العام المعروف من السرقة هو ما تقطع بسببه يد الســـارق كحكـــم مـــن أحكام الشريعة والذي ذمه الدين وذمته الأخلاق على السواء،لكن تعاليم الإسلام تطرقـــت إلى أشياء دقيقة في المعاملات غير الشرعية والتي لا يعدها الناس ســـــرقة ،فشـــرحها الإسلام ووضح سوءها،وأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله أهميتها وأكد علـــى تجنبها .

وأهم الأشياء في هذا السياق هو التطفيف في الميزان،وهو ما يواجهه الناس في كل وقت،ويقع فيه التجار والبائعون،وأكثر من يلحقهم الضرر فـــي هـــذا الأمـــر هـــم

الفقراء،وهناك قانون العدل من بين قوانين الفطرة،ومبدؤه هو أن يعطي كل ذي حق حقه،وهذا هو الميزان الذي أقامه الله تعالى في الدنيا،والذي يجب أن ينال كل شخص حقه طبقا له،فمن لم يعط الناس حقوقهم،أو انتقص منها فإنه بذلك يتجاهل هذا الميزان. قال تعالى:"والسماء رفعها ووضع الميزان،ألا تطغوا في الميزان،وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان"(الرحمن:٧).

وهذا الميزان يزن أقوال الإنسان وأفعاله،والمساواة فيه تحافظ على نظام الدنيا،والحقيقة أن التطفيف في الميزان هو عدوان على حقوق الآخرين،فذلك الذي يزيد في الميزان حين يأخذ ويطفف فيه حين يعطي إنما يستولي على مال الآخرين بدون وجه حق،وهذا في ذاته سرقة،ولهذا أكد القرآن الكريم على ضرورة تجنب هذا الأمر،وكان قوم شعيب يعملون بالتجارة،ولهذا جاء تأكيد دائم في دعوته على مسألة الميزان هذه،فكان شعيب عليه السلام يقول لهم:

"أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين،وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين"(الشعراء:١٨٢).

وهذا هو ما كان يقوله سيدنا شعيب لأهل مدين الذي كانت ديارهم تقع في طريق القوافل التجارية من الشرق والغرب:

"ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير،وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط،ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين"(هود:٨٤)

وتخبرنا هذه الآية أن الخير والبركة يزولان بسبب التطفيف في الكيل والميزان،أو إذا نظرت إلى الظاهر فقل إن هؤلاء الذين يطففون في الميزان لا كرامة أو احترام لهم،ويصبحون في نهاية الأمر سببا في خراب التجارة،وهم يريدون زيادة مكاسبهم بهذا الغش والتطفيف،لكن الذي يحدث أن عيبهم الأخلاقي هذا يكون مقدمة لدمارهم اقتصاديا وماديا.

وقد تكررت نصيحة سيدنا شعيب هذه في سورة (الأعراف)،قال تعالى:" فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين"(الأعراف:٨٥).

وقد بعثت تعاليم سيدنا شعيب هذه من جديد على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،وقد جاء في الإسلام بعد الأشياء التي حرمها الله تعالى أن:"أوفوا الكيل والميزان"(الأنعام:١٥٢).

ومن بين النصائح الأخلاقية التي وردت في سورة (الإسراء) هذه النصيحة:"وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا"(الإسراء:٣٥).

والجزء الأخير من الآية يدلنا على أن التطفيف في الميزان وإن كان يؤدي إلى فائدة في بداية الأمر،إلا أنه في النهاية يكون سببا في بوار التجارة.

وتأمل جيدا ترى أن السبب الأساسي في وجود هذا السوء الأخلاقي هو أن اليقين في القلوب بأن العين التي ترى تصرفاتهم ما خفي منها وما ظهر مفتوحة في كل مكان وسيأتي يوم يمثلون فيه أمام الله تعالى ويحاسبهم،وقد جاء ذكر هذا السوء الأخلاقي في سورة المطففين وتحريمه،وكذا علاجه.قال تعالى:"ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون،وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون،ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم،يوم يقوم الناس لرب العالمين"(المطففين:٣)

الغلول

والغلول يطلق على إخفاء الأشياء المشتركة قبل تقسيمها بالعدل،وأكثر ما يطلق على السرقة من مال الغنائم،إذ أنه أيا كان الذي استولى على مال الغنائم فإنه حق لكل الجنود،وطالما لم يقسم الأمير هذا المال بالعدل،أو لم يسمح بالأخذ منه فإن إخفاء أي شيء منه يصبح غلولا،والغلول سوء أخلاقي تجتمع فيه السرقة وانعدام الضمير.ويظن من يرتكب هذا الفعل أنه إذا كان لكل واحد نصيب في هذا المال المشترك فإن أخذ شيء منه جائز،لكنه ينسى أنه طالما لم يتم تقسيمه فالجميع متساوون فيه،ولا يحل له أخذ شيء منه دون استئذان الجميع،والأمر الثاني هو أنه إذا أخذ أحد من هذا المال خفية فهذا يعني أن ضميره يقول له إن هذا المال ليس لك وحدك،ولهذا فهو يأخذه خفية،والأمر الثالث أن أخذ أي شيء خفية يهدف إلى الحصول على أكثر من النصيب المقرر،أي الجزء الذي يتم الحصول عليه خفية والجزء الذي يتم الحصول عليه بالتقسيم وهذه عدم أمانة واضحة.

وقد صرح القرآن الكريم أن من يرتكب هذا الفعل سواء كان جنديا أم أميرا فهو آثم،ولأن الأنبياء عليهم السلام يكونون أمراء،وهم معصومون من الذنوب،لذا لا يمكن لأحد أن يظن أنهم قد يرتكبوا مثل هذا الفعل:"وما كان لنبي أن يغل"(آل عمران:١٦١).

ثم قال:"ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة،ثم توفى كل نفس ما كسبت وهو لا يظلمون"(آل عمران:١٦١).

وقد سرق غلام يدعى (مدعم) رداءا من مال الغنيمة يوم خيبر،وحين غادر الناس خيبر ووصلوا إلى وادي القرى انطلق سهم فجأة فأصاب هذا الغلام فمات،فقال المسلمون:هو في الجنة،فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه قال:والذي نفسي بيده إن الرداء الذي أخذه في خيبر قبل التقسيم يشتعل فيه نارا.فلما سمع الناس هذا أثر فيهم قوله صلى الله عليه وسلم حتى أن رجلا كان قد أخذ رباط حذائه فأحضره وأعاده،فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال هذا رباط من نار"(١).

وهناك واقعة أخرى حدثت في خيبر وهي أن أحد المسلمين مات،وحين تم تجهيزه للدفن أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه،فقال:صلوا على صاحبكم،فلما سمع الناس هذا أصابتهم الدهشة وعلموا أن هناك أمرا ما،فقال صلى الله عليه وسلم:لقد أخذ صاحبكم شيئا من مال الغنائم خفية،يقول الصحابة:لقد فتشنا بين أمتعته فوجدنا عقدا من اللؤلؤ المقلد لا يساوي شيئا "(٢).

---

١ -أبو داود – كتاب الجهاد – باب في تعظيم الغلول.

حدثنا القعنبي ،عن مالك،عن ثور بن زيد الديلي،عن أبي الغيث مولى ابن مطيع ،عن أبي هريرة أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر،فلم نغنم ذهبا ولا ورقا إلا الثياب والمتاع والأموال،قال:فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو وادي القرى،وقد أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد أسود يقال له مدعم،حتى إذا كانوا بوادي القرى،فبينا مدعم يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم فقتله،فقال الناس:هنيئا له الجنة،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا فلما سمعوا ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:شراك من نار أو قال:شراكان من نار.

٢ -المرجع السابق.

وكانت القاعدة هي أنه حين تنتهي المعركة ينادي سيدنا بلال ثلاث مرات فيأتي الناس بما أصابوا من مـــال الغنيمة،ثم يخرج خمسه،ثم يقسم بينهـــم ما بقي،فإذا ما جاء أحد بعد هذا بما أصاب لا يقبل منه،ويعد مجرما،وأحيانا تحرق كل أمتعته عقابا لـه.ذات مرة جاء رجل بلجام من الشعر أصابه من الغنائم بعد أن تم التقسيم،وقال يا رســول الله هذا ما أصبته ،فقال صلى الله عليه وسلم ألم تسمع نداء بلال،قال:سمعته،فسأله صلى الله عليه وسلم فلماذا لم تحضره عندها، فاعتذر الرجل،فقال صلى الله عليه وسلم ستأتي بـــه يوم القيامة،ولن أقبله"(¹).

وقيل للولاة أن من يصيب شيئا يأت به إلى بيت المال.قـــال صلـــى الله عليـــه وسلم:"أيها الناس،من يتولى أمرا ما فأخفى ولو خياطا فإنه غلـــول،وســـيأتي بـــه يـــوم القيامة"(²).

حدثنا مسدد،أن يحيى بن سعيد وبشر بن المفضل حدثاهم،عن يحيى بن سعيد،عن محمد بن يحيى بن حبان،عن أبي عمرة،عن زيد بن خالد الجهني،أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وســلم توفي يوم خيبر،فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:صلوا على صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك،فقال:إن صاحبكم غل في سبيل الله،ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يســاوي درهمين.

¹ –أبو داود – كتاب الجهاد – باب في تعظيم الغلول.

حدثنا أبو صالح محبوب بن موسى قال:أخبرنا أبو إسحاق الفزاري،عن عبد الله بن عمرو قال:حدثني عامر يعني ابن عبد الواحد عن ابن بريدة،عن عبد الله بن عمرو قال:كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادى في الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمسه ويقسمه،فجـــاء رجـــل بعد ذلك بزمام من شعر فقال:يا رسول الله،هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة،فقال:أسمعت بلالا ينادي؟ ثلاثا،قال:نعم،قال:فما منعك أن تجيء به؟ فاعتذر إليه فقال:كن،أنت تجيء به يوم القيامة،فلن أقبلـــه عنك.

² –سنن أبي داود – كتاب الأقضية.

حدثناعلي بن محمد،حدثنا أبو أسامة،عن أبي سنان عيسى بن سنان،عن يعلى بـــن شـــداد ،عـــن عبادة بن الصامت،قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين إلى جنـــب بعـــير مـــن المقاسم،ثم تناول شيئا من البعير فأخذ منه قردة يعني:وبرة فجعل بين إصبعيه،ثم قال:ياأيـها الناس،إن هذا من غنائمكم أدوا الخيط والمخيط،فما فوق ذلك،فما دون ذلك،فإن الغلول عار علـــى أهلـــه يـــوم القيامة،وشنار،ونار.

الرشوة

وهي صورة عامة من صور استغلال أموال الغير بغير حق،ومعنى الرشوة هو أن يستميل أحد أحدا ذا سلطة أو مسئولا بماله من أجل تحقيق غرض باطل،أو الحصول على ما لا حق له فيه([1])،وقد كان الكهان العرب في القديم يحكمون في بعض القضايا اعتمادا على قوتهم الغيبية المزعومة،ولذا كان أصحاب القضايا هؤلاء يقدمون لهم أجرا أو رشوة كنوع من الهدية،وكانوا يسمون هذا(حلوان)،فلما جاء الإسلام طار دفتر الأوهام هذا،ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم إعطاء ما يسمى بالحلوان هذا للكهان([2]).

أما اليهود العرب فكان أحبارهم و سادتهم يحكمون في قضاياهم ، و لأن المال و الثروة جعلت منهم طبقات متفاوتة ، لذا كانوا دائما يتمنون مخالفة القانون من قلوبهم ، و للإفلات من قبضة القانون كانوا يقدمون الرشاوى ، و كان كهانهم و قضاتهم يأخذونها علانية ، و يعطون حقوق البعض لمن لا يستحقها من البعض الآخر ، و بهذه الطريقة كانوا يوارون أحكام التوراة عندما تقتضي مصالحهم و مطالبهم ذلك ([3]) . و هكذا كانت الرشوة سبب كبير في تحريف قوانين التوراة ، و قد تحدثت الآية التالية عن تعاطيهم هذا الذنب :

" إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار و لا يكلمهم الله يوم القيامة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم " (البقرة : ١٧٤) .

و قد قال الله تعالى أنهم يأكلون النار في بطونهم لأن اليهود كانوا يقدمون على تحريف أحكام الله و أوامره طمعا في هذه الأمور الدنيوية من أجل بطونهم ، و لهذا كان هذا جزاءهم .

---

[1]- مجمع النجار – العلامة فتني.

[2] -الترمذي – باب ما جاء في كراهية مهر البغي.

حدثنا قتيبة،حدثنا الليث عن ابن شهاب،عن أبي بكر بن عبد الرحمن،عن أبي مسعود الأنصاري قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن.

[3] صحيح البخاري – رجم الزاني .

و قد كتب ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية أن سادة اليهود كانوا يقدمون الرشوة لعلمائهم حتى لا يخبروا عامة الناس بأوصاف النبي – صلى الله عليه و سلم – التي وردت في التوراة ، لكن سياق القرآن الكريم يدل على أنهم كانوا يحرفون الأحكام الإلهية بصفة عامة ، و يحصلون على ثروات الدنيا عن طريق ذلك ، و لذا قال الله تعالى في سورة (المائدة) عن أكلهم الحرام هذا :

" و ترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم و العدوان و أكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ، لولا ينهاهم الربانيون و الأحبار عن قولهم الإثم و أكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون " (المائدة : ٦٣) .

" سماعون للكذب أكالون للسحت " (المائدة : ٤٢) .

ويمكن الاستدلال هنا أيضا بالآية التي سبق ذكرها :

" ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون " (البقرة : ١٨٨) .

وتحمل هذه الآية بمعناها الذي قرره بعض المفسرين منعا واضحا وصريحا للرشوة.وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من يعطي الرشوة ومن يأخذها على السواء([1])،فلعن من يعطي الرشوة لأنه يساعد على ارتكاب الجريمة،والمساعدة في ارتكاب الجريمة ممنوع قانونا وأخلاقا .

كان المسلمون قد تصالحوا مع يهود خيبر على مناصفتهم في إنتاج الأرض،فحين كان يحل وقت التقسيم يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عبد الله بن رواحة،فكان يقسم الإنتاج بالعدل إلى قسمين ويقول لهم اختاروا ما تشاءون من القسمين،وأراد اليهود تقديم الرشوة له كما اعتادوا في حياتهم،فجمعوا التبرعات من بعضهم البعض،وكذلك بعض حلي النساء وقالوا له اقبل هذا منا،وزد في حصتنا،فلما سمع ابن رواحة هذا منهم قال:أيها اليهود والله إنكم أبغض خلق الله،لكن هذا لا يحملني على ظلمكم،وما تقدمونه لي من رشوة فهو حرام لا نأكله نحن المسلمين.عندئذ قال

---

[1] أبو داود – كتاب الأقضية .

حدثنا أحمد بن يونس،ثنا ابن أبي ذئب،عن الحارث بن عبد الرحمن،عن أبي سلمة،عن عبد الله بن عمرو قال:لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي.

اليهود بعد ما سمعوا ما قال:هذا هو العدل الذي تقوم عليه السماء والأرض"([1])،ولـــهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله من قبول الهدايا والتحف من الـرعايا([2]).

وذات مرة جاء عامل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقـال:هـذا مـال الصدقة،وهذا جاء لي هدية،فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منـــه صعـد المنبر وخطب في الناس،فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

" ما بال العامل نرسله فيأتي ليقول هذا لكم وهذا لي،فليجلس في بيت أبيه وأمه ولينظـر هل يهديه أحد شيئا أم لا،والذي نفسي بيده من أخذ منه شيئا جاء به في عنقه يوم القيامة حتى وإن كان جملا أو بقرة أو شاة،ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديـــه قائلا ثلاث مرات:"اللهم هل بلغت"([3])،وما قاله رسول الله صلى الله عليـــه وســلم فـــي خطبته هذه إنما هو تفسير لآية الغلول.

---

[1] موطأ الإمام مالك – كتاب المساقات .

وحدثني مالك عن شهاب،عن سليمان بن يسار،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر،فيخرص بينه وبين يهود خيبر،قال، فجمعوا له حليا من حلي نسائهم. فقالوا له: هذا لك. وخفف عنا،وتجاوز في القسم،فقال عبد الله بن رواحة:يا معشر اليهود!والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم،فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت،وإنـــا لا نأكلها،فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

[2] أبو داود – كتاب الأقضية وكتاب الجهاد .

حدثنا مسدد،ثنا يحيى،عن إسماعيل بن أبي خالد،قال:حدثني قيس قال:حدثنـــي عـدي بـن عـميرة الكندي:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:يا أيها الناس من عمل منكم لنا على عمل فكتمنا منه مخيطا فما فوقه فهو غل يأتي به يوم القيامة فقام رجل من الأنصار أسود كأني أنظر إليه فقـال:يـا رسول الله،اقبل عني عملك،قال:وما ذلك؟قال:سمعتك تقول كذا وكذا وكذا،قال:وأنا أقـول ذلـك،مـن استعملناه على عمل فليأت بقليله وكثيره فما أوتي منه أخذه،وما نهي عنه انتهى.

[3] صحيح البخاري – باب هداية العمال .

حدثنا علي بن عبد الله:حدثنا سفيان،عن الزهري:أنه سمع عروة:أخبرنا أبو حميد الســاعدي قـال :استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني أسد،يقال له ابن الأتبية،على صدقـــة،فلمـا قـدم قال:هذا لكم وهذا أهدي لي،فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر–قال سفيان أيضـــا :فصعـد المنبر– فحمد الله وأثنى عليه،ثم قال:(ما بال العامل نبعثه،فيأتي فيقول:هذا لك وهذا لي،فهلا جلـس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا؟والذي نفسي بيده،لا يأتي بشيء إلا جاء به يـوم القيامـة

أكل الربا

أكل الربا يجمع بداخله الحرص والطمع والبخل والظلم ،ففيه الحرص والطمع لأن آكل الربا يريد أن يركز الثروة كلها لديه من خلال الربا،وفيه البخل لأنه لا يريد التسامح مع فقير مدين،كما لا يريد أن ينقص من ثروته بالإنفاق منها على عمل الخير،وهذا هو السبب في أن الله تعالى ذكر أكل الربا في مقابل الزكاة والصدقات،وفيه الظلم لأنه يريد أن يحرم الناس من ثمرة كفاحهم عن طريق الربا والربا المضاعف،ولا يرحمهم،ولهذا قال تعالى عندما منع الربا:

" لا تظلمون ولا تظلمون "(البقرة:٢٧٩).

بمعنى أنكم إن أخذتم أكثر مما أعطيتم فإن ذلك ظلم منكم،وإن أخذتم أقل مما أعطيتم فإن ذلك ظلم عليكم،وكانت عادة أكل الحرام هذه منتشرة بين العرب بسبب اليهود ،إذ كانت الثروة لديهم،وكان أكثر الفقراء العرب من الفلاحين والعمال يستدينون منهم،ومن أسباب إغلاق أبواب النعمة على اليهود:

" وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل " (النساء:١٦١).

فلما جاء الإسلام قضى تماما على لعنة رأس المال هذه والتي كانت الدنيا تعاني منها:"الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس،ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا،فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله،ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون،يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم " (البقرة : ٢٧٥) .

والمجيء يوم القيامة مخبوط الحواس بسبب أكل الربا يعد تمثيلا كاملا لوضعه الذي كان عليه في الدنيا،إذ أن آكلي الربا(المرابين)في الدنيا يظلون منهمكين ليل نهار في سلب الآخرين أموالهم،وزيادة ثروتهم بطرق غير شرعية،بحيث لا يخطر على بال أحد منهم أن يشارك في فعل خير،وهكذا يأتي يوم القيامة وكأنه فقد حواسه،وقد وصف الله تعالى المرابين في نهاية الآية بأنهم مجرمون ناكروالجميل،لأن الثروة التي أنعم الله بها عليهم تقتضي أن ينفقوا منها على الفقراء،والمستحقين،لكنهم بدلا من ذلك سلبوا الفقير ما يملك من الفتات ظلما وعدوانا،وهذا جحود للنعمة .

يحمله على رقبته:إن كان بعيرا له رغاء،أو بقرة لها خوار،أو شاة تيعر)،ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ألا هل بلغت) ثلاثا .

وقد ظهر بين العرب سريعا بعض من أصحاب رؤوس الأموال أمـــام اليــهود وكانوا يعملون بالربا مثل سيدنا عباس بن عبد المطلـــب،وبنـــو عمـــرو بـــن عمـــير وغيرهم،وحين أسلموا هم والمدينون لهم،وطالب الدائنون بالربا من المدينين فنزلت هـذه الآيات وهي في سياق معنى الآيات السابقة:

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين،فإن لـــم تفعلـــوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله،فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون،وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة،وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون،واتقـــوا يومـــا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون "(البقرة:٢٨٠).

فقد أخبرت الآيات أنه سيأتي يوم يقف فيه الجميع أمام الله تعالى،وسوف يحاسب كل من أكل أموال الناس بالباطل،فإذا فعلتم الخير وعفوتـــم عـــن المدينيـــن فـــإن الله سيجازيكم بهذا كثيرا .

وكانت هناك صورة من صور الربا في الجاهلية أن الفلاحين الفقـــراء كـــانوا يقترضون من المرابين على المحصول الذي لم يخرج من الأرض بعد،وحين يأتي وقت الحصاد ولا يستطيع الفلاح سداد الدين فإن المرابي يقول له يمكن أن نمد الفترة،وعليـك أن تزيد قيمة القرض من المحصول أيضا،على سبيل المثال يأخذ منه عدة كلوات مـــن الحبوب مقابل كل روبية من القرض،فإذا زادت الفترة عاما آخر ضاعف قيمة القـــرض وهكذا طالما لم يتم سداد القرض تزيد المدة ويزيد القرض حتى يزيد الربا على القـروض ويصبح أضعاف أصل القرض.قال تعالى:

" يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة،واتقوا الله لعلكم تفلحون،واتقوا النار التي أعدت للكافرين " (آل عمران : ١٣٥) .

وقد صرحت الآية الكريمة بأن عقاب أكل الربا هو جهنم،تلـــك التـــي أعـــدت للكافرين.وقد حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه في رؤيته الصادقة من أحوال آكلي الربا،فقال إنه رأي نهرا من الدم يسبح فيه رجل،ورجل آخر يقف علـــى شـــاطئ النهر يمسك بحجر في يده،وحين يشعر الرجل الأول بالإرهاق والتعب ويريد الخــــروج من النهر يقذفه الرجل الآخر بالحجر فيلقمه،ثم يعود إلى النهر ثانية،فقال جبريل عليـــه السلام إن هذا الرجل الذي يسبح في نهر من الدماء هو آكل الربا " ([1]) .

[1] صحيح البخاري_ كتاب الجنائز – باب أولاد المشركين – وكتاب التعبير – باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح .

وسبب مثل هذا العقاب واضح،فالناس يجتهدون ليل نهار فيما يجمعون فيأتي آكل الربا ويستولي على أرزاقهم بسهولة،فهو بذلك يسبح في دم الإنسان،أما الحجر الذي يلقمه فهو لأموال الناس التي يأكلها بالباطل من خلال الربا.

ويشترك في عقاب الذنب من شارك في فعله أو أعان عليه،ولهذا لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأكل الربا والذي يشهد عليه والذي يكتب ذلك ويوثقه([1]).

شرب الخمر

شرب الخمر من العادات الذميمة،وسوءها واضح،ومع ذلك فما أعجب أن تبتلي به أكثر الأمم في العالم،وقد بينت الأديان التي جاءت قبل الإسلام عيوب ومساوئ هذا الأمر،واعتبرت معاقرة الخمور أمرا سيئا([2])،لكن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حرمها تماما،ولقد كان شرب الخمر من العادات الراسخة لدى العرب،وكان يعد من تقاليد العائلات الراقية ووسيلة من وسائل الترفيه واللهو،وكانت الزوجات يسقين أزواجهن بأنفسهن([3])،وكذلك كان يفعل الصغار مع الكبار([4]).وإذا كان هناك بعض من المحظوظين الذين تخلوا عن شرب الخمر قبل الإسلام،إلا أن المجتمع كله كان مصابا بهذا الداء،فكان الناس يعاقرون الخمر فيسكرون ويتشاجرون،ويصيبون بعضهم

حدثنا مؤمل بن هشام،أبو هشام:حدثنا إسماعيل بن إبراهيم:حدثنا عوف:حدثنا أبو رجاء:حدثنا سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم-يعني-مما يكثر أن يقول لأصحابه:(هل رأى أحد منكم من رؤيا).قال:فيقص عليه من شاء الله أن يقص،وإنه قال ذات غداة:(إنه أتاني الليلة آتيان،وإنهما ابتعثاني،وإنهما قالا لي انطلق،وإني انطلقت معهما. قال : فانطلقنا،فأتينا على نهر-حسبت أنه كان يقول-أحمر مثل الدم،وإذا في النهر رجل سابح يسبح،وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة،وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة،فيفغر له فاه فليقمه حجرا فينطلق يسبح،ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرا،قال:قلت لهما:ما هذان ؟.وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة،فإنه آكل الربا.

[1] أبو داود – كتاب البيوع

حدثنا أحمد بن يونس،ثنا زهير،ثنا سماك،حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود،عن أبيه قال:لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه.

[2] صحيح البخاري – كتاب الأشربة .

[3] لوقا – ١ : ١٥ .

[4] قصيدة ألا هي بصحنك من قصائد المعلقات السبع .

البعض،مما كان يزرع العداوة بينهم،وفي بعض الأحيان تصل بهم السكرة إلى درجة أنهم كانوا يذبحون أية ناقة تصادفهم دون النظر إلى من يكون صاحبها([1])،ثم يصنعون من لحومها كبابا فيطعمونه أصدقاءهم،ويلعبون القمار،ويكون اللعب على المواشي،فيذبحونها ويقسمونها ثم يطعمونها سويا،فإذا ما تبقى منها شيء أطعموه الفقراء.

ولما جاء الإسلام بدأ بتقليل قوة هذه العادة،فقال بأن السكر ليس أمرا طيبا،وأن الله قد من عليكم بالتمور والأعناب،وهي نعم عظيمة،لكنكم تصنعون الخمور منها وتأكلونها أيضا،قال تعالى :

" ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا،إن في ذلك لآية لقوم يعقلون " (النحل : ٦٧) .

ففي هذه الآية وضح الله تعالى(السكر)في مقابل(الرزق الحسن)،ويعلم منه أن السكر ليس رزقا حسنا،وأنا أرى أن هذه الآيات قدمت تشبيهات في الحقيقة للالتباس بين الخير والباطل،فذكرت اللبن والروث والدم،ثم الشهد والعسل باعتبار أنه نقي هو الآخر مثله مثل اللبن،ويخرج لا شوائب فيه،وهكذا الحال بالنسبة للتمر والعنب،إذ يخرج منها النجس مثل السكر،والطاهر مثل الغذاء.ثم تطورت مسألة تحريم الخمور في المدينة،فجاء الأمر:

" لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون " (النساء : ٤٣) .

وقد نبهت هذه الآية العقلاء،فتركها بعض الناس،بينما حدد البعض الآخر وقت تناول الخمور في غير وقت الصلاة،وبعد كل هذه الاختبارات جاء وقت اتخذت فيه الكناية شكل التصريح،وثار في نفوس الناس سؤال عما سيكون آخر قرار للإسلام عن الخمر والميسر :

"يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس،وإثمهما أكبر من نفعهما " (البقرة : ٢١٩) .

وفائدتها هي أنها تنسي الناس همومهم لبعض الوقت،وتمتعهم بلهوهم ولعبهم،فيأكلون ويشربون،ويطعمون الآخرين أيضا،لكن مساوءها أكثر من هذه الفوائد القليلة لها،وقد نبهت هذه الآية الكثير من الناس فتابوا من شرب الخمر،ولكن لأن الحكم

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الأشربة .

القاطع في أمر الخمر لم يكن قد نزل بعد لهذا كان بعض الناس يشربونها ترخصا في جانب الفائدة منها،وفي النهاية نزلت هذه الآية :

" يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون،إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون " (المائدة : ٩) .

فلما نزل هذا الحكم صاح بعض الصحابة:اللهم لقد رجعنا عنها([1])،وفي ذلك اليوم سكبت دنان الخمور في شوارع المدينة وحواريها وألقيت الخمور على الأرض([2]).

وقد بين الله تعالى في هذه الآية أسباب تحريم الخمر بأنها من عمل الشيطان،هذا أولا،وثانيا أن الناس يعاقرونها فيتعاركون،وثالثا أنها تشغل الناس عن الأعمال الضرورية الكثيرة،وهذه الأسباب الثلاثة واضحة وضوح الشمس .

وهناك عدة مطالب لما ذكر في الآية السابقة من أن الخمر والميسر من رجس الشيطان،منها أنها عدت الخمر والميسر ومعاقرتها عند الأصنام من الأعمال النجسة للشيطان،ولا شك في قذارة كل هذا ونجاسته،بالإضافة إلى ذلك فإن نسبة أي عمل من الأعمال إلى الشيطان يبين منتهى سوءه مثلما جاء في قصة سيدنا موسى عليه السلام حتى مات أحد الأقباط صدفة بوكزة منه فقال :

" هذا من عمل الشيطان " (القصص : ١٥) .

وكذلك ما جاء في الآية التي تقول :

" إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين " (الإسراء : ٢٧) .

يتجه الذهن إلى أن شرب الخمر والتقرب إلى الآلهة وذبح الحيوانات بغير سبب وتقسيمها بما كان يعد في حينه من الجود والكرم،ونرى في هذه الآية أيضا إشارة إلى إنفاق المال بلا فائدة،ومن لا يعرف أن شرب الخمر ولعب القمار والتظاهر الكاذب بالكرم مما يهلك الشعوب والبلاد،وهو ما نجده في صفحات التاريخ .

وبعد ذلك بين القرآن الكريم عيبين من معايب هذه الأعمال الشيطانية،أحدهما اجتماعي،والآخر ديني،والعيب الاجتماعي أنهم يشربون الخمر فيسكرون ويتعاركون،ويقومون بأعمال لم يكونوا ليقوموا بها وهم في وعيهم،وما أكثر الحوادث

---

[1] أبو داود – الأشربة .

[2] صحيح البخاري – كتاب الأشربة .

التي ترتكب كل يوم بهذا السبب مثل القتل والانتحار وغيرهما.أما العيب الديني فهو أن الإنسان يشرب الخمر ويلعب الميسر وينهمك فيهما لدرجة تجعله يغفل عن ذكر الله وعن الصلاة التي هي أعظم فرض في الحياة،ليس هذا فقط،وإنما تجعله يغفل أيضا عن الأعمال الدنيوية التي تفيده هو،وبالتالي لا يصلح في أعمال للدين،وتفشل حياته ويصاب باليأس .

ولا ينبغي أن نفهم من لفظ(شراب)أن المراد به نوع خاص من الشراب،وقد استخدم القرآن الكريم لفظ(خمر)،والخمر يقال لعموم شيء وتسيده وتغطيته على الأشياء،ولهذا فإن كل شيء يغطي أكله أو شربه على العقل يدخل في عموم لفظ الخمر،وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه وهو على المنبر:"كل ما يسكر حرام"([1])،وقال"من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منه حرم منه في الآخرة"([2]).

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج قدمت أمامه يد الغيب كوبين أحدهما فيه لبن وفي الآخر خمر،وتناول سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم كوب اللبن،فقال له أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام:الحمد لله الذي هداك إلى الفطرة،لو تناولت الخمر لضلت أمتك"([3])،وكأن الخمر في عالم المثال صورة للضلال.

وجاء في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"لا يشرب مؤمن الخمر حين يشرب وهو مؤمن"([4])،وقال أيضا:"من علامات الساعة أن يزيد شرب الخمر"([5]).

---

[1] الصحيحين – كتاب الأشربة .

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق .

[4] المرجع السابق .

[5] المرجع السابق .

حدثنا أحمد بن صالح:حدثنا ابن وهب قال:أخبرني يونس،عن ابن شهاب قال:سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن وابن المسيب يقولان:قال أبو هريرة رضي الله عنه:إن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن،ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن،ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).

وقد حرم الإسلام الخمر وحرم كل ما يؤدي إليه من وسائل سدا للذرائع،حتى أنه حرم في بداية الأمر الآنية التي يشرب فيها الخمر عموما،ثم حين اعتاد الناس على ترك شرب الخمر خفف الله من هذه الحدة([1]).

وقد جاء ذكر المبدأ التالي مرات عدة"ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"(المائدة:١).

وطبقا لهذا المبدأ فإن شرب الخمر حرام وتقديمه للشاربين حرام وصناعته حرام وبيعه وشراؤه وحمله كله حرام.قال صلى الله عليه وسلم:"لعن الله شارب الخمر وساقيه وبائعه وشاريه ومن يصنعه لنفسه أو لغيره ومن يحمله ومن يحمل إليه"([2]). كما قال صلى الله عليه وسلم:"كل مسكر حرام،وما أسكر كثيره فقليله حرام"([3]).

الغيظ والغضب

وعدم الاعتدال في الغيظ والغضب يعد عيبا كبيرا،وكم من الأفعال الظالمة القاسية يرتكبها الإنسان في حالة الغيظ والغضب،ثم يندم بعدها،ولهذا يجب على المسلم أن يتحكم في غضبه،وألا يغضب بغير سبب،وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصالحين بقوله :

" والكاظمين الغيظ " (آل عمران : ١٤) .

وقال في موضع آخر : " وإذا ما غضبوا هم يغفرون " (الشورى : ٤) .

فما أسهل أن يعفو الإنسان وهو هادئ،لكنه يخرج عن أطواره في حالة الغضب،ويصبح من الصعب أن يعفو،لكن المسلم ينبغي أن يتصف بالمقدرة على التحكم

---

[1] المرجع السابق .

[2] أبو داود – كتاب الأشربة .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة،قال:ثنا وكيع بن الجراح،عن عبد العزيز بن عمر،عن أبي علقمة،مولاهم وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعنا ابن عمر يقول:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبايعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحولة إليه.

[3] الصحيحين وأبو داود والترمذي – كتاب الأشربة .

وحدثني حرملة بن يحيى التجيبي:أخبرنا ابن وهب،أخبرني يونس،عن ابن شهاب،عن أبي سلمة بن عبد الرحمن:أنه سمع عائشة تقول : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البتع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل شراب أسكر فهو حرام.

في النفس عند الغضب،وأن يعفو،ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:"ليس القوي بالصرعة،وإنما القوي من يملك نفسه عند الغضب"([1]).

وروي عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا عمر وسيدنا جارية بن قدامة،وسيدنا أبي درد وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم جميعا:"أن رجلا قال يا رسول الله انصحني،فقال صلى الله عليه وسلم لا تغضب،فاعتقد الرجل أن هذا كلام عادي،فقال ثانية وثالثة انصحني يا رسول الله،وفي كل مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:لا تغضب"([2]).

ويقول الصحابي المعروف سيدنا أبو سعيد الخدري:"ذات مرة أوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة بعد صلاة العصر ونصحهم،وكان مما قال:خلق ابن آدم في طبقات عدة،بعضهم لا يغضب سريعا،ويهدأ سريعا،وبعضهم يغضب سريعا ويهدأ سريعا،وكل منهما يصلح الآخر،وبعضهم يغضب سريعا،ولا يهدأ سريعا،وأفضلهم من لا يغضب سريعا ويهدأ سريعا،وأسوأهم من يغضب سريعا ولا يهدأ سريعا،والغضب شرر في قلب ابن آدم،ألا ترون أن عينيه تحمران،وتنتفخ أوداجه،فمن غضب عليه أن يجلس على الأرض"([3]).

وجاء عند أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الغضب من الشيطان،والشيطان من نار،والماء يطفئ النار فمن غضب فليتوضأ"([4]).

---

[1] صحيح مسلم – باب فضل من يملك نفسه عند الغضب،والبخاري– كتاب الأدب – باب من يحذر من الغضب .
حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن ابن شهاب،عن سعيد بن المسيب،عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(ليس الشديد بالصرعة،إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب).

[2] صحيح البخاري ومسند أحمد وابن حبان والطبراني والمنذري – باب الترهيب من الغضب .
حدثنا يحيى بن يوسف:أخبرنا أبو بكر،هو ابن عياش،عن أبي حصين،عن أبي صالح،عن أبي هريرة رضي الله عنه:أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أوصني، قال: (لا تغضب). فردد مرارا، قال: (لا تغضب).

[3] جامع الترمذي – المنذري – الباب المذكور .

[4] سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب من كتم غيظا .
حدثنا بكر بن خلف والحسن بن علي،المعنى قالا:حدثنا إبراهيم بن خالد:حدثنا أبو وائل القاص قال:دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلمه رجل فأغضبه،فقام فتوضأ،ثم رجع وقد توضأ،فقال:حدثني

ويقول سيدنا أبو ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال:"من غضب جلس إن كان واقفا،وإلا فليستلقي"([1]).

وجاء في الصحيحين أنه حدثت مشاجرة بين اثنين من الناس أمـام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما حتى احمر وجهه وانتفخت أوداجـه،فنظـر إليـه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال:إني أعرف كلمة لو قالها لذهب غضبك وهـي أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.وتؤيد الآية القرآنية التالية هذا الحديث الأخير.قـال تعالى :

" خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين،وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم"(الأعراف:٢٠٠).

وهناك آية أخرى في سورة(السجدة)في نفس المعني،وهي الآية رقم ٥ :

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمور لعلاج الغضـب،أحدهمـا روحاني،والآخران ظاهريان،أما الروحاني فهو ما ورد ذكره في القرآن الكريم،يعني أن الغضب من الشيطان،ولهذا على الإنسان حين يغضب أن يدعو الله فورا ويستعيذ بـالله من الشيطان الرجيم،وسيقبل الله دعـاءه ويحفظه من نزغات الشـيطان،وانظـر إلـى الناحية الظاهرية أيضا،فإذا ما تيقن المسلم بأن الغضب من الشيطان فإنه سيذهب عنـه بمجرد ذكر اسم الله .

أما الأمران الظاهريان لعلاج الغضب فهما أن يجلس الإنسان الغاضب إن كـان واقفا،وإن كان جالسا يستلقي،والهدف من ذلك أن يغير من وضعه الذي هو فيه،مما يبعد الذهن قليلا عن الغضب فيقل الغضب،والعلاج الثاني هو أن يتوضأ،والهدف من ذلك أن الدماء تتسارع في عروق الإنسان بسبب الحرارة التي يولدها الغضب،وتحمر العينـان ويحمر الوجه،وبالتالي فإن استخدام الماء يهدئ الإنسان،وتذهب حرارة الغضب .

أبي،عن جدي عطية قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن الغضب من الشيطان،وإن الشـيطان خلق من النار،وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ.

[1] المرجع السابق .

حدثنا أحمد بن حنبل،ثنا أبو معاوية،ثنا داود بن أبي هند،عن أبي حرب بن أبي الأسود،عن أبـي ذر قال:إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا:إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس،فإن ذهـب عنـه الغضب وإلا فليضطجع.

البغض والحقد

أن تكن في قلبك عداوة مستمرة لأحد يقال له بغض وحقد،وهو أمر سيء لدرجة أن الله يمتدح من يدعوه لينجيه منه :

" ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان،ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا،ربنا إنك رءوف رحيم " (الحشر : ١٠) .

ومن مميزات الجنة أن الأخوة تسود بين أهلها،ولا مجال فيها للبغض والحقد.قال تعالى :

" ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين " (الحجر : ٤٧) .

" ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار " (الأعراف : ٤٣) .

ويعلم من إشارات هذه الآيات أنه لن يذهب الأخوة إلى الجنة طالما بقى بينهم بغض وحقد،والهدف من تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم لنا هو أن نعيش في الدنيا أيضا حياة أقرب ما تكون إلى حياة الجنة.قال صلى الله عليه وسلم:"أيها الناس لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا،ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"([1]) .

بمعنى أنه لو حدث بين أخين لسبب من الأسباب شقاق فلا يجب أن يبقى هذا الوضع لأكثر من ثلاثة أيام .

يقول الصحابي أبو أيوب رضي الله عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث،يلتقيان فيعرض أحدهما عن الآخر،وخيرهما من بدأ بالسلام"([2]).

---

[1] صحيح البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي .

حدثنا بشر بن محمد:أخبرنا عبد الله:أخبرنا معمر،عن همام بن منبه،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إياكم والظن،فإن الظن أكذب الحديث،ولا تحسسوا،ولا تجسسوا،ولا تحاسدوا،ولا تدابروا،ولا تباغضوا،وكونوا عباد الله إخوانا).

[2] مالك و البخاري و مسلم و الترمذي و أبو داود .

حدثنا عبد الله بن يوسف:أخبرنا مالك،عن ابن شهاب،عن عطاء بن يزيد الليثي،عن أبي أيوب الأنصاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا تحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال،يلتقيان:فيعرض هذا ويعرض هذا،وخيرهما الذي يبدأ بالسلام).

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم:"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام،فإذا انقضت ثلاثة أيام فيلقى كل منهما الآخر ويسلم عليه،إذا رد عليه الآخر السلام كان لكل منهما أجر،وإن لم يرد السلام عاد هذا وقد حمل ذنبا"([1])،وفي أحاديث أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ترفع أعمال الناس يومي الاثنين والخميس فمن لم يشرك بالله غفر الله له،لكن الله يقول عمن بينهما تباغض دعوهما"([2])،وتشرح رواية أخرى هذا الحديث فقد قال صلى الله عليه وسلم:"تعرض الأعمال يومي الاثنين والخميس فمن طلب المغفرة غفر له ومن تاب قبلت توبته،لكن أعمال المتباغضين ترد عليهم حتى يعودوا عن تباغضهم"([3])،وهناك حديث آخر جاء فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"ثلاثة لا يغفر لهم،أحدهم من يحمل الحقد في نفسه"([4]).

عندما نتأمل هذه الأحاديث تجد أنها ساوت بين الشرك والبغض من جانب معين،فالدين عبارة عن شيئين هما حقوق الله وحقوق العباد،ولا يمكن أن يؤدى حق الله تعالى طالما كان هناك شرك به،وهكذا فإن المتباغضين لا يمكن أن يؤديا حقوق بعضهما طالما بقى البغض بينهما،وبالتالي فكما أن الشرك يمنع من حق الله فإن البغض والحقد يمنعان من حقوق العباد،والوفاء بهذين الحقين مفتاح الجنة.

الظلم

جاء لفظ الظلم في القرآن الكريم بعدة معان،وقد جاء بكثرة في معان الكفر والشرك والعصيان،لكننا هنا نعني ذلك الظلم الذي يوقعه العباد بالعباد،وقد استخدم القرآن لهذا المعنى لفظين هما(البغي)و(العدوان)،وهذا الظلم حرام في الشريعة الإسلامية:

" وقل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق"(الأعراف:٣٣).وقال في موضع آخر:

---

[1] سنن أبو داود .

[2] مالك و مسلم و أبو داود و الترمذي و أدب المفرد للبخاري .

حدثنا قتيبة،حدثنا عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس فيغفر فيهما لمن لا يشرك بالله شيئا إلا المتهجرين،يقال:ردوا هذين حتى يصطلحا.

[3] الطبراني في الأوسط و المنذري – ص ١٦٤ – مصر .

[4] أدب المفرد للبخاري – باب الشحناء .

" وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي " (النحل : ١٣) .

والمراد بالبغي في هاتين الآيتين هو تعدي الحد،والتعدي على حقوق الآخرين وظلمهم وهو أمر يمكن أن يهلك الأمة كلها ما لم يتم التحكم فيه ممن ظلمه حتى يفكر الناس قبل أن يظلم أحدهما الآخر،لكن سمح بإيذاء الظالم بقدر الإيذاء الذي ألحقه حتى لا يتفشى هذا العيب.قال تعالى :

" والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون،وجزاء سيئة سيئة مثلها " (الشورى:٤).بمعنى أن من يسيء يساء إليه بنفس القدر،لكن إذا عفا المظلوم عن الظالم رغم مقدرته على القصاص منه فسوف يجد المظلوم حقه عند الله تعالى،وسيحرم الظالم من محبة الله :

" فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين " (الشورى : ٤٠) .

فإذا لم يعف عنه واقتص منه فلا لوم عليه :

" ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل " (الشورى : ٤١) .

بينما يكون اللوم على من بادء الناس بالظلم،وعاث في البلاد فسادا :

" إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " (الشورى : ٤٢) .

فإذا قتل أحد أحدا ظلما فلوليه الحق في طلب القصاص منه :

"ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا"(الإسراء:٣٣).

والمقصود هو إعانة المظلوم المقتول في مقابل الظالم القاتل حتى يقوم العدل في الدنيا،ولكن يجب على أهل القتيل أن لا يتعدوا حدودهم في حماس وثورة الانتقام،فلا يلوثوا أيديهم بدماء أهل القاتل وأعزائه،وإلا فلن تنتهي هذه السلسلة الجاهلية في الإسلام أيضا .

وللمظلوم الحق في أن يفضح أفعال الظالم علانية،ولذلك فائدتان،الأولى أن يتراجع الظالم عن الظلم مخافة سوء السمعة،والثانية أن تتولد عاطفة المواساة للمظلوم لدى الناس.قال تعالى :

" لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما"(النساء:١٤٨).

فإذا لم يعد الظالم عما يفعل فللمسلمين قتاله،وإخضاعه لقانون الله تعالى:

" فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله"(الحجرات:٩٠).

هذا فيما بين المسلمين بعضهم البعض،فإذا كان الفريق المخالف كافرا لا يجب ظلمه،وإذا خالف أحد من المسلمين هذا لا ينبغي على المسلمين إعانته على ذلك.قال تعالى:

" ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب"(المائدة:٢).

ويعلم من هذا أن أكثر الوسائل في القضاء على الظلم تأثيرا في الدنيا هو ما نطلق عليه في أيامنا عدم التعاون،والإسلام أول من أتى بهذا المبدأ،وأمر صراحة أن لا نتعاون مع الظالمين فيما يرتكبون من ظلم وتعدي،وأن لا نشاركهم فيه،وإن كانت صور عدم المشاركة هذه تختلف من عصر إلى آخر.

جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين قائلا:"انصر أخاك ظالما أو مظلوما،فقال الصحابة:يا رسول الله،ننصره مظلوما،فكيف ننصره ظالما،فقال صلى الله عليه وسلم:بأن تمنعه من الظلم"([1])،ولنلق نظرة على هذا الأسلوب الجديد في التعليم،إذ بالترغيب في نصرة الظالم أثار في النفوس شيئا،فإذا ما انتبه السامع بقلبه إلى هذا التعليم العجيب تم استغلال هذا الانتباه،وإرشاده إلى أن نصرة الظالم هي أن تمنعه من الظلم.

ذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي عن الله تعالى،بأسلوب مؤثر للغاية أن الله تعالى يقول لعباده:"ياعبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وعليكم فلا تظلموا" ([2]).

---

[1] صحيح البخاري – أبواب المظالم – و صحيح مسلم – باب نصر الأخ ظالما و مظلوما .

حدثنا مسدد:حدثنا معتمر،عن حميد،عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(انصر أخاك ظالما أو مظلوما). قالوا:يا رسول الله،هذا ننصره مظلوما،فكيف ننصره ظالما؟ قال:(تأخذ فوق يديه).

[2] –صحيح مسلم – باب تحريم الظلم،والترمذي كتاب الزهد،ومسند أحمد – الجزء الخامس – ص ١٥٤،١٦٠،١٧٧ – وأدب المفرد للبخاري – باب الظلم.

حدثناعبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي،حدثنا مروان _يعني:ابن محمد الدمشقي _،حدثنا سعيد بن عبد العزيز،عن ربيعة بن يزيد،عن أبي إدريس الخولاني،عن أبي ذر،عن النبي صلى الله

وفي روايـــة أخرى قال صلى الله عليه وسلـــم:"تجنبوا الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة"(1)،والظلمات في اللغة العربية تطلق على الظلام،ومادة الظلم والظلمـــــات فـــي العربية واحدة،ويمكن ترجمتها إلى لغتنا باعتبار هذا المعنى ما معناه أن تظلموا فإن هذا سيكون ظلاما يوم القيامة ، و هذا عقاب مثالي ، إذ أن الإنســـان تعميــه مصالحــه أو غضبه فيظلم الآخرين ، أو أن هذا العمى يظهر يوم القيامة في شكل ظلام دامس .

يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"المســـلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"(2) ،ويقول البراء بن عازب أن النبي صلـــى الله عليــه وسلم أمرنا بسبعة أمور،ومن بينها نصرة المظلوم(3).

وحين جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيدنا معاذ رضي الله عنه أميرا وأرسله إلى اليمن نصحه قائلا:"تجنب دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"(4).

عليه وسلم،فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:"يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما،فلا تظالموا،....".

[1] -صحيح مسلم – باب تحريم الظلم،وصحيح البخاري – أبواب المظالم.

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب،حدثنا داود،-يعني:ابن قيس-،عن عبيد الله بن مقسم،عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"اتقوا الظلم،فإن الظلم ظلمات يوم القيامة....".

[2] -صحيح البخاري – أبواب المظالم.

حدثنا يحيى بن بكير:حدثنا الليث،عن عقيل،عن ابن شهاب:أن سالما أخبره:أن عبـــد الله بـــن عمـــر رضي الله عنهما أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(المسلم أخو المسلم،لا يظلمـــــه ولا يسلمه،.........).

[3] -المرجع السابق.

أخبرنا سليمان بن منصور البلخي قال:حدثنا أبو الأحوص وأخبرنا هناد بن السري في حديثه عن أبـي الأحوص،عن أشعث،عن معاوية بن سعد،قال:هناد قال البراء بن عازب،وقال سليمان عن البراء بـــن عازب قال:(أمرنا رسول الله بسبع،ونهانا عن سبع،أمرنا بعيادة المريض،وتشميت العاطس،وإبــــراء القسم،ونصرة المظلوم،...............).

[4] -صحيح البخاري – أبواب المظالم.

حدثنا يحيى بن موسى:حدثنا وكيع:حدثنا زكريا بن إسحق المكي،عن يحيى بن عبد الله صيفي،عـــن أبي معبد مولى ابن عباس،عن ابن عباس رضي الله عنهما:أن النبي صلى الله عليــه وسـلم بعـث معاذا إلى اليمن،فقال:(اتق دعوة المظلوم،فإنها ليس بينها وبين الله حجاب).

ويقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" من ظلم أخاه يجب عليه أن يرد إليه مظلمته قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه دينار ولا درهم،فيؤخذ من حسنات الظالم وتعطى للمظلوم،فإذا انتهت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وألقي على الظالم"([1]) ،وقال أيضا:"إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"([2]).

وقال صلى الله عليه وسلم:"حين ينجو أهل الإيمان من جهنم يتوقفون عند جسر بين الجنة والنار،وهناك يتم رد المظالم ممن ظلم في الدنيا،وحين ينجون من هذا أيضا يسمح لهم بدخول الجنة عندئذ"([3]).

الفخر والغرور

عندما توجد في شخص ما صفة تميزه فمن الطبيعي أن ينشغل بها في قلبه،وهذا ليس عيبا أخلاقيا،ولكن عندما يزيد اهتمامه بما يميزه بدرجة تجعله يحتقر أولئك الذين لا يتمتعون بهذه الصفة ويظنهم أقل منه فإن هذا يعد كبرا،وإظهار هذا الكبر يعد تكبرا،وأول من ظهرت فيه هذه الصفة الأخلاقية السيئة في الدنيا هو الشيطان،فقد اعتبر نفسه أرقى وأعلى في مقابل آدم،وصاح قائلا:

"أنا خير منه"(الأعراف:١٢).

---

[1] -المرجع السابق.

حدثنا آدم بن أبي إياس:حدثنا ابن أبي ذئب:حدثنا سعيد المقبري،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم،قبل أن لا يكون دينارولا درهم،إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته،وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

[2] -صحيح مسلم – باب تحريم الظلم.

حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير،حدثنا أبو معاوية،حدثنا بريد بن أبي بردة،عن أبيه،عن أبي موسى،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن الله عز وجل يملي للظالم،فإذا أخذه لم يفلته".

[3] -صحيح البخاري – أبواب المظالم.

حدثنا إسحق بن إبراهيم:أخبرنا معاذ بن هشام:حدثني أبي،عن قتادة،عن أبي المتوكل الناجي،عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه،عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إذا خلص المؤمنون من النار بقنطرة بين الجنة والنار،فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا،أذن لهم بدخول الجنة،فوالذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده،لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا".

لقد خلق آدم من طين،وأنا خلقت من النار،وبناءا على تفاخره هذا جعله الله رجيما،وقال:"فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين"(الأعراف:١٣).

والكبر والغرور شيء نسبي لا يكفيه أن تتخيل ما في نفسك من عظمة فقط،وإنما يستدعي ذلك تحقير الآخرين،ولهذا جاء في الحديث الشريف أن شخصا جميلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:"أنا رجل جميل وأحب الجمال،ولا أحب أن يتفوق أحد علي في الجمال،أيكون هذا تكبرا؟ فقال صلى الله عليه سلم:التكبر هو أن لا تقبل الحق وتحتقر الناس"([1]).

وهذا الوضع الإضافي للتكبر هو الذي جعل منه منبعا للمساوئ الدينية والأخلاقية والاجتماعية،ولم يكن يعارض الأنبياء سوى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أفضل من الآخرين،ولولا هؤلاء لقبل عامة الناس والفقراء دعوة الأنبياء:

"وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء"(إبراهيم:٢١).

لقد أعطى الله تعالى سيدنا موسى وسيدنا هارون معجزات كبيرة وأرسلها إلى فرعون وملأئه،لكنهم لم يقبلوا الهداية التي أرسلها الله إليهم لأنهم يعتبرون أنفسهم الأعظم والأفضل:"فاستكبروا وكانوا قوما عالين"(المؤمنون:٤٦).

وبناءا على هذا التكبر فإنهم لم يقبلوا أن يطيعوا شخصا مثلهم يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق فقد كان من العار لهم أن ينضموا إلى حلقة تجمعهم مع عامة الناس:

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين"(هود:٢٧).

---

[1]- ابو داود – كتاب اللباس – باب ما جاء في الكبر

حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى،ثنا عبد الوهاب،ثنا هشام،عن محمد،عن أبي هريرة،أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلا جميلا فقال:يا رسول الله،إني رجل حبب إلي الجمال،وأعطيت منه ما ترى،حتى ما أحب أن يفوقني أحد،إما قال:بشراك نعلي،وإما قال:بشسع نعلي،أفمن الكبر ذلك؟ قال:لا،ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس.

المهم أن الذين أنكروا دعوة الأنبياء هم الذين يعتبرون أنفسهم لسبب ديني أو قومي أو سياسي أو لأي سبب آخر أفضل من الآخرين،أو أفضل من الأنبياء أنفسهم،ولهذا ذم الله تعالى بشدة أمثال هؤلاء في القرآن الكريم وبأساليب مختلفة حتى تبدو للجميع كل مدارج الكبر والغرور،فإذا كان اللفظ العام في هذه الحالة هو الاستكبار ومشتقاته،فإنه عبر عنه في بعض المواضع بلفظ العزة:

"بل الذين كفروا في عزة وشقاق"(ص:٢).

وفي بعض الأحيان استخدم لفظا أقوى من ذلك:

"كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر"(غافر:٣٥).

وفي موضعين استخدم لفظ عدم الحب للمختال الفخور المستكبر وهو المتكبر،وقال تعالى أن مثل هذا المغرور محروم من عزة محبتي:

"إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا"(النساء:٣٦).

"إنه لا يحب المستكبرين"(النحل:٣).

كما بشر أمثال هؤلاء بجهنم:

"أليس في جهنم مثوى للمتكبرين"(الزمر:٦٠).

"فبئس مثوى المتكبرين"(الزمر:٧٦).

وجاءت هذه الشدة مع المغرورين لأن غرورهم يمنعهم من قبول الحق،ولا يمكن إحصاء المساوئ التي تنتج عن الكبر والغرور من الناحية الأخلاقية والاجتماعية،على سبيل المثال فإن المتكبر يعتبر الجلوس مع عامة الناس واختلاطه بهم والحديث معهم أمرا يقلل من شأنه،ويرغب في أن يخضع الناس له ،ويقفوا أذلاء أمامه،بل إنه لا يعتبر كثيرا من الناس جديرين بهذا الشرف ،وحين يلتقي بالناس يريد أن يبدأه الناس بالسلام ،ويريد أن يكون أمام الناس في كل طريق يمشون فيه ،ويحاول أن يكون رئيسا للمجالس،المهم أن ثمرات هذا الكبر تظهر في آلاف الصور،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر"([1])،وقد شرح الإمام الغزالي فلسفة هذا الحديث بأن أخلاق المسلمين

[1] –أبو داود – كتاب اللباس – باب ما جاء في الكبر.

هي أبواب الجنة ،والغرور يغلق كل هذه الأبواب ،ولذا فإن الشخص الذي يكون بداخله ولو ذرة من الغرور لن يدخل الجنة،بمعنى أنه سيكون في الآخرة منفصلا عن الناس كما كان في الدنيا.

ولأن هذا العيب الأخلاقي موجود في كل طبقات الناس ،وتظهر نتائجه في صور متعددة لذا يكون من الصعب استقصاؤه،إلا أن الشريعة وضحت بعض نتائجه،على سبيل المثال فإن مظاهر الكبر والغرور التي تتعلق بالأمراء والسلاطين يقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن الشخص الذي يحب أن يقف الناس أمامه عليه أن يتبوأ مقعده من النار"،وذات مرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا على عصاه فوقف الصحابة تعظيما له ،فقال:لا تقفوا تعظيما لي مثلما يفعل العجم"([1]).

ومما يعد كذبا إضافة ألقاب إلى الاسم دون أن تكون حقيقة في الواقع،فإن كانت حقيقة فإنها ذريعة إلى الفخر والغرور ،وكان ملوك العجم يطلقون على أنفسهم لقب ملك الملوك من باب الفخر([2])،وقد ذكر الله تعالى بعض المظاهر السيئة للكبر والغرور في القرآن الكريم،فقال على سبيل المثال:

"ولا تمش في الأرض مرحا،إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا "(الإسراء:٣٧). "ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور"(لقمان:١٨). كما وضح شأن المذنب في قوله:" ثاني عطفه"(الحج:١).

وقال صلى الله عليه وسلم:"من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"([3]).

حدثنا أحمد بن يونس،حدثنا أبو بكر يعني ابن عياش،عن الأعمش،عن إبراهيم،عن علقمة،عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر،ولا يدخل النار من كان قلبه مثقال خردلة من إيمان.

[1] –أبو داود – كتاب الأدب – باب في قيام الرجل للرجل.

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ،حدثنا عبد الله بن نمير،عن مسعر،عن أبي العنبس،عن أبي العدبس،عن أبي مرزوق،عن أبي غالب،عن أبي أمامة قال:خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا،فقمنا إليه فقال:لا تقوموا كما تقوم الأعاجم،يعظم بعضها بعضا.

[2] –صحيح البخاري.

[3] –أبو داود – كتاب اللباس – باب ما جاء في إسبال الإزار.

وجاء في حديث آخر أنه فيمن كان قبلكم شخص يلبس لباسا ويغتر به ،فأمر الله الأرض أن تبتلعه،ولا يزال يغوص في الأرض حتى يوم القيامة([1]) ،وعلى العكس من ذلك هناك كثير من الأفعال التي تدل على التواضع ،وقال عنها الله تعالى أنها من صفات عباد الرحمن:

"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"(الفرقان:٦٣).

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناول طعامه وهو جالسا القرفصاء ،وكان أحد البدو موجودا معه،فسأله البدوي:ما هذه الطريقة في الجلوس؟،قال صلى الله عليه وسلم: لقد خلقني الله شريفا،لا متكبرا ولا متمردا([2]).

وكان هناك أحد الصحابة الذين كان يعتبرهم الناس مغرورين متكبرين ،وكان يرد على الناس ما يظنون فيه ،يقول:يظن الناس أني مغرور في حين أنني أركب الحمار والتحف بالرداء وأحلب الشاة،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي:أن الشخص الذي يفعل هذا لا غرور فيه([3]).

وهناك أسباب كثيرة للكبر والغرور ،ولكن الأشياء التي يتفاخر بها أهل الدنيا عادة هي الحسب والنسب والمال والجمال والقوة وكثرة الأعوان ،وقد وضح

حدثنا النفيلي، حدثنا زهير، حدثنا موسى بن عقبة،عن سالم بن عبد الله،عن أبيه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقال أبو بكر:إن أحد جانبي إزاري يسترخي،إني لأتعاهد ذلك منه،قال:لست ممن يفعله خيلاء.

[1] -الترمذي – أبواب البر و الصلة – باب ما جاء في الكبر.

[2] -ابن ماجه – كتاب الأطعمة – باب الأكل متكئا.

حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي،حدثنا أبي،أنبأنا محمد بن عبد الرحمن بن عرق،حدثنا عبد الله بن بسر،قال:أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه يأكل،فقال أعرابي:ما هذه الجلسة؟فقال:إن الله جعلني عبدا كريما،ولم يجعلني جبارا عنيدا.

[3] -الترمذي – أبواب البر والصلة – باب ما جاء في الكبر.

حدثنا علي بن عيسى البغدادي،حدثنا شبابة بن سوار حدثنا ابن بي ذئب عن القاسم بن عباس عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال:تكونون في التيه وقد ركبت الحمار ولبست الشملة وقد حلبت الشاة ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء.

الإسلام رأيه في كل سبب منها في أن أيا منها ليس ذريعة للفخر والغرور: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (الحجرات:١٣).

ثم قال بعد ذلك أن مدار العظمة والشرف ليس على الحسب والنسب، وإنما على الفضائل الروحانية: "إن أكرمكم عند الله اتقاكم" (الحجرات:١٣).

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر أكثر فقال: "لقد محا الله تعالى غرور جاهليتكم والتفاخر بالآباء والأجداد، وليس هناك إلا قسمان من الناس هما المؤمن المتقي، والسيئ الفاسق، كلكم أيها الناس لآدم، وآدم من تراب، فليترك الناس التفاخر على بعضهم البعض، فسيكون ذلك حطب جهنم، وهل هناك أكثر ذلا ممن يجر النجاسة بفمه" ([1]).

أما فيما يتعلق بالزينة الظاهرية للجسم والحفاظ على نظافته فإنه يعد أمرا من أمور الجمال الجديرة بالاحترام، وهكذا حين استفسر شخص جميل منه صلى الله عليه وسلم بأنني أحب أن تكون ملابسي نظيفة وممتازة فقال صلى الله عليه وسلم: "الله جميل يحب الجمال" ([2])، أي أن هذا ليس من الغرور، إلا أنه في الحالات التي يكون فيها الجمال ذريعة لإظهار الكبر والغرور فإن الشريعة منعتها، وهكذا نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصا بنصائح أخلاقية منها أن لا تسبل إزارك إلى أقصى حد، لأن هذا لون من الغرور، والله لا يحب المختالين المغرورين" ([3]).

---

[1] - الترمذي - أبواب البر والصلة - باب ما جاء في الكبر.

[2] - أبو داود - كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار.

حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا هشام، عن محمد، عن أبي هريرة، أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلا جميلا فقال: يا رسول الله، إني رجل حبب إلي الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال: بشراك نعلي، وإما قال: بشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس

[3] - الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن أبي غفار، حدثنا أبو تميمة الهجيمي، وأبو تميمة اسمه طريف بن مجالد، عن أبي جري جابر بن سليم قال: رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: عليك السلام يا رسول الله مرتين، قال: لا تقل: عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك قال: قلت: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام

وقد أعطى الإسلام للمال والثروة أهمية من الناحية الاجتماعية والحياتية،وعبر بأنها قوام وخير،وحرم تضييع المال،واعتبر الحفاظ عليها ضروريا حتى قرر أن الشخص الذي يموت دفاعا عن ماله فهو شهيد،ومع ذلك فلو جعل المال وسيلة للكبر والغرور فإن حقيقته لا تزيد عن سراب:

"اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد"(الحديد:٢٠).

ومن الأسباب التي جعلت المال والثروة أمرا سيئا أنه يصير وسيلة للكبر والغرور والتفاخر بين الناس،بينما لا تزيد مكانته عن كونه يحقق و يلبي مطالب صاحبه والآخرين.جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لقد أغفلكم طلب المال والثروة،يقول ابن آدم مالي،في حين أن مالك هو الذي تصدقت به وأكلته ولبسته"([1]).

والقوة شيء يمكن من خلالها تحقيق الأهداف السياسية والدينية والدنيوية ،ولهذا فهي في مثل هذه الأحوال تستحق الثناء ،وهذا هو السبب في أن الله تعالى قال عن موسى في القرآن الكريم أنه (قوي أمين)،وقد عبر سيدنا لوط في أحد المواقف عن حسرته قائلا: "قال لو أن لي بكم قوة أوآوى إلى ركن شديد"(هود:٨٠).

كما وضح الله تعالى في آية أخرى فضله على الناس جميعا قائلا:"الله الذي خلقكم من ضعف،ثم جعل من بعد ضعف قوة"(الروم:٥٤).

وأمر المسلمين أن يجعلوا لأنفسهم قوة وعدة وعتادا:"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم " (الأنفال:٦٠).

كما وردت الإشارة إلى فضيلة القوة في الأحاديث أيضا،ففي الحديث"أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"([2]).ورغم أن فضيلة الضعف وردت في

سنة فدعوته أنبتها لك،وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك قال قلت:اعهد إلي. . . . وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة،وإن الله لا يحب المخيلة. . . . .

[1] -الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

حدثنا محمود بن غيلان،حدثنا وهب بن جرير،حدثنا شعبة،عن قتادة،عن مطرف،عن أبيه أنه انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول:"ألهاكم التكاثر"قال:يقول ابن آدم مالي مالي،وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت.

[2] -مسلم – كتاب القدر – باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

أحاديث عدة،إلا أنه بالتأمل والتمعن يعلم أن الضعف ليس فضيلة في الحقيقة ،وإنما الفضيلة هي التواضع والانكسار ،وهو صفة تستحق الإشادة ،ولذلك جاء الضعف في بعض الأحاديث في مقابل الكبر والغرور.

جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"ألا أخبركم بأهل الجنة،كل ضعيف مستضعف ،ألا أخبركم بأهل النار،كل عتل جواظ متكبر"([1]).

وجاء في حديث آخر:"الجبارون المستكبرون وقالت هذه:يدخلني الضعفاء والمساكين"([2]).

ويعلم من هذه الأحاديث أن الضعف ليس صفة تستحق الإشادة بها في الإسلام ،ولكنها عدت فضيلة باعتبار التواضع والانكسار ومظهر من مثل هذه الصفات.

ولقد كانت كثرة الأعوان والأصدقاء دائما أمرا يتميز به الإنسان ،وخاصة في الأمم غير المتمدينة والتي تتفاخر دائما بكثرة المال والأولاد ،وفي نشوة هذا التفاخر كانوا يحتقرون الأمم الأخرى،بل ويغفلون عن الله تعالى ،وكان في الزمن السابق رجل من هذا النوع يفخر كثيرا بكثرة ماله وأعوانه وأصدقائه ،وكان يتصور أن هذه الأشياء خالدة،ولن تقوم الساعة،وحتى لو قامت الساعة فسيكون هذا شأنه ،وبهذا السبب كان يحتقر شخصا آخر:"أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا"(الكهف:٣٤).

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،وابن نمير،قالا:حدثنا عبد الله بن إدريس،عن ربيعة بن عثمان،عن محمد بن يحيى بن حبان،عن الأعرج،عن أبي هريرة،قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

[1] –البخاري – كتاب الأدب – باب الكبر.

حدثنا محمد بن كثير:أخبرنا سفيان:حدثنا معبد بن خالد القيسي،عن حارثة بن وهب الخزاعي،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف،لو أقسم على الله لأبره،ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر) .

[2] –مسلم – كتاب صفات المنافقين، وأحكام باب النار يدخلها الجبارون.

حدثنا ابن أبي عمر،حدثنا سفيان عن أبي الزناد،عن الأعرج،عن أبي هريرة،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:احتجت الجنة والنار،فقالت هذه:يدخلني الجبارون والمتكبرون،وقالت هذه : يدخلني الضعفاء والمساكين،فقال الله عز وجل لهذه:أنت عذابي أعذب بك من أشاء وربما قال:أصيب بك من أشاء وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء،ولكل واحدة منكما ملؤها.

أما الشخص الآخر فكان يقـول له في لهجة ناصحة أن هذا القدر مـن الكـبر والغرور لا يليق بالإنسان الضعيف:"أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا"(الكهف:٣٧).

وكانت النتيجة أن عذاب الله تعالى قضي على ثروته ومحاها ،وعندئذ علـم أن الأشياء غير الخالدة لا تستحق التفاخر بها ،وكان للعـرب كذلك يفخرون بهذه الأمـور، وكانوا يفخرون دائما بكثرة أفراد القبيلة ،وأكثر من هذا أنهم كانوا يتفاخرون بموتـاهم جنبا إلى جنب مع الأحياء ،وكانوا يتفاخرون فيما بينهم بهذا ،وظهر لفظ(التكـاثر)ليـدل على هذا التسابق في التفاخر،وهو الذي أغفلهم عن الأمور الدينية ،ولـهذا خـاطب الله تعالى الإنسان في سورة خاصة وعاتبه قائلا:"ألهاكم التكاثر،حتى زرتم المقابر"(التكاثر).

ومع ذلك فإن الإسلام لا يتجاهل هذا الأمر تماما،وإنما يعتبر زيادة النسل أمـرا يستحق الإشارة من الناحية الاجتماعية والحضاريـة بشرط أن يتم توظيف هذه الزيـادة في نصرة الحق و ليس في الفخر والغرور،ولهذا قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم:"تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم"([1]).

واليوم غيرت قضية الكثرة والقلة هذه وجهة السياسة لدى الشعوب والدول،ولـم يغفل الإسلام عن هذا الأمر.

الرياء

الرياء من حيث اللغة يعنى المراءاة والاستعراض ،وحقيقة الأعمال الإنسـانية مبنية على النوايا والأغراض،ولهذا فإن أكثر مدار صلاح الأعمال وعدم صلاحها علـى الغرض والنية ،وقد جاء في الحديث الصحيح "إنمـا الأعمـال بالنيـات".

والرياء يفسد أساس غرض وغاية الأعمال أي النية ،وبذلك يخلخل المبنى كاملا ويضعفه،والهدف الأصلي للاستعراض والريـاء هـو أن يظـهر الإنسـان حسـناته وسيئاته،ويخلق لنفسه ظنا حسنا بين النـاس ،وأن يظـهر نفسـه أعظـم ممـا هـو

[1]- أبو داود – كتاب النكاح – باب في تزويج الأبكار.

حدثنا أحمد بن إبراهيم،حدثنا يزيد بن هارون،أخبرنا مستلم بن سعيد ابن أخت منصـور زاذان،عـن منصور يعني ابن زاذان عن معاوية بن قرة،عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي صلـى الله عليه وسلم فقال:إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال،وإنها لا تلد أفأتزوجها؟قال:لا ثم أتـاه الثانيـة فنهاه،ثم أتاه الثالثة فقال:تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم.

عليه،والغرور كذلك أساسه هذه الرغبة ،لأنه يهدف هو الآخر إلى تعظيم النفس ومراءاة الناس،ولهذا جمع القرآن الكريم بين هذين العيبين في موضع واحد ،وبين مساوءهما، وأمر الله المسلمين في الجهاد أن يعتزوا بقوتهم ،وأن لا يكون الهدف من الجهاد هو استعراض هذه القوة،وإنما حماية الحق ورفع كلمة الله تعالى.قال تعالى:"ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس"(الأنفال:٤٧).

ويظهر هذا الرياء والاستعراض في كل عمل لا يكون خالصا لوجهه تعالى،حيث يكون وراءه هدف دنيوي ،ولهذا أطلق الإسلام على الرياء اسم الشرك الخفي والشرك الأصغر،لأنه يشرك في هذه الأعمال بخلطها بالأغراض الدنيوية شيئا آخر مع الله تعالى،ولهذا يقول تعالى:"أرأيت من اتخذ إلهه هواه"(الفرقان:٤٣).

وجاء في الحديث أن الله تعالى يقول:"أنا أغني الشركاء عن الشرك ،فمن عمل عملا أشرك فيه معي غيري فلا علاقة لي به،فهو لمن أشرك "،ويروي أحد الصحابة أنه حين يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ينادي مناد من عمل عملا لله أشرك فيه معه غيره-فليطلب أجره ممن أشركه،فالله غني عن الشرك.

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم-قال إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي الشرك،لكني لا أقول أنهم سيعبدون الشمس والقمر والأصنام،وإنما سيشركون مع الله في أعمالهم آخرين أو يقومون بها لرغبة خفية"([1]).

وأسوأ شيء في الإسلام بعد الكفر هو النفاق،فما هو النفاق؟،إنه أن يكون في القلب شيء وعلى اللسان شيء آخر،وتكون نتيجته أن إيمان المنافق وأعماله في الخير ليست إلا رياء واستعراضا ومراءاة،فهو ينكر وجود الله تعالى من قلبه،لكنه يؤدي الأعمال الدينية خوفا من شيء،أو لتحقيق فوائد دنيوية ،وبهذا الاعتبار بين الله صفات المنافقين في قوله:"يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس و لا يؤمن بالله و اليوم الآخر"(البقرة:٢٦٤).

---

[1] سنن ابن ماجه – باب الرياء و السمعة.

حدثنا محمد بن خلف العسقلاني،حدثنا رواد بن الجراح، عن عامر بن عبد الله،عن الحسن بن ذكوان،عن عبادة بن نسي،عن شداد بن أوس،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن أخوف ما أتخوف على أمتي: الإشراك بالله أما إني لست أقول يعبدون شمسا،ولا قمرا،ولا وثنا،ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية.

ولأعمال الرياء لدى المنافقين صور مختلفة،منها أنهم يهدفون إلى الانضمام إلى جماعة ما،ومنها أنهم يهدفون إلى التأثير على الناس واستمالتهم إليهم،ولأن الهدف الأول يمكن تحقيقه من الأفعال بعامة لهذا فإنها تؤدي بغفلة وعدم اهتمام،على العكس من ذلك بالنسبة للهدف الثاني يضطر معها المنافق إلى اصطناع الخشوع والخضوع والاستغراق والانهماك في التقوى .

ولم يكن للمنافقين هدف في عهد النبوة سوى أن يكونوا منضمين في الظاهر لجماعة المسلمين،ولذا فإنهم كانوا يؤدون العبادات اليومية في الإسلام ولو بدون اهتمام أو تركيز،حتى يبقي المسلمون على اعتقادهم بأنهم معهم ومنهم،ولهذا فإن أعمال مثل هذا الشخص تخلو من الإخلاص ،ولا تكون لله تعالى :

" إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم،وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى،يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا " (النساء : ١٤٢) .

" فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون والذين هم يراءون " (الماعون : ٥) .

وجاء في سنن ابن ماجه أن الصحابة ذكروا ذات مرة المسيح الدجال إذ خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:هل أخبركم بشيء هو أخطر عليكم عندي من المسيح الدجال.قال الصحابة بلي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:الشرك الخفي،وأن يقوم الشخص للصلاة متزينا لها لأن شخصا آخر يراه " [1] .

ولأن الرياء يفسد أصل الأعمال وشكلها فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل من الضروري القضاء عليه تماما،وحذر أمته من الوقوع فيه،ومن هنا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل صور الرياء التي يمكن أن تظهر طبقا لفطرة الإنسان وواضعا في الاعتبار الحالة الأخلاقية الخاصة بالعرب في ذلك الوقت ،على سبيل المثال كان أول شيء في هذا الخصوص الذي كان يعد في ذلك الوقت علامة على السمعة الطيبة والكرامة،وكانت له أهمية كبيرة بين الفضائل الأخلاقية عند العرب،وكان الناس

---

[1] ابن ماجه – باب الرياء و السمعة .

حدثنا عبد الله بن سعيد،حدثنا أبو خالد الأحمر،عن كثير بن زيد،عن ربيح ابن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري،عن أبيه،عن أبي سعيد قال :خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدجال ، فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قال : قلنا : بلى ، فقال : الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل.

ينفقون أموالا طائلة لمجرد الشهرة،وقد أمر الله بالصدقات،وعندئذ لاح خطر ظهور هذا العيب،ولهذا بينت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فضيلة إخفاء الصدقات ما عدا الزكاة،وذلك حتى لا يمس أعمال الناس شيء من الرياء :

"إن تبدو الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم "(البقرة: ٢٧١).

وجاء في الحديث أن هناك سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله،ومن هؤلاء السبعة رجل أخفى صدقته حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"([1]).

ولقد كان أشهر ما عند العرب من الصفات الأخلاقية وأحسنها شجاعتهم،وفرض الإسلام الجهاد فهيأ بذلك فرصة عظيمة لإظهار الشجاعة،وبالإضافة إلى ذلك فهناك العديد من الفوائد الشخصية والدنيوية التي يمكن تحقيقها عن طريق الجهاد ،ولهذا فإن الجهاد معرض لأن يكون فرصة للرياء والتظاهر،لكن الإسلام نزه الجهاد عن كل هذه الأشياء وأخبر المسلمين عن حقيقته ،وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:شخص يحارب لمال الغنيمة،وآخر يحارب للشهرة وثالث لإظهار الشجاعة ،فمن منهم يكون جهاده في سبيل الله ،فقال صلى الله عليه وسلم ذلك الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا .

وجاء أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل:شخص يحارب لإظهار الشجاعة،وشخص للحمية القومية وشخص يحارب رياءا،فمن منهم يكون جهاده في سبيل الله ،فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة السابقة"([2]) .

---

[1] البخاري – كتاب الزكاة – باب الصدقة باليمين .

حدثنا مسدد :حدثنا يحيى،عن عبيد الله قال : حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال : إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه).

[2] مسلم – كتاب الإمارة – باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

حدثنا سليمان بن حرب : حدثنا شعبة، عن عمرو، عن أبي وائل عن موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل

وهناك مظهر أكثر وضوحا للرياء وهو الفضيلة العلمية ،وهذه الفضيلة العلمية خلقها الإسلام،ومن الممكن أن يظهر فيها الرياء،ولهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بالنتائج السيئة لهذا وبأسلوب مؤثر،فقال في الحديث:إن أول شخص يحكم عليه يوم القيامة هو ذلك الشخص الذي استشهد ،فسوف يمثل أمام الله ويعرفه الله فضله وإحسانه عليه،ثم يسأله ماذا فعلت بكل هذا ،فيقول لقد حاربت في سبيلك واستشهدت،فيقول الله:أنت تكذب لقد حاربت ليقال شجاع ،ثم يسحب ويلقى في نار جهنم،ثم يؤتى بذلك الشخص الذي حصل العلم وعلم الناس وقرأ القرآن ،ويسأل فيجيب لقد تعلمت العلم وعلمته،وقرأت القرآن لأجلك،فيقول الله:إنك تكذب ،لقد حصلت العلم ليقال عالم،وقرأت القرآن ليقال قارئ ،ثم يسحب ويلقى به في نار جهنم ،ثم يؤتى بذلك الشخص الثري،ويسأل فيقول:لقد أنفقت كل مالي فيما تحب أن ينفق فيه ،فيقول الله إنك تكذب،لقد أنفقت كل هذا ليقال سخي ،ويسحب ويلقى به في جهنم"[1].

يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله).

[1] مسلم – كتاب الإمارة .

حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حد ثنا خالد بن الحارث، حدثنا ابن جريج، حدثني يونس بن يوسف ،عن سليمان بن يسار، قال: تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل أحد أهل الشام : أيها الشيخ ! حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : نعم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، قال : كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فماعملت فيها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار.

العجب وحب الذات

ونعني بالعجب وحب الذات حب الشخص لنفسه بشكل غير طبيعي،والفرق بينه وبين الكبر هو أن الكبر أمر إضافي،بمعنى أن المتكبر يعتبر نفسه أعظم من الآخرين،لكن الأناني تكفيه ذاته فقط حتى أنه لو كان هو المخلوق الوحيد لتفاخر أيضا بصفاته و مميزاته .

والحقيقة أنه في بعض الأحيان يهيم الإنسان بما لديه من مميزات وأوصاف لدرجة يبدو له كل شيء آخر حقير،وتبدو له هذه الأوصاف التي يتميز بها وكأنه من اختياره هو ومن صنعه هو،وهذا هو ما نسميه العجب ،ومنه يظهر حب النفس والأنانية،وفي أكثر الأحوال يكون العجب سببا في الكبر .

كان عدد المسلمين في غزوة حنين أكثر من الكفار،فلما رأي المسلمون هذا تولد لديهم العجب فقالوا من يستطيع مواجهتنا،ولم يحب الله تعالى هذا منهم ،وعلى الفور بدأت آثار الهزيمة تظهر عليهم ،وتعجب المسلمون كثيرا مما يحدث ثم نصرهم الله تعالى بنصره،وبدل هزيمتهم نصرا.قال تعالى :

" ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا " (التوبة : ٢٥) .

ولهذا أرشد المسلمون إلى أنهم إذا خرجوا للقتال فعليهم أن يتجنبوا الغرور الكاذب،والعجب وحب الذات ،وأن يصيروا مثالا للإخلاص والإيثار :

" ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس " (الأنفال : ٤٧) .

وهذه هي صورة قريش التي خرجت لمعركة بدر لاستعراض قوتهم وإظهار طاقتهم .

وعندما تعم المدنية أمة،وتزداد ثروتها،وتعمها الرفاهية فإن أفراد هذه الأمة يصابون ببعض الغرور،ويكون هذا وقت هلاكهم.قال تعالى :

" وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها " (القصص : ٥٨) .

وكان هذا حال بعض القرى التي أهلكت،لكنه سيأتي وقت عندما يتم إهلاك الدنيا جميعا دفعة واحدة،أي يوم القيامة،ومن علامات هذا الإهلاك التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عندما يعجب كل شخص برأيه،ويفخر به،وهذا هو الوقت الذي ينبغي فيه أن يقلق بشأن نفسه ([1]) .

---

[1] أبو داود – كتاب الملاحم .

وهناك بعض الناس الذين يبدون في حالة طيبة من الناحية الدينية،وهؤلاء يدعون التقوى بسبب العجب الذي أصابهم،لكن الله تعالى منع من هذا العجب ومن هذا الغرور :

" فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى " (النجم : ٣٢) .

لقد ولد الفضل العلمي والديني القديم لدى اليهود والنصارى قدرا كبيرا من العجب وحب الذات حتى أنهم اعتبروا أنفسهم أحباب الله وأبناءه :

" وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه " (المائدة : ١٨) .

" قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس " (الجمعة : ٦) .

وبالتمعن في هذه الآيات كلها يعلم أن العجب وحب الذات مجرد خداع،وحين ينكشف هذا الخداع يتأكد أن حقيقته ليست سوى سراب،وينكشف ستر هذا الأمر في الدنيا من الناحية السياسية والاجتماعية،أما من الناحية الدينية فإنه ينكشف في الآخرة .

وقد عمل الإسلام على سد باب الذرائع لظهور مادة هذا العجب،فقد جاء في الحديث أن رجلا كان يمتدح آخر بقدر من المبالغة،فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال لقد أهلكته،وذات مرة ذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فامتدحه رجل آخر فقال صلى الله عليه وسلم لقد قطعت عنقه،إن كنت لا بد مادحا أحدا فقل إني أظنه هكذا " ([1]) .

وهذا المنع للمدح لأنه يولد العجب وحب الذات داخل الممدوح،لكن أفضل علاج لهذا المرض أن لا يعتقد أحد أن ما به من مميزات هو نتيجة لعمله وجهده هو،وإنما عليه أن يعتقد أن ذلك هبة من الله وفضل من الله ونعمة عليه،ولهذا أوضح الله تعالى هذا الجانب مرارا عند ذكره لنعمه على عباده فقال:"لا تفرحوا بما آتاكم"(الحديد:٣).

---

[1] البخاري – كتاب الأدب – باب ما يكره من التمادح .

حدثنا آدم: حدثنا شعبة، عن خالد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك، قطعت عنق صاحبك – يقوله مرارا – إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، والله حسيبه، ولا يزكي على الله أحدا.

التبذير

التبذير هو أن ينفق الشخص أكثر مما يحتاجه في وضعه ومكانته،ولأن الإسلام نزل في العرب وكان كرم العرب وسخاؤهم يصل إلى حد التبذير لها فإن الإسلام هو الوحيد بين الأديان الذي منع من التبذير،وأمر بأن ينفق الشخص بما يتناسب مع وضعه،إذ أن عادة التبذير تدمر الثروة القومية بشكل سيء،ولا تستفيد الجماعة بهذا الإنفاق الذي لا محل له،كما أن الإسراف عموما يظهر في شكل غرور وتفاخر،وهذا مما لا يخفي من سوء هذه الصفة الأخلاقية.

وكان العرب في مجالسهم يتعاطون الخمور ويلعبون الميسر،ثم ينفقون كل ما يكسبون من لعب الميسر في نشوة سكرهم،فإذا ما طالت أيديهم حيوانا ذبحوه بغير سبب، ونجد في أشعار الجاهلية كثيرا من أشعار التفاخر بهذا الأمر،وكان من صور الحصول على الشهرة أن يذبح الشخص جملا تلو الآخر حتى يقضي على كل ما يملك من جمال وحينئذ يعتبر الشخص المقابل له مهزوما،وكانوا يطلقون على مثل هذا السباق(معاقرة)، وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الكرم الذي يعتمد على الرياء.([1])

وقد كان الأساس الذي يقوم عليه الكرم عند العرب في الغالب هو الفخر والغرور،وقد ولد هذا في صفة الكرم والسخاء عندهم نوعا من الاعتدال،وكانت النتيجة الدينية لهذا أن كرمهم هذا لم يكن مقبولا عند الله نظرا لخلوه من الإخلاص،وفي بعض الأحيان كان الرجل ينفق كل ما يملك من ثروة حتى يعاني من الإفلاس في الدنيا،وفي مثل هذه الأحوال لا يكن المال كافيا لمثل هذا السخاء،وعندئذ كان الناس يحصلون على المال بالسلب والنهب،وينفقون هذا المال في سبيل التفاخر والتظاهر،وقد قرر الله تعالى حقوقا للقضاء على هذا النوع من عدم الاعتدال،ولقب المبذر بأخي الشيطان:

"وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا،إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين،وكان الشيطان لربه كفورا"(الإسراء:٢٧).

---

[1]- أبو داود .

حدثنا هارون بن عبد الله،قال: حدثنا حماد بن مسعدة،عن عوف،عن أبي ريحانة،عن ابن عباس،قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب.

ويثبت من الجزء الأخير في الآية السابقة أن التبذير جحود لله تعالى ،ويقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية أن بعض العلماء يقولون أن مفهوم هذه الآية يتطابق مع عادات العرب ،لأنهم كانوا يجمعون المال من السلب والنهب،ثم ينفقونه في سبيل الحصول على سمعة يتفاخرون بها.واليوم أيضا يرتكب الناس فعل التبذير هذا من خلال ما ينفقونه في مناسبات الأفراح والأحزان ،وهؤلاء في اصطلاح القرآن يطلق عليهم إخوة الشياطين،وهذه التعاليم لا تنافي الكرم والسخاء،إذ أن الكرم هو ما بين البخل والإسراف،وهو ما أمر الله تعالى به ،وقال أن نتيجة هذا التبذير هي أنكم ستفلسون،ولا تصلحون بعدها لأي عمل مفيد،بل على العكس من ذلك سوف يلومكم الناس:

"ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا"(الإسراء:٢٩).

ولأن الاعتدال خلفته التعاليم الإسلامية لهذا فإن الله تعالى جعله صفة مميزة للمسلمين فقال:

"والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما"(الفرقان:٦٧).

ولا ينبغي أن يفهم أحد أن نتيجة هذه التعاليم هي أن الإسلام يؤيد التقتير ،وأنه يشجع على هذا في المأكل والمشرب والملبس وكل وجوه الإنفاق،وإنما ينبغي أن نفهم أنه على كل شخص أن ينفق في حدود وضعه ومقدرته،ولا يجب أن ينفق أكثر مما يستطيع ،أي أن المقياس في مسألة التبذير هذه هو وضع الشخص نفسه ،وقد قال الله تعالى في سورة الأعراف:

"وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين"(الأعراف: ٣١).

وليس هناك أفضل من الصدقات والإنفاق في وجوه الخير ،وبالرغم من ذلك فإن بعض المفسرين يرون أنه لا ينبغي أن ينفق في هذه الأمور أكثر من مقدرته:

"كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين"(الأنعام: ١٤١).

الحسد

إذا أنعم الله على شخص كأن يرزقه العلم والفضل والمال والثروة والعزة والشهرة أو غيرها من النعم الدينية والدنيوية.ورأى شخص آخر هذه النعم فتمنى من قلبه أن يحصل على مثل هذه النعم فإن هذا يسمى غبطة ومنافسة ،وهذا ليس أمرا سيئا،

على العكس من ذلك فهو أمر محبب دينيا،لكنه إذا لم يحب هذه النعم لصاحبها،وتمنى أن تزول عنه هذه النعم فإن هذا يسمى حسد،وهذا هو التعريف الذي نستنبطه من القرآن الكريم،إذ أن الله تعالى قد أسبغ على المسلمين في عهد الرسالة النبوية نعما كثيرة فأنعم عليهم بنعمة الإيمان و القرآن،وكان أعداء المسلمين من اليهود يغتاظون لكل هذا:

"أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله"(النساء:٥٤).

وكانوا يتمنون لو أن هذه النعم زالت من عند المسلمين:

"ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم"(البقرة:١٠٩).

وللحسد ثلاثة أقسام ودرجات:

١-أن يتمنى شخص أن تزول النعمة من عند الآخر سواء حصل عليها هو ،أو حتى لم يرد أن يحصل هو عليها،وهذا هو أسوأ أنواع الحسد ،وبناءا عليها كان المنافقون يتمنون لو صار المسلمون كفارا مثلهم:

"ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء"(النساء:٨٩).

٢-الثاني هو أن يتمنى شخص الحصول على هذه النعم،وفي هذه الحالة يكون هدفه هو الحصول على هذه النعم فقط،ولكن في بعض الأحيان يكون من غير الممكن الحصول على هذه النعم دون زوالها من عند الأخر،وبالتالي يتمنى أن تسلب هذه النعم من الآخر أيضا.

الثالث أن يتمنى شخص الحصول على هذه النعم،لكنه لا يتمنى أن تسلب ممن هي عنده.

والصورة الأولى من هذه الصور هي الأكثر سوءا وبشاعة،أما الصورة الثانية فلا نستطيع أن نطلق عليها حسدا نظرا لأن ليس بها تمنى زوال نعمة الغير بشكل أساسي،لكن القرآن الكريم مع ذلك قال:"ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض"(النساء:٣٢).

ويثبت من هذا هو أن تمني نعمة بعينها مما عند الغير أمر ليس محببا،وبالتالي فهو مذموم،لكن تمني مثل هذه النعمة أمر ليس مذموما،ولهذا قال تعالى:

"واسألوا الله من فضله"(النساء:٣٢).

أما الصورة الثالثة فليست مذمومة،بل أمر مستحب،وهي ما تسمى في الشريعة التسابق،وللحسد سبعة أسباب:

١-البغض والعداوة،إذ أنـــه من غير الممكن أن يستوي لدى شخص مـــا عيوب عـــدوه وحسناته،ولهذا يتمنى العدو أن تحل المصائب على عدوه،وحين تحل هـــذه المصـــائب يفرح بذلك،وعلى العكس من ذلك إذا أنعم الله على أحد فإنه لا يحب ذلك ولا يفرح بـــه، وهذا هو الحسد.والعداوة التي كان الكفار والمنافقون يكنونها للمسلمين تظهر من هـــذه الطريقة المشوبة بالحسد:

"ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر"(آل عمران:١١٨)
"إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها" (آل عمران:١٢٠).

والحسد الذي يتولد بسبب البغض والعداوة لا يشترط فيه التساوي حتى يحـــدث، إذ يمكن أن يتمنى أدنى شخص سوءا لأعظم شخص.

٢-والسبب الثاني هو الفكرة الخاطئة عن الفخر الشخصي،إذ عندما يفوز شخص ما من بين أقرانه بمنصب رفيع مثلا فإن هذا يكون صعبا عليـــهم،ولا يحبـــون هـــذا التقـــدم منه،ويتمنون لو زال هذا المنصب منه حتى يتساوى معهم.

٣-أما السبب الثالث في الحسد في أن يريد الحاسد أن يجعل من شـــخص آخـــر تابعـــا له،ولهذا عندما يتيسر لهذا الشخص المستهدف من الميراث ما يجعله يخرج عن دائـــرة الطاعة فان الحاسد يتمنى لو تزول عنه هذه المميزات حتى يعود إلـــى طاعتـــه،ولـــهذا السبب نفسه كان كفار قريش ينظرون إلى جماعة المسلمين باحتقار قائلين:

"أهؤلاء من الله عليهم من بيننا"(الأنعام:٥٣).

وهذا السبب من أسبـــاب الحسد يتعلق بالأكابر والسادة،ويتلازم معه الكـــبر والغـــرور واحتقار الآخرين.

٤-والسبب الرابع من أسباب الحسد أن يحصل من يظنونه شخصا عاديا على شـــرف وفضل غير عادى فيتعجبون،وبناءا على هذا التعجب فإنهم ينكرون هذا الشرف الـــذي حازه،ولهذا السبب كان الكفار ينكرون رسالة الأنبياء،ويقولون متعجبين:

"أبعث الله بشرا رسولا"(الإسراء:٩٤).

٥-والسبب الخامس من أسباب الحسد عندما يكون لشخصين هدف واحد،عندئذ ينظر كل منهما للأخر بغيرة وحسد،وحين يحقق أحدهما هذا الهدف يسود ظن الآخر بـــه بشـــكل فطرى،والغيرة والحسد بين زوجات رجل واحد وأبناء رجل واحد إنمـــا تكـــون بـــهذا السبب،وقد تآمر إخوة يوسف على قتله،لهذا السبب أيضا:

"إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة"(يوسف:٨).

٦-والسبب السادس من أسباب الحسد حب الشهرة والجاه والنفوذ وطلبها،ولهذا فإن أولئك الذين يريدون التفرد بهذه الأشياء والانفراد بها حين يعلمون أن شخصا ما شاركهم هذه الأمور يتمنون لو زالت عن هذا الشخص تلك المميزات التي أتاحت له مشاركتهم.

وكان اليهود يحسدون المسلمين بنفس الطريقة،إذ أنهم كانوا متفوقين على العرب من الناحية الدينية والعملية قبل الإسلام،لكن هذا التفوق أخذ يزول بفضل الإسلام،ولهذا فإنهم كانوا يعملون على القضاء على الإسلام،وكان أهل المدينة يريدون أن يجعلوا عبد الله بن أبي من المنافقين سلطانا عليهم،لكن الإسلام قضى على هذا الأمر،ولذا لم يعجبه ما حدث،وبالتالي كان يتعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الملأ بطريقة غير مهذبة.

٧-والسبب السابع من أسباب الحسد هو خبث النفس وسوء الطوية،إذ أن هناك بعض الأشخاص تكون فطرتهم هكذا بحيث لا يتحملون رؤية شخص آخر في حالة أفضل،ويفرحون إذا ما حلت بالآخرين المصائب،وفي مثل هذه الحالة لا يكون هناك حاجة إلى نوع من التشارك في الهدف أو العلاقة أو الرغبة في شيء ما مثلا،لأن مثل هؤلاء الناس يحسدون الجميع.

وهذه الأسباب للحسد تتعلق في الغالب بأولئك الذين يكون بينهم هدف مشترك ولهذا لن تجد الأمر بين الأغراب،وإنما بين أولئك الذين بينهم تشارك وارتباط من نوع ما. وهكذا يحسد العالم عالما،والعابد عابدا لأن بينهما شيئا مشتركا وهو العلم والعبادة.وعلى العكس من ذلك فإن العالم أو العابد لا يحسد تاجرا لأنه لا اشتراك بينهما.

وقد خلق الإسلام قاسما مشتركا على نطاق واسع بين المسلمين حين أقام بينهم رباط الأخوة،ولذا فإن الحسد قد يظهر بينهم سريعا ولأبسط الأشياء،ومن الممكن أن تجتمع كل أسباب الحسد في هذا المجتمع الأخوي الكبير،ومن هنا فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بتجنب كل المساوئ الأخلاقية التي ينفرط منها عقد المسلمين فقال:

"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث،ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا،ولاتدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا".

وقد نقل الحافظ ابن حجر في ثنايا شرحه لهذا الحديث قول القرطبي:

"المعنى كونوا كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة".

لكن هذه الأخوة يمكن أن تستمر حين نتجنب كل هذه المساوئ الأخلاقية ،وإن لم نفعل ستتولد العداوة بدلا من الأخوة ،وهذه وغيرها من المحاسن الأخلاقية التي تعد نتيجة حتمية للأخوة ،أو التي تنتج عنها عاطفة الأخوة ،كلها ستفني وتزول ،وقد كتب الحافظ بن حجر في شرح هذا الحديث يقول:

"كأنه قال إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخوانا مفهومه إذا لم تتركوها تصيروا أعداءا،ومعنى كونوا أخوانا اكتسبوا ما تصيرون به أخوانا مما سبق ذكره ،وغير ذلك من الأمور المقتضية لذلك نفيا وإثباتا".

وأخطر هذه المساوئ الخلقية الحسد،لأنه عاطفة لا يكاد يخلو منها قلب،وجاء في الحديث أنه لا يخلو شخص من الطيرة وسوء الظن والحسد ،قيل:فما السبيل للتخلص منها؟ قال صلى الله عليه وسلم إذا تطيرت فلا تترك ما تريد أن تفعله تطيرا،وإذا ساء ظنك فلا تصدقه،وإذا شعرت بالحسد فلا تظلم([1])،ولكن إذا تم إظهار هذا الحسد بصورة عملية فإنه يقضي على كل محاسن الأخلاق في الإسلام،وكان بمثابة الشرارة التي تحيل عن الإسلام ترابا،ولهذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تجنب الحسد فقال:

"إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"

ويعلم من هذا أن الحسد أمر خطير من الناحية الأخلاقية،ولهذا أرشد الله تعالى رسوله والمسلمين جميعا إلى الاستعاذة من خطره:

"ومن شر حاسد إذا حسد".

فحش القول

ولفحش القول أقسام عدة،واحد منها يتعلق بالقوة الشهوانية،ومرتكب هذا النوع عادة يكون من الشباب الرقيع،كما يكون بين الأحباب والأصدقاء الذين لا كلفة بينهم،على سبيل المثال عندما تنشأ مثل هذه الصحبة الخالية من الكلفة يكون ذكر النساء

---

[1] مصنف عبد الرازق نقلا عن فتح الباري – الجزء العاشر – ص ٤٠٣ – مصر .

وجمالهن من بين ما يدور فى أحاديثهم،وفي مثل هذه الجلسات تقال أشياء تصل في بعض الأحيان إلى خدش الحياء،ويطلق على مثل هذه الأحاديث في اللغة العربية(الرفث)وقد منعه القرآن الكريم في الآية التالية :

" فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج " .

ولكن تم تخصيص وقت الحج بهذا لأن الرجال والنساء يجتمعن كثيرا في موسم الحج،ويكون من الصعب الالتزام تماما بالحجاب في هذا السفر،ولهذا فإن مثل هذا الرفث يمكن أن يتم بحرية كبيرة في حين أن هذا الوقت يكون وقت ذكر الله فقط،وإلا فلا تخصيص في هذا الموضوع للحج فقط.وفحش القول أو الرفث ممنوع تماما.وقد جاء في سنن أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات مرة في جمع من الرجال والنساء([1])،وبعد أن حمد الله وأثنى عليه اتجه إلى الرجال وقال:هل يوجد بينكم من يذهب إلى زوجته ويغلق بابه ويستره،وبذلك يكون في ستر الله تعالى؟فقال الناس:نعم،فقال صلى الله عليه وسلم:ثم يجلس في صحبة الناس ويقول لهم:قلت كذا وقلت كذا،فصمت الناس،ثم اتجه إلى النساء فقال:هل تخبرن بمثل هذا؟فجلست امرأة القرفصاء وقالت:نعم يا رسول الله،المرأة والرجل يخبران بهذا،فقال صلى الله عليه وسلم أتعلمون ما مثل هذا؟إن مثله كمثل شيطان يواقع شيطانة أمام الناس"([2]).

---

[1] كانت مجالسهم متباعدة .

[2] أبو داود – كتاب النكاح – باب ما يكره من ذكر الرجل .

حدثنا مسدد،حدثنا بشر،ثنا الجريري،حدثنا مؤمل،حدثنا إسماعيل،وحدثنا موسى بن إسماعيل،حدثنا حماد،كلهم عن الجريري،عن أبي نضرة،قال حدثني شيخ من طفاوة قال:تثويت أبا هريرة بالمدينة،فلم أر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أشد تشميرا،ولا أقوم على ضيف منه،فبينما أنا عنده يوما وهو على سرير له،ومعه كيس فيه حصى أو نوى،وأسفل منه جارية له سوداء وهو يسبح بها،حتى إذا نفد ما في الكيس ألقاه إليها فجمعته فأعادته في الكيس،فدفعته إليه فقال:ألا أحدثك عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟قال:قلت:بلى،قال:بينا أنا أوعك في المسجد،إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد،فقال:من أحس الفتى الدوسي؟ثلاث مرات،فقال رجل:يا رسول الله،هو ذا يوعك في جانب المسجد،فأقبل يمشي حتى انتهى إلي فوضع يده علي،فقال لي معروفا فنهضت،فانطلق يمشي حتى أتى مقامه الذي يصلي فيه،فأقبل عليهم ومعه صفان من رجال وصف من نساء أو صفان من نساء وصف من رجال،فقال:إن نساني الشيطان شيئا من صلاتي فليسبح القوم وليصفق النساء قال:فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينس من صلاته شيئا،فقال:مجالسكم مجالسكم زاد موسى من ههنا ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه،ثم قال:أما بعد ثم

المقصد هو أن الإعلان بمثل هذه الأمور والحديث عنها على الملأ أمر مخجل للاثنين,والحكمة وراء منع الرفث أن تبقى فكرة حرمة الحدود الإلهية في الأذهان,وإلا فإن الكلام يفقد أهميته عندما يخرج من الفم,وسيفسح القول للفعل الطريق ذات يوم,وهذا هو السبب في أنه إذا ما دعت ضرورة لمثل هذه الأحاديث ينبغي أن تكون بالرمز والاستعارة حتى يظهر الهدف منها,ولا يخدش الحياء،ولهذا أيضا جاء ذكر مثل هذه الأمور في القرآن الكريم في ستار من المجاز والاستعارة،مثلا:

" وقد أفضى بعضكم إلى بعض " (النساء : ٢١) .

" أو لامستم النساء " (النساء : ٤٣) .

ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه إن الله يخاطب الشرفاء وذوي الحياء،ولهذا عبر عن الجماع كناية بلفظ(المس)،وقد وضع الإسلام ألفاظا أخرى لهذه الأمور ترد بطبيعة الحال في شرح المسائل الفقهية،وإن أصبحت لكثرة استعمالها مثل التصريح،لكنها في الحقيقة كنايات كلها،ويجب ذكر الأشياء المنفرة كالبول والبراز وغيرها وكذلك الأمراض المنفرة والمخجلة في شكل كنايات طبقا لتعاليم الإسلام،وقد استخدم لفظ(قضاء الحاجة)في الأحاديث للبراز والبول،وهو كناية،واستخدم لفظ(غائط)في القرآن الكريم لهذا الغرض،وهو يعني في اللغة الأرض المنخفضة :

" أو جاء أحد منكم من الغائط " (النساء : ٤٣) .

ولأن عامة الناس يستخدمون لقضاء الحاجة الأرض المنخفضة،لذا استعير اللفظ لها,وهنا ينبغي أن نؤكد على أن اللفظ المستخدم في اللغة الأردية بمعنى مكان قضاء الحاجة وهو(بائخانه)هو الآخر استعارة،وهي بمعنى(جانب البيت-أحد جوانب البيت)،ولأن الناس عموما يعدون مكان قضاء الحاجة في أحد جوانب البيت لذا استعير هذا اللفظ له،وهو في الأصل(بائين خانه)ثم خفف إلى(بائخانه)،واليوم وبسبب كثرة

تفقوا:ثم أقبل على الرجال فقال:هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره,واستتر بستر الله،قالوا:نعم,قال:ثم يجلس بعد ذلك فيقول:فعلت كذا،فعلت كذا قال:فسكتوا،قال:فأقبل على النساء فقال:هل منكن من تحدث؟فسكتن فجثت فتاة قال مؤمل في حديثه:فتاة كعاب على إحدى ركبتيها،وتطاولت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليراها ويسمع كلامها،فقالت:يا رسول الله،إنهم ليتحدثون,وإنهن ليتحدثن،فقال:هل تدرون ما مثل ذلك؟فقال:إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانا في السكة،فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه،ألا وإن طيب الرجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه،ألا وإن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه.

استعمال اللفظ لم تعد له قيمة الاستعارة.وعلى نفس المنوال جاء في القران الكريم لفظ(سوء)للتعبير عن مرض(البرص):

" واضمم يدك إلي جناحك تخرج بيضاء من غير سوء أية أخرى " (طه : ٢٢) .

أما النوع الثاني من فحش القول أو الرفث فيتعلق بقوة الغضب،وهو ما يسمى بالسب والشتم،وتكون هذه الصورة عموما في مواضع الجدال والشجار،ولأن احتمال مثل هذا الأمر يكون بشكل أكبر في موسم الحج نظرا لأنه اجتماع عام،لهذا أطلق الله تعالى عليه لفظ(فسق)ومنعه :

" فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج " (البقرة : ١٩٧) .

وللسب والشتم صور كثيرة،وفي بعض الأحيان يسب الشخص والدي شخص آخر،ويطعن في نسبه،وأحيانا يصرح هو بعيوب هذا الشخص،فإن كان مصابا بمرض منفر مثل البرص أو الجذام فإنه يسخر منه،وأحيانا يكون ذلك إذا ما أساء هذا الشخص إليه،أو سلك معه سلوكا لم يعجبه.وقد منع القرآن الكريم كل هذه الصور بشكل اجمالي بلفظ واحد :

" لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم " (النساء : ١٤٨) .

هذا وقد جاء تفصيل الحكم في منع فحش القول والحكمة من ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم:

١- ومن الحكمة في هذا المنع من السب والشتم أن الناس عموما يتعدون حدودهم ويظلمون الناس فيه،بمعنى أن رجلا يشتم رجلا مرة فيشتمه الآخر مرتين،وإذا ما سب رجل أبا رجل سب الآخر والديه،ولهذا فإن السبيل إلى البعد عن هذا التعدي هو ألا يشتم أحد أحدا وقد وضح الله تعالى هذا الأمر في القرآن الكريم بقوله :

" ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم " (الأنعام : ١٠٨) .

كما وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في حديث شريف حين قال:"إن أعظم الذنبْ هو أن يلعن الشخص أبويه،فقيل:يا رسول الله وكيف يلعن الرجل أبويه؟،فقال صلى الله عليه وسلم أن يسب أبا الرجل فيسب هذا الرجل أبويه"[1].

---

[1] البخاري – كتاب الأدب – باب لا يسب الرجل والديه .

حدثنا أحمد بن يونس:حدثنا إبراهيم بن سعد،عن أبيه،عن حميد بن عبد الرحمن،عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل

٢- ومن الحكمة في منع السب والشتم أن الشخص سليط اللسان يظل محروما من فوائد الحياة الاجتماعية في مجتمعه،ويترك الناس لقاءه،وقد جاء في الحديث أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"بئس أخو العشيرة هذا"لكنه عندما جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم بوجه طلق،وحين رحل الرجل قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:يا رسول الله،حين رأيت هذا الرجل ذممته،ثم لقيته بلطف ومحبة،فقال صلى الله عليه وسلم:وهل عهدتيني سليط اللسان؟إن أسوأ رجل عند الله يوم القيامة هو من يترك الناس لقاءه خوفا من سلاطة لسانه " ([1]) .

٣- إن الرفق واللين والحياء من الأخلاق الشريفة،وقد حث الإسلام على ذلك،أما الفحش في القول فيتنافى مع ذلك،وذات مرة جاء بعض اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،وقالوا(السام عليكم)بدلا من"السلام عليكم"،وهي تعني فليأتكم الموت،فردت السيدة عائشة رضي الله عنها:عليكم،ولعنكم الله وغضب الله عليكم،فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال:يا عائشة كوني لينة وتجنبي القسوة وسلاطة اللسان"([2]).

٤- إن سلاطة اللسان والفحش في القول من بقايا عصور الجهالة والهمجية،وهو ينافي التحضر والتهذيب،ذات مرة شتم سيدنا أبو ذر رضي الله عنه رجلا بأمه،فبلغ ذلك رسول

والديه) قيل:يا رسول الله،وكيف يلعن الرجل والديه؟قال:(يسب الرجل أبا الرجل،فيسب أباه،ويسب أمه فيسب أمه).

[1] البخاري – كتاب الأدب – باب لم يكن النبي – صلي الله عليه و سلم – فاحشا و لا متفحشا .

حدثنا عمرو بن عيسى:حدثنا محمد بن سواء:حدثنا روح بن القاسم،عن محمد بن المنكدر،عن عروة،عن عائشة: أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم،فلما رآه قال:(بئس أخو العشيرة،وبئس ابن العشيرة).فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه،فلما انطلق الرجل قالت له عائشة:يا رسول الله،حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا،ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(يا عائشة،متى عهدتني فحاشا،إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره).

[2] البخاري – كتاب الأدب – باب لم يكن النبي – صلي الله عليه وسلم – فاحشا و لا متفحشا .

حدثنا محمد بن سلام:أخبرنا عبد الوهاب،عن أيوب،عن عبد الله ابن أبي مليكة،عن عائشة رضي الله عنها: أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا:السام عليكم،فقالت عائشة:عليكم،ولعنكم الله،وغضب الله عليكم.قال:(مهلا يا عائشة،عليك بالرفق،وإياك والعنف والفحش).قالت:أو لم تسمع ما قالوا؟ قال:(أو لم تسمعي ما قلت؟رددت عليهم،فيستجاب لي فيهم،ولا يستجاب لهم فيَّ).

الله صلى الله عليه وسلم فقال:إن فيك جاهلية"(١)،وقد استنتج الإمام البخاري في كتابـــه أدب المفرد من ذلك أنه لا يجوز أن يسب الرجل عبيده أو خدمه .

٥- ومن الحكمة في منع السب والشتم أنه يخرج من الإنسان في صورة ألفاظ تخـــدش الحياء ومخجلة وبسبب ذلك يعتاد الناس علي التجرؤ للتفوه بمثل هذه الألفـــاظ وعلـــى سماعها أيضا وتتطور هذه الألفاظ إلى أفعال فيما بعد،وهذا هو السبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فحش القول في مقابل الحياء،فقال:ما دخل الفحش في شيء إلا شانه،وما دخل الحياء في شيء إلا زانه"(٢).ويعلم من هذا أن الفحش في القول وسـلاطة اللسان ضد الحياء .

٦- وتتأذى قلوب الناس من السب والشـــتم بينمـــا أمـــر المســـلمون بتجنـــب إيـــذاء المسلمين،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لســـانه ويده،وقد منع شتم الموتى بأن ذلك يؤذي أقاربه وأعزاءه من الأحياء"(٣).

٧- السب والشتم مقدمة للشجار والعراك،وقتال المسلمين كفر،ولهذا فإن كل ما يـــؤدي إليه فهو فسق إن لم يكن كفرا،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " .

---

١ البخاري – كتاب الأدب – باب ينهي من السباب و اللعن .

حدثنا عمر بن حفص:حدثنا أبي:حدثنا الأعمش،عن المعرور،عن أبي ذر قال: رأيت عليه بردا،وعلـى غلامه بردا،فقلت:لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة،وأعطيته ثوبا آخر،فقال:كان بينـــي وبيـــن رجـل كلام،وكانت أمه أعجمية،فنلت منها،فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وســـلم،فقـــال لـــي:(أســـاببت فلانا).قلت:نعم،قال:(أفنلت من أمه).قلت:نعم،قال:(إنك امرؤ فيك جاهلية).قلت على حين ساعتي:هـــذه من كبر السن؟قال:(نعم،هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم،فمن جعل الله أخاه تحت يده،فليطعمه مما يأكل،وليلبسه مما يلبس،ولا يكلفه من العمل ما يغلبه،فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه).

[٢] الترمذي – أبواب البر و الصلة – باب ما جاء في الفحش .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني وغير واحد قالوا:حدثنا عبد الرزاق،عن معمر عن ثابت عـــن أنس قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:ما كان الفحش في شيء إلا شانه،وما كان الحياء فـــي شيء إلا زانه.

[٣] مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان تفاضل الإسلام و أي أموره أفضل .

حدثنا حسن الحلواني،وعبد بن حميد،جميعا عن أبي عاصم،قال عبد:أخبرنا أبو عـــاصم،عـن ابـن جريج:أنه سمع أبا الزبير يقول:سمعت جابرا يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:المســلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

ويتضح بعد كل هذا أن سلاطة اللسان والفحش في القول مما ينافي التعاليم والخصائص الإسلامية،ولذا فإن من يريد أن يحيا حياة إسلامية صحيحة لن يحب أن يبتلى بهذا العيب الأخلاقي،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء " .

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الفحش في القول من آيات النفاق.

كل هذه الأسباب تتعلق بالسب والشتم وبذاءة الناس في تعاملهم فيما بينهم،وهذا الفحش في القول ليس مقصورا علي الإنسان فقط،بل إن الناس إذا أصابهم ضرر بسبب أشياء لا روح فيها أو لا عقل لها فإنهم يسبونها أو يشتمونها.علي سبيل المثال عندما تسوء أحوال شخص ما فإنه يسب الزمن ويشتمه،ولا يسأل نفسه ما ذنب الزمن فيما هو فيه،إن كل شيء بمشيئة الله تعالى ولهذا منع الإسلام من سب وشتم هذه الأشياء،وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فيما رواه عن الله تعالى من أن الله يقول:"الإنسان يسب الدهر وأنا الدهر وفي يدي تقلب الليل والنهار([1]),أي أن سب الزمان ما هو إلا سب الله تعالى .

ذات مرة سقط رداء رجل منه فلعنه،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لا تلعنه إنه مطيع لله " ([2]) .

ولعنت امرأة ناقتها وهي في سفر،فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها الناقة كعقاب لها([3])حتى لا تقدم على هذا مرة أخرى .

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب في الرجل يسب الدهر .

حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان وابن السرح قالا:ثنا سفيان،عن الزهري،عن سعيد،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم:يقول الله عز وجل:يؤذيني ابن آدم يسب الدهر،وأنا الدهر،بيدي الأمر،أقلب الليل والنهار.

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب في اللعن .

حدثنا مسلم بن إبراهيم،ثنا أبان،ثنا زيد يا أخزم الطائي،ثنا بشر بن عمر،ثنا أبان بن يزيد العطار،ثنا قتادة،عن أبي العالية،قال زيد:عن ابن عباس أن رجلا لعن الريح،وقال مسلم:إن رجلا نازعته الريح رداءه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلعنها،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:لا تلعنها فإنها مأمورة،وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه.

[3] أبو داود – كتاب الجهاد – باب النهي عن لعن البهيمة .

والسب والشتم في الإسلام لا يعني فقط أن تسمع أحدا ما لا يحب،بل إن السب هو أن تهين أحدا وتجرح قلبه بأي قول،فإذا ما قلت لأحد يا كافر أو يا فاسق فقد سببته سبابا مغلظا حتى وإن لم يكن كذلك في عرف الناس،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم لأخيه يا كافر أو يا فاسق،لأنه إن لم يكن كذلك باء بها من قالها"([1]).

و نستنتج من هذا أن الشخص الذي قيل له كافر أو فاسق،إذا كان كذلك فلا يكن القائل كافرا أو فاسقا لكنه مع ذلك إن كان يقصد إلى التشهير بهذا الشخص وفضحه فقد أذنب([2]).على أي حال حفظ الإسلام كرامة المسلمين وعزتهم كما حفظ أرواحهم وأموالهم،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرشدا المسلمين في يوم مقدس وشهر مقدس ومدينة مقدسة،أي في خطبة حجة الوداع أن الله تعالى حرم أموالكم ودماءكم على بعضكم البعض كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا ومدينتكم هذه .

تعليق مختصر على الرذائل

وهناك مساوئ أخلاقية وعادات سيئة كثيرة وبسيطة بالإضافة إلى الرذائل الأخلاقية التي تعرضنا لها في الصفحات السابقة،وقد منعها الإسلام،لكنها مع ذلك تقع بشكل أو بآخر ضمن رذيلة من الرذائل التي ذكرناها،ولذا لم نحاول تقصيها،ولأننا لم نتبع شكلا فلسفيا في الرد على هذه الرذائل فإننا لم نكتف ببيان تلك التي يعدها علماء فلسفة الأخلاق رذائل فقط،وإنما أعددنا قائمة هذه العادات والأخلاق الذميمة واضعين في اعتبارنا التعاليم الدينية .

وبالنظر إلى هذه القائمة ينكشف لنا السر في أن الإسلام قرر أن الرذائل الأساسية ثلاث،وأن كل الرذائل الأخرى تقع كل منها تحت واحدة من هذه الثلاثة .

حدثنا سليمان بن حرب،ثنا حماد،عن أيوب،عن أبي قلابة،عن أبي المهلب،عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فسمع لعنة فقال:ما هذه؟قالوا:هذه فلانة لعنت راحلتها،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:ضعوا عنها فإنها ملعونة فوضعوا عنها،قال عمران:فكأني أنظر إليها ناقة ورقاء.

[1] البخاري – كتاب الأدب – باب ما ينهى من السباب و اللعن – و مسلم كتاب الإيمان.

حدثنا أبو معمر:حدثنا عبد الوارث،عن الحسين،عن عبد الله بن بريدة،حدثني يحيى بن يعمر:أن أبا الأسود الديلي حدثه،عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(لا يرمي رجل رجلا بالفسوق،ولا يرميه بالكفر،إلا ارتدت عليه،إن لم يكن صاحبه كذلك).

[2] فتح الباري – كتاب الأدب – باب ما ينهى من السباب واللعن .

أما الرذيلة الأساسية الأولى فهي عدم الصدق،والمقصود منها أن لا يكون هنـاك تطابق بين القلب و اللسان،والكذب والغيبة والنميمة وخلف الوعد و القذف والنفاق وتعـدد الوجوه والحلف كذبا كلها فروع لجذع واحد.أما الرذيلة الأساسية الثانية فهي حب المـال والمقصود بها حب ثروة الدنيا بشكل غير طبيعي،والبخل والحرص والطمع والسـرقة والغضب والخيانة والغلول والتطفيف في الكيل والميزان وغيرها فروع لأصل واحد.أما الرذيلة الأساسية الثالثة فهي حب الذات،والمقصود منها الشغف بالذات بطريقـة غـير طبيعية،والحسد والتكبر والعجب والتفاخر والغيظ والغضب والظلم والحقد وغيرها كلـها مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة،ويظهر من هذا أن الشخص الذي يعمل على تجنـب هـذه الرذائل الثلاث الأساسية سيحمي نفسه من كل أنواع الرذائل،وهذه الرذائـل الأساسـية الثلاثة ناتجة عن إتباع هوى النفس،ومن يحمي نفسه منه ينال الجنة يوم القيامة .

"وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"(النازعات:٤١).

آداب الحياة

ونقصد بآداب الحياة كل القواعد والأصول الراقية التي تعد جزءا لا يتجزأ مـن الحياة المتحضرة للإنسان على مر الليل والنهار من قيام وجلوس وذهاب وإياب وملبس ومأكل ومشرب ونوم ويقظة وغسل وما إلى ذلك،ويكون الفرق بين المتحضرين وغـير المتحضرين في مدى الالتزام بهذه الآداب أو التحلل منها،ومراعاة الرقي والجمال فـي هذه الآداب يعد حسن أدب،ويتولد بفضل الالتزام بها نوع من السهولة واليسر والرقـي في الحياة الاجتماعية،ويصير الإنسان بها مهذبا وقورا .

وهذه الآداب في الحقيقة مؤسسة على مبدأ أن تريح أكبر عدد من الناس في كل أمور الحياة والتي نواجهها يوميا،وهكذا أن لا يكون العمل الذي يقوم به أحد سببا فـي إتعاب آخر ومضايقته،ويؤديه بإتقان وجمال،وقد قدم نبي الإسلام عليه الصلاة والسـلام بإرشاداته الفعلية والقولية للمسلمين أفضل نموذج في هذا الخصوص .

وقد ظلت أمم العالم الأخرى تستقي دينها مـن مكـان وآدابـها مـن مكـان آخر،فالمسيحيون أخذوا الدين من الإنجيل وآدابهم وقوانينهم من اليونان والروم،لكن نبـع الدين في الإسلام هو نفسه نبع الآداب والقوانين والأعراف،ولهذا فإن الإسلام يدخل إلـى أكثر الأمم همجية بالقرآن وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فقط فيحول هذه الأمة فـي أيام قلائل إلى أمة متحضرة مهذبة .

هذا وقد فصل أئمة الحديث الكرام رحمهم الله أجمعين نوعية هذه الآداب عن مكارم الأخلاق,وأدرجوها تحت مسميات كتاب الطهارة,كتاب الأطعمة,كتاب الأشربة,كتاب اللباس,كتاب الاستئذان,كتاب الآداب,وكتاب السلام,ونحن هنا ندرج هذه الآداب والتعاليم معتمدين على الصحاح وكتب السنن وخاصة البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود وما ورد فيها من مثل هذه الأبواب .

الآداب الفطرية

الإسلام دين الفطرة,ولهذا فإن الجزء الأكبر من آدابه فطري,بمعنى أنه مقبول فطرة,وقد اتبعها الأنبياء جميعا عليهم السلام,فهذه الآداب هي التي تميز الإنسان عن الحيوان,فيغطي الإنسان عريه,ويظهر إصلاح الشعر والأظافر وقصهما وتنظيف البدن والملابس الفرق بين الإنسان المتحضر وغير المتحضر,ولهذا جاء في الحديث أن هناك أربعة أشياء هي من سنن الأنبياء جميعا:الحياء,العطر,المسواك,والزواج([1]),وفي رواية أخرى زيد عليها(الختان).

ونتيجة الحياء هي إخفاء العري,أي ستر العورة والاستتار عند الضرورة,واستعمال العطر والمسواك ينم عن الطهارة والنظافة,أما الختان فهو سنة سيدنا إبراهيم عليه السلام ونسله من بعده,حتى أن التوراة تقول أن الختان آية جسمانية للعهد الذي بين إبراهيم وربه ([2]) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام هو أول معلم للإنسانية,وقد وصلت الدنيا في عهده إلى مرحلة يمكن معها تعليمها آداب التحضر والوقار,ولهذا أرشد إبراهيم عليه السلام إلى آداب الطهارة والنظافة الجسمانية وطرقها المختلفة مما يسمى بخصال الفطرة,ويقول الإمام البخاري في أدب المفرد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو أول من اختتن وحف شواربه وقص أظافره([3]),وجاء في الحديث أن صحابيا قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن خصال الفطرة خمسة:الختان,وحلق العانة وشعر الإبط وقص الأظافر

---

[1] الترمذي – أبواب النكاح .

حدثنا سفيان بن وكيع.حدثنا حفص بن غياث،عن الحجاج،عن مكحول،عن أبي الشمال،عن أبي أيوب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من سنن المرسلين:الحياء والتعطر والسواك والنكاح.

[2] التوراة – (الخلق) .

[3] المرجع السابق .

وحف الشوارب([1])،وفي حديث آخر تصل هذه الآداب إلى عشرة:حف الشوارب وإطالة اللحية،واستعمال المسواك والاستنشاق وقص الأظافر وغسل ما بين الأصابع،وإزالة شعر الإبط وحلق العانة والاستنجاء بالماء،ويقول الراوي:ولقد نسيت الأمر العاشر،وهو غالبا المضمضة([2]).

وقد أصبحت آداب الفطرة هذه أصولا للطهارة الإسلامية،وهكذا فإن استخدام المسواك في الوضوء مستحب،وغسل الأصابع والاستنشاق والمضمضة واجبة فيه،وقص الأظافر وحلق الشعر وتهذيبه وقص الشوارب كلها من لوازم النظافة،فمن طالت أظافره،وشواربه فإنه يلوث ما يأكل أو يشرب،وهو ما ينفر منه الآخرون،بل ويؤذيهم طبيا إذا ما تناول معهم طعاما أو شرابا،وتعد إطالة الأظافر والحفاظ عليها من أمور الجمال،وهكذا يعتبر بعض الناس إطالة الشوارب،لكن هذين الأمرين يخالفان الفطرة صراحة،ويصبحان سببا في تلوث الأطعمة وقذارتها.

هذا وقد تراجعت تقليعة إطالة الأظافر في أوروبا بعد تغيير قوانينها،لكن حلق اللحية ما زال يقوم مقام إطالتها،بل إن حلق الشوارب واللحية معا في تزايد،وكل هذه الأشياء تخالف شعار الإسلام،وتخالف الشعار الذي قرره رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته .

يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"خالفوا المجوس وقصوا الشارب واعفوا اللحى"([3])،ويقول سيدنا عبد الله بن عمر

---

[1] صحيح البخاري – كتاب الاستئذان – باب الختان بعد الكبر .

حدثنا يحيى بن قزعة:حدثنا إبراهيم بن سعد:عن ابن شهاب،عن سعيد ابن المسيب،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(الفطرة خمس:الختان،والاستحداد،ونتف الإبط،وقص الشارب،وتقليم الأظفار).

[2] صحيح مسلم – باب خصال الفطرة .

حدثنا قتيبة بن سعيد وأبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب،قالوا:حدثنا وكيع عن زكريا بن أبي زائدة،عن مصعب بن شيبة،عن طلق بن حبيب،عن عبد الله بن الزبير،عن عائشة،قالت:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:عشر من الفطرة:قص الشارب،وإعفاء اللحية،والسواك،واستنشاق الماء،وقص الأظفار،وغسل البراجم،ونتف الإبط،وحلق العانة،وانتقاص الماء.

[3] المرجع السابق .

رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"خالفوا المشركين وحفوا الشارب واعفوا اللحى"(١)وفي ضوء هذه التعاليم يصبح من الفرض الديني على المسلمين الغيورين الإبقاء على الصورة الإسلامية،والحقيقة أن تخيل الحسن والسيئ يعتمد على العادات والتقاليد،وسوف تبدو الدنيا أمامك بنفس لون النظارة التي تضعها على عينيك.

الطهارة وآدابها

إن أهم الأمور في موضوع التحضر والتمدن هو الطهارة والنظافة،ورغم أن الإسلام ظهر في بلاد تقل فيها الماء عموما،لكنه مع ذلك فرض الغسيل في بعض الحالات الخاصة،فلا يمكن لزوجين تجامعا أن يؤديا الصلاة إلا بعد الاغتسال.قال تعالى:

" وإن كنتم جنبا فاطهروا " (المائدة : ٦) .

ولا بد أن تكون الملابس طاهرة شرعا . قال تعالى :

" وثيابك فطهر " (المدثر : ٤) .

فإذا لم يوجد الماء للتطهر،أو كانت هناك خطورة في استخدامه لمرض وغيره فإنه عندئذ يجب التيمم:"فتيمموا صعيدا طيبا"(المائدة:٦).

فإذا أردنا الصلاة غسلنا أيدينا ووجوهنا وأرجلنا ومسحنا بأيدينا المبللة على رؤوسنا وهو ما نسميه الوضوء :

" إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق،وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين " (المائدة : ٦) .

وجاء الحكم بالاغتسال قبل صلاة الجمعة حتى يتطهر الناس ويتزينون قبل المشاركة في الجماعة،وحتى لا يؤذي أحد أحدا برائحة سيئة منه،ويصبح الجمع كله مثالا للنظافة،كما أوجب الاستنجاء بالماء بعد قضاء الحاجة وتنظيف أعضاء الذكورة والأنوثة وإزالة الأوساخ عنها .

حدثنا أبو بكر بن إسحق،أخبرنا ابن أبي مريم،أخبرنا محمد بن جعفر،أخبرني العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب،مولى الحرقة،عن أبيه،عن أبي هريرة،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:جزوا الشوارب وأرخوا اللحى.خالفوا المجوس.

[١] صحيح مسلم – خصال الفطرة .

حدثنا سهل بن عثمان،حدثنا يزيد بن زريع عن عمر بن محمد،حدثنا نافع عن ابن عمر،قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:خالفوا المشركين.أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى.

ويعلم من هذه الأحكام أن الطهارة والنظافة لها أهمية خاصة في الإسلام،وأكثر من هذا أنها من وسائل الفوز بحب الله :
" ويحب المتطهرين " (البقرة : ٢٢٢) .

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سننا كثيرة للالتزام بهذه النظافة والطهارة،ولخلق الإحساس بأهميتها في القلب،على سبيل المثال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يضع الشخص الذي استيقظ من نومه يده في إناء الماء إلا بعد أن يغسل يده ثلاث مرات،لأنه لا يعرف أين وضع يده أثناء نومه([1])،ويعلم من هذا الحديث أنه يجب علينا أن نهتم بطهارة كل عضو في جسدنا حال يقظتنا وحال نومنا وفي كل حال،فإذا ما أصابت الإنسان جنابة في نومه فلا بد أن يغتسل([2])،وقد ركز على طهارة اليد لأن إدخال اليد غير الطاهرة في الماء تنجس الماء ولذا يجب أن لا نضع أيدينا في إناء الماء ما لم نكن متأكدين من طهارتها .

٢- جعل من الضروري تنظيف الأسنان التي هي أساس كثير من الأمراض،وجعل من السنة استعمال السواك فقال صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة([3])،وذات مرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المسلمين،وكانت أسنانهم صفراء بسبب عدم تنظيفها،فقال لهم صلى الله عليه وسلم:لماذا أرى أسنانكم صفراء،استعملوا المسواك"(مسند أحمد–الجزء الأول–صـ ٢١٤).

٣- لا يجب أن يقضي الإنسان حاجته في الطرق العامة أو في ظل الأشجار،لأن الطريق للمسافرين وظل الأشجار لمن يستريح فيه من المارة،فلا يؤذينهم أحد بنجاسة أو قذارة .

---

[1] مسلم – كتاب الطهارة .

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، و حامد بن عمر البكراوي ، قالا : حدثنا بشر بن المفضل عن خالد ، عن عبد الله بن شقيق ، عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا استيقظ أحدكم من نومه ، فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا ، فإنه لا يدري أين باتت يده.

[2] أبو داود – كتاب الطهارة .

[3] المرجع السابق .

حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا عيسى بن يونس ، ثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن زيد بن خالد الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة

٤- لا يجوز الاغتسال من ماء راكد بعد التبول فيه،ولا يجوز في مثل هذا الماء الراكد غسل الجنابة أيضا،بل يجب على الجنب أن يأخذ منه الماء ويغتسل بعيدا عنه،إذ أننا بتكاسلنا نجعل الماء إذا اغتسلنا بداخله غير طاهر أو غير مقبول للآخرين،بل إننا في بعض الأحيان نعافه نحن أيضا .

٥- لا يجوز بشكل عام التبول واقفا،إذ أن هناك احتمال تطاير رذاذ البول فيصيب الجسم،كما أن المكان الذي يتبول فيه قد يكون غير مستور،وهو أمر يتنافى مع الوقار والتحضر،فإن لم تكن هناك هذه الاحتمالات،أو كانت الأرض لا تصلح للجلوس فعندئذ يجوز التبول من وقوف .

٦- يجب التبول على أرض رطبة،لأن التبول على أرض صلدة يجعل رذاذ البول يتطاير ويصيب الجسم .

٧- لا يجب التبول على أرضية الحمام،خاصة إذا كانت غير معبدة لأن الماء يتطاير من المكان غير النظيف ويصيب البدن فينجسه،أو يضع الإنسان في شك بأنه أصابته نجاسة .

٨- يجب الاستنجاء بعد التبول والتبرز،ويجب غسل هذه الأماكن بالماء بعد تنظيفها بشيء طاهر لين،ويتم الاستنجاء باليد اليسرى،ولا تستعمل اليد اليمنى في ذلك .

٩- بعد التطهر ينبغي غسل اليد بالتراب بعد الماء ([1]) .

١٠- من المستحسن لكل مسلم أن يغتسل مرة في الأسبوع ويغير ملابسه ويضع العطر على جسده والزيت في شعره،بل إن بعض المحدثين يرى وجوب الغسل بناءا على ألفاظ الحديث .

ولهذا حدد الإسلام يوم الجمعة الذي يجتمع فيه المسلمون عموما،وقد بين سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه سبب هذا بأن العرب كانوا يعيشون في ضيق من العيش،وكانوا يلبسون الصوف ويشتغلون بالأعمال الشاقة،وكان مسجدهم غاية في الضيق،وسقفه غير مرتفع.وذات مرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد لصلاة الجمعة فرأى الناس وقد تصببوا عرقا في ملابسهم الصوفية،ورائحة هذا العرق تؤذي الموجودين،ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر قال:أيها

---

[1] راجع كل هذه المسائل في باب الطهارة من كتب السنن .

الناس,اغتسلوا يوم الجمعة,وليضع كل منكم أفضل زيت يتيسر له في رأسه(1).كما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تناول أطعمة ذات روائح نفاذة كالبصل والثوم والحضور إلى المسجد (2) .

١١- بالإضافة إلى الجمعة فإنه ينبغي على الإنسان أن يحتفظ بجسده نظيفا,وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصا ذات مرة أشعث الرأس فقال:ألا يجد هذا ما يسوى به شعره.كما رأى شخصا ملابسه متسخة فقال:ألا يجد ماء يغسل به ملابسه(3).

وقد راعى الإسلام في تعاليمه للنظافة والطهارة البساطة وعدم التكلف,ولم يأمر بأشياء فيها غلو أو تشدد,أو تصل بالشخص إلى درجة الوسوسة,ولهذا فقد قضى الإسلام على بعض الصعوبات التي كانت توجد بالأديان الأخرى في هذا الخصوص,على سبيل المثال طبقا للدين اليهودي كان على الشخص غير الطاهر أن يستحم,ثم ينتظر حتى غروب شمس هذا اليوم,وبالتالي يطهر بعدها,أما الإسلام فليس فيه سوى أن يحتاط الشخص من أن يتطاير رذاذ البول فيصيب ملابسه فقط,وإلا صار الاحتياط تشددا وغلوا.وقد كان سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يتبول في زجاجة من شدة الاحتياط,إذ أن بني إسرائيل كانوا إذا أصاب البول ملابسهم قطعوا القماش الذي أصابه

---

[1] أبو داود – كتاب الطهارة .

حدثنا ابن أبي عقيل ومحمد بن سلمة المصريان،قالا:ثنا ابن وهب قال ابن أبي عقيل أخبرني أسامة – يعني ابن زيد– عن عمرو بن شعيب،عن أبيه،عن عبد الله بن عمر بن العاص:عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:من اغتسل يوم الجمعة،ومس من طيب امرأته إن كان لها،ولبس من صالح ثيابه،ثم لم يتخط رقاب الناس،ولم يلغ عند الموعظة،كانت كفارة لما بينهما،ومن لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهرا.

[2] مسلم – كتاب الصلاة .

حدثني أبو طاهر وحرملة،قالا:أخبرنا ابن وهب،أخبرني يونس عن ابن شهاب،قال:حدثني عطاء بن أبي رباح :أن جابرين عبد الله قال:وفي رواية حرملة:وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا،وليقعد في بيته .

[3] أبو داود – كتاب اللباس – باب في غسل الثوب .

حدثنا النفيلي،ثنا مسكين،عن الأوزاعي،حد ثنا عثمان بن أبي شيبة،عن وكيع،عن الأوزاعي نحوه،عن حسان بن عطية،عن محمد بن المنكدر،عن جابر بن عبد الله قال:أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى رجلا شعثا قد تفرق شعره فقال:أما كان يجد ما يسكن به شعره؟ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة فقال:أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟.

البول وقصوه،لكن سيدنا حذيفة رضي الله عنه لم يستحسن هذا التشدد وقال:ليتهم لا يتشددون هكذا فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجى بشكل عادي([1]).

وكان من أعراف اليهود أنه إذا حاضت المرأة تركوا مجالستها والطعام والشراب معها،وعزلوها عن البيت تماما،وقد استفسر الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فنزلت هذه الآية :

" ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن،فإذا تطهرن فأتوهن " (البقرة : ٢٢٢) .

وبناء عليه فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تسير الأمور بشكل طبيعي مع المرأة فيما عدا الجماع في أيام الحيض،وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم النموذج بسلوكه هو،ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها كنت وأنا في هذه الحالة(الحيض)أمشط شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغسل رأسه،وذات مرة طلب مني أن أناوله شيئا فاعتذرت له أني حائض فقال ليس الحيض في يديك ([2]).

لكن لا نستطيع في حالة عدم الطهارة أن ندخل الأماكن المقدسة مثل المسجد،ولا نمس المصحف،وفي ضوء هذا تجنب بعض الصحابة مصافحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومجالسته عند جنابتهم،لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:المؤمن لا ينجس"([3])،أي أن المسلم لا ينجس بالجنابة أو بما يحتاج إلى غسل حتى ينجس من يلمسه

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الطهارة – باب المسح على الخفين .

حدثنا يحيى بن يحيى،أخبرنا جرير عن منصور،عن أبي وائل،قال:كان أبو موسى يشدد في البول،ويبول في قارورة ويقول:إن بني إسرائيل كان إذا أصاب جلد أحدهم بول قرضه بالمقاريض،فقال حذيفة:لوددت أن صاحبكم لا يشدد هذا التشديد،فلقد رأيتني أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نتماشى،فأتى سباطة خلف حائط،فقام كما يقوم أحدكم،فبال فانتبذت منه،فأشار إلي فجئت،فقمت عند عقبه حتى فرغ.

[2] صحيح مسلم – كتاب الطهارة – باب تناوله الحائض الخمرة والثوب.

حدثني زهير بن حرب،وأبو كامل،ومحمد بن حاتم،كلهم عن يحيى بن سعيد،قال زهير:حدثنا يحيى عن يزيد بن كيسان،عن أبي حازم،عن أبي هريرة،قال:بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد،فقال:يا عائشة!ناوليني الثوب.فقالت:إني حائض.فقال:إن حيضتك ليست في يدك فناولته.

[3] البخاري–كتاب الغسل–باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره،أبو داود– كتاب الطهارة .

حدثنا عياش قال:حدثنا عبد الأعلى:حدثنا حميد،عن بكر،عن أبي رافع،عن أبي هريرة قال:لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب،فأخذ بيدي،فمشيت معه حتى قعد،فانسللت،فأتيت

وقد سألت إحدى السيدات السيدة أم سلمة رضي الله عنها قائلة إني امرأة،وملابسي طويلة،وأمر على أماكن ليست طاهرة،بمعنى أن النجاسة قد تصيب ذيل ثوبي لأنه يجر على الأرض لطوله،فقالت أم سلمة رضي الله عنها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إن الأرض تطهره([1])،بمعنى أنه إذا أصابته نجاسة فإن الأرض تطهره.

وقد سألت امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة إن الطريق الذي نسلكه إلى المسجد ذو رائحة كريهة،فماذا نفعل إذا نزل المطر؟فقال صلى الله عليه وسلم:أليس هناك طريق أفضل منه؟قالت المرأة:نعم،قال:فاسلكيه.

المهم أن مبدأ الإسلام هو أن الأرض الجافة طاهرة،وهي في بعض الأحوال تنظف كالماء،ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا،ولهذا أيضا تقوم الأرض مقام الماء في حالة التيمم،والحذاء يطهر من احتكاكه بالأرض،وأكثر الأمور سهولة في هذا الخصوص هو أن التيمم يقوم مقام الغسل والوضوء،وقد اعتبره الصحابة نوعا من البركة .

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغسل بأن نغسل أيدينا أولا،ثم الوسط والظهر وننظف ما قد يكون عليها من نجاسة،ثم نصب الماء على باقي الجسد،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل من الضرورة هكذا،يغسل يديه أولا ثم يصب الماء بيده اليمني،ويغسل بيده اليسرى أسفل الوسط من الجانبين،ثم يتوضأ،لكنه لا يغسل قدميه،ثم يصب الماء على رأسه ثلاث مرات ويخلل بأصابعه بين شعره حتى جذوره،ثم يصب الماء على الجسد كله،وفي النهاية يغسل قدميه.(مسلم-باب صفة غسل الجنابة).

الرحل،فاغتسلت ثم جئت وهو قاعد،فقال:(أين كنت يا أبا هر)،فقلت له،فقال:(سبحان الله يا أبا هر إن المؤمن لا ينجس).

[1] أبو دواود – كتاب الطهارة – باب في الأذى يصيب الذيل.

حدثنا عبد الله بن مسلمة،عن مالك عن محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم،عن محمد بن إبراهيم،عن أم ولد لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف:أنها سألت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقالت:إني امرأة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر،فقالت أم سلمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:يطهره ما بعده.

وليس في الإسلام أمر بالاغتسال يوميا,ولا يمكن أن يحدث هذا في بلاد مثل بلاد العرب,لكن يجوز الاغتسال يوميا في بلاد يكثر فيها الماء,والرسول صلى الله عليه وسلم يشبه الصلوات الخمس بنهر يجري من أمام باب أحدنا,وهو يغتسل فيه خمس مرات في اليوم والليلة,وبالتالي يزول الدرن من على بدنه .

آداب الطعام و الشراب

١- يجب غسل الأيدي قبل الأكل وبعده,ورغم أنه ليس هناك حديث صحيح فيما يتعلق بغسل الأيدي قبل الطعام,لكن مثلما أن وضع اليد دون غسلها في الماء بعد الاستيقاظ من النوم فإنه لا يستحسن وضع اليد في الطبق دون غسلها,وهناك حديث ضعيف عن أبي داود فيما يتعلق بغسل اليدين قبل الأكل وبعده,وقد جاء في الحديث انه إذا نام أحدكم ودهن الطعام عالق بيديه,ثم جاء حيوان وعض يده فإن هذا يكون بسبب خطأ هذا الرجل,ويجب أن يلام على تساهله,ويعلم من هذا أن هذه التعاليم لمن تعلق بيديه بقايا الطعام وأجزاءه .

٢- يجب أن يبدأ المسلمون كل عمل باسم الله مثلما ورد في الحديث,وما أعظم عمل مثل الطعام وهو الذي تقوم عليه الحياة,ولذا لا ينبغي أن يبدأ مثل هذا العمل بغير اسم الله,يقول الصحابة عندما كان يتفق لنا تناول الطعام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كنا لا نمد يدنا إلى الطعام طالما لم يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتناوله,ولكن ذات مرة جاء أعرابي مهرولا,وهم بمد يده إلى الطعام,فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده,وهكذا جاءت أمة وهمت بمد يدها إلى الطعام فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها,وقال إن الطعام الذي لا يذكر اسم الله عليه يستحله الشيطان([1]),وإذا نسى أحدكم أن يسم الله في أول الطعام فليقل حين يذكر باسم الله أوله وآخره ([2]) .

---

[1] أبو داود – كتاب الأطعمة .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة،ثنا أبو معاوية،عن الأعمش،عن خيثمة،عن أبي حذيفة،عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم،وإنا حضرنا معه طعاما،فجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب ليضع يده في الطعام،فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وقال:إن الشيطان ليستحل الطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه،وإنه جاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده،وجاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها،فو الذي نفسي بيده إن يده لفي يدي مع أيديهما.

[2] المرجع السابق .

٣- يضطر الإنسان طبقاً لضرورلته إلى وضع يده في أشياء وأعمال طاهرة وربما غير طاهرة أيضاً,والنظافة تقتضي أن يخصص لكل يد أمر تقوم بـه طبقاً لمبدأ تقسيم العمل,وهكذا اختصت اليد اليمنى بالأعمال التي لا نجاسة فيها,بينما اختصت اليد اليسرى بدفع النجاسة وما شابهها,وهناك مصلحة طبية وفطرية في هذا التخصيص,إذ أن معظم أعمال الإنسان وأفعاله طاهرة ومباحة فطرياً,أما حاجته إلى دفع النجاسة فتحدث أحياناً,ولهذا خصص الجانب الأيمن,أي الجانب الذي ليس فيه القلب للأعمال الكثيرة حتى لا تؤذي القلب,وهذا هو السبب في أن الإنسان بالفطرة يقوم بأعماله باليد اليمنى بينما تكون اليد اليسرى لمساعدتها فقط,وهذا هو السبب أيضا في أن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى عموما وأنشط,ومن هنا ينبغي أن يكون تناول الطعام والشراب باليد اليمنى([1]),ولا ينحصر هذا على الطعام والشراب فقط,بل إن الشريعة راعت مثل هذا في أكثر الأمور,وذات مرة قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن,وكان أعرابي يجلس على يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليسار كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه،فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن بعد ما شرب منه إلى الأعرابي أولا,وقال أنه يجب مراعاة الترتيب من اليمين ([2]) .

وذات مرة كان صبي يجلس إلى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يساره رجال كبار في السن,وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب شيئاً فقال

حدثنا مؤمل بن هشام,قال:ثنا إسماعيل،عن هشام يعني ابن أبي عبد الله الدستوائي،عن بديل،عن عبد الله بن عبيد،عن امرأة منهم يقال لها أم كلثوم،عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى،فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل : بسم الله أوله و آخره.

[1] أبو داود – كتاب الأطعمة .

حدثنا أحمد بن حنبل،قال:ثنا سفيان،عن الزهري،قال:أخبرني أبو بكر بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر،عن جده ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه،وإذا شرب فليشرب بيمينه،فإن الشيطان يأكل بشماله،ويشرب بشماله.

[2] صحيح البخاري – كتاب الأشربة .

حدثنا إسماعيل قال:حدثني مالك،عن ابن شهاب،عن أنس بن مالك رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بلبن قد شيب بماء،وعن يمينه أعرابي،وعن شماله أبو بكر،فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال:(الأيمن الأيمن).

للصبي إن أذنت أناول هؤلاء الناس,فقال الغلام لا أستطيع أن أعطي نصيبي لأحد,وهكذا ناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا([1]).

٤- يجب تناول الطعام من جانب حافة الإناء وليس من وسطه,وبالتالي لا يتلوث ما سوف يبقى من الطعام,كما لن يتسخ الإناء أيضا,وثالثا إذا أكل أحد على عكس هذا فإنه ينم عن حرصه وطمعه,والحريص لا يشبع أبدا,وهذا هو ما عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة قائلا:بأن للبركة تنزل في وسط الطعام([2]).

٥- لا ينبغي أن يتناول من الطعام أكثر ممن يأكلون معه إلا بإذنهم كأن يأخذ من العنب أو البلح ونحوه حبتين في اللقمة الواحدة مثلا([3]),لأن هذا ينم عن عيب أخلاقي هو الحرص والطمع,ويظهر منه أن هدف هذا الشخص هو أن يملأ بطنه سريعا من الطعام قبل أن يشاركه الآخرون فيه,وإذا كان يأكل مع آخرين فإن طريقته هذه تظهر أنه يريد أن يأكل أكثر منهم,وهذا يدل على الحرص والطمع ويتنافى مع الإيثار,ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك,وإذا اضطر أحد لمثل هذا فعليه أن يستأذن شركاءه أولا .

٦- لا يجب أن يعيب على الطعام,لأن هذا يولد في قلوب أهل المضيف ومن قاموا بإعداد الطعام نفورا تجاه هذا الشخص,ومثل هذا يخرب العلاقات بدلا من أن يصلحها,ولهذا إذا تصادف أن كان الطعام سيئاً فإن شئت أكلت منه,وإن شئت دعه([4]).

٧- إن الاجتماع للقيام بعمل ما يعد وسيلة من وسائل التمدن وحسن التعايش,ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يجتمع الأصدقاء والأحباب,أو أهل البيت جميعاً

---

[1] المرجع السابق .

حدثنا إسماعيل قال:حدثني مالك،عن أبي حازم بن دينار،عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه,وعن يمينه غلام,وعن يساره الأشياخ,فقال للغلام:(أتأذن لي أن أعطي هؤلاء).فقال الغلام:والله يا رسول الله،لا أوثر بنصيبي منك أحداً،قال:فتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده.

[2] الترمذي – أبواب الأطعمة – باب ما جاء في كراهية لو أكل في وسط الطعام .

حدثنا أبو رجاء،حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:البركة تنزل وسط الطعام,فكلوا من حافتيه,ولا تأكلوا من وسطه.

[3] الترمذي – أبواب الطعام .

[4] البخاري – كتاب الأطعمة .

على الطعام مثلما جاء في القرآن الكريم أن الأكل منفردا جائز وكذا الأكل جماعة([1])لكن النبي صلى الله عليه وسلم اخبرنا أن البركة في الأكل جماعة وهكذا لا يتم استهلاك قدر كبير من الطعام فهناك من يأكل قليلا ومن يأكل أكثر وبذا يستوي الأمر ويحصل كل من يتناول الطعام على نصيب منه،ويتضح منه أيضا الإيثار الذي يتصف به أصحاب البيت،ولا يبقى هناك ما يمكن أن يدل على تميز صاحب البيت وشخصيته أو غروره،ومنه تزداد المحبة بين أهل البيت والأصدقاء.ذات مرة قال الصحابة:يا رسول الله،نحن نأكل لكننا لا نشبع،فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:ربما تأكلون منفردين،فقال الصحابة:نعم،فقال:كلوا جماعة وقولوا بسم الله تحل البركة([2]).

٨- لا ينبغي تناول الطعام مستلقيا أو متكئا،لأن تناول الطعام على هذا الوضع مضر صحيا إضافة إلى الناحية الروحية أيضا،إن الطعام بهذا الشكل لن يستقر في المعدة بشكل مريح،وللجلوس من أجل تناول الطعام صور مسنونة هي إما أن تجلس على رجل وترفع الأخرى،أو تجلس متربعا،وإذا كان المكان غير متسع والناس كثيرون فيمكن أن تجلس القرفصاء([3])،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:لا آكل متكئا،فإني عبد آكل مثل العبيد،أي بتواضع([4]).

٩- يجب أن يأكل الإنسان مما يليه،ولا يتنقل بيده في الطعام هنا وهناك،خاصة إذا ما كان عدة أشخاص يأكلون من إناء واحد،وسبب هذا أنه بهذه الطريقة لا يتلوث الطعام،ويتناول كل شخص نصيبه،فإذا اتفق أن كان أمام واحد منهم قطعة من الطعام أفضل أو أكبر فعلى الآخرين أن يتعاملوا مع الأمر بإيثار ويتجنبوا الطمع .

---

[1] أبو داود – كتاب الأطعمة .

[2] المرجع السابق .

حدثنا الحسن بن علي الخلال،حدثنا الحسن بن موسى،حدثنا سعيد بن زيد،حدثنا عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير،قال:سمعت سالم بن عبد الله بن عمر،قال:سمعت أبي يقول:سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:كلوا جميعاً ولا تفرقوا،فإن البركة مع الجماعة.

[3] أبو داود–كتاب الأطعمة،وابن ماجه كتاب الأطعمة،وشرح سفر السعادة للشيخ عبد الحق محدث الدهلوي .

[4] أبو داود و ابن ماجه مع الزرقاني على السيرة –الجزء الرابع – صـ ٣٩٨ .

حدثنا محمد بن كثير،قال:ثنا سفيان،عن علي بن الأقمر قال:سمعت أبا جحيفة،قال :قال النبي صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا.

١٠- بعد تناول الطعام ينبغي تنظيف الإناء بالأصابع،وتنظيف الأصابع بالفم،ثم تنظف اليد بعد ذلك بالمنديل أو ما شابه .

١١- ينبغي شرب الماء على عدة دفعات[1]،وبالتالي يشبع منه الإنسان،ويلبي حاجته من الماء،وفي نفس الوقت لا يخرج نفسه من داخله إلى الإناء الذي يشرب منه .

١٢- لا ينبغي أن يتنفس الإنسان في الإناء الذي يشرب منه،لأنه من الممكن أن يتسرب لعاب الفم أو ماء الأنف إلى الإناء،وهو ما يكرهه الناس،ثم إن النفس الذي يخرج من داخل الإنسان(الزفير)يكون محملاً ببعض ما بالداخل،وبالتالي لا يدخل منه شيء إلى الإناء الذي يشرب منه .

١٣- لا ينبغي شرب الماء واقفا إلا لضرورة،لأن هذا ينافي الوقار،ومضر من الناحية الطبية أيضا،لكن لو شرب أحد واقفا في بعض الأحيان فلا حرج في ذلك،إذ أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب واقفا في بعض الأحيان[2]،ولكن لا يجب التعود على ذلك،إذ أن من ضرورات شرب الماء أن تستريح الأعصاب الداخلية وتسترخي،وهذا الأمر يتحقق من شرب الماء جالسا،إلا أن ماء زمزم يشرب واقفا،وربما كان ذلك مسنونا للبركة والدعاء والتعظيم .

١٤- لا يجب شرب الماء من فم القربة،أو من ثقب الإناء،وذلك لأنه لا يمكن أولا من تقدير كمية الماء التي سيشربه،ثم إنه لا يمكن كذلك من رؤية ما قد يكون بالماء من أشياء ضارة .

١٥- يجب تغطية أواني الطعام والشراب[3]حتى لا يقع فيها تراب أو غبار أو ما ينجسها مثل الحشرات والديدان،أو يشرب منها حيوان [4] .

---

[1] البخاري – كتاب الأطعمة.

[2] البخاري كتاب الأشربة .

حدثنا مالك بن إسماعيل:حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة:أخبرنا أبو النضر،عن عمير مولى ابن عباس،عن أم الفضل بنت الحارث:أنها أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقدح لبن،وهو واقف عشية عرفة،فأخذه بيده فشربه.

زاد مالك،عن أبي النضر:على بعيره.

[3] ابو داود – كتاب الأشربة .

[4] المرجع السابق , و موطأ الإمام مالك .

١٦- يجب شكر الله وحمده بعد تناول الطعام على أنه أطعمنا وسقانا.وهناك أدعية مختلفة وردت في الأحاديث النبوية هذا واحد مختصر منها :

" الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين "

آداب المجلس

من الأمور المبدئية في آداب المجلس أن يتسم بالتحضر والوقار.وأن يكون لكل شريك في المجلس حقوق متساوية.إذ أنه يكون في الأصل لزيادة أوصال المحبة بينهم.ومن أجل تحقيق هذين الهدفين علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شريعته الغراء بعض آداب المجلس :

١- أن يجلس الإنسان حيث انتهى المجلس.وحيث يتيسر له مكان فيه.ولا ينبغي أن يشق المجلس ليجلس في الأمام مثلاً.إذ أن هذا يؤذي الجالسين ومن جاءوا قبله.هذا من جانب.ومن جانب آخر فإن هذا يولد نوعاً من الغرور لدى من يفعل ذلك ويجعله يركز اهتمامه على نفسه.وكان الصحابة الكرام يجلسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الطريقة([1]).وغاية ذلك أن لا يتخطى الذين جاءوا متأخرين إلى المسجد أولئك الذين سبقوهم ليجلسوا في الصفوف الأمامية.ولهذا منع من تخطي الرقاب وخاصة في صلاة الجمعة .

٢- لا يجب أن يوقف أحداً ليجلس مكانه([2]).إذ أن في هذا نوعين من التميز.وهو ما يولد في قلوب الآخرين بعضاً من سوء الظن.

٣- إذا قام شخص من المجلس لضرورة عرضت له فإنه عند عودته يجلس في نفس المكان الذي قام منه.ولا يجلس أحد مكانه.لأنه هو الذي جلس فيه أولاً.ولا يضيع حقه فيه لمجرد أنه قام منه بشكل مؤقت([3]).

٤- إذا جلس اثنان سوياً في مجلس واحد فلا يحق لأحد الفصل بينهما إلا بإذنهما([4]).إذ أن الغالب أنه عندما يجلس اثنان هكذا فإنما يكون ليتحدثا سوياً.أو أن هناك مصلحة ما بينهما.وبينهما مودة وألفة.والتفريق بينهما يبعث على الضيق والوحشة.

---

[1] أدب المفرد – باب يجلس الرجل حيث انتهى .

[2] الترمذي– أبواب الاستئذان – باب ما جاء في كراهية أن يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

[3] الترمذي – أبواب الاستئذان – باب إذا قام الرجل من مجلسه ثم رجع هو أحق به .

[4] الترمذي – أبواب الاستئذان – باب ما جاء في كراهية الجلوس بين الرجلين بغير إذنهما .

٥- إذا كان بعض الناس يجلسون متحلقين في مجلس فلا يجب أن يجلس أحد وسط حلقتهم هذه،فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الشخص[1]،لأنه في هذه الحالة سيكون وجهه قبالة بعض الناس،وظهره قبالة البعض الآخر،وهو ما يعد نوعاً من سوء الأدب،وربما كان المهرجون الذين يضحكون الناس يجلسون بهذه الطريقة،وهو على أية حال أمر مخالف للوقار.

٦- لا يجب أن يبقى أحد واقفاً أمام شخص آخر أو بالقرب منه وهم في المجلس[2]،إذ أن هذه كانت من عادات العجم حيث يقف الخدم والحشم أمام الملك،وهو تعظيم مبالغ فيه يصل إلى حد الشرك،وكأن شخصاً جعل من نفسه إلهاً،ويقضي على شخصية من هو أمامه،وهو ما لا يعتبر جيداً في الإسلام الذي يحب المساواة.

٧- لا يجب الجلوس في الطرقات،إذ أن هذا ينافي الوقار،ومن سوء الأخلاق التحديق في الرائحين والغادين،ولكن إذا اضطرتك الظروف للجلوس فإن عليك الالتزام بالأحكام التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الخصوص،أي غض البصر ورد السلام،وإماطة الأذى عن الطريق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وإرشاد من ضل الطريق،ومساعدة المنكوبين[3].

٨- إن أكثر ما يؤثر في الإنسان هو الصحبة،ولهذا ينبغي التدقيق في اختيار الأصدقاء،فلا بد أن يكونوا ممن تفيد صحبتهم،وكل إنسان يستطيع أن يعرف فطرة الآخر وطبيعته من خلال معرفة أصحابه،وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر قائلاً الأرواح جنود مجندة،فما تعارف منها ائتلف،وما تناكر منها اختلف[4]،وهناك

---

[1] الترمذي – أبواب الاستئذان – باب ما جاء في كراهية القعود وسط الحلقة .

حدثنا سويد أخبرنا عبد الله.أخبرنا شعبة عن قتادة عن أبي مجلز أن رجلا قعد وسط حلقة فقال حذيفة:ملعون على لسان محمد،أو لعن الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم من قعد وسط الحلقة.

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب في قيام الرجل .

[3] أبو داود – كتاب الأدب – باب الجلوس في الطرقات .

وحدثنا عبد الله بن مسلمة،ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد،عن زيد يعني ابن أسلم عن عطاء بن يسار،عن أبي سعيد الخدري،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إياكم والجلوس بالطرقات قالوا يا رسول الله،ما بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه قالوا:وما حق الطريق يا رسول الله؟قال:غض البصر،وكف الأذى،ورد السلام،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

[4] أدب المفرد – باب الرواح جنود مجندة .

قول مأثور وهو إذا أردت أن تعرف الشخص وأخلاقه فاعرف مــن يكــون أصحابــه وأخلاقهم،وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله"المرء علــى ديــن خليله،فلينظر أحدكم من يخالل"،ثم قال"إن مثل الصحبة الطيبة وصحبة الســوء كبــائع المسك ونافخ الكير،فبائع المسك إما أن تشتري منه،أو تجد منه ريحا طيبة،أما نافخ الكير فإما أن يحرق بيتك أو ملابسك،أو أن تؤذيك منه ريح نتنة"([1]).

٩- لا ينبغي أن تحاول الجلوس في أفضل أماكن المجلس،فإذا ما نزلت على أحد فــلا يجوز لك أن تحاول الجلوس على أفضل مكان عنده إلا بإذنه،وقد قال صلى الله عليــه وسلم:"لا يجلس أحدكم في أفضل أماكن أخيه إلا بإذنه"([2])،وكثيرا ما يحدث أن يحــاول الناس في المجلس أن يجلسوا في أقرب مكان لأفضل مكان على الأقل إن لم يسـتطيعوا الجلوس في الأفضل نفسه،وتكــون نتيجــة ذلــك أن يضيــق المكــان حــول رئيــس الجلسة،ويضجر الناس إذا طلب منهم الإفساح للآخرين،ولهذا علمنا الله تعالى هذه الآداب فقال:

" يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فأفسحوا يفسح الله لكم،وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات،والله بما تعملــون خبير " (المجادلة : ١١) .

قال: قال الليث،عن يحيى بن سعيد،عن عمرة،عن عائشة رضي الله عنها قالت:ســمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(الأرواح جنود مجندة،فما تعرف منها ائتلف وما تناكر منــها اختلــف). وقال يحيى بن أيوب:حدثني يحيى بن سعيد،بهذا.

[1] البخاري – كتاب البيوع – باب في العطر و بيع المسك .

حدثنا محمد بن العلاء:حدثنا أبو أسامة،عن بريد،عن أبي بردة،عن أبي موسى رضي الله عنه،عــن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(مثل الجليس الصالح والسوء،كحامل المسك ونــافخ الكــير،فحــامل المسك:إما أن يحذيك،وإما أن تبتاع منه،وإما أن تجد منه ريحا طيبة،ونافخ الكــير:إمــا أن يحــرق ثيابك،وإما أن تجد ريحا خبيثة.

[2] الترمذي – أبواب الاستئذان .

حدثنا هناد،حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أوس بن ضمعــج عــن أبــي مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لا يؤم الرجل في سلطانه،ولا يجلس على تكرمتــه إلا بإذنه.

قال أبو عيسى:هذا حديث حسن صحيح.

١٠- لا يجب الثرثرة والأحاديث الجانبية في المجلس,حتى لا يظن الحضور أن هذه الأحاديث الجانبية عنهم,وقد ذم الله تعالى في القرآن الكريم سلوك المنافقين هذا فقال :

" إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا " (المجادلة : ١٠) .

فإذا كان الناس يجلسون في مجلس,وتناجى اثنان فيما بينهما,فإن هذا يضايق الآخرين باعتبار أنهما لم يعتبرا باقي الناس أهلا لأن يطلعوا على ما يقولان,هذا من جانب,ومن جانب آخر يظن الناس أنهما يتحدثان عنهم,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:

" لا يتناجى اثنان من ثلاثة,إذ أن ذلك يحزن الثالث " ([1]) .

١١- لا ينبغي إفشاء أسرار المجلس,إذ أن المجالس بالأمانة كما قال صلى الله عليه وسلم([2]).

آداب اللقاء والزيارة

إن لقاء وزيارة الأصدقاء من الناحية الاجتماعية في الإسلام من أعمال الخير,وقد جاء في الحديث من ذهب لعيادة مريض أو زيارة أخ في الله نادى مناد ما أطيبك,وما أطيب مجيئك,ولقد صنعت لنفسك مكانا في الجنة([3]),وفيما يلي الآداب التي قررها الإسلام فيما يتعلق باللقاء والزيارة :

ينبغي أن يكون الوجه مبتسما عند لقاء الأصدقاء,وأن تظهر الفرحة عليه,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:"بشك في وجه أخيك صدقة"([4]),وأول كلمة تخرج من الفم عند

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب في نقل الحديث .

حدثنا هناد قال:حدثنا أبو معاوية عن الأعمش قال:وحدثني ابن أبي عمر,حدثنا سفيان عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما.وقال سفيان في حديثه:لا يتناجى اثنان دون الثالث,فإن ذلك يحزنه.

[2] المرجع السابق .

حدثنا أحمد بن صالح قال:قرأت على عبد الله بن نافع قال:أخبرني ابن أبي ذئب،عن ابن أخي جابر بن عبد الله،عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس:سفك دم حرام،أو فرج حرام،أو اقتطاع مال بغير حق.

[3] الترمذي – كتاب البر و الصلة – باب ما جاء في زيارة الإخوان .

[4] أبو داود – كتاب النكاح – باب في حق الزوج على المرأة .

حدثنا عباس بن عبد العظيم العنبري,حدثنا النضر بن محمد الجرشي اليمامي,حدثنا عكرمة بن عمار,حدثنا أبو زميل عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه

اللقاء هي كلمة الأمن والسلام في الشريعة وهي(السلام عليكم),فإن أول ما يلقي الكبير على الصغير والصغير على الكبير هو هذه الرسالة .

وكان لدى كل أمة من الأمم من التعبيرات التي تظهر الحب والفرحة عند اللقاء,وكان العرب يقولون عند التقائهم:أنعم الله بك عينا,وأنعم صباحا,أي فلتقر عينك,وليكن صباحك جميل,وكانت هناك بعض التعبيرات الخاصة بالأمراء والسلاطين,فكان الإيرانيون يقولون(عشت ألف عام),والأوربيون يقولون(صباح طيب),و(مساء طيب)و(ليلة طيبة)وغيرها,أما الإسلام فكانت تحيته(السلام عليكم),وفيها الفوائد التالية :

١- هذه هي تحية الأنبياء جميعا عليهم السلام,وهي التي كانوا يلقونها على غيرهم:"والسلام علي"(مريم),أو كما جاء عن الأنبياء والمرسلين:"وسلام على المرسلين"(الصافات),وصورتها هي الذكر والدعاء,ولا علاقة لها بالممتعات دنيويا كطول العمر وغيره,كما أنها ليست مقيدة بأوقات معينة,إذ يكمن فيها سر السلام الأبدي والسرمدي دائما,وتبدو فيها العظمة الدينية بشكل أكبر,إذ المقصود بالسلام الذي ورد فيها ذلك السلام الذي ينزل من الله على عباده,والذي تشير إليه(الألف واللام)في(السلام).

لا يوجد بها التعظيم المبالغ فيه,والذي نجده في الآداب والتحيات الأخرى غير المشروعة,وهذا هو السبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوافق على إرادة سيدنا قيس بن سعد رضي الله عنه حين قال له إنني رأيت أهل الحيرة يسجدون لرؤسائهم,وأنت أحق منهم بان نسجد لك([1]),وقال رجل آخر يا رسول الله,حين يلقي

وسلم:تبسمك في وجه أخيك لك صدقة,وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة,وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة,وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة,وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة,وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

قال وفي الباب عن ابن مسعود وجابر وحذيفة وعائشة وأبي هريرة.

[1] أبو داود – كتاب النكاح – باب في حق الزوج على المرأة .

حدثنا عمرو بن عون,أخبرنا إسحاق بن يوسف الأزرق,عن شريك,عن حصين,عن الشعبي عن قيس بن سعد قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم,فقلت:رسول الله أحق أن يسجد له,قال:فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت:إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم,فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك,قال:أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له?قال:قلت:لا,قال:فلا

الرجل منا أخاه فهل ينحني له,فقال صلى الله عليه وسلم لا,فقال الرجل هل يعانقه,ويقبله,فقال صلى الله عليه وسلم لا([1]),فقال الرجل أو يمسك بيده ويصافحه,فقال صلى الله عليه وسلم نعم.

إن أفضل دعاء يمكن أن يدعو به للرجل في الدنيا هو الدعاء بالسلام والأمان,وهو يشمل أمان الروح والمال والآل والأولاد وكل أنواع السلام في الدنيا والآخرة.

حين كان اثنان يلتقيان فيما قبل كان كل منهما يشعر بغربة وتوحش عن الآخر,ويخاف أن تكون هناك عداوة في غفلة منه,أما وأن كلا منهما طبقا لقاعدة الإسلام يؤدي هذا اللفظ وينطق به فإن معني هذا أن كلا منهما يطمئن الآخر من ناحيته,وأن كلا منهما يدعو للآخر بالسلام والأمان .

جعل الإسلام من تحية السلام عليكم ما يظهر شخصية للمسلمين فيما بينهم,فإذا ما التقي اثنان وحيا كل منهما الآخر بها فإنهما يشعران بنوع ما من القرب في قلوبهما حتى ولو كان كل منهما أجنبيا عن الآخر ولا يعرفه,كما يشعران بجاذبية المحبة فيما بينهما باعتبار أن كلا منهما ابن إيماني من أبناء الأمة المحمدية,ولقد كانت أول تعاليم المصطفي صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة المنورة هي:

" يا أيها الناس أفشوا السلام,وأطعموا الطعام,وصلوا والناس نيام,تدخلوا الجنة بسلام"([2]).

تفعلوا,لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن,لما جعل الله لهم عليهن من الحق.

[1] هذا المنع يسرى في المواقف التي يكون فيها محظور شرعي كأن يكون الرجل أمردا,أو في أي صورة أخرى من صور الشهوة .

[2] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء في المصافحة .

حدثنا يوسف بن حماد المعني البصري,حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الجمحي عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:أفشوا السلام,وأطعموا الطعام,واضربوا الهام,تورثوا الجنان,قال:وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وابن عمر وأنس وعبد الله بن سلام وعبد الرحمن بن عائشة وشريح بن هانئ عن أبيه.

قال أبو عيسى:هذا حديث حسن صحيح غريب,من حديث ابن زياد عن أبي هريرة.

وفي حديث آخر وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم غرض السلام وغايته قائلا لن تدخلوا الجنة ما لم تؤمنوا ولن تؤمنوا ما لم تتحابوا،ألا هل أخبركم بشيء إن فعلتموه تحاببتم،أفشوا السلام بينكم تحابوا([1]).

وليس هناك تخصيص في مسألة إفشاء السلام بالمعرفة وغير المعرفة،أو بالقريب وغير القريب([2])،ولا فرق فيها بين رجل وامرأة([3])،أو بين صغير وكبير([4])،إلا أن الإسلام وضع مبدأين لمن يبدأ بالسلام،وكانا معروفين عند كل الأمم المتحضرة،وهما أن يراعي الصغير أصول الأدب والاحترام،وبناء عليه أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الصغير يسلم على الكبير والماشي على الجالس والجماعة الصغيرة على الجماعة الكبيرة،أما الأمر الثاني فهو أن يبدو التواضع من السلام ويظهر منه،وبناء عليه أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الراكب يسلم على الماشي ([5]) .

وفي ضوء كل هذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلام على الأهل والأولاد حين يدخل الرجل بيته،وأكد أن هذا يوجب البركة([6])،وأن يسلم الرجل على من

---

[1] الترمذي – أبواب الزهد – ص ٤٠٩ .

حدثنا هناد،حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا،ولا تؤمنوا حتى تحابوا.ألا أدلكم على أمر إذا أنتم فعلتموه تحاببتم؟أفشوا السلام بينكم.

وفي الباب عن عبد الله بن سلام وشريح بن هانئ عن أبيه وعبد الله بن عمرو والبراء وابن عمر.

قال أبو عيسى:هذا حديث حسن صحيح.

[2] الترمذي–كتاب الاستئذان–باب ما جاء في إفشاء السلام،والبخاري–كتاب الاستئذان–باب السلام للمعرفة .

[3] البخاري – كتاب الاستئذان – باب تسليم الرجال على النساء و النساء على الرجال .

[4] البخاري – كتاب الاستئذان – باب التسليم على الصبيان .

[5] كتاب الاستئذان – باب في تسليم الراكب على الماشي .

حدثنا محمد:أخبرنا خالد،أخبرنا ابن جريج قال:أخبرني زياد:أنه سمع ثابتا مولى عبد الرحمن بن زيد:أنه سمع أبا هريرة يقول:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير

[6] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب في التسليم إذا دخل بيته .

حدثنا ابن عوف،ثنا محمد بن إسماعيل قال:حدثني أبي،قال ابن عوف:ورأيت في أصل إسماعيل قال:حدثني ضمضم،عن شريح،عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إذا

في المجلس إذا رحل عنهم([1])،وإضافة جملة ورحمة الله وبركاته إلى لفظ السلام يوجب مزيداً من الثواب،وهكذا جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:"السلام عليكم،فقال صلى الله عليه وسلم:لقد نال عشر حسنات،وجاء آخر وقال:"السلام عليكم ورحمة الله"فقال صلى الله عليه وسلم:لقد نال عشرين حسنة،وجاء ثالث وقال:"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"فقال صلى الله عليه وسلم:لقد نال ثلاثين حسنة ([2]) .

ويجب على الشخص الذي يلقي عليه السلام أن يرد السلام بنفس الطريقة التي ألقى بها عليه أو أفضل منها،بمعنى أن يضيف ألفاظاً مناسبة إلى الألفاظ التي قيلت له،وإلا فليردها كما هي،ولهذا جاء في القرآن الكريم :

" وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " (النساء : ٨٦) .

ورغم أن الرد بألفاظ أقل مما قيلت جائز لدى الفقهاء،لكن المفهوم الظاهري للآية أنه ليس أفضل .

٢- والطريقة الثانية لإظهار الحب والسرور عند اللقاء هي المصافحة،وبها يكون تكميل أهداف الإسلام،ولهذا جعلها الإسلام جزءاً من السلام،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن تكملة الإسلام الإمساك باليد،أي المصافحة([3])،وكانت أول هدية في المدينة

ولج الرجل بيته فليقل:اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج،بسم الله ولجنا،وبسم الله خرجنا،وعلى الله ربنا توكلنا،ثم ليسلم على أهله.

[1] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب التسليم عند القيام و القعود .

حدثنا قتيبة،حدثنا الليث عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم،فإن بدا له أن يجلس فليجلس،ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة. قال أبو عيسى:هذا حديث حسن،وقد روي هذا الحديث أيضاً عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

[2] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما ذكر في فضل السلام .

حدثنا محمد بن كثير،قال:أخبرنا جعفر بن سليمان،عن عوف،عن أبي رجاء،عن عمران بن حصين قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:السلام عليكم،فرد عليه السلام ثم جلس،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:عشر ثم جاء آخر فقال:السلام عليكم ورحمة الله،فرد عليه فجلس فقال:عشرون ثم جاء آخر فقال:السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،فرد عليه فجلس فقال:ثلاثون.

[3] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء في المصافحة .

حدثنا أحمد بن عبدة الضبي،حدثنا يحيى بن سليم الطائفي عن سفيان عن منصور عن خيثمة عن رجل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:من تمام التحية الأخذ باليد.

المنورة هي التي أحضرها أهل اليمن،وقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم،وجعلها وسيلة للحب والاتحاد بين المسلمين،وفي بعض الأحوال يمنع التعانق أو التقبيل عند اللقاء كما سبق الإشارة إليه،ولكن إن لم يكن هناك محظور شرعي فيجوز،وذات مرة جاء سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعانقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبله ([1]) .

ولا يمنع الوقوف كنوع من إظهار المحبة والحماس لمجيء شخص محترم ومحبوب،وكانت السيدة فاطمة رضي الله عنها تأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقف ويقبل يدها ويجلسها مكانه،وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها كانت تفعل معه صلى الله عليه وسلم مثل ذلك،وذات مرة جاء سيدنا سعد بن معاذ وكان مريضا وجريحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة جميعا أن يقفوا له ويستقبلوه ويحضرونه إليه ([2]) .

وهناك بعض التقاليد والآداب التي يدخلها الشرك عند الشعوب الأخرى فيما يخص اللقاء والمجالس،وقد ألغاها الإسلام تماما،ومن هذا أن الناس كانوا يقفون لأمرائهم وملوكهم بنوع من العبودية والخضوع بدلا من المحبة،ويظلون واقفين،وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قائلا:لا تقوموا لبعضكم مثل ما يفعل العجم([3])،وهناك

---

[1] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء في المعانقة والقبلة .

حدثنا محمد بن إسماعيل،حدثنا إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد المدني،حدثني أبي يحيى بن محمد عن محمد بن إسحق عن محمد بن مسلم الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت :قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فأتاه فقرع الباب،فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه،والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده فاعتنقه وقبله .قال أبو عيسى:هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الزهري إلا من هذا الوجه.

[2] الواقعتان مذكورتان عند أبي داود – كتاب الأدب – باب ما جاء في القيام .

[3] أبو داود – كتاب قيام الرجل للرجل .

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،ثنا عبد الله بن نمير،عن مسعر،عن أبي العنبس،عن أبي العدبس،عن أبي مرزوق،عن أبي غالب،عن أبي أمامة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا،فقمنا إليه فقال:لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا.

من التعبيرات التي تدل على الترحيب في مثـــل هــذه المواقــع وأجازتــها الشــريعة الإسلامية([1]).

٣- لا بد من الاستئذان من صاحب البيت عند الذهاب للقائه أو لعمل ما عنده،وقد أمــر الله تعالى بذلك في القرآن الكريم فقال :

" يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها،ذلكـم خير لكم لعلكم تذكرون،فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم،وإن قيل لكـم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون بصير " (النور : ٢٨) .

كما أنه لا بد من استئذان الزوج عند لقاء المرأة غير المحرم([2])،ورغم أن هناك فوائد كثيرة في الاستئذان من الرجل قبل دخول بيته لكن الهدف الأصلي منـــه هــو أن الإنسان يكون في بعض الأوقات في حال لا يحب أن يراه أحد عليها،وهذا هو الســـبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يذهب إلى بيت أحد فإنه كان يقف على يمين الباب أو يساره نظرا لأنه لم يكن وضع ستائر علـــى الأبــواب أمــرا معروفــا عندئذ([3])،ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقف في مواجهة الباب([4])حتى لا تقع عينه علـــى شيء بالداخل،وذات مرة جاء شخص ووقف أمام باب بيت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم له:قف يمين الباب أو يساره،إذ أن الاستئذان شرع لأجل أن لا تقع العين على ما بداخل البيت([5])،وجاء في الحديث لا ينظر أحدكم في بيت أحــد ويتلصص عليه فإذا فقأ أحد عينه فلا عقاب عليه([6])،وذات مرة نظر شخص في حجرته

---

[1] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء في مرحبا .

[2] الترمذي– كتاب الاستئذان– باب ما جاء في النهي عن الدخول على النساء إلا بإذن أزواجهن .

[3] أبو داود – كتاب الأدب – باب الاستئذان في العورات الثلاث .

[4] ادب المفرد – باب كيف يقوم عند الباب .

[5] أبو داود – كتاب في الاستئذان .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة،ثنا جرير،حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،ثنا حفـــص،عــن الأعمــش،عــن طلحة،عن هزيل قال :جاء رجل،قال عثمان:سعد بن أبي وقاص:فوقف على باب النبي صلى الله عليــه وسلم يستأذن،فقام على الباب،قال عثمان:مستقبل الباب،فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هكذا عنك أو هكذا،فإنما الاستئذان من النظر.

[6] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب الاستئذان قبالة البيت،والبخاري – كتاب الديات – باب من اطلع في بيت قــوم ففقئوا عينه فلا دية له .

صلى الله عليه وسلم،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك يمشط شعره بمشط حديدي،فقال صلى الله عليه وسلم لو أعلم أنك تنظر لفقأت عينك،ثم قال صلى الله عليه وسلم إنما جعل الإذن من قبل البصر،وإنما جعل الاستئذان من أجل البصر،أي أن الإذن يكون لكي لا ترى شيئا([1]).

وطريقة الاستئذان هي أن تسلم،قائلا هل أدخل([2])،ويكرر السلام ثلاث مرات،فإذا لم يؤذن له رجع([3])لكن لو أن أحدا دعاه فلا يحتاج إلى الإذن عندئذ([4])،ولكن إذا كان شخص يجلس في صحن البيت،ولم يكن معه أحد آخر فإنه ليس من الضروري عندئذ أن يستأذن([5])،كما أنه ليس من الضروري الاستئذان عند الدخول إلى المحلات وغيرها من الأماكن العامة،ويجب أن يسلم الرجل على أهل بيته حين يدخله،فإن في ذلك

حدثنا موسى بن إسماعيل،ثنا حماد،عن سهيل،عن أبيه قال:ثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه.

[1] جاءت ألفاظ هذا الحديث في ص ٨٨ من هذا الكتاب غير ما هو هنا ، لكن الصحيح هو هذا – انظر صحيح البخاري – كتاب الاستئذان – باب الاستئذان من أجل البصر ، و كتاب الديات – باب من اطلع في بيت قوم .

حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن،ثنا ابن وهب،عن سليمان يعني ابن بلال عن كثير،عن الوليد،عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إذا دخل البصر فلا إذن.

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب في الاستئذان .

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،ثنا أبو الأحوص،عن منصور،عن ربعي قال:ثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال:أألج،فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه:أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان،فقال له:قل السلام عليكم،أأدخل؟فسمعه الرجل فقال:السلام عليكم،أأدخل؟فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل.

[3] أبو داود – كتاب الأدب – باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان .

حدثنا مسدد،ثنا عبد الله بن داود،عن طلحة بن يحيى،عن أبي بردة،عن أبي موسى أنه أتى عمر فاستأذن ثلاثا فقال:يستأذن أبو موسى،يستأذن الأشعري،يستأذن عبد الله بن قيس فلم يؤذن له،فرجع فبعث إليه عمر:ما ردك؟قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:يستأذن أحدكم ثلاثا،فإن أذن له،وإلا فليرجع قال:ائتني ببينة على هذا،فذهب ثم رجع فقال:هذا أبي،فقال أبي:يا عمر،لا تكن عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال:عمر:لا أكون عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم.

[4] أدب المفرد – باب دعاء الرجل إذن .

[5] أدب المفرد – باب ما لا يستأذن فيه .

بركة وفوائد منها إذا كانت النساء في البيت يجلسن دون تكلف وكيفما اتفق،أو أن هنالك غير المحارم من النساء في البيت فإنهن ينتبهن عندئذ.

كل هذه الآداب تكون للأجنبي والذين لا نعرفهم،لكن هناك بعض الناس الذين لا يحتجب منهم،ويدخلون البيت كثيرا وبشكل متكرر مثل الأطفال الصغار والخدم والإماء والجواري،فإذا ألزمناهم بالاستئذان كلما دخلوا كان في ذلك تعب لهم وإرهاق ومع ذلك فهناك بعض الأوقات يحتجب فيها الناس عادة،وعليهم في مثل هذه الأوقات أن يستأذنوا،وقد حدد القرآن الكريم هذه الأوقات،أي من بعد صلاة العشاء وحتى صلاة الصبح،إذ يخلع الإنسان ملابسه عند النوم،وعند الظهيرة وقت القيلولة حيث يختلي الناس وينامون.قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم،وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم " (النور : ٥٩) .

آداب الحديث

وأول أمر في آداب الحديث أن نتحدث بهدوء ولين،وقد أمر الله تعالى سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام أن يذهبا إلى فرعون ويتحدثا معه بهدوء ولين :

" فقولا له قولا لينا " (طه : ٤٤) .

وينبغي أن يكون القول حسنا مفيدا فيه نفع لقائله أو لآخر،ولذا قال تعالى :

" وقولوا للناس حسنا "(البقرة:٨٣).فإذا ما جلس في مجلس ينبغي أن لا يقول شيئا يكون فيه تجريح لآخر أو تحقير له،وكان اليهود يأتون إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون مثل هذا الكلام،يقولون(راعنا)بدلا من(انظرنا)،وهو ما يبدو منه بعض التخفيف،ولهذا منع الله تعالى المسلمين من مثل هذا القول فقال:

" يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا " (البقرة : ١٠٤) .

ونجد تفصيل ذلك كله في سورة(النساء)الركوع السابع .

هذا وينبغي أن يكون الحديث متصفا وصحيحا،ولا يؤدي إلى مزيد من الجدال والعراك،ولا يزرع العداوة والبغضاء بين الناس.قال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم"(الأحزاب:٧٠).

فإذا ما تحدثت النساء مع غير المحارم من الرجال فينبغي أن لا تكون هناك ليونة وخضوع ورقة في الحديث،حتى لا يظن السامع سوءا بمن تتحدث.قال تعالى :
" فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض،وقلن قولا معروفا"(الأحزاب:٣٢).

كما أكد الله تعالى على الرجال أن يتحدثوا بلين ولطف ومعقولية،وجعل ثواب هذا يعدل ثواب الصدقة.قال تعالى :
" قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى " (٢٦٣) .

ويجب أن يكون الحديث ببطء،والصياح أثناء الحديث دليل الحمق،قال تعالى :
" واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " (لقمان : ١٩) .

وينبغي تجنب الأحاديث التي لا داعي لها فذلك من علامات الوقار،وهي صفة المسلمين :
" والذين هم عن اللغو معرضون " (المؤمنون : ٣) .
لأن الكلام الذي يخرج من فم الإنسان تشهد عليه ملائكة الله،قال تعالى :
" ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " (ق : ١٨) .

ولهذا ينبغي على الشخص أن يفكر جيدا قبل أن يتحدث،وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"([1])،واشتراط الإيمان بالله واليوم الآخر يشير إلى أن لا نغفل عن عاقبة عملنا،لأننا حين نسيء القول فسوف ننال جزاءه،وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"([2])،وهذا الحديث من جوامع الكلم الذي

---

[1] كتاب الإيمان – باب الحث على إكرام الجار و الضيف .
حدثنا قتيبة بن سعيد،حدثنا أبو الأحوص،عن أبي حصين،عن أبي صالح،عن أبي هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليصمت).

[2] الموطأ و شرعة المباجي – باب ما جاء في الصدق و الكذب ، و الترمذي – كتاب الزهد .
وحدثني عن مالك،عن ابن شهاب عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

يبدو مختصرا في ألفاظه،لكن يجمع النهر في كوز كما يقولون،ولو طبق النـــــاس هـذا الحديث لاستفاد المسلمون كثيرا .

ولقد منح الله تعالى اللسان للإنسان ليعبر عن نفسه،ولذا فإنه من الضــروري أن يكون هدف الكلام-ومعناه صحيحين،وطريقة-التعبير عنه مناسبة،وهذان الأمران يدخلان في باب الإعراض عن اللغو،فإذا قصر متحدث في أمر من هذين الأمرين فإن الإســلام يأمر أن لا نرد على هذا الجاهل بمرارة،وألا نسمح لزمام الأمر بأن يفلت من أيدينا : " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (الفرقان : ٦٣) .

وينبغي الحديث عند الضرورة،وجاء في الحديث ذم أولئك الذين يلغـــون فــي أحاديثهم،فقال صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء أسوأ أفراد الأمة([1])،كما قال أيضا قد يكون الكلام سببا في رضا الله تعالى حتى يوم القيامة أو غضبه حتى يوم القيامـــة([2])،وهـذا الحديث يلفت نظرنا إلى كل كلمة نقولها إذ أن إضاعة كثير من أمور الدين والدنيا بسبب اللسان،إذ أنه وسيلة الخير وآلة الشر أيضا،بـــه ينصلـح الديـن والدنيـا،وبـه أيضـا يفسدان،ولهذا جاء في الحديث اضمن لي ما بين فكيك يعني اللسان اضمن لك الجنة ([3])

فإذا أردنا إفهام المخاطب جيدا فإن علينا أن نجعل كلامنا ســـهلا بعيـدا عـن التعقيد،بل ونكرره إذا اقتضى الأمر حتى يفهم عنا جيدا،ولهذا كان رسول الله صلـى الله عليه وسلم إذا قال شيئا أعاده ثلاث مرات([4])،ولم يكن يتحـــدث ســريعا حتـى يفـهم المخاطب كل لفظ يقوله،وذات مرة جلس سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه بجانب حجـرة السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها وأخذ يشرح حديثا مسرعا في الكلام،فـاعترضت

---

[1] أدب المفرد – فضول الكلام .

[2] موطأ الإمام مالك – باب ما يؤمر به من التحفظ في الكلام .

حدثني مالك عن محمد بن عمرو بن علقمة،عن أبيه،عن بلال بن الحارث المزني،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله،ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت،يكتـب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه.وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله،ما كـان يظـن أن تبلـغ مـا بلغت،يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه.

[3] موطأ الإمام مالك – باب ما جاء فيما يخاف من اللسان .

[4] أبو داود – كتاب العلم – باب تكرير الحديث .

حدثنا عمرو بن مرزوق،أخبرنا شعبة،عن أبي عقيل هاشم بن بلال،عن سابق بن ناجية،عـن أبـي سلام،عن رجل خدم النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حـدث حديثـا أعاده ثلاث مرات.

عائشة الصديقة رضي الله عنها وأخذ يشرح حديثا مسرعا في الكلام،فاعترضت عليه السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحدث بهذه السرعة،وإنما كان يتحدث بهدوء وبطء حتى لو أراد شخص أن يعد كلماته لاستطاع ذلك،يقول سيدنا جابر رضي الله عنه أنه كان في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ترتيل وترسيل،أي أن كل لفظ منفصل عن الآخر،ولا يتعجل في حديث،وقد أوضحت السيدة عائشة رضي الله عنها هذا في قولها :

" كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من يسمعه " .

وينبغي أن يكون الكلام مختصرا،ذات مرة تحدث شخص حديثا طويلا،أو خطب خطبة طويلة،وسمعه سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال لو اختار الاعتدال والتوسط لكان أفضل،فلقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أمرت أن أتحدث باختصار،لأن الاختصار أفضل([1]).

وفي بعض الأحيان يكون التفاخر والمباهاة ونيل الشهرة هي الهدف من الحديث أو الخطبة،وفي بعض الأحيان يكون لجذب الناس إليه،وأحيانا يكون بهدف الترفيه،ولتحقيق مثل هذا يكون الكلام متكلفا مسجعا وطويلا،ويصيب السامعين بالملل،وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل هذا وقال إن الله يبغض ذلك البليغ الذي يلف لسانه بالكلام مثلما يفعل الثور عند تناول العشب،وقال أيضا لن يقبل الله توبة أو فدية يوم القيامة من رجل يغير ويبدل في كلامه ليجذب الناس إليه وليهيموا به([2]).

---

[1] أبو داود – كتاب العلم – باب في سرد الحديث .

حدثنا سليمان بن عبد الحميد البهراني،أنه قرأ في أصل إسماعيل بن عياش،وحدثه محمد بن إسماعيل قال:حدثني أبي قال:حدثني ضمضم،عن شريح بن عبيد قال:ثنا أبو ظبية أن عمرو بن العاص قال يوما وقام رجل فأكثر القول فقال عمرو:لو قصد في قوله لكان خيرا له،سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:لقد رأيت أو أمرت أن أتجوز في القول،فإن الجواز هو خير.

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب ما جاء في المتشدق في الكلام .

حدثنا ابن السرح،ثنا ابن وهب،عن عبد الله بن المسيب،عن الضحاك بن شرحبيل عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس،لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا.

كما ينبغي عند الحديث أن لا نركز اتجاه وجوهنا إلى جانب واحد فقط من السامعين،وإنما يجب أن ننتقل بين السامعين حتى لا يشعروا بعدم اهتمام من المتحدث([1]).

آداب الخروج والسير

يجب على الإنسان أن يخطو في طريقه بجدية ووقار وتواضع،وقد قال الله تعالى في مدح المسلمين الصالحين:"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا"(الفرقان:٦٣).

وينبغي ألا نسير بغرور أو تبختر،قال تعالى:"ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا"(الإسراء:٣٧).

وقال في موضع آخر :

" ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور " (لقمان : ١٨) .

وينبغي أن لا تضرب المرأة الأرض بأقدامها بشدة حال سيرها إذا كانت تلبس من الزينة،والحلي ما يصدر أصواتا كالخلاخيل وما شابهها،وكانت نساء العرب يمشين أمام الرجال بخلاخيلهن فيضربن الأرض بشدة ليعلم ما يخفين من زينتهن،وقد منع الله تعالى هذا فقال :

" ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن " (النور : ٣١) .

وعندما تخرج المرأة الشريفة من بيتها لضرورة فإنها تغطي جسدها كله من رأسها إلى أخمص قدميها برداء كبير حتى تخفي ملابسها الأصلية وكل ما تتزين به،ويتدلى جزء من النقاب على وجهها حتى يعرف الرجال أنها امرأة شريفة حرة وليست أمة،ثم تغض بصرها إلى الأرض:

" يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين " (الأحزاب : ٥٩) .

" وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن،ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن"(النور:٣١).

---

[1] أدب المفرد – باب إذا حدث الرجل لا يقبل على واحد .

وبناءا على هذه المبادئ لا يجب أن تخرج المرأة متعطرة بعطر نفاذ,إذ أن ذلك يثير ميلا لدى الرجال,ويبدو منه أن المرأة تريد أن يلتفت إليها الرجال,ومثل هذا ينافي شرف النساء .

ولا ينبغي أن تسير المرأة والرجل سويا في الطريق,ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل من أن يسير بين المرأتين,وعلى المرأة أن تسير في جانب الطريق وليس في وسطه .

ذات مرة لختلط الرجال والنساء أثناء سيرهم في الطريق فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سبق أن ذكرناه,وبعدها أصبحت النساء يمشين في طريقهن بجانب الحائط ([1]) .

كما ينبغي مراعاة الأدب والوقار أثناء السير في الطريق,حتى أنه إذا أراد الرجل اللحوق بصلاة الجماعة فلا ينبغي أن يهرول في غير وقار,وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا كان الآذان يرفع في المسجد أو الجماعة قائمة فلا تأتوها مهرولين,وإنما في وقار([2]) .

وإن كان في الاستطاعة فعلى الشخص أن يلبس حذاءا وذلك حفاظا على قدميه ومن أجل طهارتهما أيضا,وقد قال صلى الله عليه وسلم البسوا الحذاء,فلابس الحذاء كأنه راكب أو ممتطيا شيئا([3]).

وينبغي أن يكون الحذاء في القدمين معا,أو أن يسير حافي القدمين معا,بمعنى أنه لا ينبغي أن يلبس الحذاء في قدم ويترك الأخرى([1]),إذ أن ذلك ينافي الأدب

---

[1] أي ليعرف الناس أنها امرأة شريفة فلا يضايقها أحد في الطريق,وانظر أبو داود– كتاب الأدب – باب في مشي النساء في الطريق .

[2] صحيح مسلم – باب استحسان إتيان الصلاة بوقار .

حدثنا يحيى بن أيوب,و قتيبة بن سعيد,وابن حجر،عن إسماعيل بن جعفر,قال ابن أيوب:حدثنا إسماعيل,أخبرنا العلاء عن أبيه،عن أبي هريرة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إذا ثوب للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون,وأتوها وعليكم السكينة,فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا,فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في صلاة.

[3] أبو داود–باب الانتعال.حدثنا محمد بن الصباح البزاز,ثنا ابن أبي الزناد،عن موسى بن عقبة،عن أبي الزبير،عن جابر قال :كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فقال:أكثروا من النعال,فإن الرجل لا يزال راكبا ما انتعل.

والوقار،ومثل هذا الشخص يعتبره الناس أحمقا وسفيها،أما إن كان في البيت واضطر إلى ذلك أحيانا فلا حرج ([2]) .

آداب السفر

كانت الظروف والمواصلات في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلفة عن أيامنا،وكانت آداب السفر تتناسب مع أرض العرب والطقس عندهم،وما هم عليه من أحوال،فقد كانت أرض العرب جافة صخرية،الماء بها قليل،والحرارة شديدة،ولا أمن فيها بسبب كثرة القتل والسلب والنهب،ولهذا أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضوء كل هذه الأشياء إلى بعض الأمور المفيدة فيما يتعلق بالسفر،لم يعد الالتزام ببعضها ضروريا في زماننا هذا بسبب تغير الظروف والأحوال،وما يتناسب منها مع الحياة المعاصرة فإنه ينبغي الاستفادة منها،وخاصة أن أهل القرى والأرياف سوف يستفيدون منها بشكل أكبر باعتبار أنهم يسافرون مشيا على الأقدام أكثر من غيرهم،ولا تتيسر في الصحراء والقفار متطلبات الحياة الضرورية التي يمكن أن تتوفر في محطات السكك الحديدية والفنادق والمطاعم :

ينبغي توديع المسافر،والدعاء له بالخير والعافية،وإن أمكن ندعو له بالدعاء الخاص الذي دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يودع الجيش([3]):"استودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم".

ينبغي أن يكون السفر في الصباح الباكر([4])،إذ أن ذلك يحفظ على الإنسان وقته،فيستفيد باليوم كله،ويتجنب حرارة الشمس وشدة الهواء،ويستطيع أن يطوي مسافة معقولة من سفره حتى الظهيرة،ثم يستريح عند القيلولة .

لا ينبغي أن يسافر الشخص منفردا،وإنما ينبغي أن يكونوا ثلاثة على الأقل([1])،إذ أن ذلك يجنب الإنسان كثيرا من المخاطر،ويمكنه من الحفاظ على أدوات سفره

---

[1] المرجع السابق .

[2] الترمذي – كتاب اللباس – باب المشي في نعل واحد .

[3] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في الدعاء عند الوداع .

حدثنا مسدد،ثنا عبد الله بن داود،عن عبد العزيز بن عمر،عن إسماعيل بن جرير،عن قزعة قال:قال لي ابن عمر:هلم أودعك كما ودعني رسول الله صلى الله عليه وسلم:أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك.

[4] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في الإبكار في السفر .

وأمتعته.فإذا سافر ثلاثة سويا أمروا عليهم واحد منهم([2]).ويطلق على هذا الشخص أمير القافلة .

لا ينبغي أن يدخل الشخص إلى البيت مباشرة عند عودته من السفر،وإنما ينبغي عليه أن يعطي أهله وقتا يستعدون فيه لاستقباله([3]).وينبغي استقبال الإنسان العزيز والصديق عند عودته من سفره ([4]) .

يمكن أن يكون السفر ليلا،إذ جاء في الحديث أن المصلحة في ذلك هي أن يطوي المسافر مسافة كبيرة ليلا([5]).إذ أن الإنسان في الحقيقة يستطيع أن يسير سريعا عندما يكون الجو معتدلا غير حار،ولا رياح فيه.على أية حال أشار الإسلام بوقتين مناسبين للسفر في ضوء أحوال أرض العرب،أي وقت الصبح ووقت الليل.وينبغي أن يهتم المسافر بالمطية التي يمتطيها من الحيوانات خلال سفره .

ينبغي إن أقام في الليل أثناء السفر أن يقيم بعيدا عن الطريق،إذ تخرج فيه الحيوانات المؤذية وهو ما يمثل خطرا عليه ([6]) .

إذا ما حقق الإنسان ما هو مستهدف من سفره عليه أن يعود فورا،لأن السفر على أية حال فيه تعب ونصب وقلق([7]).

آداب النوم

لقد عد الله تعالى النوم من بين نعمه وإحساناته.فقال :

" ومن آياته منامكم بالليل " (الروم : ٣) .

وقال في سورة الفرقان :

" وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا "(الفرقان:٤٧) .

وقال في سورة النبأ :

" وجعلنا نومكم سباتا،وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا " (النبأ : ١١) .

---

[1] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في الرجل يسافر وحده .

[2] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في القوم يسافرون فيؤمرون أحدهم .

[3] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في الطروق .

[4] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في التلقي .

[5] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في سرعة السير .

[6] مسلم–كتاب الإمارة–باب مراعاة مصلحة الدواب في السير،و النهي عن التعريس في الطريق .

[7] مسلم – كتاب الإمارة – باب السفر قطعة من العذاب .

وهذه الآية تشير إلى أن وقت النوم هو الليل,أما النهار فهو للعمل والاجتهاد,بمعنى أن يمضي الجزء الأكبر من النهار في العمل والسعي,وكان العرب يستريحون قليلا عند الظهيرة,وهو ما يسمى بالقيلولة التي ورد ذكرها في سورة النور:"حين تضعون ثيابكم من الظهيرة",وأن يمضي الليل في الراحة,وإن أمكن يقضي جزءا منه في ذكر الله مثلما ورد في الآيات الأخرى,لكن الكسالى المحبون للراحة يجعلون من النهار ليلا,وأهل اللهو والعبث يجعلون من الليل نهارا,وكلاهما يخالف أحكام الفطرة,بل إن قضاء الليل كله في العبادات أمر غير مستحب,وقد قال صلى الله عليه وسلم إن لعينك عليك حقا([1]),وهذا لعامة الناس,لكن الخاصة من عباد الله يمكنهم ذلك,وهم الذين أثنى الله عليهم الله تعالى في هذه الآية :

" كانوا قليلا من الليل ما يهجعون " (الذاريات : ١٧) .

حددت السنة النبوية أوقات النوم واليقظة وطرقهما,فلا ينبغي النوم قبل صلاة العشاء,لأن هذا من علامات الغفلة,كما لا ينبغي الدخول في أحاديث لغو بعد صلاة العشاء,بل يجب إتمام ما بقي من أعمال لم تتم بعد,ثم النوم فورا([2]),وذلك حتى يستطيع الاستيقاظ في الصباح الباكر,ولا يشعر بإرهاق أو تعب في عبادة الله بسبب قلة النوم .

أما إن كان هناك أمر ضروري,أو عمل مفيد فلا مانع من الكلام فيه بعد صلاة العشاء,ولهذا ذهب سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه

---

[1] البخاري – كتاب النكاح .

حدثنا ابن مقاتل:أخبرنا عبد الله:أخبرنا الأوزاعي قال:حدثني يحيى بن أبي كثير قال:حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال:حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:(يا عبد الله،ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل).قلت:بلى يا رسول الله،قال:(فلا تفعل،صم وأفطر،وقم ونم،فإن لجسدك عليك حقا،وإن لعينك عليك حقا،وإن لزوجك عليك حقا،وإن لزورك عليك حقا،وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام،فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها،فإن ذلك صيام الدهر كله).فشددت فشدد علي،قلت:يا رسول الله،إني أجد قوة؟قال:(فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه).قلت:وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟قال:(نصف الدهر).فكان عبد الله يقول بعدما كبر:يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم.

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب النهي عن السمر بعد العشاء .

وسلم بعد صلاة العشاء واستشاره في الأمور الضرورية وحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها([1]).

ويقتضي الاحتياط أن ينظف الشخص فراشه قبل النوم ثم ينام على جنبه الأيمن([2]). ولا ينبغي النوم فوق سطح منزل ليس عليه شبكة أو سور يحميه([3])، لأن ذلك يعرضه للسقوط على الأرض .

ينبغي أن ينام الشخص على طهارة بل إنه من الأفضل أن يتوضأ الشخص قبل النوم ([4]). ولا ينبغي أن ينام على بطنه وذات مرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصا ينام بهذه الطريقة فقال له إن الله لا يحب هذه الطريقة في النوم ([5]) .

لا ينبغي أن ينام الشخص واضعا قدما فوق أخرى([6])، لأن في ذلك احتمالا لانكشاف العورة، فإذا انتفى هذا الاحتمال فإنه يجوز، إذ جاء في حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كان ينام بهذه الطريقة ([7]) .

يجب إغلاق باب البيت عند النوم، وتغطية أواني الطعام والشراب، وإطفاء المصباح، إذ أنه في بعض الأحيان يمكن أن يرفع الفأر فتيل المصباح ويمشي به طمعا في الزيت، مما يعرض البيت لمخاطر اشتعال النيران، وذات مرة اشتعلت النيران في بيت

---

[1] صحيح مسلم – باب إكرام الضيف .

[2] أبو داود – كتاب الأدب – باب ما يقال عند النوم .

[3] أبو داود – كتاب الأدب – باب في النوم على سطح غير محجر .

[4] أبو داود – كتاب الأدب – باب ما يقال عند النوم , و باب النوم على طهارة .

[5] أبو داود – كتاب الأدب – باب في الرجل ينبطح .

حدثنا محمد بن المثنى، ثنا معاذ بن هشام، قال: حدثني أبي، عن يحيى بن أبي كثير، قال: ثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاري قال: كان أبي من أصحاب الصفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انطلقوا بنا إلى بيت عائشة رضي الله عنها فانطلقنا فقال: يا عائشة أطعمينا، فجاءت بجشيشة فأكلنا ثم قال: يا عائشة أطعمينا فجاءت بحيسة مثل القطاة فأكلنا، ثم قال: يا عائشة اسقينا فجاءت بعس من لبن فشربنا ثم قال: يا عائشة اسقينا فجاءت بقدح صغير فشربنا، ثم قال: إن شئتم بتم، وإن شئتم انطلقتم إلى المسجد قال: فبينما أنا مضطجع في المسجد من السحر على بطني إذا رجل يحركني برجله فقال: إن هذه ضجعة يبغضها الله قال: فنظرت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[6] الترمذي – أبواب الاستئذان – باب ما جاء في كراهة ذلك .

[7] الترمذي – أبواب الاستئذان – باب ما جاء في وضع إحدى الرجلين على الأخرى مستلقيا .

رجل في المدينة المنورة,فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النار عدوكم,فأطفئوها قبل نومكم ([1]) .

ينبغي قراءة الدعاء المسنون عند النوم وعند الاستيقاظ,وأكثر الأدعية اختصارا في هذا الخصوص هو أن تقول عند النوم"اللهم باسمك أحيى وأموت"وعند الاستيقاظ"الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور".و قد وردت أدعية أخرى كثيرة ومؤثرة في الأحاديث النبوية .

آداب الملبس

للملبس هدفان رئيسيان أحدهما جسماني,والآخر أخلاقي,أما الجسماني فهو حماية الجسم من الحرارة والبرودة ومتاعبهما,وأما الأخلاقي فهو ستر أجزاء البدن التي لا يجب أن يراها الآخرون,وربما لم يعترض دين آخر غير الإسلام على العرى مثلما فعل الإسلام,فالإسلام هو أول دين يجعل ستر العورة جزءا من الدين,حتى أن الصلاة لا تجوز بغير ذلك إلا لضرورة .

وبالنسبة للرجال فإن العورة هي ما بين السرة والركبة,وبالنسبة للمرأة الحرة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها,وبالنسبة للأمة من البطن والظهر وحتى الركبتين([2]),وهو ما لا يجوز أن تكشفه أمام الآخرين,بل لا يجوز كشفها في خلوتها إلا لضرورة,وقد سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:فإن كنا في خلوة,ولا يرانا أحد,فقال صلى الله عليه وسلم فإن الله يراك,وهو أحق أن تستحي منه([3]),وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم لا تتعروا أبدا فإن الملائكة تعيش معكم,وتتركم إذا تعريتم,فاستحيوا منهم ([1]) .

---

[1] البخاري–كتاب الاستئذان–باب لا يترك النار في البيت عند النوم,وباب إغلاق الأبواب بالليل,لكن هذا عندما يكون سقف البيت منخفضا والمصباح متهالكا .

حدثنا محمد بن العلاء:حدثنا أبو أسامة،عن بريد بن عبد الله،عن أبي بردة،عن أبي موسى رضي الله عنه قال:احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل،فحدث بشأنهم النبي صلى الله عليه وسلم،قال:(إن هذه النار إنما هي عدو لكم،فإذا نمتم فأطفئوها عنكم).

[2] لا يدخل وجه المرأة و لا قدماها و راحتاها في العورة .

[3] سنن الترمذي – أبواب الاستئذان و الآداب – باب ما جاء في حفظ العورة .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا بهز بن حكيم حدثني أبي عن جدي قال:قلت:يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟قال:احفظ عورتك إلا من زوجتك أو مما ملكت

وحين سقط لباس الجنة عن سيدنا آدم وحواء بسبب عصيانهما الله تعالى أسرعا فورا إلى ستر عورتهما بأوراق الأشجار :

"فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة"(الأعراف:٢٢).

ويعلم من هذا أن الله تعالى جعل ستر العورة من فطرة الإنسان،لكن هذه الفطرة تتشوه في الدنيا أحيانا،وينتج عنه أن تقتصر الأمم البربرية والصحراوية وغير المتحضرة ستر العورة على مكان العورة فقط،وكان هذا حال العرب أيضا،بل إنه كان لهم تقليد في موسم الحج وهو أن ينزع كل أبناء القبائل ما عدا قريش ملابسهم عند الطواف حول الكعبة،فإذا أعطتهم قريش ملابسهم لبسوها([2])وإلا طافوا هكذا عرايا،وقد علم الوحي الإلهي الإنسان التحضر وحسن السليقة :

" يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير " (الأعراف : ٢٦)

" يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " (الأعراف : ٣١) .

" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده " (الأعراف : ٣٢) .

" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن " (الأعراف : ٣٣) .

والإشارة التي وردت في هذه الآيات إلى مسألة عدم الحياء يقصد بها العري،والأمر الذي جاء باتخاذ الزينة هو ستر العورة،ويعلم من هذه الآيات أيضا أن المقصود من الاستتار بالملابس الزينة أيضا،وقد وردت في آخر الآية الأولى فقرة بليغة في شكل قاعدة كلية لما يتعلق باللباس،وهي تضم جزئيات كثيرة بداخلها:

" ولباس التقوى ذلك خير " (الأعراف : ٢٦) .

فما المقصود بلباس التقوى؟.فهم البعض هذه الفقرة على سبيل المجاز،وأن المقصود هو الإيمان،بينما فهمها الآخرون على أنها الأعمال الصالحة والحياء،لكن الحقيقة هي أنه علينا أن نتأملها باعتبار الحقيقة قبل أن نتأملها باعتبار المجاز،ولهذا

يمينك،فقال:الرجل يكون مع الرجل؟قال:إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل،قلت:والرجل يكون خاليا،قال:فالله أحق أن يستحيا منه.

[1] المرجع السابق – باب ما جاء في الاستتار .

[2] صحيح مسلم و الطبري تفسير الآيات التالية فيما بعد .

أخذها بعض المفسرين على محمل الحقيقة،وقد فسرها المفسر التابعي المعروف ابن زيد على أنها مطلق اللباس،بينما فهمها آخر على أنها ملابس الحرب من دروع وقلنسوات وما إلى ذلك،وفهمها آخر على أنها ملابس الزهد والورع الصوفية([1])،لكن هذا أيضا بعيد عن الحقيقة،صحيح أن لباس التقوى مراد منه لباس التقوى،يعني ذلك اللباس الذي يظهر التقوى،وقد وضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله،وقد كتب شاه عبد القادر محدث الدهلوي في حواشي ترجمته للقرآن عند هذه الآية قائلا :

" الآن البسوا ذلك اللباس الذي يتسم بالتقوى،فلا يلبس الرجل ملابس حريرية،ولا يسبل ملابسه،ولا يرتكب ما منع منه،ولا تلبس المرأة ملابس رقيقة كاشفة تبدي ما تستر للناس،ولا تظهر زينتها " (تفسير الأعراف – الآية المذكورة) .

وليس في الإسلام تحديد للملابس سوى هذا،وهذا التحديد طبقا لما جاء في الأحاديث هو كالتالي :

١– لا ينبغي للرجال أن يلبسوا الملابس الحريرية إلا لضرورة واضطرار،إذ أنها توحي بنسوانية،وتذكر بحياة الترف التي تنافي حياة الجد والاجتهاد والسعي للرجال،أما الضرورة والاضطرار فهو كأن يكون في الحرب فيلبس الجنود تحت الدروع ملابس حريرية حتى لا تؤذي حلقات الحديد أجسادهم،أو أن يصاب أحد بالجرب،فإن الملابس القطنية الخشنة قد تزيد إصابته،ولهذا يمكن للإنسان في هاتين الحالتين أن يلبس الملابس الحريرية،ويجوز أن يكون في اللباس قطعة صغيرة من الحرير .

٢– لا يجوز للرجال أن يلبسوا ملابس نسائية،ولا يجوز للنساء أن يلبسن ملابس رجالية،إذ ينم هذا عن محدودية أخلاقهم،وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال الذين يتشبهون بالنساء في الملابس والتصرفات،والنساء اللاتي يتشبهن بالرجال في الملابس والتصرفات .

٣– كانت إطالة اللباس أو إرخاء الإزار إلى أسفل حتى يجر على الأرض علامة على العظمة عند العرب،فكان سادتهم وأمراؤهم يلبسون الملابس الطويلة جدا،ويرخون إزارهم،فقال صلى الله عليه وسلم من أرخى إزاره فخرا وغرورا فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة،ولهذا لا ينبغي للرجل أن يرخي سرواله أو إزاره إلى درجة تخفي كعبيه،بل أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصل السروال،أو الإزار حتى نصف

[1] روح المعاني – تفسير الآية المذكورة .

الساق،أو على الأقل إلى ما فوق الكعبين،فقال إن إرخاء الإزار علامة على الغرور،والله لا يحب الغرور،لكن السيدات يسبلن ملابسهن ويرخينها إلى أسفل الكعبين بعض الشيء .

٤- لا يستحب ارتداء الملابس التي تشير إليها أصابع الناس إعجابا،سواء كانت ملابس الأمراء المزركشة البراقة،أو عباءة وجبة المشايخ التي يتظاهرون بها،أو ملابس الصوفية،لأن هدف هؤلاء من ارتداء مثل هذه الملابس هو الرغبة الكامنة في التميز عن الآخرين،وهذا الهوس بالتميز غرور سافر من النفس .

٥- لا ينبغي أن يرتدي الرجل أو المرأة ملابس كاشفة،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء بشكل خاص كم من كاسيات هن عاريات .

٦- لا يجوز ارتداء الملابس التي لا تستر العورة كاملة،وقد ارتدت السيدة أسماء رضي الله عنها[1]الأخت الكبرى للسيدة عائشة رضي الله عنها ملابس كهذه ذات مرة وجاءت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم يا أسماء إذا بلغت المرأة لا يجوز أن يظهر منها إلا هذا وذاك،وأشار إلى الوجه والكفين.

٧- لا ينبغي للرجل أن يرتدي ملابس ذات ألوان فاقعة،وخاصة اللون الأحمر،لكن يجوز ارتداء الملابس التي تدخل فيها بعض الخيوط الحمراء،وقد ارتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الرداء،ويمكن ارتداء الملابس ذات اللون الأصفر،وكان صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان يرتدي ملابس صفراء كلها،لكن الملابس الزعفرانية اللون ليست مستحسنة،ولا يجوز للرجال وضع الزعفران على الجسم بقصد التعطر كما كان يفعل العرب،وقد ارتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءا أخضر اللون أيضا،وربط إزارا أخضر أيضا،كما كان يربط على رأسه صلى الله عليه وسلم عمامة سوداء اللون .

٨- أحب النبي صلى الله عليه وسلم الملابس البيضاء بصفة عامة للرجال .

٩- عند ارتداء الملابس ذات الكمين ينبغي لبس الكم الأيمن أولا .

١٠- كان صلى الله عليه وسلم عند ارتداء الملابس الجديدة يدعو الله بدعاء يشكره فيه على نعمته فيقول :

---

[1] وردت الأحاديث الخاصة بهذا الباب في الصحاح وكتب السنن باب الملبس،وأمامي منها الآن أبو داود والترمذي،والتفصيلات في كتب الفقه .

" الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ".

آداب الفرح و السرور

لا حصر للأشياء التي يسعد بها الإنسان،فالمال والثروة،والعلم والفضل،والمنصب والجاه،والزواج والأعياد والاحتفالات،وغيرها من المناسبات التي يظهر فيها الإنسان فرحه وسعادته،لكن عندما يزيد هذا الفرح عن حده فإنه يلامس حدود الفخر والغرور،وحين أظهر قارون فرحه في تفاخر لكثرة ماله وثروته قال لـه قومـه بامتعاض :

" إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين " (القصص : ٧٦) .

ولأن الإسلام يحب أن يخلق الاعتدال في العواطف،لذا نراه يقرر أن هذا النـوع من الفرح ما هو إلا ضعف أخلاقي في الإنسان :

" ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور،ولئن أذقناه نعماء بعـد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني،إنه لفرح فخور " (هود : ١٠) .

وبالتالي منع من هذا الفرح قائلا :

" ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور " (الحديد : ٢٣) .

ولكنه مع ذلك لم يخلق الكآبة في قلوب المسلمين،وإنما سمح لهم بالتعبير عـن فرحـهم بشكل معتدل،وأخبرهم بكيفية وماهية هذه الطرق المعتدلة .

عندما يحدث للإنسان ما يفرحه عليه أن يشكر الله أنه أنعم عليه بهذا الفرح مـن فضله وكرمه،وإن حدث له شيء يفرحه فرحا عظيما عليه أن يسجد شكرا لله حتى يعبر عن امتنانه لله بدلا من أن يغتر ويتفاخر في مثل هذه الأحوال،وكانت طريقة رسـول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك هي أنه عندما كان يقع له ما يفرحه فإنه كان يخر سـاجدا لله .

ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فـي طريقـه مـن مكـة إلـى المدينة،وحين وصل إلى مكان(غروراء)نزل من على مطيته،ودعا الله لفـترة،ثـم خـر ساجدا،وبعد ذلك دعا الله لفترة طويلة،ثم خر ساجدا لله،وهكذا فعل في المرة الثالثة،ثم قال لقد دعوت الله بالشفاعة لأمتي فقبل شفاعتي لثلث أمتي،ولهذا شكرت ربي وسجدت له،ثم رفعت رأسي والتمست الشفاعة لأمتي،فقبل الله شفاعتي لثلث آخر من أمتي،فشـكرت الله

وسجدت له،ثم التمست الشفاعة لأمتي،فقبل الله شفاعتي للثلث الأخير من أمتي،فشكرت الله وسجدت له " ([1]) .

وكان هذا هو أسلوب الصحابة رضوان الله عنهم،ولهذا عندما قبلت توبة سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه وبشر بذلك خر ساجدا،ويفترض أخلاقيا على باقي المسلمين في مثل هذه المواقع السارة أن يهنئوا أخاهم،ويشاركوه فرحه وسروره،ولهذا فإن الصحابة الكرام ذهبوا إلى سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه أفولجا وهنئوه بذلك ([2]) .

والإنسان يسعد بعودته من سفره إلى وطنه،في مثل هذه المناسبة يمكن دعوة الأصدقاء والأحباب حتى يشاركوه في فرحه،ولهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عاد من سفره ذات مرة إلى المدينة المنورة ذبح جملا أو بقرة وأطعم الناس([3])،ويصبح من الفرض على الآخرين أن يستقبلوا العائد من السفر حتى يعبروا له عن سعادتهم،ولهذا عندما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك خرج الناس حتى(ثنية الوداع)واستقبلوه،وكان الأطفال أيضا ضمن المستقبلين ([4]) .

---

[1] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في سجود الشكر .

حدثنا أحمد بن صالح،ثنا ابن أبي فديك،حدثني موسى بن يعقوب،عن ابن عثمان،قال أبو داود:وهو يحيى بن الحسن بن عثمان،عن أشعث بن إسحاق بن سعد،عن عامر بن سعد،عن أبيه قال :خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة نريد المدينة،فلما كنا قريبا من عزوز نزل ثم رفع يديه فدعا الله ساعة،ثم خر ساجدا فمكث طويلا،ثم قام فرفع يديه فدعا الله تعالى ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا،ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجدا،ذكره أحمد ثلاثا قال:إني سألت ربي،وشفعت لأمتي،فأعطاني ثلث أمتي،فخررت ساجدا شكرا لربي،ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي،فأعطاني ثلث أمتي،فخررت ساجدا لربي شكرا،ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي،فأعطاني الثلث الآخر،فخررت ساجدا لربي.

قال أبو داود: أشعث بن إسحاق أسقطه أحمد بن صالح حين حدثنا به فحدثني به عنه موسى بن سهل الرملي .

[2] البخاري – كتاب المغازي – حديث كعب بن مالك .

[3] أبو داود – كتاب الأطعمة – باب الإطعام عند القدوم من السفر .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة،قال:ثنا وكيع،عن شعبة،عن محارب بن دثار،عن جابر قال :لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة نحر جزورا أو بقرة.

[4] أبو داود – كتاب الجهاد – باب في التلقي .

وهناك مناسبات يتم فيها إظهار السرور بشكل عام وعلى الملأ مثل مناسبات الزواج,وقد سمح الإسلام بضرب الدفوف والطبول للتعبير عن الفرح في مثل هذه المواقع,حتى يعرف الجميع بها,ويعلم الجميع بأمر الزواج,ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:

" فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت " ([1]) .

يعني أن الفرق بين الزنا والنكاح هو إعلان الزواج بالدفوف والأناشيد حتى يعلم الجميع أن فلانا وفلانة تعاهدا على أن يعيشا زوجين,بينما الزنا يكون خفية حتى لا يعلم أحد به.

وحين تزوجت السيدة ربيع بنت معوذ بن عفراء ذهب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم,فغنت بعض الفتيات وهن يضربن الدفوف أشعارا يمدحن فيها أبناء قبيلة السيدة ربيع بنت معوذ الذين استشهدوا في غزوة بدر,ومن بين ما تغنوا به قولهن:"وفينا نبي يعلم ما في غد" فقال صلى الله عليه وسلم:دعكم من هذا,وغنوا ما كنتم تغنون([2]).

وذات مرة زوجت السيدة عائشة رضي الله عنها إحدى قريباتها,وودعتها فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة,أليست لديكم أغنية,فإن الأنصار يحبون الغناء,وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لماذا لم ترسلوا معها جارية تضرب الدف وتغني([3]).

---

[1] الترمذي – كتاب النكاح – باب ما جاء في إعلان النكاح .

حدثنا أحمد بن منيع.حدثنا هشيم.أخبرنا أبو بلج عن محمد بن حاطب الجمحي.قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فصل ما بين الحرام والحلال الدف والصوت.قال:وفي الباب عن عائشة وجابر و الربيع بنت معوذ.

قال أبو عيسى:حديث محمد بن حاطب حديث حسن.وأبو بلج اسمه يحيى بن أبي سليم,ويقال ابن سليم,ومحمد بن حاطب قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام صغير.

[2] البخاري – كتاب النكاح – باب ضرب الدف في النكاح و الوليمة .

حدثنا مسدد:حدثنا بشر بن المفضل:حدثنا خالد بن ذكوان قال:قالت الربيع بنت معوذ بن عفراء :جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بني علي,فجلس على فراشي كمجلسك مني,فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر,إذ قالت إحداهن:وفينا نبي يعلم ما في غد.فقال:(دعي هذه,وقولي بالذي كنت تقولين).

[3] البخاري – كتاب النكاح – باب النسوة يهدين المرأة إلى زوجها ودعائهن .

وذات مرة كانت هناك مناسبة زواج,وكان قرظة بن كعب وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنهما جالسين يستمعان إلى غناء الفتيات,في تلك الأثناء جاء التابعي عامر بن سعد رضي الله عنه فرآهما,واعترض عليهما قائلا أنتما صحابيان بدريان,وهذا يحدث أمامكم,فقالا له:إن شئت فاجلس واستمع أنت أيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمح لنا بذلك في مناسبات الزواج(النسائي-باب اللهو والغناء عند العرس).

وكان من بين تقاليد العرب في مناسبات الزواج أن يقولوا للعريس(بالرفاء والبنين),ثم يدعون له بالرفاهية والأولاد الذكور,ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم علم الناس هذا الدعاء بدلا مما كانوا يدعون به :

" بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير " ([1]) .

ويسن في الزواج دعوة الأصدقاء والأحباب,وهو ما نطلق عليه(وليمة),وفيها نحاول بقدر الإمكان إطعام الأصدقاء والأعزاء,وقد قال صلى الله عليه وسلم أولموا ولو بشاة([2]),وكان هو نفسه صلى الله عليه وسلم يطعم الناس الجبن والسمن والبلح([3]),وهكذا يمكن أن نهدي إلى الأصدقاء والأعزاء في زواجهم(النسائي-باب الهدية لمن عرس).

حدثنا الفضل بن يعقوب:حدثنا محمد بن سابق:حدثنا إسرائيل،عن هشام بن عروة،عن أبيه،عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم:(يا عائشة،ما كان معكم لهو؟إن الأنصار يعجبهم اللهو).

[1] أبو داود – كتاب النكاح – باب ما يقال للزوج .

حدثنا قتيبة بن سعيد،ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن سهيل،عن أبيه،عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفأ الإنسان إذا تزوج قال:بارك الله لك وبارك عليك،وجمع بينكما في خير.

[2] البخاري – كتاب النكاح – باب الوليمة و لو بشاة .

حدثنا علي:حدثنا سفيان قال:حدثني حميد أنه سمع أنسا رضي الله عنه قال:سأل النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف،وتزوج امرأة من الأنصار:(كم أصدقتها).قال:وزن نواة من ذهب.

وعن حميد:سمعت أنسا قال:لما قدموا المدينة،نزل المهاجرون على الأنصار،فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع،فقال:أقاسمك مالي،وأنزل لك عن إحدى امرأتي،قال:بارك الله لك في أهلك ومالك،فخرج إلى السوق فباع واشترى،فأصاب شيئا من أقط وسمن،فتزوج،فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(أولم ولو بشاة).

[3] النسائي – كتاب النكاح – باب البناء في السفر .

ولدى المسلمين مواقع ومناسبات أكبر من الزواج يظهرون فيها سعادتهم بشكل جماعي,وهي عيد الفطر وعيد الأضحى,وكان العرب في الجاهلية قد حددوا يومين في العام يحتفلون فيهما,فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قال كنتم تحتفلون في اليومين,والآن أبدلكما الله بيومين أفضل منهما,يعني عيد الفطر وعيد الأضحى([1]),ولا يحتفل في هذين اليومين بتخليد بعض المظاهر البعيدة عن التوحيد مثلما كانت تفعل الأمم المشركة مثل فصول ومواسم الحصاد وغيرها,لكن الإسلام جعل هذين اليومين للتعبير عن الفرح تخليدا لواقعتين عظيمتين,أما عيد الأضحى فتخليد لسعادة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبة وفتحها,وأما عيد الفطر فهو تخليد لظهور الإسلام ونزول القرآن .

ويسن في هذين اليومين ارتداء الملابس الجديدة الجيدة والتعطر تعبيرا عن الفرح والسعادة,ومن المستحب أيضا التغني بأغاني الفرح والسرور,وكذلك الألعاب المشروعة وغيرها,تقول السيدة عائشة كان عندي في يوم العيد جاريتان من الأنصار ليسا من محترفي الغناء,وكانتا تغنيان عندي بأشعار عن حرب(البعاث),وفي تلك الأثناء جاء سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال:أمزامير الشيطان في بيت رسول الله,لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:يا أبا بكر,لكل قوم عيد,وهذا يوم عيدنا([2]),بمعني أن الغناء في ذلك اليوم مباح([3]).

حدثنا محمد بن سلام:أخبرنا إسماعيل بن جعفر،عن حميد،عن أنس قال:أقام النبي صلى الله عليه وسلم بين خيبر والمدينة ثلاثا,يبنى عليه بصفية بنت حيي,فدعوت المسلمين إلى وليمته,فما كان فيها من خبز ولا لحم،أمر بالأنطاع فألقى فيها من التمر والأقط والسمن,فكانت وليمته,فقال المسلمون:إحدى أمهات المؤمنين،أو مما ملكت يمينه,فقالوا:إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين،إن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه,فلما ارتحل وطى لها خلفه,ومد الحجاب بينها وبين الناس.

[1] النسائي – كتاب صلاة العيدين .

أخبرنا علي بن حجر قال:حدثنا إسمعيل قال:حدثنا حميد عن أنس بن مالك قال:كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما,فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال:كان لهم يومان تلعبون فيهما وقد أبدلكم الله بهما خيرا منهما,يوم الفطر ويوم الأضحى.

[2] البخاري – باب سنة العيدين لأهل الإسلام .

حدثنا عبيد الله بن إسماعيل قال:حدثنا أبو أسامة،عن هشام،عن أبيه،عن عائشة رضي الله عنها قالت :دخل أبو بكر،وعندي جاريتان من جواري الأنصار,تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم

وكان الأحباش يقدمون عروضا عسكرية يوم العيد،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب ذلك،وذات مرة كان هؤلاء يقدمون عروضهم فسمح رسول الله صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضي الله عنها بمشاهدتها،وقال للأحباش ما يشجعهم ويخلق فيهم مزيدا من النشاط،ولما تعبت السيدة عائشة رضي الله عنها قال لها صلى الله عليه وسلم كفى؟،قالت نعم،فقال صلى الله عليه وسلم إذا اذهبوا([1]).

وكانت هذه الطريقة من التعبير عن الفرح والسرور تسمي(تقليس)،وتعني الضرب بالدفوف والغناء والتبارز بالسيف والرماح كنوع من اللعب،ويرى البعض أنها تعني أن يقف الأولاد والبنات على الطريق ويضربوا الدفوف ويتقافزون ويلعبون،وقد كان هذا النوع من التفريح في الأعياد منتشرا على عهد الرسالة النبوية بدرجة كبيرة،حتى أن الصحابة الكرام كانوا يعجبون إذا جاء يوم العيد ولم تكن فيه مظاهر التعبير عن الفرح هذه،ولهذا حضر سيدنا عياض الأشعري رضي الله عنه العيد ذات مرة في الأنبار،فقال:لماذا لا تقومون بالتقليس مثلما كان يفعل الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول سيدنا قيس بن سعد رضي الله عنه لقد رأيت في زمني هذا كل الأشياء التي كانت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى شيء واحد وهو(التقليس)الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم([3])،والحكمة من وراء السماح بهذه

بعاث،قالت:وليستا بمغنيتين،فقال أبو بكر:أمزامير الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم،وذلك في يوم عيد،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(يا أبا بكر،إن لكل قوم عيدا،وهذا عيدنا).

[1] لكن بشرط أن لا تبعد موضوعات هذا الغناء عن الأخلاق أو تخالف الدين .

[2] البخاري – باب الحراب و الدرق يوم العيد .

حدثنا أحمد قال:حدثنا ابن وهب قال:أخبرنا عمرو قال إن محمد بن عبد الرحمن الأسدي حدثه،عن عروة،عن عائشة قالت:دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث،فاضطجع على الفراش وحول وجهه،ودخل أبو بكر فانتهرني،وقال:مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم،فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال:(دعهما).فلما غفل غمزتهما فخرجتا.وكان يوم عيد،يلعب السودان بالدرق والحراب،فإما سألت النبي صلى الله عليه وسلم،وإما قال:(تشتهين تنظرين).فقلت:نعم،فأقامني وراءه،خدي على خده،وهو يقول:(دونكم يا بني أرفدة).حتى إذا مللت،قال:(حسبك).قلت:نعم،قال:(فاذهبي).

[3] ابن ماجه – كتاب الصلاة ، باب ما جاء في التقليس يوم العيد .

المظاهر من التعبير عن الفرح في العيدين هو أن الفطرة تقتضي أن تكون هناك بعض المناسبات الدينية والقومية في حياة الأمم على مر العام يسعد فيها الناس بلا تردد أو تحرج،ويعبر فيها حتى أكثر الناس جدية ووقارا عن فرحه وسعادته لفترة،ولهذا لا يجوز الصيام في العيدين،وقال صلى الله عليه وسلم إن هذه الأيام أيام طعام وشراب وملاطفة الأهل والأولاد وذكر الله ([1]) .

وقد حرص الإسلام أن لا يغفل القلب عن ذكر الله تعالى حتى في مواقع الفرح والسرور،ولهذا سن الإسلام صلاة ركعتي العيد،وأن نذهب إلى صلاة العيد من طريق ونحن نكبر الله،ونعود من طريق آخر مكبرين أيضا،حتى تظهر عظمة الإسلام وقوته،ويتحقق قوله تعالى :

" لتكبروا الله على ما هداكم " .

آداب الغم والأحزان

الفرح والحزن توأمان،ومثلما يخرج الإنسان في فرحه عن اعتداله،يخرج في حزنه كذلك عن اعتداله،وقد كانت لدى العرب في القديم طقوس عجيبة للمأتم و التعازي بسبب حبهم للفخر والغرور وجهالتهم وبربريتهم،فلا تذهب فكرة الفخر عنهم حتى بعد الموت،ولهذا ظهرت لديهم عدة طرق للتفاخر،أولها أن يكون مأتم الميت والحزن عليه بما يتطابق مع مكانته ودرجته،ولهذا عندما يموت السادة الكبار فإنهم كانوا يوصون أن يكون مأتمهم بما يتناسب مع مكانتهم وقدرهم،ويقول أحد الشعراء لزوجته :

إذا مت فابكني بما أنا أهل له ::: وشقي علي الجيب يا ابنة معبد .

وكان لطم الوجه وشق الجيب ونشر الشعور أمرا شائعا بين العرب في أحزانهم ومآتمهم،وكان الشعراء يعبرون عن هذا بفخر:

من كان مسرورا بمقتل مالك :: فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسرا يندبه :: يلطمن وجوههن بالأسحار .

وقد منع النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الطقوس منعا باتا،فقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لطم الخدود،وشق الجيوب،ودعا بدعاء الجاهلية"([2])،بمعنى أن هذا ليس من عمل أمتي .

---

[1] شرح معاني الآثار للطحاوي– صـ٤٢٩ ،وقد ترجمنا لفظ(بعال)هنا بملاطفة الأهل والعيال .

[2] الترمذي –كتاب الجنائز – باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سيدنا جعفر الطيار كثيرا، وحين جاء خبر استشهاده جاءت نساء عائلته تنوح فمنعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهن بالعودة لكنهن لم يمتثلن في المرة الأولى منعهم صلى الله عليه وسلم ثانية فلما لم يمتثلن بعد ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ضعوا في أفواههن التراب(١).

وكان مما يدخل في الفخر أيضا أن يكثر عدد الباكين على الميت، ولهذا كانوا يستدعون النساء من كل مكان ليشاركن في البكاء والنواح، وتدريجيا تحول هذا الأمر إلى تقليد، بمعنى أن تبكي نساء تلك القبيلة على ميت هذه القبيلة فتبكي نساء هذه القبيلة على ميت تلك القبيلة وتنوح عليه، وأصبح هذا الأمر ضروريا لا بد من القيام به، وذات مرة سألت امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما هو الأمر الذي لا ينبغي أن نخالفك فيه، فقال صلى الله عليه وسلم لا تنحن، فقالت عندما مات عمي جاءت نساء القبيلة الفلانية وبكين وعلي أن أرد هذا القرض، لكن النبي صلى الله عليه وسلم منعها من ذلك إلا أنه بعد كثرة التوسل سمح لها بسبب إصرارها، ولكن المرأة فهمت مقصد النبي صلى الله عليه وسلم وهدفه ولهذا لم تشارك بعدها في النواح على أحد أبدا(٢).

حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، حدثنا زبيد اليامي، عن إبراهيم، عن مسروق، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية).

[1] صحيح البخاري – كتاب الجنائز – باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن.

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب قال: سمعت يحيى قال: أخبرتني عمرة قالت: سمعت عائشة رضي الله عنها قالت: لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قتل ابن حارثة وجعفر وابن رواحة، جلس يعرف فيه الحزن، وأنا أنظر من صائر الباب شق الباب، فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر، وذكر بكاءهن، فأمره أن ينهاهن، فذهب، ثم أتاه الثانية لم يطعنه، فقال: (انههن). فأتاه الثالثة، قال: والله غلبننا يا رسول الله، فزعمت أنه قال: (فاحث في أفواههن التراب). فقلت: أرغم الله أنفك، لم تفعل ما أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناء.

[2] الترمذي – تفسير سورة الممتحنة.

حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يزيد بن عبد الله الشيباني، قال: سمعت شهر بن حوشب قال: حدثتنا أم سلمة الأنصارية قالت: قالت امرأة من النسوة: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: لا تنحن. قلت: يا رسول الله إن بني فلان قد أسعدوني على عمي ولا بد لي من قضائهن، فأبى علي، فأتيته مرارا فأذن لي في قضائهن، فلم أنح بعد على آخاتهن ولا غيره حتى الساعة، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري.

وكان من الرائج أيضا أنه عندما يموت أحد ينادي المنادي ليأت الناس بكثرة للمشاركة في الأحزان،وهو ما يطلقون عليه في العربية(نعي)،وقد منع منه النبي صلى الله عليه وسلم أيضا،وحين حضرت سيدنا حذيفة رضي الله عنه الوفاة(كان الأمر النبوي في اعتباره إلى درجة أنه)وصى أن:لا تخبروا أحدا بموتي،فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنع من إعلان الوفاة،وربما كان الإخبار بالوفاة داخل في الإعلان عنه"([1]).

وكان النائحون والباكون يمشون مع الجنازة ويشعل الناس البخور ويصحبونها،وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تشعل نار خلف الجنازة،وألا يغني خلفه،وذلك مثلما يفعل كفار الهند،وبالتالي لا يكون خلف الجنازة نار ولا غناء([2]).

وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشارك في جنازة،فأحضرت امرأة نارا،فزجرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشدة حتى هربت من المكان([3]).

وكانوا عندما يسيرون وراء الجنازة يخلعون رداءهم،ولا يبقى على أجسامهم سوى القميص،وذات مرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس على هذه الصورة فقال:أتسيرون على عادة الجاهلية،لوددت أن أدعو عليكم أن تتبدل صوركم،فالتحف الناس فورا بأرديتهم،ولم يفعل أحد مثل هذا بعدها أبدا ([4]) .

قال أبو عيسى:هذا حديث حسن وفيه عن أم عطية رضي الله عنها،قال عبد بن حميد:أم سلمة الأنصارية هي أسماء بنت يزيد بن السكن.

[1] الترمذي – كتاب الجنائز – باب كراهية النعي .

[2] باب الإسلام يهدم ما قبله – ص ١٩٩ .

حدثنا هارون بن عبد الله،ثنا عبد الصمد،وثنا ابن المثنى،ثنا أبو داود قالا:ثنا حرب يعني ابن شداد،ثنا يحيى،حدثني باب بن عمير،حدثني رجل من أهل المدينة عن أبيه،عن أبي هريرة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:لا تتبع الجنازة بصوت ولا نار.

قال أبو داود:زاد هارون ولا يمشى بين يديها.

[3] أبو داود–الجزء الثاني– باب في النار يتبع بها الميت،مع بذل المجهود في شرح أبي داود .

[4] أسد الغابة – الجزء الرابع – ص ٣٩٥ – مصر .

وقد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة الحداد،وقال لا يجوز لمؤمن أن يحد على أحد أكثر من ثلاثة أيام،إلا أنه أمر المرأة بالحداد على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام لا تلبس فيها ملابس ملونة،ولا تتعطر،ولا تتزين بحلي أو غيرها[1].

وليس بعيب أن تبكي العيون على عزيز مات،فهو أمر فطري،لكن الصراخ بشدة والنواح والندب كله ممنوع،وقد توعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من يفعله،وعندما مات ابنه إبراهيم ذرفت عيناه صلى الله عليه وسلم بعض الدموع فقال:إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون،لكن لا نقول إلا ما يرضي الرب"[2].

وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الميت يعذب بسبب بكاء أهله عليه،وهناك اختلاف بين الصحابة والمحدثين في مفهوم هذا الحديث،والذي اتفقوا عليه هو أن العرب كما سبق أن ذكرنا كانوا يوصون بمآتمهم فخرا وغرورا،والميت يعذب بقدر ما يبكي عليه طبقا لوصيته [3] .

والمواساة تقتضي أنه إذا مات أحد أن يرسل أصدقاؤه وأعزاؤه،وأهل الحي بالطعام إلى بيت هذا الميت،إذ يكون من الصعب على أهل الميت أن يطبخوا الطعام بسبب ما هم فيه من حزن،ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإرسال الطعام إلى بيت سيدنا جعفر رضي الله عنه عندما استشهد،وقال إن أهل بيته لن يتمكنوا من طبخ الطعام اليوم[4].

---

[1] ابن ماجه – كتاب الجنائز – باب ما جاء في النهي عن التسلب مع الجنائز .

[2] الترمذي–كتاب الطلاق–باب ما جاء في عدة المتوفى عنها زوجها،ومسلم–كتاب الفضائل–باب رحمته–صلى الله عليه وسلم–بالصبيان والعيال.

حدثنا الحسن بن عبد العزيز:حدثنا يحيى بن حسان:حدثنا قريش،هو ابن حيان،عن ثابت،عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:أبي سيف القين،وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام،فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه،ثم دخلنا عليه بعد ذلك،وإبراهيم يجود بنفسه،فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان،فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:وأنت يا رسول الله،فقال:(يا ابن عوف،إنها رحمة).ثم أتبعها بأخرى،فقال صلى الله عليه وسلم:(إن العين تدمع،وإن القلب يحزن،ولا نقول إلا ما يرضى ربنا،وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون).رواه موسى،عن سليمان بن المغيرة،عن ثابت،عن أنس رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم. .

[3] فتح الباري – الجزء الثالث – ص ١٢٢ .

[4] أبو داود – كتاب الجنائز – باب صنعة الطعام لأهل الميت .

ومن الفرض على المسلم أن يستعين بالله تعالى وبالصبر في المشكلات والمصائب,والصبر والدعاء هما تلك الوصفة التي قدمها القرآن للمسلمين :

" واستعينوا بالصبر والصلاة " (البقرة : ٤٥) .

ومقام الصبر مع بداية وقوع المصيبة,إذ لا يعني هذا أن يبكي وينوح في بداية المصيبة,ثم في النهاية يضطر إلى الصبر .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر لامرأة كانت تبكي على موت طفلها,لكنها لم تطعه,وحين علمت بعد ذلك أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته لتعتذر إليه,وذكرت الصبر فقال صلى الله عليه وسلم إنما الصبر عند الصدمة الأولي ([1]) .

ويقول الله تعالى إن المسلم الصالح هو ذلك الذي حين تحل به مصيبة يقول:"إنا لله وإنا إليه راجعون"قال تعالى:" قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون"(البقرة:١٥٦).ولهذا إذا سمع المسلم بخبر حزين فإنه يقول:"إنا لله وإنا إليه راجعون",وهو تصرف مستحسن .

وعقيدة القدر هي الدواء للأحزان,أي الإيمان بأن ما حدث إنما كان بأمر الله وبحكمة منه,وهذا هو تعليم الإسلام,وقد بين القرآن الكريم فائدة هذا التعليم فقال :

" لكيلا تأسوا على ما فاتكم " (الحديد : ٢٣) .

آداب متفرقة

هناك بعض الحالات الجسمانية للإنسان تنافي الأدب والتحضر والوقار,إذ يشمئز الإنسان حين يراها,مثلا فتح الفم عن آخره عند التثاؤب,فيخرج صوت من التأوه حينذاك,ويتغير شكل الوجه فيصير على هيئة مضحكة,وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في قوله:"التثاؤب من الشيطان,وحين يتأوه أحد وهو يتثاءب فإن الشيطان بداخله يضحك عليه,فإذا تثاءب أحدكم فليغلق فمه لأن الشيطان يتسلل

حدثنا مسدد,ثنا سفيان,حدثني جعفر بن خالد،عن أبيه،عن عبد الله بن جعفر,قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:اصنعوا لآل جعفر طعاما فإنه قد أتاهم أمر شغلهم.

[1] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء أن الله يحب العطاس و يكره التثاؤب .

حدثنا محمد بن بشار,حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة،عن ثابت البناني،عن أنس بن مالك،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الصبر عند الصدمة الأولى,قال:هذا حديث حسن صحيح.

منه"(1).وسيدنا شاه ولي الله الدهلوي يطبق الحقيقة والمجاز على هذا الأمر.أن الشيطان يدخل إلى الفم عن طريق ذبابة أو بعوضة يدخل فيها ويدخلها إلى حلق الإنسان(2).ولهذا قضى الإسلام على كل صور هذا المنظر غير المرغوب فيه :

١- الحكم الأول هو أن التثاؤب شيء يمكن إيقافه.ولذا ينبغي إيقافه كلما أمكن.ولا ينبغي إخراج أصوات من التأوه معه.وإذا لم يمكن ذلك ينبغي أن يضع يده على فمه .

٢- لم يأمر الإسلام بإيقاف العطس.على عكس التثاؤب.وقال بأن العطس من الله(3).ويكتب شراح الحديث السبب في ذلك قائلين أن العطس يكون بسبب انفتاح مسامات الجسم الصغيرة.وعدم الزيادة في الطعام.لكن التثاؤب ينتج عن ثقل البدن وكسله وتقاعسه.ولهذا فإن العطس يخلق النشاط في العمل.بينما يخلق التثاؤب الكسل.ويكتب شاه ولي الله الدهلوي قائلا:أن أبخرة المخ تخرج مع العطس.وبالتالي يصير العطس وسيلة للشفاء.ولهذا أمرت الشريعة من يعطس بأن يحمد الله ويقول"الحمد لله"ومن يسمعه يرد عليه قائلا:رحمك الله (4) .

٣- ولأن العطس شيء قبيح فإن الأنف قد يخرج منه شيء في بعض الأحيان.ولهذا يجب على العاطس أن يغطي فمه وأنفه بيده.أو بقطعة من القماش.وبهذا ينخفض صوت العطس أيضا.وكانت هذه هي طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم(5).

٤- رغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر بشيء بخصوص التكرع والتمطي.إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن وقوعهما على الملأ أمر ينافي التحضر.وجاء في بعض كتب الخصائص أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتثاءب أو يتمطى.وقد نقل الحافظ بن حجر في فتح الباري هذه الأحاديث ولم يضعفها أو يرفضها.وإنما أيد

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب ما جاء في التثاؤب .

حدثنا آدم بن أبي إياس:حدثنا ابن أبي ذئب:حدثنا سعيد المقبري،عن أبيه،عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم:(إن الله يحب العطاس،ويكره التثاؤب،فإذا عطس فحمد الله،فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته،وأما التثاؤب:فإنما هو من الشيطان،فليرده ما استطاع،فإذا قال:ها،ضحك منه الشيطان)

[2] حجة الله البالغة – أدب .

[3] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء في أن الله يحب العطاس و يكره التثاؤب .

[4] المرجع السابق .

[5] الترمذي – كتاب الاستئذان – باب ما جاء في كيف يشمت العاطس .

بعضها[1].على أية حال سواء كانت هذه الأحاديث صحيحة أم لا،لكن يثبت منها على الأقل أن الصورة التي يكون عليها الجسم عند التمطي قبيحة ولذا ينبغي تجنبها على الملأ .

وجاء في صحيح الترمذي فيما يتعلق بالتكرع أن شخصا تكرع أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أوقفوا تكرعكم،لأن الذين يأكلون في الدنيا كثيرا هم أكثر الناس جوعا في الآخرة،وقد جاء في هذا الحديث المنع من كثرة الطعام،وكراهة التكوع ضمنا .

حكمة الآداب و فلسفتها :

وقد علق شاه ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة على خصائص هذه الآداب تعليقا رائعا هذا خلاصته .

إن الأمم المتحضرة راعت بعض الآداب الفطرية في النواحي الاجتماعية كالطعام والشراب والجلوس والقيام والملبس والهيئة وغيرها،واتخذت في ذلك طرقا عدة :

١- بعض الناس وضعوا هذه المبادئ على قواعد الحكمة الفطرية،واختاروا الآداب المفيدة من وجهة النظر الطبية والمعتمدة على التجربة .

٢- بعض الناس أقام آدابه على الأصول الدينية،والتزم فيها بالدين .

٣- بعض الناس قام بتقليد ملوكهم وحكمائهم ورهبانهم .

وبالإضافة إلى ذلك هناك بعض الأصول والقواعد بعضها مفيد وبعضها ضار،وبعضها لا ينفع ولا يضر،فما كان منها مفيدا استحق أن يتبع،وما كان ضارا استحق أن يمنع،وما خلا من النفع و الضرر ظل مباحا،وبناءا على ما سبق فإن الشريعة ناقشت هذه الأمور،ووضعت في الاعتبار الأمور التالية :

١- في بعض الأحيان يشغل الالتزام بهذه الآداب عن ذكر الله،ويفقد القلب صفاؤه ونقاءه،ولهذا سنت الشريعة بعض الأدعية قبل هذه الآداب ومعها وبعدها مما يذكر بالله تعالى .

٢- بعض الأفعال والأشكال تتناسب مع طبائع الشياطين مثل المشي بحذاء في قدم وحدة،وتناول الطعام باليد اليسرى،ولهذا لم تجزها الشريعة،وعلى العكس من ذلك فإن

---

[1] أبو داود – كتاب الأدب – باب في العطس .

بعض الآداب تقرب من طبائع الملائكة مثل الدعاء عند دخول البيت وعند الخروج منه،ولهذا رغبت الشريعة فيها .

٣- بعض الأشياء مرهقة عمليا مثل النوم على سطح لا يحيط به سياج أو سور،أو ترك المصباح مشتعلا وقت النوم،ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إن الفئران تشعل النار في البيوت بفتيل المصابيح .

٤- هناك بعض الآداب يقصد بها مخالفة إسراف الأعاجم ولهوهم،مثل منع لبس الحرير والملابس التي عليها صور والأكل والشرب في أوان من ذهب و فضة .

٥- بعض الأشياء تنافي الوقار والتهذيب،وتدخل الإنسان في زمرة الهمجيين والبدو،ولذا منعها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يبقى الإنسان في طريق الاعتدال لا إفراط ولا تفريط (١) .

وبعد هذا التفصيل نعرف أن كل الآداب والأصول الاجتماعية والحياتية التي وضعتها الأمم المتحضرة لنفسها مرعية في أحكام الإسلام وتعاليم رسول الأنام صلى الله عليه وسلم،التي تنفع وتفيد دينيا وأخلاقيا وحضاريا وطبيا وغيرها،بمعنى أن إتباع هذه المبادئ والآداب الإسلامية يجعل الإنسان ينال رضا الله تعالى وإتباع رسوله صلى الله عليه وسلم كما يؤدي إلى طهارة الروح والجسم،ونظافة البيت ورفعة الأخلاق ورقي المجتمع والحفاظ على الصحة،ومعرفة مبادئ الأسلاف العظام التي جربوها،والوصول إلى طريق الحياة الصحيح،وهذه كلها عبارة عن مدنية الإسلام وحضارته .

وقد راعى الإسلام في هذه الآداب كلها نوعا من المرونة،بمعنى أن الأمور الأصلية والأساسية فيها أكد عليها القرآن والحديث النبوي بما يظهر أهميتها،لكن بعض هذه الآداب يراعى مصلحة الوقت وأحوال المجتمع العربي،ويمكن أن يتغير بتغير الزمان والمكان،ولهذا لم يتم التأكيد عليها بما يجعلها من مظاهر الإسلام،وليس هناك ومعيد لمن لا يتبعها(٢)،ولهذا تم توضيح فوائدها ومنافعها الدنيوية،وهذا يعني أنه إن حدث فيها تغيير بما لا يهدم هدفها الأصلي،وإنما يزيد من فائدتها فأمر مستحسن،مثلا الهدف من غسل الأيدي هو نظافتها،فإذا استخدمنا الصابون بدلا من الطين،واستخدمنا المناشف،والملاعق بدلا من الأيدي في الطعام،والسكين للذبح،والأطباق وغيرها فلا

---

١ حجة الله البالغة – صـ ٣٦٣ .

٢ عبر عنها فقهاؤنا بسنة الهدى وغيرها .

مانع.ويمكن اختيار طرق أخرى للنظافة والطهارة.وأن يلبس أهل كل بلد ما يناسبهم من الملابس ويأكلون الحلال.ويستعملون أدوات وأمتعة مناسبة للجلوس والنوم فأمر جائز تماما.ولكن بالرغم من هذا الجواز فإن هناك تقديرا للعشق والمحبة.بمعنى أن من أراد تقليد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر مهما تغير الزمان وتبدل فإنه يتعلق بالمحبوب.ويرى كل ما عليه المحبوب يستحق الحب والتقليد فهذا له .

نبع النور للحكمة الربانية

" يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " (البقرة : ١٢٩) .

أيها القارئ.لقد قرأت كل صفحة من صفحات الكتاب.وتعرفت على التعاليم الأخلاقية للإسلام.وعلى إرشادات النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاقية.ورأيت كم أن فلسفة الأخلاق في الإسلام مكتملة.وتعاليمها كاملة.ومبادئها الحضارية والمدنية رفيعة سامية.ونظرياتها في التربية راقية.وكل هذا تحقق على أرض الواقع على لسان النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي الإلهي.ولو لم يكن هناك دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم سوى هذا لكفانا أن نبينا صلى الله عليه وسلم المعلم الأمي وصل إلى حيث لم يستطع حكماء الزمان وفلاسفة العصور ومعلموا الأمم.وبدون أية معاونة إنسانية .

ورغم عظمة هذا الكلام في حد ذاته.لكن أعظم منه أنه صلى الله عليه وسلم علم تلك الأمة التي لم تكن تعرف شيئا عن الحضارة.وتجهل الأخلاق السامية ولا علم لها بالسليقة والشعور.علمها أرقى نظريات الأخلاق والتمدن وأحكم مبادئها.ليس هذا فقط.وإنما خلق في هذه الأمة بالتعليم والتربية جوهرا أخلاقيا أصاب الدنيا بالدهشة والحيرة حين رأوه.وهكذا استجاب الله لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.أو قل إن النبوة التي ظهرت بقدوم خاتم الأنبياء والمرسلين من نسل إسماعيل عليه السلام وهي"يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم"قد تحققت.يعني ذلك النبي الذي يعلم الأميين أحكام الله والأخلاق والحكمة.ويزكيهم بتربيتهم ويطهرهم بتعليمهم.هذا الذي طهرهم وزكاهم أحال الدنيا إلى ربيع دائم.صلى الله عليه وسلم.

الطامع في رحمة الله

سيد سليمان ندوي

٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٧ هـ .

الفهرست

رقم الإيداع : ٢١٩٧٤ / ٢٠٠٥